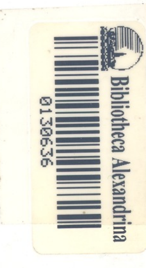
دكتور
سيد مصطفى سالم

الفتح العثمانى الأول لليمن
١٥٣٨ - ١٦٣٥



الطبعة الرابعة
١٩٩٢

الفتح العثماني الأول لليمن
١٥٣٨ - ١٦٣٥

دكتور
سيد مصطفى سالم

الفتح العثمانى الأول لليمن
١٥٣٨ - ١٦٣٥

الطبعة الرابعة
١٩٩٢

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الرابعة

من حين الى آخر تثور قضايا البحر الأحمر ، كما هو حادث الآن ، ويصبح البحر موضع اهتمام عالمى باعتباره أحد طرق التجارة العالمية وخاصة بعد شق قناة السويس فى شماله عام ١٨٦٩م . وبناء على ذلك تلتفت الأنظار الى اليمن ويصبح بؤرة إهتمام عالمى بدوره نظرا لوقوعه عند الطرف الجنوبى لهذا البحر ، واشرافه على مضيقه .

ويتناول هذا الكتاب صورة من صور هذا الاهتمام ، عندما تحركت مياهه وارتفعت أمواجه نتيجة اعتداء البرتغاليين على سواحله الجنوبية ، ونتيجة زحف العثمانيين إلى أجزائه الشمالية عندما هزموا المماليك ، وضموا ممتلكاتهم فى الشام ومصر والحجاز الى سيطرتهم عام١٥١٧ م . وتسابق الطرفان ـ العثمانى والبرتغالى ـ فى السيطرة على هذا البحر ، فكانت النتيجة أن دخل اليمن تحت حكم آل عثمان لمدة قرن من الزمان لضعف الأوضاع اليمنية حينذاك ، كما أسس العثمانيون « ولاية الحبش » على شاطئه الافريقى لإحكام غلق هذا البحر أمام السفن المعادية .

ومن هنا ترجع أهمية هذا الكتاب ، فانه يوضح أهمية (موقع) و (موضع) اليمن ـ أو بالأحرى (عبقرية المكان) ـ وأثرها على تاريخ اليمن فى مرحلة من مراحل تاريخه الطويل ، وهذا مما يدفعنى الى اعادة طبعه كلما نفذت نسخه .

وأخيرا فلا يسعنى إلا تقديم الشكر الى كل من اطلع عليه ، وأبدى ملاحظاته سواء كانت ايجابا أو سلبا ، وشجعنى على إعادة طبعه .

وبالله التوفيق

القاهرة فى صيف ١٩٩٢م .

دكتور

سيد مصطفى سالم

مقدمة الطبعة الثالثة

إن الكاتب أو المؤلف أو الباحث عندما ينتهى من وضع كتاب معين ويدفع به إلى المطبعة ، يبدأ فى تناسى هذا الكتاب ، وتضيع من ذهنه التفاصيل رويداً رويداً حتى أنه لايتبقى لديه إلا الفكرة العامة للكتاب ، هذا لانشغاله فى بحث أو كتاب آخر ، قد لايمت إلى الموضوع الأول بصلة ، بل وربما يتعارض معه لتطور فكر الكاتب وفهمه للأمور .

وإذا سلمنا بهذه البديهية ، فإنه يمكن القول بأنه لم يكن يخطر ببالى مطلقاً أننى سأقوم بإعادة طبع كتابى هذا للمرة الثالثة ، فأعود للانشغال به المرة بعد الأخرى . ويرجع ذلك إلى أمرين ، فمن ناحية نجد أنه من الثابت المعروف أن الكتابات الجادة الموضوعية ذات الصفة العلمية لم تعد تجد إقبالا ورواجاً كثيراً ، إذ لايقبل على قراءتها إلا القلة من المثقفين والمتخصصين . ومن ناحية أخرى ، فإنى أشعر دائماً بأنه ينتظرنى الكثير من الكتابات فى تاريخ اليمن ، وهو مما يحتاج منى كل ما أملك من وقت وجهد .

ورغم ذلك ، فقد لمست بعد أن عشت بين إخوانى اليمنيين عاماً بعد آخر ، أن هؤلاء يقبلون على قراءة كل ماهو جاد وموضوعى ، وأنهم يبذلون من اقتناء الكتب الثمينة كل غال ونفيس ، بل ولقد كانت من العادات المألوفة لدى متعلميهم إلى عهد قريب ، القيام بنسخ الكتب التى تروقهم للاحتفاظ بها ، ذلك لعدم وجود المطابع الكافية ، ولوصول الكتب إليهم بصعوبة بالغة .

وإزاء هذا كله ، فإنى أجد أن الواجب العلمى يقتضى إعادة طبع هذا الكتاب للمرة الثالثة ، لالقيمته العلمية فحسب ، بل لضغط الأخوة اليمنيين ، حتى يتمكن الجمهور العريض من الاطلاع عليه .

وأخيراً ، فإني لا أملك إلا أن أتقدم بجزيل الشكر إلى كل من شرفني بالاطلاع على هذا الكتاب ، وإلى كل من اهتم بإعادة طبعه لتعم فائدته ، ولتتسع قاعدة قرائه .

وبالله التوفيق ؟

دكتور
سيد مصطفى سالم

القاهرة ١٩٧٧/٨/١٨

مقدمة

الطبعة الثانية

ليس أمامى ما أقدم به هذه الطبعة إلا أن أقول كلمتين :

الكلمة الأولى ، هى تقديم الشكر لكل من إطلع على هذا الكتاب وأبدى لى بعض الملاحظات البناءة .

والكلمة الثانية ، هى أنى أرجو الله أن يوفقنى فى تقـــديم المزيد من الكتابات فى التاريخ اليمنى الحديث لإثراء المكتبة العربية بالأبحاث الجادة الموضوعية فى هذا المجال .

كذلك أقدم الشكر لمعهد البحوث والدراسات العربية لموافقته على إعادة طبع الكتاب ، فإنى مازلت أعتبر نفسى إبناً مخلصاً له ولرسالته .

وعـــلى الله التوفيق ؟

دكتور

سيد مصطفى سالم

القاهرة فى ١٩٧٤/٧/٣١

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

مدير جامعة عين شمس

إقبال الباحثين من خريجي الجامعات العربية — في مصر وسائر أنحاء العالم العربي — على البحث والكتابة في تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، هذا الإقبال ظاهرة تستحق التنويه وجديرة بالتشجيع .

وقد بدأت هذه الظاهرة منذ سنوات ، في مدرسة التاريخ الحديث بجامعة عين شمس ، وقد حرص المنتمون إلى هذه المدرسة من أساتذة وطلاب في أقسام الدراسات العليا ، من مصريين وغير مصريين على تغطية التاريخ الحديث والمعاصر ، بشتى أقطار العرب منذ أوائل القرن السادس عشر ، أى منذ الفتح العثماني للبلاد العربية ، وهو الحادث الخطير الذى يعده المؤرخون بداية التاريخ العربي الحديث . ونتيجة لهذا الاهتمام حظيت المكتبة التاريخية الحديثة بدراسات أصيلة متنوعة في موضوعات شتى من تاريخ العرب الحديث ، ومن حسن الحظ أن أكثر هذه الدراسات أتيح لها أن تنشر ، فقدمت بذلك أجل خدمة للبحث التاريخي .

وظاهرة أخرى تستحق التنويه والتشجيع أيضاً ، إقبال بعض الباحثين على التخصص في تاريخ أقطار بعينها من العالم العربي ، بدءوا برسالة الماجستير في موضوع أو عنصر معين في تاريخ بلد معين ، ثم اتبعوها برسالة الدكتوراه في موضوع آخر أو عنصر آخر من تاريخ هذا البلد ، ثم استمر اهتمامهم بهذا البلد فتوالت أبحاثهم في تاريخه .

وبفضل هذا الاهتمام تكون عندنا فريق من الباحثين فيزداد عدداً يوماً بعد آخر — نعدهم بحق — خبراء فى التاريخ العربى الحديث ، بفضل الدراسات التى وضعوها فى تاريخ العراق والخليج العربى واليمن والجنوب العربى وسوريا وليبيا والمغرب والسودان فضلا عما كتب فى تاريخ مصر الحديث ، وهو كثير .

من هؤلاء الباحثين من شباب مدرسة التاريخ الحديث بجامعة عين شمس ، الدكتور سيد مصطفى سالم المدرس بكلية الآداب بهذه الجامعة ، والدكتور سالم مثل طيب لهذه المجموعة من الباحثين أو الخبراء الذين أشرت إليهم ، فقد توفر الدكتور سالم منذ سنوات على دراسة التاريخ العربى الحديث ، وأشبع رغبته هذه بالالتحاق — بعد تخرجه من الجامعة — بمعهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة ، فى وقت كانت هذه الدراسات لا تزال وليدة بجامعاتنا ، وتتلمذ الدكتور سالم على أستاذنا المؤرخ الراحل محمد شفيق غربال ، وعندما بدأ يضع رسالته للماجستير اختار عصراً من عصور التاريخ اليمنى الحديث ، فألف فى تاريخ اليمن فى عصر الإمام يحيى حميد الدين (١٩٠٤ — ١٩٤٨) رسالة قيمة ، قام المعهد على طبعها ونشرها كان لى حظ تقديمها للقارىء العربى (القاهرة — ١٩٦٣) .

وظل سيد سالم مخلصاً لتاريخ اليمن لا يكاد يتحول عنه إلى شىء آخر ، ولكنى عرضت عليه أن يعود فى التاريخ اليمنى الحديث إلى الوراء ، إلى أصوله الأولى ، واستجاب سالم لاقتراحى ، ووقع اختيارنا على « الفتح العثمانى الأول لليمن ، ١٥٣٨ — ١٦٣٥ » ليكون موضوعاً للرسالة التى يتقدم بها لنيل درجة الدكتوراه فى التاريخ الحديث من جامعة عين شمس .

وأقبل الدكتور سالم على موضوعه وسط صعوبات كثيرة ، ولكن ساعده على تخطيها ما اكتسبه فى رسالته الأولى من خبرة بتاريخ اليمن

وأوضاعه وظروفه ، وما عرف عنه من جلد وإخلاص وأمانة فى البحث ، هذا إلى حب عجيب — بل عشق — لليمن وتاريخه !

وكانت ثمرة هذا كله هذا الكتاب الذى يسرنى أن أقدمه اليوم إلى جمهور القارئين ، وخاصة المهتمين بتاريخ العرب الحديث .

واليمن — وخاصة فى الفترة التى أرخ لها الدكتور سيد سالم — لم يكن مقطوع الصلة بالأحداث الكبرى التى كانت تجرى فى العالم آنذاك ، فاليمن بحكم موقعه الجغرافى — يقع على طريق التجارة الرئيسى بين الشرق والغرب ، وتبعاً لذلك قام تجار اليمن بدور بارز فى هذه التجارة فجابوا البحار وعرفوا الأمصار ، وبحكم هذا أيضاً إهتمت باليمن قوى خارجية ، كان أهمها فى العصور الوسطى — مصر وهى أقوى دولة إسلامية تقع على هذا الطريق فى تلك العصور . وأملت هذه الظروف على مصر فى العصور الوسطى أن تخطط لنفسها سياسة معينة فى البحر الأحمر ، والبحار الشرقية ، هدفها تأمين المسالك وفتحها للتجارة، فعملت مصر على أن تقيم «سلاماً مصرياً» و«إسلامياً» فى البحر الأحمر ، ينتظم البلاد الإسلامية المطلة على هذا البحر شرقه وغربه . وإذا لم تكن هذه السياسة قد اقتضت أن تحكم مصر هذه الأصقاع حكماً مباشراً ، فلا أقل من بسط النفوذ واصطناع الأعوان ، وإظهار القوة من وقت لآخر . هكذا فعلت مصر فى الحجاز واليمن وبلاد الحبش . وعندما نقول اليمن فإننا نقصد (يمن) تلك الأيام ، أو اليمن الكبرى ، شماله وجنوبه ، أما إمارات الجنوب اليمنى — التى تكون اليوم جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية — فكانت لا تزال جزءاً من اليمن ، وتنتظر القرن الثامن عشر لتكون لنفسها كيانات منفصلة عن الوطن الأم .

وهكذا يبدأ الدكتور سالم دراسته بفصل من أمتع فصول الحرب والسياسة بين الشرق والغرب ، اشتركت فيها إلى جانب القوى اليمنية نفسها

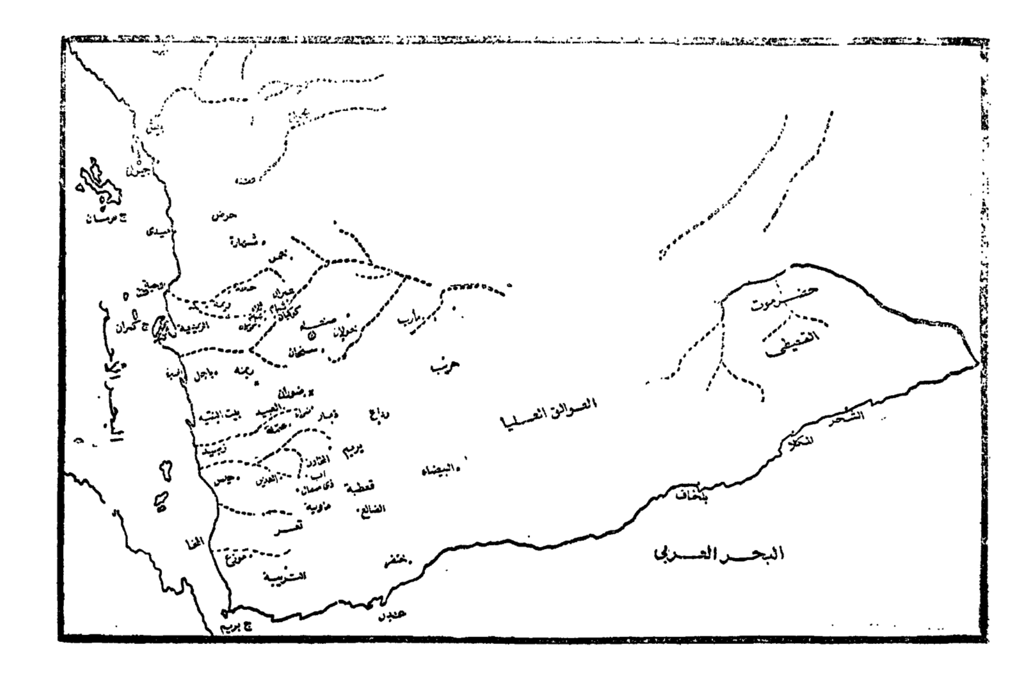
— مصر والهند والبرتغال ثم الدولة العثمانية ، عندما تقدمت لترث الإمبراطورية المصرية المملوكية — ثم أخذت القوى المتصارعة فى اليمن تصفى بعضها بعضا ، حتى لم يبق منها سوى قوتين ، الإمامة الزيدية وقد تفردت بالسلطان فى داخل اليمن ، والقوة العثمانية تحارب وتحكم ، منفردة أحياناً ، ومتعاونة مع بعض القوى المحلية المنافسة أحيانا أخرى .

وهكذا وقف العرب والترك — فى اليمن — لأول مرة وجهاً لوجه ، وتزعمت الإمامة الزيدية — أو فرع منها — الثورة الوطنية المسلحة ، فكان اليمن أول بلد عربى طـــرد الجند العثمانيين من أرضه وحكم نفسه مستقلا (١٦٣٥ م) .

وإلى هنا وقف الدكتور سـالم فى بحثه تاركاً اليمن وحده يخوض معاركه الداخلية ومنازعاته القبلية ، فانقسمت البلاد ، وظهرت الكيانات المستقلة ، وانزوى اليمن فى عقر داره مبتعداً عن أحداث التاريخ الكبرى ، حتى جاء القرن التاسع عشر ليشهد عودة الحركة والنشاط فى هذا الجزء من العـالم الذى لم يفقد — مع الزمن — أهميته ، فعادت مصر فى عهد محمد على — إلى رسم « سياسة بحر أحمر » ، أو إلى سياسة « سلام مصرى أو إسلامى » تنتظم أقطاره من الشرق ومن الغرب ، ولكن الاستعمار البريطانى كان لهذه السياسة بالمرصاد ، وعلى يديه كانت نهايتها .

ولكن هذه قصة أخرى ، لعل الدكتور سيد سـالم يتوفر على بحثها من جديد وبذلك يتم على يديه كتابة تاريخ اليمن فى العصور الحديثة .

القاهرة — ١٩٦٩ أحمد عزت عبد الكريم



حرض
شهارة
حجة
صعدة
جيزان
عمران
كوكبان
صنعاء
خولان
مأرب
سنحان
الزيدية
الحديدة
ج كمران
ج فرسان
بيت الفقيه
ذمار
رداع
يريم
زبيد
إب
ذي سفال
جبلة
العدين
قعطبة
البيضاء
الضالع
تعز
المخا
موزع
الحجرية
أبين
عدن
ج بريم
حريب
العوالق العليا
حضرموت
القعيطي
الشحر
المكلا
بلحاف
البحر العربي
البحر الأحمر

مقدمة الطبعة الأولى

ترجع علاقتى بتاريخ اليمن الحديث إلى سنوات عديدة منذ بدأت أكتب رسالة الماجستير تحت إشراف أستاذنا الكبير المرحوم محمد شفيق غربال ، التى عالجت فيها تاريخ اليمن فى النصف الأول من القرن العشرين ، والتى نشرت ضمن مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية تحت عنوان « تكوين اليمن الحديث ، ١٩٠٤ — ١٩٤٨ » وكنت أرغب فى أن أواصل دراسة تاريخ اليمن بعد سنة ١٩٤٨ حتى قيام الجمهورية اليمنية سنة ١٩٦٢ ، وذلك تحت عنوان « تطور الحركة الوطنية فى اليمن حتى قيام الثورة » ، ولكن أستاذى المشرف الدكتور أحمد عزت عبد الكريم آثر - لاعتبارات علمية ومنهجية - أن أعود زمنياً إلى بداية تاريخ اليمن الحديث - أى إلى القرن السادس عشر الميلادى - حتى أقف على الأصول التاريخية لأوضاع اليمن الحديث والمعاصر ، ومن ثم فقد رأى سيادته أن أدرس موضوع « الفتح العثمانى الأول لليمن ١٥٣٨ — ١٦٣٥ » لأنه يحمل بين طياته الكثير من العوامل التى أثرت فى تاريخ اليمن الحديث حتى قيام ثورة ١٩٦٢ ، فحمدت لأستاذى المشرف هذا الاختيار ، لأنه بهذا جنبنى المزالق التى تقترن بدراسة الموضوعات المعاصرة كهذا الموضوع الذى سبق اختياره ثم عدلت عنه ، كما أتاح لى فرصة دراسة علاقة العثمانيين بالعالم العربى منذ دخولهم إليه فى بداية القرن السادس عشر الميلادى .

ومن ناحية أخرى فقد تمكنت من الاتصال بتراثنا الثقافى العريض الذى لم ينشر بعد ، إذ قادتنى هذه الدراسة إلى التعرف على المخطوطات العربية وأنواعها وأهميتها ، وكيفية الاستعانة بها ، إلى غير ذلك مما لم يتسن لى الإحاطة به من قبل . وفى هذا المجال تجدر الإشارة إلى أمر هام كان له أثره فى تيسير ما يعترض الباحث من صعوبات إزاء الاطلاع على هذا النوع من

المراجع وهو المخطوطات، كما كان له أثره كذلك فى تيسير دراسة تلك الفترة الزمنية التى تسبق فترة موضوع رسالة الماجستير بما يزيد عن القرنين ، ذلك أن أستاذى الدكتور أحمد عزت عبد الكريم طلب إلى قبل تسجيل الموضوع الحالى، أن أقوم بنشر وتحقيق مخطوطة «البرق اليمانى فى الفتح العثمانى» لمؤلفها قطب الدين النهروالى تحت إشراف سيادته فساعدنى القيام بلسخها على التعرف على المخطوطات من ناحية، وعلى ملامح موضوع الرسالة من ناحية أخرى لاتصال هذه المخطوطة بالموضوع مباشرة.

ولم تكن معالجة هذا الموضوع بالأمر السهل الهين إذ واجهت عدة صعوبات يرجع بعضها إلى الموضوع نفسه ، كما يرجع بعضها الآخـــر إلى المراجع. ولم يكن ثمة مفر من التغلب على هذه الصعاب حتى يتم إخراج هذا البحث فى صورته الأخيرة . وتتمثل الصعوبات الخاصة بالموضوع نفسه فى إمتداده الزمنى الذى يقارب المائة عام . ومثل هذه الموضوعات تحتاج إلى منهج خاص، وإلى معالجة خاصة ، إذ لابد من تقسيمه إلى أجزاء يشمل كل منها مرحلة زمنية قصيرة نسبياً يمكن دراستها بشىء من الوضوح والتعمق. وفى نفس الوقت ، فقد اقتضى الأمر دراسة التطورات السياسية المتعاقبة فى ترتيب زمنى تقايدى تعمل فى النهاية على توضيح الخطوط الرئيسية لأحداث الفتح حتى تم إخراج العثمانيين من اليمن . غير أنه لم يكن من السهل دراسة هذه التطورات ومراحلها الزمنية فى إطار جامد جاف ، بل كان لابد من الاستعانة بالنواحى الطبيعية والاجتماعية فى اليمن لتساعد على فهم الأحداث وعلى تفسيرها وتحليلها وذلك كما اتضح فى خلال الفصول نفسها التى تتناول المراحل السياسية المتتالية . ومن الصعوبات التى تتعلق بمعالجة هذا النوع من الموضوعات كذلك ، أنها كثيراً ما تحتوى على عدة موضوعات أو نقاط رئيسية تحتاج كل منها إلى عناية خاصة بدراستها ومعالجتها وذلك دون أن

تؤدى هذه العناية إلى إبراز أو تضخيم موضوع على حساب الآخر . وقد تأكد هذا عند كتابة موضوع الرسالة ، فقد وجدت نفسى على سبيل المثال أمام موضوعات رئيسية ثلاثة ، أولها دخول العثمانيين إلى اليمن والظروف التى أحاطت به والعوامل التى أدت إليه ، وثانيها التطورات الداخلية فى اليمن فى أثناء سيطرة العثمانيين عليه حتى خروجهم منه ، وثالثها العوامل الطبيعية والاجتماعية فى اليمن وتأثيرها أو تأثرها بأحداث الفتح العثمانى . وإزاء هذا كله كان لابد من الجمع بين الحرص على التعمق فى دراسة كل موضوع على حدة ، وبين المحافظة على التناسق العام لموضوع الرسالة .

أما الصعوبات الخاصة بالمراجع فتبدو واضحة فى اختلاف أنواعها من ناحية ، وفى تنوع اهتماماتها من ناحية أخرى ، وإن يكن هذا عامل قوة فى هذه المراجع إذا جاز لنا أن نقوم بتقييمها فى هذا المجال . فمجموعة المراجع — سواء العربية أو غير العربية — تضم القديم الذى عاصر موضوع الرسالة ، كما تضم كتب المحدثين ، وكلا النوعين يحتاج إلى نظرة خاصة عند الرجوع إليه والأخذ منه . فالمراجع القديمة التى عاصرت الأحداث تميزت بأصالتها وغزارة مادتها وقربها من تلك الأحداث ، غير أن هذا لا ينفى اشتمالها على كثير من التفصيلات المطولة والآراء المنحازة ، والاضطراب والتناقض فى مادتها . وهذا التناقض بين إيجابيات هذا النوع من المراجع وبين سلبياته — أى بين حسناته وسيئاته — كان يحملنى على التريث والحذر عند استخراج المادة التاريخية اللازمة ، كما كان يلزمنى القيام بتمحيص هذه المادة ومقارنتها بعضها ببعض — وذلك فى بطء وترو شديدين — حتى أستطيع فى نهاية الأمر أن أرسم خطوطاً مستقيمة لأجزاء الرسالة ، كما كان لكتب المحدثين كذلك حسناتها وسيئاتها ، فمن حسناتها أنها أكثر تنظيماً ودقة من كتب الأقدمين ، كما أنها عادة تقدم تفسيرات وتحليلات قيمة ، غير أن هذه الكتب تقصر عن تقديم المادة التاريخية الكافية ، بل وتميل إلى تقديم دراساتها بوجهة نظر

خاصة قد تكون مغرضة فى كثير من الأحيان مما كان يدفعنى إلى الوقوف أمامها بحذر وتيقظ عند الرجوع إليها . وبالإضافة إلى الفروق المختلفة بين مراجع الرسالة فإن مؤلفيها ينتسبون الى جنسيات مختلفة ، ولذلك فقد كان لكل منهم نافذته الخاصة — كما يقال — التى ينظر منها إلى الأحداث ، فهناك العربى — اليمنى وغير اليمنى — وهناك التركى والبرتغالى أو غيره من أجناس أوربا المختلفة . وفضــلا عن أنه كان لأبناء كل جنس من هذه الجنسيات وجهة نظره الخاصة ، فقد وجد الخلاف كذلك بين أبناء الجنس الواحد . ويتضح ذلك إذا نظرنا إلى الخلافات التى ظهــرت بين مؤلفى المخطوطات التى رجعنا إليها والتى تحدثنا عنها بشىء من التفصيل فى نهاية الرسالة . كذلك رأينا المؤرخين والكتاب الأتراك يختلفون فيما بينهم حول تقدير وتفسير الأحداث أو أعمال بعض الولاة فى اليمن أو غير ذلك ، إذ بالغ بعض هؤلاء المؤلفين فى مدح أعمال بعض الولاة بينما هاجم آخرون — وخاصة المحدثون منهم — هذه الأعمال نفسها ، ونقدوا بعض تصرفات العثمانيين فى أثناء فتحهم الأول لليمن .

ولا شك فى أن اختلاف وجهات النظر بين المؤرخين والكتاب من الجنسيات المختلفة أو بين أبناء الجنسية الواحدة ، إلى جانب الصعوبات الأخرى الخاصة بمراجع الرسالة من حيث طبيعتها أو لغتها وأسلوبها أو مدى تحيزها أو غير ذلك ، لا شك أن هذا كله كان مما يزيد من الصعوبات الخاصة بهذه المراجع ، ولذلك أفردت حديثاً خاصاً بها فى نهاية الرسالة .

وإزاء الصعوبات الخاصة بالموضوع أو بالمراجع ، وأمام الرغبة فى التمسك بعنوان الرسالة نفسه دون الخضوع للمادة الوفيرة لمراجع البحث ،

وهى التى سيطرت عليها مادة المخطوطات التى تعتبر العمود الفقرى للرسالة ، إزاء هذا كله فقد وجدت مشقة كبيرة فى تحديد مسيرتى لكتابة موضوع «الفتح العثمانى الأول لليمن» . وأول صور هذه المشقة هى كيفية التخلص من سطوة المادة التاريخية التى جمعتها والسيطرة عليها بالتالى، إذ كانت هذه المادة — على غزارتها ووفرتها — مضطربة متناقضة مع بعضها البعض فى كثير من الأحيان ، كما كانت متوفرة تزيد على الحاجة فى بعض النواحى ونادرة شحيحة فى نواح أخرى ، ولذلك كان على أن أقاوم سيطرة هذه المادة ذات الطبيعة الخاصة حتى لا أخوض فى تفصيلات لا حاجة إليها تنال من وحدة الموضوع وتناسقه ، وحتى لا تتضخم بعض نقاط هذا الموضوع على حساب البعض الآخر . وصورة أخرى من صور المشقة التى واجهتها تتجلى فى تخطيط هذه الرسالة ، واختيار أنسب المناهج فى معالجة نواحيها حتى تم عرضها بالصورة التى هى عليها الآن ، وتحددت نقطة بداية التغلب على هذه المشقة فى اختيار العمود الفقرى للرسالة ، أو بالأحرى الخط الرئيسى الذى يربط بين أجزائها ، وقد رأيت أن يكون هذا الخط هو : فتح العثمانيين لليمن حتى خروجهم منه . وغلف هذا الخط الرئيسى وتفرع منه فى نفس الوقت النقاط المختلفة التى استغرقت فصول الرسالة ، والتى شكلت صورتها فى نهاية الأمر . وتمثلت هذه النقاط فى : الظروف العامة واليمنية معاً التى أدت إلى الفتح العثمانى لليمن والتى أحاطت به ، ومحاولات العثمانيين للسيطرة على اليمن وما واجههم من مشكلات ، ثم الأوضاع اليمنية القائمة حينذاك من طبيعية واجتماعية وسياسية، وموقف العثمانيين منها ، سواء للتغلب عليها أو للتكيف معها أو حتى للخضوع لها ، أى دراسة مراحل صراع العثمانيين مع القوى اليمنية الطبيعية والبشرية من أجل السيطرة على اليمن والبقاء به ، وذلك منذ فتحهم له حتى خروجهم منه . وتفرع من هذا الخط أيضاً ، وأعان على توضيحه فى نفس الوقت، تقديم دراسة خاصة لأوجه النشاط العثمانى فى أثناء وجود الترك فى اليمن ، من

الناحية البحرية ضد البرتغاليين ، أو فى داخل اليمن وذلك فى النواحى الإدارية والمالية والاجتماعية .

ولقد كنت أشعر أحياناً كثيرة باليأس الشديد من التغلب على صعوبات البحث لولا تشجيع أستاذى المشرف وتوجيهه لى .

وكيفما كان الأمر ، فقد قسمت الرسالة إلى تمهيد طويل وتسعة فصول ، وقد خصصت التمهيد لدراسة الأوضاع الطبيعية والبشرية والتاريخية فى اليمن عند بداية القرن السادس عشر ، أى قبيل الفتح العثمانى لليمن وذلك حتى أوضحت الظروف والعوامل التى واجهت العثمانيين فى اليمن بعد فتحهم له . وقد جمعت فى هذا التمهيد الكثير من الأمور التى كنت فى حاجة إليها لتفسير نقاط البحث وتحايل الكثير من أحداثه ، وذلك ، حتى لا أعود إلى ذكر هذه الأمور خلال فصول الرسالة مماقد يشوه العرض أو يؤدى إلى ذكر تفصيلات فى غير موضعها ، ولذلك كنت أكتفى فى خلال هذه الفصول بالإشارة فقط إلى ماجاء بالتمهيد . وكان نتيجة طبيعية لهذا التمهيد أن كتبت فصلا خاصاً فى نهاية الرسالة ـ هو الفصل التاسع ـ أوضح فيه موقف العثمانيين من الأوضاع اليمنية التى تناولتها فى التمهيد والتى واجهتهم هناك ، وذلك لكى أبرز به مدى استجابتهم لهذه الأوضاع ، ونوع أعمالهم الإدارية والمالية وغيرها فى أثناء وجودهم باليمن . وقد جعلت الفصل الأول والثانى خاصين بدراسة الكشوف البحرية البرتغالية وأثرها فى سقوط ساحل تهامة اليمنى فى أيدى المماليك . وفى سقوط الدولة المملوكيـــة نفسها فى أيدى العثمانيين . ومن ثم فقد درست هنا العوامل التى دفعت العثمانيين إلى الزحف نحو السواحل اليمنية فى أثناء قيامهم بالجهود البحرية فى البحر الأحمر وفى الهند لمواجهة الخطر البرتغالى على حدود امبراطوريتهم الجنوبية التى كانت قد امتدت حينذاك إلى أغلب البلاد العربية . ونتيجة لذلك فقد كان من الطبيعى أن أفرد فصلا خاصاً ـــ وهو الفصل الثامن ـــ لدراسة نشاط العثمانيين فى

البحار العربية الجنوبية فى أثناء وجودهم فى اليمن . وعندئذ لم يبق أمامى سوى دراسة وجود العثمانيين لفرض سيطرتهم على أقاليم اليمن المختلفة بفتحهم لباقى أقاليمه بعد أن وضعوا أقدامهم على سواحله ومحاولتهم البقاء به كلما أمكنهم ذلك حتى اضطروا إلى الخروج منه. وقد استغرقت هذه الدراسة خمسة فصول، من الفصل الثالث إلى الفصل السابع ، درست خلالها - فى مراحل زمنية متتالية - النزاع العثمانى اليمنى من أجل السيطرة والبقاء ، سواء فى فترات قوة العثمانيين أو ضعفهم ، وذلك مع توضيح موقف القوى اليمنية المختلفة من هذا النزاع ، وكيف أن هذا النزاع - مع تضافر عدة عوامل أخرى - هو الذى أدى إلى نمو الإمامة الزيدية فى اليمن وازدياد قوتها ، حتى تمكنت فى النهاية من إخراج العثمانيين من اليمن واستلامه من أيديهم .

وقد حرصت فى دراسة هذه الفصول الخمسة على ألا أقف عند ذكر الأحداث السياسية وتطورها ، بل تعمدت تفسيرها وتحليلها باستمرار ، مع ربطها بالعوامل الطبيعية والاجتماعية التى أثرت فى مسيرتها ، أو تأثرت بها مما كان يسهم فى توضيح هذه الأحداث وتفسير تطورها . ومن ناحية أخرى ، كنت أجد نفسى أحياناً مضطراً إلى تفصيل بعض الأحداث والوقوف عندها قليلا ، وقد كان ذلك راجعاً إلى طبيعة موضوع الرسالة من ناحية ، وإلى أنه كان من الموضوعات التى لم تدرس من قبل دراسة علمية حديثة ، ولذلك كان على أن اهتم إلى حد كبير بعرض الأحداث السياسية لهذه الفترة الهامة من تاريخ اليمن الحديث ، وذلك قبل أن أقوم - أو يقوم غيرى - بعد ذلك بدراسة بعض نقاط هذا الموضوع التى عساى أن أكون قد قصرت فى دراستها هنا بعض الشىء .

وإنى لايسعنى هنا إلا أن أقدم مخلصاً جزيل الشكر إلى أستاذى المشرف الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم لما غمرنى به من أفضال كثيرة ،

فقد شرفنى بتسجيل بحثى بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة عين شمس للحصول على درجة الدكتوراه تحت إشراف سيادته، وأعانني فى الحصول على منحة التفرغ لمدة عامين من المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، كذلك يرجع إليه الفضل فى حصولى على المساعدات القيمة التى قدمها لى معهد البحوث والدراسات العربية بجامعة الدول العربية. كما أشكر سيادته على إرشاداته وتوجيهاته العلمية السديدة، فرغم مشاغله الجمة فقد حرص على أن يخصص لى الكثير من وقت سيادته بالكلية وبمنزله حتى تمت مراجعة فصول الرسالة الواحد تلو الآخر، وذلك فى أستاذية رفيعة وأبوية حانية.

وأتقدم بالشكر كذلك إلى السيد الأستاذ الدكتور مدير معهد البحوث والدراسات العربية والسيد الأستاذ رئيس قسم الدراسات التاريخية والجغرافية به، كذلك باقى أساتذة المعهد ورجال إدارته لما قدموه لى من مساعدات كبيرة طوال مدة إعداد هذه الرسالة.

وأتقدم بالتحية إلى روح المرحوم الأستاذ فؤاد السيد رئيس قسم المخطوطات سابقاً بدار الكتب المصرية بالقاهرة، كما أتقدم بالشكر إلى صديقى الأستاذ أكمل الدين إحسان الذى قام بترجمة ما احتجت إليه من اللغة التركية إلى العربية.

ولا يفوتنى أن أتقدم بالشكر الى السادة الأساتذة عضوى لجنة المناقشات لتفضلهما بقراءة رسالتى ومناقشتى فيها، وهما السيد الأستاذ الدكتور عبد الحميد البطريق والسيد الأستاذ الدكتور محمد رفعت رمضان.

وأخيراً فإنى أرجو أن أكون قد تمكنت من خدمة تاريخنا العربى الحديث بهذا البحث المتواضع.

تمهيـــد

أوضاع اليمن عند بداية القرن السادس عشر الميلادى

رغم أن القرن السادس عشر الميلادى (العاشر الهجرى) كان يحمل معه فى اليمن ملامح العصور الوسطى الإسلامية ، إلا أن ما حدث هناك فى هذا القــــرن جعله يختلف عن القرون السابقة ، وجعله يترك آثاره بدوره على القرون التالية حتى تاريخنا المعاصر . فعند بداية هذا القرن كان البرتغاليون قد عرفوا الطريق البحرى المباشر إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، وبدءوا يحولون تجارة الشرق الى هذا الطريق الجديد . وتصدع لهذا السبب البناء الاقتصادى الذى عرفه اليمن منذ فجر تاريخه ، والذى كان يعتمد ـــ الى جانب الثروة الزراعية ـــ على اشتغال أهالى اليمن بالتجارة العالمية بين الشرق والغرب . وأدى هذا الانقلاب فى طرق التجارة العالمية وما ترتب عليه من صراع بين القوى الأوربية الجديدة وبين القوى العربية والإسلامية الى انهيار النظام السياسى القائم فى اليمن حينئذ . فشهد هذا القرن سقوط آخر الأسر السلية التى كانت تتولى الحكم فى اليمن خلال العصور الوسطى ، كما شهد انتقال السيادة فى اليمن من أيدى الجنوبيين السهليين الى أيدى الشماليين الجبليين ، واستمر هؤلاء السادة الجدد ـــ وهم الأئمة الزيديون وأتباعهم ـــ يقبضون على أزمة الأمور فى اليمن حتى قامت ثورة سبتمبر سنة ١٩٦٢ .

وهكذا كان الاضطراب الذى أصاب البناء الاقتصادى والاجتماعى فى اليمن ، وما نتج عن ذلك من أوضاع سياسية جديدة ، هو الذى جعل من القرن السادس عشر الميلادى بداية لتاريخ اليمن الحديث . ولذلك يجدر بنا أن نقدم

لموضوع البحث وهو « الفتح العثمانى الأول لليمن » بدراسة لأوضاع اليمن الطبيعية والاجتماعية والتاريخية عند بداية هذا القـــرن حتى تتضح بجلاء الأحداث والتغييرات التى شاهدها هذا القرن والتى أصبحت منذ ذلك الحين الأصول التاريخية لتاريخ اليمن الحديث .

يحتل اليمن[١] الركن الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة العربية ، ويقع بين خطى عرض ١٢ — ١٨ شمالا ، وتحيط به المسطحات المائية العريضة ، فيحده البحر الأحمر غرباً والمحيط الهندى جنوباً . ويغلب على تضاريس اليمن الطابع الجبلى، وهى تنقسم الى ثلاث أقسام تمتد موازية للبحر الأحمر تقريباً . والقسم الأول هو سهل ساحلى يمتد من حلى بن يعقوب شمالا الى باب المندب جنوباً ويعرف باسم تهامة اليمن ، ويتراوح عرض تهامة بين ٣٠ ـ ٤٠ كيلو متراً ، وتأخذ فى الارتفاع كلما اتجهنا الى الداخل ، فيصل ارتفاعها الى ١٥٠ متراً فوق سطح البحر عند سفوح الجبال . والمنطقة حارة الطقس لقربها من خط الاستواء ولقلة أمطارها ، كما تكثر بها الرطوبة طوال فصول السنة . وتقل النباتات الطبيعية بتهامة ، وأحياناً يكثر النخيل ببعض أجزائها . وتعتبر تهامة أهم منطقة زراعية متصلة فى اليمن ، وتجود بها زراعة التبغ والقطن واشتهرت مدينة « زبيد » التهامية بصناعة المنسوجات . وتعتمد الزراعة فى تهامة على المياه الجوفية الوفيرة ، أو على مياه السيول التى تنحدر من فوق الجبال أو على مياه الوديان الكبيرة التى تفيض بالمياه فى موسم الأمطار .

ويلى تهامة اليمن شرقاً المرتفعات الجبلية ، وهى تنقسم من حيث الإرتفاع الى قسمين ، القسم الجنوبى ويبلغ ارتفاعه من ٦٠٠ الى ١٥٠٠ متراً فوق سطح البحر ، والقسم الشمالى ويبلغ ارتفاعه من ١٥٠٠ الى ٣٥٠٠ متراً

---

(١) المقصود باليمن هنا هو اليمن بمعناه الواسع، اذ أن تقسيم اليمن الى قسمين شمالى وجنوبى لم يتم الا بعد دخول الاستعمار البريطانى الى عدن فى عام ١٨٣٩ أى بعد انتهاء موضوع البحث بحوالى قرنين .

فوق سطح البحر ، وتكثر المرتفعات بهذا القسم كما توجد به أعلى جبال شبه جزيرة العرب على الإطلاق . والمرتفعات الجنوبية طقسها معتدل ولا يوجد بها فرق كبير بين النهايتين الصغرى والكبرى لدرجة الحرارة . وتغزر الأمطار بهذه المنطقة مما ترتب عليه وفرة فى النباتات . ويزرع بها البن والقات وغيرهما من المزروعات وخاصة فى الأراضى التى ترتفع فوق ٨٠٠م فوق سطح البحر حيث تبدأ زراعة المدرجات التى اشتهر اليمنيون بزراعتها طوال التاريخ. أما المنطقة الشمالية فتشتد بها البرودة ، وتنخفض درجة حرارتها أحياناً إلى ما تحت الصفر وخاصة فى الليل مثلما يحدث فى صنعاء . وتغزر الأمطار فى هذه المنطقة ، فتصل إلى ١٠٠٠ مم فى السنة فى بعض جهاتها . ومنطقة المرتفعات بقسميها ليست جبلية وعرة بوجه عام بل هى هضبة عالية يتخلل جبالها كثير من الوديان والسهول التى تجود بها زراعة الحبوب والفواكه والخضر .

أما المنطقة الشرقية فهى تمتد بشكل مواز لمنطقة تهامة ، وتبدأ إلى الشرق من صنعاء بحوالى ١٠ كيلو متر ، ويقل ارتفاعها عن سطح البحر كلما اتجهنا شرقا حتى تنتهى إلى صحراء الربع الخالى . ومناخ هذه المنطقة معتدل بوجه عام، وتقل المياه والنباتات بها كلما اتجهنا شرقاً ، ويمكن زراعة كثير من الأراضى بهذه المنطقة إذا توافرت المياه اللازمة ، فهذه المنطقة هى التى أقيم بها سد مأرب المعروف .

والسبب فى اختلاف المناخ فى اليمن راجع إلى عدة عوامل هى : قربه من خط الاستواء واختلاف تضاريسه ، وقربه من مسطحات مائية ، وتعرضه لهبوب الرياح الموسمية المحملة بالأمطار التى تهب على الحبشة والهند . وتسقط أمطار اليمن فى فصلين ، الفصل الأول ، وهو الأكثر غزارة بين شهرى يونية وسبتمبر لهبوب الرياح الموسمية ويسمى موسم أمطار الخريف ، والثانى ، وهو أقل أهمية ، فى خلال شهرى مارس وأبريل لتأثر البلاد بمناخ البحر المتوسط ويسمى موسم أمطار الربيع .

واليمن غنى بنباتاته وبالحياة الزراعية ، فهو أكثر جهات شبه الجزيرة العربية اخضراراً ، ولذلك أطلق عليه اليونانيون القدماء اسم العربية السعيدة أو « Arabia Felix » ويرجع ذلك إلى وفرة أمطاره ووفرة مياهه الجوفية ، ثم خصوبة تربته البركانية ، ويضاف إلى ذلك نشاط شعبه وإتقانه زراعة المدرجات الجبلية . ويرجع التكوين الجيولوجى للهضبة اليمنية إلى أصل بركانى أدى إلى خصوبة التربة من ناحية كما ذكرنا ، وإلى إثراء اليمن من ناحية أخرى بالعديد من المعادن ، التى قد يبدو بعضها ظاهراً على السطح فى بعض الجهات ، والتى لم تستغل إلى الآن استغلالا إقتصاديا سليما . وقد أدت وفرة المعادن باليمن إلى اشتغال اليمنيين منذ القدم ببعض الصناعات الحرفية الصغيرة مثل صناعة الخناجر والسيوف وغيرها .

ولكن يلاحظ أنه ليس باليمن أنهار بالمعنى المعروف ، ولكن هناك مجار مائية صغيرة تختلف فيما بينها من ناحية الطول أو الأهمية ، وتعرف كل منها باسم « غيل » . وتفيض وديان اليمن بمياه السيول بعد سقوط الأمطار ، ويرتفع منسوب المياه ببعضها إلى ثلاثة أمتار . على أن هذه الوديان لا تمتد بالمياه لمسافات طويلة ، إذ تتسرب مياهها إلى باطن الأرض ، كما تفقد معالمها عندما تصل إلى المناطق الرملية أو الحصوية ، ولكن هناك وديان كبيرة يمكن تسميتها « بالوديان النهرية » ويبلغ عددها خمسة ، وأشهرها وادى « مور » و « سردود » و « زبيد » . وتمتلىء هذه الوديان بالمياه لمدة من ٦ إلى ٩ أشهر فى السنة ، وتصل إلى البحر الأحمر فى موسم فيضانها [١] .

يتضح مما سبق أنه ليس باليمن مساحات سهلية متصلة تسمح بوجود

---

(١) Mohamed Said El Attar : Le Sous-Developpement Economique et Social Du Yemen, Perspectives de la Révolution Yéménite, pp. 41-46

حسين بن على الويسى : اليمن الكبرى ، ص ١٨ — ٢٦ .

تجمعات بشرية كبيرة كما هو الحال فى «وادى النيل» مثلا ، إذ أن وديان اليمن وسهوله محدودة المساحة ، تحدها قمم الجبال العالية فوق الهضبة ، أو تفصل بين بعضها البعض مناطق صحراوية قاحلة فى سهل تهامة أو فى منطقة الجوف الشرقية . وتختلف الكثافة السكانية لذلك فى اليمن من جهة إلى أخرى، فتزداد هذه الكثافة حيث توجد الوديان والسهول ، وحيث تتوفر الأمطار أو المياه الجوفية ، بينما تقل الكثافة حيث تشتد وعورة الجبال أو كلما قل اخضرار الأرض . وفى هذه الظروف الطبيعية أصبحت القبيلة هى الوحدة الاجتماعية فى اليمن ، كما انقسم الأهالى هناك إلى سهليين وجبليين ، وأغلب قبائل اليمن ترتبط بالأرض وتعمل بالزراعة ، وقليل منها يقوم بأعمال الرعى أو تجارة القوافل . وتحتل القبيلة الواحدة مساحة فسيحة من الأرض ؛ ويسكن أفرادها عدة قرى متجاورة . وتفرض الحياة القبلية نوعاً معيناً من السلوك ، فالقبلى يتصف بشدة حذره من كل ماهو أجنبى عن قبيلته ، وبتعصبه لجماعته ، وبتعلقه بعادات قبيلته وبتقاليدها وبعقائدها الخاصة وبخضوعه لرئيس قبيلته خضوعاً شديداً . وتحتفظ المناطق اليمنية المختلفة بأسماء القبائل فتعرف بها ، رغم ما أصاب هذه القبائل من تغيرات اجتماعية على مر العصور نتيجة الهجرة إلى الخارج أو نتيجة المؤثرات الخارجية . وتحافظ البيئة اليمنية — بجبالها وسهولها — على النمط القبلى للحياة نظراً لظروفها الخاصة ، ولذلك يحرص القبلى على الانتماء إلى جماعة معينة لحماية نفسه أمام قسوة الطبيعة أو أمام الجماعات الأخرى الطامعة أو المغيرة وخاصة فى أوقات الاضطرابات والحروب .

وينقسم أهالى اليمن كما أشرنا إلى جبليين وسهليين ، وقد أدى هـــذا الانقسام إلى وجود اختلافات طبيعية وسلوكية بين السكان هناك . فقد عرف الجبلى بالنحافة وكثرة الحركة وشدة الحيوية ، كما اتصف بالذكاء والحذر من الغرباء والشك فيهم ، وذلك على عكس السهلى الذى يميل إلى البدانة

والاسترخاء والركون إلى الراحة والسلام ، كما يشتهر بابن العريكة ، ولا يقتصر وجود السهليين على مناطق تهامة أو أكثر مناطق الشرق أو الجوف بل يمكن أن نعتبر أن أغلب أهالى جهات جنوب الهضبة اليمنية من السهليين أيضاً . فنى هذه الجهات لاترتفع الجبال كثيراً ، كما أنها مناطق تشتهر باعتدال مناخها ووفرة أمطارها ونباتاتها ، وتجود الزراعة بأغلب بقاعها إلى حد كبير جداً ، ولذلك عرفت أقاليم « تعز » و« آب » و« جبلة » وماحولها بالاقاليم الخضراء . ولا يقلل من أهمية ماذهبنا إليه وجود إقليم « يافع » مثلا فى المنطقة الجنوبية ، وقد عرفت قبائل يافع بأنها تضارع القبائل الشمالية الجبليـــة من حيث قوة الشكيمة أو ضراوة الطبع ، إذ أن صفات قبائل « يافع » ترجع إلى وعورة منطقتها ، وهى ظروف محلية خاصة ، ويقابل هذا أننا نجد فى تهامة بعض القبائل التى اشتهرت بالقسوة والبداوة ، وكذلك فى منطقة الجوف الشرقية ، ولكن هذه الصفات الخاصة ترجع إلى فقر أقاليم هذه القبائل وضعف إمكانياتها الطبيعية أو الزراعية .

وقد كانت الجبال الشمالية المرتفعة ملجأ حصيناً يلتجىء إليه أصحـــاب العصبيات السياسية والدينية كما هو الحال بالنسبة للمناطق الجبلية دائماً فى الجهات المختلفة من العالم . ولذلك لم يكن غريباً أن يبدأ ظهور المذهب الزيدى فى اليمن فى مدينة « صعدة » فى أقصى الشمال ، ثم ينتشر بعد ذلك فوق المناطق الجبلية الشمالية فقط ، وظهر الصليحيون — وهم كذلك من الشيعة من غير الزيديين — فى جبال « حراز » الشامخة الارتفاع إلى الغرب من « صنعاء » وقد تمكن هؤلاء من إقامة دولة قوية فى أغلب جهات اليمن فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، كما سنذكر فيما بعد . وتدخلت البيئة الجبلية من ناحية أخرى فى تحديد أماكن المدن اليمنية ، إذ حرص

اليمنيون على إقامة مدنهم فى أحضان الجبال ، كما شيدوا لكل منها حصنا خاصاً عند قمة الجبل الذى تقام عليه المدينة ليلتجئوا إليه فى أوقات الحروب والاضطرابات . ويلاحظ انتشار المدن وتعددها فى جهات اليمن المختلفة . وهى ظاهرة تدل على ثراء أقاليمه ، وعلى ازدهار عصوره التاريخية .

يتضح من العرض السابق أن اليمن يتمتع بثروة طبيعية ضخمة وبإمكانيات بشرية كبيرة ، وقد عملت هذه الظروف الطبيعية والبشرية على تحديد اهتمامات السكان وأنواع نشاطهم ، كما أدت إلى أن يلعب اليمن على مر العصور دوراً كبيراً فى تاريخ الجزيرة العربية ، بل وفى تاريخ باقى جهات الشرق الأوسط أيضاً .

ولا شك فى أن موقع اليمن إلى جانب ثروته الزراعية — بل والطبيعية الأخرى أيضاً — كانا من أهم العوامل التى أثرت فى تاريخ تلك البلاد على مر العصور ، كما كان كل منهما يكمل دور الآخر فى الحقيقة ، فبالإضافة إلى أهمية وقوع اليمن على الطريق التجارى القديم ، فقد كانت ثروته الطبيعية هى الدعامة التى جعلته يستفيد حضارياً من وراء هذا الموقع ، كما جعلته بدوره أقدر على أن يصبح موطناً للحضارة هو الآخر ، وليس مجرد طريق ، للتجارة ، وكان البحر الأحمر منذ أقدم العصور هو الطريق الذى حمل إلى العالم القديم أول مبادىء الاتصال الفكرى والتجارى بين الحضارات الثلاث القديمة التى كانت تحيط بالجزيرة العربية وهى الحضارة الفرعونية فى مصر ، والحضارة البابلية والآشورية فى بلاد ما بين النهرين ، وحضارة وادى السند (فى الباكستان حالياً) . وكان الطريق البحرى هو الطريق المفضل منذ اتقن الإنسان فن الملاحة إذ كان أكثر أمناً وأقل نفقة ، ولذلك كان اتصال مصر ببابل بحرياً يتم عن طريق البحر ويقوم به تجار يمنيون . وأقدم ما ورد مسطراً على الآثار عن علاقة مصر ببلاد « بونت » (اليمن) هى البعثة التى أمر بإرسالها الملك « ساحورع » من الأسرة

الخامسة (حوالى ٢٥٥٠ ق.م) الى تلك البلاد[١] . وقد ظلت هذه العلاقات التجارية والحضارية قائمة حتى احتل الرومان مصر ، فاهتموا بنقل تجارة الهند رأساً الى مصر دون الاستعانة بالتجار اليمنين ، ولكنهم لمسوا فى هؤلاء منافساً قوياً اذ كانت تجارة الطريق البرى فى أيديهم ، كما كان الملاحون الرومان يخشون بأسهم عند اجتيازهم باب المندب أو عندما يرسون على بعض الموانىء فى تلك المناطق ، ولهذا أرسل الرومان حملة قوية من مصر الى اليمن فى سنة ٢٤ ق . م ولكنها باءت بالفشل فى اخضاع تلك البلاد للسيطرة الرومانية[٢] .

أما من ناحية ثروة اليمن الزراعية فقد أدرك اليمنيون القدماء أهمية بناء اقتصاد زراعى محكم فى بلادهم ، فأقاموا السدود العديدة وأشهرها سد «مأرب» للاستفادة من مياه الأمطار . وحفروا الكثير من الآبار والترع وأتقنوا زراعة المدرجات الجبلية منـــذ ذلك الوقت المبكر . وترتب على هذا الاستقرار الزراعى قيام عدد من الممالك القوية القديمة ، وأشهرها المملكة السبئية والمملكة الحمرية الاولى والثانية . وتمكنت هذه الدول من توحيـــد جنوب غرب الجزيرة العربية كله تحت سيادتها ، كما مدت نفوذها إلى الحبشة غرباً ، وإلى ماوراء الجزيرة العربية شمالا . ولكن يلاحظ أن اليمن كان موضع طمع جيرانه لثروته التجارية والزراعية وخاصة فى فترات ضعفه ، وقد تمثل ذلك حين وقع فريسة الصراع بين الدولتين الكبيرتين القديمتين وهما الإمبراطورية البيزنطية والامبراطورية الفارسية حول مناطق النفوذ فى الشرق . وقد اختفى هذا الصراع بين الدولتين وراء شعارات دينية ، فبعد أن اعتنق الملك الحميرى « ذو نواس » الديانة اليهودية وقام باضطهاد العناصر المسيحية فى اليمن وخاصة كما وقع فى حادثة « الأخدود » الشهيرة فى سنة ٥٣٣ م ، قام قيصر « بيزنطة »

---

(١) دكتور أحمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم ، ص ١٤٢.
(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٦ — ١٤٨ .

بدفع نجاشي الحبشة إلى إرسال حملة قوية إلى اليمن لإنقاذ المسيحيين به . وقد استطاع « أبرهة » الحبشي أن يلحق الهزيمة « بذى نواس » وأن يقيم دولة حبشية فى اليمن استمرت حوالى نصف قرن . ولكن الصراع البيزنطى الفارسى لم ينته عند هذا الحـــد بانتصار « بيزنطة » ، إذ مدت فارس نفوذها إلى اليمن وطردت منه النفوذ البيزنطى الممثل فى حكم الأحباش له وذلك عندما هب أحد الأمراء الحميريين وهو « سيف بن ذى يزن » يريد تخليص بلاده من الحكم الحبشى إذا لم يتردد ملك الفرس فى مساعدته ، وأرسل معه أحد كبار قادته على رأس جيش عظيم فتمكن من هزيمة الأحباش واستئصال شأفتهم ، ثم انسحب الفرس تاركين « سيف بن ذى يزن » ملكا على البلاد ومعه حاكم فارسى . ولم يمض غير قليل حتى ظهر الإسلام وانتشر فى اليمن ودخلت البلاد فى عهد جديد[١] .

وهكذا اتضح كيف أثر موقع اليمن وثروته الزراعية فى تاريخه القديم . كما اتضح أن هذه الظروف الطبيعية الخاصة كانت تحتاج إلى عناية اليمنيين الشديدة حتى يمكنهم الاستفادة بها ، وحتى لا تنقلب إلى مصدر شقاء لهم . فمن المعروف أن المناطق الجبلية مناطق طرد بشرى ، وذلك لأن الجبال لا تستطيع أن تفى دائماً بحاجات سكانها الضرورية . ويزداد أمر هذه الجبال تعقيداً إذا أهمل الأهالى استغلال إمكانية بلادهم الطبيعية استغلالا اقتصادياً منظما ينمو باطراد مع نمو الكثافة السكانية ، فعندئذ تزداد الاضطرابات والحروب فوق هـذه الجبال أو يقوم الأهالى بالإغارة على المناطق السهلية الغنية المحيطة بهم . وكان اليمنيون القدماء ينزحون باستمرار وراء التجارة فى جماعات صغيرة لتكوين الجاليات أو المستعمرات على طول طريق القوافل القديم حتى حدثت أول هجرة جماعية عندما تصدع سد « مأرب » لأول مرة فى خلال القرن الأول

---

(١) دكتور أحمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم ، ص ١٤٨ — ١٥٠ .

الميلادى . وقد أدى ترميم هـذا السد ، والعناية بباقى السدود الأقل حجما إلى ازدهار اليمن مرة أخرى على يد الملوك الحميريين ، ولـكن قيام الاضطرابات الداخلية وإهمال شئون الزراعة أدى إلى انهيار السد الشهير نهائياً فى القرن السادس الميلادى فحدثت عندئذ الهجرة الجماعية الثانية إلى شمالى الجزيرة العربية وشرقى إفريقية والهند وجزر الهند الشرقية(١) . أما الهجرة الجماعية الثالثة من اليمن فقد حدثت بعد اعتناق اليمن الإســـلام ، إذ أن هذا منحهم القدرة على الانتشار إلى البقاع الإسلامية المفتوحة . وكان يساعدهم على الانتشار الكبير تقدمهم حضارياً بالنسبة إلى باقى أهالى الجزيرة العربية ، ومهارتهم التجارية التى اكتسبوها عبر الأجيال المتعاقبة . فقد اشترك اليمنيون فى جماعات غفيرة فى الجيوش الإسلامية التى خرجت للجهاد من الجزيرة العربية منــــذ عهد الخليفة الأول أبى بكر الصديق . وقد استمرت هجرات القبائل اليمنية بعـد ذلك لا للاشتراك فى أعمال الغزو والفتح فحسب ، بل الاستقرار فى المناطق المفتوحة أيضاً ، فأدى هذا إلى انتشار الإسلام والعروبة فى تلك المناطق .

وأخيراً ، فقد ظلت ظروف اليمن الطبيعية ومدى الاهتمام باستغلالهـــا وتنميتها هى الركيزة الأولى التى حـددت الخطوط العامة لتاريخ اليمن فى العهـد الإسلامى وحتى عصرنا الحديث فكان قيام الدول القوية الإسلامية وازدهارها يعتمد أساساً على ماتبذله هذه الدول من أجل تنمية موارد اليمن الاقتصادية ، التجارية والزراعية ، وعندما كانت هذه تنحدر إلى الضعف كان اليمن ينقسم إلى إمارات أو إقطاعيات صغيرة تعتمد كل منها على أساس اقتصادى محدود ، مثل مناطق الوديان والسهول فى تهامة أو فوق الهضبة ، أو مثل المناطق التجارية الغنية حول « عدن » أو « الشحر » جنوباً أو حول « المخا » و « جيزان » على البحر الأحمر .

---

(١) Berreby, J.J : La Péninsule Arabique' p. 133.

وكيفما كان الأمر ، فقد ارتبط تاريخ اليمن منذ أن دخل الإسلام إليه بتاريخ الدولة الإسلامية العامة ، إذ أصبح اليمن جزءاً من هذا الكيان السياسى الكبير ، فساهم فى الأحداث العامة مساهمة فعالة ، كما تأثر بالتيارات السياسية والدينية التى ظهرت فى أرجاء العالم الإسلامى . وقد قسم اليمن إدارياً فى عهد الخلفاء الراشدين ثم فى عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين حتى القرن الثالث الهجرى (العاشر الميلادى) إلى ثلاثة أقسام أو ثلاثة مخاليف حسب تعبير ذلك العصر وهى: مخلاف « صنعاء » ويشمل المناطق الجبلية الشمالية ، ومخلاف « الجند » ويشمل المناطق الجنوبية بما فى ذلك تهـــامة وعدن ، ومخلاف حضرموت ، وكان يكتفى أحياناً بقسمين فقط هما « صنعاء » و « الجند » لظروف سياسية أو حربية[١] . وقد قامت الثورات أحياناً فى العهدين الأموى والعباسى لما اتصف به بعض الولاة من الظلم والقسوة ولكنها كانت تقمع بشدة فى حينها ، كما ثار أحد الخوارج الحضارمة فى أواخر عهد بنى أمية ، وتمكن من مد نفوذه إلى « صنعاء » و « مكة » بعض الوقت ولكنه قتل بعد قليل بعد أن استقر الأمر للعباسيين . وازدادت الاضطرابات فى اليمن فى العهد العباسى بشكل خاص ويرجع ذلك إلى اصطدام الولاة العباسيين بالعناصر اليمنية الأصلية التى ظلت تحتفظ بقوتها ، وإلى اتخاذ العلويين اليمن مركزاً لنشاطهم السياسى ضد العباسيين لبعده عن مقر الخلافة فى بغداد[٢] .

وقد ظهرت الدول المستقلة فى اليمن نتيجة ضعف الخـــلافة العباسية وتفككها فى القرن الثالث الهجرى (العاشر الميلادى) وذلك كما حدث فى

---

(١) حسين بن أحمد العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام ، نشره الأب أنستاسى مارى الكرملى ، ص ٦٠ .

(٢) محمد بن أحمد عيسى العقيلى: تاريخ المخلاف السليمانى أو الجنوب العربى فى التاريخ، القسم الأول من الجزء الأول ، ص ٦٩ .

باقى جهات العالم الإسلامى ، وقامت بعض هذه الدول فى عهود قوتها بمحاولات لتوحيد جهات اليمن تحت سيادتها ، ولكن هذا التوحيد لم يكن يستمر طويلا كما لم يكن يشمل جميع جهات اليمن فى أغلب الأحيان ، ولذلك فيمكن القول أنه قد عاصر ظهور الدولة المستقلة فى اليمن ظاهرة أخرى ، وهى انقسام اليمن إلى عدد من الإمارات أو الإقطاعيات التى تزداد عدداً كلما ازدادت الدول المركزية فى « زبيد » أو « تعز » أو « صنعاء » ضعفاً . وقد شهد تاريخ اليمن فى العهد الإسلامى ظهور عدد كبير من هذه الإمارات أو الدويلات ، كما شهد قيام كثير من الحروب والمنازعات فيما بينها حتى أصبح من الصعب كتابة تاريخ اليمن فى ذلك العهد كتابة دقيقة . وكانت هذه الوحدات السياسية الصغيرة تعتمد عند انفصالها عن الدولة المركزية على مذهب دينى خاص مثل الإمامة الزيدية فى شمال المنطقة الجبلية ، أو على أساس الانتساب إلى (الرسول صلى الله عليه وسلم) مثل الأشراف السليمانيين فى شمال تهامة . واعتمدت وحدات أخرى عند قيامها على العناصر العربية القحطانية سكان اليمن الأصليين ، وقد كثر ظهور هذا النوع من الوحدات فى منطقتى الهضبة والشرق حيث يسود العنصر العربى الخالص . ويرجع ظهور الإمارات العربية هناك إلى رغبة الأهالى فى التعبير عن رفضهم لسيادة العنصر الفارسى الذى اعتمد عليه « بنو زياد » عند تأسيس دولتهم ، أو لسيادة العنصر الحبشى الذى كان يمثله « بنو نجاح » ، أو لسيادة العنصر الكردى أو المملوكى فى العهدين الأيوبى والرسولى[1] . ومن ناحية أخرى كانت ضخامة إيرادات بعض الموانى اليمنية تغرى الأسرات القوية على الاستقلال بحكم المناطق الساحلية مثل الأشراف فى « جيزان » ، ومثل بنى معن وبنى ذريع وبنى طاهر فى « عدن » ، ويلاحظ هنا أن تفتت وحدة اليمن

---

(١) اهتم السيد / أحمد حسين شرف الدين فى كتابه « اليمن عبر التاريخ » بتتبع الدول المستقلة الإسلامية فى اليمن والإمارات التى عاصرتها ، ويمكن الرجوع إليه فى هذا الصدد.

كان يظهر فى أقسام تقليدية مكررة ، أو بالأحرى كان ضعف الدول الرئيسية فى اليمن يؤدى إلى ظهور الإمارات المستقلة الصغيرة فى أماكن محددة بذاتها وإن تغيرت الأسماء التى كانت تحملها هذه الإمارات من عهد إلى عهد ، وأهم هذه المراكز هى « جيزان » و « زبيد » و « عدن » و « حضرموت » على السواحل ، و « الجند » و « تعز » فى وسط الهضبة ،و « صنعاء » و « صعدة » فى المنطقة الشمالية .

وبالرجوع إلى الوقائع التاريخية نجد أن القرن الثالث الهجرى (العاشر الميلادى) شاهد فى اليمن ظهور الدول المستقلة كما شاهد إنقسام اليمن إلى أكثر من وحدة سياسية ، فقبل منتصفه كان اليمن مقسما إلى قسمين كبيرين ، قسم سهلى ساحلى وقسم جبلى ، وقبل إنتهائه دخل مذهبان شيعيان إلى اليمن واتخذ من جباله ملجأ حصيناً بعيداً عن «بغداد» ، وقد أدى كل ذلك إلى ازدياد التقسيم فى البلاد .

وأولى هذه الدول هى دولة « بنى زياد » ٢٠٢ — ٤٠٩ هـ = ٨١٨ — ١٠١٩م) ، ومؤسسها هو محمد بن عبد الله بن زياد الذى أرسله الخليفة المأمون العباسى فى سنة ٢٠٣هـ (٨١٨ م) إلى تهامة للقضاء على ثورة العلويين هناك . وقد استطاع ابن زياد أن يمد نفوذه فى تهامة إلى ما يلى « جيزان » شمالا ، كما استولى على عـــدن وحضرموت إلى الشحر شرقاً ، ثم اتجه إلى الجبال فاستولى على « الجند » و « صنعاء » و « صعدة » و « نجران » شمالا[١] . ولا تتضح هنا طبيعة نفوذ ابن زياد فى المنطقة الجبلية الشمالية ، إذ واصل الخليفة المأمون ومن جاء بعده إرسال الولاة إلى « صنعاء » إلى ما بعد قيام الدولة الزيادية بوقت طويل[٢] . وبالإضافة إلى هذا لم يستمر نفوذ ابن زياد فى المنطقة

---

(١) نجم الدين عمارة الحكمى اليمنى : تاريخ اليمن ، تحقيق دكتور حسن سليمان محمود ، ص ٣٧ ، ٣٨ .

(٢) العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام ، ص ١٣ .

الجباية إلا حوالى عشرين عاماً فقط ، إذ تمكن « بنو يعفر » من إقامة دولة لهم فى هذه المنطقة فى سنة ٢٢٥ هـ (٨٤٠م) ومدوا نفوذهم إلى « الجند » جنوباً وإلى « صعدة » و « نجران » شمالا . وتحارب هؤلاء مع الولاة العباسيين مدة طويلة حتى اضطر الخلفاء العباسيون إلى الاعتراف بنفوذهم فى اليمن فجعلوا لهم الولاية فى صنعاء[1] . وقد امتد حكم هذه الدولة أكثر من قرن ونصف أى الى ٣٩٣ هـ (١٠٠٣ م) وأصابها فى خلال هذه الفترة الضعف والتفكك فاستقل عمالهم « بنو الكرندى » فى « الجند » جنوباً ، وظهر الأئمة الزيديون فى « صعدة » شمالا ، كما تعرضت الدولة فى « صنعاء » نفسها لهجمات القرامطة أكثر من مرة .

وتم كذلك فى أواخر القرن الثالث الهجرى (١٠ م) ظهور الشيعة فى اليمن كما ذكرنا ، ففى سنة ٢٨٤ هـ (٨٩٨م) ظهر الإمام الهادى فى « صعدة » فوضع بذلك الأسس لقيام الإمامة الزيدية فى اليمن . وفى سنة ٢٩٣هـ (٩٠٦م) ظهر دعاة المذهب الإسماعيلى أو القرامطة فى جبال « لاعة » و « حراز » الى الجنوب الغربى من « صنعاء » . وكان دعاة هذا المذهب هم النواة الأولى لقيام الدولة الصليحية فيما بعد ، تلك الدولة التى ربطت نفسها مذهبياً وسياسياً بالفاطميين فى مصر .

ولقد كان ظهور الإمام الهادى فى « صعدة » — وهو أول من دعا الى المذهب الزيدى — من أهم أحداث ذلك القرن لما ترتب عليه من نتائج هامة فيما بعد . فقد بدأ الزيديون منذ ذلك الحين يشاركون مشاركة فعالة فى تاريخ اليمن طوال العصور الوسطى ، وفى العصور الحديثة منذ القرن السادس عشر الميلادى ، كان هؤلاء يكونون القوة الرئيسية التى واجهت العثمانيين فى اليمن والتى ظلت تسيطر على مقدرات البلاد حتى قيام الجمهورية

---

(١) العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام ، ص ١٨ .

اليمنية سنة ١٩٦٢ . وسنرى فى خلال فصول الرسالة الدور الذى قام به الزيديون أثناء الحكم العثمانى الأول فى اليمن (١٥٣٨ — ١٦٣٥ م) ومن هنا اقتضى البحث أن نتناول بعض جوانب هذا المذهب بالتفصيل حتى يسهل فهم تاريخ الزيديين فى اليمن .

ينتسب المذهب الزيدى الى الإمام زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وقد جاء الإمام الهادى يحيى بن الحسين بن القاسم الرسى[1] من « الرس » بالقرب من « المدينة المنورة » الى « صعدة » بناء على دعوة جماعة من أهلها ، وبويع بالإمامة هناك ، فبدأ فى نشر مذهبه وإرساء قواعد دولته . ويعتبر المذهب الزيدى بوجه عام أقرب المذاهب الشيعية الى السنة ، أما شروط الإمامة عند الزيديين فهى تنحصر فى أربعة عشر شرطاً وهى : « أن يكون الإمام مكلفاً ذكراً حراً مجتهداً علوياً فاطمياً عدلا سخياً ورعاً سليم العقل سليم الحواس سليم الأطراف صاحب رأى وتدبير مقداماً فارساً » ويتضح من ذلك أن المذهب الزيدى قد حصر الإمامة فى أبناء « فاطمة » أى فى أبناء الحسن والحسين فقط ، ورغم ذلك فالمذهب لا يرى أن تكون الإمامة وراثية مطلقة ، بل كان يرى أن اشتراط بيت معين انما هو شرط أفضلية لا شرط صلاحية . وقد نتج عن هذا أننا لا نرى سلسلة متصلة من الأئمة الزيديين الذين ظهروا فى اليمن . ومن ناحية أخرى أجاز المذهب امامة المفضول مع وجود الأفضل ، فالمهم هنا هو اختيار الأقدر على حمل العبء ، والذى يقدر على اكتساب طاعة الناس ، ولذلك انتهى المذهب هنا حسب رأى أحد المحدثين — الى أقصى تحرر له وهو أنه

---

(١) وهو الإمام الهادى يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم طباطبا بن الحسين بن الحسن ابن على بن أبى طالب ، فهو حسنى وليس بالحسينى ، وهو بهذا امام على مذهب الإمام زيد ، وليس بامام على مذهب الإمامية لأن الإمام زيداً لا يشترط أن يكون الإمام من ذرية الحسين بل يشترط فقط أن يكون من ذرية فاطمة الزهراء رضى الله عنها (محمد أبو زهرة : الإمام زيد ، ص ٤٩٥) .

يجوز اختيار الخليفة من خارج بيت «فاطمة» اذا كان فى ذلك تحقيق المصلحة العامة للمسلمين. ويشترط المذهب أيضاً أن يجاهر بدعوته كل من يتصدى للإمامة من أبناء «فاطمة»، وأن يدعو الناس لمبايعته، وذلك حتى يتم اختياره على أساس سليم، وحتى يتحقق مبدأ الشورى بين المسلمين عند اختيار الحاكم[١].

وعلى هذا الأساس فقد نبذ المذهب الزيدى كثيراً من الآراء التقليدية للشيعة، مثل عصمة الأئمة، ومثل مبدأ التقية الذى كان قد التزمه بعض آل البيت بعد مقتل الحسين، ومثل الأسلوب السرى الذى اتخذته باقى المذاهب الشيعية أسلوباً للدعوة بين الناس وهو ما عرف بالباطنية فى تاريخ المذاهب الشيعية. وهناك مبدأ هام كان له آثاره الخطيرة فى اليمن، فقد أجاز المذهب خروج امامين فى قطرين مختلفين فى وقت واحد. ويبدو أن الإمام زيد جاز ذلك نظراً لاتساع الدولة الإسلامية فى عهده، وقد حدث أن قامت دولتان الزيدية فى القرن الثالث الهجرى (العاشر الميلادى)، الأولى فى اليمن كما ذكرنا، والثانية فى الديلم فى فارس على يد الإمام الناصر الأطروش. وقد ساعد هذا المبدأ على ظهور أكثر من امام فى اليمن فى وقت واحد، فأدى هذا الى قيام كثير من الفتن والاضطرابات هناك. ويتميز المذهب الزيدى عن باقى المذاهب الشيعية فى أنه ليس مذهباً مغلقاً أو خاصاً ؛ اذ أن باب الاجتهاد فيه مفتوح، فأدى هذا على مر العصور الى ظهور عدد من الأئمة المجتهدين الذين أثروا المذهب بمؤلفاتهم المطولة وبآرائهم الجديدة، ومن ناحية أخرى فتح المذهب باب الاختيار من المذاهب الأخرى وخاصة السنية فعمل هذا على انمائه باستمرار وعلى تقريبه الى تلك المذاهب[٢]. ولا شك فى أن هذه العوامل كانت من أهم أسباب

---

(١) محمد أبو زهرة : الإمام زيد، حياته وعصره، آراؤه وفقهه، ص ١٨٨ — ١٩٠
(٢) نفس المرجع : ص ٤، ٤٨٨.

نمو المذهب الزيدى فى اليمن وبقائه هناك طوال تلك القرون العديدة حتى يومنا هذا . ولاشك أيضاً فى أن المذهب الزيدى كان يحمل فى طياته الكثير من المبادىء والآراء المتحررة وكان هذا من عوامل قوته ، ولكن هذه المبادىء المتحررة نفسها كانت من عوامل ضعف المذهب أيضاً ، إذ أصبحت هذه المبادىء نفسها موضع تأويلات وتفسيرات كثيرة لخدمة الأطماع الشخصية ولذلك شهد تاريخ اليمن عدداً كبيراً من الأئمة المدعين الذين أعلنوا دعوتهم من أجل ابتزاز الأموال أو للوصول إلى السلطة والنفوذ .

وكان ظهور الإمام الهادى الرسى فى « صعدة » ذاتها فى أقصى الشمال الجبلى عاملا حاسماً فى حماية هذا المذهب بعيداً عن متناول أيدى الدول القوية التى ظهرت فى اليمن طوال العصور الوسطى وخاصة الدولة الصليحية والدولة الأيوبية اللتان تمكنتا من بسط نفوذهما إلى أقصى شمال اليمن ، فقد كان أئمة هذا المذهب ورجالاته يفرون هاربين إلى قمم الجبال وشعابها مؤقتاً للتحصن بها ، ولذلك لم تكن انتصارات الصليحيين والأيوبيين فى هذه الجهات انتصارات حاسمة فعالة فى القضاء على هذا المذهب فكانت ظروف اليمن البشرية أيضاً من العوامل الهامة التى ساعدت على نمو المذهب الزيدى هناك ، وذلك لانقسام الأهالى إلى قبائل تخضع لرؤسائها خضوعا كبيراً . وكان الأئمة يتقربون إلى رؤساء القبائل ويستميلونهم إليهم لنشر الدعوة بين قبائلهم، ومن المعروف أن الإمام الهادى الرسى قد اعتمد على أحد رؤساء قبيلة همدان لتوطيد أقدامه فى المنطقة الشمالية[1] . وقد ساعدت ظروف المنطقة الجبلية الشمالية — بإمكانياتها الطبيعية المحدودة ، ولكثرة المنازعات القبلية بها — على انتشار هذا المذهب هناك ، فكانت بعض القبائل تشترك فى حروب الأئمة من أجل الحصول على الأسلاب والغنائم ، وكانت قبائل أخرى تدخل فى طاعة الإمام حتى يشتد ساعدها فى حروبها مع

(١) العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام ، ص ٣٤ .

جيرانها . وفى بعض الأحيان ، كانت إحدى القبائل تغرى أحـد الأئمة على إعلان دعوته فى إقليمها حتى يكون لها السطوة والنفوذ عند نجاح هذه الدعوة .

وقد كانت الظروف التاريخية التى أحاطت بظهور المذهب الزيدى فى « صعدة » من أهم العوامل التى ساعدت على انتشار المذهب ، فقد أدى اشتراك الأئمة الأوائل فى محاربة القرامطة — الذين كانوا قد أثاروا الاضطرابات الواسعة فى اليمن — إلى امتداد نفوذ هؤلاء الأئمة إلى مايلى صنعاء جنوبا حتى « بعدان »[1] . وازدادت قوة الأئمة بعد ذلك على مر العصور الإسلامية وذلك لضعف حكام اليمن بوجه عام فى أغلب الأحيان ، ففى النصف الأول من القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) استنجد أهالى « زبيد » بالإمام الزيدى لمعاونتهم فى صد الخوارج عن مدينتهم وذلك لضعف « بنى نجاح » الشديد فى ذلك الوقت عن حماية دولتهم فى تهامة ، وقد ذهب الإمام إلى « زبيد » ونجح فى حماية المدينة بعض الوقت ولكنه غادرها بعد قليل[2] . ورغم ماحققه الزيديون أحياناً من نجاح فى مـد نفوذهم إلى جهات واسعة فى شمال اليمن فقد ظل نفوذهم محصوراً فوق الجبال الشمالية طوال العصور الوسطى . ويرجع عجز الزيديين عن بسط نفوذهم إلى جهات اليمن الجنوبية والسهلية إلى قوة الدول التى ظهرت فى هذه الجهات وإلى محاربتها المستمرة للزيديين . وكانت قوة هذه الدول تستند على ثروة منـاطقها الزراعية بالنسبة للمنطقة الجبلية الشمالية ، وعـلى ضخامة إيراداتهـا المـالية واسيطرتها على الحياة التجارية فى اليمن ، ولذلك كانت هذه الدول أقـــدر على تعبئة الجيوش من الزيديين ، كما كانت أقدر على دفع الأموال أحياناً إلى القبائل الشمالية لتتخلى عن الأئمة أو لتقف أمام توسعهم إلى الجنوب . وقد

---

(١) العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام ، ص ٣٢ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٩ .

كانت دولة بنى « زريع » فى « عدن » والجنوب تدفع الأموال الطائلة « لبنى حاتم » الهمدانيين وغيرهم من قبائل الشمال للوقوف فى وجه الأئمة(١).

وأخيراً تجدر الإشارة هنا إلى أمر هام، وهو أن ظهور المذهب الزيدى فى شمال اليمن قد أدى إلى إزدياد هجرة أسر الأشراف إلى هـــذه الجهات واتخاذها موطناً لهم، فأدى هذا بدوره إلى إغناء المذهب بالكثير ممن ينطبق عليهم شروط الإمامة، ولذلك تمكن المذهب من البقاء فى اليمن بالرغم مما تعرض له من أخطار طوال العصور الوسطى، ومن ناحية أخرى فإن وفرة هذه الأسر فى اليمن كانت له نتيجة أخرى. فطبقاً لشروط المذهب لم يكن الإمام القائم بالدعوة إلا « الأول بين النظراء » فقط ، ولذلك كان عليه أن يتقرب إلى سائر الأشراف باستمرار حتى لا ينقلبون عليه. وكان مما يزيد من خطورة هؤلاء الأشراف السياسية هو أنهم كانوا يتمتعون بمكانة اجتماعية كبيرة فى تلك العصور. وسنرى فى خلال فصول الرسالة كيف أثر الأشراف فى أحداث اليمن فى العهد العثمانى.

أما الإسماعيلية فهم أتباع الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق، وهم يختلفون عن الزيدية فى كثير من الأمور المذهبية، ولذلك كانوا على عداء مستمر معهم فى اليمن، وقد انضموا إلى العثمانيين ضد الزيديين كما سنرى فيما بعد. وقد اشتهر أتباع المذهب الإسماعيلى عند ظهورهم فى اليمن باسم القرامطة نسبة إلى أحد دعاة المذهب، كما عرف الإسماعيليون فيما بعد باسم العبيديين نسبة إلى عبد الله المهدى مؤسس الدولة العبيدية فى المغرب ومصر وهى التى اشتهرت فى التاريخ باسم الدولة الفاطمية. ويرجـــع ظهور القرامطة فى اليمن إلى سنة ٢٦٨ هـ (٣٨٨ م) عندما كلف « ميمون القداح » أحد دعاة المذهب فى الكوفة اثنين من أتباعه بنشر هذا المذهب فى اليمن، فأرسل

---

(١) العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام، ص ٤٠ .

منصور بن الحسن الكوفى إلى جبال « لاعة » إلى الغرب من صنعاء . وأرسل على بن الفضل اليمنى إلى جبال « يافع » فى الجنوب . وتمكن منصور الكوفى من الإستيلاء على جبل « مسور »[1] من أيدى « بنى يعفر » سالفى الذكر واتخذه مركزاً لنشر دعوته . أما على بن الفضل فبعد أن اشتد ساعده فى يافع اتجه إلى « المذيخرة » إلى الجنوب من صنعاء واتخذها مقراً له ، ثم تقدم إلى صنعاء فاستولى عليها لأول مرة فى سنة ٢٩٣ ﻫ (٩٠٧ م) وطرد منها حكامها بنى يعفر . وقد أثار القرامطة فى خلال السنوات العشر التالية أى حتى مقتل على بن الفضل فى سنة ٣٠٣ﻫ (٩١٥ م) ، الكثير من الاضطرابات والحروب فى اليمن ، كما اتسمت أعمالهم بالعنف والقسوة . وقد ظلت « صنعاء » فى خلال هذه المدة موضع نزاع بين القرامطة وبين بنى يعفر والإمام الهادى الذى استنجد به الأهالى هناك ، كما هاجم القرامطة « زبيد » واستولوا عليها من أيدى الدولة الزيادية وأعملوا فيها السلب والنهب .

وقد أخذ دعاة المذهب الإسماعيلى فى اليمن بعد ذلك يتصلون سرا بالخلفاء الفاطميين فى مصر باعتبارهم أئمة هذا المذهب ، حتى نجح الداعى على بن محمد الصليحى فى إقامة الدولة الصليحية (٤٣٩ — ٥٣٢ ﻫ = ١٠٤٥ — ١١٣٨ م) فأعلن الخطبة فى اليمن باسم الخليفة المستنصر بالله الفاطمى وأرسل له الأموال والهدايا[2] . وللدولة الصليحية أهمية خاصة فى تاريخ اليمن الإسلامى ، إذ أدى قيامها من ناحية إلى تثبيت أقدام المذهب الإسماعيلى فى اليمن ، وما زال هناك حتى الآن أقلية إسماعيلية تتركز فى جبال « حراز » وفى منطقة نجران حيث يعرفون باسم « اليامية » نسبة إلى قبائل يام النجرانية . ومن ناحية ثانية تعتبر الدولة الصليحية محاولة هامة من محاولات توحيد اليمن ، وكان اليمن حينئذ مهيأ لظهور مثل هذه الدعوة ،

---

(١) جبل مسور إلى الغرب من صنعاء ، وأهالى هذه الجهات جزء من قبيلة همدان .

(٢) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ، ص ٥٥ .

فقد كانت البلاد حينئذ مقسمة بين عدد من الأمراء المحليين الذين تنازعوا الأمر فيما بينهم ، وذلك بالإضافة إلى الأئمة الزيديين فى « صعدة » والدولة النجاحية فى « زبيد »[١] . وقد نجح الصليحى فى القضاء على الدويلات المستقلة فى « صنعا » ، وفى « الجند » ، وفى « عدن » و « حضرموت » و « جيزان » ، ثم اصطدم بالزيديين فقتل إمامهم أثناء الصدام الذى دار بينهم . ولم يتم للصليحى إخضاع أغلب أقاليم اليمن لسيطرته إلا بعد أن تمكن من قتل السلطان نجاح فى « زبيد » مسموماً على يد جارية كان قد أهداها إليه[٢] . ولكن لم تستمر وحدة اليمن فى العهد الصليحى إلا سنوات قليلة . فقد تمكن أبناء نجاح من استرداده « زبيد » بعد مضى سبع سنوات فقط من مقتل أبيهم ، وكان هؤلاء قد فروا إلى جزر « دهلك » ، وأخذوا يستعدون بها للوثوب ثانية إلى تهامة . وازدادت أعمال التفتيت فى اليمن بعد ذلك كلما ازداد ضعف الدولة الصليحية ، فاستقل « بنوزريع » بالحكم فى « عدن » وكانوا ولاة للصليحيين من قبل ، واستقل كذلك « بنو حاتم » بالحكم فى « صنعاء » والاشراف السليمانيون فى « جيزان » ، كما ارتفع شأن الأئمة الزيديين ثانية فى « صعدة » والمناطق الشمالية .

أما الأهمية الثالثة للدولة الصليحية فى تاريخ اليمن الإسلامى ، فهى تتركز فى أن هذه الدولة قد نقلت ولاء اليمن لأول مرة من بغداد العباسية إلى القاهرة الفاطمية ، فوضع الصليحيون بذلك الأسس الأولى لوحدة حوض البحر الأحمر السياسية ، وخاصة بعد أن أصبح هذا البحر بحيرة إسلامية بعد إنتشار الإسلام على شاطئيه . وقد ظل الصليحيون يحرصون على إظهار ولائهم للفاطميين ، كما كانوا يعتبرون أنفسهم نواباً لهم فى

---

(١) قامت الدولة النجاحية على أنقاض دولة بنى زياد فى تهامة وذلك فى المدة من ٤٠٣ — ٥٥٥ هـ (١٠١٣ — ١١٥٠ م) وهى تعتبر امتداداً لتلك الدولة إذ كان « نجاح » مؤسس « الدولة النجاحية » من موالى « بنى زياد » وهو من أصل حبشى كما واصل إعلان الخطبة للعباسيين .

(٢) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ، ص ٥١ .

اليمن ، فقد توجه الصليحى على رأس قوة عسكرية إلى « مكة » لإعادة النفوذ الفاطمى إلى هناك وإقامة الخطبة باسم الفاطميين . وقد حرص الفاطميون من جانبهم على تأكيد نفوذهم فى اليمن فتدخلوا فى فتن المنازعات التى قامت بين الأمراء الصليحيين[١] ، كما أرسلوا أحد القادة على رأس قوة عسكرية صغيرة لتدعيم سلطة الملكة السيدة الحرة آخر الملوك الصليحيين[٢] . وقد ظل النفوذ الفاطمى قائماً فى اليمن على يد « بنى زريع » فى « عدن » والجنوب حتى قضى الأيوبيون عليهم عند حضورهم إلى اليمن .

ولا شك فى أن امتداد نفوذ الفاطميين إلى اليمن كان من بين العوامل التى شجعت صلاح الدين الأيوبى على إرسال جنوده إلى اليمن عندما استنجد به أمراء المخلاف السليمانى فى « جيزان » ضد على بن مهدى الخارجى فى « زبيد » وكان صلاح الدين يرى فى مد نفوذه إلى اليمن تدعيما لمركزه فى مصر بعد أن قضى على الدولة الفاطمية وأعلن الخطبة للخليفة العباسى كما كان يهمه أن يبقى نفوذ مصر فى اليمن والحجاز مثلما كان الأمر فى عهد الفاطميين ، وحتى تستفيد خزانته من جراء سيطرته على موانىء البحر الأحمر حتى اليمن جنوباً . ومن المعروف أن الأيوبيين قد اهتموا بتنمية ميناء عدن بعد دخولهم إلى اليمن ، فارتفعت إراداته إلى أربعة أضعاف ما كانت عليه فى العهد السابق عليهم[٣] .

وبالإضافة إلى هذا ، فقد كان استيلاء صلاح الدين على اليمن جزءاً من خطته لتدعيم سيطرته على أقاليم البحر الأحمر المختلفة وخاصة الحجاز للدفاع عنها ضد هجمات الصليبيين الذين كانوا قد وصلوا حينذاك إلى رأس خليج العقبة وأنزلوا سفنهم إلى مياه البحر الأحمر لتهديد الحرمين الشريفين

---

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ، ص ٦٧ — ٦٨ .
(٢) نفس المرجع : ص ٧٦ .
(٣) العقيلى : المخلاف السليمانى ، ج١ ، ق١ ، ص١٩٦ .

وباقى سواحل هذا البحر . وقد أرسل صلاح الدين الأيوبى أخاه توران شاه فى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣م) الى اليمن على رأس قوة كبيرة من الجند ، فقضى توران شاه على الدول المستقلة هناك مثل بنى مهدى فى « زبيد » وبنى زريع فى « عدن » وبنى حاتم فى « صنعاء » ، كما حارب الأئمة الزيديين فى الشمال وانتصر عليهم وقد عاد توران شاه الى مصر بعد ثلاث سنوات بعد أن قام للأيوبيين دولة فى اليمن استمرت أكثر من نصف قرن (٥٦٩ — ٦٢٦ هـ) (١١٧٤ — ١٢٢٦ م) .

وقد حقق الأيوبيون بذلك وحدة البحر الأحمر السياسية لأول مرة فى التاريخ اذ كان ارسال جيوشهم الى اليمن فى ذلك الوقت أول حادث من نوعه فى تاريخ مصر واليمن على السواء . ويلاحظ أن النفوذ الفاطمى فى اليمن كان نفوذاً روحياً أكثر منه سياسياً ، أما النفوذ الأيوبى هناك فقد كان نفوذاً سياسياً مباشراً ، اذ ألحق اليمن حينئذ بمصر اعتماداً على قوة الأيوبيين العسكرية . وقد وضع الأيوبيون بدخولهم اليمن تقليداً جديداً فى تاريخ العلاقات المصرية اليمنية ، فقد طلب الملك المجاهد الرسولى (٧٢١ — ٧٦٤ هـ) (١٣٢١ — ١٣٦٣ م) ارسال قوة عسكرية من مصر لمساعدته فى القضاء على منافسيه ومناوئيه فى داخل اليمن ، فأعانه المماليك حكام مصر حينئذ بقوة كبيرة من الفرسان فى سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) ولكنها لم تمكث غير قليل هناك ثم عادت الى مصر[1] . وقد تكرر كذلك استنجاد اليمنيين بالمماليك فى مصر فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، وهذا ماسنوضحه فيما بعد فى خلال فصول الرسالة . ولكن يلاحظ هنا أن نجاح الأيوبيين الى حد بعيد فى القضاء على العناصر القوية فى داخـــل اليمن هو الذى أدى الى

---

(١) العقيلى : المخلاف السليمانى ج١ ق١ ، ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

استتباب الأمر للرسوليين فيما بعد فقد أقام بنو رسول دولة قوية لهم فى اليمن تمكنت من أن تحكم أكثر من مائتى وثلاثين عاماً (٦٢٦ — ٨٥٦ هـ) (١٢٢٩ — ١٤٥٤ م) .

وقد قامت هذه الدولة على أنقاض الدولة الأيوبية باليمن ، وبالإستعانة فى بداية أمرها بالعناصر الكردية والمملوكية التى سبق أن جاء بها الأيوبيون الى اليمن . وقد عظم شأن هذه الدولة فى تاريخ اليمن ، اذ نجحت فى فترات قوتها فى توحيد أغلب أقاليم اليمن تحت سيطرتها ، كما مـــدت نفوذها الى الساحل الأفريقى الشرقى والى مكة فى بعض الأحيان . وكذلك كان لهـذه الدولة علاقات تجارية واسعة مع البلدان المختلفة حتى الصين شرقاً ، كما كان لها آثارها العمرانية الكثيرة التى خلفتها فى اليمن[1] .

وقد شهـــد تاريخ اليمن الإسلامى من ناحية أخرى تأكيداً جديداً للعلاقات التقليدية القديمة بين اليمن والحبشة . وكان تشابه ظروف الحياه فى كل من السواحل الحبشية وتهامة اليمن مشجعاً لأهالى كل جهة على الهجرة الى الجهة الأخرى . وقد اشتد ساعد الأحباش فى تهامة نتيجة اعتماد دولة « بنى زياد » عليهم الى حد كبير فى الجيش والإدارة ، فتمكن نجاح فى النهاية من تأسيس دولة « بنى نجاح » فى « زبيد » كما ذكرنا على أنقاض دولة « بنى زياد » . وظل الاتصال وثيقاً بين النجاحيين وبين موطنهم الأصلى على السواحل الحبشية ، فكان النجاحيون يفرون الى تلك السواحل هاربين أمام مطاردة الصليحيين لهم ، وهناك يأخذون أهبتهم ثانية للقفز إلى تهامة اليمن لاستعادة ملكهم فى « زبيد » ، وقد تكرر ذلك عدة مرات حتى سقطت الدولة النجاحية نهائياً . واستمرت العلاقات السياسية بين اليمن والحبشة قائمة بعد ذلك ، فقد كان مسلمو الحبشة يلجأون دائماً الى الرسوليين والطاهريين فى اليمن لمعاونتهم فى حروبهم مع نجاشى الحبشة ،

(١) العقيلى : المخلاف السليمانى ، جـ١ ، ق١ ، ص ٢٤٤ — ٢٥٦ .

فكان اليمنيون يمدونهم بما يحتاجونه من الرجال والأموال ، وبالإضافة إلى ذلك ، امتد نفوذ الرسوليين فى فترات قوتهم إلى السواحل الحبشية ، فضموا إليهم الجهات المواجهة لسواحل تهامة بما فى ذلك ميناء « زيلع » وجعلوا هذه الجهات تتبع والى تهامة اليمن من الناحية الإدارية[1] .

وهكذا يتبين لنا من هذا العرض السريع لتاريخ اليمن فى الفترة الإسلامية أن هذا التاريخ قد خضع إلى حد كبير لتأثير الفتح الإسلامى لذلك الإقليم ، فقد أتاح الفتح لليمنيين فرصة النزوح إلى خارج بلادهم تحت لواء الجيوش الإسلامية أو فى شكل هجرات كبيرة إلى الأقاليم المفتوحة . ومن ناحية أخرى تأثر اليمن بأحداث العالم الإسلامى وظروفه ، فقد انتقلت إليه المذاهب السياسية والدينية التى ظهرت فى باقى جهات العالم الإسلامى ، كما لجأت إليه الأقليات الشيعية لوعورة جباله ولبعده عن مقر الخلافة فى بغداد . وفى نفس الوقت ، ظلت العوامل المحلية — الطبيعية والبشرية — الخاصة باليمن تسيطر على أحداثه فى هذه الفترة الإسلامية أيضاً ، فقد ظهرت به الدول المستقلة اعتماداً على ثرائه الزراعى والتجارى ، كما إنقسم فى فترات ضعف هذه الدول إلى دويلات مستقلة أو شبه مستقلة وذلك نتيجة لظروف اليمن الطبيعية والتاريخية . وخضعت أحداث اليمن فى هـــذه الفترة أيضاً لظروف موقعه الخاصة ، فظلت حكوماته تعتمد على الموارد التجارية ، كما ارتبط اليمن نتيجة موقعه أيضاً بمصر والحبشة والحجاز سواء عن طريق العلاقات الودية أو المصلحية ، أو عن طريق الخضوع والولاء .

وكيفما كان الأمر ، فيهمنا هنا دراسة تاريخ الدولة الطاهرية التى عاصرت بداية القرن السادس عشر الميلادى ، والتى شاهدت أحداث التغيير التى وقعت عند هذه البداية . وقد إمتد حكم الدولة الطاهرية من ٨٥٨ إلى ٩٤٣ هـ

---

(١) المرجع السابق ، جـ١ ، ق ٠ ، ص٢٥٣ .

(١٤٥٤ — ١٥١٧ م) وهى تعتبر آخر الدول السنية الجنوبية التى كانت تتولى الحكم فى اليمن . وكان بنو طاهر عمال الدولة الرسولية فى « عدن » و « لحج » ، فخرجوا عليها وأسسوا دولتهم على أنقاضها . وقد حاول ملوك هذه الأسرة منذ البداية توحيد اليمن تحت سيادتهم فلم يتمكنوا من ذلك لإصطدامهم بالأئمة الزيديين فى المنطقة الجبلية الشمالية ، وظلت البلاد مقسمة بين الطاهريين والزيديين حتى آخر ملوك الدولة الطاهرية وهو السلطان عامر بن عبدالوهاب ، الذى نجح إلى حد كبير فى إضعاف نفوذ الأئمة ، فاستولى على صنعاء من أيديهم ومد نفوذه إلى المنطقة الشمالية . ودراسة عهد هذا السلطان بشىء من التفصيل تساعدنا على فهم الأوضاع السياسية والاجتماعية التى واجهت العثمانيين فى اليمن عند وصولهم إليه .

والحقيقة أن السلطان عامر كان حاكماً قوياً طموحا ، ويعتبر من أبرز شخصيات الأسرة الطاهرية ، فقد أظهر نشاطاً كبيراً منذ توليته الحكم فى جمادى الأولى سنة ٨٩٤هـ (أبريل ١٤٨٩ م) ، وعمل على توسيع رقعة أملاكه على عكس والده الذى قنع بالعيش فى سلام مع باقى السيادات التى عاصرته وخاصة الزيدية[١] . وقد ورث السلطان عامر بن عبد الوهاب حوالى ثلثى اليمن فقط عند توليته الحكم ، أما الثلث الباقى فقد كان موزعا بين عدد من الأئمة الزيديين .

ولذلك فيمكن أن نقسم حكمه الطويل الذى امتد حوالى تسعة وعشرين عاماً إلى مرحلتين ، المرحلة الأولى وهى التى عمل فيها على تثبيت أقدامه فى المنطقة الطاهرية أو بالأحرى فى المنطقة الجبلية الجنوبية والسواحل ، أما المرحلة الثانية فهى التى بدأها بالصدام مع الأئمة والتى انتهت بتثبيت حكمه فى المنطقة الشمالية إلى حد كبير .

---

(١) وجيه الدين عبد الرحمن بن على بن عمر الشيبانى الزبيدى المعروف بابن الديبع : بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد (مخطوطة) ص٢٤ أ .

وقد بدأت المرحلة الأولى بعد توليته الحكم مباشرة ، فقد ثار عليه أخواله أبناء عامر بن طاهر مؤسس هذه الدولة ، واستقلوا « بجبن » فى المنطقة الشرقية من بلاده . وعندئذ دارت الحرب بين الطرفين ثم تم الصلح بعد أن أقطعهم بعض أراضى الجهات الشرقية ، وبعد أن إقتسموا معه إيرادات عدن[١] . ولم تنته هذه الحرب الأسرية عند هذا الحد بل تجددت ثانية وإستعر أوارها ، فلم يتمكن السلطان عامر من القضاء على هؤلاء الثوار إلا بعد حوالى ثلاث سنين من بداية حكمه[٢] . وقد أدت هذه الحروب إلى إنتشار الإضطرابات فى باقى جهات ممالكته ، فثارت بعض قبائل « تهامة » وقطعوا الطرق ونهبوا القرى . وثارت قبائل أخرى بين « زبيد » و « تعز » ، فكان السلطان عامر يضطر إلى إرسال الجيوش إلى هنا وهناك لإخماد هـــذه الإضطرابات والثورات[٣] . وتعرض حكم السلطان عامر فى الجنوب لإضطرابات أشد ضراوة وأكثر خطورة ، فقد تمكن بعض أقاربه من إثارة قبائل « يافع » ضده ، وهى قبائل معروفة بقوتها وميلها إلى الحرب كما أشرنا وذلك لوعورة منطقتها الجبلية . وقد توجه أحد القادة الثائرين على رأس قوة من رجال « يافع » إلى عدن ، فهاجم والى السلطان هناك واستولى على ما لديه من أموال ، فتوجه السلطان عامر بنفسه على رأس جيش كبير إلى منطقة « يافع » وتمكن من إخضاع قبائلها لنفوذه[٤] .

وتعتبر الصعوبات التى واجهت السلطان عامر فى المنطقة الخاصة بالطاهريين، صعوبات تقليدية كالتى تحدث فى اليمن عادة عند إنتقال الحكم من سلطان

---

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد (مخطوطة) ص ١٢٤ أ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون (مخطوطة) ص ١٣٦ ب .

(٣) نفس المرجع ؛ ص ١٤١ أ .

(٤) أبو الطيب عبد الله بن أحمد بن على باخرمة ، قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر (مخطوطة) جزء ٣ ، مجلد ٢ ص ١١٨٧ .

إلى آخر ، أو عند ما تضعف سيطرة الحكومة القائمة أو يفسد جهازها الإدارى . ولكن الصعوبات التى واجهت السلطان عامر فى المنطقة الشمالية كانت من نوع آخر ، فقد كان الأئمة الزيديون لا يعترفون بسيطرة هذا السلطان عليهم ، بل كانوا مستقلين فى مناطقهم تماماً .

وقد تأخرت مواجهة السلطان عامر بهؤلاء الأئمة نظراً لظروفه الخاصة فى الجنوب ، إذ لم يحدث الصدام المباشر بينه وبين هؤلاء إلا بعد ثلاث عشر عاماً من توليه الحكم . ولكن يلاحظ هنا أن السلطان عامر لم يواجه سلطة موحدة فى الشمال الجبلى ، بل كانت هذه المنطقة موزعة كما ذكرنا بين عدد من الأئمة .

ويصعب هنا أن نرسم خريطة واضحة للأوضاع السياسية الخاصة بالمنطقة الزيدية فيما بينها حول تحديد عدد أئمة هذه الفترة أو مناطق نفوذ كل منهم كما اختلفت هذه المراجع فى توضيح علاقة الأئمة بعضهم ببعض ، أو علاقة هؤلاء بالملوك الطاهريين[١] . ورغم ذلك فيمكن أن نقول إن أهم معالم هذه الخريطة السياسية تتحدد فى ثلاث نقط : أولها أنه كان هناك أكثر من إمام فى وقت واحد ، وأن كلا منهم قد انفرد بحكم إحدى جهات المنطقة الشمالية ، وثانيها أن العلاقات بين الأئمة لم تكن صلحاً دائماً أو حرباً دائماً ، بل كانت علاقات معقدة متشابكة لا تحكمها وحدة المذهب بل تحكمها مصالح مادية مختلفة ، وثالثها أن علاقة الطاهريين بالأئمة لم تكن تسير على وتيرة واحدة ، فقد ارتضى بعض هؤلاء الطاهريين أن يتعايش سلمياً مع الأئمة ، ورأى البعض الآخر أن يحارب أحد الأئمة وأن يتهادن مع الآخر . وعلى

(١) محمد بن محمد بن يحيى زبارة : إتحاف المهتدين بذكر الأئمة المجددين ومن قام باليمن الميمون من قرناء الكتاب وأبناء سيد الأنبياء والمرسلين ، ص ٧٠ — ٧٥ ، عبد الواسع ابن يحيى الواسعى : تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن ، ص ٤٥ — ٤٩ ، وحسين بن أحمد العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فى من تولى ملك اليمن من ملك وإمام ، ص ٥٥ — ٥٧ .

هذا الأساس فيمكن القول بأن المنطقة الشمالية كانت مقسمة بين عدد من السيادات الصغيرة فى ذلك الوقت ، وأن السلطان عامر قد واجه عدداً من الأئمة وليس إماماً واحداً ، إذ كان هناك إمام فى كل من صعدة وصنعاء وذمار ، كما كان بعض الأشراف يبسطون نفوذهم فى مناطق الشرف والظاهر والجوف ، فقد كانت « صعدة » تحت حكم الامام الهادى عز الدين بن الحسن بن المؤيد ، ثم أعلن ابنه الحسن بن عز الدين الامامة بعد وفاته وظل « بصعدة » حتى بعد مقتل السلطان عامر ٩٢٣ ﻫ (١٥١٧ م) كما سنرى ، أما « صنعاء » فكانت تحت حكم الامام محمد بن الناصر ، وكان السلطان عامر مهادناً له معترفاً بنفوذه فى صنعاء وماحولها حتى وقع الصدام بينهما . وكان الامام المطهر بن محمد بن سليمان قائماً فى « ذمار » — إلى الجنوب من صنعاء — وكان محالفاً للطاهريين ضد آل الناصر فى (صنعاء) حتى وفاته ، ثم لجأ أبناؤه إلى (صنعاء) بعد أن نشب الخلاف بينهم وبين الطاهريين . وبالاضافة إلى ذلك كان الأشراف آل المنصور والامام الوشلى السراجى يقتسمون النفوذ فى منطقة (الشرف) و (الظاهر) إلى الجنوب من « صعدة »[1] .

وقد بدأ صدام السلطان عامر بن عبد الوهاب مع هذه السيادات المستقلة المتناثرة فى المنطقة الشمالية فى سنة ٩٠٢ ﻫ (١٩٤٧/٦م) عندما أعلن الامام الوشلى إمامته فى « ذمار » فهدد بذلك حدود مملكة السلطان عامر الشمالية[2] . وهنا ثارت الحرب بين السلطان عامر وبين الامام الوشلى . وتمكنت قوات السلطان من أن تحرز الانتصارات المتتالية التى أدت إلى تدعيم سلطة الطاهريين فى جميع الجهات والحصون المشرفة على (صنعاء) وأغرت هذه الانتصارات

---

(١) عيسى بن لطف الله بن شرف الدين يحيى : روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح ، جـ١ ، ص٧ﻫ أ ، العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام، ص ٥٦ — ٥٧ .

(٢) عيسى بن لطف الله : نفس المرجع والصفحة .

السلطان عامر على أن يمد نفوذه إلى صنعاء وباقى جهات المنطقة الشمالية ، وأن يخضع هؤلاء الأئمة لسيادته،فزحف إلى هناك على رأس جيش كبير . وفى شعبان سنة ٩٠٧ هـ (فبراير / مارس ١٥٠١م) بدأ السلطان فى حصار صنعاء لأول مرة ، واستمر الحصار حوالى خمسة أشهر ، حتى تقدمت قوات زيدية أخرى من باقى جهات المنطقة الشمالية لفك الحصار ، فاضطر السلطان إلى الانسحاب[١]. ومما يثير الانتباه هنا هو قيام جبهة زيدية عريضة أجبرت السلطان عامر على الانسحاب ، وهو أمر سيواجه العثمانيين كثيراً فيما بعد . فرغم اختلاف الزيديين فيما بينهم فقد كانوا يتكاتفون دائماً الدفاع عن « صنعاء » لأهميتها الاستراتيجية بالنسبة للمنطقة الشمالية فضلا عن أهميتها التاريخية . ولكن يلاحظ أن إمام « صنعاء » قد أجبر على أن يتنازل عن حصن « ذى مرمر »[٢] لأمير الجوف ثمناً لمساعدته له أثناء الحصار[٣] .

وقد كرر السلطان عامر محاولته للاستيلاء على صنعاء بعد ذلك بعامين ، فقام فى صفر سنة ٩١٠ هـ (يوليه / أغسطس ١٥٠٤م) بتجهيز جيش كبير وزحف به إلى صنعاء لمحاصرتها[٤] . وقد استمر الحصار حوالى ستة أشهر ولكن سقطت المدينة أخيراً فى يد السلطان عامر الذى قبض على الامام وأرسله إلى تعز للإقامة بها ، دون أن يتعرض له بسوء[٥] ، وذلك حتى لا يثير عليه ثائرة العناصر الزيدية فى الشمال .

وكان استيلاء السلطان عامر على « صنعاء » فاتحة لامتداد نفوذه فى

---

(١) يحيى بن الحسين بن الإمام بن القاسم : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ص ١١٢ أ .

(٢) يقع حصن ذى مرمر إلى الشمال الشرقى من صنعاء بقليل، وهو يعتبر مركزاً لإقليم وادى السر الذى يشتهر بثروته الزراعية والحيوانية .

(٣) بوعخرمة : قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر (مخطوطة) جـ٣ ، م٢، ص ١١٩٠ .

(٤) ابن الديبع: الفضل المزيد على بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد (مخطوطة) ص ٣٩ ب

(٥) « « : قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون (مخطوطة) ص ١٤٦ ب ص ١٤٧ أ

المنطقة الشمالية ، فقد أخذت قواته تستولى على المناطق والحصون الواحد تلو الآخر ، غير أن توسع السلطان فى هذه المنطقة لم يكن بالأمر السهل ، أو أنه كان رد فعل طبيعى لسقوط « صنعاء » ، فقد ظل واليه فى صنعاء يشن الحرب على المدن الزيدية الشمالية سنوات طوال ، فلم يتمكن من الاستيلاء على مدن « ثلاء » و « حضور الشيخ » و « كوكبان » القريبة من صنعاء إلا بعد فتح صنعاء بحوالى سبع سنوات[١] .

ولم تكن وعورة مسالك المنطقة الشمالية وإرتفاع جبالها هى العائق الوحيد أمام حكام اليمن عندما كان يحاولون بسط نفوذهم فى هذه المنطقة ، فقد كان انتشار المذهب الزيدى هناك يمثل عائقا آخر . فبينما كانت قوات السلطان عامر تواصل جهودها لبسط سيطرة الطاهريين فى المنطقة الشمالية ، قام الإمام المتوكل على الله شرف الدين يحيى بن شمس الدين بإعلان امامته فى « حجة » فى ١٠ جمادى الأولى سنة ٩١٢ هـ (٢٨ ديسمبر سنة ١٥٠٦ م)[٢] ، فجددت الزيدية قوتها بظهور هـــذا الإمام . ويعتبر الإمام شرف الدين من أبرز الشخصيات اليمنية التى لعبت دوراً هاماً عند بداية تاريخ اليمن الحديث ، فبعد أن ظل نفوذ هذا الإمام ضعيفاً فى « حجة » حوالى عشر سنوات نظراً لقوة نفوذ السلطان عامر ، الا أنه تمكن بعد ذلك من أن يمد نفوذه الى جهات اليمن المختلفة حتى عدن جنوباً كما سنرى فيما بعد .

وهكذا كان السلطان عامر يضطر طوال فترة حكمه الى ارسال الحملات الى جهات اليمن المختلفة وذلك للقضاء على الثورات والاضطرابات فى تهامة والجنوب أو لتدعيم نفوذه فى المنطقة الشمالية . غير أن عهد هـذا السلطان لم يكن حربيا دائمة ، بل تميز عهـــده بالقيام ببعض الأعمال العمرانية

---

(١) ابن الديبع : الفضل المزيد على بغيــة المستفيد فى أخبار مدينة زبيد (مخطوطة) ص ٤٨ ب .

(٢) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ١٠ ، ص٥٨ أ .

والإصلاحات التى أصبحت موضع تقدير معاصريه الى ما بعد وفاته بسنوات طويلة[١] . فقد وجه اهتمامه الى بناء المدارس والمساجد ووقف الأراضى عليها كما اهتم بحفر الآبار وشق القنوات وتمهيد طرق القوافل وتأمينها ، وغير ذلك من الأعمال التى كانت تهتم بها حكومات ذلك العصر[٢] . وهناك عملان هامان يدلان على اهتمام السلطان عامر بالنواحى التجارية والزراعية ، فقد مدالسلطان القنوات الى داخل « عدن » حيث أقام هناك صهريجاً ضخما لتخزين المياه ، وذلك لتوفير مياه الشرب بالمدينة[٣] ، ومن ناحية أخرى أقام السلطان سداً ترابياً ضخما عند وادى « زبيد » لحماية الأراضى الزراعية المحيطة بهذا الوادى من غائلة ميـــاه الفيضان[٤] ، وعمل السلطان عامر كذلك على تنشيط الحياة الثقافية ، فبالإضافة الى اهتمامه ببناء المدارس وتقريب العلماء اليه ، كان يهتم باقتناء الكتب العلمية النفيسة ، فيرسل مندوبيه الى العواصم الإسلامية لشراء الجديد أو الثمين من هذه الكتب ، كما كان يأمر بكتابة نسخ منها لوضعها فى جامع زبيد حتى تكون تحت تصرف العلماء والفقهاء[٥] . ولقد كانت « زبيد » مركزاً علمياً هاماً طوال العصور الإسلامية ، وذلك بالإضافة الى باقى المراكز الإسلامية الأخرى مثل دمشق » و « القاهرة » و « القيروان » .

وأخيراً ، فكما كان الطاهريون يمثلون لنا الناحية السياسية التى عاصرت بداية القرن السادس عشر الميلادى، فقد كانوا أيضا يمثلون الأهمية الاقتصادية

---

(١) قطب الدين محمد بن أحمـــد النهر والى المكى . البرق اليانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٦ب — ٧ أ .

(٢) عبد القادر بن شيخ بن عبـد الله العيدروس : النور السافر عن أخبار القرن العاشر ، ص ١١٨ — ١١٩ ، ابن الديبع : قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون (مخطوطة) ، ص ١٥٩ أ .

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد (مخطوطة) ص ٥٠ ب .

(٤) المصدر السابق : نفس الصحيفة .

(٥) ابن الديبع . قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون (مخطوطة) ص ١٣٩ ب — ١٤٠ أ .

لتهامة وجنوب الهضبة اليمنية بالنسبة لباقى جهات اليمن وبمعنى آخر كانوا يمثلون الأوضاع الاقتصادية التى سادت فى اليمن طوال العصور الوسطى ، وخاصة أن الطاهريين كانوا أصلا ولاة بنى رسول فى « لحج » و « عدن » كما ذكرنا ثم خرجوا عليهم وأسسوا دولتهم على أنقاضهم . وقد سبق أن أشرنا إلى أن الدول الإسلامية التى ظهرت فى اليمن كانت تعتمد عند قيامها على ركيزتين اقتصاديتين ، أولاهما موارد اليمن التجارية الكبيرة نظراً لموقع البلاد الهام عند الطرف الجنوبى للبحر الأحمر ، وثانيتهما الثروة الزراعية لتهامة وجنوب الهضبة بالنسبة لباقى الجهات اليمنية . ولقد كان تنشيط الحياة الزراعية فى المنطقة الشمالية والجوف يحتاج إلى كثير من العناية والأمن وهذا ما لم يتوفر كثيراً طوال العصور الوسطى ، ولا شك فى أن ثروة تهامة والجنوب الاقتصادية هى التى تفسر إنتقال المراكز السياسية من « صنعاء » شمالا إلى « زبيد » و « تعز » و « عدن » وغيرها من مدن الجنوب فى كثير من الأحيان . ولقد أدى تحول تجارة الشرق إلى طريق رأس الرجاء الصالح على يد البرتغاليين عند بداية القرن السادس عشر الميلادى إلى ضعف الإمكانيات الاقتصادية لتهامة والجنوب مما أتاح الفرصة للشماليين الجبليين لمد نفوذهم إلى باقى جهات اليمن منذ ذلك الوقت كما سنرى فيما بعد .

وقد أدركت الدول الإسلامية المستقلة منذ البداية أهميـــة موقع اليمن التجارى فعملوا على الإهتمام بهذه الناحية الاقتصادية الهامة . فقد اهتم « ابن زياد » مؤسس أول دولة مستقلة فى اليمن بنشر الأمن حول « عدن » فاتجهت السفن التجارية إليها لقربها من موانىء المحيط الهندى بعد أن كانت تفضل الاتجاه إلى الموانىء اليمنية والحجازية على ساحل البحر الأحمر لتوفر الأمن هناك[1] . وازداد اهتمام هذه الأسرة بعد ذلك بتنشيط الحيـاة التجارية

---

(١) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ، جـ١ ، ص٩ .

فى اليمن ، فعمل أحد سلاطينها وهو حسين بن سلامة على تمهيد طرق القوافل وتأمينها ، كما حفر الآبار وأسس المحطات التجارية على طول هذه الطرق . وتبدأ هذه الطرق من ميناء « الشحر »[١] — على الساحل الجنوبى لليمن — إلى « عدن » ، وهناك يتفرع الطريق إلى فرعين ، طريق جبلى ويخترق الهضبة اليمنية ماراً « بتعز » و «إب» و « ذمار» و «صنعاء» و «صعدة» ومنها إلى « مكة» وطريق سهلى وهو ينقسم إلى فرعين أيضاً ، أولها يسير بمحاذاة الساحل ويربط بين الموانىء اليمنية التى تمتـــد على طول ساحل البحر الأحمر حتى « جيزان » شمالا ، وثانيهما إلى داخل تهامة ويمر بالمدن التهامية الهـامة مثل « موزع » و«حيس» و«زبيد»و«مور» ثم يلتقى بالطريق الساحلى عند «جيزان» ، ومن هناك يواصل الطريق امتداده على الساحل إلى «جدة» أو يتجه إلى الداخل حتى « مكة »[٢] . وقد ارتفع شأن « عدن » بعد ذلك على مر السنين فقصدها التجار من كل مكان واستقروا بها ، حتى قيل أن أغلب سكانها — فى عهـد الطاهريين — كانوا من المصريين والمغاربة والأحباش والفرس ، ومن أهالى ساحل أفريقيا الشرقى[٣] . وجذبت أهمية « عدن » التجارية انتبـاه الأسر الحاكمة اليمنية اليها ، فازداد اهتمامها بها وبإصلاح مبانيها . وقد أقام «بنو زريع» ولاة الصليحيين ، أول سور حول « عدن » الا أنه كان سوراً ضعيفاً فتهدم بعد قليل . واهتم الأيوبيون بعد ذلك بإقامة سور ضخم حول « عدن » وجعلوا له ستة أبواب ، كما شيدوا بها دار «الفرضة» أى دار الميناء أو الجمرك لتحصيل الرسوم التى تفرض على البضائع الواردة أو الصادرة ، كما أقاموا

---

(١) ترجع أهمية « الشحر » التجارية فى العصور الوسطى الى أن السفن التجارية كانت تتمكن من الوصول اليها طوال فصول السنة ، وذلك على عكس الموانىء العربية الأخرى بما فى ذلك «عدن» فقد كانت هذه السفن لا تتوجه اليها إلا فى مواسم الرياح فقط .

(٢) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ، ص ٤٠ — ٤٣ .

(٣) باغرمة : تاريخ ثغر عدن ، جـ٢ ، ص٥٤ .

العديد من الدور والمخازن والأســــواق ، فانتعشت عدن فى أيامهم انتعاشاً كبيراً[١] . وقد وصف « عدن » أحد الرحالة البرتغاليين الذى عاصر بداية الكشوف البرتغالية — فى أواخر عهد الطاهريين — بأنها كانت من أكثر بلدان العالم تجارة ، وبأن بها أكثر التجار ثراء ، إذ كانت تفد إليها السفن العديدة المختلفة الأنواع والأحجام من جميع البقاع ، فكانت هذه السفن تفد إليها من « جدة » محملة بالبضائع الأوربية والمصرية والسورية . كما كانت السفن تفد إليها من موانىء ساحل أفريقية الشرقى مثل زيلع وبربرة وسوفالا وكيلوة وموزمبيق وممبسا محملة بالمواد الغذائية أو بالوفير من سبائك الذهب والفضة ، ومن موانى ساحل الهند الغربى مثل ديو وكاليكوت ، أو موانىء جزر الهند الشرقية حتى ملقا . وقد استطرد هذا الرحالة فى وصف البضائع التى ترد إلى « عدن » والتى يتم تبادلها فيها حتى قال أخيراً إنه كان من الصعب معرفة أنواع هذه البضائع أو تقدير أثمانها[٢] . وكان الطاهريون دون شك يدركون جيداً أهمية تجارة « عدن » وخاصة لأنهم كانوا أصلا ولاة عدن — كما ذكرنا — قبل أن يستقلوا بالحكم فى اليمن ، ولذلك أبدوا اهتماماً كبيراً بالمدينة فأقاموا بها المنشآت المختلفة[٣] . ولم يقف أمر اهتمامهم « بعدن » عند هذا الحد بل كان السلطان عامر بن عبدالوهاب يتوجه أحياناً إلى « عدن » فى موسم الرياح ليشرف بنفسه على خروج القافلة البحرية إلى الهند[٤] .

وهكذا تتضح الظروف الطبيعية والبشرية والتاريخية الخاصة باليمن عند

---

(١) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ، جـ١ ، ص١٣—١٥ .

(٢) Duarto Barbosa : A Description of the Coasts of East Africa and Malabar in the begining of the sixteen century, Translated by Henry E., J Stanley, pp 27-28

(٣) بامخرمة : نفس المرجع ، جـ١ ، ص ١٢ .

(٤) ابن الديبع : بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد (مخطوطة) ، ص ١٢٥ أ .

بداية القرن السادس عشر الميلادى وهى الظروف التى ستواجه العثمانيين فيما بعد عند مجيئهم إلى اليمن كما سنرى فى خلال فصول الرسالة . وقد تبين لنا أن اليمن يتميز بظروف طبيعية خاصة من تضاريسية ومناخية ونباتية وغير ذلك ، كما يتميز بموقعه الهام الذى لعب دوراً كبيراً فى تاريخ البلاد على مر العصور . وإلى جانب هذا ، فنتيجة لإنقسام تضاريسه بين سهول وجبال ، ولتغلب الطابع الجبلى عليه ، فقد انقسم سكانه بين سهليين وجبليين ، كما أصبحت «القبيلة» هى الوحدة الاجتماعية السائدة به ، ولقد خضعت أحداث اليمن على مر العصور القديمة والوسيطة — وحتى الآن — لهذه الظروف الطبيعية والبشرية، فكانت تلك الأحداث تعبيراً عن التفاعل المستمر بين أهالى اليمن والبيئة ، وتعبيراً عن الصدام — أو الإتفاق - بين نتيجة هذا التفاعل وبين البيئات والمجتمعات المجاورة الأخرى . ولذلك رأينا بعض العناصر باليمن — أو الوافدة إليه — تستطيع أن تمتلك العصبيات أو الأسباب اللازمة لإقامة الدول القوية ، فتستطيع هذه الدول بدورها أن تخضع نواحى اليمن لسيطرتها ، ثم لم تلبث هذه الدول أن تفقد قدرتها على السيطرة على إمكانيات اليمن الطبيعية والبشرية ، أو أن تفقد القدرة على الاستفادة منها وتحريكها لمصلحتها ، فيعود اليمن عندئذ إلى الضعف والتفكك حتى تستطيع عصبية جديدة أن تقضى على الأوضاع القديمة القائمة ، بعد أن تكون قد أصبحت أكثر استفادة أو التصاقاً بإمكانيات اليمن الطبيعية ، وأكثر استجابة وتعبيراً عن الأوضاع البشرية وعن حاجياتها الضرورية فى الحقيقة .

الفصل الأول

الغزو البرتغالى والجهود العربية المضادة

(١٤٩٧ — ١٥١٧)

كانت للعرب السيطرة على أغلب طرق التجارة العالمية القديمة حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ، وكان من أهم هذه الطرق طريق البحر الأحمر الذى تقع مصر عند طرفه الشمالى ويحتل اليمن طرفه الجنوبى . وقد حقق كلا القطرين من وراء موقعه الجغرافى رخاء اقتصادياً كبيراً وازدهاراً حضارياً ملحوظاً منذ أقدم العصور . وفى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى نجحت البرتغال فى الوصول بحراً إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، كما نجحت فى احتكار التجارة الشرقية بعد الوصول إلى الهند بزمن قليل . وقد أدى تحول تجارة الشرق الى الطريق البحرى المباشر الى حرمان العرب من مصدر هام من مصادر ثروتهم ، فأدى هذا بدوره الى ضعف بنائهم الاقتصادى التقليدى ، والى انهيار نظمهم السياسية القائمة حينئذ . وحاول العرب منذ البداية مقاومة هذا الغزو الأوربى الجديد ، واسترداد سيطرتهم على نقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، الا أن محاولاتهم باءت بالفشل وتم للبرتغال احتكار هذه التجارة . واتسم موقف اليمن بالضعف والسلبية فى مواجهة التحدى البرتغالى ، وذلك لإنشغال حكومته فى حروب داخلية ، ولعدم معرفة اليمنيين بالأسلحة الحديثة التى أتى بها البرتغاليون معهم. وكان موقف مصر المملوكية أكثر ايجابية من موقف اليمن ، ولكنه كان يتسم بوجه عام بالضعف أيضاً . فقد قام المماليك بمهاجمة المراكز البرتغالية فى الهند نفسها ، ولكنهم فشلوا هناك فالتجأوا الى خطة الدفاع عن حدود امبراطوريتهم التى كانت تشمل مصر والشام والحجاز،

وخاصة عند ما شعروا باقتراب الخطر البرتغالى من حدودهم الجنوبية فى البحر الأحمر، وسوف نرى سياسة المماليك الدفاعية قد أدت الى التصادم مع حكام اليمن والى احتلال السواحل اليمنية لغلق مدخل البحر الأحمر الجنوبى أمام زحف البرتغاليين . وكان هناك فى نفس الوقت صدام آخر عند الحدود الشمالية للإمبراطورية المملوكية بين المماليك والعثمانيين ، وانتهى هذا الصدام بانتصار العثمانيين ، فدخل الشرق العربى بذلك تحت السيادة العثمانية ، وبدأ طوراً جديداً من أطوار تاريخه .

ويهمنا عند بداية هذا الفصل أن نتعرض للعوامل التى دفعت الكشوف البرتغالية تجاه الشرق ، وأن نعرف خطوات البرتغاليين الأولى للوصول الى الهند ، وذلك حتى يتضح أمامنا موقف هؤلاء البرتغاليين من العرب ، وكيف تم لهم احتكار تجارة الشرق .

وقد تبلورت العوامل التى دفعت البرتغاليين الى الشرق فى عاملين هامين ، هما العامل الدينى والعامل الاقتصادى . ويرجع العامل الدينى الى احتدام الصراع بين المسيحيين والمسلمين فى شبه جزيرة أيبريا فى العصور الوسطى . وكان صغر مساحة البرتغال ووقوعها على ساحل المحيط الأطلنطى قد حتما عليها أن يكون توسعها بحرياً وليس برياً فى داخل شبه جزيرة أيبريا ، فاتجهت البرتغال عندئذ الى مطاردة المسلمين على ساحل افريقية الغربى ، أما العامل الاقتصادى فيرجع الى رغبة البرتغاليين فى المشاركة فى أرباح التجارة الشرقية ، والى وقوعهم تحت تأثير أهالى جنوة . وكانت البندقية قد نجحت قبل ذلك فى احتكار الأسواق المصرية ، فاتجه أهالى جنوة عندئذ الى ملوك اسبانيا والبرتغال لتشجيعهم على الوصول الى الهند بحراً للقضاء على ثروة البندقية ، عدوتهم اللدود . وقد عبر الملك عمانويل الأول (١٤٩٥ — ١٥٢١ م) الذى قامت فى عهده أول حملة بحرية الى الشرق — فى خطبة طويلة له عن أغراض الحملة وذلك عند سفرها — فقال ان الغرض من

اكتشاف الطريق البحرى إلى الهند هو نشر المسيحية والحصول على ثروات الشرق[1] . وقد عبرت هذه الحملة عن أغراضها خير تعبير ، فقد كانت سفينة قائد هذه الحملة فاسكودا جاما مزودة بالمدافع ، كما كانت تعلق فوق ساريتها علما رسم عليه صليب ضخم ، ولقد قيل إن الصليب والمدفع كانا رمزى القادم الجديد الذى دخل إلى الشرق[2] . وكان رفع الشعار الدينى واستعمال القوة الضارية ضد التجار العرب والمسلمين هو الذى دفع بعض المحدثين إلى وصف الكشوف البرتغالية بأنها حرب صليبية جديدة وأنها رد فعل لغزو المسلمين لشبه جزيرة أيبريا وللحروب الصليبية فى العصور الوسطى[3] . ولكننا نرى أن ضراوة البرتغاليين فى محاربة المسلمين ترجع إلى العداوة التاريخية المستمدة من العصور الوسطى بقدر ما ترجع إلى حرص البرتغاليين على السيطرة على تجارة الشرق ، وعلى سحبها بالقوة من أيدى القائمين بها من العرب والمسلمين .

ولقد شاهد القرن الخامس عشر الميلادى جهوداً برتغالية متواصلة من أجل الوصول إلى الهند ، وكان أول تتويج لجهودات البرتغاليين البحرية على الساحل الغربى لإفريقية على يد الأمير هنرى الملاح الذى استولى على « سبته » سنة ١٤١٥ م من أيدى المسلمين ، ثم بلغت هذه المجهودات قمتها على يد القائد البحرى الشهير « بارثلميوديار » الذى اكتشف رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٨٧ م .

وساندت الجهود البحرية جهود أخرى اتسمت بالسرية لجمع المعلومات عن مصادر تجارة الشرق ، وطرق هذه التجارة عبر العالم العربى ، وأنواع

(١) Edgar Prestage : The Portuguese Pioneers, pp 267-268.

(٢) K. M. Panikkar ; Asia and Western Dominance, A Survey of Vasco da Gama, Epoch of Asian History 1498 1945p, 42.

(٣) R. B Serjeant : The Portuguese of the South Arabian Coast, P 2.

البضائع الشرقية وأسعارها إلى غير ذلك. فقد أرسل ملك البرتغال يوحنا الثانى (١٤٨١ — ١٤٩٥ م) إثنين من أتباعه إلى بيت المقدس فى موسم الحج لجمع بعض المعلومات، ولكنهما عادا بخفى حنين لعدم إجادتهما اللغة العربية. وقام الملك بمحاولة أخرى فأرسل خادمه الخاص بيرو دى كوفلهام ومعه رسول آخر هو «دى بيفا» إلى الشرق، وكان دى كوفلهام هذا يجيد عدة لغات ومنها اللغة العربية منذ أن كان أسيراً فى المغرب. وحدد الملك مهمة هذين الرسولين فى ثلاث نقاط هى: جمع المعلومات عن «الحبشة» التى كانت تعرف فى أوربا حينئذ باسم «مملكة القديس جون أو يوحنا»، ثم معرفة المصادر الأصلية للتوابل، وأخيراً معرفة طرق هذه التجارة عبر البلاد العربية حتى تصل إلى البندقية. وقد نجح الرسولان فى مهمتهما نجاحاً كبيراً؛ إذ وصلا إلى القاهرة فى منتصف سنة ١٤٨٧ بعد أن تزيا بزى التجار وتظاهرا بالاتجار بالعسل، وهناك تمكن الرسولان من أن يندسا بين جماعة من التجار المغاربة حيث توجهوا جميعاً إلى عدن، وعندئذ افترق الزميلان فتوجه دى كوفلهام إلى الهند، وقصد دى بيفا الحبشة ولكنه مات بعد قليل. وقام دى كوفلهام متخفياً على ظهر السفن العربية التجارية بزيارة الموانى الهامة على ساحل الهند الغربى كما زار جزيرة «هرمز»[1] التى كانت من أهم المراكز الإسلامية التجارية حينئذ ثم عاد إلى القاهرة. وكان الملك البرتغالى قد أرسل فى أثره رسولين آخرين لمعرفة أخباره،

---

(١) تقع جزيرة هرمز الصغيرة الحجم بين عدد من الجزر الأصغر حجما عند مدخل الخليج العربى بالقرب من الساحل الفارسى. وهى جزيرة قاحلة لا يوجد بها ماء عذب الشرب بل يجلب إليها الماء من السواحل القريبة. وترجع أهمية هرمز إلى موقعها الاستراتيجى الهام الذى ساعدها على التحكم فى تجارة الخليج، وتعتبر مملكة هرمز من أغرب الممالك التى ظهرت فى التاريخ واستمرت لمدة قرنين من الزمان، فقد تمكنت من أن تمد نفوذها إلى مناطق عديدة على الساحلين العربى والفارسى القريبين منها وذلك بفضل ثروتها الكبيرة نتيجة اشتغالها بالتجارة. وقد تمكن الشاه اسماعيل الصفوى بعد قيامه فى فارس من أن يفرض جزية سنوية على هذه المملكة، ولكن البرتغاليين نافسوه هناك، ففرضوا نفوذهم السياسى والاقتصادى على الجزيرة الأمر الذى كان إيذاناً بضعف شأنها ثم انهيارها تماماً فى أوائل القرن السابع عشر.

فتقابلا فى القاهرة بعد لأى مع دى كوفلهام الذى سلم أحدهما تقريره الطويل عن رحلته السرية هذه لتوصيله إلى البرتغال ، واصطحب الآخر إلى هرمز ليكتب بدوره تقريراً آخر عنها نظراً لأهميتها التجارية الكبيرة . أما مهمة دى كوفلهام الجديدة التى حددها له هذان الرسولان فهى زيارة الحبشة وكتابة تقرير خاص عنها ، ونجح الجاسوس البرتغالى فى القيام برحلة جديدة داخل العالم العربى ، فاتجه إلى هرمز مع زميله الجديد ثم عاد إلى جدة فقام بزيارة مكة والمدينة ، ثم ذهب إلى سيناء فزار معالمها ، وأخيراً اتجه إلى زيلع ثم توغل إلى داخل الحبشة حيث قابل النجاشى فسلمه خطابات ملك البرتغال ، وقد حكم على دى كوفلهام أن يبقى فى الحبشة حتى توفى بها ، إذ لم يسمح له بمغادرتها بعد مقابلة النجاشى وذلك طبقاً لخطة الحذر الحبشية فى ذلك الوقت الخاصة بمن يزورها من الأجانب[١].

وقد أدت هذه الجهود المتواصلة إلى نجاح البرتغاليين فى الوصول إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، وإلى سرعة احتكارهم لتجارة الشرق بعد فترة قصيرة من وصولهم إلى مياه المحيط الهندى ، وكان فاسكودا جاما أول قائد برتغالى يكتشف الطريق البحرى إلى الهند ، فقد غادر البرتغالى على رأس حملة صغيرة مكونة من أربع سفن فى ٨ يوليه سنة ١٤٩٧ ، فوصل إلى كاليكوت أهم موانىء ساحل ملبار الهندى[٢] فى ٢٠ مايو سنة ١٤٩٨ ، وتمكن داجاما من مقابلة السامرى حاكم كاليكوت ، ولكنه فشل فى عقد معاهدة تجارية معه أو إنشاء مركز تجارى للبرتغاليين فى بلاده ، ويرجع

---

(١) **Father F. Alvarez : Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia during the years 1620-1627, Translated and Edited by Lord Stanley of Aldelry, pp 265—270.**

(٢) يحتل اقليم ملبار الجزء الجنوبى من ساحل الهند الغربى ، وهو إقليم خصب تكثر به التوابل ، وبه كثير من الموانىء الهامة مثل كاليكوت وكوشن وكانور وكولم ، وينقسم الساحل الى عدد من الوحدات السياسية الصغيرة ، وتعتبر مملكة كاليكوت أهم هذه الوحدات السياسية ، وأغلب سكان هذا الساحل كانوا وثنيين .

هذا الفشل إلى موقف التجار العرب والمسلمين المعادى للبرتغاليين ، كما يرجع إلى غطرسة داجاما وموقفـــه الخشن من حاكم كاليكوت الذى كان يلقب بالسامرى [١] . وكان التجار العرب والمسلمون قد شعروا بقلق شديد عند قدوم البرتغاليين إلى هناك ، إذ أدركوا منذ البداية خطورة المنافسة البرتغالية وخاصة لأن هؤلاء التجار كانوا يمثلون طبقة رأسمالية كبيرة تسيطر على مقدرات ساحل ملبار الإقتصادية [٢] . ولا يقلل فشل داجاما فى إقامة علاقات تجارية أو دبلوماسية مع السامرى من أهمية رحلته التاريخية ، إذ كان غرض رحلته الرئيسى هو اكتشاف الطريق البحرى إلى الهند ومعرفة أحوال هذه البلاد ، وقد لاحظ هذا أهالى ملبار أنفسهم [٣] . وأخيراً ، فقد تجول داجاما بعض الوقت أمام ساحل ملبار ، ثم أخذ معه بعض المنتجات الهندية ، ونفراً قليلا من الهنود لمقابلة الملك البرتغالى ، ثم عاد الى البرتغال فوصل إلى لشبونة فى ٢٩ أغسطس سنة ١٤٩٩ [٤] .

ولقد كانت رحلة داجاما بداية للمرحلة الأولى فى تاريخ البرتغال فى الشرق ، فقد تطورت أغراض البرتغاليين من وراء الكشوف البحرية فى خلال عشر سنوات فقط (١٤٩٩ — ١٥٠٩ م) من مجرد الرغبة فى كشف الطريق البحرى إلى الهند لتحقيق بعض المكاسب الاقتصادية ، إلى الرغبة فى احتكار التجارة الشرقية والسيطرة على مصادرها الأصلية ، بل والى اقامة أول حكومة استعمارية أوربية فى الشرق . وكان تفوق البرتغاليين الحربى

---

(١) Kammerer, Albert : La Mer Rouge l'Abyssinie et l' Arabie depuis l'antiquité, tome 1 p. 87.

(٢) Serjeant, R B, : The Portuguese off the South Arabian Coast, p. 146.

(٣) زين الدين المعبرى المليبارى : تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتغاليين ، ص ٣٧ (مخطوطة عربية قام بنشرها دفيد لوبز David Lopes تحت عنوان « تاريخ البرتغاليين فى ملبار » مع ترجمة برتغالية للنص العربى ودراسة طويلة فى مقدمة الكتاب) .

(٤) Stephens, H. Morse : Portugal, pp 190 - 191.

دون شك هو العامل الأساسى فى تطور موقفهم السريع فى خلال هذه المرحلة ، إذ كان البرتغاليون يمتلكون البنادق والمدافع وغيرها من الأسلحة النارية . كما كان لديهم السفن المزودة بالمدافع ، وهى كلها أسلحة لم تكن قد عرفت بعد فى الهند[١] . وقد تركز نشاط البرتغاليين فى هذه المرحلة فى تثبيت أقدامهم على شواطىء المحيط الهندى ، وفى مهاجمة السفن والمراكز التجارية العربية والإسلامية فى جميع جهات هذا المحيط . وقد نجح « كبرال » قائد الحملة الثانية التى غادرت البرتغال فى سنة ١٥٠٠ م فى إستغلال الخلاف القائم بين كوشن وكنانور وبين كاليكوت لإقامة أول مركزين تجاريين للبرتغال على ساحل ملبار فى كوشن وكنانور ، التى كانت كاليكوت تفرض عليهما نوعاً من السيادة الإسمية ، فكانت تأخذ منهما جزية سنوية ، كما كانت تفرض عليهما إستعمال عملتها الخاصة ، ونتيجة أوضاع تاريخية قديمة[٢] . وقد سارع حاكم « كوشن » إلى الترحيب بالبرتغاليين حتى يقوى جانبه أمام خصمه التقليدى حاكم « كاليكوت » ، فقام هؤلاء بمساعدته فى التخلص من جميع مظاهر تبعيته للسامرى[٣] . وقد انتهت مساعدات البرتغاليين بعد ذلك لحاكم « كوشن » إلى تدعيم نفوذهم لديه ، وإلى إقامة حصن قوى لهم فى « كوشن » ، وهو أول حصن يقيمه البرتغاليون فى الهند ، كما أدى هذا بدوره أيضـــاً إلى نجاحهم فى شراء ما يحتاجونه من بضائع هندية ، وفى إرسال مندوبيهم إلى الأقاليم الواقعة وراء ساحل « ملبار » لإقامة العلاقات التجارية معها[٤] ، وقد دفعت الإنتصارات الحربية والتجارية المتوالية ملك البرتغال إلى إتخاذ خطوة أكثر إيجابية ، وهى إقامة أول حكومة إستعمارية برتغالية فى الهند ، فقد عين الملك فى سنة ١٥٠٥ « فرانسيسكو دا الميدا »

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٤ أ .

(٢) Barbosa, D, : The East African and Malabar Coasts : pp. 12—13.

(٣) Ibid. : p 156.

(٤) Stephens, H. M. : Portugal. P,

حاكما عاماً للبرتغاليين فى الهند ، ومنحه لقب « نائب الملك » ، وجعل كوشن مقراً له . وغادر « دا الميـــدا » البرتغال فى مارس سنة ١٥٠٥ على رأس حملة كبيرة مكونة من اثنين وثلاثين سفينة وألف وخمسمائة جندى ، فاستولى فى طريقه على « كيلوة » و « ممباسا » أهم مركزين عربيين تجاريين على ساحل إفريقية الشرقى وذلك لاتخاذهما محطتين للسفن البرتغالية وهى فى طريقها إلى الهند . وعمل « دا الميدا » طوال مدة إقامته فى « كوشن » (١٥٠٥ — ١٥٠٩) على إقامة دعائم الحكومة الاستعمارية فى ساحل ملبار ، وأرسل الحملات الحربية إلى الجهات المختلفة لفتح مجالات التجارة أمام البرتغاليين بالقوة ، كما تدخل فى شئون الولايات هناك[١] .

وقد بدأت التجارة البرتغالية فى هذه المرحلة المبكرة تتسم ببعض الصفات التى استمرت بعد ذلك حتى إنهارت سيطرتهم على التجارة الشرقية فى النصف الأول من القرن السابع عشر . فنظراً للظروف التاريخية التى أحاطت بالرحلات منذ مراحلها الأولى ، فقد أصبحت التجارة البرتغالية احتكارا لملك البرتغال الذى كان يقوم باحتكار هذه التجارة والإشراف عليها بنفسه عن طريق لجنة ملكية خاصة[٢] . ويرجع حرص ملوك البرتغال على إحتكار التجارة الشرقية الى ضخامة الأعباء التى تتطلبها هذه التجارة ، فقد كانت هذه الأعباء فوق المشروعات الأهلية الخاصة[٣] ، كما يرجع ذلك أيضاً الى أن أرباح هذه التجارة كانت تغطى تكاليف الحملات البحرية الباهظة[٤] . واتصفت جهود البرتغاليين فى هذه المرحلة أيضاً بأنها لم تكن قاصرة على الإشتغال بالتجارة فقط ، فقد حرص البرتغاليون منـــذ البداية على نشر

---

(١) Stephens, H. M : Portugal, pp 195 — 196.

(٢) Kammerer, A. : La Mer Rouge, tome I. p. 109

(٣) Stephnes. H M : Ibid, p 191.

(٤) Kammerer, A. : La Mer Rouge, tome II, p. 95.

المسيحية فى المناطق المحيطة بمراكزهم التجارية أينما وجدت. وقد كانت حملة «كبرال» التى تلت حملة داجاما الأولى مباشرة تضم بعض القساوسة الذين أقاموا فى كوشن للتبشير هناك وازداد نشاط البرتغاليين التبشيرى بعد ذلك حتى بلغ قمته بعد نقل عاصمة البرتغاليين فى الهند من «كوشن» الى «جوا» سنة ١٥٠١، فأصبحت جوا منذ ذلك الحين أكبر مركز تبشيرى فى الهند[١].

أما موقف البرتغاليين من العرب والمسلمين فى هذه المرحلة فقد اتصف بالعداوة والعنف كما سبق أن أشرنا. وقد قامت السياسة البرتغالية حينئذ على مطاردة السفن العربية واغراقها أو الإستيلاء عليها، كما قامت أيضاً على مطاردة العرب من المراكز التجارية الهندية والإفريقية. واعتمد البرتغاليون فى تنفيذ هذه السياسة على قوة أساطيلهم البحرية، وعلى اقامة الحصون القوية الى جانب مراكزهم التجارية أينما وجدت. وقد قام فاسكو داجاما أثناء رحلته الأولى الى الهند بمهاجمة احدى السفن التجارية العربية فاستولى على ما بها من بضائع، ثم أمر بإغراقها بما تحمل من الركاب[٢]. وأكد البرتغاليون موقفهم هذا من السفن العربية عند ما قام داجاما برحلته الثانية الى الهند سنة ١٥٠٢، فقد كلف أحد قادته بالإقامة الدائمة على رأس خمسة سفن حربية عند مدخل البحر الأحمر لمهاجمة السفن العربية، ولمنع السفن المختلفة من المتاجرة فى مياه المحيط الهندى الا بتصريح خاص من البرتغاليين[٣]. ونجح هذا القائد فى مهمته الى حد كبير، فقد قام فى رجب سنة ٩٠٨ هـ (يناير سنة ١٥٠٣ م) بمهاجمة سبع سفن عربية واستولى عليها، كما قتل بعض ركابها وأسر البعض الآخر[٤]. وعمل البرتغاليون

---

(١) Stephens, H.M. ; Portugal, P. 208.

(٢) Panikkar, K.M. ; Asia and Western Dominance, pp. 42-43

(٣) Kammerer, A. : La Mer Rouge, tome II, p. 96.

(٤) Serjeant, R.R. ; The Portuguese off the South Arabian Coast, P. 41. Al-Shihri (15-b).

من ناحية أخرى على اضعاف مركز التجار العرب فى المراكز التجارية، فأثاروا الحكام الهنود ضد رعاياهم من العرب والمسلمين . وحاولوا دفع الحكام الى طرد هؤلاء الرعايا من بلادهم . بيد أن الأمراء الهنود كانوا يرفضون دائماً تنفيذ رغبة البرتغاليين ، وذلك لأهمية العرب الإقتصادية فى هذه الجهات[١].

وقد اشتد عنف البرتغاليين ضد العرب بعد ذلك عندما جاء « البوكيرك » أشهر القادة البرتغاليين الذين ظهروا فى البحار الشرقية ، الى مياه المحيط الهندى سنة ١٥٠٦ ، وعندما أصبح نائباً للملك فى آخر سنة ١٥٠٩ ، ولكننا نفضل ارجاء الحديث عن أعماله لأنه كان يمثل مرحلة أخرى قائمة بذاتها .

وقد لمس البرتغاليون منذ بداية هذه المرحلة ضخامة الأرباح التى يمكن أن يحققونها من وراء اشتغالهم بتجارة الشرق ، فقد كان لدى داجاما عند عودته من رحلته الأولى قائمـــة بالفروق الضخمة بين أسعار التوابل فى سوق الاسكندرية وبين أسعارها فى سوق كاليكوت[٢] . وأغراهم رخص أسعار البضائع الهندية فى مصادرها الأصلية عـلى أن يواصلوا جهودهم لإحتكار تجارة الشرق ولانتزاعها من أيدى العرب ، فحرصوا على ارسال حملاتهم البحرية سنوياً الى هناك لتعود بالوفير من هذه البضائع . وبدأ البرتغاليون منذ ذلك الحين يعرضون البضائع الهندية والافريقية فى « لشبونة » بأسعار أرخص بكثير من أسعارها فى أسواق الاسكندرية أو البندقية نظراً لرخص تكاليف نقـل بضائع الشرق عن الطريق البحرى المباشر الى « لشبونة » فأدى هذا الى جذب تجار أوروبا اليها . وقد حقق البرتغاليون أرباحاً طائلة من وراء تجارة الشـرق رغم عرضهـا بأسعار رخيصة ، وقد وصلت هذه الأرباح أحياناً الى خمسة أضعاف تكاليف الحملات التى

---

(١) زين الدين المليبارى : تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتكاليين ، ص ٤٦ .

(٢) Kammerer, A ; La Mer Rouge, Tome I, P. 90.

كانوا يرسلونها[1] . وأدت هذه الأرباح إلى قيام نشاط رأسمالي كبير في البرتغال بل وفي غرب أوربا ، فقد أسرع ملك البرتغال في سنة ١٥٠٣ إلى إفتتاح مستودع تجاري في « أنتورب »[2] لتوزيع بضائعه ، كما سارعت البيوت المالية في « أنتورب » إلى مد هذا الملك بالمال اللازم لإعداد حملاته إلى الهند[3] .

ولا شك في أن تحول التجارة الشرقية إلى طريق رأس الرجاء الصالح قد أدى إلى انهيار اقتصاديات البلدان العربية المشتغلة بهذه التجارة مثل اليمن ومصر . ويدل على هذا أن سفن البندقية كانت لا تجد لديها المال الكافي لشراء التوابل المكدسة في الاسكندرية في سنة ١٤٩٨ ، وهي التي بدأ فيها فاسكو داجاما رحلته إلى الهند ، وبعد ذلك بثلاث سنوات فقط أي في سنة ١٥٠٢ ، لم تجد هذه السفن في الاسكندرية ما تحمله من التوابل[4] . ولكي يتضح لنا مدى ما أصاب العالم العربي من خسائر يكفي أن نذكر أن سفن القافلة البحرية لحكومة البندقية — وهي تتألف من ثمان إلى ثلاث عشرة سفينة — كانت تأتي إلى مصر مرتين في كل عام ، وهذا عدا سفن الأهالي التجارية التي كانت ترد إلى الاسكندرية طوال العام ، وكانت جميعها تعود محملة بالتوابل . ولكن بعد إكتشاف الطريق البحري أصبحت القافلة الرسمية لا تزيد عن ثلاث سفن ولا تشاهد في ثغور مصر إلا مرة كل عامين ،

---

(١) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ، ترجمة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر ، ص ١٤٦ .

(٢) كانت أنتورب احدى مدن الأراضي الواطئة الهامة في العصور الوسطى ، ثم أصبحت العاصمة التجارية والمالية لأوربا منذ منتصف القرن الخامس عشر الى نهاية القرن السادس عشر تقريباً . وقد ازدادت أهميتها بعد حركة الكشوف الجغرافية فأصبحت مركزاً لتجارة أوربا والشرق والمستعمرات .

(٣) Panikkar, K.M. : Asia and Western Dominance P. 42.

(٤) Kammerer, A, : La Mer Rouge, Tome I, P. 141.

وأصبح مجيء سفن التجار نادراً وذلك لأن البنادقة أصبحوا لا يجدون ما يحملونه من التوابل[١] . ويرجع نضوب التوابل فى أسواق الاسكندرية — أو بيروت — دون شك إلى الحصار البحرى الذى فرضه البرتغاليون حول الشواطىء العربية الجنوبية ، وإلى إغراقهم السفن العربية فى المحيط الهندى أو قرب الشواطىء الهندية .

وبطبيعة الحال ، شاركت جمهورية البندقية العرب مصيرهم ، فقد نضبت أسواقها هى الأخرى من التوابل وغيرها من منتجات الشرق ، وبدأت لذلك تفقد أهميتها التجارية فى أوربا . وكانت جمهورية البندقية تعتمد إلى حد كبير خلال العصور الوسطى على تجارتها مع مصر فى بناء قوتها وإمبراطوريتها فى البحر المتوسط ، ولذلك كانت البندقية شديدة الحساسية إزاء كل ما يعرض هذه التجارة للخطر . وعند اكتشاف الطريق البحرى الجديد كانت البندقية أسرع من العرب فى إستجابتها للتحدى الجديد الذى واجهتهم به البرتغال لأنها كانت عند قمة عظمتها وقوتها حينذاك مما أعطاها القدرة الكافية على الحركة السريعة . وقد سارعت البندقية بعد عودة فاسكو داجاما من رحلته التاريخية إلى البرتغال بإرسال رسلها سراً إلى « لشبونة » لجمع المعلومات الدقيقة عن حقيقة خطط البرتغاليين ومشروعاتهم وعهدت إلى هؤلاء الرسل بمراقبة رحيل السفن إلى الهند ، ومعرفة الطريق البحرى الذى إكتشفه البرتغاليون ، كما عهدت إلى هؤلاء أيضاً بالإتصال بالسفراء الهنود فى لشبونة للحط لديهم من شأن البرتغاليين فى الناحية التجارية[٢] . وأرسل « الدوج »[٣] من ناحية أخرى سفراءه إلى السلطان قانصوه الغورى فى مصر (١٥٠١ — ١٥١٧) لتوضيح

---

(١) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية (مترجم) ، ص ١٤٧ .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣) الدوج : هو لقب رئيس جمهورية البندقية فى ذلك الحين .

حقيقة الاكتشافات البحرية أمامه ، فأتت الى مصر بعثتان دبلوماسيتان احداهما فى سنة ١٥٠٢ والأخرى فى سنة ١٥٠٤[١] . وقد حاول البنادقة عن طريق بعثاتهم الى مصر أن يدفعوا السلطان الغورى الى ارسال بعثة مصرية الى الهند تطالب من أمرائها وملوكها الإمتناع عن التعامل مع البرتغاليين ، كما طالب البنادقة السلطان الغورى أيضاً بتخفيض الرسوم الجركية التى تفرض على التوابل حتى يتمكنوا من منافسة البرتغال التى بدأت تغرق أسواق أوربا بهذه التوابل بأسعار رخيصة[٢] . وقد عرضت سفارة البندقية سنة ١٥٠٤ م مشروعاً جريئاً أمام السلطان الغورى وهو شق قناة عبر برزخ السويس ، ولكن لم يكتب لهذا المشروع أن يرى النور فى ذلك الوقت ، اذ لم توال البندقية اهتمامها بهذا المشروع ، كما كانت ظروف مصر الداخلية حينئذ لا تساعد على تنفيذه ، وواصلت البندقية ارسال سفرائها الى مصر بعد ذلك لإنقاذ تجارة الشرق من الإنهيار ولكن دون جدوى ؛ فقد كان نشاط البرتغاليين البحرى فى نمو مستمر ، اذ ظل هؤلاء يجردون الحملات البحرية الى الهند بانتظام كل عام لغمر أسواق أوربا بالتوابل وغيرها من تجارة الشرق ، فاضطرت البندقية فى النهاية الى شراء التوابل من سوق « لشبونة » مثلها فى ذلك مثل باقى بلاد الغرب[٣] .

ويهمنا هنا أن نعرف الدور الذى قام به اليمن فى مواجهة هذا الغزو البرتغالى . والحقيقة أن موقف اليمن كما أشرنا من قبل كان يتصف بالضعف ، فقد كان السلطان عامر بن عبد الوهاب ـ حاكم اليمن آنذاك ـ مشغولا بحروبه الداخلية من أجل توحيد البلاد تحت سيطرته ، بالإضافة الى افتقاره الى أسطول حربى قوى مزود بالأسلحة النارية كما كان الأمر بالنسبة للأساطيل

---

(١) Kammerer, A. ; La Mer Rouge, Tome 1, P. 141.

(٢) Ibid, P. 144.

(٣) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية (مترجم) ، ص ١٥٣ .

البرتغالية . وقد شاهدنا فى التمهيد كيف قضى السلطان عامر وقتاً طويلا فى حربه مع أقاربه المنافسين له على الحكم وكيف كان يضطر الى ارسال الحملات الى جهات « تهامة » أو « لحج » و « يافع » لإخماد اضطرابات القبائل وثوراتها هنا وهناك . وقد رأينا أيضاً اصطدام السلطان عامر مع القوى الزيدية فى شمال اليمن ، وأن هذا الصدام قد استمر عدة سنوات حتى استولى على صنعاء سنة ١٥٠٤ أى بعد حوالى خمسة عشر عاماً من تولية الحكم ، ولم يكن استيلاء السلطان عامر على صنعاء وقتذاك يعنى خضوع المنطقة الشمالية لسيادته ، فقد أعلن الإمام شرف الدين امامته فى أواخر سنة ١٥٠٦ ، كما ظلت بعض الجيوب الزيدية قائمة فى صعدة وفى الجوف الأعلى وغيرها ، فكان هذا يضطر السلطان الى مواصلة الحرب فى المنطقة الشمالية الى أواخر عهده لتدعيم نفوذه المهدد دائماً بها .

وبالإضافة الى ذلك فقد أدى الحصار البحرى الذى فرضه البرتغاليون على السواحل العربية الجنوبية الى ضعف ايرادات السلطان عامر الضخمة التى كانت ترد اليه من الموانىء اليمنية المختلفة ، أو بالأحرى لقد حرم الحصار البحرى السلطان عامر من « الخزانة العظيمة من المال ومن الذهب والفضة » التى كانت تحمل الى خزانة السلطان من « عدن » حتى قبيل مجىء البرتغاليين الى الهند[١] .

ورغم اضطراب أحوال السلطان عامر بن عبد الوهاب وضعف ايراداته المالية ؛ فقد أمر بتجهيز حملة بحرية فى سنة ٩١٢ هـ (١٥٠٧م) لمحاربة البرتغاليين فى الهند ، ولكنها كانت حملة ضعيفة تعبر عن حقيقة موقف السلطان عامر تجاه الغزو البرتغالى ، كما تعبر عن عدم ادراكه لحقيقة قوة الغازى الجديد الذى جاء الى الشرق . فقد أعد السلطان أربعة عشر سفينة بها ستمائة يمنى ،

---

(١) ابن الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد «مخطوطة» ص ٣١ ب .

وذلك بالإضافة إلى بعض العلماء والفقهاء وطلبة العلم الذين تطوعوا للجهاد ضد البرتغاليين[١] ، وقد غادرت هذه الحملة ميناء عدن فى ٢٧ شوال سنة ٩١٢ هـ (١١ مارس سنة ١٥٠٧ م) ، ولكننا لانعلم عنها شيئاً بعد ذلك ، وإن كنا نرجح أنها كانت فريسة سهلة للبرتغاليين لأن هذه السفن لم تكن إلاسفن نقل عادية وليست من النوع الحربى الذى يمكنه الصمود أمام الأسطول البرتغالى[٢] ، وقد عجز السلطان عامر بعد ذلك عن إرسال حملة أخرى إلى الهند ، كما عجز عن حماية سواحله أمام هجوم البرتغاليين عليها كما سنرى فيما بعد ، وذلك لضعف إمكانياته الحربية والمالية .

أما موقف المماليك فى مصر فى مواجهة الغزو البرتغالى فكان أكثر إيجابية عن موقف اليمن ، رغم عجز المماليك فى النهاية عن صد هذا الغزو الأوربى من مناطق الشرق ، ولاشك فى أن دولة المماليك كانت من أولى الدول التى تأثرت اقتصادياً بتحول طرق التجارة ، اذ أدى هذا التحول الى ضياع العوائد والرسوم الضخمة التى كانت تجنيها الخزانة المملوكية من موانىء مصر والشام والحجاز . ولقد أبدى المماليك اهتماماً بالغاً لوقف تحول التجارة الى أيدى البرتغال ، ولكنهم كانوا أضعف من مواجهة هذه الدولة البحرية الناشئة ، كما كانوا أعجز من القضاء على قوتها البحرية . فالدولة المملوكية لم تكن دولة بحرية كما كان حال البرتغال . بل كان المماليك فرساناً وليسوا بحارة ، وكذلك لم تكن الدولة المملوكية تملك الأخشاب اللازمة لبناء السفن بل كان سلاطين المماليك يجلبون

---

(١) ابن الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد ، (مخطوطة) ، ص ٤٢ ب .

(٢) لم نجد فى كتب ابن الديبع الذى يعتبر مؤرخ السلطان عامر الشخصى أية اشارات الى جهود السلطان عامر ضد البرتغاليين غير الاشارة الى هذه الحملة التى ذكرناها ، كما أن ابن الديبع هو المعاصر الوحيد الذى أشار الى هذه الحملة اذ لم تعثر اليها المخطوطات اليمنية الأخرى التى رجعنا اليها أو المخطوطات الحضرمية التى نشرها سارجنت Serjeant حديثاً فى كتابه سالف الذكر .

هذه الأخشاب ، وكذلك الصناع والمهندسين من الخارج[١] ، وبالإضافة الى ذلك فقد كانت الدولة المملوكية فى حالة ضعف عام لانهيار النظام المملوكى نفسه، ولقيام الاضطرابات الداخلية بها . ففى أواخر سنة ١٥٠٥ بينما كان السلطان قانصوه الغورى (١٥٠١ –١٥١٧) مضطراً الى تجهيز حملة بحرية حربية لمحاربة البرتغاليين فى الهند، فقد كان مجبراً على إعداد حملتين أخريين ، ليرسل احداهما الى « الكرك » بالشام ، وليرسل الأخرى الى « ينبع » بالحجاز ، وذلك لإخماد الثورات بهما[٢] .

ورغم هذا كله فقد بذل السلطان الغورى قصارى جهده لإنقاذ اقتصاد بلاده من الانهيار ، وقد تجلى ذلك فى انشغاله فى سنة ١٥٠٥ بإعداد حملة بحرية حربية لإرسالها الى الهند للقضاء على البرتغاليين هناك ، وكان استنجاد الأمراء الهنود بالسلطان الغورى من العوامل الهامة التى شجعته على ارسال هذه الحملة الى الهند ، وذلك بالإضافة الى حرصه على استرجاع مركز مصر التجارى الى ما كان عليه ، فقد أرسل سلطان كجرات[٣] الى الغورى ، يستعين به على الإفرنج ، ويطلب العدد والآلات والمدافع لدفع ضرر الإفرنج عن المسلمين ، ولم يكن أهل الهند إذ ذاك يعرفون المدافع والبندقيات[٤] . واستنجد السامرى « بكاليكوت » ، بالسلطان الغورى كذلك فأرسل اليه يطلب معونته[٥] ، ومن البديهى أن يستنجد سلاطين

---

(١) Stripling' G.W.F. , The Ottoman Turks and the Arabs, 1511 - 1514. P. 31.

(٢) محمد بن أحمد بن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى ، جـ٤ ، ص ٨٢ .

(٣) تعتبر سلطنة كجرات أهم الممالك الإسلامية على ساحل الهند الغربى ، وهى تحتل أقصى شمال هذا الساحل ، وعاصمة هذه السلطنة هى أحمد أباد ، أما أهم موانئها فهى كمبايا ، وديو ، وسورات .

(٤) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى « مخطوطة » ، ص ٤ أ .

(٥) زين الدين المليبارى : تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتكاليين ، ص ٤٠ .

الهند بالغوري . فقد كانت الدولة المملوكية حينئذ أقوى الممالك الإسلامية ذات المصالح الاقتصادية المباشرة فى الهند وفى المحيط الهندي ، كما كان لديها أيضاً الأسلحة النارية الحديثة التى يمتلكها البرتغاليون .

ولقد غادرت الحملة القاهرة فى ٦ من جمادى الآخرة سنة ٩١١ هـ (٤ نوفمبر سنة ١٥٠٥ م) تحت قيادة الأمير حسين الذى اشتهر فيما بعد باسم حسين الكردى ، فتوجهت الى السويس حيث أبحرت بها السفن التى أعدها السلطان هناك [١] . ولانعرف تماماً تعداد جنود هذه الحملة ولكنها كانت مؤلفة من المغاربة وأبناء المماليك فى مصر ويعرفون بأولاد الناس ، ومن المماليك السلطانية والاحباش والتركمان ، وكان المغاربة يؤلفون أغلب أفراد هذه الحملة لأنهم كانوا من البحارة [٢] . أما عدد سفن الحملة فقد كان حوالى ثلاثة عشر سفينة [٣] . وقد تبلورت خطة المماليك حينذاك فى تقوية حكمهم فى أقاليم البحر الاحمر ، وفى تحصين سواحل هذا البحر ، وذلك قبل أن تتوجه حملتهم بقيادة حسين الكردى الى الهند ، ولذلك فقد كان من مهام هذه الحملة تحصين ميناء « جدة » خوفاً من وقوع أية احتمالات فى المستقبل وخاصة لأن البرتغاليين كانوا قد بدءوا يشيعون بأنهم سيهاجمون المدن المقدسة فى الحجاز ويخربونها ، وأنهم سيعملون جهدهم لإحتلال « بيت المقدس » . وقد حمل حسين الكردى معه كثيراً من البنائين والنجارين وغيرهم من الفنيين الى جدة ، وعند وصوله الى هناك شرع فى بناء سور ضخم ذى أبراج عالية [٤] . وأكمل حسين الكردى خطة الحملة بالتوجه الى « سواكن » فاستولى عليها دون حرب وأقام بها بعض الاستحكامات [٥] ، وتوجهت الحملة بعد ذلك الى

---

(١) ابن أياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ٤ ، ص ٨٥ .

(٢و٣) نفس المرجع : ص ٨٤ .

(٤) نفس المرجع والصفحة .

(٥) نفس المرجع : ص ٩٦ .

الموانىء اليمنية، فرت « بجيزان » ثم بجزيرة « كران » ، ومنها الى « المخا » ثم الى « عدن » حيث استقرت هناك بعض الوقت ، وقد أوضح حسين الكردى لوالى عدن من قبل الطاهريين أن غرض الحملة هو التوجه الى الهند لمحاربة البرتغاليين ، كما طلب منه أن يمده بالطعام والمؤن اللازمة ، فسمح له الوالى بأن يأخذ من « عدن » مايشاء[١] .

وقد أحرز الأسطول المصرى انتصاراً جزئياً أمام الاسطول البرتغالى بعد قليل من وصوله الى « ديو » ، أهم موانىء سلطنة كجرات ، فقد توجه حسين الكردى مع حاكم « ديو » « مالك اياس » على رأس أسطوليهما الى « كاليكوت » للإشتراك مع أسطول « السامرى » فى القضاء على البرتغاليين فى ساحل « ملبار » ، وطردهم نهائياً من الهند[٢] . وفى أثناء الطريق تقابل القائدان بالقرب من ميناء « شيول »[٣] الصغير بأسطول برتغالى مكون من ثمانى سفن ، فنشبت بين الطرفين معركة بحرية انتصر فيها الاسطول المملوكى وحليفه الكجراتى وذلك فى خريف سنة ١٥٠٨[٤] ، ثم عاد الاسطولان الى « ديو » لإصلاح بعض سفنهما وانتظاراً لإنتهاء موسم المطر .

وقد أثار هذا الإنتصار البرتغاليين ، كما كان وصول الأسطول المصرى إلى هناك مفاجأة لهم ، وزاد من إحساس البرتغاليين بالخطر ، وماشاهدوه من قيام حلف بحرى بين المصريين وبين بعض الولايات على ساحل الهند الغربى مثل كجرات وبيجابور وأحمد ناجاپار وكاليكوت . وقد سارع حينئذ نائب ملك البرتغال وهو « دا الميدا » على رأس تسع عشرة سفينة الى « ديو » لمواجهة هذا الخطر ، وهناك أحرز البرتغاليون نصراً حاسماً فى

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح « مخطوطة » جـ١ ، ص ٨٥ ب .

(٢) Barbosa, D : The East African and Malabar Coasts, p. 61,

(٣) يقع ميناء شيول جنوب سلطنة كجرات وكان يتبع مملكة الدكن الإسلامية .

(٤) Kammerer' A. : La Mer Rouge. tome 1, P. 155.

زين الدين المليبارى : تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتكاليين ، ص ٤٠ — ٤١ .

٣ فبراير سنة ١٥٠٩ أمام سفن الحلف المصرى الهندى التى بلغ عددها مائة سفينة[١] . وكان البرتغاليون يدركون خطورة السفن المصرية ، اذ كانت هى السفن الوحيدة المسلحة بالمدافع بين سفن هذا الحلف الكبيرة العدد ، ولذلك تعمد البرتغاليون مهاجمة السفن المصرية فقط والقضاء عليها[٢] . ويبدو أن انتصار حسين الكردى فى معركة « شيول » قد جعله يستهين بقوة البرتغاليين البحرية ، فقد رفض الكردى نصيحة حاكم « ديو » بالإنتصار فى ميناء ديو لحماية ظهور السفن ، وأصر على مغادرة الميناء لملاقاة البرتغاليين فى عرض البحر[٣] .

ومهما يكن سبب الهزيمة فقد تمكن الأمير حسين الكردى من أن ينجو بنفسه وأن يهرب عائداً الى مصر ، أما مالك اياس فقد رأى بعين المصلحة الخاصة أن يسارع بعقد الصلح مع البرتغاليين فأرسل رسله وهداياه الى « د الميدا » تعبيراً عن رغبته فى السلام[٤] . وقد أخرت هذه الخطوة الأخيرة وقوع ديو فى أيدى البرتغاليين الى سنة ١٥٣٥ م ، وخاصة لأن « دا الميدا » كان يؤمن بسياسة الإكتفاء بسيطرة البرتغاليين على البحر دون التوسع فى الإستيلاء على المواقع البرية[٥] .

ولا شك فى أن انتصار البرتغاليين فى معركة « ديو » قد ثبت أقدامهم فى المياه الهندية ، ولكن حدث فى أواخر سنة ١٥٠٩ نفسها ما دعم هذا

---

(١) Stephens, H. M. : Portugal. P. 197.

(٢) زين الدين المليبارى : تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتكاليين ؛ ص ٤٠ — ٤١ .

(٣) نفس المرجع : ص ٤١ .

(٤) Barbosa, D. : The East African and Malabar Coasts. p. 61.

(٥) M. Longworth Dames : The Portuguese and Turks in the Indian Ocean in the sixteenth century, Journal of the Royal Asiatic Society, 1920. part 1, p. 11.

الإنتصار، وما جعله انطلاقة لإنتصارات أخرى متالية حققت للبرتغاليين السيطرة على التجارة الشرقية حتى النصف الأول من القرن السابع عشر ، فقد تم فى ذلك الوقت تعيين « ألفونسودا البوكيرك » نائباً للملك فى« كوشن » بدلا من « دا الميدا » . ويعتبر « البوكيرك » أول مؤسس للإستعمار الأوربى فى الشرق ، فقد عمل على إحتلال المراكز البحرية الهامة وإقامة الحصون القوية فى جميع جهات المحيط الهندى حتى يحكم سيطرة البرتغاليين على مصادر التجارة ويعتبر البوكيرك أيضاً بداية لمرحلة جديدة فى تاريخ البرتغاليين فى الشرق إذ كان يختلف عن « دا الميدا » فى نظرته إلى دور البرتغاليين فى المحيط الهندى وفى نظرته إلى السياسة التى كان عليهم أن يتبعوها هناك . ففى خطاب « لدا الميدا » إلى ملك البرتغال يتضح لنا أنه كان لايرى مبرراً للاستيلاء على مراكز برية كثيرة تكلف البرتغاليين مالا يطيقونه ، بل يرى أن غرض البرتغال الأكبر هو إحتكار التجارة ، ولذلك فيجب على البرتغاليين تقوية أسطولهم فقط لإحكام سيطرتهم على البحار(١) . أما البوكيرك فكان يرى إقامة القلاع الحصينة أينما يقيم المراكز التجارية ، وذلك ليس لحسب لحماية التجارة البرتغالية بل وادعم قوة البرتغاليين وفرض سيطرتهم على الحكام الوطنيين أيضاً(٢) . وكان البوكيرك يقيم سياسته هذه على أساس منطق سليم ، إذ كان يرى أنه نظراً لبعد البرتغال عن مناطق التجارة الشرقية ، فإنه يجب على البرتغاليين أن يقيموا المراكز الحربية القوية فى داخل هذه المناطق لتدعيم مركزهم هناك و « لتأمين سلامتهم ضد فورات الحكام الوطنيين»(٣) .

ويمكن أن نقسم عهد البوكيرك فى الشرق إلى فترتين : الفترة الأولى تبدأ من سنة ١٥٠٦ عندما وصل الى رأس الرجاء الصالح ضمن حملة بحرية

---

(١) Kammerer , La mer Rouge tome 1, p 156.

(٢) Sir Arnold Wilson : The Persian Gulf, p. 117.

(٣) Dames, M.L. : J.R.A.S., 1921, part 1. p. 11.

كبيرة ، وتبدأ الفترة الثانية من سنة ١٥٠٩ عندما عين نائباً للملك فى « كوشن » حتى توفى فى أواخر سنة ١٥١٥ فى الهند . وقد قضى البوكيرك سنوات الفترة الأولى الثلاث أمام السواحل العربية الجنوبية وعند مدخل الخليج الفارسى ، فساعد ذلك على تكوين نظرة عامة عن أوضاع المنافذ العربيـــة الجنوبية لتجارة الشرق . وكانت الحملة البحرية التى أتى البوكيرك معها الى الشرق مكلفة باحتلال جزيرة « سقطرة »[١] بالقرب من مدخل البحر الأحمر لإغلاق هذا البحر أمام التجار العرب ، فنجحت هذه الحملة فى احتلال الجزيرة فى سنة ٩١٢ هـ (١٥٠٧/٦ م) وأقامت بها حصناً للبرتغاليين[٢] . وبقى البوكيرك « بسقطرة » على رأس بعض السفن لمهاجمة السفن العربية عند مدخل البحر الأحمر الجنوبى وتوجهت باقى السفن الى الهند . وعندئذ قام البوكيرك بأول أعمال عدوانية تخريبية فى مطلع العصور الحديثة على ساحل (عمان) حتى جزيرة (هرمز) شرقاً ، فقد سار بأسطوله الى ميناء (قلعة) على الساحل العمانى الذى كان خاضعاً لسيادة هرمز ، فهاجمه وأشعل النيران بالمدينة ، كما أغرق سبعاً وعشرين سفينة كانت راسية فى الميناء . وواصل البوكيرك أعماله العدوانية على هذا الساحل ، فهاجم مدينة (مسقط) بالرغم من استعداد حاكمها لدفع الجزية التى كان يدفعها للملك (هرمز) الى البرتغاليين ، وأمر بضرب المدينة بالمدافع واحراقها ، واحراق مسجدها وكذلك جميع السفن التى بمينائها ، كما قبض على كثير من الأسرى ، فأخذ بعضهم للخدمة فى السفن البرتغالية ،

---

(١) تقع جزيرة سقطرة (سوقطرا Socotra, Socotora) بالقرب من الساحل الجنوبى للجزيرة العربية إلى الشرق من عدن ، وهى جزيرة جبلية وعرة قليلة السكان ، كما تنتشر حولها الشعاب المرجانية : وقد ترك البرتغاليون الجزيرة بعد قليل فى سنة ١٥١١ عندما شعروا بقلة فائدتها الحربية والتجارية .

(٢) Serjeant, R.B. : The Portuguese off the South Arabian Coast, p. 43, (Shanbal, 136).

وترك الضعفاء والنساء منهم بعد أن قطع آذانهم وأنوفهم[١] . وكرر البوكيرك هذه الأعمال الوحشية على طول مدن الساحل حتى « خورفكان » ، ثم اتجه بعد ذلك الى جزيرة هرمز نفسها . ولاشك فى أن أفعال القوة الزائدة التى أبداها البوكيرك أمام ساحل عمان كان لها تأثيرها البالغ فى موقف أهالى « هرمز » ، فرغم استعدادات الدفاع الكبيرة التى أعدت حول الجزيرة ، فقد استسلمت « هرمز » أمام البوكيرك بعد معركة بحرية قصيرة ، وتم الصلح بين الطرفين . وكان هذا الصلح بداية سيطرة البرتغاليين على تجارة الخليج ، تلك السيطرة التى تدعمت بعد ذلك الى أوائل القرن السابع عشر ، رغم تعرضها لثورات الأهالى هناك أو على الساحل العربى المواجه للجزيرة ، ورغم تعرضها لهجوم العثمانيين كما سنرى فيما بعد . وقد قبل ملك هرمز فى هذا الصلح الدخول تحت سيادة البرتغاليين ، ودفع جزية سنوية لهم ، كما نصت شروط الصلح على ألا يدفع البرتغاليون ، أية ضرائب عن البضائع التى يجلبونها من البرتغال ، أما البضائع الأخرى فلا يدفعون عنها أكثر مما يدفع أهالى « هرمز » أنفسهم ، وبالإضافة الى هذا فقد استولى البوكيرك على قطعة أرض فى الجزيرة لإقامة حصن عليها ، كما قرر عدم السماح لسفن الأهالى بالتجول فى الخليج الا بتصريح خاص من البرتغاليين[٢] .

أما الفترة الثانية من عهد البوكيرك فى الشرق ، فقد بدأت منذ أواخر سنة ١٥٠٩ كما أشرنا عندما أصبح نائباً للملك فى كوشن . وقامت سياسة البرتغاليين فى هذه المرحلة الجديدة على أساس احتلال المراكز التجارية الهامة لتدعيم السيطرة البرية ، إذ كان البوكيرك يرى أن السيطرة على مصادر التجارة أسهل بكثير من مطاردة السفن التجارية فى عرض البحار . ولذلك فقد كانت خطة البوكيرك فى هذه الفترة تنحصر فى ثلاث نقاط ،

---

(١) Wilson, A : The Persian Gulf, p 114

(٢) Ibid, ; pp. 116—118.

وهى : الاستيلاء على مركز متوسط على ساحل الهند الغربى لاحكام السيطرة على هذا الساحل وذلك بدلا من « كوشن » المتطرفة جنوباً ، والاستيلاء على « هرمز » لاغلاق طريق الخليج إلى « البصرة » ، والاستيلاء على (عـــدن) لاغلاق طريق البحر الأحمر إلى مصر[١] .

وقد قام البوكيرك بالاستيلاء على « جوا »[٢] فى سنة ١٥١٠ وأقام بها الحصون القوية ، ثم نقل إليها مقر البرتغاليين فى الهند لتوسط موقعها على ساحل الهند الغربى[٣] وقد أثر سقوط « جوا » فى أيدى البرتغاليين فى موقف باقى الممالك الهندية على الساحل الغربى للهند ، فقد وافقت سلطنة كجرات عندئذ على أن يقيم البرتغاليون محطة تجارية وحصناً لهم فى « ديو » ، كما وافقت كاليكوت على عقد الصلح مع البرتغاليين ، وعلى إقامة حصن لهم بها[٤] .
وأكمل البوكيرك خطته فى السيطرة على المراكز التجارية الهامة بالاستيلاء على ميناء « ملقا »[٥] فى مايو سنة ١٥١١ وكان هذا الميناء حينئذ من أهم الموانى التجارية فى العالم ، فقد كانت « ملقا » أهم مركز لتجمع منتجات جزر الهند الشرقية وغيرها من مناطق الشرق الأقصى حتى الصين شرقاً ، وكان البوكيرك يدرك جيداً أهمية « ملقا » التجارية بالنسبة للعرب ، وذلك كما اتضح فى خطاب طويل له ألقاه أمام جنوده قبل الهجوم عليها ، فبعد أن أثار حماس

---

(١) Wilson, A. : The Persian Gulf, p. 119.

(٢) كان ميناء جوا يتبع مملكة بيجابور الإسلامية ، وتذكر المراجع العربية جوا تحت اسم كوة أو كووه .

(٣) زين الدين المليبارى: تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتكاليين ، ص ٤٢ — ٤٣ .

(٤) Kammerer, A. ; La Mer Rouge Tome II. p. 165.

(٥) تقع مدينة ملقا عند طرف شبه جزيرة الملايو ، وكانت تتبع فى البداية مملكة « سيام » ولكنها تمكنت من تحقيق استقلالها بفضل قوتها الاقتصادية . وقد وصل العرب إليها فى وقت مبكر ونشروا الاسلام بها ، وكانت تعتبر من أهم المراكز التجارية للعرب فى هذه الجهات ، ولذلك يعتبر استيلاء البوكيرك عليها ضربة اقتصادية عظيمة الأثر للتجارة العربية . ويلاحظ أن استيلاء البرتغاليين على « ملقا » حينئذ كان بداية لامتداد نشاطهم التجارى فيما بعد إلى موانىء الصين .

الهنود ضد حكام ملقا المسلمين وتجارها ، قال : « وإنى على يقين لو أننا انتزعنا تجارة « ملقا » هذه من أيديهم لأصبحت كل من « القاهرة » و « مكة » أثراً بعد عين ، ولامتنعت عن البندقية كل تجارة التوابل ما لم يذهب تجارها إلى البرتغال لشرائها من هناك »[١] .

وقد تم فى عهد البوكيرك أيضاً سيطرة البرتغاليين على أهم المراكز التجارية على ساحل إفريقية الشرقى ، ففى سنة ١٥٠٩ كانت جميع مراكزه التجارية الاسلامية الهامة قد خضعت للبرتغاليين من « سوفالا » جنوباً إلى « براوة » شمالا وكذلك جزر « زنجبار » و « موزمبيق » و « بمبا » و« مافيا »[٢] . كما يلاحظ أنه قد تم فى عهد البوكيرك كذلك أول إتصال مباشر بين الحبشة والبرتغال ، ففى سنة ١٥٠٩ أرسلت الامبراطورة «هيلينا» — الوصية على عرش ابنها الطفل — أحد أتباعها ويدعى «ماثيوس» إلى الهند ليعرض على نائب ملك البرتغال هناك التعاون بين البلدين فى اعلان الحرب العامة على المسلمين وخاصة المماليك فى مصر . وقد تمكن « ماثيوس » بعد مغامرات طويلة من أن يقابل البوكيرك فى سنة ١٥١٢ ، فقام هذا الأخير بإرساله الى ملك البرتغال بعد أن حصل منه على معلومات قيمة ساعدته فى مهاجمة « زيلع » أثناء حملته على « عدن » والبحر الأحمر سنة ١٥١٣ كما سنذكر فيما بعد .

وقد نجح « ماثيوس » فى مهمته الى حد كبير فقد عاد الى الحبشة ومعه أول سفارة دبلوماسية برتغالية الى أباطرة الحبشة . ولا يقلل من قيمة هذا النجاح أن البرتغاليين لم يتمكنوا من اعادة « ماثيوس » ومعه هذه السفارة الى السواحل الحبشية الا فى سنة ١٥٢٠ ؛ اذ يرجع هـذا الى صعوبة المواصلات ، والى الأخطار المحيطة بالسفر حينئذ ، وقد توفى « ماثيوس »

---

(١) Panikkar. K.M. : Asia and Western Dominance, P. 49.

(٢) Serjeant, R.B. ; The Portuguese off the South Arabian Coast, P. 14.

بعد قليل من وصوله إلى الساحل الحبشى قبل أن يقابل نجاشى الحبشة[١].

وكان دافع الإمبراطورة هيلينا الحقيقى لإرسال ماثيوس إلى البرتغاليين هو أملها فى الحصول على مساعدة هؤلاء لوقف النشاط الإسلامى المعادى حول ممتلكاتها وخاصة على يد ملوك مملكة « عدل » الذين تمكنوا وقتئذ من الاستيلاء على إقليم « هرر » ، كما سيطروا على طرق الحبشة إلى البحر الأحمر. وكان نشاط المماليك فى البحر الأحمر من أكبر العوامل التى عملت على تشجيع الممالك والإمارات الإسلامية فى شرق إفريقية فى تلك الآونة على محاربة أباطرة الحبشة[٢]. وكانت مملكة « عدل » ممتدة الأرجاء وتسيطر على الأراضى التى تطل على رأس قرن أفريقية (رأس كوردافوى) ، كما كانت تمتلك ميناءى « زيلع » و « بربرة » ، وكان لهذه المملكة ، كما كان لغيرها من مسلمى الحبشة ، علاقات وطيدة قديمة مع السلاطين والملوك المسلمين وخاصة فى اليمن ومصر وكذلك مع أشراف مكة ، وكان هؤلاء الحكام يرسلون إليهم الأسلحة والخيول لمعاونتهم فى حروبهم ضد أباطرة الحبشة[٣]. وكان من البديهى أن يرحب البرتغاليون بإقامة علاقات مباشرة مع الحبشة ، إذ كان هذا هو أملهم الكبير منذ أن أرسلوا « كوفلهام » سالف الذكر إلى هناك ، فقد كان يهم البرتغاليون عقد تحالف مع الحبشة لتطويق العالم الإسلامى من الجنوب. ولإيجاد مراكز بحرية لهم فى داخل البحر الأحمر لمهاجمة الحجاز ومصر ، وسنشير إلى هذا كله فيما بعد.

وأخيراً ، فقد تم على يد البوكيرك أول هجوم برتغالى على عدن والسواحل اليمنية ، وأول زحف برتغالى إلى داخل البحر الأحمر ، فنقل

---

(١) A'varez. F. : Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia, 1520—1527, pp. 391.

(٢) Kammerer. A. : La Mer Rouge, Tome I, p. 248.

(٣) Alvarez. F. : Ibid, P. 346.

البوكيرك بذلك المعركة البحرية إلى داخل البحر الأحمر وهدد اليمن والحجاز ومصر تهديداً مباشراً ، وبدأ عندئذ الصراع العربى البرتغالى يمر بمرحلة جديدة من مراحله المختلفة . وقد تعمدنا توضيح الخطوات التى سبقت زحف البوكيرك إلى البحر الأحمر حتى تتضح أمامنا أبعاد الجهود العربية المضادة للغزو البرتغالى ، وحتى تتضح الأوضاع التى واجهت العثمانيين عند وصولهم إلى حوض البحر الأحمر حتى اليمن والحبشة جنوباً .

وكان هدف البوكيرك الأساسى من وراء زحفه إلى البحر الأحمر هو القضاء على قوة المماليك البحرية حتى لا يتعرض نفوذ البرتغاليين فى الهند نفسها للتهديد كما حدث من قبل أى فى سنة ١٥٠٩ . فرغم هزيمة المماليك فى معركة « ديو » البحرية ، فقد ظل المماليك يمثلون خطراً جاثماً يهدد بقاء البرتغاليين فى الشرق ، ولم تكن خطورة المماليك تتمثل فى قوتهم المادية فقط ، بل كان لهذه الخطورة جانب معنوى أيضاً ، إذ أصبح المماليك منذ معركة « ديو » يمثلون « رمز المقاومة » عند الهنود . وقد عبر البوكيرك عن ذلك فى خطاب أرسله إلى ملك البرتغال سنة ١٥١٢ يستأذنه فيه فى مهاجمة « عدن » و « البحر الأحمر » ، فقد أشار البوكيرك إلى أن الهنود مازالوا يرددون أن هناك نجدة مملوكية سوف تصل إلى الهند لتخليصهم من البرتغاليين ، وأنه — أى البوكيرك — يرى أنه لا استقرار أو أمان للبرتغاليين فى الهند إلا بالتوجه إلى البحر الأحمر للقضاء على قوة المماليك نهائياً ، حتى يثبت أمام الهنود أنه لا وجود لتلك القوة التى ينتظرون مجيئها إلى الهند لنجدتهم(١) . وكان تعلق الهنود بالمماليك قد اتضح عملياً أمام البوكيرك عندما شاهد مساعدة شاه مملكة « بيجابور » الإسلامية — إلى الجنوب من كجرات — لفلول المماليك بعد معركة « ديو » البحرية ، فقد دعا الشاه بقايا المماليك للإقامة فى بلاده ، وأمدهم

(١) Wilson, A. : The Persian Gulf, p. 118.

بما يحتاجونه من الأخشاب والأدوات اللازمة لبناء بعض السفن . وقد نجح هؤلاء المماليك فى إزعاج البرتغاليين أمام ساحل الهند الغربى بعض الوقت حتى تمكن البوكيرك من القضاء على قوتهم بعد احتلاله لميناء « جوا » الذى كان يتبع هذا الشاه [١].

وكان غرض البوكيرك من وراء زحفه إلى البحر الأحمر من ناحية أخرى هو الاستيلاء على « عدن » باعتبار ذلك جزءاً من خطته العامة وهو السيطرة على مصادر التجارة وغلق المنافذ العربية البحرية . وكان البوكيرك قد أدرك قبل ذلك أن الجزء الأكبر من التجارة الشرقية يتبع طريق البحر الأحمر وليس طريق الخليج الفارسى ، وأن « عدن » هى أكبر مستودع تجارى هناك ، وأنه يجب السيطرة عليها لتأمين طريق البرتغال الجديد حول رأس الرجاء الصالح [٢].

وقد اتجه البوكيرك إلى « عدن » فى فبراير سنة ١٥١٣ على رأس حملة بحرية كبيرة تتألف من عشرين سفينة ومن ألف وسبعمائة جندى برتغالى . وذلك بالإضافة إلى حوالى ثمانمائة من الهنود من ساحل مابار [٣] . وقد بدأ الهجوم على « عدن » فى ١٦ محرم سنة ٩١٩ هـ (٢٤ مارس ١٥١٣ م) فأسرع الأهالى بإبلاغ الأمر إلى الأمير مرجان [٤] حاكم عدن الذى اضطرب لظهور البرتغاليين أمام الميناء فأسرع بدوره بإرسال الخبر إلى السلطان

---

(١) Barbosa, D. : The East African and Malabar Coasts pp. 75—76.

(٢) Stephens, H. M. : Portugal, pp. 190—200.

(٣) Wilson, A. ; The Persian Gulf, pp. 118—119.

(٤) كان الأمير مرجان حاكماً « لعدن » فى أيام السلطان عامر بن عبد الوهاب ثم استمر فى منصبه بعد مقتل هذا السلطان حتى توفى بها فى سنة ٩٢٧ هـ (١٥٢١/٢٠ م) وقد أطلق عليه مرجان الظافرى نسبة إلى لقب السلطان عامر (العيدروس : ص ١٣٢ — ١٣٣) .

عامر بن عبد الوهاب الطاهرى الذى كان يواصل حروبه الداخلية رغم نجاحه حينذاك فى الإستيلاء على صنعاء ، وفى مد سيطرته إلى شمال اليمن . واهتم السلطان بتجهيز حملة حربية إلى « عدن » لنجدتها ، كما أمر باقى الأمراء بالموانىء اليمنية باتخاذ اللازم للدفاع عن موانئهم [١] . إلا أنه يلاحظ أن « عدن » قد اعتمدت على نفسها فى صد المغيرين ، إذ تطورت الأحداث بسرعة قبل وصول أى مدد متوقع من داخل اليمن . فقد هاجم الأسطول البرتغالى الميناء نفسه فى صباح اليوم التالى لوصوله إلى (عدن) ، واستولى البرتغاليون على البضائع التى فى السفن الراسية فى الميناء دون أن يبدى العدنيون أية مقاومة . وكانت خطة أهالى عدن فى الدفاع عن مدينتهم هى الاعتماد على حصانتها الطبيعية،وعدم منازلة البرتغاليين فى معركة بحرية نظراً لقوة الأساطيل البرتغالية . وقد شجع هذا الهدوء (البوكيرك) ، فأنزل جنوده إلى البر حيث دارت معركة كبيرة حول أسوار عدن أستبسل فيها الأهالى فى الدفاع عن أنفسهم ، فاضطر البرتغاليون إلى الانسحاب إلى السفن بعد أن فقدوا بعض القتلى [٢] . وقد بقى البوكيرك فى الميناء أياما يقوم بأعماله التخريبية التى اشتهر بها ، فأحرق حوالى أربعين سفينة كانت راسية هناك[٣] . واتجه البرتغاليون بعد ذلك إلى باب المندب ودخلوا البحر الأحمر لأول مرة فى تاريخهم ، فمروا بالموانىء اليمنية حتى وصلوا إلى جزيرة (كمران) فاستولوا عليها فى أوائل صفر سنة ٩١٩ (أوائل أبريل سنة ١٥١٣) ، وخربوا كل مافيها من مظاهر الحياة كما ردموا آبارها [٤] ، وذلك حتى لا يستفاد بالجزيرة بعد مغادرتهم لها ، وخاصة لأنها كانت

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون (مخطوطة) ، ص ١٥١ أ .

(٢) بومخرمة : قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر (مخطوطة) ج٣ ، م٢ ، ص١١٤ أ — ١٩٥ أ .

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد (مخطوطة) ، ص ٥٠ ب .

(٤) ابن الديبع : نفس المرجع (مخطوطة) ، ص ٥١ أ .

تعتبر محطة بحرية هامة بين « جدة » و « عدن » . وقد حاول البوكيرك أن يواصل تحقيق مشروعه الكبير وهو مهاجمة « جدة » ، فسارع بمغادرة جزيرة « كمران » واتجه شمالا، ولكن الرياح اضطرته إلى الرجوع إلى الجزيرة قبل أن يصل إلى « جدة » فبقى هناك أكثر من شهرين[١] . وفى خلال هذه المدة واصل البوكيرك تنفيذ خطته التدميرية فى حوض البحر الأحمر ، وقام بإرسال سفينتين إلى ميناء « زيلع » على الشاطىء الإفريقى ، فقامت السفينتان بضرب « زيلع » بالمدافع ، وأحرقتا السفن الراسية بمينائها[٢] . وعاد البوكيرك إلى « عدن » ثانية فواصل ضربها بالمدافع حوالى خمسة عشر يوماً حتى غادرها إلى الهند فى أول جمادى الثانية سنة ٩١٩ هـ (٤ أغسطس سنة ١٥١٣ م)[٣] . وبالرغم من فشل البوكيرك فى الوصول إلى « جدة » أو فى الإستيلاء على « عدن » ، فقد نجح فى أن يقود خطوات البرتغاليين إلى داخل البحر الأحمر ، كما نجح فى أن يرسم لخلفائه خطة غزو هذا البحر إلى أقصى شماله حتى تمكن العثمانيون فيما بعد من إغلاقه أمام البرتغاليين بل وأمام القوى الأوربية الأخرى .

وقد أفادت البوكيرك هذه الرحلة الحربية فى أن يلقى نظرة شاملة على أوضاع جنوب البحر الأحمر ، وفى أن يلمس عملياً كيفية التعاون مع الحبشة فى إعلان الحرب الشاملة على المسلمين فى جهات هذا البحر . فقد حرص البوكيرك أثناء إقامته فى جزيرة « كمران » ، وأثناء تجوله فى داخل هذا البحر ، على أن يجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن البحر الأحمر

---

(١) Serjeant, R. B. : The Portuguese off the South Arabian Coast, p. 169.

(٢) بومخرمة : قلادة النحر فى وفيـات أعيان الدهر (مخطوط) جـ ٣ ، م ٢ ، ص ١٩٠ أ .

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد (مخطوطة) ، ص ٥١ أ .

ومراكزه المختلفة وحركة التجارة به وغير ذلك . وقد إنعكست هذه المعلومات فى الخطابات التى أرسلها البوكيرك إلى ملك البرتغال بعد هذه الرحلة ، ولكن يهمنا هنا أن نشير إلى اقتراحاته العملية التى جاءت فى بعض هذه الخطابات .

ففى خطاب مؤرخ ٢٠ اكتوبر سنة ١٥١٤ م ذكــــر البوكيرك أنه يجب الإستيلاء على « عدن » وإقامة حصن قوى بها للبرتغاليين ، إذ أن بها ميناء صالحاً لرسو السفن البرتغالية ، كما أنها تعتبر البوابة الحقيقية للبحر الأحمر ، أما جزيرة « بريم » فهى جزيرة قاحلة وليس بها ماء عذب للشرب . كما ذكر البوكيرك هنا أيضاً أن على البرتغاليين تأمين جانبهم فى «مصوع» حتى يضمنوا لأنفسهم الحصول على المؤن والإمدادات اللازمة لهم . وفى خطاب تال لألبوكيرك إلى الملك ، قال إن غرضه هو التقدم إلى ميناء « مصوع » التابع « للقديس جون » أى إمبراطور الحبشة ، ليستولى على جزر « دهلك » — المواجهة « لجدة » — ثم يرى من هناك ما يمكن أن يقوم به لمهاجمة « جدة » ، كما عبر البوكيرك فى هذا الخطاب عن تصميمه على ضرورة العودة إلى البحر الأحمر لإقامة العلاقات مع «القديس جون»، والقضاء على قوة سلطان «القاهرة» فى البحر الأحمر ، ولتخريب مكة[١] . وقد أعد البوكيرك بالفعل حملة بحرية كبيرة مكونة من ست وعشرين سفينة وألف وخمسمائة برتغالى وسبعمائة هندى من ساحل « ملبار » ، وغادر الهند فى فبراير سنة ١٥١٥ إلى البحر الأحمر ، ولكن أحداث « هرمز » التى علم بها أثناء الطريق جذبته إلى هناك . وقد تمكن البوكيرك من القضاء على الثورة فى «هرمز» وأعاد إليها السيادة البرتغالية، ولكن اشتد به المرض هناك فعاد إلى « جوا » حيث توفى فى ١٥ ديسمبر سنة ١٥١٥ بعد وصوله إليها مباشرة[٢] .

---

(١) Wilson, A. : The Persian Gulf, p. 129.

(٢) Ibid' ; p, 121.

وهكذا يتضح أمامنا جوانب هذه المرحلة من الغزو البرتغالى للشرق ، وهى التى كان البوكيرك رمزاً لها ، وقد رأينا أنه قد تم خلال هذه المرحلة السيطرة على مصادر التجارة فى الهند وجزر الهند الشرقية وساحل إفريقية الشرقية ، كما رأينا أن البرتغاليين قد نجحوا فى نقل المعركة البحرية إلى المناطق العربيـــة نفسها سواء فى الخليج العربى أو فى البحر الأحمر . وقد عبر البوكيرك عن ذلك أثناء مرضه فى آخر خطاب له إلى الملك — وهو أشبه شىء بالوصية — بقوله إنه قد بسط السيادة البرتغالية على مصادر التجارة الشرقية ، وأنه لم يترك لخلفائه سوى أن يعملوا على ســـد منافذ المضايق العربية[١] .

وقد رسم البوكيرك بهذه الوصية الطريق أمام البرتغاليين للقضاء على العرب اقتصادياً وسياسياً ، فماذا فعل العرب لمواجهة التحدى الكبير بعد أن تعرضت حدودهم نفسها للخطر .

أوضحنا قبل ذلك عجز حكومة اليمن عن الوقوف أمام الغزو البرتغالى لتجارة الشرق ، وقد ازداد عجز هذه الحكومة بعد ذلك حتى أصبحت غير قادرة على الدفاع عن سواحل اليمن عندما هاجمها البرتغاليون . وقد رأينا كيف اعتمدت « عدن » على حصانتها الطبيعية فى الدفاع عن نفسها حتى إنسحب البوكيرك أخيراً من مينائها دون أن تصل النجدة التى وعـــد السلطان عامر بإرسالها إلى هناك . وحاول أهالى الساحل أن يهاجموا البرتغاليين أثناء إقامتهم فى جزيرة « كمران » ، وطلبوا من السلطان أن يسمح لهم بذلك ، وأن يعطيهم السلاح اللازم ، ولكن السلطان رفض طلب الأهالى[٢] . وظل سلبياً فى موقفه من البرتغاليين حتى إنسحبوا من هناك .

---

(١) Wilson, A. : The Persian Gulf. p 121.

(٢) بومخرمة : قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر (مخطوطة) حـ٣، ٢ ص١١٩٥ .

وقد أدى عجز السلطان عامر عن صد الهجوم البرتغالى على سواحل اليمن إلى أن يستنجد بالسلطان الغورى فى مصر[١]، غير أن النجدة المصرية تأخرت فى الوصول إلى اليمن بعض الوقت كما سنرى فيما بعد .

أما المماليك فى مصر فقد واصلوا اهتمامهم بمحاربة البرتغاليين ، وازداد هذا الاهتمام دون شك بعد توغل البرتغاليين فى داخل البحر الأحمر . وكان السلطان الغورى قد بدأ يتخذ العدة لإعداد أسطول بحرى ثان فى « السويس » ليتوجه به الأمير حسين الكردى إلى الهند كما ذكرنا ، وزاد اهتمامه بإعداد هذا الأسطول بعد وصول خبر انتصار الكردى فى معركة « شيول » ، فأرسل عندئذ أحد رجالات دولته إلى « الطور » فى ١١ محرم سنة ٩١٥ هـ (أول مايو سنة ١٥٠٩ م) ليتفقد سير العمل فى بناء سفن الأسطول[٢] .

ولكن تأخر إعداد هذا الأسطول عدة سنوات وذلك لسوء أحوال الغورى الإقتصادية والسياسية العامة من ناحية ، ومن ناحية أخرى لتعرض سواحله الشمالية لهجات القراصنة الأوربيين وعلى رأسهم « فرسان القديس يوحنا » الذين كانوا يقيمون فى جزيرة « رودس » حينئذ . ففى ذى القعدة سنة ٩١٤ هـ (فبراير / مارس سنة ١٥٠٩) تعرض ميناء الطينة — شرقى دمياط — لهجوم إحدى سفن القراصنة فى البحر المتوسط ، فقام أحد أمراء المماليك الذى كان مكلفاً وقتئذ بتحديد الأبراج هناك بالاستيلاء على هذه السفينة وبالقبض على بحارتها ثم أرسل الأسرى إلى « القاهرة »[٣] . وتكرر مثل هذا الحادث بعد ذلك كما حدث عند البرلس فى سنة ٩١٧ هـ (١٥١١ م)[٤] ، ولكن كان أهم هذه الأحداث هو

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٤ ب .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ ٤ ، ص ١٥١ .

(٣) نفس المرجع : ص ١٤٥ .

(٤) نفس المرجع : ص ٢٢٠ .

هجوم « فرسان القديس يوحنا » على سفن (الغورى) فى خليج (إياس) واستيلائهم عليها ، وذلك فى منتصف سنة ١٥١٠ ، وكانت السفن المصرية — ويبلغ عددها ثمانى عشرة سفينة — تحمل الأخشاب والمعدات اللازمة لبناء سفن الأسطول الذى يجرى إعـــداده فى (السويس) ، فأحرق (فرسان رودس) بعض هذه السفن وأغرقوا البعض الآخر ، كما استولوا على ما تبقى منها . وكان لهذه الخسارة الفادحة رد فعل عنيف لدى (الغورى) فقد أمر حينئذ بالقبض على رهبان كنيسة القيامة (بالقدس) وصادر أموالهم ، كما أمر بالقبض على التجار الأجانب فى الموانىء المصرية والشامية ، وقد هدد الغورى بشنق الرهبان ، وبهدم كنيسة القيامة ، إذا لم يرد فرسان القديس يوحنا ما استولوا عليه من السفن والأخشاب ، ولكن لم تفد هذه التهديدات شيئاً[1] . وازدادت أحوال (الغورى) سوءاً فى ذلك الوقت عند ما سمع فى أواخر سنة ٩١٦ هـ (يناير / فبراير ١٥١١ م) عن تآمر جمهورية البندقية حليفة الأمس عليه ، فقبض على قناصلها فى (الإسكندرية) و (دمشق) و (طرابلس). وكانت هذه الجمهورية قد رأت ، بعين مصلحتها التجارية الخاصة ، أن تتعاون مع الشاه إسماعيل الصفوى لإحياء الطريق التجارى عبر إيران والعراق إلى منافذ الشام على البحر المتوسط ولذلك كانت خطة المتآمرين التى وقعت فى أيدى الغورى تقضى بأن يتعاون الصفويون والبنادقة فى القضاء على الدولة المملوكية ، فيقوم الصفويون بمهاجمة هذه الدولة براً من ناحية العراق ، على أن يقوم البنادقة بمهاجمتها من ناحية البحر[2] .

وهكذا كانت الأخطار تحيط (بالغورى) فى نفس الوقت الذى انخفضت فيه موارده الاقتصادية انخفاضاً كبيراً نتيجة تحول التجارة إلى أيدى البرتغاليين.

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ٤ ، ص١٩٥ — ١٩٦ .

(٢) نفس المرجع [illegible]

وقد أدى هذا كله إلى بطء خطوات (الغورى) فى تجهيز الأسطول اللازم لمحاربة البرتغاليين . وإلى بطء تشييد القــلاع والأبراج على السواحل ، فعرضه هذا البطء لانتقادات الأهالى . وقد قبض الغورى على أحد العلماء فى (دمياط) لأنه هاجمه فى مسجدها أمام الناس واتهمه بالتقصير فى واجب (الجهاد) ، ولكن (الغورى) أفرج عنه بعد فترة قصيرة ، وبعد أن أحضره إلى القاهرة وناقشه فيما ذهب إليه ، وأوضح له ضعف إمكانياته العسكرية والمـالية[1] .

وفى وسط هذه الظروف القاسية اتجه الغورى إلى الدولة العثمانية ليشترى منها ما يحتاجه من أخشاب وأدوات لبناء الأسطول . وكانت الدولة العثمانية حينذاك أقوى الدول السنية المجاورة له . كما لم يكن لها حتى ذلك الوقت أغراض توسعية فى بلاده كما كان للصفويين الشيعة . وكان من حسن حظ «الغورى» أن كان على رأس هذه الدولة السلطان « بيازيد الثانى » (١٤٨١-١٥١٢م) الذى عرف بتدينه الشديد حتى إنه مال إلى التصوف فى آخر أيامه . فأمر بأن يرسل إلى السلطان « الغورى » كل ما يطلبه لإنشاء الأسطول اللازم هدية له دون أى مقابل[2]. وقد وصلت هدية العثمانيين إلى القاهرة فى شوال سنة ٩١٦هـ (يناير ١٥١١م) ثم نقلت إلى «السويس» . وكانت هدية كبيرة القيمة دون شك فقد كانت تحتوى على ثلاثمائة مدفع وثلاثين ألف سهم وأربعين قنطاراً من البارود وألفى مقذاف من الخشب « وغير ذلك من نحاس وحديد وعجل وحبال ومراسى وغير ذلك مما تحتاجه المراكب»[3]. ولكن مما يلفت النظر هنا هو ظهور

---

(١) جمال الدين محمد الشلى : السنا الباهر بتكميل النور السافر فى أخبار القرن العاشر (مخطوطة) ، ص ١٦٥ — ١٦٧ .

(٢) Ismail Hakki Uzun Garili : Osmanli Tarihi, II Cilt, pp. 380 — 381.

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ٤ ، ص٢٠١ .

ألفين من البحارة العثمانيين فى السويس فى ذلك الوقت ، واشتراكهم فى إعداد الأسطول المصرى وفى الحملة البحرية التى أرسلها الغورى إلى جنوب البحر الأحمر ، وكان هؤلاء البحارة تحت رئاسة سلمان الريس ، الذى اشتهر أيضاً باسم « سلمان الرومى » ، والذى أصبح قبطاناً للأسطول المملوكى بعد إعداده . ونحن لا ندرى حقيقة هذه الجماعة أو كيفية دخولها فى خدمة « الغورى » وذلك لقلة المادة التاريخية اللازمة ، وقد قيل إنهم كانوا من المتطوعين الذين أتوا إلى مصر لمساعدة « الغورى » فى محاربة البرتغاليين كما قيل إنهم كانوا من الفارين أمام ظلم الحكم العثمانى ، ولكننا نرجح الرأى الأول لقوة الرباط الدينى بين الشعوب الإسلامية فى ذلك الوقت ، ولما أظهره « الغورى » من اهتمام بالغ لسلمان الرومى وجماعته عند ما ذهب إلى « السويس » للاحتفال بإنزال سفن الأسطول إلى البحر[١] .

وقد استغرق إعداد الأسطول المصرى فى « السويس » بضع سنوات أى إلى النصف الأول من سنة ١٥١٥ ، وفى هذه الأثناء جاء إلى « الغورى » خبر توغل البوكيرك إلى داخل البحر الأحمر ، فقام « الغورى » على الفور بإرسال ثلاثمائة جندى إلى « السويس » ، كما أرسل عدداً آخر من الجنود تحت قيادة « حسين الكردى » — الذى كان قائداً للأسطول المملوكى فى معركة « ديو » — إلى « جدة » للدفاع عنها حتى يتم إعداد الحملة الكبيرة[٢] . وقد اهتم (حسين الكردى) أثناء إقامته فى (جدة) بتشييد الأسوار حولها ، وهى التى كان قد بدأ فى بنائها أثناء حملته الأولى إلى الهند . ونظراً لقلة إيرادات (حسين

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج٤ ، ص ٣٦٥ — ٣٦٦ . (قام الأستاذ Ross فى دراسته : J. R. A. S., Part IV pp. 1—9 بتقصى أخبار سلمان الرومى ودخوله فى خدمة الغورى ، ولكنه لم يصل إلى نتيجة قاطعة ، كما أنه أخطأ فى سنة وفاته فذكر أنه توفى فى سنة ١٥٢٩ بينما كانت وفاته فى سنة ١٥٢٨ كما سنرى فيما بعد) .

(٢) ابن إياس نفس المرجع ، ص ٣٠٧ - ٣٠٨ .

الكردى) من المال — لعدم مجىء السفن التجارية إلى « جدة » عدة سنوات — فقد اضطر « الكردى » إلى مصادرة أموال بعض التجار هناك ، كما أجبر الأهالى على العمل فى بناء السور حتى يتم الإنتهاء منه فى أقصر وقت ممكن نظراً للحاجة الحربيـــة الملحة وقتئذ ، فأثار هذا سخط بعض معاصريه عليه[١] .

وقد تم أخيراً إعداد الحملة البحرية التى اشتهرت حينئذ باسم (حملة الهند)، والتى كلفت الغورى الكثير من الجهد والمـال ، فقام السلطان باستعراض جنودها فى احتفال كبير فى القاهرة فى ١٠ رجب سنة ٩٢١ هـ (٢٠ أغسطس سنة ١٥١٥ م) ، وعين الرئيس سلمان العثمانى قائداً للأسطول على أن يتولى قيادة الحملة الأمير « حسين الكردى » نائب « جدة » عند وصولها إلى هناك ، وكان عدد سفن الحملة حوالى عشرين سفينة ، أما عدد أفرادها فكان حوالى ستة آلاف ، وأغلب هؤلاء من البحارة العثمانيين والمغاربة والتركمان أما الباقى فكانوا من البيوت والفرق المملوكية المختلفة[٢] .

ويرجع اهتمام الغورى الشديد بإعداد هذه الحملة إلى أنه كان يدرك أن معركة تحديد المصير إنمـا هى فى الهند ، فهو إذا نجح فى طرد البرتغاليين من هناك فإنه سيتغلب عندئذ على أزمته الاقتصادية وعلى الاضطرابات الداخلية ، كما سيتمكن أيضاً من إعداد الأساطيل القوية للدفاع عن سواحله الشمالية . وبالإضافة إلى ذلك فقد ظل الأمراء الهنـــود يشجعونه على إرسال حملة بحرية إلى الهند للقضاء على النفوذ البرتغالى هناك ، ففى صفر ٩١٦ هـ (مايو / يونية ١٥١٠ م) حضر رسول سلطان « كجرات » محمود شاه ، وغيره من رسل الأمراء الهنود إلى السلطان « الغورى » يستنجدون به ضد

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٤ — ٤ ب .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج ٤ ، ص ٤٦٦ — ٤٦٧ .

البرتغاليين الذين اشتدت وطأتهم فى الهند بعد انتصارهم فى معركة ديو[١]، فقام السلطان (الغورى) بدوره بإرسال مندوب من قبله فى الشهر التالى مباشرة إلى الملوك والأمراء الهنود، ليعدهم بإرسال حملة بحرية إليهم، وليطالب منهم أن يظلوا متعاونين معه حتى يتم لهم طرد البرتغاليين من الهند[٢].

وقد قدر لهذه الحملة البحرية ألا تصل إلى هدفها النهائى فى الهند، بل أجبرتها الظروف التى واجهتها أمام السواحل اليمنية — بالإضافة إلى بعض الظروف الأخرى — على التوقف عند (عدن). فمما لاشك فيه أن توغل البرتغاليين إلى داخل البحر الأحمر سنة ١٥١٣ م كان قد فرض على المماليك أن يتخذوا سياسة دفاعية قوية فى البحر الأحمر قبل أن يتوجهوا إلى الهند. وقد رأينا كيف ازداد اهتمام المماليك بتحصين (جدة) على يد (حسين الكردى)، كما قام هذا الأمير باحتلال (زيلع) بعد أن تولى قيادة (حملة الهند) عند وصول الأسطول المصرى إلى (جدة)، وبالإضافة إلى ذلك كان للماليك نوع من السيادة فى (سواكن) منذ حملتهم الأولى إلى الهند. وهكذا لم يبق أمام المماليك إلا إقامة القواعد البحرية على السواحل اليمنية وخاصة فى (عدن)، وذلك لغلق البحر الأحمر أمام البرتغاليين، ولاتخاذ هذا الميناء الهام قاعدة لنشاطهم البحرى فى المحيط الهندى وفى الهند. وكان سلطان اليمن عامر بن عبد الوهاب قد وافق على أن يقيم الغورى قواعد بحريه على السواحل اليمنية وذلك عندما استنجد بالمماليك بعد هجوم البوكيرك على عدن سنة ١٥١٣م. ولما فشل الهجوم المذكور دون أية مساعدة خارجية، وتأخر وصول الأسطول المصرى إلى اليمن، تراجع السلطان عامر عن الوفاء بوعده، فأدى هذا إلى أن قام الأمير «حسين الكردى» بمهاجمة السواحل اليمنية بالقوة[٣].

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج٤، ص ١٨٢ — ١٨٣.
(٢) نفس المرجع: ص ١٨٥.
(٣) E Denison Ross : The Portuguese in India and Arabia between 1507—1517. Journal of the Royal Asiatic Society. 1921. Part IV. October, p. 560.

وقد توالت الأحداث بعد ذلك سريعة متوترة ، واحتد النزاع بين المماليك والسلطان عامر حتى انتهى الأمر بقتل هذا السلطان واحتلال المماليك لصنعاء. وفى نفس الوقت كان الأسطول المملوكى قد فشل فى الاستيلاء على (عدن) ، فاضطر الأمير (حسين الكردى) إلى التراجع بأغلب قطع الاسطول إلى (جدة) لتركيز الدفاع بها بعد أن كلف بعض أجزاء الحملة بإحكام السيطرة على تهامة اليمن لحماية جنوب البحر الاحمر ، وبعد أن وصل خبر تقدم حملة برتغالية إلى هذا البحر . ولكن حدث بعد ذلك بقليل أن سقطت الامبراطورية المملوكية فى أيدى العثمانيين فى أوائل سنة ١٥١٧ ، فأدى هذا كله إلى تأخير إرسال حملة بحرية إلى الهند ، إذ لم يتم ذلك إلا فى سنة ١٥٣٨ فى عهد السلطان سليمان القانونى كما سنرى فيما بعد .

ولقد تم أول اتصال بين الحملة المملوكية وبين السلطان عامر بن عبد الوهاب بعد وصول الحملة إلى (جيزان) اول الموانىء اليمنية الشمالية ، فقد أرسل حسين الكردى رسوله إلى السلطان عامر يخبره بوصول الحملة لمحاربة البرتغاليين ، ويطلب منه مساعدته ومده بالمعونة من المال والطعام ، ولكن لم يجب السلطان إجابة واضحة وكرر حسين الكردى الإتصال بالسلطان عامر عند وصول الحملة إلى جزيرة (كمران) فى ١٧ ذو القعدة سنة ٩٢١ هـ (٢٣ ديسمبر سنة ١٥١٥ م) ، فأرسل الرسل والهدايا الى السلطان عامر فى (المقرانة) التى كان يتخذها مقراً له ، كما أرسل الهدايا أيضاً الى ابنه وولى عهده فى زبيد ، ثم طلب الكردى ثانية من السلطان مساعدته ومده بما تحتاجه الحملة « مدلا عليه بما سبق له من المكاتبات الى السلطان الغورى فى طلب النجدة »[1] . وقد مال السلطان فى بادىء الامر الى اجابة طلب حسين الكردى والوفاء بوعوده السابقة للسلطان (الغورى) ، ولكن أشار عليه أحد قادته بعدم اجابة مطالب المماليك وطرد رسولهم ، وكانت حجة هذا

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٤ ب .

القائد هى الخوف من أن تكون مطالب المماليك نوعاً من فرض السيادة السياسية أو السيطرة العسكرية على اليمن . أو أن يتحول طلب المماليك إلى جزية سنوية يطالب بها اليمن باسم محاربة البرتغاليين، وكان المماليك قد نزلوا عندئذ إلى جزيرة (كمران) وشرعوا فى بناء سور حول الجزيرة لتحصينها[١] ، وذلك طبقاً لخططهم العام فى البحر الأحمر وهو إقامة قاعدة بحرية فى جنوب هذا البحر لغلقه أمام البرتغاليين ، وعندئذ أمر السلطان عامر ولاته فى الموانىء اليمنية بمنع وصول الطعام إلى المماليك فى جزيرة (كمران) لزحزحتهم من هناك . فقام المماليك بضرب ميناء (الحديدة) بالمدافع عندما أمر حاكمه بحجز ثلاث سفن كانت قادمة من (زيلع) من مواصلة رحلتها إلى كمران . ونقل شحنتها من الأطعمة إلى الساحل . وقد نزل المماليك إلى الساحل بعد فرار حاكم (الحديدة) وأخذوا ما يلزمهم من طعام . كما حملوا معهم بعض الأخشاب والأدوات اللازمة لبناء السور حول (كمران)[٢] .

وقد انتهزت بعض العناصر اليمنية — الساخطة أو الطامعة أو الطموحة — فرصة العداء الصريح بين الحملة المملوكية وبين السلطان عامر بن عبد الوهاب فعملت على استغلال هذه الحالة لتحقيق مصالحها الخاصة ، وقامت بالاتصال بالمماليك لتشجيعهم على النزول الى الساحل للقضاء على حكم السلطان عامر ابن عبد الوهاب . ورحب حسين الكردى بدوره بهذه الاتصالات حتى يتمكن من النزول الى السواحل اليمنية لتحقيق غرض الحملة بالقوة، وهو اقامة القواعد البحرية اللازمة هناك،وذلك بعد أن اتضح له أن السلطان عامر يرفض التعاون معه ، والسماح له بالنزول الى السواحل اليمنية .

وكان على رأس تلك العناصر اليمنية ، الإمام شرف الدين يحيى ، الذى

---

(١) Serjeant, R. B. : The Portuguese off the South Arabian Coast pp (43—49) (Ba Makhramah : Al-Shihri, 36 b) .

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيد (مخطوطة) ، ص ٥٣ ب .

كان قد سبق أن أعان أمامته فى حجة فى سنة ١٥٠٦ م كما ذكرنا . والذى ظل خامل الذكر هناك منذ ذلك الحين نظراً لقوة قبضة السلطان عامر على زمام الأمور فى اليمن .

وقد قام الإمام شرف الدين بالكتابة الى حسين الكردى بعد وصول الحملة الى « كمران » وطلب منه مده بالجنود حتى يتمكن من محاربة السلطان عامر . كما تعهد بأن يتكفل بمرتبات واحتياجات هـؤلاء الجنود طوال مدة اقامتهم معه[1] ، وكان الإمام يدرك أن العدو الحقيقى للمماليك هم البرتغال ، ولذلك ألصق بالسلطان عامر تهمة التعاون معهؤلاء حتى يثير المماليك ضده[2] . ورغم ذلك لم يسارع حسين الكردى بالرد على الامام شرف الدين ، بل انتظر حتى اتضح موقف السلطان عامر من الحملة كما ذكرنا . ثم كتب الى الامام بأنه سوف يرسل اليه ما يحتاجه من جنود .

وكان الأشراف فى « جيزان » على اتصال سابق بالسلطان الغورى أيضاً فقد عمل هؤلاء على التقرب من المماليك فى مصر ، وشجعوهم على ارسال حملة الى اليمن للقضاء على حكم السلطان عامر بن عبد الوهاب . وكان السلطان يعترف بحكم هؤلاء الأشراف فى « جيزان » مقابل أن يدفعوا له خراجاً سنوياً ، ولكن طمع هؤلاء فى التخلص من مظاهر تبعيتهم للسلطان عامر ومن دفع الخراج له ، فلم يجدوا أمامهم الا المماليك فى مصر للاستعانة بهم فى تحقيق أطماعهم فى اليمن . وعند مجىء الحملة البحرية الى ميناء « جيزان » ، أرسل أميرها أخاه عز الدين بن أحمد بن دريب الى حسين الكردى ليكون مرافقاً له الى جزيرة كمران ، وليقوم بتحقيق أطماع هؤلاء الأشراف ضد الدولة الطاهرية[3] . وسنرى أن الأمير عز الدين قد شارك المماليك فى توغلهم الى داخل اليمن حتى استيلائهم

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ١ ، ص٦٠ أ — ٦٠ ب .
(٢) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص١١٥ .
(٣) العقيلى : من تاريخ المخلاف السليمانى ، جـ١ ، ص ٢٩٣ — ٢٩٥ .

على « زبيد » كما ظل هذا الأمير يلعب دوراً هاماً فى تاريخ اليمن فى الفترة التالية حتى قتل أثناء نزاعه مع سلمان الرومى .

والى جانب هؤلاء ، عمل بعض الساخطين من أهالى تهامة والجنوب على الاتصال بالحملة المملوكية للانتقام من قســـوة ولاة وعمال السلطان عامر بن عبد الوهاب . وكانت وطأة السلطان عامر قد اشتدت على أهالى اليمن لجمع الخراج منهم حتى يعوض النقص الذى أصاب ايراداته من جراء تحول التجارة الى طريق رأس الرجاء الصالح ، ومهاجمة البرتغاليين للسفن العربية التجارية فى عرض البحار . وقد قام أمير « زبيد » فى جمادى الاولى سنة ٩٢١ هـ (يوليه سنة ١٥١٥ م) — أى قبل وصول الحملة المملوكية الى اليمن بقليل — ببعض الاعمال الحربية فى شمال تهامة لاخماد الاضطرابات بها ولجمع الخراج بالقوة . وقد اسهبت المراجع اليمنية المعاصرة وقتذاك فى وصف عنف سياسة هذا الامير فى المناطق التهامية وشدة بطشه بالاهالى[١] ، ولذلك كانت أماكن تلك الاحداث هى نفسها التى رسمت خط تقدم المماليك فى تهامة فيما بعد حتى تم استيلائهم على « زبيد » .

وكيفما كان الامر فقد كان أمير ميناء « اللحية » أول من سارع من بين أمراء الساحل بالاتصال بالمماليك فى جزيرة « كمران » فقد توجه الى هناك وعرض على « حسين الكردى » معاونته ومده بما يحتاج من المؤن ، كما طلب منه أن يرسل معه بعض الجند لفتح الطريق أمام المماليك الى داخل تهامة ، فقام الكردى بارسال سفينة الى اللحية ، تحمل هذا الامير ومعه مائة جندى مسلحين بالبنادق التى لم تكن معروفة باليمن حتى ذلك الوقت ، فتقدم هؤلاء الى مدينة « مور » التهامية واستولوا عليها[٢] . ولا شك فى

(١) ابن الديبع : قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون (مخطوطة) ص ١٥٢ أ — ١٥٣ أ .

(٢) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ١ ، ص ٦١ أ .

أن قوة مدافع الأسطول المملوكى كانت من العوامل الهامة التى دفعت أمير « اللحية » إلى الإسراع بالاتصال بالمماليك ، أو كما قيل إن أمير اللحية كان قد « فهم الدرس »[١] الذى تلقاه أمير « الحديدة » على يد المماليك عندما ضربت مدينته بالمدافع من البحر ، وخاصة بعد أن شاهد أمير « اللحية » عجز الحكومة الطاهرية عن حماية « الحديدة » بالرغم من إرسالها نجدة صغيرة إلى هناك لمنع المماليك من النزول إلى البر[٢] . وقد سارع كذلك أهالى مدينة « الزيدية » التهامية بالاتصال بالأمير « حسين الكردى » الذى أمدهم بمائتى مملوك ، فتقدم الجميع إلى مدينة « الضحى » واستولوا عليها[٣] ، وقد ثأر أهالى « الزيدية » بذلك لأنفسهم من أمير مدينة « الضحى » الذى سبق له أن نكل بهم .

وقد سارت الأحداث فى تهامة اليمن سريعة بعد ذلك ، إذ كان سقوط بعض المدن التهامية فى أيدى المماليك قد أثار السلطان عامر بن عبد الوهاب ، فأرسل أخاه عبد الملك على رأس قوة كبيرة إلى زبيد فى ١١ ربيع الأول سنة ٩٢٢ هـ (١٤ أبريل ١٥١٦ م) للوقوف أمام هذا الخطر الداهم وهنا سارع حسين الكردى بالنزول إلى الساحل على رأس ألف مقاتل من المسلمين بالبنادق ، وبصحبته الشريف عز الدين سالف الذكر ، فدارت معركة كبيرة إلى الشمال من « زبيد » بين حسين الكردى وبين الطاهريين . وانتهت بهزيمة الأخيرين وتراجعهم إلى « زبيد » للتحصن بها . وتقدم حسين الكردى عندئذ إلى (زبيد) بتشجيع حلفائه من اليمنيين وحاصرها ، وسرعان ما استولى عليها بعد أن فر منها الأمير عبد الملك وفلول جيشه إلى « تعز »

---

(١) Kammerer, A : La Mer Rouge, tome I, p. 234.

(٢) وصف قطب الدين دهشة أهالى « الحديدة » أمام قذيفة مدافع المماليك فقال (ص ٤ ب) « وأخذوا الحجر معهم إلى « زبيد » يتفرجون عليه ويفرجون الناس عليه ، ويتعجبون منه ويستعظمون أمره » .

(٣) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) جـ أ ، ص ٦١ أ .

وذلك فى ١٩ جمادى الأول سنة ٩٢٢ هـ (٢١ يونيه ١٥١٦ م)[١] .

وقد قام المماليك بكثير من أعمال السلب والنهب فى « زبيد » وصادر حسين الكردى أموال الكثير من التجار والأهالى ، ولكنه لم يمكث هناك غير قليل ، فقد عين الأمير « برسباى » حاكماً « لزبيد » ، وقائداً للمماليك فى تهامة ، ثم عاد هو الى الساحل . وقام حسين الكردى بمواصلة مهمته فى جنوب البحر الأحمر ، فتوجه على رأس قطع الأسطول الى « زيلع » واستولى عليها ، ثم توجه من هناك الى « عدن » فوصل اليها فى ١٣ رجب سنة ٩٢٢ هـ (١٢ أغسطس سنة ١٥١٦ م)[٢] .

وقد استبسلت « عدن » مرة أخرى فى الدفاع عن نفسها ، واعتمدت فى ذلك أيضاً على حصانتها الطبيعية ، وعلى أنها محاطة بالجبال العالية . وتمكن المماليك فى بادىء الأمر من الدخول الى ميناء « عدن » وانزال بعض جنودهم ومعداتهم الى الساحل ، غير أنهم ردوا على أعقابهم أمام هجوم العدنيين عليهم . وعاود المماليك الكرة على يد « سلمان الرومى » الذى كان يطارد بعض السفن اليمنية وهى فى طريقها الى الهند ، الا أن هذا الهجوم باء بالفشل أيضاً ، بعد أن تعرض « سلمان الرومى » نفسه للخطر . وقد وصلت أخيراً نجدة طاهرية كبيرة الى « عدن » تحت قيادة الأمير عبد الملك سالف الذكر ، وذلك عندما كان المماليك يستعدون لشن هجوم ثالث عليها ، وعندئذ انسحب المماليك الى سفنهم وغادروا « عدن » فى ٢١ رجب سنة ٩٢٢ هـ (٢٠ أغسطس سنة ١٥١٦ م)[٣] .

---

(١) ابن الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد (مخطوطة) ، ص ٥٤ أ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٥٤ ب .

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيد (مخطوطة) ص ٥٤ ب ، عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ أ ، ص ٦١ ب .

ولقد أدى فشل المماليك فى الاستيلاء على « عدن » الى توقف حملتهم عن الذهاب الى الهند ، فقد رأى هؤلاء أنه لا يمكن — مؤقتاً — الذهاب الى هناك دون ضمان حماية البحر الأحمر ، ودون تأمين خط رجعتهم . ولذلك فقد قرر المماليك أن يتخذوا سواحل تهامة اليمن خط دفاع أول عن البحر الأحمر ، على أن تكون جدة خط الدفاع الثانى[1] . وقد عاد حسين الكردى الى داخل البحر الأحمر ، وقابل الأمير برسباى فى ميناء « المخا » ، وكان هذا الأمير قد زحف جنوباً من (زبيد) ليشترك فى محاصرة « عدن » من ناحية البر أثناء هجوم الأسطول عليها من ناحية البحر ، ولكنه توجه الى ميناء « المخا » عندما علم بعودة الحملة الى البحر الأحمر[2] . ولم تشر المراجع المعاصرة وقتذاك الى مادار بين حسين الكردى وبرسباى فى هذه المقابلة فى « المخا » ، ولكننا نرجح أنها كانت خاصة بمناقشة خطة المماليك الجديدة ، وبضرورة العمل على تثبيت أقدامهم فى تهامة ، وذلك كما يتضح من خطوات برسباى بعد ذلك .

وقد واصل حسين الكردى وسلمان الرومى الذهاب الى « جدة » لتركيز الدفاع بها بدلا من « عدن » ، وللانتظار هناك — كما نعتقد — حتى تحين الفرصة ليعاودوا الهجوم على « عدن » مرة أخرى . ولكن الأحداث لم تمهل حسين الكردى كثيراً ، فبعد وصوله الى جدة بقليل سقطت مصر فى أيدى السلطان سليم الأول (١٥١٢ — ١٥٢٠ م) ، وقام أشراف « مكة » الذين سارعوا بالدخول فى طاعة العثمانيين ، بقتل حسين الكردى غرقاً أمام ميناء « جدة » بعد أن أوهموه باستدعاء السلطان سليم له ، وذلك

(١) كان تغيير خط سير الحملة المملوكية وتوقفها عند اليمن مثار تعليق المؤرخين ، فقد قال زين الدين المليبارى « فتعلق الأمير حسين بحرب اليمن ونهب بلدانها » .

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد (مخطوطة) ، ص ٥٥ أ .

انتقاماً منه لأعماله القاسية أثناء ولايته « لجدة »[١] . ورغم ذلك فلقد كان للتحصينات التى أقامها حسين الكردى فى « جدة » الفضل فى صد الهجوم الكبير الذى شنه البرتغاليون عليها فى خلال عام ١٥١٧ م أى بعد مقتله بقليل . فقد اعترف البرتغاليون فيما بعد بأنهم فشلوا فى الإستيلاء على جدة سنة ١٥١٧ م نتيجة قوة وخطورة ضربات مدافع السور، كما قام سلمان الرومى — الذى بقى « بجدة » مدة وجيزة بعد مقتل حسين الكردى ، والذى قام بصد الهجوم البرتغالى المذكور — باستعمال المعدات والآلات الحربية التى أعدها الأخير فى الدفاع عن الميناء عندما هاجمه البرتغاليون . وكذلك طارد سلمان الرومى سفن البرتغاليين أثناء تقهقرها ، وتمكن من الإستيلاء على إحدى سفنهم وأسر بحارتها وذلك عندما ذهبت إلى ميناء « اللحية » اليمنى للحصول على المؤن اللازمة للحملة[٢] . وبالإضافة إلى ذلك يلاحظ أن خطة المماليك فى البحر الأحمر أى تدعيم سيطرتهم فى جهات هذا البحر واتخاذ عدن قاعدة لهم فى جنوبه ، هى نفس الخطة التى اتخذها العثمانيون فيما بعد فى هذا البحر قبل أن يرسلوا حملتهم الكبيرة إلى الهند سنة ١٥٣٨ ، وذلك بعد أن قضوا على الدولة المملوكية .

أما المماليك الذين استقروا فى « زبيد » تحت قيادة الأمير « برسباى » فقد شغلوا فى حروب داخلية مع الطاهريين ، وقاموا بالكثير من أعمال القتل والسلب والنهب ، حتى استولوا على « صنعاء » . وعندما علموا بسقوط دولتهم فى مصر سارعوا بالاعتراف بالسيادة العثمانية الجديدة هناك ، فبدأ اليمن بذلك طوراً جديداً من أطوار تاريخه .

ولاشك فى أن الصدام بين هؤلاء المماليك وبين السلطان عامر بن

(١) قطب الدين : الإعلام بإعلام بلد الله الحرام ، ص١٢٨ .

(٢) Serjeant, R.B· : The Portuguese off the South Arabian Coast, p. 170.

عبد الوهاب كان أمراً متوقعاً ؛ فقدظل السلطان عامر لايعترف بنفوذالمماليك فى تهامة ، كما ظل يرفض عقد الصلح معهم حتى قتل على أيديهم بالقرب من «صنعاء» . وكان المماليك من الناحية الأخرى يحرصون على بقائهم فى تهامة ، ويعتبرون أن ذلك جزء من خطتهم العامة لحماية البحر الأحمر أمام هجمات البرتغاليين . وكان المماليك فى بادىء الأمر مضطرين إلى خوض غمار الحرب للدفاع عن أنفسهم ، ولكنهم انصرفوا بعد ذلك إلى أعمال السلب والنهب وإلى الاستيلاء على ثروات السلطان وعلى ممتلكاته ، فكان هذا بداية عهد مشحون بالفوضى والاضطراب فى اليمن .

وكان الأمير برسباى قد اهتم بتثبيت أقدامه فى تهامة اليمن بعد استقراره فى «زبيد» بعد مغادرة حسين الكردى لها ، فبدأ فى تنظيم الأمور هناك بمساعدة الشريف عز الدين بن أحمد أخو حاكم «جيزان» الذى بقى بجانبه . وكذلك استولى على مدينتى «حيس» و «موزع» ، وهما من المدن التهامية التى تقع إلى الجنوب من زبيد . وكانت الإضطرابات قد بدأت تثور فى وجه برسباى منذ البداية ، فقامت قبيلة «الواعظات» التهامية بقتل أمير «اللحية» الذى كان قد تعاون مع المماليك من قبل ، كما قتلت معه اثنى عشر مملوكاً [١] .

ولم يستقر الأمر للمماليك طويلا فى «زبيد» ، فقد قام السلطان عامر بإعداد جيش كبير وزحف به إلى القرب من زبيد . وهنا سارع المماليك بإرسال مندوبيهم إلى السلطان لعقد الصلح معه ولكنه رفض اجابة طلبهم . وقد قامت معركة كبيرة بين الطرفين استمرت ثلاثة أيام انهزم فيها السلطان ، فاضطر الى الانسحاب الى «تعز» وذلك فى ١٠ شوال سنة ٩٢٢هـ (٦ نوفمبر سنة ١٥١٦ م) . ولم يحاول المماليك اللحاق بالسلطان عامر أثناء انسحابه

---

(١) ابن الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد (مخطوطة) ، ص ٥٥ أ .

إلى « تعز » وذلك لإنشغالهم فى جمع الأسلاب والغنائم . وقد انتظر المماليك حوالى أربعة أشهر قبل أن يتقدموا إلى « تعز » فلم يصلوا إليها إلا فى ٦ صفر سنة ٩٢٣ هـ (٢٨ فبراير ١٥١٧ م) ، وعندئذ غادر السلطان عامر « تعز » دون حرب وتوجه إلى مدينة « آب » فاستولى المماليك عليها وأعملوا فيها السلب والنهب[١] . وكان السلطان عامر قد شعر بالخيانة بين صفوف جيشه ، فقرر لذلك عدم الدخول فى حرب مع المماليك وغادر « تعز » إلى « اب »[٢] . وبعد استيلاء المماليك على « تعز » ، لم يتوجهوا الى « اب » لمحاربة السلطان عامر هناك ، بل توجهوا الى « المقرانة » التى كان السلطان يتخذها مقراً له ، والتى كان يودع بها أمواله ونفائسه ، فسارع السلطان عامر اليها لينقذ ما خف حمله من الخزائن والأموال ثم عاد الى « اب » ثانية . وقد اهتم المماليك بالتنقيب على ثروات السلطان عامر فى « المقرانة » بعد وصولهم اليها ، فقبضوا على أحد أتباعه المقربين اليه وعذبوه حتى دلهم على كنوز السلطان المخبأة فى القصور . وفى أثناء اقامة الحملة فى « المقرانة » عملت احدى القبائل المجاورة لها على الإيقاع بالأمير برسباى للتخلص منه ، فقد قابل شيوخ هذه القبيلة الأمير برسباى وبايعوه وطلبوا منه التوجه معهم لتسليم بلادهم اليه ، ثم غدروا به وبمن اصطحبهم معه وقتلوهم عن آخرهم[٣] . وقد تولى أحد الأمراء المماليك وهو الأمير « اسكندر » أمر الحملة المملوكية فى اليمن بعد مقتل برسباى ، فبدأ الزحف الى صنعاء مباشرة . وهنا عمل السلطان عامر على اللحاق بالحملة فأدركها بالقرب من صنعاء ، حيث قامت معركة كبيرة بين الطرفين انتهت بقتل السلطان وأخيه عبد الملك ، وذلك فى ٢٣ ربيع الآخر سنة ٩٢٣ هـ

---

(١) ابن الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد (مخطوطة) ، ص ٥٥ ب .

(٢) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٦ أ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون (مخطوطة) ، ص ٢٠٧ أ .

(١٥ مايو سنة ١٥١٧ م) ، وقد استولى المماليك على صنعاء بعـــد ذلك مباشرة ، فقتلوا كثيراً من أجنادها وأهلها ، وقاموا بالكثير من أعمال السلب والنهب[١] .

وهكذا انتهى عهد السلطان عامر بن الوهاب بعد أن ظل حكم هذا السلطان قائماً فى اليمن حوالى تسعة وعشرين عاماً . وتتمثل أهمية السلطان عامر فى تاريخ اليمن — كما أشرنا من قبل — فى أنه كان آخر السلاطين الجنوبيين الذين تمكنوا من توحيد البلاد تحت سيادتهم فامتد حكمه من « صعدة » و« جيزان » شمالا الى « عدن » و « حضرموت » جنوباً ، وانقلب ميزان القوى بعد ذلك فى اليمن الى جانب الزيديين الشماليين كما سنرى فيما بعد . ولا يقلل من أهمية الوحدة التى أقامها السلطان عامر فى اليمن ، بقاء بعض الجيوب الزيدية فى المنطقة الشمالية ، أو أن السلطان كان يضطر الى الاعتراف بحكم رؤساء القبائل أو الأسرات القوية فى مناطقهم ، واكتفائه بإعلان خضوعهم له ، ودفع الخراج الى خزانته ، فقد كانت هذه الأمور من الأمور التقليدية فى اليمن ، نظراً لظروف اليمن الطبيعية الخاصة ، ولسيادة النظم الإقطاعية طوال العصور الوسطى فى اليمن وفى غيره . والحقيقة أن سقوط حكم السلطان عامر فى اليمن لا يرجع الى فساد هذا الحكم أو الإضطرابات الداخلية فحسب ، بل يرجع سقوط هذا الحكم الى انهيار احدى الدعائم الاقتصادية الهامة التى كان الحكم الطاهرى يرتكز عليها ، فقد حدث فى عهد هذا السلطان تحول التجارة الشرقية الى طريق رأس الرجاء الصالح على أيدى البرتغاليين ، فأدى هذا التحول الى نقص ايرادات السلطان ، وبالتالى الى ضعف حكمه . ومن ناحية أخـــرى أدى تحول التجارة الشرقية الى قيام الصراع المملوكى البرتغالى حول هذه

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطه) ص ١٦ أ .

التجارة ، فترتب على هـــذا الصراع أن فقد السلطان عامر استقلاله بل وحياته .

ولكن كيف نجحت الحملة المملوكية فى اليمن وهى قليلة العدد فى إلحاق الهزائم بالجيوش الطاهرية الكبيرة العدد ، وفى القضاء على حكم السلطان عامر ؟

كان نجاح المماليك فى اليمن يرجع فى الحقيقة إلى عاملين هامين :

أولهما : انضمام كثير من اليمنيين إلى جانب المماليك لتحقيق أطماعهم الخاصة كما رأينا ، فقد اشترك هؤلاء اليمنيون جنباً إلى جنب مع المماليك فى محاربة الطاهريين ، كما كانوا يرشدون المماليك إلى الطرق والمسالك المختلفة باليمن . وقد ذكرنا من قبل أن الشريف عز الدين أمير جيزان قد بقى إلى جانب برسباى فى زبيد بعد الاستيلاء عليها لمساعدته فى الحكم ، فظل هذا الشريف يشارك المماليك حروبهم فى داخل اليمن حتى تم لهم القضاء على السلطان عامر . ومن ناحية أخرى كان برسباى قد طلب من حسين الكردى فى جدة أن يرسل إليه نجدة عسكرية عندما بدأ الصدام المباشر بينه وبين السلطان عامر ، ووصلت هذه النجدة — وهى حوالى ثلاثمائة مملوك — إلى اليمن عند وصول المماليك إلى صنعاء ، فقام أحد اليمنيين بقيادة هذه النجدة إلى داخل اليمن ، وكان هذا اليمنى كما قيل « مناصراً للمماليك فى اليمن ومعاضداً فى الفتن . وطمع أن يملك ما كان لبنى طاهر من الحصون والبلاد »[1] .

ثانيهما : أن المماليك كانوا أقوى تسليحاً من الطاهريين ، وقد رأينا عجز حامية « الحديدة » عن الصمود أمام مدافع سفن المماليك التى توجهت إلى هناك . وبالإضافة إلى ذلك كان المماليك يمتلكون البنادق التى لم تكن

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) جـ١ ، ص٦٣ أ .

قد عرفت بعد فى اليمن ، فكان لهذه البنادق أثرها الفعال فى إلحاق الهزائم بجيوش الطاهريين الكبيرة[١] .

ولقد اصطدم المماليك بعد استيلائهم على صنعاء بقوة أخرى هى قوة الإمام شرف الدين حليف الأمس ، فقد رفض الإمام حينئذ التوجه إلى « صنعاء » لمقابلة المماليك هناك ، كما رفض عقـــد أى اتفاق معهم . وكان الإمام شرف الدين قد انتقل بعد سقوط « صنعاء » مباشرة من « حجة » إلى « ثلاء » بناء على دعوة والى « ثلاء » الطاهرى ، فكان هذا بداية لارتفاع شأنه ، وذلك لأهمية هذه المدينة التى تمتاز بمناعة حصنها ، وبقربها من «صنعاء» ، وكان اصطدام الامام بالمماليك أمراً متوقعاً فى الحقيقة ، فالامام لم يطلب من المماليك مده ببعض الجند كما ذكرنا إلا لتحقيق أغراضه فى اليمن ، أما توسع المماليك فى داخل اليمن وإستيلائهم على صنعاء فكان يتعارض مع تحقيق أغراض الامام . وقد تقدم المماليك لمحاصرة الامام فى «ثلاء» بعد أن فشلت رسلهم فى دفعه على الالتقاء بهم ، فطال وقوفهم أمامها حتى علموا بسقوط دولتهم فى مصر على أيدى العثمانيين ، وبشنق السلطان «طومان باى» على «باب زويلة» ،وعندئذ رفع المماليك الحصار عن «ثلاء» وعادوا إلى «صنعاء» فوصلوا إليها فى ١٥ جمادى الأولى سنة ٩٢٣ هـ (٥ يونيه سنة ١٥١٧ م) . وقد شاع حينئذ الاضطراب بين صفوف المماليك،وثار بينهم جدل طويل حول اتخاذ موقف معين من السيادة العثمانية الجديدة فى مصر ، فرأى الأمير إسكندر أنه لا مفر من الاعتراف بهذه السيادة العثمانية حتى يقوى جانب الحملة فى اليمن،وحتى

---

(١) وصف ابن الديبع (الفضل المزيد ، ص ٥٤ أ) البندقية فى عبارة تدل على دهشته أمام هذا الاختراع الحديث وقتذاك فقال «والبندق شىء عجيب لا يكاد يقاتل أحد صاحبه إلا غلب ، وهو شىء يشبه المدفع إلا أنه أطول منه وأدق ، و (هو) بجوف ، ويجعل فى جوفه قطعة رصاص كحبة النبق وتحشى من البارود ويدفع بنار فى فتيلة من أسفل البندق ، فلا يصيب أحد إلا هلك ، وربما أصاب البندق شخصاً ونفذت منه إلى الآخر فقتلتهما » .

يقضى على الخلافات التى ثارت بين صفوف جيشه وقام الامير اسكندر بجمع أهالى « صنعاء » فى الجامع الكبير ، وأعان بينهم استيلاء السلطان سليم الأول (١٥١٢ — ١٥٢٠ م) على مصر ، وخضوع المماليك فى اليمن للسيادة العثمانية[١] ، وقد عرف الأمير اسكندر عندئذ باسم « اسكندر المخضرم » لأنه عاصر السيادة المملوكية والسيادة العثمانية[٢] .

وقد غادر الأمير اسكندر «صنعاء» بعد أن ترك بها حامية صغيرة تتألف من مائتى مملوك، وتوجه الى « زبيد » للإقامة بها بالقرب من الساحل وتعرضت الحملة أثناء سيرها الى زبيد لإغارة قبائل بنى حبيش والشوافى وغيرها من قبائل وسط الهضبة اليمنية عليها ، وذلك بعد أن أعدت للحملة كميناً كبيراً بين جبلين . وقد قامت هذه القبائل بقتل كثير من أفراد الحملة ، وبالإستيلاء على غنائم المماليك الوفيرة التى جمعها هؤلاء من مدن اليمن المختلفة ، كما فكت هذه القبائل أسر عامر بن عبد الملك أحد أقارب السلطان عامر بن عبد الوهاب . ورغم ذلك فقد واصلت الحملة سيرها الى « زبيد » فوصلت الى هناك فى ٢٩ جمادى الآخرة ٩٢٣ هـ (١٩ يولية سنة ١٥١٧ م) منهكة القوى[٣] .

وهكذا تتضح الخطوات الأولى للكشوف البحرية البرتغالية حتى تحقق الى حد كبير النجاح للبرتغاليين فى السيطرة على التجارة فى الشرق ، وفى تحول معظمها الى طريق رأس الرجاء الصالح ، وكيف استطاعوا من ناحية أخرى أن يستولوا على جزيرة « هرمز » وأن يهاجموا « عدن » وجنوبى البحر الاحمر . وقد اتضح كذلك جوانب الجهود العربية المضادة لهذا الغزو الأوربى لمناطق الشرق ، وكيف أن هذه الجهود قد انتهت من ناحية بالفشل

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ١ ، ص ٦٣ أ .
(٢) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٦ ب .
(٣) ابن الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد (مخطوطة) ، ص ٥٥ ب .

فى وقت النشاط البرتغالى البحرى أو منع تحول التجارة الى طريق رأس الرجاء الصالح، كما انتهت من ناحية أخرى الى أن تفقد كل من مصر واليمن استقلالها، وأن تمتد سيطرة جديدة هى السيطرة العثمانية الى مناطق العالم العربى الذى تأثر بالكشوف البحرية وما ترتب عليها من نتائج. غير أنه يجب أن نلاحظ أن حسين الكردى لم يهاجم اليمن بعد عودته من الهند مباشرة — كما قيل — لكى يكسب نصراً يعوضه عن هزيمته فى معركة « ديو »[١] أو أن المماليك لم يقرروا الاستيلاء على اليمن لاتخاذه ملجأ لهم يلجأون اليه بعد أن شاهدوا اضطراب الاحوال فى حوض البحر المتوسط الشرقى[٢]، ولكن يمكن أن نتتهى هنا الى أن تحول تجارة الشرق الى الطريق البحرى المباشر هو الذى أدى الى الانهيار الاقتصادى والسياسى الذى أصاب اليمن ومصر معاً. فضعف الطاهريين فى اليمن هو الذى جعل المماليك يقررون اتخاذ سواحل اليمن خط دفاع أول لحماية حدودهم الجنوبية، وادى هذا بالتالى الى سقوط السلطان عامر بن عبد الوهاب، وانتشار الفوضى والاضطرابات فى اليمن على أيدى المماليك. أما ضعف المماليك فى مصر فهو الذى أدى الى قيام التسابق بين العثمانيين والبرتغاليين حول الاستيلاء على الامبراطورية المملوكية، فبينما كان البرتغاليون يعملون على التوغل الى داخل البحر الأحمر حتى هاجموا ميناء « جدة » فى خلال عام ١٥١٧، كان العثمانيون قد نجحوا فى أوائل هذا العام نفسه فى الاستيلاء على أملاك المماليك، وفى مد سيادتهم الى حوض البحر الأحمر، فبدأ عندئذ الصراع المباشر بين العثمانيين والبرتغاليين، وبدأ الشرق العربى كذلك طوراً جديداً من أطوار تاريخه.

---

(١) Kammerer, A. : La Mer Rouge, Tome ?, p. 157.

(٢) Serjeant, R.B. : The Portuguese off tha South Arabian Coast, p. 16.

الفصل الثانى

الفتح العثمانى لسواحل اليمن

١٥١٧ — ١٥٣٨

لا يتسع المجال هنا لدراسة الأسباب التى أدت إلى اتجاه العثمانيين نحو الشرق عند أوائل القرن السادس عشر الميلادى بعد أن كان توسعهم التقليدى يتجه نحو الغرب فى البلقان وشرق أوربا ، كما لا يتسع المجال أيضاً لدراسة أسباب اصطدامهم بالمماليك ، واستيلائهم على ممتلكاتهم ، ولكن يهمنا أن نذكر أن فتح العثمانيين لليمن قد ارتبط بفتحهم لمصر . فبعد استيلاء السلطان سليم الأول على مصر سنة ١٥١٧ ، وجد العثمانيون أنفسهم مضطرين إلى اتباع الخطط المملوكية فى الدفاع عن هذا البحر . وكانت قضية الدفاع عن البحر الأحمر — أو بالأحرى الدفاع عن الحدود الجنوبية للممتلكات العثمانية الجديدة فى البلاد العربية — إحدى القضايا الملحة التى واجهت العثمانيين بعد دخولهم إلى مصر مباشرة ؛ إذ كان الخطر البرتغالى يشتد ضراوة فى البحر الأحمر بل فى البحار الشرقية بوجه عام . وكان ضعف القوة المملوكية فى اليمن — التى سارعت إلى الاعتراف بالسيادة العثمانية — يزيد من رغبة العثمانيين فى مد نفوذهم الفعلى المباشر إلى هناك ، وخاصة لأن العثمانيين كانوا قد أدركوا بعد دخولهم مصر أهمية اليمن الاستراتيجية بالنسبة إلى نزاعهم مع البرتغاليين . ورغم هذا فقد ظلت خطوات العثمانيين لتدعيم سيطرتهم فى اليمن ضعيفة مهزوزة مدة طويلة ، إذ لم يتمكنوا من إرسال حملة قوية لبسط سيطرتهم على اليمن إلا فى عام

١٥٣٨ أى بعد حوالى عشرين عاماً من وصولهم إلى مصر . وفى خلال هذه المدة تطورت الأحداث داخل اليمن بصورة مغايرة لصالح العثمانيين ، أو بالأحرى فى غير صالح القوة المملوكية التى كانت تمثل سيادة العثمانيين الإسمية فى اليمن قبل أن يصل هؤلاء إليها ، فقد تمكن الإمام شرف الدين حينئذ من ملء الفراغ الذى خلفه سقوط السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهرى . وكان سقوط هذا السلطان على يد المماليك قد أدى إلى انتشار الفوضى والاضطراب فى اليمن لمدة طويلة ؛ إذ لم يتمكن المماليك أو أحد أفراد أسرة السلطان عامر حينذاك من أن يسيطر على الأوضاع فى اليمن . وترتب على هذا أن قام صراع طويل بين ثلاث قوى هى ، الزيديون بزعامة الإمام شرف الدين ، وبقايا الأسر الطاهرية ، والمماليك . وعند مجىء العثمانيين إلى اليمن سنة ١٥٣٨ كان نفوذ الزيديين قد امتد إلى أغلب جهات اليمن ، وانحصر نفوذ المماليك — ممثلى السيادة العثمانية — فى « زبيد » والمناطق التهامية المحيطة بها ، كما انحصر نفوذ الطاهريين فى « عدن » .

وكان تأخير إرسال حملة عثمانية كبيرة إلى اليمن حتى سنة ١٥٣٨ يرجع فى الحقيقة إلى اتساع الإمبراطورية العثمانية ، وإلى انشغال العثمانيين فى جهات حربية متعددة . ولقد كانت خطة السلطان سليم الأول بعد عودته من مصر والشام هى إعادة الهجوم على فارس وتوحيد العالم الإسلامى تحت السيادة العثمانية وذلك قبل أن يتجه العثمانيون ثانية إلى الغرب إلى الشمال فى أوربا (١) . ولكن السلطان سليم توفى بعد عودته بقليل ، وتولى بعده ابنه السلطان سليمان القانونى الذى جذبته أحداث أوربا إليها بعد توليه العرش مباشرة . فقد قام السلطان سليمان القانونى بالاستيلاء على « بلغراد » فى أغسطس عام ١٥٢١ . ثم استولى على جزيرة رودس من أيدى فرسان

---

(١) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، الجزء الأول (ترجمه من التركية إلى العربية ، عبد القادر الدنا) ص ٤٤ — ٤٥ .

القديس يوحنا فى ديسمبر سنة ١٥٢٢[١] . وفى عام ١٥٢٦ اكتسح السلطان سليمان سهول المجر ، واستولى على أهم مدنه . وقد عاد السلطان إلى المجر ثانية فى سنة ١٥٢٩ ، ثم تقدم بجيوشه حتى وصل إلى « فينا » وحاصرها ولكن رد عنها[٢] . ولذلك لم يوجه السلطان سليمان اهتمامه إلى الشرق إلا عام ١٥٣٤ حين تجدد النزاع بينه وبين فارس ، فقد تمكن السلطان فى هذا العام من فتح العراق والاستيلاء على «بغداد» ، وفى هذه الأثناء أمر السلطان بإعداد حملة بحرية كبيرة لم تغادر «السويس» إلى اليمن والهند إلا فى أوائل عام١٥٣٨ بعد أن تم إعدادها .

وقد امتد نفوذ العثمانيين إلى سواحل البحر الأحمر حتى اليمن جنوباً بعد وصولهم إلى مصر مباشرة كما أشرنا ، وكان امتداد هذا النفوذ امتداداً سلمياً فى الحقيقة ، وذلك نتيجة لأوضاع البحر الأحمر الخاصة حينئذ ، ونتيجة للسياسة التى اتخذها المماليك فى هذا البحر قبل وصول العثمانيين إلى مصر . وقد امتد النفوذ العثمانى إلى الحجاز أثناء وجود السلطان سليم بمصر ، فقد أرسل أمير «مكة» حينئذ الشريف «بركات» ابنه الشريف « أبانمى » إلى القاهرة ليعلن خضوعه للعثمانيين ، فقابله السلطان سليم بالحفاوة والإكرام وأغدق عليه الهدايا ، « وقرر لأبيه ولمن بعده من أعقابه ما هم عليه من الولاية فى مكة والحجاز قياماً بنيابة الدولة العثمانية »[٣] . وكان الحجاز فى أغلب فترات تاريخه الإسلامى يخضع خضوعاً إسمياً لحكم مصر ، وكان الأشراف أصحاب السيادة هناك يرحبون بالاعتراف بالسيادة المصرية ليتمتعوا بالحماية العسكرية وبالعون المالى ، وكذلك كان حكام مصر يحرصون على مد نفوذهم إلى الحجاز

---

(١) Sir Edward S Creasy : History of the Ottoman Turks, pp. 161—163.

(٢) Ibid. pp. 169—170.

(٣) عبد الله بن صلاح الدين داود بن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، حـ١ ، ص ١٦٥ب .

حتى يرتفع شأنهم فى العالم الإسلامى باعتبارهم حماة الحرمين الشريفين . وكان النفوذ المصرى فى الحجاز يتمثل فى إقامة قوة عسكرية فى «جدة»، وفى الموافقة على تعيين من ينتخبه الأشراف من بينهم ليتولى الأمر فى الحجاز . ويرجع اهتمام حكام مصر بإقامة قوة عسكرية فى ميناء «جدة» إلى أهميته الاستراتيجية والتجارية ، فإلى جانب أهميته الدفاعية الهجومية بالنسبة إلى حدود مصر الجنوبية ؛ فقد كانت أغلب السفن التجارية الكبيرة الحجم تتوقف عند ميناء «جدة» ثم تعود أدراجها إلى الهند وغيرها وذلك خوفاً من فوات موسم الرياح ، وعندئذ كانت السفن الأقل حجماً تقوم بنقل البضائع من «جدة» إلى «السويس»[١] . وقد رأينا كيف ازداد اهتمام المماليك «بجدة» عند بداية القرن السادس عشر الميلادى فأقاموا سوراً ضخماً حولها وزودوه بالمدافع والعتاد ، وذلك عندما اشتد الخطر البرتغالى فى البحار الشرقية .

وكان يهم السلطان سليم دون شك أن يمد نفوذه إلى الحجاز حتى يعلى من مكانته أمام العالم الإسلامى ، وحتى يقوى من جانبه فى حروبه مع فارس، وقد عبر السلطان سليم عن إهتمامه بمد نفوذه إلى الحجاز بعد فتحه «لحلب» مباشرة ، فقد أغدق الهدايا على خطيب جامع «حلب» عندما أشار هذا الخطيب إلى السلطان سليم بأنه خادم الحرمين الشريفين ، وذلك ضمن الألقاب الكثيرة التى دعا بها للسلطان[٢] .

أما اليمن ، فقد امتد النفوذ العثمانى إليه سلمياً كذلك فى أول الأمر ، وذلك عندما أعان الأمير اسكندر المخضرم فى «صنعاء» خضوعه للسيادة العثمانية الجديدة فى مصر ، كما أشرنا فى الفصل السابق . وقد أكد اسكندر

---

(١) Barbosa, D. : East Africa and Malabar Coasts, p 23.

(٢) قطب الدين : الاعلام بأعلام بلد الله الحرام ، ص ١٢٨ .

موقفه من العثمانيين بأن أرسل بعد عودته إلى « زبيد » هدية كبيرة إلى السلطان سليم للتعبير عن خضوعه له ، فوصل رسوله إلى « القاهرة » فى جمادى الآخرة سنة ٩٢٤هـ (يونية / يولية ١٥١٨) ثم سافر إلى « استانبول » مع المبعوث العثمانى الذى كان قد حضر إلى مصر حينئذ ليتسلم خراجها عن عام ١٥١٧[١]. واعترف السلطان سليم بدوره بالأمر الواقع فى اليمن ، وأرسل أمره إلى اسكندر المخضرم بتثبيته فى الحكم ، وبإقامة الخطبة له ، وبضرب السكة باسمه ، فامتثل « اسكندر المخضرم » لهذه الأوامر ، وبالغ فى إظهار الاهتمام والترحيب بها[٢] . ورغم ذلك فقد ظل نفوذ العثمانيين فى اليمن إسمياً ضعيفاً ، كما ظلت خطواتهم لتدعيم نفوذهم هناك تتسم بالضعف حتى سنة ١٥٣٨ . ويهمنا هنا أن نعرف موقف البرتغاليين من ناحية ، والتطورات الداخلية فى اليمن من ناحية أخرى ، فى خلال المدة من ١٥١٧ إلى ١٥٣٨ ، وذلك قبل أن ندرس خطوات العثمانيين حينذاك لتدعيم نفوذهم فى البحر الأحمر ، وقبل أن نتعرض للأسباب التى دفعت العثمانيين إلى إرسال حملتهم الكبيرة فى سنة ١٥٣٨ إلى اليمن والهند .

فمن ناحية البرتغاليين ، فقد اشتد الخطر البرتغالى بعد وفاة البوكيرك فى ديسمبر سنة ١٥١٥ وبدأ مرحلة جديدة من مراحل تطوره فى البحار الشرقية. وقد تحددت خطة البرتغاليين فى هذه المرحلة فى القضاء على قوة المماليك فى البحر الأحمر ، وفى توطيد العلاقة مع الحبشة لإعـــلان الحرب المشتركة على القوى الإسلامية ، وفى إغلاق البحر الأحمر والخليج العربى أمام السفن العربية . وبلور نشاط البرتغاليين بعد البوكيرك هذه الخطة، فقد ركز البرتغاليون هجومهم على « جدة » ، التى أصبحت المركز الرئيسى للدفاع عن

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ٥ ، ص ٢٥٧ ، ٢٦٠ .

(٢) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانيـــة (مخطوطة) ، جـ١ ، م ١ ، ص ١٦٩ أ .

البحر الأحمر بعد فشل المماليك فى الاستيلاء على عدن ، كما نجحوا فى إقامة العلاقات المباشرة مع الحبشة بعد أن وصل أول سفير لهم إلى هنـاك سنة ١٥٢٠ ، وواصلوا كذلك أعمالهم الهجومية التخريبية على السواحل العربية ، وعلى الساحل الإفريقى للبحر الأحمر . وقد فوجىء البرتغاليون بوصول النفوذ العثمانى إلى البحر الأحمـــر ، ولكن لم يؤد ذلك إلى إيقاف نشاطهم أو إلى تغيير خططهم ، وذلك لأن العثمانيين لم يقوموا بعمل يذكر فى هذا البحر حتى عام ١٥٣٨ .

ولقد عاود البرتغاليون نشاطهم المعادى للعرب والمسلمين فأرسلوا أول حملة برتغالية إلى البحر الأحمر تحت قيادة نائب الملك « لوبوسوريز » خليفـة البوكيرك للهند . وقد غادرت هذه الحملة « جنوا » فى ٨ فبراير ١٥١٧ ، وكانت تتـكون من أربعين سفينة ومن ألفين من الرجال المسلحين ، كما كانت أهدافها التى اتضحت من البداية فى تحطيم قوة الأسطول المملوكى فى البحر الأحمر ، والعمل على تدمير « جدة » ، وإقامة إتصال مباشر مع الحبشة [١] . ولم يهاجم « لوبوسوريز » عنـد وصوله إليها ، بل تقدم إليها فى سلام وطلب من واليها الطاهرى الأمير مرجان أن يمده بالمؤن اللازمة له وببعض المرشدين البحريين لتوصيل الحملة إلى « جدة » فأجاب الأمير مرجان هـذه المطالب خوفاً من أن تقوم الحملة بمهاجمة « عدن » . وقد فشلت الحملة البرتغالية أمام جدة بفضل التحصينات التى كان المماليك قد أقاموها هناك كما ذكرنا واضطرت إلى التقهقر ، فقـام سلمان الرومى — الذى تحمل وحده مسئولية صد هذا الهجوم — بمطاردة السفن البرتغالية حتى غادرت مياه « جـــدة » ثم واصل مطاردته للبرتغاليين بعـد عودتهم إلى جزيرة « كمران » وإقامتهم بهـا حوالى ثلاثة أشهر ، فى هذه الفترة أرسل « لوبوسوريز » إحـدى سفنه

---

(١) Kammerer, A. : La Mer Rouge, Tome II, pp. 205—206.

إلى ميناء « اللحية » اليمنى القريب من جزيرة « كمران » للحصول على المؤن اللازمة لهم ، فسارع سلمان الرومى بإرسال سفينتين من « جــدة » لطرد البرتغاليين من هناك . وقد نجحت هاتان السفينتان فى مهمتهما فاستولتا على السفينة البرتغالية وأسرتا بعض بحارتها ، فقام سلمان الرومى بإرسال الأسرى إلى استانبول . ولم تقم الحملة البرتغالية بعد ذلك بشىء يذكر فى جنوب البحر الأحمر ، فقد قفلت راجعة إلى « عدن » حيث حصلت على حاجتها من الماء والطعام ، ثم غادرت « عدن » الى « هرمز »[١].

ويجدر هنا أن نبرز أمرين هامين :

أولا : لم يحرص « لوبوسوريز » كما رأينا على الإستيلاء على « عدن » وذلك بالرغم من موقف الأمير مرجان السلمى من الحملة ، وبالرغم من ضعف إمكانيات عدن الدفاعية حينئذ نتيجة هجوم المماليك السابق عليها (سنة ١٥١٦م) وقد هاجم بعض الكتاب الغربيين المحدثين « لوبوسوريز » لموقفه السلبى من عدن ، فاتهموه بعدم الحكمة وبأنه أضاع فرصة الاستيلاء على عدن فى هذا الوقت المبكر [٢] . ولكننا نرى أن « لوبوسوريز » كان ينظر إلى « عدن » حينئذ باعتبارها هدفاً ثانوياً بالنسبة لهدف البرتغاليين الكبير وهو تحطيم سيطرة المماليك البحرية فى البحر الأحمر . وكان ضعف المماليك عند أوائل القرن السادس عشر الميلادى قد زاد من تفكير بعض القوى المسيحية فى أوربا فى الاستيلاء على أملاك المماليك ، وتخليص المدن المقدسة فى فلسطين من أيديهم . ومن المعروف أن السلطان الغورى كان قد قبض على مترجمه الخاص فى ١١ محرم

---

(١) بومخرمة : قلادة النحر فى وفيات أعيــان الدهر (مخطوطة) ج ٣ ، م ٢ ، ص ١٢٠٥ — ١٢٠٦ .

(٢) Kammerer, A. : La Mer Rouge, Tome II, pp. 266—267: Wilson, A. T. : The Persian Gulf, p 123, Dames, M. L. ; J.R.A.S, Part I, 1921, pp. 12—13.

سنة ٩١٧ هـ (١٠ أبريل سنة ١٥١١ م) لاتهامه « بأنه كاتب ملوك الفرنج بأحوال مملكة مصر » [١] ، وبضعف المماليك ، وبضعف التحصينات الساحلية . ولكن استيلاء العثمانيين حينئذ على البلاد العربية أدى إلى الحد من هذه الأطماع الأوربية وذلك لقوة العثمانيين الحربية .

ثانياً : أصبح موقف الأمير مرجان السلبي من البرتغاليين موقفاً تقليدياً للحكام في عدن حتى سقوطها في أيدي العثمانيين في سنة ١٥٣٨ ، غير أن هذا الموقف كان لا يعني أن الأمير مرجان ومن جاء بعده من الحكام كانوا مستعدين للتفريط في استقلالهم ، فقد بذلوا جهدهم حتى عام ١٥٣٨ للمحافظة على هذا الاستقلال ، وحرصوا على عدم الوقوع في أيدي البرتغاليين أو العثمانيين أو المماليك على السواء .

وأما حرص الأمير مرجان على عدم إظهار عداوته للبرتغاليين فلا يدل على موافقته على تسليم المدينة لهم [٢] ، بل كان يدل على ميله إلى استعمال اللين والمهادنة مع البرتغاليين حتى يتقي شرهم ويتأكد هذا إذا عرفنا أن موقف الأمير مرجان المسالم أمام حملة « لوبوسوريز » لم يكن هو الموقف الوحيد الذي وقفه أمام هذه الحملة ، فقد اتخذ الأمير مرجان الاستعدادات الكافية للدفاع عن « عدن » أثناء وجود « لوبوسوريز » في داخل البحر الأحمر [٣] ،

---

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور . ج٤ ، ص ٢١٠ ،

(٢) ذكر كرية Tome II, P.266. اعتماداً على المراجع البرتغالية أن الأمير مرجان قدم مفاتيح عدن إلى لوبوسوريز للتعبير عن خضوعه للبرتغاليين ، ولكننا نرى أن موقف الأمير مرجان لم يصل إلى حد تسليم المدينة للبرتغاليين ، وأن ما ذكره كريه إنما يدل على مبالغة المؤرخين البرتغاليين في تصوير استسلام عدن . وقد اعتمدنا في ذلك على رواية بوعخرمة التي صور موقف الأمير مرجان بقوله «وقدم لهم الضيافة العظيمة» .

(٣) M. Longworth Dames : The Portuguese and Turks in the Indian Ocean in the Sixteenth Century, J. R. A. S, 1921. Part I. January, p. 13.

حتى لايفاجأ بهجوم البرتغاليين على « عدن » بعد عودتهم إليها . وقد استعد الأمير مرجان أيضاً الدفاع عن « عدن » فى عام ١٥٢٠ ، عندما علم بوجود حملة برتغالية كبيرة حينذاك بالقرب منها [١] . ومن ناحية أخرى أراد الأمير مرجان أن يقوى جانبه بالاتصال بالعثمانيين ، فقام بإرسال خطاب طويل على لسان السلطان عامر بن عبد الوهاب — الذى كان قد قتل حينئذ إلى السلطان سليم فى « استانبول » ، وذلك بعد أن جعل بعض الفقهاء والتجار فى « عدن » يوقعون على هذا الخطاب لتأكيد ماجاء به . وقد اشتكى الأمير مرجان فى هذا الخطاب من أعمال حسين الكردى وسلمان الرومى أمام عدن ، ومن أعمال المماليك عامة فى اليمن ، ثم اعتذر عن موقفه المسالم من البرتغاليين . وقد أرسل الأمير مرجان خطاباً آخر إلى شريف مكة يشرح له فيه أحداث « عدن » ثم طلب منه مساعدة رسولية فى الوصول الى استانبول . وقد أحسن السلطان سليم وفادة هذين الرسولين ، وأرسل معهما هدية الى الأمير مرجان ، ولكن لم يعرف تماماً نتائج رحلة الرسولين الى استانبول ، فقد مات أحدهما بها ، وهاجم بعض أهالى جزر « دهلك » — أمام الساحل الافريقى — الرسول الثانى أثناء عودته إلى اليمن ، ونهبوا ماكان معه من هدايا وغير ذلك ، ويقال ان نهب هذا الرسول كان بإيعاز المماليك الذين كانوا حينئذ فى « زبيد » [٢] .

ولقد واصل البرتغاليون إصرارهم على تنفيذ خططهم فى البحر الأحمر بعد ذلك ، فتقدمت حملة بحرية كبيرة بقيادة نائب الملك البرتغالى فى الهند حينئذ « لوبو سكويرا » حتى وصلت الى مدخل هذا البحر فى أوائل سنة ١٥٢٠ . وكانت أغراض هذه الحملة هى التركيز على مهاجمة « جدة » بصفة خاصة ، مع انزال أول بعثة دبلوماسية برتغالية الى السواحل الحبشية . ولم

(١) بومخرمة : قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر ، (مخطوطة) ، ج٣ ، م٢ ، ص ٢٠٩ أ .

(٢) نفس المرجع : ص ١٢٠٦ .

تعمل حملة لوبو سكوبرا على المرور « بعدن » بالرغم من جنوح إحدى سفنهم الكبيرة إلى الساحل الغربى منها ، بل سارعت إلى التقدم إلى « جدة » قبل أن يفوتها موسم الرياح ، ولكن لم تتمكن من الوصول إلى « جدة » لمعاكسة الرياح لها[١] ، ولأنها علمت أن بها حشوداً عسكرية كبيرة[٢] . وعنـــدئذ اتجه « لوبوسكوبرا » إلى ميناء « مصوع » حيث نجح فى إنزال المبعوث البرتغالى « دى ليما » إلى الساحل ومعه « مانيوس » المبعوث الحبشى إلى البرتغال الذى سبق أن أشرنا إليه ، والذى توفى بعد نزوله إلى الساحل مباشرة .

وقد توقف البرتغاليون مؤقتاً بعد ذلك عن مهاجمة (جدة) نفسها ، بل وجهوا جهودهم إلى الساحل الحبشى لإعادة السفير البرتغالى إلى هناك حتى يتم تنسيق التعاون بينهم وبين الأحباش ، وفى نفس الوقت عاد البرتغاليون إلى تركيز اهتمامهم (بعدن) فعملوا على إخضاعها لسيطرتهم ، وذلك خوفاً من وقوعها فى أيدى العثمانيين الذين أصبح لوجودهم فى البحر الأحمر وزن كبير بالرغم من أنهم لم يكونوا قد بدأوا بعد جهودهم البحرية الجدية فى هذا البحر .

وقد فشلت الحملة التى توجهت الى البحر الأحمر فى سنة ١٥٢٣ لإعادة المبعوث البرتغالى من الحبشة ، الا أن هذه الحملة نجحت فى الهجوم على ميناء (الشحر) ، وفى نهبه أثناء ذهابها الى (مصوع)[٣] ، ورغم توالى ارسال الحملات البحرية سنوياً الى داخل البحر الأحمر ، فلم يتمكن البرتغاليون من

---

(١) Serjeant R. B. : The Portuguese off the South Arabian Coast, p 171.

(٢) بومخرمة : قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر (مخطوطة) جـ ٣ ، م ٢ ، ص ١٢٠٩ — ١٢١٠ .

(٣) Serjeant, R. B. : The Portuguese off the South Arabian Coast, pp. 52—53, (Al-Shihri, 54 b).

اعادة سفيرهم من مصوع الا فى أوائل سنة ١٥٢٦[١] ، وذلك لصعوبة المواصلات من ناحية ، ولبقاء المبعوث مدة طويلة فى بلاط النجاشى من ناحية أخرى . وقد عاد هذا المبعوث من الحبشة وهو يحمل معه خطابين هامين من النجاشى الى ملك البرتغال ، كما كان يصطحب معه سفيراً حبشياً ، وتتمثل أهمية هذين الخطابين فى أنهما يعبران عن موقف الحبشة من التعاون بين البلدين أكثر من أنهما يعبران عن الاتفاق على خطة معينة لإعلان الحرب المشتركة ضد القوى الإسلامية . فقد حث النجاشى ملك البرتغال على أن يواصل الحرب ضد المسلمين حتى يتم له القضاء عليهم نهائياً ، وحتى يتم له الاستيلاء على (بيت المقدس) ، ولكنه لم يوضح فى خطابه كيف يتم التعاون بين البلدين ، كما أنه لم يلتزم بعمل محدد الى جانب البرتغاليين . بل كانت عباراته عامة طنانة تحمل الكثير من الثناء والمديح للملك البرتغالى وقوته ، وتكيل السباب والشتائم للمسلمين وملوكهم وتنعتهم بأقذع النعوت ، وفى نفس الوقت طالب النجاشى البرتغاليين بأن يقدموا له كل معونة ومساعدة حتى يتمكن من الوقوف أمام القوى الإسلامية المحيطة به . فقد طلب النجاشى أن يواصل ملك البرتغال ارسال السفراء اليه لأنه كما قال يشعر بالوحشة بين الدويلات الإسلامية المحيطة به . وكان النجاشى يعتمد على العاطفة الدينية فى اثارة عطف البرتغاليين عليه وعلى قضاياه الخاصة ، فقد عبر للملك البرتغال عن فرحه الشديد بوصول بعض رجال الدين الى الحبشة ضمن بعثة « دى ليما » الدبلوماسية ، وطلب من الملك أن يبقى الأب « الفاريز » فى الحبشة حتى يعمل على نشر المسيحية فى « مصوع » ، و « دهلك » ، و « زيلع » وجميع جزر البحر الأحمر ، لأنها تقع على حدود بلاده ، ولأن سكانها من المسلمين والوثنيين فقط . وكان الأب الفاريز هذا رئيساً للجماعة الدينية التى جاءت الى الحبشة ضمن البعثة

---

(١) Kammerer, A. : La Mer Rouge, Tome II, pp. 285—286

الدبلوماسية ثم عادت معها ، وهو كذلك صاحب أول كتاب ينشر فى أوربا عن الحبشة . وقد طلب النجاشى فى خطابيه أيضاً أن يرسل ملك البرتغال اليه الكثير من الفنيين والخبراء فى مختلف المجالات لمساعدته فى تطوير بلاده ، وفى صنع الأسلحة اللازمة لمحاربة جيرانه المسلمين(١) .

وهكذا بدأت العلاقة المباشرة بين البرتغال والحبشة ، وقد أدى هذا الى زيادة الخطر البرتغالى فى البحر الأحمر ، اذ لاشك فى أن نجاح البرتغاليين فى ايجاد حليف لهم فى داخل هذا البحر ، كان يعنى تطويق العالم العربى من ناحية الجنوب ، كما كان يعنى تهديد الحرمين الشريفين تهديداً مباشراً فعالا .

ولكن يلاحظ أن التحالف البرتغالى الحبشى كان يحمل بين طياته منذ البداية عوامل ضعفه وانهياره ، ويرجع هذا أساساً الى اختلاف وجهتى نظر الطرفين فى حقيقة هذا التحالف وفى الغرض منه ، وكان الاختلاف المذهبى بين الحبشة الأرثوذكسية والبرتغال الكاثوليكية الواجهة التى اختفت خلفها الاختلافات الأخرى التى أدت فى النهاية الى تحطيم هذا التحالف . وكانت وجهة نظر الامبراطورة «هاينا» وخلفائها من أباطرة الحبشة فى الإتصال بالبرتغاليين، وفى تشجيعهم على ارسال السفراء والخبراء والقساوسة الى الحبشة ، هى أن يساعدهم البرتغاليون فى تطوير بلادهم وفى الوقوف أمام الإمارات الإسلامية الحبشية المجاورة لهم . أما وجهة نظر البرتغاليين فكانت تتمثل فى اتخاذ الحبشة قاعدة لهم عند مدخل البحر الأحمر الجنوبى ، وفى استغلال ثروات الحبشة

---

(١) Alvarez, F. : Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia, 1520—1527, pp 389—399.

(الخطابان غير مؤرخين ولكننا نميل الى أنهما كتبا فى عام ١٥٢١ ، والخطاب الأول موجه الى الملك عمانويل، وعندما وصل خبر وفاته الى الحبشة فى هذا العام وجه النجاشى الثانى الى ابنه الملك يوحنا الثالث) .

الضخمة ، ولذلك عمل البرتغاليون على أن يتحول الأحباش المسيحيون إلى المذهب الكاثوليكى حتى تزداد بذلك سيطرتهم على الحبشة ، وقد اتضحت أغراض البرتغاليين بعد ذلك فعمل الأحباش على التخلص منهم وعلى محاربتهم وطردهم نهائياً من الحبشة فى أوائل القرن السابع عشر ، وقد ظهر اختلاف وجهتى النظر بين الطرفين منذ البداية أى أثناء وجود البعثة الدبلوماسية فى الحبشة ، فقد اتضح أن النجاشى كان ينظر إلى التحالف بين الدول المسيحية المختلفة من أجل محاربة المسلمين نظرة عامة ، دون أن يدرك حقيقة الصراع القومى الذى كان قد أخذ يشتد حينذاك بين دول أوربا . وقد رأى النجاشى أنه يجب على دول أوربا أن تتعاون معاً فى إرسال قواتها إلى البحر الأحمر مع البرتغاليين حتى يتمكنوا جميعاً من شن حرب صليبية عامة على المسلمين ، فثار المبعوث « دى ليما » عندئذ فى وجه النجاشى لأنه رأى أن اقتراح النجاشى يعنى القضاء على احتكار البرتغال للطريق البحرى الجديد حول رأس الرجاء الصالح ، كما يعنى القضاء على انفرادهم بالسيطرة على تجارة الشرق ، وكان السفير قد أهدى النجاشى خريطة العالم المعروف وقتذاك ، فلاحظ النجاشى أن البرتغال صغيرة المساحة ، واعتقد لذلك أنها ليست على درجة كافية من القوة لحماية البحر الأحمر من الأروام (أى العثمانيين) . وقد اقترح النجاشى عندئذ أن يقوم هو بالكتابة إلى ملك أسبانيا ليعمل على احتلال « زيلع » ، وبالكتابة إلى ملك فرنسا ليعمل على احتلال « سواكن » على أن يقوم ملك البرتغال باحتلال « مصوع » ثم يقوم هؤلاء بمساعدة القوات الحبشية فى الزحف على العالم الإسلامى ، وفى الاستيلاء على « جدة » و « مكة » و « القاهرة » وغيرها من المدن الإسلامية ، فنضب لذلك السفير البرتغالى وانبرى فى حدة للدفاع عن قوة البرتغاليين ، وأنهم وحدهم قادرون على اكتساح العالم الإسلامى[1] ، وقد عبر النجاشى عن وجهة نظره هذه فى خطابيه سالفى

(١) Alvarez, F. : Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia, 1520–1527, pp. 311 - 312.

الذكر ، فقال للملك البرتغالى إن من دواعى حــزنه أنه يرى ملوك الفرنج يحارب بعضهم بعضاً[١] .

ومن ناحية أخرى ،كان لوصول العثمانيين حينذاك إلى البـلاد العربية أثره فى موقف النجاشى من السفير « دى ليما » فعمل على مراوغته ، وعلى عدم الوصول إلى اتفاقيات محددة معه ، وكان ذلك سبباً من أسباب تأخير عودة المبعوث البرتغالى إلى بلاده . ولقد استمر الخوف من العثمانيين يؤثر تأثيراً ملحوظاً على موقف الأحباش من البرتغاليين ، فقد كان الأحباش من ناحية يخشون أن يتدخل العثمانيون ـ بعد استيلائهم على مصر ـ فى تعيين بطريرك الحبشة ، إذ كانت تقاليد تأسيس الكنيسة الحبشية تقضى بأن يقوم بطريرك الاسكندرية بتعيين رئيس أساقفة الحبشة ، ومن ناحية أخرى كان اتخاذ العثمانيين لسياسة إسلامية أكثر نشاطاً يؤدى إلى إثارة الإمارات الحبشية الإسلامية ضد الحبشة ، ولذلك فضل الأحباش عندئذ عدم الدخول فى اتفاقيات محددة مع البرتغاليين ، بل كان من السهل عليهم دائماً بعد ذلك التبرؤ من « ماثيوس » مبعوثهم سالف الذكر إلى البرتغاليين ، فكانوا يصفونه بأنه كان مبعوثاً خاصاً للامبراطورة « هالينا » فقط ، وليس مبعوثاً رسمياً للحبشة[٢] .

أما عدن فقد نجح البرتغاليون فى هذه الأثناء فى إجبارها على عقد معاهدة معهم ، وعلى دفع الجزية لهم لمدد قصـيرة ، وقد ارتبط هذا النجاح باسم القائد البحرى « دى سلفيرا » . وكان هذا القائد قد قام فى أوائل سنة ١٥٢٤ على رأس حملة كبيرة إلى مصوع لإعادة المبعوث البرتغالى من الحبشة

---

(١) Alvarez, F. : Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinis, 1520-1527, p. 393.

(٢) Castanhoso, (Miguel de) : The Portuguese Expedition to Abyssinia in 1541—1543, Translated and Edited by R. S. Whiteway, pp. XXVIII—XXIX.

كما ذكرنا ، فقدم له حاكم « عدن » حينئذ مايلزمه من ماء وطعام — كعادته مع البرتغاليين — خوفاً من أن يبطش به ، وقد لمس « دى سلفيرا » حينئذ ضعف « عدن » ولذا أجبرها عند عودته من البحر الأحمر على عقد معاهدة مع البرتغاليين . وقد نصت هذه المعاهدة على أن تدفع « عدن » جزية سنوية للبرتغاليين ، وعلى أن تفتح ميناءها وأبوابها أمام السفن البرتغالية ، ولكن رفض نائب الملك البرتغالى فى الهند إبرام هذه المعاهدة . واعتبر أن « دى سلفيرا » قد ضيع جهده سدى [١] . وكان نائب الملك حينذاك هو « فاسكو داجاما » الشهير « الذى كان يؤمن بضرورة السيطرة على المراكز التجارية الهامة سيطرة كاملة ، ولذلك قامت الحملة البرتغالية فى سنة ١٥٢٥ بضرب « عدن » بالمدافع أثناء رحلتها إلى « مصوع » ، ولكنها لم تحقق شيئاً . وفى أوائل سنة ١٥٢٦ نجح « دى سلفيرا » فى إعادة « دى ليما » من الحبشة كما ذكرنا ، وحاول أن يتوج نجاحه بمهاجمة « عدن » أثناء عودته ولكن الرياح أبعدته عنها وتشتتت سفنه فتوجه عندئذ إلى « هرمز » [٢] . وأخيراً فرض « دى سلفيرا » معاهدة جديدة على عدن فى فبراير سنة ١٥٣٠ ، واعترفت « عدن » بمقتضى هذه المعاهدة بسيادة البرتغاليين عليها ، وبدفع الجزية السنوية إليهم ، وكذلك اعترف البرتغاليون بحرية الملاحة للعدنيين ولكن بشرط عدم توجيه سفنهم إلى « جدة » [٣] . وقد ترك البرتغاليون « بعدن » إحدى سفنهم وأربعين برتغالياً ، وذلك لضمان تنفيذ المعاهدة المذكورة وللإشراف على الميناء وعلى إيراداته المالية . وقد أثار موقف حاكم عدن من البرتغاليين غضب الأهالى هناك ، وتعرض لهجوم الفقهاء والعلماء عليه ، ولكن كانت حجة هذا الحاكم دائماً هى خوفه من

---

(١) Kammerer, A. : La Mer Rouge, Tome II, p 283.

(٢) Ibid : pp 285 - 286

(٣) Ibid : p 288.

هجوم أفراد الحملة المملوكية على عدن من داخل اليمن ، أو من البحر كما فعل مصطفى بيرم أثناء ذهابه إلى الهند قبل مجيء دى سافيرا إلى « عدن » بقليل . ولم تستمر هذه المعاهدة نافذة المفعول بعد مغادرة « دى سلفيرا » لعدن إلا مدة قصيرة ، فقد قام حاكم « عدن » بعد قليل من سفر الحملة البرتغالية بالقبض على البرتغاليين الموجودين فى عدن وسجنهم فى مؤخرة المدينة بالقرب من الجبال المحيطة بها ، بل وسخرهم فى صناعة الأسلحة والآلات الحربية ، وفى نفس الوقت قام الحاكم بالكتابة إلى السلطان سليمان القانونى يخبره بالدخول فى طاعته [١] ، وذلك حتى يقوى من جانبه إذا عاد البرتغاليون إلى مهاجمة عدن .

وهكذا ظلت « عدن » تبذل محاولات يائسة من أجل المحافظة على استقلالها وذلك بعد أن فقدت مقوماتها الاقتصادية نتيجة الحصار البحرى ، وبعد أن فقدت مساندة الداخل لها نتيجة سقوط الدولة الطاهرية . وفى هـــذه الأثناء قاومت عدن حيناً ، وخضعت حيناً ثانياً للبرتغاليين ، وتقربت حيناً ثالثاً إلى العثمانيين حتى سقطت فى أيديهم سنة ١٥٣٨ .

أما الخليج العربى ، فقد كان للبرتغاليين السيطرة التامة على تجارته وعلى حركة الملاحة به ، وذلك منذ أن نجح البوكيرك فى الاستيلاء على جزيرة « هرمز » فى أواخر سنة ١٥٠٧ ، وبصفة خاصة منذ أن دعم نفوذه هنــاك سنة ١٥١٥ ، وذلك بعد أن عقد معاهدة التحالف بينه وبين شاه فارس الذى تنازل بمقتضى هذه المعاهدة عن سيادته الإسمية على « هرمز » للبرتغاليين [٢] . وقد عمد البرتغاليون إلى استعمال العنف والقسوة فى فرض سيطرتهم فى جهات الخليج العربى ، وفى إخماد ثورات الأهالى فى « هرمز » وفى المدن

---

(١) Serjeant. R. B. : The Portuguese off the South Arabian Coast, pp 55—59. (Al-Shihri, 67 b—68 a).

(٢) Wilson, A. T. : The Persian Gulf. p. 121.

العربية الساحلية التابعة لها مثل البحرين ومسقط وقرية وصحار . وفى سنة ١٥٢٩ أرسل البرتغاليون أول حملة بحرية لهم إلى البصرة أى إلى أقصى شمال هذا الخليج وضربوها بالمدافع وذلك لمخالفتها لأوامرهم [١].

وهكذا يتضح نجاح البرتغاليين الساحق عند حدود العرب الجنوبية فى هذه الفترة ولقد كان تأخر العثمانيين فى القيام بعمل إيجابى فعال عند هذه الحدود — لتعدد مشاغلهم وخاصة فى أوربا — عاملا هاماً من عوامل نجاح البرتغاليين فى هذه المناطق ، كما كان عاملا هاماً أيضاً فى تعقيد الموقف أمام العثمانيين عندما أتموا إعداد حملتهم البحرية القوية فى عام ١٥٣٨ .

أما الأوضاع الداخلية فى اليمن ، فقد تطورت كما أشرنا فى غير صالح العثمانيين ، ولذلك فعلينا هنا أن نحدد القوى التى شكلت أحداث هذه الفترة (١٥١٧ — ١٥٣٨) ، وأن نعرف أحداث الصراع الذى دار بين هذه القوى ونتائجه ، وذلك حتى تتبين حقيقة الأوضاع التى واجهت العثمانيين فى داخل اليمن فى سنة ١٥٣٨ .

وأولى هذه القوى هى القوة المملوكية ، أو ما يمكن أن نسميها قوة المماليك — العثمانيين لاعتراف هؤلاء بالسيادة العثمانية بعد دخول العثمانيين إلى مصر كما ذكرنا . ويجدر من البداية القول بأن القوة المملوكية لم تكن تمثل فى اليمن إلا قوة صورية فقط ، وأن الصراع الحقيقى الذى دار فى هذه الفترة كان بين قوى يمنية خالصة أى بين الزيديين والطاهريين أو بمعنى آخر بين الجبليين والسهليين . فمن ناحية ، تركزت قوة المماليك الرئيسية فى « زبيد » والمناطق التهامية المحيطة بها ، فكانوا لذلك بعيدين عن التأثير فى الأحداث التى دارت فوق الهضبة اليمنية ، أما الحاميات المملوكية الصغيرة التى تناثرت فوق الهضبة ، وخاصة فى « صنعاء » و « المقرانة » و« تعز » فقد كانت أضعف

---

(١) Willson : The Persian Gulf, pp. 123—124.

من أن يكون لها دور فعال هناك ، ومن ناحية ثانية ، انقسم المماليك فى اليمن إلى شيع وأحزاب ، وتنازعوا فيما بينهم حول السلطة والسيادة ، فأدى هذا إلى إنشغالهم عن المشاركة فى أحداث اليمن حينذاك . ومن ناحية ثالثة ، ارتبط وجود المماليك فى اليمن ، وماحدث بين صفوفهم من نزاع ، بقوة خارجية هم العثمانيون فى مصر . ولهذا كله فيمكن تأجيل الحديث عن المماليك فى «زبيد» إلى حين الحديث عن محاولات العثمانيين لتدعيم نفوذهم فى اليمن .

أما القوة الثانية فهم الطاهريون «أفراد أسرة السلطان عامر بن عبدالوهاب الذين حاولوا بعد وفاته الإحتفاظ بما كان لهم من سيادة وممتلكات فى اليمن ولكن دون جدوى ، فقد توالت هزائمهم وانحصر نفوذهم فى النهاية فى عدن . حقيقة لم يظهر بعد سقوط السلطان عامر بن عبد الوهاب شخصية طاهرية قوية تستطيع أن تنقذ النفوذ الطاهرى فى اليمن ، ولكن لم يكن هـــذا هو السبب الحقيقى أو الوحيد لتوالى هزائمهم ، بل يرجع تقهقرهم أمام الزيديين إلى جمودهم من ناحية ، وإلى ضياع مقومات وجودهم من ناحية أخرى ، فلا شك أن تحول التجارة الشرقية عند بداية القرن السادس عشر الميلادى إلى ضعف إيرادات الطاهريين إن لم نقل إنه أدى إلى انهيار إحدى دعائم البناء الاقتصادى فى اليمن حينئذ ، ورغم ذلك فلم يتكيف الطاهريون ومن والاهم من طبقة كبار الملاك والتجار من الجنوبيين بالأوضاع الجديدة التى ترتبت على الحصار البحرى البرتغالى . فمن الناحية الداخلية لم يتنازل الطاهريون وأتباعهم عن ثرواتهم الضخمة لمواجهة الإنهيار الإقتصادى ، وقد اتضح مدى ضخامة هذه الثروات عند سقوط دولتهم ، عندما انتقلت على شكل أسلاب وغنائم إلى أيدى المماليك والزيديين بل والعثمانيين كما سنرى فيما بعد ، وكان المؤرخون المعاصرون يشيرون دائماً إلى ضخامة غنائم هذه الفئات عند ذكر مهاجمتها لممتلكات الطاهريين وحصونهم . ومن الناحية الخارجية ، رفض الطاهريون التعاون مع المماليك فى صـــد الغزو البرتغالى كما

رأينا وذلك دون وعى كامل للتطلبات الحربية فى هـــذه الفترة الهامة من تاريخ العرب .

أما القوة الثالثة فهم الزيديون ، وقد تمكن هؤلاء من أن يظهروا نشاطهم ، ومن أن يمدوا نفوذهم إلى جهات اليمن المختلفة ، وذلك بعد سقوط السلطان عامر ابن عبد الوهاب ، لأن قوة حكم هذا السلطان كانت قد أجبرت الزيديين مؤقتاً على وقف نشاطهم ، وعلى دخول بعضهم فى طاعة الطاهريين . ولقد نجح الإمام شرف الدين فى هذه الفترة فى أن يوحد القوى الزيدية المختلفة تحت زعامته ، كما نجح فى توجيه جهود هذه القوى لمد نفوذه إلى أقصى جنوب اليمن . وسنرى أن الزيديين كانوا يمثلون القوة السياسة الرئيسية التى واجهت العثمانيين فى اليمن سنة ١٥٣٨ م . ويعتبر الإمام شرف الدين من أهم الشخصيات التى ظهرت فى اليمن فى النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى ، فقد أصبح صاحب الكلمة العليا فى البلاد بعد سقوط السلطان عامر بن عبد الوهاب ، وظـــل مسيطراً على أحداث اليمن مدة طويلة خلال هذه الفترة من تاريخ اليمن . وقد ولد الإمام شرف الدين فى ١٧ رمضان سنة ٨٧٩ هـ (٢٦ يناير عام ١٤٧٥ م) ثم دعا بالإمامة فى « حجة » كما ذكرنا وتلقب بالإمام المتوكل على الله شرف الدين ، وهو يسمى يحيى بن الإمام أحمد ، ويرجع نسبه إلى الحسين بن الإمام على بن أبى طالب[١] . ويعتبر الإمام شرف الدين من الأئمة المجتهدين المجددين فى المذهب الزيدى ، إذا كان له عدة مؤلفات وآراء فقهية هامة فى هذا المذهب ، كما كان من الأئمة المعتدلين بالنسبة لموقفه من المـــذاهب السنية ، فقد كان يعترف بهذه المذاهب ويعتبر المذهب الزيدى مذهباً خامساً ، ويقرب إليه

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ج ١ ، ص ٥٨ ب ، يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ص ١١٣ .

العلماء والفقهاء من أهل هذه المذاهب[١] .

وقد بدأ الإمام شرف الدين يلعب دوراً كبيراً فى تاريخ اليمن الحديث بعد سقوط السلطان عامر بن عبد الوهاب مباشرة ، وبعد انتقاله من « حجة » إلى « ثلاء » كما ذكرنا . فقد تطورت الأحداث سريعة لتحقيق أغراضه ، واستطاع أن يمد سيطرته إلى « صنعاء » بعد زمن قليل . وكانت الحامية المملوكية التى تركها الأمير اسكندر المخضرم بها قد حاولت أن تمد نفوذها إلى خارج أسوار المدينة ، فهاجمت بعض القبائل المحيطة بها ولكنها ردت على أعقابها فاشلة . وعندئذ تشجع الأهالى على محاربة المماليك داخل «صنعاء» حتى تمكنوا من محاصرتهم فى داخل قصر « غمدان » ، وفى نفس الوقت استنجد هؤلاء الأهالى بالإمام شرف الدين الذى أسرع إليها فى ٨ شوال سنة ٩٢٣ هـ (٢٤ أكتوبر عام ١٥١٧ م) ، فعمل على تضييق الخناق حول المماليك حتى اضطروا أخيراً إلى تسليم أنفسهم إليه ؛ فأمن حياتهم حتى غادروا صنعاء سالمين[٢] .

ولقد اتجهت جهود الإمام الحربية بعد هذه البداية الناجحة فى اتجاهين متضادين ، فقد اصطدم الإمام بالقوى الزيدية الأخرى فى شمال اليمن ، كما اتجه جنوباً أيضاً لمحاربة الطاهريين ، وكانت أحداث الجبهتين تعاصر بعضها بعضاً أحياناً . ورغم وحدة المذهب بين القوى الزيدية فقد كان تضارب المصالح المادية والسياسية تمثل العامل الرئيسى فى تصادم هذه القوى ، وفى جعل الصدام بينهما يتصف بالعنف والقسوة . أما حروب الإمام شرف الدين مع الطاهريين فقد ظلت تتخذ شكل مناوشات عدة سنوات — لانشغال كل من الطرفين فى منطقته الخاصة — فلم يحدث الصدام الكبير بينهما إلا متأخراً فى سنة ٩٣٤هـ (١٥٢٥/٤ م) .

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص١٢ب .

(٢) عيسى بن لطف الله · روح الروح (مخطوطة) ، ج ١ ، ص٦٣ب .

وكان انفراد الإمام شرف الدين بالاستيلاء على « صنعاء » هو السبب الرئيسى فى تصادمه مع أشراف الجوف بزعامة محمد بن عبد الله الذويع . وكان الإمام قد اتفق مع هؤلاء الأشراف على أن يتعاونا معاً فى الهجوم على المماليك فى « صنعاء » والاستيلاء عليها ، على أن يقتسما الغنائم فيما بينهما ، ولكنه عاد فتخلى عن اتفاقه معهم بعد أن بايعه أهالى صنعاء أنفسهم . وقد تفاقم الأمر بين الإمام وبين الأشراف بعد أن فشل هؤلاء فى الوصول إلى اتفاق مع الإمام أثناء محاصرة المماليك فى « صنعاء » فقد لجأ المماليك إلى هؤلاء الأشراف فى مدينة « عمران » — إلى الشمال الغربى من صنعاء — بعد أن أطلق الإمام شرف الدين سراحهم وأخرجهم سالمين من صنعاء[1] . عندئذ تألف حلف بين هؤلاء المماليك وبين أشراف الجوف وبين إمام صعده الحسن بن المؤيد ، الذى كان قد أعلن إمامته منذ أيام السلطان عامر ابن عبد الوهاب ، والذى كان قد اضطر إلى الاعتراف بسيادة هذا السلطان عليه . وقرر هؤلاء الحلفاء العمل ضد الإمام شرف الدين ، فهاجموا حصن ثلاء فى سنة ٩٢٤ ﻫ (١٥١٨ م) ولكنهم فشلوا فى الاستيلاء عليه بالرغم من تكرر مهاجمتهم له[2] .

وكان الهجوم على « ثلاء » إيذاناً بقيام حرب ضروس بين الإمام شرف الدين وبين باقى القوى الزيدية فى الشمال . وقد استمرت هذه الحرب سنوات طوالا لم يتمكن الإمام شرف الدين خلالها من الاستيلاء على « صعدة » و « نجران » فى أقصى الشمال إلا بعد حوالى خمسة عشر عاماً من الهجوم على « ثلاء » .

وكانت مدينة « عمران » أهم مراكز أشراف الجوف ، هى أولى المعاقل

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، ١٠ ، ص ٦٣ ب .

(٢) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١١٧ .

التى سقطت فى أيدى الإمام شرف الدين . فقد قام ابنه المطهر فى سنة ٩٢٨هـ (١٠٢٢/٢١) بالاستيلاء عليها بعد حروب عنيفة ، وتركها أطلالا دارسة وخرابات عابسة . وغنم منها سلاحاً ونقداً وغنما وخيلا »[١] . وفى أثناء الصدام بين الإمام شرف الدين وبين الأشراف وأئمة صعدة ، كان الإمام يضطر إلى إرسال جيوشه إلى الجهات التى سبق أن أعلنت مبايعتها له لإخماد الاضطرابات بها ، وذلك كما حدث فى جهات « خولان » التى تقع إلى الشرق من صنعاء فى سنة ٩٣٤ هـ (١٥٢٨/٧ م) . ففى هـــذا العام قامت بعض الإضطرابات فى « خولان » ضد حكم الإمام شرف الدين . فقام المطهر بالتمثيل برهائنهم وقطع أيديهم وأرجلهم . وأدى هذا العنف إلى ازدياد ثورة « خولان » ، ولكن المطهر تمكن من إخماد هذه الثورة بعد أن استعمل كل ألوان القسوة فى حروبه مع هذه القبائل ، فقد تعمـــد أن يخرب قراهم وحقولهم ، كما أمر بأن تقطع أيديهم وأرجل أسراهم ، كانوا حوالى ثلاثمئة أسير . وكان أحد أهالى «خولان» قد تسلل إلى « صنعاء » أثناء هذه الحرب وحاول حرق أحد أبوابها ، فأصر المطهر على تسليم هــذا الرجل إليه ثم أمر بصلبــه على باب « صنعاء » حتى الوفاة[٢] .

ولقد اشتد النزاع بين الإمام شرف الدين وبين جبهـة الأشراف فى « الجوف » و « صعدة » فى سنة ٩٣٧ هـ (١٥٣١/٣٠ م) عندما قرر هؤلاء مبايعة الإمام عز الدين بن المؤيد فى « صعدة » بعد وفاة أبيــه ، وعندما أخذوا فى نشر دعوته ونفوذه فى الجهات الشمالية . وعندئذ اشتعلت فى هذه الجهات الحروب العنيفة حتى اضـــطر الأشراف إلى الانسحاب من « صعدة » نفسها فدخلها الإمام شرف الدين دون حرب فى ٢٢ صفر سنة ٩٤٠ هـ (١٢ سبتمبر ١٥٣٣ م)[٣] . ولم يؤد سقوط « صعدة » فى يد الإمام

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، حـ ١ ، ص ٦٤ ب .

(٢) نفس المرجع : ص ٦٦ ب — ٦٨ أ .

(٣) نفس المرجع : ص ٦٧ أ — ٦٨ ب .

الى انهاء الحرب ، بل عمل الأشراف على اعداد جيش كبير من القبائل الشمالية مثل قبائل دهمة ، ووائلة ، ونجران ، ويام ، ووادعة الشام ، ثم تقدموا بجموعهم الغفيرة الى القرب من « صعدة » . وقد توجه المطهر لملاقاة هـذا الجيش الكبير فتمكن من إلحاق الهزيمة به بعد أن قام بقتل عدد كبير من أفراد هذا الجيش[١] . وقد مهدت هذه المعركة الطريق أمام المطهر الى أقصى جهات اليمن الشمالية فتقدم بجيوشه الى جبل « برط » فاستولى على جهاته حتى حدود الربع الخالى ، ثم تقدم الى « نجران » فاستولى عليها فى ٢٢ صفر سنة ٩٤١ هـ (٢ سبتمبر ١٥٣٤ م) . وهنا لم يجد الأشراف بدأ من مصالحة الإمام شرف الدين ومغادرة اليمن ، فوافق الإمام وأمنهم لمدة عام حتى يتم استعداد من يرغب منهم فى الرحيل[٢] . أما الإمام عز الدين بن المؤيد فقد أقام فى « فلله » بالقرب من « صعدة » وانصرف الى العـلم والتدريس حتى توفى بعد ذلك بقليل[٣] . وفى هذه الأثناء كانت باقى جيوش الإمام تحت قيادة ابنه شمس الدين تحارب فى جهات « الأهنوم » و « شهارة » و « حراز » الى الغرب من « صنعاء » ، فتم لها اخضاع هذه الجهات الجبلية الوعرة لسيادة الإمام فى سنة ٩٤٠ هـ — (١٥٣٤/٣ م)[٤] .

ومن ناحية أخرى ، توجهت جيوش الإمام لمحاربة الطاهريين فى جهات اليمن الجنوبية فى نفس الوقت الذى كان الصدام دائراً فيه بينه وبين القوى الزيدية فى الشمال . وقد استمر الصراع طويلا بين الإمام شرف الدين وبين

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ص ١٢٠ .

(٢) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) جـ ١ ، ص ١٦٧ .

(٣) العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام ، ص ٥٩ .

(٤) يحيى بن الحسين : نفس المرجع (مخطوطة) ص ١٢٠ .

الطاهريين ، فلم تتمكن إحدى هاتين القوتين من القضاء تماماً على القوة الأخرى وذلك حتى مجيء العثمانيين الى اليمن سنة ١٥٣٨ ، والحقيقة أنه بالرغم من توالى هزائم الطاهريين فقد كان لدى هؤلاء دائماً القوة الكافية التى تمكنهم من الصمود أحياناً أما الزيديين أو المماليك ، ومن استعادة بعض أملاكهم المسلوبة . وكان العامل التاريخى أحد العوامل الإيجابية الهامة التى عملت على بقاء الطاهريين فى اليمن كقوة سياسية لها أهميتها حوالى عشرين عاماً بعد سقوط السلطان عامر بن عبـــد الوهاب . فمن ناحية لم يظهر فى اليمن عقب سقوط السلطان عامر قوة كبيرة تستطيع القضاء على باقى القوى السياسية بصورة حاسمة سريعة ، ولذلك ظلت القوى الثلاث تتصارع فيما بينها طوال المدة من ١٥١٧ الى١٥٣٨ ، ومن ناحية ثانية كان للدولة الطاهرية عمق تاريخى بعيد جعل اليمنيين يتمسكون بالطاهريين أطول مدة ممكنة ، فقد كان الطاهريون يمثلون الإمتداد التاريخى للدول السنية التى تعاقب حكمها فى اليمن منذ الفتح الإسلامى ، كما أصبحوا — بعد مقتل هذا السلطان — يمثلون رمزاً لمقاومة أهالى الجنوب السهليين للجبليين . وظهر هذا بجلاء فى المؤلفات اليمنية المعاصرة وقتذاك ، فقد كان مؤرخو وكتاب هذه الفترة يشيرون الى ممثلى وولاة الطاهريين — قبل وبعد سقوط السلطان عامر — على أنهم « الدولة » . ويشيرون الى الأئمة والدعاة الزيديين بأسمائهم فقط . والواقع أن اليمنيين كانوا ينظرون الى الزيديين حتى ذلك الوقت باعتبارهم أقلية مذهبية تتحصن بقمم الجبال الشمالية العالية بعيداً عن الأغلبية السنية المحيطة بها ، وذلك رغم قيام بعض الأئمـــة بأدوار سياسية هامة فى تاريخ اليمن ، ورغم استيلاء بعضهم على « صنعاء » نفسها فى بعض الأحيان . ومن ناحية ثالثة أصبح الطاهريون يمثلون رمز مقاومة السهليين للجبليين النازحين الى بلادهم ، ولذلك تمسك بهم هؤلاء أطول مدة ممكنة .

وعلى عكس ذلك كانت هناك عوامل أخرى جعلت من زوال هذه

الأسرة أمراً حتمياً . فبالإضافة إلى الحصار البحرى البرتغالى وأثره على اقتصاديات اليمن كان استيلاء المماليك على تهامة قد سد المنافذ اليمنية الواقعة على البحر الأحمر ، فأدى هذا إلى أن ازداد اختناق الطاهريين فوق جنوب الهضبة اليمنية . ومن ناحية أخرى ، فإلى جانب عدم ظهور شخصية طاهرية قوية بعد سقوط السلطان عامر تتمكن من المحافظة على كيان الطاهريين وعلى ممتلكاتهم فقد تنافس الأمراء الطاهريون فيما بينهم حول السلطة والرئاسة .

وقد اضطرب أمر الطاهريين مباشرة بعد سقوط السلطان عامر بن عبد الوهاب وتم فى خلال سنوات قليلة تفكك هذه الأسرة وانهيارها لتنازع أمرائها فيما بينهم . فبعد مقتل السلطان عامر ، ظلوا يقيمون الخطبة باسمه لعدة أشهر حتى أجمعوا رأيهم على تولية ابنه أحمد سلطاناً عليهم ، وقد تمت بيعة هذا الأمير بعد أن تمكن من استعادة المقرانة من أيدى المماليك ، ولكنه توفى بعد قليل . وتولى الحكم بعده ابن عمه الأمير عامر بن عبد الملك الذى سبق أن خلصته القبائل من أيدى اسكندر المخضرم ، والذى استطاع أن يجمع حوله الأهالى فى الجهات الجنوبية من الهضبة لقوة شخصيته ، ولكن قام أحد أبناء عمومته ويسمى أحمد بن محمد بمنافسته فى الحكم واستقل « برداع » ، الواقعة إلى الشمال من « المقرانة » ، فقامت الحرب بين الطرفين حتى اضطر هذا المنافس إلى الدخول فى طاعة الأمير عامر بن عبد الملك ، ولكن توفى هذا الأخير فجأة بعد قليل فى رمضان سنة ٩٢٥ هـ (أغسطس ١٥٠٩ م) فتولى الحكم منافسه القديم أحمد بن محمد [١] . وقد ازداد الأمر سوءاً بعد ذلك لعدم إجماع الطاهريين على مبايعة هذا الأمير . فأدى هذا إلى فشل الهجوم على المماليك فى « تعز » بعد أن كان انتصار الطاهريين أمراً وشيك الوقوع : وكان

---

(١) بومخرمة : قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر (مخطوطة) ، ج ٣ ، م ٢ ، ص ١٢٠٧ — ١٢٠٨ .

والى عدن الطاهرى الأمير « مرجان » على رأس المعارضين لحكم الأمير أحمد بن محمد ، فعمل على عزله وتولية الأمير عبد الملك بن محمد فى « عدن » بدلا منه . وكانت الأطماع الشخصية والمصالح المادية هى العامل الوحيد لاشتداد المنافسة بين الأمير مرجان وأحمد بن محمد[١] ، وكان الأمير مرجان يريد أن ينفرد بحكم « عـــدن » التى ظلت أغنى المراكز الطاهرية بالرغم من الحصار البحرى ، وذلك لنجاح بعض السفن التجارية فى الوصول إليها بعد إفلاتها من مهاجمة السفن البرتغالية لها فى عرض البحار ، وقد اشتدت قبضة الأمير مرجان بعد ذلك على الأمور فى « عدن » فعمل على سلب سلطات الأمير الشرعى هناك عبد الملك بن محمد الذى سبق له أن أقامه فى « عدن » ، فأدى هـذا إلى قيام الحرب بين الأميرين فى داخل « عدن » حتى انتهى الأمر بوفاة الأمير مرجان بعد قليل من قيام الحرب وذلك فى سنة ٩٢٧ هـ (١٥٢١ م)[٢] . وهكذا فى خـــلال أربع سنوات فقط عقب سقوط السلطان عامر بن عبد الوهاب حدث أن تفككت أسرة هذا السلطان وتنازع أمراؤها فيما بينهم ، فأدى هذا إلى ضعف موقف الطاهريين أمام أعدائهم .

وكيفما كان الأمر ، فقـــد وقع الصدام بين الإمام شرف الدين وبين الطاهريين عقب سقوط السلطان عامر مباشرة . وقد بدأ الصدام فى بداية الأمر بين الإمام وبين الحاميات الطاهرية المنتشرة فى المنطقة الشمالية من اليمن ا وقد رأينا كيف سارع حاكم « ثلاء » الطاهرى فى سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧م) إلى تسليم ما تحت يديه إلى الإمام شرف الدين ، وذلك خوفاً من هجوم المماليك عليه بعد سقوط صنعاء فى أيديهم ، وخوفاً من وقوعه فى أيدى الزيديين قهراً ، إذا كانت « ثلاء » تقع فى قلب المنطقة الزيدية . وكان سقوط

---

(١) بومخرمة : قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر (مخطوطة) جـ ٣ م ٢ ، ص ١٢٠٩ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٢١٠ — ١٢١١ .

الجيوب الطاهرية الأخرى أمراً متوقعاً كذلك ، وخاصة بعد امتداد نفوذ هذا الإمام إلى «صنعاء» . فقد هرب الوالى الطاهرى من «كوكبان» فى سنة ٩٢٤هـ (١٥١٩ م) عندما علم بزحف الإمام شرف الدين إليه . وفى سنة ٩٢٥ هـ (١٥١٩ م) قام أهالى مدينة «ذمار» بمبايعة الإمام وبطرد واليهم الطاهرى . وقد حاول الطاهريون عندئذ استرجاع «ذمار» فهاجمها عامر بن عبد الملك ، ولكنه تقهقر من هناك عندما علم بتقدم المطهر إليها . وسقط حصن «ذى مرمر» آخر معاقل الطاهريين فى الشمال فى أيدى الإمام شرف الدين بعد ذلك بقليل أى فى سنة ٩٢٦ هـ (١٥٢٠/١٩ م)[١] .

وقد تجدد النزاع بين الإمام شرف الدين وبين الطاهريين بعد ذلك عندما توجه المطهر فى سنة ٩٣٤ هـ (١٥٢٨/٧ م) إلى الجنوب من صنعاء لتدعيم نفوذ الزيديين فى المناطق الواقعة بين «صنعاء» و «ذمار» ، وهى المناطق التى تقع على حدود ممتلكات الطاهريين . وعندئذ استنجد به المماليك الذين كانوا فى «المقرانة» ، والذين كانوا قد استعادوا هذه المدينة من أيدى الطاهريين ، وكان المماليك والطاهريين يتبادلون معاً الاستيلاء على «المقرانة» طوال الفترة السابقة. وقد تشجع المطهر حينذاك على التقدم إلى «المقرانة» فاستولى عليها ، كما استولى «رداع» ، وعلى باقى المراكز والحصون الطاهرية المحيطة بها ، والتى كانت تقع إلى الشرق من الخط الممتد بين «ذمار» و «صنعاء» . وعاد المطهر بعد ذلك إلى «صنعاء» مثقلا بالغنائم الوفيرة التى كان الطاهريون يحتفظون بها فى هذه الحصون ، «وذلك لأن الطاهرية لما دهمتهم الجيوش الغورية نقلوا ذخائرهم إلى هذه الحصون خوفاً من الغورية يوم ذهاب ملك عامر بن عبد الوهاب»[٢] . وكانت لهذه المناطق الشرقية أهمية خاصة بالنسبة للمطهر ، فقد كانت هذه المناطق

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ص ١١٨ .

(٢) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) جـ ١ ، ص ١٦٦ ا — ٦٦ ب .

تشتهر بأهميتها الزراعية وبوفرة المياه بها ، كما كانت تربية الإبل والغنم تنتشر فى المناطق التى تقع إلى الشرق من « رداع » لوفرة المراعى بها ، مما أدى إلى أن تشتهر « رداع » بصناعة البسط الصوفية[1] . ولهذا كله فيمكن أن نعتبر أن توجه المطهر إلى هذه الجهات كان أولى خطوات الجبائيين إلى مناطق جنوب اليمن الأكثر غنى وثروة .

وقد أدت هذه الأحداث إلى زيادة ضعف الطاهريين ، ولذلك فلم يتمكن عامر بن داود الطاهرى الذى كان قد آل إليه أمر الطاهريين حينئذ من إعداد جيش قوى لاستعادة ممتلكاته الشرقية حتى أوائل عام ٩٤١ هـ (١٥٣٥م) ، فقد تقدم عامر بن داود حينئذ إلى هذه الجهات الاستيلاء عليها بتشجيع أحد الأشراف المعارضين للإمام شرف الدين . وكان الإمام وابنه المطهر مشغولين بحروبهما فى أقصى شمال اليمن فى «صعدة» و«نجران» غير أن المطهر سارع عندئذ بالتوجه إلى الجنوب ، وفاجأ الطاهريين بظهوره فى جنوب «ذمار» فدارت الحرب بين الطرفين بالقرب من «دمت» ، وأحرز المطهر نصراً حاسماً ، وقد أظهر المطهر فى هذه الحروب قسوة بالغة ، فأعمل القتل والسفك بين أعدائه ، فقد كان عدد قتلى الطاهريين فى هذه المعركة ثلاثمائة ، وكان عدد أسراهم ألفين وثلاثمائة ، فأمر المطهر بقطع رأس ألف أسير ، ثم جعل باقى الأسرى وهم ألف وثلاثمائة أسير يحملون رؤوس القتلى ، فحمل كل أسير رأساً[2] . وقد أرسل المطهر هذا الموكب الغريب إلى « صنعاء » ومنها إلى «صعدة» ، ليعلن انتصاره على الطاهريين ، وليخفف الأصوات المعارضة لحكم الإمام شرف الدين .

وقد توالت انتصارات المطهر بعد هذه المعركة فى الجهات الجنوبية من اليمن حتى أسوار « عدن » التى كان عامر بن داود قد فر إليها ، وتحصن

---

(١) حسين بن على الويسى : اليمن الكبرى ، ص ٥٠ .

(٢) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ ١ ، ص ٦٨ ب .

بها . وكانت أهم هذه الانتصارات هى الاستيلاء على « تعز » التى كانت عندئذ فى أيدى الطاهرين - فقد استولى عليها المطهر فى شعبان سنة ٩٤١ هـ (فبراير / مارس ١٥٣٥ م) فخيب بذلك أمل المماليك فى استعادتها بعد أن كانوا قد بدأوا التقدم إليها قبل أن يعلموا بسقوطها فى أيدى المطهر . فعادوا عندئذ إلى « زبيد »[١] .

وواصل المطهر بعد ذلك الاستيلاء على باقى المراكز الطاهرية فى الجهات الجنوبية ولم يبق أمامه إلا « عدن » التى كانت قد صدت هجومه عليها . وقد ازداد نشاط المطهر فى سنة ٩٤٣ هـ (١٥٣٧/٦م) عندما تقدمت نجدة كبيرة إليه تحت قيادة أخيه شمس الدين ، إذ تقدم المطهر عندئذ إلى « زبيد » وحاصرها ولكنه فشل فى الاستيلاء عليها . وكان المماليك قد أغرقوا الأراضى المحيطة « بزبيد » بالمياه ، فأعاقوا بذلك حركة جيوش المطهر الغفيرة مما اضطره فى النهاية إلى الارتداد عنها. وقد انتهز عامر ابن داود فرصة انهزام المطهر أمام « زبيد » وتقدم من « عدن » لمهاجمته ، فتوجه المطهر إليه وألحق الهزيمة بجيوشه ، ثم حاصر المطهر « عدن » ثانية ولكنه فشل أيضاً فى الاستيلاء عليها[٢] . وكانت هذه الأعمال الحربية هى آخر خطوات المطهر حينذاك فى المناطق الجنوبية ، فقد اهتم بتنظيم شئون هذه الممتلكات الجديدة ثم عاد إلى صنعاء . فلم يحدث هناك ما يستحق الذكر حتى سقطت « عدن » و « زبيد » بعد ذلك بقليل فى أيدى العثمانيين ، عندما جاء سليمان باشا الخادم إلى اليمن فى سنة ٩٤٥ هـ (١٥٣٨م) .

وهكذا يتضح أن ثمة تغيراً كبيراً قد حدث فى خريطة اليمن السياسية فى الفترة الممتدة من ١٥١٧ إلى ١٥٣٨ ، ففى هذه الفترة نجح الزيديون لأول

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٢١ .
(٢) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، ح ١ ، ص ١٧٠ .

مرة فى تاريخهم أن يمدوا نفوذهم إلى جهات اليمن المختلفة حتى أسوار «عدن» جنوباً ، وحتى أسوار « زبيد » غرباً . ولنا أن نتصور أن الصدام الذى حدث بين الزيديين والطاهريين إنما هو صدام بين قطبى اليمن : وهما « صعدة » فى أقصى الشمال ، و « عدن » فى أقصى الجنوب . ولا شك فى أن كلا من القطبين كان يمثل أوضاعاً خاصة تختلف فى جوهرها عن أوضاع القطب الآخر ، فقد كانت « صعدة » تمثل الشمال الجبلى الفقير نسبياً ، الذى اعتنق المذهب الزيدى للتعبير عن شخصيته الخاصة وسط المحيط السنى الملتف حوله ، أما « عدن » فكانت تمثل الجنوب السهلى الغنى زراعياً وتجارياً . ولقد كان « لعـــدن » السيادة والسيطرة طوال العصور الوسطى ، ولكنها عندما فقدت أسباب قوتها السياسية والاقتصادية عند بداية القرن السادس عشر الميلادى ، استطاعت « صعدة » عندئذ أن تمد نفوذها إلى باقى جهات اليمن لتملأ الفراغ الذى خلفته « عدن » عند انهيارها . وقد نجح العثمانيون — كما سنرى فى الفصول التالية — فى أن يعيدوا للجنوب بعض سيادته وأهميته وذلك بفضل قوتهم وإمكانياتهم الضخمة ، ولكن لم يستمر ذلك طويلا فقد تمكنت « صعدة » بعد صراع طويل مع العثمانيين من أن تؤكد سيادتها على اليمن مرة أخرى ، لأنه لم يكن فى استطاعة العثمانيين أن يعيدوا للجنوب رخاءه الاقتصادى أو أسباب قوته المادية .

وأخيراً فقد بقى أمامنا أن نتساءل : ماذا فعل العثمانيون فى المدة من ١٥١٧ إلى ١٥٣٨ لتدعيم سيطرتهم فى البحر الأحمر بوجه عام وفى اليمن بوجه خاص ؟

وتتضح الإجابة على هذا السؤال إذا أبرزنا أولا النقاط التالية :

أولا : ظلت خطوات العثمانيين فى البحر الأحمر طوال هذه المدة تتصف بالضعف لانشغالهم فى جهات متعددة .

ثانياً : كان نجاح البرتغاليين فى البحر الأحمر كما رأينا يحتم على العثمانيين أن يتخذوا خطوة إيجابية كبيرة لحماية حدود إمبراطوريتهم من ناحية الجنوب .

ثالثاً : ظلت السيادة العثمانية فى اليمن طوال هذه المدة سيادة إسمية ، وظل المماليك هم ممثلو هذه السيادة ، وذلك بالرغم من محاولات العثمانيين لفرض نفوذهم الفعلى المباشر هناك .

وقد يزداد الأمر وضوحاً إذا أشرنا الى أوضاع المماليك الخاصة فى اليمن ، وهذه الأوضاع تتحدد فى النقاط الآتية :

(أولا) انصرف المماليك إلى أعمال السلب والنهب كما أشرنا أثناء اصطدامهم بالسلطان عامر بن عبد الوهاب ، وقد ازدادت هذه الأعمال بعد ذلك لاعتماد المماليك الكلى على موارد اليمن الداخلية ، وبعد انقطاع صلاتهم بمصر ، فأدى هذا إلى كره اليمنيين لهم . ولنا أن نتصور أن المماليك فى اليمن قد تحولوا إلى مغامرين حربيين بعد سقوط السلطان عامر ، وبعد سقوط دولتهم فى مصر ، ولذلك كان صراعهم من أجل البقاء يعتمد على جهودهم الذاتية ، وعلى موارد اليمن المحلية .

(ثانياً) حاول المماليك الاحتفاظ بكيانهم الخاص فى اليمن بالرغم من اعترافهم بالسيادة العثمانية . والحقيقة أن المماليك كانوا مجبرين على الاعتراف بهذه السيادة لصعوبة موقفهم حينئذ فى اليمن ، فقد كان المماليك فى حاجة إلى الاستناد إلى دولة كبيرة للاعتماد عليها ولربط أنفسهم بها . ورغم ذلك فقد اتضح من البداية رفض المماليك لمبدأ التسليم التام للعثمانيين ، بل عملوا على المحافظة على استقلالهم وعلى ممتلكاتهم فى اليمن . وكان خوف المماليك فى اليمن من بطش العثمانيين أحد العوامل الهامة التى حددت موقف المماليك من السيادة العثمانية. وقد ازداد خوف المماليك عندما وصلت إليهم أخبار مذابح السلطان سليم بين صفوف المماليك فى مصر بعد دخوله إليها مباشرة ، وذلك على ألسنة المماليك الذين فروا إلى اليمن .

(ثالثاً) انقسم المماليك فيما بينهم إلى شيع وأحزاب ، وتوالت الحروب والمنازعات بين قادتهم حول الاستئثار بالسلطة والحكم . وكان تعدد أصول أفراد القوة المملوكية فى اليمن أحد العوامل فى انقسام هذه القوة إلى عدة جماعات ، وخاصة بعد أن تحولت القوة المملوكية فى مجموعها إلى جماعة من المغامرين العسكريين .

(رابعاً) تأثر تاريخ المماليك فى اليمن فى هذه الفترة بمجهود العثمانيين فى البحر الأحمر واليمن ، كما تأثر تاريخ العثمانيين فى اليمن بموقف هؤلاء المماليك منهم .

وعلى ضوء هذه الاعتبارات جميعها يمكن متابعة خطوات العثمانيين فى البحر الأحمر وعلى السواحل اليمنية فى المدة من ١٥١٧ إلى ١٥٣٨ ؛ والحقيقة أن العثمانيين قد أبدوا إهتمامهم عقب استيلائهم على مصر مباشرة بصد الغزو البرتغالى عن البحر الأحمر ، فقد وضع السلطان سليم خطة محاربة البرتغاليين فى الهند أثناء وجوده فى مصر فأمر ببناء أسطول بحرى فى السويس ولكنه توفى قبل أن يتم بناء هذا الأسطول[١] . ولقد كان اهتمام السلطان سليم ببناء قوة بحرية عثمانية فى البحر الأحمر جزءاً من خطته العامة لبناء أسطول كبير للعثمانيين فى البحر الأبيض المتوسط . فقد أمر السلطان سليم بعد عودته من مصر والشام إلى استانبول فى سنة ١٥١٩ ، ببناء أسطول بحرى كبير من مائة وخمسين سفينة ، كما أمر بتجهيز جيش كبير من ستمائة ألف جندى ، بالإضافة إلى عدد كبير من المدافع ، وجعل الجميع فى حالة استعداد تام للقيام بالحرب فى أية لحظة . وقد اعتقد البعض أن هذه الاستعدادات خاصة بالهجوم على فارس ، ولكن استمرار الإهتمام ببناء الأسطول فى الترسانة

---

(١) M. Longworth Dames : The Portuguese and Turks in the Indian Ocean in the Sixteenth Century, J. R. A. S., Part I, January 1921, p. 13.

البحرية فى استانبول أكد أن هدف السلطان سليم من وراء هذه الاستعدادات هو الإستيلاء على جزيرة «رودس» مركز النشاط البحرى لفرسان القديس يوحنا[1] . ولكن السلطان سليم توفى سريعاً قبل أن يقوم بهذا العمل الكبير، فأتم ابنه وخليفته السلطان سليمان القانونى هذا المشروع واستولى على رودس سنة ١٥٢٢ كما ذكرنا .

ورغم اهتمام العثمانيين بالمعركة البحرية الدائرة فى البحر الأحمر عقب إستيلائهم على مصر مباشرة ، فقد ظلت خطواتهم الحربيـــة فى هذا البحر لا تتناسب مع نجاح البرتغاليين الساحق الذى سبق أن أوضحناه وذلك لإنشغالهم فى جبهات متعددة . فبعد أن فشلت حملة «لوبوسوريز» البرتغالية فى الاستيلاء على ميناء «جدة» سنة ١٥١٧ م كما ذكرنا ، قام شريف مكة «الشريف بركات» بإرسال خبر هذا الهجوم إلى «خاير بك» أول الولاة العثمانيين بمصر ، وطلب منه إرسال حملة عسكرية إلى «جدة» لحماية هذا الثغر الهام من هجمات البرتغاليين. وقد تأخر «خاير بك» فى إعداد هذه الحملة نظراً لظروف مصر الخاصة حينئذ، فلم يتمكن من إرسالها إلى «جدة» إلا فى أواخر سنة ١٥١٩ ، وكان عدد أفراد هذه الحملة حوالى ثلثمائة جندى، وهم لفيف من بقايا المماليك والتركمان فى مصر[2] وتدل طبيعة تكوين هذه الحملة ، وتأخير إرسالها إلى «جدة» . على أن العثمانيين فى الحقيقة كانوا غير مستعدين — عقب استيلائهم على مصر مباشرة — لتنفيذ خطة المماليك فى البحر الأحمر بل فرضت هذه الخطة نفسها فرضاً عليهم بعد استقرارهم فى مصر ، وذلك لحماية حدود إمبراطوريتهم الجنوبية .

وقد بدأ العثمانيون فى تنفيذ جـــزء من خطتهم العامة فى البحر الأحمر

---

(١) Cressy, E. S : History of the Ottaman Turks, p. 151.

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، حـ٥ ، ص ٣١٦ .

بعد نفوذهم المباشر إلى اليمن ، أو بالتحديد إلى السواحل اليمنية التى كانت تحت حكم المماليك ، فقد أصدر « خاير بك » أمره إلى نائب « جدة » فى أوائل سنة ١٥٢٠ بأن يضم إليه ولاية السواحل اليمنية إلى جانب ولايته لجدة[١] . وكان والى « جدة » حينئذ هو حسين الرومى[٢] الذى كان قد تولى قيادة النجدة العثمانية التى سبق إرسالها إلى هناك فى سنة ١٥١٩ . ولكن فشل العثمانيون فى تحقيق أملهم فى اليمن هناك لموقف المماليك المعارض هناك ، وكان هؤلاء يبسطون سيطرتهم على بعض جهات تهامة وعلى « زبيد » و « تعز » . فقد تقدم حسين الرومى على رأس قوة صغيرة إلى ميناء « البقعة » اليمنى المواجه « لزبيد » ، ولكن رفض اسكندر المخضرم السماح له بدخول اليمن ، كما أظهر استعداده للحرب ، فمال حسين الرومى إلى السلم وعاد إلى « جدة » — كما قيل — حقناً للدماء[٣] . ولكن يبدو أن السبب الحقيقى فى إسراع حسين الرومى بالعودة إلى « جدة » هو أنه علم بوصول حملة برتغالية جديدة بالقرب من مدخل البحر الأحمر ، ففضل عندئذ الرجوع إلى «جدة» حتى يستعد للدفاع عنها[٤] . والحملة البرتغالية هذه هى حملة « لوبرسكويرا » التى فشلت فى الوصول إلى « جدة » ، والتى اتجهت عندئذ إلى « مصوع » لإنزال أول مبعوث برتغالى إلى الحبشة وذلك كما ذكرنا .

وكان لفشل هذه المحاولة رد فعل بين صفوف المماليك فى اليمن ، فقد قامت المنازعات والحروب بين زعمائهم بعد عودة حسين الرومى إلى « جدة» ،

---

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، حـ١ ، م١ ، ص١٧٧ أ .

(٢) كان حسين الرومى أحد السناجق الذين جاءوا مع حملة السلطان سليم الى مصر ، ثم بقى بها حتى تولى نيابة جدة .

(٣) ابن داعر : نفس المرجع ، ص١٨٧ أ .

(٤) بومخرمة : قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر (مخطوطة) ، حـ٣ ، م٢ ، ص ١٢٠٩ .

إذ انتهز كمال الرومى أحد الزعماء المناوئين لاسكندر المخضرم هذه الفرصة وقام بقتله فى سنة ٩٢٧ هـ (١٥٢١/٢٠ م) وتولى الحكم فى « زبيد » بدلا منه ، وذلك بحجة أن اسكندر المخضرم قد خان السلطنة العثمانية وخرج عن طاعتها عندما رفض الإذعان لأوامر حسين الرومى ولم يسمح له بدخول اليمن . ولم تهدأ الأوضاع طويلا للأمير كمال الرومى، فقد قام أنصار اسكندر المخضرم بقتله فى صفر سنة ٩٣٠ هـ (ديسمبر سنة ١٥٢٣ م) وأقاموا اسكندر القرمانى بدلا منه فى « زبيد » كما قتلوا رمضان الرومى وأقاموا على الطويل بدلا منه فى « تعز »[١] . وكان رمضان الرومى أحد الشخصيات الكبيرة التى نافست اسكندر المخضرم على الزعامة طويلا ، ولم ينته النزاع بينهما إلا عندما اتفقا على أن يتولى اسكندر المخضرم الحكم فى زبيد ، ويتولى رمضان الرومى الحكم فى تعز . ويبدو أن القوة المملوكية فى اليمن كانت قد انقسمت على نفسها إلى حزبين رئيسيين ، أولهما هو حزب الجراكسة الذين كان منهم حكام مصر قبل الفتح العثمانى ، وثانيهما هو الحزب العثمانى أو « العثامنة » ، وهو يتألف من العناصر العثمانية التى كانت قد دخلت فى خدمة السلطان الغورى أثناء تجهيزه حملة حسين الكردى البحرية سالفة الذكر . ويبدو أن الحزب الثانى كان يتظاهر بأنه أكثر ميلا للعثمانيين من الحزب الأول ، وذلك بالرغم من اعتراف الحزبين بالسيادة العثمانية ، وبالرغم من أن هدف كل منهما الحقيقى من وراء هذه المنازعات هو الوصول إلى الحكم والاستئثار بالسلطنة .

وكيفما كان الأمر ، فقد ظلت « جدة » هى المركز الإمامى لمحاولات العثمانيين فى فرض نفوذهم الفعلى فى اليمن ، فبعد عدة أشهر من تولى اسكندر القرمانى « لزبيد » جاء حسين الرومى ثانية إلى اليمن ومعه سلمان الرومى الذى

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوط) ، ص ٣٧ ب .

ظهر مرة أخرى فى « جدة » ، والذى أخذ يشجع حسين الرومى على العودة إلى اليمن[1]. وقد ثارت عندئذ عدة حروب ، فقد رفض المماليك ثانية تسليم الحكم لحسين الرومى ، واستعدوا لمقاومة سلمان الرومى الذى كان قد نزل إلى الساحل وبدأ فى الزحف إلى « زبيد » . وكان اسكندر القرمانى يميل إلى المسالمة وإلى تسليم الأمر إلى حسين الرومى ، فكتب سراً إلى سلمان الرومى وأخبره بحقيقة موقفه ، وبأنه لا يستطيع أن يجاهر بهذا الرأى لمعارضة جنوده له ، وهنا أعد سلمان الرومى للأمر عدته وذلك بماله من خبرة سابقة بشئون اليمن ، فقد أرسل إلى قبائل « يافع » و « المهرة » فى جنوب اليمن وإلى الأمير عزالدين أمير « جيزان » ، يطلب منهم الحضور إليه للإشتراك فى الاستيلاء على «زبيد» . وقد استسلمت « زبيد » بعد قليل ، بعد أن اشتد حولها الحصار ، وبعد أن هدد سلمان الريس بحرق أبوابها ودخولها عنوة . وتلا سقوط «زبيد» مباشرة قيام النزاع بين سلمان الريس وحليفه أمير «جيزان» اللذين اختلفا حول تقسيم الغنائم كما نرجح . وكان سلمان الريس — السياسى الداهية — قد ترك

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ص٨ ا • يصعب ترجمة حياة سلمان الرومى — أو سلمان الريس — فى المدة الواقعة بين قيامه بصد البرتغاليين عن «جدة» سنة ١٥١٧ وبين ظهوره ثانيــة فى «جدة» فى ذلك الوقت مع حسين الرومى وذلك لغموض المادة التاريخية وقلتها ، فقد قال «روس» (J K.A.S, Part. IV. 1921, p. 3) أنه يعتقد أنه تولى أمر «جدة» لمدة قصيرة بعد أن قام العثمانيون بتولية حاكم جديد لها . الا أنه من غير المعروف سبب عزل سلمان الريس ، فقد قال ابن اياس (حـ٥ ، ص ٢٤٠) أن سلمان كان مقبوضاً عليه فى القلعة وأنه قد أطلق فى صفر سنة ٩٢٤ هـ (فبراير / مارس ١٥١٨ م) — أى بعد عزله من «جدة» — أن والى مصر قد أرسله الى السلطان العثمانى فى ذلك الشهر مقبوضاً عليه • ثم يذكر قطب الدين (ص ٨ أ) أن سلمان كان فى مصر سنة ٩٣٠ هـ (٣ / ١٥٢٤ م) وأنه غادرها فى ذلك الوقت عند بداية الاضطرابات التى ثارت بها عقب « عصيان أحمد باشا » واستقلاله بمصر بعض الوقت ثم القضاء عليه ، ففى هذه الأثناء غادر سلمان مصر الى « مكة » ومنها الى «جدة» ليحث حسين الرومى على التوجه الى اليمن •

أمير جيزان خارج أسوار « زبيد » لحماية ظهور المهاجمين ، وانفردهو بالدخول إلى « زبيد » وقد قامت معركة كبيرة بين الطرفين خارج « زبيد » بعد الإستيلاء عليها ، انتهت بقتل أمير « جيزان » وبتشتيت جيشه .

أما حسين الرومى فقد تقدم عندئذ من الساحل إلى « زبيد » وتسلم زمام الأمور بها ، فعمل على أن يهدىء الأحوال هناك ، وعلى أن يؤمن الأهالى على أنفسهم وأموالهم ، فأدى إلى التفاف الأهالى حوله : وقد ثار الخلاف بعد قليل بين حسين الرومى وبين سلمان الريس ، وذلك لأن هذا الأخير كان يطمع فى أن ينفرد بالسلطة فى « زبيد » ولكن حسين الرومى خيب آماله . ونجح سلمان الريس حينئذ فى التوجه إلى الساحل ومن هناك فر إلى مصر على ظهر إحدى السفن ليثير السلطات العثمانية هناك ضد زميله حسين الرومى . وقد أدى خروج سلمان الريس من اليمن إلى هدوء الأحوال به بعض الشىء بعد أن انفرد حسين الرومى بالسلطة فى « زبيد » فى رجب سنة ٩٣٠هـ (مايو ١٥٢٤م) . فقد عمل هذا الأخير على نشر الأمن والعدل هناك حتى توفى فى « زبيد » فى سنة ٩٢٢ هـ (١٥٢٦/٥ م). وتولى الأمير مصطفى الرومى عندئذ الحكم بدلا منه ، وذلك بناء على توصية حسين الرومى قبل وفاته ، فبقى هذا الأمير فى الحكم حتى عاد سلمان الريس ثانية إلى اليمن[١] .

وهكذا تتضح جوانب المحاولة الأولى للعثمانيين فى فرض سيطرتهم على السواحل اليمنية ، وهى محاولة اعتمدت فى الواقع على الروح الفردية وعلى المغامرة من جانب بطليها وهما حسين الرومى وسلمان الريس . غير أن هذه المحاولة لم تؤد إلى شىء هام إذ ظلت الأوضاع السابقة كما هى ، وظلت العناصر المملوكية هى صاحبة السيطرة الفعالة فى المناطق الساحلية اليمنية بالرغم من استقرار الأوضاع بها لحسين الرومى .

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوط) ، ص ٨ ب — ٩ أ .

ولقد كانت عودة سلمان الريس إلى مصر فى أواخر سنة ٩٣٠ هـ (١٥٢٤م) بداية لمرحلة جديدة من مراحل اهتمام العثمانيين بمحاربة البرتغاليين وبتدعيم نفوذهم على السواحل اليمنية . فقد أرسل العثمانيون فى سنة ٩٣٢ هـ (١٥٢٦/٥م) من مصر أول حملة بحرية من عشرين سفينة إلى جنوب البحر الأحمر لإخضاع السواحل اليمنية للسيادة العثمانية[١] . وكان إبراهيم باشا الصدر الأعظم بمصر[٢] عند وصول سلمان الريس إليها ، فأثاره هذا الأخير ضد حسين الرومى ، وأوضح له أهمية إرسال حملة بحرية تحت قيادته إلى السواحل اليمنية لإخضاعها للنفوذ العثمانى ، وللوقوف هناك فى وجه البرتغاليين . وقد نجح سلمان الريس إلى حد كبير فى إخفاء أغراضه الشخصية الخاصة فى أن ينفرد بحكم المناطق المملوكية فى اليمن ، فعرض الأمر أمام الصدر الأعظم وكأنه ضرورة حربية ، « فقد أخبره بأحوال اليمن وأنها مملكة بلا سلطان ، وأن الأمير حسين استولى عليها ولا يصلح لذلك لأنه عاجز عن حفظها ، وأكثر الحط على حسين بك حيث استأثر باليمن دونه ، وكان سبباً لإخراجه من اليمن ، وطلب عسكراً يأخذ به اليمن ، ويأخذ الفرنج الذين بالهند أيضاً »[٣] .

وقد اتخذ الصدر الأعظم حينئذ خطوتين لتدعيم السيادة العثمانية فى اليمن ، فقد أرسل أمراً بتثبيت حسين الرومى فى حكم « زبيد » حتى يتم تعيين حاكم جديد لها ، وفى نفس الوقت أمر بتجهيز حملة بحرية من عشرين سفينة ومن أربعة آلاف جندى ، وعين الأمير خير الدين حمزة قائداً عاماً

---

(١) Haji Khalifeh : The History of the Maritime Wars of the Turks, Translated by James Mitchell, A. J. Valpy, London, 1831, pp. 26 - 27,

(٢) حضر الصدر الأعظم ابراهيم باشا الى مصر حينئذ لتنظيم الأمور بها بعد اخماد ثورة أحمد باشا الذى كان قد أعلن تمرده على السلطنة العثمانية واستقلاله بمصر . وقد عاد ابراهيم باشا الى استانبول بعد قليل بعد أن أمر بتجهيز حملة بحرية الى اليمن كما سيتضح فيما بعد .

(٣) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٨ ب .

للحملة ونائباً فى « زبيد » بعد وصوله إليها ، أما سلمان الريس فقد جعله قائداً للأسطول فقط[١] .

وقد وصلت هذه الحملة البحرية إلى « جدة » ، فى رمضان سنة ٩٣٢ هـ (يونيه/يوليه سنة ١٥٢٦ م) ، ثم واصلت سيرها إلى السواحل اليمنية ، فعلمت عندئذ بوفاة حسين الرومى وبتوليـــة مصطفى الرومى بدلا منه . وقد رغب مصطفى الرومى فى إبعاد شبح الحرب لضعف قوته فى اليمن ومال إلى التفاوض مع سلمان الريس ، ولكن الأخير اشترط أن يسلم مصطفى الرومى نفسه إليه حتى يرسله إلى القاهرة ، فرفض الأخير هذا الشرط لخوفه من غدر سلمان الريس به . ودارت الحرب عندئذ بين الطرفين ، واتسع رحاها حتى شملت جميع جهات تهامة تقريباً ، وقد وقف أغلب زعماء المماليك إلى جانب مصطفى الرومى ، وذلك لعدائهم الشخصى لسلمان الريس ، ولخوفهم من ضياع مناصبهم وممتلكاتهم ، ولكن النصر النهائى كان إلى جانب سلمان الريس . وقد أدى هذا الانتصار إلى أن ينفرد سلمان الريس بالسلطة دون الأمير خير الدين حمزة قائد الحملة العثمانية الحقيقى ، فحاك له الأخير المؤامرات حتى تمكن من قتله فى أواخر سنة ٩٣٤ هـ (أغسطس ١٥٢٨) . ولم تنته المنازعات عند هذا الحد ، فقد أسرع مصطفى بيرم — ابن أخت سلمان الريس — من « جيزان » إلى « زبيد » ، بعد أن استعان ببعض بحارة الأسطول وعلى رأسهم الخواجة « صفر » ، فدارت الحرب بينه وبين خير الدين حمزة وألحق به الهزيمة ثم قتله . وقد فضل مصطفى بيرم بعد ذلك التوجه إلى الهند والدخول فى خدمة سلطان كجرات بعيداً عن المنازعات المستمرة فى اليمن فأقام الأمير على الرومى بدلا منه فى « زبيد » وتوجه إلى جزيرة « كمران » لبنــاء حصن بها ، ثم سافر إلى الهند عند قدوم موسم الرياح ، ومعه الخواجه صفر وبعض أتباعه من بحارة الأسطول

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٩ أ .

وذلك فى سنة ٩٢٦ ﻫ (١٥٢٠/٢٩ م)[١] . ورغم غموض المراجع المعاصرة وقتذاك ، وميلها إلى تفسير سفر مصطفى بيرم إلى الهند بأنه كان يرغب فى الإبتعاد عن مشاكل اليمن ، وبأنه كان يخشى الإنتقام منه ، فإننا نميل إلى القول بأن ذهاب مصطفى بيرم إلى الهند كان جزءاً من أهداف الحملة رغم أن بعض عناصرها قد انتهت إلى مغامرين حربيين طبقاً لطبيعة العصر ، ورغم الظروف الخاصة التى أحاطت بخروج مصطفى بيرم من اليمن . ويؤكد ما ذهبنا إليه ما قام به مصطفى بيرم من أعمال بعد مغادرته « زبيد » ، فقد اهتم كثيراً ببناء حصن فى جزيرة « كمران » ، كما حاول أن يستولى على « عدن » أثناء سفره إلى الهند فشدد الحصار حولها إلى حد كبير ، ولكنه فشل فى الإستيلاء عليها[٢] . وقد رحب سلطان « كجرات » كثيراً بوصول مصطفى بيرم إليه ، وعينه حاكماً لميناء « ديو » ، كما عين زميله الخواجه « صفر » حاكماً لميناء « سورات »[٣] . وقد اشترك مصطفى بيرم بسفنه ومدافعه فى صد هجوم برتغالى على « ديو » بعد وصوله إليها بسبعة أيام فقط ، فأدى هذا إلى إرتفاع شأنه فى الهند[٤] . وكان مصطفى بيرم قد أخذ معه إلى الهند الكثير من الأسلحة النارية مثل البنادق والمدافع التى كانت غير معروفة فى الهند ، فزاد ذلك من اهتمام الهنود به[٥] .

أما فى داخل اليمن ، فلم يقو الأمير على الرومى — الذى أقامه مصطفى

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص١١ أ .

(٢) Serjeant, R. B. : The Potuguese off the South Arabian Coast, p. 59. (Al-Shibri, 67. b).

(٣) قطب الدين : نفس المرجع ، ص١٢ أ .

(٤) زين الدين المليبارى : تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتغاليين ، ص٥٧ .

(٥) عبد القادر بن شيخ العيدروس : النور السافر عن أخبار القرن العاشر ، ص٢٠٣ . (اهتم العيدروس بترجمة حياة مصطفى بيرم وبذهابه إلى الهند ، وبوصف الأسلحة التى كانت معه ، حتى قال «ووصل فى صحبته المدفعين المشهورين المسمين ليلى والمجنون») .

بيرم بدلا منه فى « زبيد » عند سفره إلى الهند — على السيطرة على مجريات الأمور فى « زبيد » ، فقام أحد قادة الجند بالاستيلاء على السلطة هناك ، وهو الذى اشتهر باسم اسكندر موز والذى اشتهر عهده بالهدوء « فأحبه أهل اليمن واستطابوا عدله ورعايته »[١] . ويعتبر الهدوء الذى ساد عهد اسكندر موز فى الحقيقة ردفعل للحروب الكثيرة التى أثارها سلمان الريس قبل وفاته ، فقد قضت هذه الحروب على كثير من الزعماء الأقوياء الذين كانوا يثيرون الفتن والمنازعات. والجدير بالملاحظة أن حروب سلمان الريس هذه كانت إحدى العوامل الهامة التى مهدت الطريق أمام سليمان باشا الخادم سنة ١٥٣٨ لبسط النفوذ العثمانى المباشر فى تهامة و « زبيد » .

ولقد كان عهد اسكندر موز أطول عهود هؤلاء الأمراء ، فقد امتد حكمه هناك أكثر من ستة أعوام . وعندوفاته فى سنة ٩٤٣هـ (١٥٣٧/٦م) ، اجتمع رأى الأمراء فى «زبيد» على أن يكون ابنه الطفل خليفة له فى الحكم وذلك منعاً لحدوث أية منازعات جديدة ، كما أجمعوا على أن يكون وزير أبيه «الناخودة أحمد» وصياً عليه ، ومتولياً الأمور باسمه[٢] . ولقد كان هجوم الجيوش الزيدية بقيادة المطهر على «زبيد» بعد وفاة اسكندر موز بقليل كما سبق أن أوضحنا ، من أهم أسباب تماسك المماليك — العثمانيين فى «زبيد» والتفافهم حول الناخودة أحمد . وسيلقى الناخودة أحمد مصرعه سنة ٩٤٥هـ (١٥٣٨م) على يد سليمان باشا الخادم — عند رجوعه من الهند — كما سيتضح فيما بعد .

وهكذا يتضح أمامنا فشل الحملة البحرية الأولى التى أرسلها العثمانيون إلى جنوب البحر الأحمر وإلى الهند . ففى اليمن ، لم تنجح الحملة فى فرض النفوذ

---

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، جـ أ ، م أ ، ص ١٧٨ ب .

(٢) نفس المرجع : ص١٨٨ أ .

العثمانى الفعلى ، بل لم تؤد إلا إلى زيادة المنازعات بين الأمراء هناك ، وإن كان هذا لا ينفى أن الحملة قد نجحت نسبياً فى القضاء على بعض العناصر القوية فى اليمن مما مهد السبيل إلى حد كبير أمام سليمان باشا الخادم فيما بعد . وكذلك لم تتمكن الحملة من القيام بعمل يذكر فى الهند ، بل وتحولت هذه الحملة إلى عمل فردى على يد مصطفى بيرم .

ولكن كان من البديهى ألا تقف جهود العثمانيين فى البحر الأحمر عند هذا الحد ، فمن ناحية ، كانت الدولة العثمانية حينئذ عند أوج قوتها وعظمتها، ولديها من القوة البرية والبحرية ما يمكنها من حماية أطرافها ، ومن صد الغزو البرتغالى عن حدودها الجنوبية . ومن ناحية أخرى كان تزايد الخطر البرتغالى فى البحر الأحمر والمياه الهندية أمر يمثل تهديداً مباشراً للنفوذ العثمانى فى البحر الأحمر ، وتهديد الحرمين الشريفين اللذين دخلا فى نطاق الدولة العثمانية .

وقد بدأ اهتمام العثمانيين بإعداد حملة بحرية ثانية فى « السويس » فى سنة ٩٣٧ هـ (١٥٣١/٣٠ م) . فقد أرسل السلطان سليمان فى ذلك العام أمره إلى والى مصر حينئذ سليمان باشا الخادم بنباء ثمانين سفينة من مختلف الأنواع والأحجام ، كما أرسل إليه من استانبول المهمات والأخشاب اللازمة لبناء هذه السفن . ولكن قبل أن يتم بناء هذا الأسطول صدر أمر السلطان إلى سليمان باشا الخادم فى سنة ٩٤١ هـ (١٥٣٥/٤ م) بأن يلحق بالحملة العثمانية على العراق ومعه خراج مصر ، وبأن يتولى خسرو باشا ولاية مصر بدلا منه[١] . وقد أنعم السلطان على «سليمان باشا الخادم» بلقب وزير وعينه فى «الديوان» فى استانبول، فبقى سليمان باشا هناك مدة عامين ثم عين والياً على مصر للمرة الثانية حتى يتم مهمته البحرية فى

(١) بجوى إبراهيم باشا : تاريخ بجوى ، جـ١ ، ص٢١٩ (باللغة التركية) .

« السويس » ، وحتى يتولى قيادة الحملة البحرية إلى اليمن والهند[١] .

ولا شك فى أن فتح العثمانيين للعراق فى سنة ١٥٣٤ أدى إلى ازدياد اهتمام السلطان سليمان بالمعركة الدائرة مع البرتغاليين . ويرجع ذلك إلى عاملين هامين :

أولا : امتداد النفوذ العثمانى حينذاك إلى سواحل الخليج العربى الشمالية فأصبحوا بذلك وجهاً لوجه أمام البرتغاليين ، فقد دخل أمراء البصرة والقطيف والبحرين فى طاعة العثمانيين بعد فتح «بغداد»[٢] .

ثانياً : وصول أخبار مؤكدة إلى السلطان سليمان أثناء حروبه فى العراق بأن البرتغاليين قد أمدوا الفرس بالمعونات الحربيـــة ، وبأنهم أرسلوا إليهم بعض العمال والفنيين ليعلموهم صناعة المدافع الكبيرة وكيفية استخدامها[٣] .

وبالإضافة إلى ذلك فقد ازداد اهتمام السلطان سليمان بإرسال حملة بحرية كبيرة إلى الهند بعد وصول رسول سلطان كجرات إليه . ففى سنة ٩٤٣ هـ (١٥٣٧/٦ م) أى أثناء قيام سليمان باشا الخادم بإعداد الأسطول فى السويس حضر رسول من قبل بهادور شاه وقابل السلطان سليمان

---

(١) المرجع السابق : ص ٢٢٠ ، (يذكر دنيسون روس J.R.A.S. 1921, Part IV, October, p 13. أن سليمان باشا الخادم لم يذهب إلى استانبول فى خلال هاتين السنتين بل أرسله السلطان سليمان فى مهمة إلى اليمن لإعادة النظام ولدراسة الأحوال هناك . كما ذكر روس أنه وجد هذه المعلومات فى مخطوطة مجهولة المؤلف محفوظة فى المتحف البريطانى وهى بعنوان « لطائف أخبار الأول » . ولكن يلاحظ أن باقى المراجع المعاصرة — كما يؤكد هو أيضاً — لم تشر إلى ذهاب سليمان باشا إلى اليمن فى هذه الفترة ، وهذا ما جعلنا لا نعتمد كثيراً على ما ذهب إليه روس) .

(٢) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ، الجزء الرابع ، ص ٤٤ .

(٣) Richard Knolles : The Turkish History, from the Original of that Nation to the Growth of the Ottoman Empire, vol I. P. 451.

القانونى الذى كان فى « أدرنة » حينئذ ، وطلب منه إرسال المدد العسكرى إلى كجرات حتى تتمكن من الصمود أمام البرتغاليين الذين استولوا على ميناء « ديو » بالقوة ، وحتى لا تضطر — أى كجرات — إلى عقد الصلح مع البرتغاليين . ولكن السلطان سليمان علم بعد قليل أن البرتغاليين قد قتلوا السلطان بهادور وذلك قبل أن يكتمل بناء الأسطول فى السويس ، وقبل أن تغادر الحملة البحرية هذا الميناء[١] . وقد أثار مقتل السلطان بهادور حماسة السلطان سليمان الدينية ، و « جعله يصمم على نصرة الإسلام والمسلمين فى الهند »[٢] . وكانت الجبهة الهندية حينئذ فى الحقيقة فى حالة ضعف شديد ، فقد تعرضت كجرات أهم الولايات الإسلامية على الساحل الغربى للهند فى أواخر سنة ٩٤١ هـ (٤ / ١٥٣٥ م) لهجوم « همايون أكبر » سلطان المغول عليها ، فأدى هذا إلى ضعفها وتمزقها . ومما زاد الأمر سوءاً ، أنه إزاء الهجوم المغولى على كجرات ، اضطر « بهادور شاه » إلى أن يطالب مساعدة البرتغاليين — لقربهم منه — ضد هجوم المغول عليه . وكان ثمن مساعدة البرتغاليين لكجرات غالياً ، فقد سمح السلطان بهادور للبرتغاليين ببناء حصن فى ميناء ديو ، كما جعل لهم نصف إيرادات هذا الميناء وكان مصطفى بيرم — بحكم طبيعته المغامرة — أحد عوامل ضعف السلطان بهادور أمام المغول ، لانحيازه إلى جانب المغيرين على كجرات أثناء الصدام بين الطرفين، وذلك لاختلافه مع السلطان بهادور لأنه لم يكافئه بما وعده به عند استيلائه على إحدى القلاع[٣] . وقد تآمر البرتغاليون بعد ذلك على قتل السلطان بهادور لاتهامه بمراسلة العثمانيين سراً واستعانته بهم ضد البرتغاليين ، فتمكنوا من قتله غدراً فى أوائل رمضان سنة ٩٤٣ هـ (فبراير

---

(١) Hammer, J. : Histoire de l'Empire Ottoman, tome 5. p. 301.

(٢) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ١٠ ب .

(٣) عبد القادر بن شيخ العيدروس : النور السافر عن أخبار القرن العاشر ، ص ٢٠٧ .

١٥٣٧م) وأقاموا الخواجة صفر حاكماً لديو»[1] . وقد وهنت أيضاً مقاومة « كاليكوت » أمام الغزو البرتغالى ، فكان السامرى يضطر فى أحيان كثيرة إلى عقد الصلح مع البرتغاليين ، كما كان قد سمح لهم ببناء حصن فى كاليكوت ، وبالاشتغال بالتجارة فى بلاده . ولقد أثر ضعف موقف السامرى من البرتغاليين على موقفه من حليفه التقليدى سلطان كجرات ، فقد رفض السامرى فى سنة ٩٤١ هـ (٤ / ١٥٣٥ م) لضعف مركزه ، أن يرسل إلى السلطان بهادور بعض رعاياه المسلمين للوقوف إلى جانبه ضد البرتغاليين[2] . ولا شك ن أن ضعف الجبهة الهندية كان له أثره البالغ فى فشل حملة سليمان باشا الخادم وعند وصولها إلى الهند كما حدث فيما بعد .

وكيفما كان الأمر فقد بذل العثمانيون أقصى جهد لهم لإ كمال استعداداتهم البحرية فى (السويس) حتى تم لهم تكوين حملة كبيرة تتألف من ثمانين سفينة من مختلف الأنواع والأحجام ، ومن عشرين ألف جندى من جنود الشام ومصر ، وكان من بين هؤلاء سبعة آلاف جندى انكشارى[3] . وتعبر ضخامة هذه الحملة فى الواقع عن قوة العثمانيين البحرية - والحربية - حينئذ بوجه عام ، ففى محرم سنة ٩٤٥ هـ (يونية ١٥٣٨ م) أى فى الوقت الذى غادر فيه سليمان باشا الخادم « السويس » على رأس هذه الحملة ، كان خير الدين بار باروس قائد الأسطول العثمانى فى البحر الأبيض المتوسط يغادر بوغاز الدردنيل إلى جزر الأرخبيل لإخضاعها للسيادة العثمانية[4] . وكان خير الدين بارباروس القائد البحرى الشهير - الذى

---

(١) Serjeant R. B. : The Portuguese off the South Arabin Coast, pp. 75—76, Al-Shihri (83. b).

(٢) زين الدين المليبارى : تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتغاليين ، ص ٥٨ .

(٣) بجوى باشا : تاريخ بجوى (باللغة التركية) ، حـ١ ، ص ٢٢٠ .

(٤) J. De Hammer : Histoire de l' Empire Ottomau, depuis son origine jusqu'à nos jours, Tome 5, pp 301—302.

أرعب أساطيل أوربا فى البحر المتوسط فى ذلك الوقت ـ قد دخل فى خدمة السلطان سليمان القانونى فى سنة ٩٤٠ هـ (٣ / ١٥٣٤ م) فعينه السلطان قبودانا للأسطول ـ أى « قبطان باشا » ـ وواليا للجزائر ، كما جعل له الإشراف على الترسانة البحرية فى استانبول . ولقد كان للعثمانيين فى ذلك الوقت التفوق البحرى فى البحر المتوسط ، وذلك بفضل اهتمام السلطان سليمان ببناء السفن الحربية ، وبفضل وجود قادة بحريين أقوياء على رأس الأسطول العثمانى[١] .

ولكن يهمنا هنا الإشارة إلى أن شخصية سليمان باشا الخادم لم تكن الشخصية التى تصلح فى الحقيقة لقيادة هذه الحملة البحرية الكبيرة الهامة لولا أنه كان أحد مماليك السلطان سليم الأول المقربين إليه . فقد كان سليمان باشا حينئذ قد تجاوز الثمانين من عمره ، كما كان بدينا للغاية حتى أنه كان يحتاج إلى مساعدة أربعة من الرجال حتى يتمكن من النهوض[٢] . وكذلك كان سليمان باشا « فتاكا للدماء سفاكا ، ضعيف منه العقل ، عديم الرأى والفضل »[٣] ، هذا بالإضافة إلى أنه اشتهر بالغدر أثناء ولايته لمصر ، فقد قتل غدرا بعض رجالات مصر مثل : حاتم الحمزاوى وإبنه يوسف أمير الحج وذلك بعد أن لفق لهما تهمة مزورة وهى خروجهما على السلطنة العثمانية[٤] . ولقد كان سليمان باشا من مماليك سليم الخاصة ، كما كان من الخصيان الذين تربوا فى السراى السلطانى بين الحريم ، أى لم يكن جنديا فى

---

(١) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت (مترجم) ، جـ١ ، ص ١٥٠ — ١٥٢ (أفرد جودت باشا فصلا خاصا فى كتابه (جـ١ ، ص١٣٨ — ١٨٢) عن البحرية العثمانية فتحدث عن نشأتها وازدهارها ثم انهيارها ، ويمكن الرجوع إليه) .

(٢) Hammer, J. ; Ibid, Tome 5, 302.

(٣) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ١٥ ب .

(٤) محمد بن أبى السرور البكرى : المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية (مخطوطة) ، ص ٦٢ .

الانكشارية ، كما لم يكن له علاقة بالشئون البحرية . وقد تولى سليمان باشا حكم مصر فى شعبان سنة ٩٣١ هـ (يونية / يولية ١٥٢٥ م) بعد عزله عن ولاية دمشق مباشرة ، ثم ظل والياً لمصر أكثر من عشر سنوات حتى غادرها إلى العراق للاشتراك فى فتح « بغداد » كما سبق أن ذكرنا . وقد بدأت ولايته الثانية لمصر فى رجب سنة ٩٤٣ هـ (ديسمبر / يناير ١٥٣٧ م) فاستمر بها حتى خرج على رأس الحملة البحرية من السويس فى ١٥ محرم سنة ٩٤٥ هـ (١٣ يونية ١٥٣٨ م)[١] .

ولكن رغم العيوب الخاصة بشخصية سليمان باشا الخادم ، فقد اتخذ هذا الوالى الخطوات اللازمة لتنفيذ خطة العثمانيين العامة فى البحر الأحمر وهى السيطرة على سواحل هذا البحر قبل إرسال الأسطول إلى الهند . فقد بدأ سليمان باشا الاتصال بالأمراء المختلفين فى جهات البحر الأحمر وخاصة أمراء الساحل اليمنى مثل أميرى «عدن» و «الشحر» ، وذلك ليخبرهم بإعداد الحملة وليطلب منهم الدخول فى طاعة العثمانيين . وقد قبل سلطان « الشحر » « بدر الطويرق » إعلان خضوعه للعثمانيين ، أما سلطان « عدن » الطاهرى « عامر بن داود » فقد راوغ وتعمد ألا يرد رداً محدداً على رسول سليمان باشا إليه . وكان سليمان باشا قد أرسل رسوله الصوباشى فرحات على رأس وفد كبير برسائل وخلع إلى سلطانى « عدن » و « الشحر » ، فأخذ عامر بن داود الرسالة والخلعة الخاصتين به ، ولكنه أرجأ الرد على الرسالة إلى حين عودة الصوباشى فرحات من « الشحر » . وقد تعمد عامر ألا يقابل فرحات الصوباشى عند عودة هذا الرسول إلى « عدن » ، بل كلف بعض أتباعه بإهدائه بعض الهدايا ، ولكنه فى نفس الوقت لم يترك رداً على رسالة سليمان باشا . ولا شك فى أن موقف عامر بن داود هذا كان من أسباب قتله فيما بعد كما سنرى .

---

(١) زين الدين الحريرى الحنفى : الدر المنضد فى مدح الوزير محمد (مخطوطه) ص ٢١ .

أما السلطان بدر الطويرق فقد أحسن استقبال الوفد العثماني عند وصوله إليه في ١٨ ربيع أول سنة ٩٤٤ هـ (٢٥ أغسطس ١٥٣٧م) فأمر بعقد اجتماع رسمي كبير في المسجد الجامع « بالشحر » ، وأمر أحد الفقهاء بقراءة رسالتي سليمان باشا في هذا المسجد بينما وقف هو وجميع من معه تعبيراً عن احترامهم للأوامر الواردة إليهم ، ثم ألبس الحاضرون السلطان بدر خلعتي سليمان باشا أثناء قراءة المرسومين ، وبالإضافة إلى ذلك فقد أمر السلطان بدر بأن يخطب في المساجد باسم السلطان سليمان القانوني . كما أغرق الرسول بالهدايا ، وأرسل معه الهدايا الثمينة إلى سليمان باشا الخادم(١) . وقد ظل سلاطين « الشحر » يعترفون بالسيطرة العثمانية عليهم طوال وجود العثمانيين في اليمن .

وقد غادرت الحملة ميناء « السويس » بعد عودة فرحات الصوباشي إلى مصر بقليل أي في ١٥ محرم سنة ٩٤٥هـ (١٣ يونية ١٥٣٨ م) ، أو بالأحرى بعد أن قام هذا الرسول بالتمهيدات اللازمة للحملة في البحر الأحمر حتى سواحل اليمن الجنوبية . وقد مرت الحملة بميناء « جدة » ، ثم تقدمت إلى جزيرة « كمران » فأقامت أمامها بعض الوقت . وفي أثناء ذلك ، قام كل من عامر بن داود والإمام شرف الدين بالاتصال بسليمان باشا الخادم ليطلب معاونة الحملة له ضد الآخر ، وقد تشابه هذا إلى حد ما مع ما حدث مع حسين الكردي قائد الحملة المملوكية في سنة ١٥١٦ ، ومن الصعب هنا تحقيق أخبار هذه الاتصالات . فقد قيل إن عامر بن داود أرسل إلى سليمان باشا « يستنصره » على الإمام شرف الدين فبسط (سليمان باشا) له الجواب وأوهمه بالمساعدة(٢) ، كما قيل أيضاً أن الإمام شرف الدين هو الذى اتصل

---

(١) Serjeant, R.B. : The Portuguese off the South Arabian Coast' pp. 77—78. Ba Sandjalah. Al Shihri (87 b).

(٢) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن في تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٢٢ .

بسليمان باشا لإثارته ضد عامر بن داود للتخلص منه بحجة أنه يساعد البرتغاليين، وذلك حتى يتمكن الإمام من الاستيلاء على باقى جهات اليمن[1]، ورغم هذا كله فمن المؤكد أنه لم يكن لهذه الاتصالات نتائج عملية مباشرة وقتذاك.

وقد واصلت الحملة سيرها إلى «عدن» فوصلت إليها فى ٧ ربيع أول سنة ٩٤٥ هـ (٣ أغسطس ١٥٣٨ م). واتبع سليمان باشا الخادم أسلوبه التقليدى — وهو أسلوب الغدر — فى الاستيلاء على هذا الميناء الهام. وكان عامر بن داود قد أحسن استقبال الحملة عند وصولها إلى ميناء «عدن» وفتح أمامها أبواب المدينة حتى يحصل الجنود على ما يشاءون من طعام ومؤن بناء على طلب سليمان باشا. وكان سليمان باشا قد كلف سراً هؤلاء الجنود بقيادة الصوباشى فرحات بالاستيلاء على «عدن» عقب دخولها مباشرة، فقام الجند ببعض أعمال السلب والنهب حتى نادى القادة العثمانيون بإيقافها قبل أن يستفحل أمرها. وفى نفس الوقت، كان عامر بن داود قد توجه إلى سفينة سليمان باشا ومعه ستة من كبار أتباعه لاستقبال سليمان باشا وإظهار حفاوتهم به. فأحسن هذا الأخير استقبالهم وخلع عليهم، وذلك حتى إذا علم أنه قد تم لجنوده الاستيلاء على المدينة، أمر بشنق عامر بن داود ومن معه على صارى سفينته وتركهم معلقين به لمدة ثلاثة أيام[2]. وقد تم استيلاء العثمانيين على «عدن» بعد خمسة أيام من وصولهم إليها أى فى ١٢ ربيع أول سنة ٩٤٥ هـ (٨ أغسطس سنة ١٥٣٨ م) فقام سليمان باشا الخادم بتحصين المدينة وشحنها بالمدافع، وبتعيين أحد سناجق الحملة وهو الأمير بهرام حاكماً لها، كما ترك معه خمسمائة جندى[3]،

---

(١) عبد الصمد بن إسماعيل بن عبد الصمد الشهير بالموزعى: الإحسان فى دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان (مخطوطة)، ص ٧ ب.

(٢) عيسى بن لطف الله: روح الروح (مخطوطة) جـ١، ص ٧٠ ب، قطب الدين: البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة)، ص ١٨ أ.

(٣) Serjeant R.B. : Ibid., p 55 (Unidentified Manuscript).

وحاول سليمان باشا إخفاء أسلوبه الغادر عن المسئولين العثمانيين فى استانبول، فذكر فى رسالته إلى السلطان : « أنه أخذ عدن قهراً ، وأنه افتتحها قهراً »[١]، وقد وجد سليمان باشا من يمتدح أسلوبه الغادر فى الاستيلاء على « عدن »، ويصف ذلك بحسن التدبير، لأن سليمان باشا استولى على « عدن » بدون حرب[٢] ، ولكننا نرى أن أسلوب سليمان باشا الغادر قد أفقد العثمانيين ثقة أهالى هذه المناطق، كما أنه ضيع على العثمانيين فرصة تكوين جبهة إسلامية فى البحار العـــربية والمحيط الهندى لمواجهة الغزو البرتغالى . وسنرى كيف كان لغدر سليمان باشا بعامر بن داود أثر كبير فى موقف مسلمى الهند من الحملة العثمانية .

وقد انطلقت الحملة العثمانية بعد استيلائها على « عدن » إلى «ديو» لتحقيق الجزء الثانى من خطتها فوصلت إلى هناك فى ٤ سبتمبر ١٥٣٨ م . وقد فشلت هذه الحملة فى واقع الأمر فى تحقيق شىء يذكر فى الهند نظراً للظروف الخاصة بها مثل ضعف شخصية قائدها، والظروف التى أحاطت بها مثل ضعف جبهة حلفائها الهنود فى سلطنة كجرات أو فى باقى سلطنات ساحل الهند الغربى ، ولذلك فقد بدا للمعاصرين وقتذاك أن الهدف الرئيسى للحملة هو فتح السواحل اليمنية وليس محاربة البرتغاليين فى الهند، وخاصة لأن هـذه الحملة عملت على إكمال الاستيلاء على تلك السواحل بعد عودتها من الهند .

وقد عجزت الحملة العثمانية عن الوصول إلى ميناء «ديو» نفسه فى بداية الأمر نتيجة معاكسة الرياح لها ، فأنزلت إلى القرب منه حوالى أربعمائة جندى وبعض المدافع الكبار لمعاونة الخواجة صفر — حاكم « ديو » حينذاك — فى حصار القلعة البرتغالية بها من ناحية البر ، ثم تقدم الأسطول العثمانى بعد قليل إلى

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، ص١٧ ب .

(٢) بجوى ابراهيم باشا : تاريخ بجوى ، باللغة التركية ، حـ ١ ، ص ٢٤٢ .

« ديو » ، وبدأ فى حصار القلعة البرتغالية من ناحية البحر فى ٥ أكتوبر ١٥٣٨ ، ولكن هذا الحصار لم يستمر طويلا ، ففى ٢ نوفمبر صدر لجأة الأمر إلى جميع الجنود العثمانيين بالعودة إلى السفن ، وفى ٥ نوفمبر أقلعت السفن إلى الشواطىء العربية[١] . ويرجع قرار سليمان باشا الخادم المفاجىء بالإنسحاب إلى وقوع خطاب برتغالى فى يده كان موجهاً من القائد البرتغالى العام فى « جوا » إلى قائد حصن « ديو » يخبره بوصول حملة برتغالية كبيرة إلى « ديو » لنجدته ، فأمر سليمان باشا عندئذ برفع الحصار والتوجه إلى الجنوب لمواجهة الأسطول البرتغالى قبل وصوله إلى « ديو » وطلب لذلك بعض المرشدين البحريين من الخواجة صفر ، ولكنه عاد وقرر الإنسحاب نهائياً والعودة إلى الشواطىء العربية . وقد تضاربت الأقوال والمواقف حول الإنسحاب ، فقد اعترض أحد قادة الحملة العثمانية على قرار الإنسحاب حتى لا تكون الحملة موضع لوم السلطان سليمان القانونى ، كما ألح الخواجة صفر فى تأجيل الإنسحاب لمدة عشرة أيام أخرى لأن القلعة البرتغالية توشك على السقوط ، ولكن سليمان باشا أصر على رفع الحصار والإنسحاب من « ديو »[٢] .

وكان الخواجة صفر قد فر من هناك عندما علم بقرب وصول الحملة العثمانية إلى الهند ، وتمكن من أن يقنع سلطان كجرات الجديد محمود شاه بتجهيز جيش كبير تحت قيادته لتطهير شبه جزيرة « ديو » الصغيرة من الجيوش البرتغالية المنتشرة بها . وقد استطاع صفر أن يحرز بعض الانتصارات فى شبه الجزيرة وأجبر البرتغاليين هناك على التحصن فى قلعتهم الرئيسية التى تقع بالقرب من الميناء ، وذلك قبل وصول الحملة العثمانية إلى هناك . ورغم ذلك فقد قيل إن الخواجة صفر هو الذى زور خطاب القائد البرتغالى بوصول نجدة برتغالية

---

(١) Ross E Denison : The Portuguese in Ind'a and Arabian, J R A S., Part 1, January 19?2, p 17.

(٢) Serjeant, R. B. ; Ibid , p. 92. (Bı Sandja!ah : Al-Shihri 92 a).

إلى « ديو » ، وأنه تحايل حتى يقع الخطاب فى يد سليمان باشا ، وذلك ليتخلص الهنود منه[١] .

ولقد أشاع سليمان باشا الخادم عند وصوله إلى ميناء «الشحر» فى ٤ رجب سنة ٩٤٥ هـ (٢٦ نوفمبر سنة ١٥٣٨ م) أنه لم يلق أية معاونة من جانب سنز فى كجرات ، وأنهم لم يمدوه بالمؤن اللازمة ، وذلك حتى يبرر إسراعه فى العودة من الهند دون تحقيق شىء يذكر[٢] . والواقع أن غدر سليمان الخادم بعامر بن داود كان له أثر كبير فى نفور الهنود من الحملة العثمانية ، وقد اتضح ذلك بجلاء فى امتناع الخواجة صفر عن مقابلة سليمان باشا الخادم فى سفينته ، وفى تفضيله أن يتم الاتصال والتعاون بينهما عن طريق الرسل[٣] . وقد استغل البرتغاليون حادثة قتل السلطان عامر بن داود فى إثارة الفرقة بين العثمانيين وسلطان كجرات وذلك لإضعاف الحصار المضروب حولهم ، فأشاعوا أن سليمان باشا لن يقابل مساعدة السلطان محمود إلا بالإساءة والغدر به[٤] . ومما ساعد من نفور أهالى وحكومة كجرات من العثمانيين أن سليمان باشا الخادم كان قد أساء معاملة رسول السلطان محمود شاه إليه[٥] ، كما أن الجنود العثمانيين الذين نزلوا إلى البر لمعاونة الخواجة صفر فى محاصرة البرتغاليين أساءوا معاملة حلفائهم للكجراتيين ، إذ عاملوهم بطريقة خشنة متعالية ، كما قاموا ببعض أعمال السلب والنهب[٦] . ولكن يلاحظ أن هذه التصرفات الشخصية من جانب

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوط) ، ص ١٨ ب — ١٩ أ .

(٢) Serjeant. R. B. : Ibid., p. 85. Al-Shibri (92 a).

(٣) قطب الدين : نفس المرجع ، ص ١٨ أ — ١٨ ب .

(٤) Haji Khalifeh : The History of the Maritime Wars of the Turks: p. 66:

(٥) قطب الدين: نفس المرجع ، ص ١٨ ب .

(٦) Ross, E. D. : J R A.S., Part I, January 1922, p 17.

سليمان باشا أو من جانب بعض الجنود العثمانيين لم تكن هى الأسباب الوحيدة لفشل حملة سليمان باشا فى الهند ، إذ لاشك أن ضعف الجبهة الهندية نفسها وتفككها — كما سبق أن أوضحنا — كانت من العوامل الهامة التى أدت إلى هذا الفشل .

وكيفما كان الأمر فقد أصبح هدف سليمان باشا الوحيد بعد عودته من الهند هو إتمام فتح السواحل اليمنية لإكمال الخطة العثمانية فى السواحل اليمنية من ناحية ، ولتعويض - كما أشيع حينذاك - فشله فى الهند من ناحية أخرى . وقد بدأ سليمان باشا فى إتخاذ الخطوات التنفيذية لإخضاع السواحل اليمنية للسيطرة العثمانية بعد وصوله مباشرة إلى ميناء « الشحر » ، أول الموانىء العربية التى وقف عندها ، فقد أصدر أمره عندئذ بتولية السلطان بدر الطويرق حكم حضرموت تحت السيادة العثمانية على أن يدفع للعثمانيين جزية سنوية قدرها مائة ألف أشرفى[1] . وتقدم سليمان باشا بعد ذلك إلى «عدن» ومنها إلى « المخا» حيث أنزل جنوده إلى الساحل استعداداً لإخضاع المماليك فى « زبيد » للسيطرة العثمانية . وقد لجأ سليمان باشا فى تنفيذ ذلك إلى أسلوبه المعتاد وهو أسلوب الغدر ، فعمل على الإتصال بالناخودة أحمد والى «زبيد» المملوكى ، وطلب منه الحضور إلى « المخا » لمقابلته ، كما أرسل إليه « بخلعة ومرسوم فيه الأمان ، وأن يكون نائبا عن السلطنة بمملكة اليمن كما كان »[2] . وقد تردد الناخودة أحمد فى بداية الأمر فى الذهاب إلى « المخا » خوفاً من أن يغدر به سليمان باشا كما فعل بعامر ابن داود من قبل واستعد هو وأتباعه للمقاومة مع حرصهم على إعلان الطاعة للسلطنة العثمانية ، ولكن رضخ أخيراً للأمر وتوجه لمقابلة سليمان باشا فأمر الأخير بقتله فور وصوله إليه ، وذلك فى ٨ شوال سنة ٩٤٥ هـ (٢٧ فبراير سنة ١٥٣٩)[3] . وكان سليمان باشا قد أعمل الحيلة والإغراء المادى

---

(١) Serjeant, K.B., : Ibid, p. 60 (Unidentified Manuscript).

(٢) ، (٣) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص٩٩ أ .

فى استمالة بعض قادة المماليك إليه فأدى هذا إلى إضعاف الجبهة المملوكية ، وإلى إضطرار الناخودة أحمد إلى الذهاب إلى « المخا » . وقد قام سليمان باشا عندئذ بتعيين أحد أمراء الحملة وهو مصطفى بك نائب « غزة » السابق حاكماً « لزبيد » والمناطق التهامية التى كانت تخضع للنفوذ المملوكى ، كما اهتم سليمان باشا بتنظيم شئون الحكم هناك ، وبالإبقاء على كثير من المماليك للإستعانة بخبرتهم بأحوال اليمن ، وعـــين بعضهم فى المناصب الإدارية والحربية الهامة[1] .

وكان القضاء على الطاهريين فى « عدن » وعلى المماليك فى « زبيد » يعنى بداية المواجهة المباشرة بين العثمانيين وبين القوة الثالثة فى اليمن وهى قوة الإمامة الزيدية . وقد اتخذ سليمان باشا أثناء وجوده فى « زبيد » سياسة ذات شقين تجاه الإمام شرف الدين زعيم الزيديين حينئذ . فمن ناحية حاول سليمان باشا أن يستدرج الإمام شرف الدين عن طريق الرسل والرسائل كما فعل عامر بن داود والناخودة أحمد ولكن لم يفلح ، وظل الطرفان يتبادلان الرسائل حتى غادر سليمان باشا اليمن بعد قليل . ومن ناحية أخرى حاول سليمان باشا بناء على نصيحة بعض مستشاريه أن يستولى على « تعز » وأقاليمها (مخاليفها) حتى يربط برياً بين الممتلكات العثمانية فى اليمن ، أى بين « زبيد » و « عدن » ، ولكن سليمان باشا فشل فى تحقيق ذلك أيضاً ، فقد تمكنت « تعز » التى كانت حينئذ تحت حكم الإمام شرف الدين من صد هجوم العثمانيين عليها[2] .

وعلى عكس ذلك فقد نجح سليمان باشا فى تحقيق هدفين أساسيين بالنسبة

---

(١) بجوى إبراهيم باشا : تاريخ بجوى (باللغة التركية) ، حـ ١ ، ص ٢٢٤ ، قطب الدين البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ١٩ ب .

(٢) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٢٢ .

لإحكام سيطرة العثمانيين على مدخل البحر الأحمر الجنوبى . فن ناحية اهتم سليمان باشا بتحصين جزيرة « كمران »، كما أمر بإنزال عدد من مدافع الأسطول الكبار إليها[١] . ومن ناحية أخرى اهتم سليمان باشا أيضاً بإخضاع ميناء « جيزان » للسيادة العثمانية وبتحصينه وذلك أثناء عودته إلى « جدة » . وكان هذا الميناء الهام قد خضع مؤقتاً — نتيجة لمنازعات محلية — لسيطرة أشراف « مكة » قبل وصول سليمان باشا إليه بوقت قصير ، فقام سليمان باشا بطرد والى الأشراف منه ، وعين أميراً عثمانياً بدلا منه ، وجعله تابعاً لوالى «زبيد» العثمانى[٢] .

ولقد واصلت الحملة سيرها عائدة إلى مصر بعد إخضاعها لميناء « جيزان » فوصلت إلى « جدة » فى ٢٢ شوال سنة ٩٤٥ هـ (١٣ مارس ١٥٣٩ م) . ومن هناك أرسل سليمان باشا بأخبار الحملة إلى « استانبول »، كما أمر الأسطول بمواصلة سيره إلى « السويس » . أما هو فقد توجه إلى « مكة » لأداء فريضة الحج ، ثم سافر براً إلى مصر حيث قضى بها خمسة أشهر ، توجه بعدها إلى استانبول حيث قابل السلطان سليمان الذى أحسن استقباله وعينه وزيراً فى الديوان مكافأة له على أعماله[٣] . وكان سليمان باشا قد عمد إلى المبالغة فى تصوير أعماله فى الهند واليمن حتى يغطى بذلك فشل حملته فى الهند ، كما عمد أثناء وجوده فى اليمن إلى إرسال بعض رؤوس القتلى من الأسرى البرتغاليين الذين كانوا فى « ديو » أو فى « البحر » إلى « استانبول » حتى يؤكد للسلطان أنه قضى تماماً على البرتغاليين فى الهند[٤] . وقد تهكم أحد المعاصرين وقتذاك

---

(١) Ismail Hakki : Osmanli Tarihi' II, Gilt. p. 563.

(٢) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، ص ١٩ ب .

(٣) قطب الدين : نفس المرجع ، ص ٢١ أ .

(٤) عمد سليمان باشا الخادم الى تأخير عودته الى استانبول ، فقد قضى أكثر من شهرين فى الحجاز . ثم قضى خمسة أشهر أخرى فى مصر . وقد رمى سليمان باشا من وراء ذلك الى تمهيد الطريق أمامه الى استانبول ، فعمل على نشر الأكاذيب نحو أعماله الحربية فى الهند =

على مبالغة سليمان باشا فى وصف أعماله فى اليمن ، فقال : « وأرسل إلى الباب العالى جاويشاً يبشر بفتح اليمن وأنه أخذ من البلاد مالم يمكن حصره ولا حده، وكتب اسم كل ضيعة وقرية ليس فيها إلا بقرتين،وعظم الأمر جداً كى لا يقال ضاع سفره سداً (سدى) وألقى فى سمع السلطنة من ذلك شيئاً كثيراً تمويهاً وتزويقا »[١] .

وهكذا ، ورغم كل الإتهامات التى وجهت إلى سليمان باشا الخادم، ورغم الفشل الذى حاق بأعمال الحملة العثمانية فى الهند ، فقد نجح العثمانيون حينذاك فى إخضاع السواحل اليمنية للسيطرة العثمانية ، ولذلك فعلينا هنا أن نبرز بعض النقاط الخاصة بهذا الفتح .

أولا : اقتصر الفتح العثمانى على منطقة السواحل اليمنية فقط من جيزان شمالا إلى « عدن » و « الشحر » جنوبا ، أما جهات اليمن الداخلية فقد ظلت تحت حكم الزيديين الإمام شرف الدين .

ثانيا : كان الجديد الذى حققه سليمان باشا فى اليمن هو إنتزاع « عدن » من أيدى الطاهريين وإخضاعها للسيادة العثمانية ، أما دوره فى « زبيد » والمناطق التهامية فقد اقتصر على نقـــل السلطة من أيدى المماليك أصحاب النزعات الإنفصالية — رغم دخولهم فى طاعة السلطنة العثمانية — إلى أيدى موظفين عثمانيين تعينهم « استانبول » مباشرة .

= واليمن ، كما أرسل الهدايا الى رجالات الباب العالى ، وذلك حتى يغطى فشل حملته فى الهند وقد تولى سليمان باشا رئاسة الوزارة (الصدارة العظمى) لمدة يسيرة فى خلال سنة ٩٤٧هـ ١٥٤١م .

ولكن ما لبث أن غضب عليه السلطان سليمان اذ أنه تأكد أنه لم يتفق — كما ادعى — على البرتغاليين عندما تقدم هؤلاء لغزو «السويس» قصبها فى هذا العام ، فـاضطر سليمان باشا حينئذ الى الانسحاب من الحياة السياسية العامة وأقام فى إقطاعه الخاص حتى توفى به فى سنة ٩٦٠هـ (٢/١٥٥٣م) .

(١) نفس المرجع : ص ١٩ب .

ثالثا : أدت مبالغة سليمان باشا الخادم فى تصوير أعماله فى اليمن إلى تشويه الحقائق أمام المسئولين العثمانيين فى « استانبول »، فأدى هذا بدوره إلى تخبط السياسة العثمانية أحيانا فى اليمن كما سنرى فيما بعد . ويتضح ذلك على سبيل المثال فى أن سليمان باشا كان قد أوهم الباب العالى بأن الإمام شرف الدين قد دخـــل فى طاعة العثمانيين ، ولذلك كان الباب العالى يفسر أى صدام بين الزيديين والعثمانيين على أنه خروج على السياد العثمانية ، فيعمد بالتالى إلى استعمال العنف فى قمع الثورات اليمنية بدلا من اتباع الطرق السلمية فى حل مشاكل اليمن .

رابعا : كان فشل حملة سليمان باشا فى الهند بداية تغيير واضح فى سياسة العثمانين تجاه الغزو البرتغالى ، إذ بدأ العثمانيون يتخذون بعد ذلك سياسة تتصف بأنها دفاعية أكثر منها هجومية ، فعملوا على تقوية سيطرتهم على سواحل البحر الأحمر ، كما عملوا على تطهير السواحل العربية بوجه عام من الجيوب البرتغالية . والحقيقة أنه بالرغم من أهمية إرسال حملة عثمانية كبيرة إلى الهند فى ذلك الوقت لضرب مراكز البرتغاليين القوية هناك، فقد كان من الضرورى على العثمانيين أن يهتموا بطرد البرتغاليين من المناطق العربية الساحلية ، وبتكوين جبهة عربية إسلامية فى المنطقة تحت قيادتهم ، وذلك قبل توجههم إلى الهند مباشرة .

وأخيراً ، فلقد كانت أعمال سليمان باشا فى اليمن بداية للحكم العثمانى هناك وبداية لمرحلة جديدة من مراحل تاريخ اليمن .

الفصل الثالث

الفتح العثماني الأول لليمن

٩٤٥هـ – ٩٦٢هـ

٨/١٥٣٩ – ٤/١٥٥٥ م

تقاسم العثمانيون والأئمة الزيديون حكم اليمن عند أواخر عام ٩٤٥ هـ (٨/١٥٣٩ م) كما سبق أن أوضحنا فى الفصل السابق ، فامتدت السيطرة العثمانية إلى المناطق الساحلية من « جيزان » شمالا إلى « عدن » و « الشحر » جنوباً ، كما امتدت السيطرة الزيدية إلى جميع جهات الهضبة اليمنية . وقد حاول كل من الطرفين دعم سيطرته فى الأقاليم التى تقع تحت يديه ، فمن ناحية العثمانيين فقد تلت خطوات سليمان باشا الخادم فى اليمن ، خطوات إدارية وحربية هامة وذلك لدعم سيطرتهم فى المناطق التى خضعت لهم حينذاك ، كما عملوا على مد سيطرتهم إلى أقاليم اليمن الداخلية لتثبيت وجودهم به بوجه عام. ورغم فترة الهدوء النسبى التى سادت بداية عهد العثمانيين فى اليمن ، إلا أن الجيوش العثمانية واصلت تقدمها بعد فترة قصيرة إلى الأقاليم اليمنية المختلفة واستولت على أغلبها حتى وصلت « صعدة » شمالا ، وذلك فى ولاية ازدمر باشا (١٥٤٩ – ١٥٥٥ م) رابع الولاة العثمانيين الذى ينتسب إليه الفتح العثمانى الأول لليمن . ولا شك فى أن قوة نفوذ العثمانيين فى ولاية اليمن فى بداية عهدهم بها كانت ترتبط إلى حد كبير بقوة الدولة العثمانية وباهتمامها بهذه الولاية ، اذ كانت السياسة العثمانية بالنسبة لليمن هى العامل الخارجى الوحيد تقريباً الذى يؤثر فى تطور الأحداث اليمنية فى داخل البلاد . وقد تمثلت قوة وجود العثمانيين فى منطقة جنوبى حوض البحر الأحمر ، فى قيامهم بنشاط آخر يسير موازيا للنشاط الذى أظهروه

فى داخل اليمن — كما كان مرتبطاً به فى نفس الوقت — ففى الوقت الذى عمل فيه العثمانيون على التوسع فى داخل اليمن ، كانوا يبذلون جهداً بحرياً كبيراً أمام السواحل العربية الجنوبية لصد الغزو البرتغالى عن هذه السواحل ، كما كانوا يعملون كذلك على مد نفوذهم إلى الحبشة لإحكام غلق البحر الأحمر فى وجه البرتغاليين وذلك كما سنرى فيما بعد .

أما الأئمة الزيديون وهم الذين كانوا يمثلون القوة السياسية والعسكرية التى واجهت العثمانيين فى اليمن حينذاك ، فقد انهارت حكومتهم عندما وقع الصدام بينهم وبين العثمانيين بعد فترة الهدوء النسبى الذى ساد اليمن عند بداية الفتح العثمانى للسواحل اليمنية ، ولم يكن هذا الانهيار يرجع إلى تفوق العثمانيين الحربى فحسب ، بل كان يرجع أساساً إلى ضعف الحكم الزيدى وتخبط قياداته ، فقد دب الخلاف بين أفراد أسرة الإمام شرف الدين ، وتنازع أبناء الإمام فيما بينهم حول الاستئثار بالسلطة ، وفى نفس الوقت ارتكب العمال الزيديون بعض الأخطاء التى جعلت الأهالى ينفرون منهم ، بل ويتخاون عنهم عندما وقع الصدام بين الجيوش الزيدية وبين العثمانيين .

ولذلك فعلينا أن نشير من ناحية إلى خطوات العثمانيين لتدعيم نفوذهم فى اليمن عند بداية حكمهم هناك ، كما كان علينا من ناحية أخرى أن نتعرف على القوى اليمنية المختلفة ، وعلى رأسها قوة الإمامة الزيدية ، وذلك قبل أن نتعرض بالتفصيل لما حدث بين هاتين القوتين من صدام .

وهناك حقيقة هامة يجدر الإشارة إليها عند بداية الحديث عن أعمال العثمانيين فى اليمن ، وهى أن سيطرة العثمانيين قد امتدت إلى اليمن فى وقت بلغت فيه الدولة العثمانية أوج قوتها ومجدها ، وذلك بعكس النفوذ المملوكى الذى كان قد امتد إلى اليمن فى وقت كانت الدولة المملوكية تعانى فيه أمراض الشيخوخة

والضعف . ومعنى هذا أن الدولة العثمانية حينئذ كانت قادرة على دعم سيطرتها فى اليمن ، وعلى مد ولاتها هناك بما يحتاجونه من جنود ومعدات . ويتأكد هذا إذا عرفنا أن الامبراطورية العثمانية حينئذ كانت تمتد من المجر غرباً إلى حدود فارس شرقاً ، ومن شمال البحر الأسود شمالا إلى «عدن» جنوباً ، وأن البحرين الأسود والأحمر قد أصبحا بحيرتين عثمانيتين، كما أصبح للأسطول العثمانى السيادة العليا فى البحر المتوسط . وبالإضافة إلى ذلك فلقد كان الجيش العثمانى حينذاك يفوق كثيراً الجيوش الأوروبية المختلفة من ناحية نظامه وتجهيزاته وذلك بالرغم من الإصلاحات التى أدخلت على تلك الجيوش فى ذلك الوقت[١]. وكان وجود السلطان سليمان (١٥٢٠ — ١٥٦٦م) على رأس الدولة العثمانية حينذاك مما يزيد من قوة هذه الدولة وعظمتها ، فقد جذب هذا السلطان القدير، بفضل أعماله الكبيرة ، إلتفات معاصريه إليه على اختلاف جنسياتهم ومشاربهم ، حتى أنه كان الحاكم الوحيد من بين حكام دولته الذى أطلق عليه المؤرخون الأوروبيون لقب «العظيم» بينما منحه العثمانيون لقباً أكثر تواضعاً وهو «القانونى»[٢] .

ولقد ترتب على تمتع العثمانيين بالقوة فى ذلك الوقت أن بدأ اهتمامهم بتنظيم ممتلكاتهم فى اليمن بعد عودة سليمان باشا الخادم مباشرة ، فقد أرسل السلطان سليمان فى ٧ ربيع أول سنة ٩٤٦هـ (٢٣ يولية ١٥٣٩م) مرسومين إلى الأميرين اللذين عينهما سليمان باشا الخادم فى «عدن» و «زبيد» ، وذلك لتثبيتهما فى حكم هاتين الإمارتين ، كما أرسل السلطان فى نفس الوقت مرسوماً ثالثاً إلى الإمام شرف الدين بإبقاء الأوضاع القائمة فى اليمن كما هى ، وبتكليفه بإرسال القوافل

---

(١) Creasy, E. S. ; History of the Ottoman Turks, p. 201.

(٢) Hammer, J. : Histoire de l'Empire Ottoman, Tome 5, p. 2.

إلى « عدن » ، وبالعمل على استتباب الأمن فى البـــلاد[١] . ولم تكن هذه الإجراءات المبدئية تنظيما نهائياً لأوضاع العثمانيين فى اليمن ، إذ سرعان ماتحولت أملاك العثمانيين به إلى ولاية عثمانية لها كل مقومات الولايات العثمانية الأخرى ، وظهرت فى اليمن الوظائف العثمانية التقليدية مثل الوالى والكتخدا والدفتردار والسناجق والأغوات وغيرهم . ولقد صدر أمر السلطان سليمان بتعيين أول والى عثمانى لليمن فى سنة ٩٤٧ هـ (١٥٤١/٤٠م) وهو مصطفى باشا النشار[٢] . فاستمرت ولايته لمدة خمس سنوات تقريباً . وكان مصطفى باشا النشار أحد ضباط حملة السلطان سليم على مصر ، فبقى بها بعد عودة السلطان إلى « استانبول » ، ثم أخذ يرقى المناصب المختلفة حتى أصبح أحد الكشاف ، كما تولى إمارة قافلة الحج المصرى لعدة سنوات متوالية . وقد أصبح مصطفى النشار خلال هذه المدة أحد المقربين إلى داود باشا والى مصر حينئذ ، فرشحه الأخير ليكون أول وال للتملكات العثمانية فى اليمن[٣] .

وقد ازداد اهتمام العثمانيين بتدعيم نفوذهم فى اليمن عند نهاية حكم مصطفى النشار الذى تميزت فترة ولايته بالهدوء النسبى ، فقد عين السلطان سليمان فى سنة ٩٥٢ هـ (١٥٤٦/٥م) والياً جديداً لليمن هو أويس باشا وأرسله إلى هناك على رأس جيش كبير مزوداً بالمعدات والآلات الحربية الضخمة[٤] . وكان إرسال

---

(١) Serja nt, R. B. : The Portuguese off the South Arabian Coast, p. 98, (Unidentified manuscript). p. 102 a.

(٢) اشتهر مصطفى باشا باسم مصطفى النشار لأنه كان ينشر اللصوص وقطاع الطرق الذين يقبض عليهم أثنـــاء امارته لقافلة الحـــج المصرى إلى تصفين عقاباً لهم (قطب الدين : ص ٢١ ب) .

(٣) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ص ٢ ب (وكان أويس باشا من مماليك السلطان سليم الأول المشهورين بالشجاعة ، كما كان له أخ تولى امر « ديار بكر » بعض الوقت حتى قتل بها أثناء حروبه مع التتار) .

(٤) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانيـــة (مخطوطة) ، جـ١ ، م ١ ، ص ١٨٨ ب .

هذا الوالى على رأس جيش كبير يعنى أن العثمانيين كانوا قد قرروا حينذاك تحويل اليمن إلى قاعدة حربية كبيرة لهم عند مدخل البحر الأحمر الجنوبى ، وذلك نظراً لما وقع من أحداث هامة فى عهد مصطفى النشار .

وتتلخص هذه الأحداث فيما يأتى :

أولا : حاول البرتغاليون فى سنة ١٠٤١ م القيام بهجوم كبير على ميناء « السويس » لتحطيم الأسطول العثمانى به ، ولكن باء هذا الهجوم بالفشل بالرغم من وصول الأسطول البرتغالى إلى « الطور » .

ثانياً : أرسل مصطفى باشا النشار — بناء على طلب مسلمى الحبشة نجدة عسكرية إلى الحبشة لمساعدة هؤلاء المسلمين فى حروبهم ضد نجاشى الحبشة وحلفائه البرتغاليين .

ثالثاً : قام العثمانيون حينذاك ببعض الأعمال الحربية الصغيرة ضد البرتغاليين عند مدخل البحر الأحمر وأمام الساحل العربى الجنوبى .

رابعاً : حدثت بعض المناوشات بين العثمانيين والزيديين بالقرب من « جيزان » من ناحية ، ومن « تعز » من ناحية أخرى ، مما كان يهدد وجود العثمانيين فى اليمن بالخطر .

ورغم أننا سنعود إلى الحديث بالتفصيل عن هذه النقاط الأربع ، فقد كانت هذه الأحداث تحتم على العثمانيين أن يزيدوا من قوتهم الحربية الموجودة فى اليمن ، وذلك لبعد البرتغاليين عن جهات البحر الأحمر والسواحل العربية من ناحية ، ولحماية وجودهم فى داخل اليمن من ناحية أخرى .

ولقد بدأ بالفعل الصدام الحربى بين العثمانيين والزيديين فى عهد أويس باشا ، وهو الصدام الذى كان مترقباً لتجاور هاتين القوتين الكبيرتين فى إقليم

واحد ، ولميل كل منهما إلى اتخاذ مواقف التأهب والاستعداد .

وعلينا هنا أن نتعرض للقوى اليمنية المختلفة وعلى رأسها قوة الإمامة الزيدية وذلك قبل أن نتعرض لأحداث هذا الصدام وتطوراته .

ولا نبعد عن الحقيقة كثيراً إذا اعتبرنا أن بيئة اليمن الطبيعية كانت إحدى القوى الداخلية اليمنية ، فلقد لعبت هذه البيئة الخاصة — التى يغلب عليها الطابع الجبلى — دورا هاماً فى تاريخ اليمن وذلك كما أوضحنا فى التمهيد . وسنرى كيف استفاد اليمنيون من وعورة تضاريس بلادهم فى حروبهم مع العثمانيين ، كما سنرى كيف كانت هذه التضاريس الوعرة عائقاً هاماً أمام تقدم الجيوش العثمانية النظامية إلى داخل اليمن وخاصة فى المنطقة الشمالية .

أما القوة اليمنية الثانية ، فهى القوة البشرية فى وسط الهضبة وجنوبها وكذلك فى تهامة ، ونحن نخصص الحديث هنا عن أهالى هذه المناطق لأننا سنتحدث فى مكان آخر عن أهالى المنطقة الشمالية ، وأهالى هذه المناطق يغلب عليهم الطابع القبلى أيضاً ، وكذلك كانت بعض القبائل هناك — من ناحية — لا تقل قوة أو أهمية عن القبائل الشمالية ، بل كان بعضها يفوق تلك القبائل من ناحية كثافة عددها واتساع الرقعة التى تقطنها . وكانت قبائل هذه المناطق لا تقل قدرة على محاربة العثمانيين وعلى إعلان الثورة عليهم عن القبائل الشمالية . ومن ناحية أخرى كانت هذه القبائل تعتنق المذهب السنى الذى يعتنقه العثمانيون . ورغم أهمية هذه الحقيقة فى التقريب بين هذه القبائل وبين العثمانيين ، فلم تكن هذه الحقيقة تعنى استسلام هذه القبائل للعثمانيين وخاصة عند ظهور بعض الولاة الجائرين . وقد اهتم بعض المؤرخين المعاصرين وقتذاك بإبراز انقسام اليمنيين إلى زيديين وشافعيين ، وذلك لخدمة أغراض خاصة أو للدفاع عن مواقف سياسية معينة ، ولكننا نرى أنه لم يكن لهذا الانقسام الآثار الهامة التى أشار إليها

هؤلاء المؤرخون[١] . فسنرى جماعات زيدية كانت أسبق إلى الثورة على الحكام الزيديين من الجماعات الشافعية ، كما سنرى فئات شافعية تمثل خصما للعثمانيين أصلب، عودا من بعض الأمراء الزيديين أنفسهم . وفى نفس الوقت سنرى بعض الزعماء الزيديين يعتمدون على جماعات شافعية مثلما يعتمدون على فئات زيدية فى الثورة على العثمانيين . كما سنلمس فى أوقات كثيرة وجود تعاون وثيق بين فئات الشعب اليمنى دون تفريق أو تمييز .

أما القوة اليمنية الثالثة ، فهم أتباع المذهب الإسماعيلى الذين كانوا يتركزون أساساً فى جبال « حراز » إلى الغرب من « صنعاء » ، وفى « نجران » فى أقصى شمال اليمن . وكان هؤلاء الإسماعيليون يمثلون حينئذ أقلية شعبية صغيرة لا يزيد تعدادها عن مائة ألف نسمة ، كما كانوا على عداء دائم مع الزيديين كما أشرنا فى التمهيد . وقد حاربهم الإمام شرف الدين بعد دخوله صنعاء لأول مرة سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) ، فدخل القليل منهم حينئذ فى طاعته ، وتشتت الباقى فى جهات اليمن المختلفة ، كما هرب زعيمهم الداعى محمد بن إسماعيل إلى زبيد ودخل فى طاعة العثمانيين[٢] . وقد لعبت طائفة الإسماعيلية دورا كبيرا فى تاريخ اليمن فى ذلك الوقت ، إذ عملوا على تحريض العثمانيين على محاربة الإمام شرف الدين وأبنائه انتقاماً منهم ، كما ظلوا عوناً لهم سنوات طوالا .

أما القوة اليمنية الرابعة ، فهى قوة الإمامة الزيدية بزعامة الإمام شرف الدين التى كانت تمثل حينئذ الكيان السياسى فى الجهات الداخلية من اليمن الذى واجه العثمانيين حينئذ . وقد ارتكب زعماء هذه القوة وولاتهم بعض الأخطاء التى تدل على أن الحكم الزيدى كان يمر بفترة من « عدم

---

(١) مثل قطب الدين وابن داعر، ولذلك كنا نأخذ حديثهم بحذر .

(٢) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ص٢٢٩ — ٢٤٠ .

النضج ، إن صح هذا التعبير ، إذ كان ارتـكاب هـذه الأخطاء يرجع أساساً إلى حداثة عهدهم بالحكم فى المناطق الجنوبية التى امتد إليها نفوذهم لأول مرة فى التاريخ الزيدى ، وكان لارتـكاب هذه الأخطاء آثار عميقة فى انهيار الحكم الزيدى فى المناطق الجنوبية أمام العثمانيين عندما بدأت جيوشهم فى الزحف من « زبيد » إلى داخل البلاد .

وبالإضافة إلى ذلك فقد ارتـكب الإمام شرف الدين خطأين كبيرين أثرا تأثيراً كبيراً مباشراً فى انهيار حكومته . أولها أنه قسم ممتلـكاته بين أبنائه العديدين ، وجعل لـكل منهم حكم إقليم معـــين ، وذلك فى سنة ٩٤٧ هـ (١٥٤١/٤٠ م) أى فى نفس الوقت الذى عين فيه مصطفى باشا النشار والياً لليمن[١] . وكانت حجة الإمام شرف الدين فى إجراء التقسيم هى ضعف صحته وكبر سنه إذ كان قد بلغ السبعين من عمره حينئذ ، ولذلك فوض حكم البلاد إلى أبنائه لأنهم أقدر منه على الاضطلاع بأعباء الحكم ، ولـكن هذا التقسيم حمل فى طياته بذور التفكك والضعف ، إذ أدى إلى تفتيت السلطة الزيدية فى اليمن وإضعافها ، وإلى إثارة روح التباغض والتنافس بين الإخوة . وثانيهما أن الإمام جعل ولاية العهد لإبنه « على » دون أبنه الأكبر وهو «المطهر»[٢] . وكانت حجة الإمام فى ذلك أن « عليا » كان أكثر علماً وأفضل خلقاً من « المطهر » ، وأن هذا الأخير به عرج نتيجة إصابته فى إحدى المعارك ، أى أنه كان لا يصلح للإمامة لأن المذهب الزيدى يشترط أن يكون الإمام « سليم الجسم سليم الحواس » . ولـكننا نرى أن الإمام قد اتخذ هذه الحجة ذريعة لإبعاد المطهر عن الإمامة وذلك لشراسته وشدة بطشه بالرعايا ، وهى صفات اتضحت كما رأينا فى حروبه السابقة . ولقد أثارت خطوة الإمام شرف الدين

(١) يحيى بن الحسين: أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٢٢أ — ١٢٣أ .

(٢) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٢١ب — ٢٢أ .

هذه غضب المطهر إلى درجة كبيرة ، ودفعته إلى الخروج على طاعة أبيه ، بل ودفعته إلى إثارة اليمنيين والعثمانيين على السواء ضد حكم أبيه الإمام وتمثلت خطورة انشقاق المطهر حينئذ على حكم أبيه في أن المطهر كان أكبر قادة الإمام وأشجعهم ، وفي أنه هو الذي قاد الزيديين من نصر إلى نصر ، كما كانت قوة شخصية المطهر وشدة بطشه من أكبر العوامل في خضوع كثير من جهات اليمن — وخاصة في الجنوب — للسيطرة الزيدية ، ولذلك أدت ثورة المطهر كما سنرى إلى تمرد كثير من الجهات على هذه السيطرة .

ولقد زادت الخلافات بين أفراد أسرة الإمام شرف الدين بعد ذلك على يد شمس الدين الابن الثاني للإمام شرف الدين ، الذي سبق أن أشرنا إليه أثناء حروب الإمام المختلفة في الفصل السابق . فقد تصدى شمس الدين للوقوف أمام المطهر وعمل على منافسته على الزعامة ، أما « علي » الذي سبق ترشيحه للإمامة ، فلم يكن رجل حرب وسياسة لذلك لم يقو على الوقوف أمام المطهر طويلا بل دخل في طاعته بعد ذلك ، وأصبح أداة من أدوات حكمه عندما نجح المطهر في لم شتات الأسرة تحت زعامته . وقد أدى النزاع بين شمس الدين وبين المطهر على الإستئثار بالسلطة إلى إضعاف شوكة حكم الإمام شرف الدين ، بل وإلى انهيار هذا الحكم بعد ذلك ، حتى أن أحد المؤرخين اليمنيين اعتبر أن النزاع بين هذين الأخوين هو السبب الوحيد والمباشر في انهيار حكم الإمام شرف الدين ، أو على حد تعبيره « ابتداء زوال دولة الإمام شرف الدين »[١]. وكان الخلاف بين الإمام شرف الدين وابنه شمس الدين من ناحية وبين المطهر من ناحية أخرى ، قد بلغ ذروته في سنة ٩٥٢ هـ (١٥٤٦/٥م) أي بعد وصول أويس باشا إلى « زبيد » بقليل ، فقد توجه المطهر حينئذ إلى حصن « ثلاء »

---

(١) محمد بن اسماعيل الكبسي : اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية (مخطوطة) ، ص ٢٨٨ .

المنيع ، ليتحصن به وليجاهر بثورته من هناك ، وذلك بعد أن كان الخلاف بينهما قد اتخذ صورة عنيفة وحدثت بعض الاشتباكات بين أنصار كل من الطرفين[١] . وقــد واصل المطهر أعماله الانتقامية إلى أقصى حدودها بعد استقراره فى « ثلاء » ، فقد أخذ يحث القبائل المختلفة على إعلان تمردهم على حكم الإمام ، وعلى ولاة أخيه شمس الدين الذى كان قد قبض على زمام الأمور بعد إعلان ثورة المطهر ، كما أرسل المطهر أيضاً رسوله إلى أويس باشا يدفعه إلى محاربة الإمام شرف الدين والقضاء على سلطته فى اليمن[٢] .

وقـد سر أويس باشا بهذه الدعوة سروراً عظيما لأنها تتيح له فرصة توسيع ممتلكات العثمانيين فى اليمن ، فأخذ يجهز جيوشه للزحف بها إلى « تعز »[٣] .

وهكذا تتضح لنا الأوضاع الخاصة بكل من الجانبين العثمانى واليمنى وحتى وقع الصدام بين الطرفين ، وحتى تقدم العثمانيون إلى داخل البلاد . ولكن كيف بدأت العلاقة بين العثمانيين والزيديين بعد مجىء سليمان باشا الخادم إلى اليمن ؟ ثم كيف تطورت الأحداث بين الطرفين حتى تم للعثمانيين الاستيلاء على « صنعاء » وعلى غيرها من المناطق الشمالية ؟

يصعب فى الحقيقة توضيح كيف بدأت العلاقة بين العثمانيين والإمام شرف الدين بعد حملة سليمان باشا الخادم على اليمن ، وذلك لقلة المادة التاريخية اللازمة من ناحية ، ولما صاحب هذه البداية من مواقف متناقضة من ناحية أخرى . ورغم ذلك فيمكن القول بأن العلاقة بين الطرفين بدأت

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) حا ، ص٧١أ - ٧١ب .

(٢) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ص ١٢٣ .

(٣) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانيــة (مخطوطة) ، حـ أ ، م أ ، ص ١٨٨ ب .

سلبية بوجه عام ، ويتضح هـذا من المرسوم الذى أرسله السلطان سليمان إلى الإمام شرف الدين بإبقاء الأوضاع فى اليمن كما هى ، والذى سبق أن أشرنا إليه فى بداية هذا الفصل . ولـكن هـذا المرسوم نفسه لا يفسر بوضوح العوامل التى دفعت السلطان سليمان إلى إرساله هذا المرسوم إلى الإمام ، فهو قـد يعبر عن اعتراف السلطان بسلطة الامام فى اليمن ، وأنه يرغب فى إقامة علاقة حسن جوار معه مثلا ، كما قـد يعبر المرسوم أيضاً عن أن السلطان سليمان يعامل الإمام شرف الدين وكأنه قد دخل فى طاعته وذلك بناء على المبالغات التى ألقاها سليمان باشا الخادم فى العاصمة العثمانية . ونحن نرجح الافتراض الأخير رغم قلة المـادة التاريخية وغموضها ، ورغم أن الخطابات التى تبودلت بين سليمان باشا الخادم أثناء إقامته القصيرة فى « زبيد » وبين الإمام شرف الدين لم تؤد إلى شىء، كما أنها لا تعبر عن دخول الإمام فى طاعة العثمانيين .

وعلى الرغم من قيام هـــذه العلاقات السلبية ، فإن العلاقات العثمانية الزيدية عند بدايتها لم تخل من العنف ، إذ حدثت بعض المناوشات بين الطرفين حول « تعز » و « جيزان » ، وقـد أشرنا من قبل إلى أن سليمان باشا الخادم قد حاول الاستيلاء على « تعز » أثناء إقامته القصيرة « بزبيد » ولـكنه فشل ، وكذلك قام أحد أبناء الإمام شرف الدين وهو الأمير عز الدين أمير « صعدة » ببعض المناوشات حول « جيزان » بغية الاستيلاء عليها ولـكنه منى بالفشل أيضاً[1] .

ولهذا كله فيمكن أن ننتهى إلى القول بأن العلاقة العثمانية الزيدية قـد بدأت حذرة متوترة أكثر منها سلبية متعاونة . فمن ناحية العثمانيين ، فلا شك أن استراتيجيتهم فى البحر الأحمر كانت تحتم عليهم الاستيلاء على السواحل

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، حـ أ ، ص ٧٤ أ .

اليمنية ، كما تحتم عليهم أيضـاً تثبيت أقدامهم بها ، ولذلك كان العثمانيون يحتاجون إلى التهادن ولو مؤقتاً مع القوى المحلية وخاصة الزيديين حتى لا تثير هذه القوى المتاعب فى وجه القوات العثمانية . ومن ناحية الإمام شرف الدين ، فلا شك أنه كان يرى أن يقف من العثمانيين موقفاً متهادناً أيضـاً على أن يتسم هـذا التهادن بالحـذر والاستعداد فى نفس الوقت ، وذلك لأنه كان يشعر من ناحية بضعفه العسكرى أمام العثمانيين ، ومن ناحية أخرى لأنه كان يرى أن استيلاء العثمانيين على « عـدن » و « زبيد » يعنى حرمانه من مجال توسعه الطبيعى ، كما يعنى وجود قوة عسـكرية ضخمة إلى جواره تهدده باستمرار .

وكيفما كان الأمر ، فقد تحولت العلاقات العثمانية الزيدية المتأرجحة إلى الصدام الحربى الصريح بين العثمانيين والزيديين بعد وصـول أويس باشا إلى « زبيد » ، ولـكن هل كان تشجيع المطهر لأويس باشا على محاربة الإمام شرف الدين هو السبب الوحيد لبدء الصدام بين الطرفين ؟ ولإقدام العثمانيين حينئذ على فتح باقى جهات اليمن ؟

لا شك أن التفكك والانقسام الذى أصـاب أسرة شرف الدين ، ثم ما تلى ذلك من أعمال انتقامية تخريبية من جانب المطهر ، كان من أهم العوامل التى أغرت العثمانيين على الاستيلاء على باقى أقاليم اليمـن فى ذلك الوقت ، ورغم ذلك فلم يكن هـذا العامل غير عامل مباشر فقط لبدء الحرب . فالحقيقة أن هنـاك عدة أسباب خاصـة بالعثمانيين تجعلنا نعتقد أن إقدام العثمانيين على فتح باقى أقاليم اليمن فى ذلك الوقت كان متوقعاً ، أو أمراً تحتمه ظروف العثمانيين أنفسهم . ويمكن تلخيص هذه الأسباب فى عدة نقاط :

أولا : لم يكن متوقعاً أن تبقى العلاقات بين السلطتين العثمانية والزيدية

فى حالة سلام دائم مع تجاور قواتهما فى اليمن جنباً إلى جنب ، إذ أن الاحتكاكات والمناوشات المستمرة بين هذه القوات تؤدى بالضرورة إلى اندلاع الحرب حتى يتم القضاء على إحدى هاتين السلطتين ، أو حتى يتم إخضاع إحداها الأخرى .

ثانياً : كان قرار العثمانيين باتخاذ السواحل اليمنية قاعدة لهم يستتبع حتما مد سيطرتهم إلى باقى جهات اليمن للقضاء على أية أخطار قد تهدد قواتهم بالخطر من داخل اليمن . أو بالأحرى كان استيلاء العثمانيين على باقى جهات اليمن أمراً تحتمه حماية السيطرة العثمانية على السواحل اليمنية . ويؤكد هذا مجىء أويس باشا إلى اليمن بقوات كبيرة ومعدات ضخمة .

ثالثاً : يعتبر بلوغ الدولة العثمانية حينئذ أوج قوتها ومجدها دافعاً ذاتياً للعثمانيين للإقدام على التوسع الداخلى فى اليمن ولذلك لم يكن غريباً أن تسيطر أفكار الحرب والتوسع على أذهان القادة العثمانيين حينذاك . ولقد كان اختيار أويس باشا والياً لليمن فى ذلك الوقت يتناسب مع وجود هذه الأفكار التوسعية ، فقد كان أويس باشا مشهوراً بعسكريته الصارمة[1] .

رابعاً : كان الجنود العثمانيين يضيقون بالبقاء طويلا داخل ثكناتهم وذلك لطبيعة تربيتهم العسكرية الصارمة ، ولذلك كان حشد الجنود فى « زبيد » يعنى القيام بالحرب فى داخل اليمن أو فى الميادين الأخرى المحيطة به مثل الحبشة والسواحل العربية والجنوبية ، وقد اتضح فى أمثلة كثيرة أثر طبيعة الجيش العثمانى حينذاك على الأحداث العامة للدولة العثمانية ، إذ لا شك فى أن انحياز العنصر الأساسى فى الجيش العثمانى — وهم الانكشارية — إلى جانب السلطان سليم الأول ضد أبيه السلطان بيازيد الثانى (١٤٨١ — ١٥١٢م) ، كان يرجع إلى رغبة الانكشارية فى تولية سلطان قوى محارب

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٢١ ب .

يتمكن من قيادتهم إلى ميادين الحروب بدلا من السلطان بيازيد العجوز الضعيف[١]. وأجبرت الانكشارية كذلك السلطان سليمان القانونى على الإسراع بالقيام بالحرب ضد المجر، فبعد أن استولى السلطان على جزيرة رودس سنة ١٥٢٢ انشغل فى تنظيم النواحى الداخلية بعض الوقت، فأدى هذا إلى تذمر الانكشارية وإعلانهم التمرد المسلح فى خريف سنة ١٥٢٥، ورغم نجاح السلطان سليمان فى القضاء على تمردهم، فقد رأى أن يقودهم بنفسه بعد قليل فى سنة ١٥٢٦ إلى سهول المجر[٢].

خامساً: كان ضغط الاسماعيلية وغيرهم من اليمنيين على أويس باشا لإعلان الحرب على الإمام شرف الدين وأبنائه من العوامل الهامة التى دفعت العثمانيين إلى التقدم إلى داخل اليمن. وكان الداعى محمد بن اسماعيل زعيم طائفة الاسماعيلية قد لجأ إلى العثمانيين فى «زبيد» بعد صدامه مع الإمام شرف الدين، ولذلك كان يأمل باستمرار فى دفع العثمانيين إلى محاربة الإمام إنتقاماً منه. وقد ازداد ضغط الداعى محمد بن إسماعيل على أويس باشا بعد أن وصلت إلى هذا الأخير دعوة المطهر له بإعلان الحرب على الإمام، فأخذ يشجع أويس باشا على القيام بالحرب، كما وعده بأن يمده بخمسين ألف مقاتل من أتباعه الاسماعيلية — كما قال — للوقوف إلى جانب العثمانيين فى حربهم ضد الإمام شرف الدين[٣].

وهكذا تتضح أمامنا الظروف التى أحاطت ببداية الصدام بين العثمانيين والإمام شرف الدين، والتى أدت بعد قليل إلى استيلاء العثمانيين على أغلب أقاليم اليمن. وقد بدأ الصدام بين الطرفين عنيفاً شاملا، وذلك

---

(١) Alderson, A. D. : The Structure of the Ottoman Dynasty, Oxford, Claredon Press, 1956. p. 63.

(٢) Creasy E. S. : History of the Ottoman Turks, pp. 1 4 — 165.

(٣) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ص ٤٠ أ .

بعد إقدام المطهر على الاتصال بالعثمانيين الاستعانة بهم ضد أبيه الإمام شرف الدين . وقد اتجه أويس باشا بجيوشه إلى « تعز » وليس إلى « صنعاء » مباشرة كما طلب المطهر الذى رغب فى استخدام القوة العثمانية لتأييد مصلحته الخاصة فى تولى الإمامة ، ولكن أويس باشا فضل التوجه إلى « تعز » لأهميتها الاستراتيجية بالنسبة لجنوب اليمن ، وليؤمن خطوط رجعته قبل أن يلتى بجيوشه فى أتون معركة غير مأمونة العواقب فوق الهضبة اليمنية . وكان والى « تعز » الزيدى الفقيه يحي النصيرى قد عمل على تحصين مدينته وما حولها من قلاع منذ أن شعر بضخامة الجيوش التى أتت مع أويس باشا إلى «زبيد»[١]. ولكن سقطت « تعز » بعد قليل أمام ضخامة الجيوش العثمانية واستعداداتها الحربية الكبيرة وذلك فى أواسط ذى الحجة سنة ٩٥٢هـ (فبراير سنة ١٥٤٦م)[٢]. وقد تقدم أويس باشا بجيوشه بعد ذلك إلى « ذمار » ـ إلى الجنوب من صنعاء ـ فاتخذ الطريق الذى سبق أن اتخذه المماليك من قبل ، واتجه إلى الشمال الشرقى من « تعز » حتى وصل إلى «قعطبة» ، ثم سلك وادى خبان إلى «ذمار»[٣] . وقد اختار أويس باشا هذا الطريق الطويل نسبياً حتى يدعم النفوذ العثمانى فى الأقاليم الجنوبية بوجه عام ، وحتى يسهل عليه نقل معداته الحربية الثقيلة ، وذلك لأن هذا الطريق كان أقل وعورة عن الطرق الأخرى الأقل طولا . وقد اضطرت الجيوش العثمانية إلى التوقف بعض الوقت فى « ذمار » لنجاح بعض المتآمرين من العثمانيين فى قتل أويس باشا ، وذلك فى أواخر ربيع الآخر سنة ٩٥٤ هـ (أوائل يونية سنة ١٥٤٧)[٤] .

---

(١) أحمد بن يوسف فيروز : مطالع النيران فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ٤ ب .

(٢) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٢٢ أ .

(٣) الموزعى : الإحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان (مخطوطة) ، ص ٩ ب .

(٤) قطب الدين : نفس المرجع ص ٢٢ أ — ٢٢ ب .

ويرجع نجاح العثمانيين فى الاستيلاء على جنوب اليمن حتى « ذمار » شمالا إلى تفوق هؤلاء من ناحية آلاتهم الحربية ، فقد حمل العثمانيون إلى اليمن مابهر اليمنيين وما أحدث بينهم الذعر الشديد ، بل كان بطء خطوات العثمانيين فى المناطق الجنوبية يرجع إلى « كثرة العدد الثقيلة من آلات الحروب على اختلاف أنواعها »[١] . ولقد كان تفوق المدفعية العثمانية حينئذ من الأمور المعترف بها فى أوربا نفسها ، بل كانت هذه المدفعية فى عهد السلطان سليمان أقوى وأعظم مدفعية فى أوروبا ، وذلك من حيث عدد قطعها ، وجودة صنعها ، ومهارة رجالها[٢] .

وإلى جانب تفوق العثمانيين الحربى ، فقد كان ضعف الحكم الزيدى فى جنوب اليمن ، وفساد الولاة هناك ، من أهم الأسباب أيضاً فى سقوط هذه الجهات فى أيدى العثمانيين ، إذ سارع أهالى بعض الجهات الجنوبية — عند تقدم العثمانيين إلى « تعز » — إلى إعلان تمردهم على الولاة الزيديين ، كما سارع آخرون إلى الدخول فى طاعة العثمانيين . ويتضح ذلك من ثورة أهالى « التعكر » — التى تقع بالقرب من تعز — على واليهم ، وطردهم له من مدينتهم وذلك كما قيل « لما جار عليهم فى ذلك الوقت الذى لا ينبغى فيه غير الرفق »[٣] وقد امتدت آثار هذه الثورة إلى داخل « تعز » أثناء حصارها ، فقد تخلى المدافعون من قبيلتى الشوافى وحبيش — وهما من قبائل التعكر أيضاً — عن مراكزهم الدفاعية فى داخل المدينة عندما علموا بثورة أقاليمهم ، فأدى هذا إلى سقوط « تعز » على الفور فى أيدى العثمانيين .

غير أن إنهيار الحكم الزيدى فى جنوب اليمن أحدث رد فعل هام فى جبهة الإمام شرف الدين تمثل فى الرغبة فى توحيد صفوف أسرة الإمام

---

(١) أحمد بن يوسف فيروز : مطالع النيران (مخطوطة) ، ص ٤ ب .
(٢) Creasy, E. S, : History of the Ottoman Turks, p 165.
(٣) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ص ٢٣ أ .

لصد الزحف العثماني ، فقد رأى الإمام وابنه شمس الدين أن يسترضيا المطهر وأن يوافقا على الشروط التي وضعها ثمناً للصلح . وكانت هذه الشروط في جملتها تنحصر في جعل السلطة العليا في يده ، وفي تسليم مقاليد الحكم له ، وكذلك تسليم الحصون والمعدات التي تحت أيدي الإمام[١] . وقد تم الصلح بين الطرفين على أساس هذه الشروط — أو بالأحرى بعد أن حقق المطهر أغراضه — فانسحب الإمام وابنه شمس الدين إلى حصن « كوكبان » للإقامة به ، وتقدم المطهر من « ثلاء » إلى « صنعاء » ليتسلم زمام الأمور بها ، فضرب السكة باسمه ، كما قبض على بعض أنصار أبيه وصادر أملاكهم[٢] .

ولكن كان التوحيد الذي حدث بين صفوف الزيديين توحيداً شكلياً في الحقيقة ، فقد ظل إخوة المطهر يحملون له الضغينة والحقد لانتصاره عليهم في معركة النزاع حول السلطة . وقد انعكس هذا التوتر النفسي على موقف هؤلاء الإخوة من الأحداث ومن المطهر ، فقد تخلى عنه البعض عندما وقع الصدام بينه وبين العثمانيين فيما بعد ، بل وتآمر البعض الآخر مع العثمانيين ضده . وكان المطهر — الخبير بالحروب وخدعها والذي كان قد انقلب حينئذ على العثمانيين بعد تحقيق أغراضه — يريد أن ينتهز فرصة إنشغال العثمانيين في اضطراباتهم الداخلية بعد مقتل أويس باشا في « ذمار » ، فحاول أكثر من مرة أن يوحد الجيوش الزيدية حوله ليقوم بهجوم شامل على العثمانيين ، ولكن باءت محاولاته بالفشل لموقف أخوته منه[٣] . وقد أدى ذلك الموقف إلى ضياع فرصة الهجوم على العثمانيين في « ذمار » ، مما اضطر المطهر في النهاية إلى البقاء في « صنعاء » حتى تقدم العثمانيون إليه .

أما العثمانيون ، فقد نجح « الأمير أزدمر »[٤] في تنظيم صفوفهم تحت

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، ج أ ، ص٧١ب .

(٢) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن في تاريخ اليمن ، ص ١٢٤ .

(٣) عيسى بن لطف الله : نفس المرجع ، ص٧٢ أ .

(٤) كان الأمير أزدمر أحد المماليك الذي أبقى عليهم السلطان سليم الأول بعد دخوله =

قيادته بعد أن كادت الاضطرابات التي تلت مقتل أويس باشا أن تعصف بهم . وترجع خطورة المؤامرة التي أدت إلى قتل أويس باشا إلى أنها كشفت عن وجود خلاف كبير بين قسمي الجيش العثماني في اليمن ، وهما : العثمانيون الذين وصلوا إلى اليمن منذ حملة سليمان باشا الخادم عليه ، والمماليك العثمانيين الذين كانوا في اليمن من قبل . وكان على رأس المتآمرين الأمير حسن البهلوان ، وهو من المماليك الذين كانوا في اليمن ثم دخلوا في خدمة العثمانيين بعد حملة سليمان باشا على السواحل اليمنية . وكان غرض حسن البهلوان ومن معه من المتآمرين هو الإستحواذ على السلطة العليا في اليمن والاستقلال بالممتلكات العثمانية به ، ولكن الأمير ازدمر قام بالتصدى له مما اضطر حسن البهلوان إلى الفرار ومعه بعض أتباعه . وقد وقع حسن البهلوان وجماعته في أيدي رجال قبيلة « بني غصين » فقتلوهم ، وأرسلوا برأس حسن البهلوان إلى المطهر في « صنعاء » ، فاستغلها هذا الأخير في رفع معنويات جنوده[1]. ويرجع الخلاف بين أويس باشا وبين المماليك إلى حرمانه إياهم من بعض حقوقهم ، وإلى قتله لبعض زعمائهم ، فاتفق هؤلاء على التخلص منه إذا واصل عدوانه

= مصر وأدخلهم في خدمة العثمانيين . وقد أخذ أزدمر يرتقي المناصب العسكرية والإدارية المختلفة في مصر حتى أصبح أحد الكشاف بها ، ثم انضم إلى حملة سليمان باشا الخادم إلى الهند واليمن ، ثم أصبح أول أمير لميناء «جيزان» اليمني بعد أن استولى عليه سليمان باشا عند عودته من اليمن . وقد أخذ الأمير أزدمر يرتقي المناصب المختلفة في اليمن في عهد مصطفى باشا النشار حتى أصبح أحد الأمراء المرموقين به ، وذلك بفضل قوة شخصيته ، وسمعته الطيبة بين الأهالي والجنود على السواء . ويعتبر أزدمر من أهم الشخصيات العثمانية التي ظهرت في اليمن في تلك الفترة ، إذ نجح في فتح أغلب أقاليمه ، وفي توحيدها تحت الحكم العثماني كما سنرى فيما بعد ، ولذلك فهو يعتبر الفاتح الأول لليمن .

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية في الجهات اليمانية (مخطوطة) جـ أ ، م أ ، ص ١٨٩ ب. (هناك رواية أخرى تذهب إلى أن جماعة من جنود الأمير أزدمر هي التي قتلت حسن البهلوان ، وأن أزدمر قام بعرض رأسه بين الجنود (قطب الدين ، ص ٢٢ ب) ولكننا اعتمدنا على هذه الرواية لقربها من سياق الأحداث) .

عليهم [١] . وقد قيل إن الأمير أزدمر كان من بين المتآمرين لخوفه من بطش أويس باشا به[٢] ، ولكنه كان يرفض الخروج على طاعة العثمانيين والإستقلال بممتلكاتهم فى اليمن كما فعل حسن البهلوان ، ولذلك انضوى أغلب أفراد الجيش تحت لوائه فساعده ذلك على القضاء على المتمردين بسرعة كبيرة . ولا يهمنا كثيراً تحقيق اشتراك أزدمر فى هذه المؤامرة ، فقد أثبتت الأحداث فيما بعد مدى إخلاصه فى خدمة العثمانيين : ولكن يهمنا الإشارة إلى أن حركة حسن البهلوان هذه كانت تنم عن وجود تذمر عام بين بقايا المماليك فى اليمن لشعورهم بأنهم فقدوا مراكزهم ومصالحهم الخاصة بعد أن قبض العثمانيون على زمام الأمور به . وقد امتدت حركة التمرد المملوكى إلى « زبيد » وغيرها من المناطق التهامية حتى كادت أن تصبح حركة عامة لإعادة النفوذ المملوكى إلى ما كان عليه من قبل فبعد قتل أويس باشا قام أحد أتباع حسن البهلوان بالثورة فى « زبيد » واستولى على السلطة بها[٣] ، ثم امتدت هذه الثورة إلى باقى مدن تهامة وخاصة مدينة « بيت الفقية بنى عجيل » ، فأرسل الأمير ازدمر قوة من جنده إلى « زبيد » استطاعت أن تقضى على هذه الفتنة بعد أن استمرت اربعين يوماً ، ثم أمر الأمير أزدمر بقتل أربعة عشر شخصاً من زعمائها[٤]

وقد أكمل الأمير أزدمر جهوده الكبيرة لإنقاذ موقف العثمانيين فى اليمن بالقيام بعملين كبيرين ، أولهما : أنه أوفد رسولا إلى السلطان سليمان يخبره بقتل أويس باشا وماتلى ذلك من أحداث . ويطلب منه تعيين والى

(١) الكبسى : اللطائف السنية فى أخبار الممالك اليمنية (مخطوطة) ص ٢٧٨ .

(٢) نفس المرجع : ص ٢٨٠ .

(٣) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ص ٢٣ ب .

(٤) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ص ٧٢ أ .

جديد حتى تستتب الأمور فى اليمن . وثانيهما : أنه واصل الزحف إلى «صنعاء» ، وإلى مابعدها شمالا دون أن ينتظر وصول الوالى الجديد ، وذلك حتى يشغل الجيش فى حرب تصرفه عن النظر فى مشاكله الخاصة ، وحتى يتخذ من خطة الهجوم على الزيديين فى « صنعاء » خطة دفاع عن وجود العثمانيين فى اليمن . وكان ازدمر يرى أن البقاء فى « ذمار » ، أو الانسحاب إلى « زبيد » يعنى تعريض العثمانيين لهجمات اليمنيين بوجه عام ، كما يعنى ضياع الجهود الحربيـــة السابقة التى بذلها العثمانيون حتى استيلائهم على « ذمار » ، ولذلك فضل أزدمر مواصلة الحرب والتقدم إلى « صنعاء » .

وتعتبر الفترة التى تلت مقتل أويس باشا فى الحقيقة من أحرج الفترات التى مر بها العثمانيون عند بداية حكمهم فى اليمن ، ففى نفس الوقت الذى كان على العثمانيين أن يعملوا فيه على تنظيم صفوفهم وتطهيرها من عوامل الانقسام والتفرقة ، كان عليهم أن يحاربوا فى جبهتين فى اليمن ، جبهة شمالية ضد الزيديين بزعامة المطهر ، وجبهة جنوبية ضد القبائل اليمنية التى خرجت على طاعة العثمانيين فى جنوب اليمن فى هذه الأثناء واستولت على « عدن » نفسها يدى العثمانيين ورغم هذه الظروف المضطربة تمكن العثمانيون من التغلب عليها ومن بسط نفوذهم فى اليمن بعد قليل ، إذ واصل أزدمر زحفه إلى المناطق الشمالية وأحرز الانتصارات بها ، كما أرسل السلطان والياً جديداً إلى اليمن على رأس قوة برية بحرية استطاعت أن تستولى على « عدن » ثانية ، وأن تخمد الاضطرابات فى باقى الجهات الساحلية .

قاد الأمير أزدمر الحروب فى شمال اليمن كما أشرنا ، فتقدم إلى « صنعاء » وعسكر إلى القرب منها فى أول رجب سنة ٩٥٤ هـ (١٧ أغسطس ١٥٤٧م)[(١)] وعندئذ تقـــدم المطهر لملاقاته على رأس جيش كبير ، فدارت بين الطرفين

---

(١) أحمد بن يوسف فيروز : مطالع النيران «مخطوطة» ، ص٨ .

معركة كبيرة انهزم فيها المطهر لتخاذل أخيه شمس الدين وانسحابه من المعركة هو وبعض أتباعه[١] . وتقدم أزدمر إلى محاصرة « صنعاء » بعد ذلك مباشرة، وكان المطهر قد ترك بها حامية قوية تحت قيادة بن أخيه صلاح بن شمس الدين . وأعملت الخيانة أثرها فى سقوط « صنعاء » فى أيدى العثمانيين ، فقد فوجىء المحاصرون بها بدخول العثمانيين إليها من أحد أبوابها وهو « باب شعوب » فى فجر اليوم الثامن من محاصرتهم لها ، وذلك نتيجة خيانة قائد الجند المكلف بحراسة هذا الباب ، ولم يحاول العثمانيون اللحاق بالحامية الزيدية التى نجحت فى الفرار من « صنعاء » من باب آخر من أبوابها ، وذلك لانشغال العثمانيين فى أعمال السلب والنهب التى نجح أزدمر فى إيقافها بعـــد ساعات قليلة من دخول العثمانيين إلى صنعاء ، والتى صورها لنا المعاصرون بصورة قاتمة[٢] . وقد أثارت هذه الأحداث التفات كثير من المؤرخين المعاصرين والمتأخرين فتناولوها بالشرح والتعليق ، فقد قيل إن الأمير أزدمر هو الذى كان قد وعد جنوده بإباحة « صنعاء » لهم لمدة ثلاثة أيام لتشجيعهم على الحرب ، ولمعرفته بحقيقة أوضاع جيشه ولكنه عاد فأوقف أعمال السلب والنهب بعد الاستيلاء على المدينة مباشرة ، وذلك لما اشتهر به أزدمر من « التقوى والصلاح »[٣] . وكذلك علق أحد العسكريين الأتراك المتأخرين على هذه الأحداث بما يؤيد ما أشرنا إليه قبل ذلك بصدد تكوين جيوش ذلك العصر ، فقال إنه إذا أخذنا

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن «مخطوطة» ، ص ٢٤ أ .

(٢) عيسى بن لطف الله : روح الروح « مخطوطة » جـ ١ ، ص ٧٤ أ (وصف عيسى ابن لطف الله هـــذه الأحداث بقوله : « بل اشتغلوا بالنهب والسلب والقتل ، وقتل من أهالى صنعاء أحد عشر مائة ونهبت البيوت ، وأخذت النساء والبنين وباعوهن فى الأسواق، ومن الناس من زال عقله ، ومن النساء من قتلت نفسها ، واشتد فيها الخطب ، وكثر الضرب والسلب ، وفقد من أعيان صنعاء عــدة ، وأناخت عليهم الشدة إلى نصف نهار ذلك اليوم ») .

(٣) أحمد بن يوسف فيروز : مطالع النيران «مخطوطة» ، ص ٧ ب .

فى الاعتبار ما كان يتصف به « أوزدمير »[١] من صفات حميدة فإننا لانتوقع ماحدث من إراقة دماء أهالى « صنعاء » ومصادرة أموالهم وسبيهم واسترقاقهم، إلا أنه من الواضح أن تربية الجنود فى ذلك العصر كانت على ذلك المنوال — أى أنها كانت تبيح ماحدث — ومن الجلى أيضاً أنه كان من الصعب الحيلولة بينهم وبين القيام بما فعلوه . لذلك كان الأمر منوطاً بوجدان أوزدمير الذى تمكن بعد قليل من وقف تلك الأعمال[٢] .

وأهمية هذه الأحداث وماصاحبها من تفسيرات وتعليقات هى أنهاتوضح بعض الأسباب التى أدت إلى تذمر اليمنيين بوجه عام فيما بعد من الحكم العثمانى وثورتهم عليه حتى امتلأت فترة حكم العثمانيين فى اليمن بالصور العديدة من كفاح اليمنيين الوطنى ضد الوجود العثمانى فى جملته .

ولكن كان لاستيلاء العثمانيين على « صنعاء » أهمية أخرى ، وهى امتداد النفوذ العثمانى إلى قلب المنطقة الشمالية ، وكانت هذه الحقيقة تعنى من ناحية تثبيت أقدام العثمانيين فى اليمن بوجه عام ، كما تعنى من ناحية أخرى أن العثمانيين قد واجهوا لأول مرة مشكلات المنطقة الشمالية بناحيتيها الطبيعية والبشرية .

وقد تركزت مشاكل الأمير أزدمر بعد استيلائه على صنعاء فى أمرين : استحالة بقائه فى هذه المدينة الهامة — أو بالأحرى استحالة دفاعه عنها — إذا لم يعمل على مد نفوذه إلى سائر المناطق الشمالية ، والأمر الآخر هو بقاء روح المقاومة الزيدية ممثلة فى وجود المطهر فى « ثلاء » ، وذلك بالرغم من ضعف

---

(١) يذكر أزدمر فى المراجع التركية باسم « أوزدمير » ومعناها فى اللغة التركية « الحديد » .

(٢) أحمد راشد باشا : تاريخ يمن وصنعاء [باللغة التركية] ، حـ أ ، ص ٨٩ .

أسرة الإمام شرف الدين وتفككها وبالإضافة إلى ذلك فقد كان ميدان الحرب فى المنطقة الشمالية أكثر صعوبة بالنسبة للجيوش العثمانية عن الميدان فى الجنوب وذلك لوعورة تضاريس المنطقة الشمالية .

ورغم ذلك فقد كان تفكك أسرة المطهر هو العامل المباشر الذى شجع الأمير أزدمر على أن يواصل الاستيلاء على باقى أقاليم المنطقة الشمالية . فمن ناحية ، رأينا كيف كان انسحاب شمس الدين من المعركة التى دارت بين الأمير أزدمر وبين المطهر سبباً حاسماً من أسباب انهزام المطهر فى هذه المعركة وقد ازداد الأمر سوءاً بعد هذه الأحداث ، فقد عمل شمس الدين على الاتصال سراً بالأمير أزدمر لتحريضه على مواصلة الحرب ضد أخيه المطهر[1] وكذلك كان على ابن الإمام شرف الدين من ناحية ثانية يعمل على الاتصال بالعثمانيين للانتقام من أخيه المطهر الذى ضيع عليه فرصة ترشيحه للإمامة . وكان على بن الإمام قد انسحب إلى حصن « ذى مرمر » — القريب من « صنعاء » — بحجة زيارة أبنائه وذلك عندما علم بزحف أويس باشا من « زبيد » ثم رفض العودة إلى « صنعاء » للوقوف إلى جانب المطهر ضد العثمانيين . وواصل على بن الإمام انتقامه من أخيه فاتصل بالقبائل المحيطة بحصن « ذى مرمر » لتأليبها ضده ، كما شجع أزدمر فى « ذمار » على شن الحرب ضد أخيه المطهر وذلك بأن تعهد له بدفع مرتبات جنوده لمدة سنة إذا تقدم إلى « صنعاء »[2] . ومن ناحية ثالثة ، رفض عز الدين بن الإمام شرف الدين أمير « صعدة » التعاون مع أخيه المطهر فى صد العثمانيين عن « صنعاء » ، وذلك عندما رفض أمر أبيه الإمام بالعودة من نواحى « جيزان » إلى « صعدة » حتى يستعد لمواجهة العثمانيين. وكان عز الدين يعمل على مدّ سيطرته إلى تلك النواحى ، كما كان يعمل على تثبيت دعائم حكمه فى إمارته بالقوة ، فأساء معاملة الأهالى ، وأخذ الرهائن منهم ، وقد أدى هذا وذاك إلى إثارة اليمنيين والعثمانيين على السواء ضده[3] .

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح «مخطوطة» ، حـ أ ، ص ٧٤ .

(٢) المصدر السابق : نفس الصحيفة .

(٣) المصدر السابق : نفس الصحيفة .

ومثل الأشراف أيضاً عاملا هاماً من عوامل إنهيار المقاومة الزيدية الشمالية وذلك لموقفهم العدائى من الإمام شرف الدين وأبنائه عموماً . وقدسبق أن أشرنا فى التمهيد إلى حقيقة العلاقة بين الأشراف وبين الإمام القائم ، فأوضحنا أن هذه العلاقة كانت تقوم أحياناً على التنافس والتحاسد من أجل الاستحواذ على السلطة والنفوذ ، وقد انتهز الأشراف بوجه عام وأشراف الجوف بوجه خاص فرصة ضعف حكم الإمام شرف الدين ووجود العثمانيين فى « صنعاء » للنيل من الإمام ولتحقيق مصالحهم الخاصة واتضح موقف أشراف الجوف من الإمام شرف الدين وأبنائه منذ وقت مبكر ، فقد تراخى هؤلاء فى مساعدة المطهر أثناء هجوم العثمانيين على « صنعاء » حتى سقطت المدينة فى أيدى المهاجمين ، وعندئذ جاهروا بعدائهم الصريح ، وسعوا إلى الاتصال بالعثمانيين للتعاون معهم فى القضاء على حكم الإمام وأبنائه . وتبلور هـــذا التعاون فى اتفاق الأشراف مع الأمير أزدمر سراً على إعاقة تقدم عز الدين من « صعدة » إذا فكر هذا الأمير فى مساعدة أخيه المطهر فى « صنعاء » بل واتخذ التعاون بين الطرفين شكلا علنياً بعـــد التجاء المطهر إلى « ثلاء » ، فقد انسحب هؤلاء الأشراف من جيش عز الدين عندما رغب فى الهجوم على العثمانيين فى « صنعاء » ، كما أثاروا ضده قبائل منطقة « الظاهر » الواقعة إلى الجنوب من « صعدة » ، التى كانت تمثل الجزء الأكبر من جيشه . وقد انتهت الحروب التى دارت بين الأمير عز الدين وبين العثمانيين وحلفائهم أشراف الجوف بهزيمة عز الدين وأسره ، ثم نفيه إلى « استانبول » ، ولكنه مات أثناء الطريق فى ميناء « ينبع »[١] .

وهكذا يتضح إنقسام الزيديين على أنفسهم ، وظهور أكثر من زعيم

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن « مخطوط » ، ص ١٢٥ .

فى المنطقة الشمالية ، وذلك فى الوقت الذى أصبح فيه الإمام شرف الدين أضعف من أن يسيطر على زمام الأمور لكبر سنه . وقد أتاح هذا التفتت الذى شمل المنطقة الشمالية الفرصة أمام الأمير أزدمر لكى يوسع ممتلكات العثمانيين بها ، فقد استولى على أغلب جهات هـــذه المنطقة حتى « صعدة » شمالا خلال الحروب التى دارت بينه وبين عز الدين بن الإمام غير أن أعمال الأمير أزدمر فى المنطقة الشماليـــة لم تكن إلا جانباً واحداً من أعمال العثمانيين فى اليمن — كما أشرنا — فى تلك الفترة التى تلت الاضطرابات التى سادت صفوف العثمانيين بعد مقتل أويس باشا . فبينما كان الأمير أزدمر يواصل أعماله الحربية فيما يلى صنعاء شمالا ، كانت السلطنة تعمل من جانبها على إرسال وال جديد إلى اليمن على رأس قوة من الجند ، كما كان والى مصر يعمل — بناء على أوامر السلطنه أيضاً — على تجهيز الأسطول فى « السويس » لاستعادة « عدن » ، وللدفاع عنها — أثناء محاصرتها — حتى لا تقع فى أيدى البرتغاليين . وقد صاحب سقوط « صعدة » فى أيدى الأمير أزدمر فى ذى القعدة سنة ٩٥٤ هـ (ديسمبر / يناير ١٥٤٨ م) وصول الوالى الجديد لليمن فرهاد باشا إلى « زبيد »[١] . وقد اشتدت بهذا قبضة العثمانيين على زمام الأمور فى اليمن ، إذ عمـل فرهاد باشا على استعادة « عدن » وعلى إخمــاد الاضطرابات فى باقى الجهات الساحلية ، بينما واصل الأمير ازدمر جهوده للقضاء على المطهر فى « ثلاء » ، ولتثبيت أقدام العثمانيين فى المنطقة الشمالية . ولا شك فى أن ضياع « عدن » من أيدى العثمانيين كان الدافع الرئيسى الذى دفع العثمانيين إلى الإسراع بإرسال الوالى الجديد إلى اليمن ، وإلى الإسراع كذلك إلى إرسال قوة بحرية من « السويس » لمهاجمة « عدن » ، من ناحية البحر . وقد أرسل فرهاد باشا فور وصوله إلى « زبيد » قوة برية كبيرة لمحاصرة « عدن » من

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى «مخطوطة» ، ص١٢٤ أ .

ناحية البر . ولمعاونة الأسطول العثمانى الذى كان قد أحكم حصارها بحراً ، فسقطت المدينة بعد وقت قصير فى أيدى العثمانيين وذلك فى ١٤ محرم سنة ٩٥٥هـ (٢٤ فبراير ١٥٤٨ م) ، وقتل على بن سليمان الطولقى زعيم الثورة أثناء القتال، كما قتل ابنه محمد الذى كان قد تولى القيادة بعده(١) . وكان على ابن سليمان رئيس قبائل « الطوالق » بوادى « أبين » القريب من « عدن » والذى كان يتخذ مدينة « خنفر » مركزاً له ، قد استولى على « عدن » وطرد العثمانيين منها أثناء إنشغال الأمير أزدمر بحروبه فى الجهة الشمالية . وكان وجود العثمانيين فى « عدن » قد حرم هذه القبائل من مواردها المالية ، إذ اعتمد العثمانيون على قوتهم الذاتية فى حماية طرق القوافل الممتدة من « عدن » إلى داخل اليمن ، فحرموا بذلك هذه القبائل القوية من المرتبات السنوية التى كانوا يتقاضونها من سلاطين اليمن السابقين لضمان خضوع هذه القبائل لسيادتهم ، ولتأمين طرق القوافل .

وقد زاد من خطورة هذه الثورة بالنسبة للعثمانيين أن زعماءها كانوا قد اتصلوا بالبرتغاليين بعد قيامهم بالثورة ، فقد اتصل على بن سليمان بالبرتغاليين وطلب منهم النجدة لتقوية جانبه أمام العثمانيين . وقد رحب البرتغاليون من جانبهم بهذه الفرصة ، ولكن خاب أملهم لتأخر وصول أسطولهم إلى (عدن) ، إذ لم يصل إليها إلا بعد سقوطها فى أيدى العثمانيين . وكانت ثلاث سفن برتغالية قد تقدمت إلى عدن فى ٩ صفر سنة ٩٥٥هـ (٢٠ مارس ١٥٤٨م) قبل وصول باقى الأسطول البرتغالى إليها — وكان يتكون من ثلاثين سفينة — ففوجئت بوجود السفن العثمانية بميناء (عدن) وقد استطاعت السفن العثمانية أن تأسر سفينتين من هذه السفن الثلاث ، وتمكنت السفينة الثالثة من الفرار لتحذر باقى

---

(١) Serjeant, R B. : The Portuguese off the South Arabian Coast; p. 108, (Al-Shihri).

الأسطول البرتغالى الذى عاد بدوره إلى ميناء (كشن) العمانى . وكان أمير (كشن) قد استنجد بالبرتغاليين ضد بدر الطويرق سلطان (الشحر) الذى كان قد استولى على هذا الميناء الصغير. فقام البرتغاليون بمهاجمة الميناء واستولوا عليه بعد مقاومة ضعيفة[١] . وقد اتضح اهتمام العثمانيين بأحداث (عدن) فى أن والى مصر داود باشا أرسل بيرى باشا قابودان مصر نفسه على رأس الأسطول الذى توجه من (السويس) إلى (عدن) عندما علم بقيام الثورة بها ، كما كوفىء بيرى باشا بعد عودته إلى مصر مكافأة كبيرة تقديراً لأعماله الهامة فى (عدن)[٢] .

وامتد كذلك نشاط فرهاد باشا إلى (جيزان) فقد أرسل إليها قوة من جنده استطاعت أن تقضى على الثورة بها ، وأن تقتل الشريف ابن المهدى زعيم هذه الثورة ، وكان هذا الشريف قد نجح فى توحيد قبائل (صبيا) تحت لوائه ، وفى مهاجمة العثمانيين فى (جيزان) نفسها[٣] .

وهكذا يتضح كيف تم إنقاذ الوجود العثمانى فى اليمن بعد فترة وجيزة من مقتل أويس باشا ، وذلك بفضل قوة الدولة العثمانية فى ذلك الحين واهتمامها بدعم سيطرتها فى ولاية اليمن ، وبفضل قوة شخصية الأمير أزدمر . غير أنه يجب ألا ننسى أن ضعف الجبهة الزيدية وتفككها — وهى التى كانت تمثل الواجهة السياسية فى اليمن حينذاك — كان هو العامل الآخر الذى ساعد العثمانيين على تحقيق هدفهم فى اليمن ، وذلك كما اتضح من قبل .

وكيفما كان الأمر فقد رأى السلطان سليمان القانونى أن يكافىء الأمير

---

(١) Serjeant, R. B : Ibid, pp. 108 - 109. Al Shihri, 107a.

(٢) Haji Khalifah : The History of the Maritime Wars of the Turks, p. 71.

(٣) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية ، مخطوطة ، ص أ ، م أ ، ص ١٩ أ .

أزدمر على ما قام به من أعمال لإنقاذ موقف العثمانيين فى اليمن ، فأمر بعزل فرهاد باشا رغم صلاحيته الكبيرة ورضاه عنه حتى تتاح الفرصة لتولية الأمير أزدمر بدلا منه . وكان الأمير أزدمر قد أرسل كتخداه الى (استانبول) بعد استيلائه على (صنعاء) ليعرض على السلطان جهده فى المحافظة على النفوذ العثمانى فى اليمن ، بل وتوسيع هذا النفوذ وتدعيمه ، وليطالب له بولاية اليمن ، ولكن هذا الرسول لم يصل الى (استانبول) الا بعد صدور الأمر بتعيين فرهاد باشا والياً لليمن . وقد استجاب السلطان سليمان القانونى لطلب الأمير أزدمر تقديراً لأعماله ، وأصدر أمره بتعيينه والياً لليمن[١] ، فانفرد عندئذ أزدمر باشا بحكم اليمن اعتباراً من جمادى الأولى سنة ٩٥٦هـ (يونية ١٥٤٩م)[٢] .

وقد استطاع أزدمر باشا خلال فترة ولايته لليمن التى امتدت أكثر من ست سنوات أن يوحد أقاليم اليمن تحت السيطرة العثمانية ، فقد واصل حروبه فى المنطقة الشمالية وفى الجهات الأخرى المتعددة حتى تم له إخضاع اليمن للسيطرة العثمانية ، وكانت أطراف المعركة الدائرة فى الشمال فى هذه المدة قد تركزت فى طرفين فقط ، أزدمر باشا وتمتد سيطرته الى أغلب جهات المنطقة الشمالية حتى (صعدة) شمالا ، ويقف الى جانبه الأشراف وبعض أفراد أسرة الإمام شرف الدين وعلى رأسهم شمس الدين ، والطرف الثانى هو المطهر وتمتد سيطرته فى داخل ممتلكاته الخاصة فقط ، وتقع الى الشمال الغربى من (صنعاء) ، وهى منطقة معروفة بشدة وعورتها ، كما كان يتخذ حصن (ثلاء) المنيع مركزاً له . ورغم عدم تكافؤ الطرفين فى القوة

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى «مخطوطة» ، ص ٢٤ أ .

(٢) هذا التاريخ هو وصول أزدمر إلى اليمن وليس تاريخ صدور الأمر السلطانى بتعيين أزدمر باشا والياً لليمن . وقد حرصنا على التمسك بلقب أزدمر حتى نفرق بين فترتين من تاريخه فى اليمن ، الأولى عندما كان أميراً فقط ، والثانية بعد تعيينه والياً لليمن ومنحه لقب باشا .

العسكرية ، فلم يحقق أزدمر باشا نجاحاً يذكر أمام المطهر بل اضطر فى النهاية إلى عقد الصلح معه ، وإبقاء المطهر فى مكانته مع اعترافه بالسيادة العثمانية .

والحقيقة أن صمود المطهر فى المعارك التى دارت فى هذه الفترة هو الذى خلق له شهرته الواسعة التى تمتع بها فى تاريخ اليمن الحديث باعتباره رمز المقاومة اليمنية للحكم العثمانى ، فقد بدأ اليمنيون على اختلاف مذاهبهم يلتفون حوله ويربطون أنفسهم به . وقد بدأ الصدام بين أزدمر باشا والمطهر بعد إلحاق الهزيمة بعز الدين بن الإمام ونفيه مباشرة . فقد طلب أزدمر باشا من المطهر تسليم ماتحت يديه من حصون ، أو دفع مبلغ كبير من المال إلى العثمانيين وذلك حتى لايشن عليه الحرب[١] . ورغم ميل المطهر إلى دفع ماطلب منه من أموال لضعف مركزه حينئذ ، فقد تقدم أزدمر باشا إلى « ثلاء » لمحاصرتها ، وذلك لدفع الأشراف أو شمس الدين له ، ولإدراكه لخطورة المطهر على النفوذ العثمانى فى اليمن إذا ظل قائماً فى مواقعه الحصينة ، وقد اضطر أزدمر باشا إلى عقد الصلح مع المطهر بعد أول صدام وقع بين الطرفين حينئذ ، فعاد أزدمر باشا إلى « صنعاء » ، وبقيت أوضاع الطرفين كما هى . وكان أزدمر باشا قد حاصر حصن « الناصرة » أحد حصون المطهر القريبة من « ثلاء » ولكنه فشل فى الاستيلاء عليه بعد حصار دام أربعين يوماً ، وبعد أن كانت المدفعية العثمانية قد نجحت فى دك أسواره[٢] . وتعتبر هذه المعركة الصغيرة من أهم المعارك فى تاريخ اليمن فى هذه الفترة لما كان لها من أثر عميق فيما بعد ، فمن ناحية أدت هذه المعركة إلى تماسك اليمنيين بوجه عام بعد فقدانهم الثقة بأنفسهم لتوالى هزائمهم أمام ضخامة الجيوش العثمانية وقوة تسليحها ، ومن ناحية أخرى أدت إلى التفاف الأهالى حول المطهر . وقد أجاد أحد المعاصرين

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح «مخطوطة» ، ﺣ أ ، ص ٧٥ أ .

(٢) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن «مخطوطة» ، ص ٢٠ أ .

المتحمسين للمطهر فى وصف آثار هذه المعركة فقال « ولما علم الناس أن المطهر رد عن نفسه وكان يومه فى النصر كأمة جاءت إليه أفواجاً ، وكثرت الغارة على عسكر السلطنة من كل فج عميق وعل سحيق »[١] .

وتكرر انتصار المطهر بعد قليل فى إقليم «البون» — الذى يقع بين صنعاء وصعدة — على أزدمر باشا وحلفائه الأشراف الذين كانوا قد شجعوا أزدمر باشا على معاودة الكرة والهجوم على المطهر ، والذين كانوا يخشون انتقام المطهر منهم إذا بقيت الأوضاع هادئة بينه وبين أزدمر باشا وكان شمس الدين يكره كذلك أن يتم الصلح بين أزدمر باشا وبين المطهر « وحاول أن يعرقل عقد هذا الصلح ولكنه فشل لميل أزدمر باشا إلى العودة إلى « صنعاء » مؤقتاً بعد أن لمس بنفسه وعورة منطقة المطهر وعداء الأهالى هناك للعثمانيين . ورغم ذلك فلم يكن هذا الصلح إلا هدنة مؤقتة ، فقد وافق أزدمر باشا على طلب شمس الدين بإرسال قوة من الجند إلى أحد حصونه وهو حصن « شبام » للاقامة به . كما استولى أزدمر باشا كذلك على أحد حصون المطهر وهو حصن « بيت عز » ، وفى نفس الوقت قام أزدمر باشا بتحصين مدينة « عمران » وأقام بها حامية قوية وذلك لوقوعها على حدود أملاك المطهر . وكانت خطة هذين الحليفين — شمس الدين وأزدمر باشا — هى تطويق أملاك المطهر بالحاميات العثمانية القوية وذلك قبل الهجوم على « ثلاء » والحصون المحيطة به . وقد أحرز الحليفان بالفعل بعض الانتصارات الجزئية ، غير أن هذه الانتصارات لم تؤد إلى تثبيت أقدام العثمانيين فى هذه المنطقة إذ تسببت قسوة العثمانيين فى معاملة الأهالى هناك فى نفور هؤلاء منهم وعلى زيادة التفافهم حول المطهر . فقد قتل أزدمر باشا جنود حامية حصن « بيت عز » عن آخرهم بعد أن سلموا أنفسهم له . وتكرر وقوع مثل هذه الأعمال فى منطقة « شمات » ، فنهب

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح «مخطوطة» ح أ ، ص ٧٥ أ .

العثمانيون بيوت الأهالى وممتلكاتهم ، كما قتل أزدمر باشا بعض رؤساء المنطقة وأدت هذه الأحداث بدورها إلى انحياز المناطق المجاورة (لشمات) مثل (الحيمة) و (تيس) إلى جانب المطهر بعد أن كانت قبائل هاتين المنطقتين قد مالت إلى تسليم أقاليمها إلى العثمانيين[١] .

وقد انتهت هذه الحروب بانسحاب أزدمر باشا إلى (صنعاء) دون أن يحقق انتصارات هامة أمام المطهر . وتبرز هنا أهمية وعورة منطقة المطهر وأثرها فى صموده أمام العثمانيين ، فقد كان من الصعب على الجيوش العثمانية النظامية أن تكسب الحرب فى هذه المنطقة الوعرة ، كما كان يصعب نقل أو استخدام معداتهم الحربية الثقيلة بها ، ولذلك كانت خسائر اليمنيين فى الأرواح تقل كثيراً عن خسائر العثمانيين (لمعرفتهم بمواطن القتال فى تلك البلاد)[٢] .

وقد اضطر أزدمر باشا إزاء توزيع جيوشه فى أقاليم اليمن المختلفة ، وإزاء تزايد خسائره فى الأرواح نتيجة حروبه المستمرة ضد المطهر ، إلى أن يطلب مدداً عسكرياً كبيراً من السلطان سليمان للقضاء على المطهر ، ولتثبيت دعائم الحكم العثمانى فى اليمن[٣] . وكان أزدمر باشا يأمل أن يرسل له السلطان قوة كبيرة من الجند لتكون تحت إمرته حتى يواصل تنفيذ خطته الخاصة التى كان قد بدأها ، ولكن خاب أمله عندما جاء إلى اليمن من نافسه على الحكم وهو مصطفى باشا النشار على رأس قوة من الجند يبلغ تعدادها ثلاثة آلاف من المشاة وألف من الفرسان[٤] . وقد جاء مصطفى باشا النشار إلى اليمن بصلاحيات

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن «مخطوطة» ، ص ١٢٥ .

(٢) عيسى بن لطف الله : روح الروح «مخطوطة» ، ج ١ ، ص ٧٥ ب .

(٣) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية «مخطوطة» ج ١ ، م ١ ، ص ١٩٠ ب .

(٤) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى «مخطوطة» ، ص ٢٤ ب .

كبيرة وبخطط يختلف عن خطط أزدمر باشا فأدى هذا إلى تصادمهما وإلى فشلهما فى تحقيق غايتهما فى النهاية . وكان داود باشا والى مصر حينئذ — بناء على تكليف السلطان سليمان — قد جعـــل لمصطفى باشا حق اتخاذ الخطوات اللازمة لإقرار الأحوال فى اليمن بما فى ذلك التفاوض مع المطهر من أجل الصلح وتحقيق السلام ، كما أعطاه خطاباً موجهاً إلى المطهر على لسان السلطان يحمل فى طياته الترغيب والترهيب معاً ، ويدعوه فيه إلى الدخـول فى طاعة السلطنة العثمانية[1] . ويرجع السبب الذى دفع داود باشا إلى ترشيح مصطفى باشا النشار للقيام بهذه المهمة ، إلى ما كان يدعيه الأخير بأنه صاحب خبرة بشئون اليمن منذ أن كان والياً له كما أوضحنا من قبل. غير أننا نرى أن هذه الخبرة كانت ناقصة فى الحتمية لتغير أوضاع العثمانيين فى اليمن فى ولاية أزدمر باشا عما كانت عليه فى فترة ولايته هو ، ولذلك كان من الصعب عليه أن يدرك الظروف الجديدة التى طرأت على اليمن بعد زحف أويس باشا ثم أزدمر باشا إلى أقاليم اليمن الداخلية ، أو أن يدرك النتائج الجديدة التى ترتبت على هذه الظروف . وعلى هذا الأساس فقد كان من المتوقع أن يقع الخـلاف بين والى اليمن الذى يعيش الواقع الجديد ، وبين قائد المدد الجديد الذى ابتعد عن واقع اليمن الجديد لمدة ست سنوات بعد عزله منه ، وذلك لاختلاف وجهـة نظر كل منهما فى تفسير الأحداث حينذاك .

وقد وقع الخلاف بين أزدمر باشا ومصطفى باشا النشار بعـد وصول الأخير مباشرة إلى اليمن فى أواخر سنة ٩٥٨ هـ (ديسمبر ١٥٥١م) ، وذلك لما اتخذه مصطفى باشا من مواقف خاصة ، ولما أقبل عليه من إجراءات عملية قبل أخـذ رأى أزدمر باشا . فقد أحاط مصطفى باشا نفســه بمظاهر الأبهة والعظمة حتى ظن بعض الأمراء العثمانيين فى اليمن أنه الوالى الجديد

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى «مخطوطة» ، ص ٢٤ب

وأن عليهم لذلك توجيه اهتمامهم إليه . وازداد ضعف موقف أزدمر باشا فى اليمن نتيجة حرص مصطفى باشا على إشاعة بعض الأقوال التى تخدم أغراضه الخاصة ، وقد أشاع فور وصوله إلى اليمن أنه جاء يبغى الصلح والسلام مع المطهر ، وأن السلطان قد أمر بإجلاء القوات العثمانية عن اليمن وبنقلها إلى الحبشة لمحاربة البرتغاليين هناك[١] . بل وكانت بعض أقوال مصطفى باشا تصور أزدمر باشا بأنه هو الذى يبغى اشتداد حدة الحرب فى اليمن ، وأنه لولا جهوده الخاصة فى استانبول لتخفيف حدة تقارير أزدمر باشا عن اليمن إلى السلطان سليمان لأرسل الباب العالى جنوداً أكثر مما أرسلت معه ممن « يعجز قطر اليمن عن القيام بكفايتهم »[٢] .

وقد واصل مصطفى باشا اتخاذ المواقف الفردية التى تؤدى بدورها إلى إضعاف مركز أزدمر باشا أمام المطهر ، فقد اتصل عند وصوله إلى « تعز » بالمطهر ليدعوه إلى عقد الصلح ، وليسلم إليه رسالة السلطان الخاصة به ، وذلك قبل التشاور مع أزدمر باشا الذى كان يقيم فى « صنعاء » حينئذ ، وقد رحب المطهر بهذه الفرصة وأرسل رسولين من قبله ليعرضا على مصطفى باشا وجهة نظره ، وليؤكد له رغبته فى إقرار السلم وعقد الصلح ، فأحسن مصطفى باشا استقبالهما وخلع عليهما خلعاً نفيسة . وأثارت هذه الاتصالات أزدمر باشا ودفعته إلى القبض على رسول مصطفى باشا الذى اصطحب رسولى المطهر عند توجيهما إلى « ثلاء » لمواصلة مفاوضات الصلح مع المطهر ، وذلك عند (المنقب) التى كان أزدمر باشا يتخذها نقطة هجوم أمامية على مشارف أملاك المطهر[٣] . وقد أثارت خطوة أزدمر باشا بدورها مخاوف المطهر الذى أدرك حينئذ

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح «مخطوطة» ، جـ١ ، ص٧٦ أ .
(٢) أحمد بن يوسف فيروز : مطالع النيران «مخطوطة» ، ص١٠ أ .
(٣) عيسى بن لطف الله : نفس المرجع ، ص ٤٦ ب .

أختلاف موقف القائدين حول عقد الصلح ، فزاد هذا من حذره وشكه المعروفين عنه ، ومال إلى التريث فى عقد الصلح ، وفى إظهار رغبته فى السلام. وقد تأكد موقف المطهر هذا عندما رفض إرسال أحد أبنائه إلى « ذمار » لمقابلة مصطفى باشا بها ، فانتهز أزدمر باشا هذه الفرصة ليقنع مصطفى باشا — عند مقابلته فى هذه المدينة — بضرورة محاربة المطهر والقضاء عليه لأنه لا يؤمن جانبه ولا يوثق به .

وأخيراً اضطر مصطفى باشا إلى النزول على رأى أزدمر باشا بضرورة محاربة المطهر ، وذلك بعد أن فشلت المفاوضات والاتصالات فى تحقيق السلام . وقد زحف مصطفى باشا وأزدمر باشا معاً على رأس الجيوش العثمانية إلى « ثلاء » وذلك فى المحرم سنة ٩٥٩ هـ (ديسمبر / يناير ١٥٥٢ م) ، وبعد جهد عنيف لم يستطع القائدان إلا الاستيلاء على مدينة « ثلاء » فقط ، إذ صعد المطهر إلى قلعتها المنيعة وتحصن بها[١] .

وقد استمر حصار حصن « ثلاء » لمدة سبعة أشهر دون جدوى فاضطر العثمانيون إلى عقد الصلح مع المطهر ، وذلك بعد أن انتشر التبرم والملل بين الجند وبعد أن دب الخلاف ثانية بين مصطفى باشا وأزدمر باشا . وقد أرجع بعض المعاصرين من اليمنيين وقتذاك فشل العثمانيين فى القضاء على المطهر إلى اختلاف هذين القائدين وتنازعهما[٢] . ولكننا نرى أن الأسباب الرئيسية

---

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمنية « مخطوطة » ، ج ١ ، م ١ ، ص ١٩٢ أ — ب .

(٢) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى «مخطوطة» ص ٢٠ أ «ذكر قطب الدين أن تنازع أزدمر باشا ومصطفى باشا وتنافسهما حول الزعامة هو السبب فى فشلهما فى القضاء على المطهر حتى قال « وهكذا شأن كل كبيرين اجتمعا على مطلب واحد ، وكل أميرين جمعهما مشهد من المشاهد وفى الأمثال ما معناه أن زوايا المسجد يسع عشرة من الفقراء ولا يسع اقليم واسع أميرين من الأمراء» .

فى فشل العثمانيين هى الأسباب الخاصة باليمنيين أنفسهم مثل صمودهم وقدرتهم على الحرب ومثل تضاريس بلادهم الجبلية الوعرة . فقد استعمل العثمانيون كل الأساليب الحربية فى تحطيم مقاومة اليمنيين فى هذه المنطقة، فدكوا الحصون والأسوار بمدافعهم الضخمة ، وحفروا السراديب تحت الأرض للتسال إلى داخل هذه الحصون[١] ، ولكن هذه الأساليب وغيرها فشلت فى تحقيق أهدافهم . ويرجع هذا الفشل أيضاً إلى قوة شخصية المطهر وإلى براعته السياسية والحربية ، إذ حقق فى هذه الأثناء نجاحا سياسيا كبيراً ، فإلى جانب قدرته على ربط أهالى المنطقة به ، استطاع أن يضم إليه أعداء الأمس وهم الأشراف وخاصة أشراف الجوف وأشراف آل المنصور . وبلغ نجاحه السياسى ذروته حين جعل هؤلاء الأشراف يحاربون إلى جانبه ضد القوات العثمانية بعد أن كانوا يقفون إلى جانب العثمانيين ، فاستخدم أشراف الجوف فى الدفاع عن حصن « حضور الشيخ » ، كما دفع أشراف المنصور إلى التقدم إلى « ذيبين » ومناوشة العثمانيين بها حتى يشغل قواتهم فى جبهات متعددة[٢] . ولعبت التضاريس الوعرة كذلك دوراً هاماً فى إلحاق الفشل بالعثمانيين ، فمن ناحية قللت هـــذه التضاريس من فعالية الأسلحة الضخمة الحديثة التى أحضرها العثمانيون إلى اليمن وخاصة المدافع ، ومن ناحية أخرى فشل هؤلاء فى تركيز جيوشهم حول المراكز الحربية الهامة ، بل اضطروا إلى توزيع جيوشهم فى ثنايا هذه المنطقة مما أضعف من قدرتهم الهجومية . أما اليمنيون فقد نجحوا فى استخدام هذه التضاريس الوعرة فى تحقيق النصر لأنهم أدرى بمسالك جبالهم ، وأقدر على الحرب وسط هذه الصخور الصماء من الجيوش العثمانية النظامية . وقد ظل المطهر على اتصال دائم بقواته خارج حصن « ثلاء » ، كما ظل طوال مدة بقائه فى داخل هذا الحصن يحصل على ما يحتاجه من طعام ومؤن ، وذلك

---

(١) الكبسى : اللطائف السنية فى أخبار الممالك اليمنية «مخطوطة» ، ص٢٩٧ .

(٢) عيسى بن لطف الله : روح الروح «مخطوطة» ، جـ١ ، ص٧٧ أ — ب .

لمعرفة جنوده بدروب الجبال ، ومخابىء الطرق ، فأقنع هذا كله ازدمر باشا نفسه بعدم جدوى استمرار حصار المطهر فى « ثلاء »[١] .

ورغم قلة الضوء الذى ألقته المراجع المعاصرة على شروط الصلح الذى عقد بين المطهر وأزدمر باشا فقد ظل هذا الصلح دستوراً للعلاقات بين المطهر وبين العثمانيين لمدة طويلة . وقد قبل المطهر صراحة فى هذا الصلح الدخول فى طاعة العثمانيين . فوافق على أن تكون « السكة والخطبة » باسم السلطان العثمانى[٢] . وفى مقابل ذلك احتفظ المطهر بأملاكه الخاصة ما عدا مدينة « الطويلة » التى تنازل عنها للعثمانيين لأهميتها الاستراتيجية بالنسبة لهم ، فقد حرص العثمانيون على أن تكون تحت أيديهم لوقوعها على حدود أملاكه الجنوبية[٣] . ولم توضح المراجع المعاصرة الجانب المالى من الصلح ولكن يبدو أن هذا الصلح قد احتفظ للمطهر بخراج بلاده ، وذلك لأن العثمانيين لم يقرروا له مرتباً سنوياً ، كما لم يلتزم هو — طبقاً لشروط الصلح — بدفع مبلغ معين للعثمانيين وذلك كما حدث مع غيره من الأمراء اليمنيين .

والواقع أن هذا الصلح لم يؤد إلى استقرار الأوضاع فى اليمن استقراراً تاماً ، كما أنه لم يؤد إلى تنظيم العلاقات اليمنية العثمانية تنظيما نهائياً ، وذلك لأنه كان نتيجة لمواقف حربية وليس استجابة طبيعية لأوضاع قائمة . فمن

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح «مخطوطة» ، جـ١ ، ص٧٧ب . «وأشار عيسى ابن لطف الله إلى عدم نقص الطعام والمؤن فى حصن «ثلاء» أثناء محاصرته وذلك عند حديثه عن الصلح وعن توجه أزدمر باشا ومصطفى باشا إلى الحصن لمقابلة المطهر فقال « وعمل لهم المطهر الضيافة أحضر فيها أنواع المأكول وأنواع الفواكه فتعجب أزدمر من ذلك الحال مع طول الحصار » .

(٢) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن « مخطوطة » ، ص ١٢٩ .

(٣) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، جـ١ ، م١ ، ص ١٩٣ أ ، عيسى بن لطف الله : نفس المرجع والصفحة .

ناحية كان المطهر فى حاجة إلى عقد الصلح لضعف مركزه الحربى بالرغم مما أظهره من صمود ، ولتفرق أسرته من حوله بالرغم من نجاحه فى تكوين جبهة من الأشراف وقفت إلى جواره . ومن ناحية أزدمر باشا فكان مجبراً أيضاً على عقد هـذا الصلح لما واجهه من صعوبات حربية كما رأينا ، ولموقف مصطفى باشا النشار المعارض له . وكان أزدمر باشا يؤمن بضرورة القضاء نهائياً على المطهر حتى لا يمثل تهديداً مستمراً للنفوذ العثمانى فى اليمن إذا ظل قائماً فى مواقعه الحصينة ، وذلك لأن ازدمر باشا كان يقدر بعمق مقدرة المطهر الحربية والسياسية ، كما كان يدرك جيداً إمكانيات المطهر الكبيرة فى تأليب الأهالى ضد العثمانيين . أما مصطفى باشا النشار فكان لا يهمه غير هدوء الأحوال فى اليمن بأية وسيلة من الوسائل حتى يدعى فى استانبول أنه نجح فى أداء مهمته دون أن يكلف السلطنة أية أعباء حربية أو مالية جديدة .

ورغم هذا فقد كان هذا الصلح تتويجا لجهود أزدمر باشا من أجل بسط نفوذ العثمانيين على أقاليم اليمن المختلفة ، فقد استطاع أزدمر باشا عندئذ أن يدخل المطهر فى طاعة العثمانيين ، بعد أن ظل يمثل القوة السياسية المناوئة لهم حتى ذلك الحين ، كما كان يمثل القوة الباقية للإمامة الزيدية فى اليمن . وكان إبقاء المطهر فى أقاليمه مع اعترافه بالسيادة العثمانية لا يتعارض مع سياسة الدولة العثمانية العامة التى كانت لا تمانع فى وجود بعض الزعامات المحلية فى داخل إمبراطوريتهم ، وتمتعها ببعض مظاهر الاستقلال ، بشرط أن تعترف هذه الزعامات فى النهاية بالسيادة العثمانية عليها .

وقد أتاح هذا الصلح من ناحية أخرى الفرصة أمام أزدمر باشا لكى يوجه جهوده الحربية إلى باقى أقاليم اليمن المختلفة بعد أن هدأت الأحوال نسبياً فى الأقاليم الشمالية من اليمن . فبعد مغادرة مصطفى باشا النشار لليمن توجه أزدمر باشا إلى المثلث الجبلى الذى يقع إلى الجنوب الغربى من « صنعاء »

والذى يضم أقاليم « ريمة » و « عتمة » و « وصاب » ، واستولى عليه ، وذلك فى بداية سنة ٩٦٠ هـ (١٥٥٣/٢ م) ، ثم واصل زحفه جنوباً فقضى على الاضطرابات فى أقاليم « كحلان » و « حبيش » و « الشوافى »[١] . وأعطى أزدمر باشا اهتماما خاصاً للمناطق المحيطة « بعدن » وذلك لحماية ظهرها أمام ثورات الأهالى من ناحية البحر . وقد أقام أزدمر باشا حصناً بمدينة « خنفر » التى كان على بن سليمان يتخذها مركزاً له قبـل ثورته « بعدن » ووضع به حامية قوية وذلك لدعم السيطرة العثمانية فى المناطق الجنوبية بوجه عام[٢] . وفى هذه الأثناء وجه أزدمر باشا بعض قواته إلى بعض أقاليم المنطقة الشمالية خارج ممتلكات المطهر ، وذلك لخروج هذه الأقاليم على الطاعة العثمانية أثناء انشغال أزدمر باشا فى حروبه مع المطهر ، أو مع باقى القوى اليمنية .

ويجرنا الحديث عن هذه الحروب إلى الاشارة إلى أن الصلح الذى عقد بين أزدمر باشا والمطهر كان خاصاً بتنظيم العلاقة بين العثمانيين وبين المطهر فقط ولا يشمل باقى الأقاليم أو الفئات اليمنية ، ولذلك كان أزدمر باشا مضطراً إلى مواصلة الحرب فى باقى أقاليم اليمن لإخضاعها للسيطرة العثمانية .

أما من ناحية المطهر ، فلم يكن هذا الصلح يعنى أنه سيميل إلى الاستكانة أو الجمود وذلك بالرغم من هدوء الأوضاع نسبياً عقب عقد الصلح ، وبالرغم من نجاح أزدمر باشا فى إضعاف قوته إلى حد كبير خلال الحروب التى دارت بينهما . فقد عمل المطهر من جانبه على تقوية سيطرته فى داخل أقاليمه الخاصة ، وفى باقى الأقاليم الشمالية أيضاً . ولقد كان أزدمر باشا

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٢٧ ب .
(٢) الموزعى : الإحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان (مخطوطة) ص ١٠ ب .

مصيباً في تردده في عقد هذا الصلح لا لأنه كان لا يأمن جانب المطهر فحسب ، بل لأنه كان يؤمن بأن هذا الصلح سيؤدى حتماً إلى وجود حكومتين في داخل اليمن[١] . وقد تحقق هذا بعد إبرام الصلح مباشرة ، فقد ظل المطهر يعبر عن وجود الكيان الزيدى القوى في اليمن ، كما ظل الإمام شرف الدين — الذى كان يقيم حينئذ في « كوكبان » مع ابنـــه شمس الدين — يمثل بقاء الإمامة الزيدية ، وذلك بالرغم من امتداد السيطرة العثمانية على أنحاء اليمن . واتضحت خطورة بقاء هذه العصبيات تحت ظل السيادة العثمانية فيما بذلته هذه العصبيات من جهود للمحافظة على وجودها الخاص ، فقد اتجه المطهر عندئذ إلى توطيد سيطرته في داخل إقليمه الخاص[٢] ، كما اتجه أيضاً إلى توسيع رقعة جبهته بتقريب بعض الأشراف إليه ، وكذلك حرص الإمام شرف الدين على بقاء الإمامة الزيدية التقليدية وبدأ يعمل على ترشيح من يراه صالحاً لها ، وقد ظل الإمام شرف الدين يؤمن بعدم صلاحية ابنه المطهر للإمامة رغم نجاحه الحربى أمام أزدمر باشا ، ولذلك طلب الإمام في أوائل سنة ٩٦٠ هـ (١٥٥٣/٢ م) من الأشراف آل المؤيد اختيار أحدهم للإمامة ، فاستقر رأى هؤلاء على ترشيح أحمد بن الحسين بن المؤيد وأعلنوا إمامته في « صعدة »[٣] . وكان آل المؤيد من الأشراف الأقوياء أصحاب النفوذ الواسع في المنطقة الشمالية ، وظهر منهم أكثر من إمام في فترات سابقة وخاصة في عهد الطاهريين ، كما كان هؤلاء الأشراف قد وقفوا إلى جانب المطهر أثناء محاصرة العثمانيين له في « ثلاء » .

ولم يستقر الأمر طويلا للإمام الجديد أحمـــد بن الحسين المؤيدى في

---

(١) أحمد راشـــد باشا : تاريخ يمن وصنعاء (باللغة التركية) ، جـ ١ ، ص ١٠٢ — ١٠٣ .

(٢) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ ١ ، ص ٧٧ ب .

(٣) يحيى بن الحسين أنباء أبناء الزمن في تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٢٩ .

« صعدة » ؛ إذ هاجمه أشراف الجوف وطردوه منها مما دفعه إلى التوجه إلى أزدمر باشا للاستنجاد به . وقد رأى أزدمر باشا أن ينتهز فرصة النزاع بين هؤلاء الأمراء على السلطة ليدعم النفوذ العثمانى فى « صعدة » بعد أن كان قد امتد إليها هذا النفوذ أثناء حروبه مع عز الدين بن الإمام شرف الدين . وقد زحف أزدمر باشا إلى « صعدة » فاستسلمت أمامه دون حرب لهرب الأشراف منها قبيل وصوله إليها[1] ، فجعلها أزدمر باشا مركزاً رئيسياً للعثمانيين فى أقصى شمال اليمن ، وجعل لحليفه الإمام أحمد بن الحسين ولاية المناطق الجبلية التى تلى « صعدة » شمالا . وقد اضطر ازدمر باشا بعد وقت قصير إلى إرسال جيش آخر إلى « صعدة » لاستعادتها من أيدى خليفة الإمام أحمد بن الحسين الذى انقلب على العثمانيين بعد قيام الخلاف بينه وبين والى «صعدة» العثمانى .وكان المطهر — بذكائه السياسى — يعمل باستمرار على استمالة الأشراف عموماً إليه لتقوية جانبه . فرحب لذلك بالإمام أحمد بن الحسين عندما لجأ إليه وعينه حاكماً لحصن «الجاهلى» الذى يقع بالقرب من « حجة » . وكان المطهر هو الذى سعى إلى التقرب من هذا الإمام قبل ذلك حتى يضمن انضمامه إليه — وذلك بالرغم من تعارض مصالحهما السياسية حينئذ — إذ سارع إلى الاتصال سراً به عندما علم بزحف الجيش العثمانى إلى « صعدة » ، وذلك لتحذيره قبل وصول العثمانيين إليه[2] .

وفى نفس الوقت نجح المطهر فى استمالة إمام آخر ممن ظهروا فى ذلك الوقت وهو الإمام الحسن بن حمزة الذى كان قد أعلن امامته فى « شطب » — إلى الجنوب الغربى من « صعدة » — وذلك فى خلال سنة ٩٦٠ هـ (١٥٥٣/٢م) ،

---

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، جـ١ ، م ١ ، ص ١٩٢ ب — ١٩٣ ا .

(٢) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٢٩ ،

أى فى نفس الوقت تقريباً الذى تم فيه إعلان إمامة الإمام أحمد بن الحسين فى «صعدة» . وقد استمر الإمام الحسن بن حمزة يدعو القبائل الشمالية اليه بعض الوقت ولكن لم يحقق نجاحاً يذكر ، ثم وقع الصدام بينه وبين المطهر عندما حاول أن ينشر دعوته فى داخل ممتلكات المطهر الخاصة ، فانتهى هذا الصدام بهزيمته . ولم يحاول المطهر عندئذ الانتقام منه ، بل قربه إليه وحدد له مرتباً شهرياً ، ولكنه توفى بعد أيام معدودة من عقد الصلح معه[١] . غير أن نجاح أعمال المطهر طوال مدة بقاء أزدمر باشا فى اليمن بعد عقد الصلح ، كان محدوداً فى داخل مجال ضيق ، كما كان محدود الأثر أيضاً ، وذلك لقوة قبضة ازدمر باشا على زمام الأمور فى البلاد .

وأخيراً ، فلم يطل بأزدمر باشـــا المقام فى اليمن إذ عزل من ولايته فى عام ٩٦٢ هـ (١٥٥٥ م)[٢] بعد أن نجح فى فرض النفوذ العثمانى فى أقاليمه المختلفة ، وبعد أن نجح فى توحيد اليمن تحت السيطرة العثمانية لأول مرة . وكان عزل أزدمر باشا من ولاية اليمن بناء على طلبه ، وذلك عندما علم أن مصطفى باشا النشار يسعى لدى الباب العالى ليتولى أمر اليمن مرة ثانية بأنه هو الذى يسعى إلى إثارة الحرب فى أرجائه . وكان لدى المسئولين العثمانيين حينئذ ميل إلى أن حل مشاكل اليمن حلا سلميا لشعورهم بضخامة خسائرهم البشرية والمالية به ، ولذلك مالوا إلى ادعاءات مصطفى باشا النشار بأنه أقدر على التفاهم مع المطهر وغيره من اليمنيين بحجة خبرته السابقة بأحوال اليمن أثناء ولايته الأولى له . وقد عبر قطب الدين عن إحساس العثمانيين بضخامة خسائرهم فى اليمن فقال « سمعت المرحوم محمد جلبى دفتر دار مصر يفاوض المرحوم داود باشا فى حدود سنة ٩٥٣ هـ (١٥٤٧/٦ م) فقال ما رأينا مسبكا مثل اليمن لعسكرنا ، كلما

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٢٩ .
(٢) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ١٢٦ .

جهزنا إليه عسكراً ذاب ذوبان الملح ولا يعود منه إلا الفرد النادر ، ولقد راجعنا الدفاتر فى ديوان مصر من زمن إبراهيم باشا (الصدر الأعظم) إلى الآن فرأينا قد جهزنا من مصر إلى اليمن فى هذه المدة ثمانين ألفاً من العساكر ، ولم يبق منهم فى اليمن ما يكمل سبعة آلاف نفر »[١] .

غير أن عزل أزدمر باشا من ولاية اليمن لم يكن انتقاماً أو غضباً منه ، فقد أحسن السلطان سليمان القانونى استقباله عند وصوله إلى استانبول ، وقدره حق قدره ، ثم ولاه أمر ميناء « سواكن » الذى يقع على الساحل الإفريقى المواجه لليمن ، وذلك بناء على طلبه حتى يبسط السيطرة العثمانية فى الأقاليم الحبشية . وكان أزدمر باشا قد فضل العودة إلى استانبول عن طريق « سواكن » ومنها إلى مصر وليس عن طريق « جدة » كما هى عادة ولاة اليمن . فلمس بنفسه أهمية « سواكن » الاستراتيجية ، وأهمية تدعيم السيطرة العثمانية فى الأقاليم المحيطة بها . وقد وافق السلطان سليمان على اقتراح أزدمر باشا بفتح هذه الأقاليم ، فأمر والى مصر بتجهيز جيش كبير يتكون من ثلاثة آلاف جندى للزحف مع أزدمر باشا براً من مصر إلى « سواكن » لفتح الأقاليم النوبية والحبشية وضمها إلى الامبراطورية العثمانية ، فتحولت « سواكن » منذ ذلك الحين من نيابة صغيرة إلى ولاية كبيرة يتولى أمورها وال خاص ، وليس نائباً من مصر[٢] ، وذلك بعد أن ضم إليها ميناء « مصوع » وغيرها من الأقاليم التى

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٢٠ ب — ٢١ أ (ذكر قطب الدين هذه الرواية أثناء حديثه عن مبالغات سليمان باشا الخادم بعد عودته إلى استانبول ويرى قطب الدين أن سليمان باشا قد زج بالعثمانيين فى ميدان صعب لا طائل تحته وذلك نتيجة ادعاءاته الكثيرة الكاذبة التى دفعت العثمانيين إلى ارسال جيوش كثيرة الى اليمن دون فهم صحيح لواقع الأمور به . ويلاحظ أن حضور ابراهيم باشا الى مصر كان فى سنة ٩٣٠ هـ (٣ / ١٥٢٤ م) ، وهو الذى أرسل الحملة البحرية الصغيرة حينذاك الى اليمن تحت قيادة خير الدين حمزة وسلمان الرومى . وأن الرواية التى يشير اليها كانت فى سنة ٩٥٣ هـ (٦/١٥٤٧ م) .

(٢) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ١٨ أ — ٢٨ ب .

افتتحها أزدمر باشا هناك حتى وفاته فى سنة ٩٦٧ هـ (٥٩/١٥٦٠ م) .

وكيفما كان الأمر ، فقد دخلت البلاد اليمنية بفضل شجاعة أزدمر باشا وكفاءته فى حوزة الدولة العثمانية ، وأصبح أزدمر أول فاتح لليمن[١] . غير أنه يجب الإشارة الى العوامل المختلفة التى ساعدت أزدمر باشا على بلوغ هذا الهدف ، والتى سبق الإشارة إليها فى خلال هذا الفصل .

أولا : قوة الدولة العثمانية حينذاك وقوة السلطان القائم على أمورها وهو السلطان سليمان القانونى . وقد انعكست هذه القوة فى مساندة الدولة لأزدمر باشا فى اليمن ،فقام السلطان بتولية أزدمر أمر اليمن مكافأة له على أعماله فى إنقاذ موقف العثمانيين به كما قام بإرسال جيش كبير إلى اليمن تحت قيادة مصطفى باشا النشار يتألف من ثلاثة آلاف جندى من المشاة وألف من الفرسان ، وقد بقى هذا الجيش تحت قيادة أزدمر باشا بعد عودة مصطفى باشا النشار من اليمن[٢] . فساعده ذلك على فتح باقى أقاليم اليمن ، وتوحيدها تحت السيطرة العثمانية . هذا إلى جانب قوة أسلحة الجيوش العثمانية وحداثتها — وخاصة النارية — بالنسبة لتلك الأسلحة البدائية القليلة التى كانت بأيد اليمنيين حينذاك .

ثانياً : قوة شخصية أزدمر باشا وعدله وإحسانه إلى الأهالى وإلى صغار الجند ، وذلك بالإضافة إلى شجاعته ومهارته الحربية . وقد أطنب المعاصرون وقتذاك من المؤرخين اليمنيين والأتراك على السواء فى وصف محاسنه وتعلق الأهالى والجنود به رغم كثرة ما أثاره من حروب فى اليمن[٣] .

---

(١) أحمد راشد باشا : تاريخ يمن وصنعاء (باللغة التركية) ، جـ١ ، ص ١٠٥ .

(٢) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص٢٧ب — ٢٨ أ .

(٣) ذكر قطب الدين [ص٢٨ أ] بعض صفات أزدمر باشا فقال « وعاهد العربان وعاقدهم عقوداً مبرمة ، وأحبته أهل اليمن ، واختبروا صدق كلامه وجربوه ، فوجدوه ناجحاً فى أقواله ، صادقاً فى مواعيده ومآله . . . سلك معهم بالسيرة الحسنة والسلوك مع الرشى التام من الرعايا وميل الفقراء والمشايخ إليه فى المساجد والزوايا ، وشكر العسكر من حسن مقابلته ولطف مكالمته ومجاملته ، وطرح عنه التكلف فى مأكله وملبسه ، ولزم التقشف التام فى مقامه ومجلسه . . . » .

ثالثاً : ضعف القوة السياسية فى اليمن حينذاك وهى التى كانت تتمثل فى جبهة الإمامة الزيدية . وقد رأينا مدى ضعف هذه الجبهة وتفككها فى خلال هذا الفصل وذلك بالرغم من صمود المطهر فى النهاية داخل حصن « ثلاء » ، إذ كان هذا الصمود لا يمثل غير موقف فردى فقط من جانب المطهر ، وليس تعبيراً عن قوة هذه الجبهة وتماسكها .

رابعاً : ضعف الأحوال السياسية والاقتصادية بوجه عام فى اليمن حينذاك، نظراً لكثرة الحروب التى خاضها الشعب اليمنى — فأنهكت قواه — منذ أواخر عهد الطاهريين، ونظراً للحصار البحرى البرتغالى للسواحل اليمنية .

وأخيراً فقد تحقق للعثمانيين لأول مرة فى تاريخهم فى اليمن توحيد هذه البلاد تحت سيطرتهم على يد أزدمر باشا .

الفصل الرابع

تدهور السيطرة العثمانية

٩٦٣ – ٩٧٥ هـ

١٥٥٦ – ١٥٦٨ م

إن أهم ما يميز تاريخ اليمن الحديث طوال العهد العثمانى (١٥٣٨ – ١٦٣٥م) هو كثرة ما حدث بين العثمانيين واليمنيين من شد وجذب ، أو بالأحرى هو عدم استقرار الأوضاع أو هدوء الأحوال فى اليمن لفترات قصيرة محدودة إذ تدهورت السيطرة العثمانية فى اليمن بعد عزل أزدمر باشا بقليل ، وبدأت ممتلكات العثمانيين فى الإنكماش بالتدريج – ولكن فى خطوات سريعة – حتى إنه لم يبق فى أيديهم بعد حوالى عقد من الزمان إلا « زبيد » والمناطق التهامية التى تصل بينها وبين الساحل . ولفترة الإنكماش هذه أهمية خاصة ، إذ أن أحداث هذه الفترة تحمل فى طياتها – كما أنها تبرز لنا – العوامل الحقيقة التى تؤثر فى تاريخ اليمن الحديث بصفة خاصة ، فضلا عن تاريخ اليمن العام بصفة عامة . ودون أن نسبق استعراض الأحداث فيمكن أن نقول إن تاريخ اليمن فى هذه الفترة كان عبارة عن تفاعل مستمر بين عامل طبيعى يشمل الموقع والتضاريس الجبلية ، وعامل بشرى يتمثل فى القوى البشرية المحلية ، كما يتمثل فى نوع الحكومة القائمة ومدى قوتها سواء كانت هذه الحكومة تتألف من عناصر وافدة مثل العثمانيين ، أو كانت نابعة من نظم وأوضاع يمنية مثل حكومة الأئمة الزيديين بعد إخراج العثمانيين من اليمن . وإذا انتقلنا من هذا التعميم إلى شىء من التخصيص فإنه يمكن القول بأنه إذا كان العثمانيون يمثلون فى هذه الفترة العامل الخارجى ، فإن العامل الداخلى كان يتمثل فى أهميـــــة الموقع والتضاريس الجبلية ، وفى أهمية القوى البشرية

وتنوع عناصرها وقد يبرز بسهولة فى هذا الفصل أثر العامل الداخلى بشعبه المختلفة فى أحداث هذه الفترة، ولكن تبرز الصعوبة الحقيقية عند توضيح أثر العامل الخارجى الذى مثله العثمانيون، وذلك لما قد يبدو هناك من تناقض بين قوة الدولة العثمانية العامة حينذاك، وبين ما حدث من تدهور للسيطرة العثمانية فى اليمن. فنحن إذا ألقينا نظرة سريعة على أوضاع العثمانيين العامة من ناحية، وعلى أوضاعهم فى اليمن من ناحية أخرى، سنجد أن الدولة العثمانية قد بلغت قمة قوتها وعظمتها فى نفس الفترة التى كاد أن يخرج فيها اليمن من أيدى العثمانيين. وسنوضح فى خلال هـــذا الفصل حقيقة هذا التناقض بين حالة الدولة العامة وبين حالتها فى اليمن، غير أن ما نرمى إليه من وراء الإشارة إليه هنا هو أن دراسة هذا التناقض بجوانبه المختلفة توضح لنا مدى حساسية أوضاع اليمن، ومدى سرعة استجابة هذه الأوضاع للمؤثرات المختلفة التى قد تكون أقل أثراً أو وضوحاً فى أوضاع ولايات عثمانية أخرى مثل مصر التى يغلب عليها الطابع الزراعى.

وهذه الحساسية الخاصة بأوضاع اليمن تكشف بجلاء أن النظرة السريعة فى الدراسات التاريخية إنمـا هى نظرة خادعة فى واقع الأمر، فرغم قوة وعظمة الدولة العثمانية فى عهد السلطان سليمان القانونى (١٥٢٠ — ١٥٦٨م) فقد حدث فى عهده بعض الأخطاء التى كان لهـا آثار بالغة العمق فى ضعف الدولة وإنهيارها فيما بعد، رغم أن قوة شخصية السلطان سليمان، وقوة بناء الدولة حتى ذلك الوقت كانتا كفيلين بإخفاء هذه الأخطاء، وبإخفاء آثارها إلى ما بعد وفاته فى سنة ١٥٦٦ م بعشرات السنين. ورغم صحة هذه الحقيقة التاريخية — وهى بقاء الدولة العثمانية على قوتها مدة طويلة بعد وفاة السلطان سليمان — فقد اتضح فى اليمن منذ وقت مبكر بعض الإنعكاسات لمـا أصاب نظم الدولة من خلل ولما جد فيها من مظاهر وأحداث، كما أصبح اليمن من أولى الولايات التى ثارت على الحكم العثمانى وذلك باعتبارها إحدى ولايات

الأطراف — بالنسبة للدولة العثمانية — التي تكن في العادة أكثر ميلا من غيرها من الولايات إلى الإستقلال لبعدها عن مركز هذه الدولة، كما أنها تكون في العادة أيضا أسرع تأثراً بالعوامل الخارجية.

الواقع أنه لم يكن هناك تناقض حقيقي بين ما حدث في اليمن من إنكماش للنفوذ العثماني، وبين واقع الدولة حينذاك من حيث القوة والإتساع، وأن الإنكماش الذي حدث في اليمن كان إنعكاساً تلقائياً للتغييرات التي طرأت على نظم الدولة وأوضاعها في عهد السلطان سليمان، كما كان في نفس الوقت إنعكاساً لأوضاع محلية خاصة باليمن. ولكن يلاحظ أن الإنكماش الذي أصاب النفوذ العثماني في اليمن كان لا يعتبر دليلا على إنهيار الدولة العثمانية حينذاك أو حتى على ضعفها، إذ استطاعت هذه الدولة أن ترسل حملة قوية إلى اليمن بعد قليل لتستعيد نفوذها به وذلك كما سنوضح في الفصل التالي.

وكان إنتقال الدولة العثمانية من البداوة إلى الحضارة[1] في عهد السلطان سليمان أو بالأحرى من البساطة إلى التعقيد والتعليق بالمظاهر، من العوامل الهامة التي طرأت على نظم الدولة في ذلك الوقت، ومن أهم العوامل في نفس الوقت التي أدت إلى ضعف الدولة فيما بعد، ولذلك يجدر الإشارة إلى بعض مظاهر هذا الإنتقال. وما ترتب عليه من نتائج. ونظراً لإتساع الدولة وزيادة ثرواتها فقد مال السلطان سليمان إلى الترف، وبالغ في الإهتمام بمظهره وسبل معيشته، ثم أخذت هذه التقاليد الجديدة تتسرب إلى رجالات الدولة وغيرهم من عامة موظفيها. ولقد ترتب على التناقض الواضح بين ضآلة المرتبات العثمانية بوجه عام، وبين تعلق الموظفين بمظاهر الحياة

---

(١) أحمد جودت باشا: تاريخ جودت (مترجم)، جـ ١، ٩٥.

الجديدة ، أن اتجه هؤلاء إلى ظلم الأهالى وإلى ابتزاز الأموال بالطريق غير المشروعة[١] . وأحدث السلطان سليمان تقليداً آخر خاصاً بتعيين المقربين إليه فى المناصب العليا ، دون أن يكون هؤلاء المقربون من بين المستحقين لتولى هذه المناصب ، أو ممن تدرجوا فى المناصب العسكرية والإدارية اللازمة لاكتساب الخبرات العريضة ؛ فقد عين السلطان سليمان رئيس خدمه[٢] إبراهيم صدراً أعظم ، فأعطى بذلك أول مثل سىء فى تعيين ذوى الحظوة فى هذا المنصب الذى كان لا يصل إليه إلا من أدى الخدمات الطويلة للدولة[٣] . حقيقة قام السلطان بقتل الصدر الأعظم إبراهيم باشا عندما تعدى نطاق وظيفته وحاول الاستئثار بشئون الدولة ، غير أن تعيينه فى هذه الوظيفة الكبيرة دون أن يمر بالوظائف العسكرية والإدارية الأدنى ، كان سابقة خطيرة أمام خلفاء السلطان سليمان الذين أسرفوا فى تعيين الندماء والمقربين إليهم فى الوظائف الهامة دون أن تكون لهم الخبرة اللازمة لتولى هذه الوظائف فأدى هذا إلى اضطراب الأمور فى الدولة العثمانية[٤] .

وقد اضطربت النظم العثمانية بعض الشىء فى أواخر عهد السلطان سليمان على يد صهره الصدر الأعظم رستم باشا[٥] ؛ إذا بدأ فى عهد رستم

---

(١) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت (مترجم) ، جـ١ ص١١٥ .

(٢) كان الصدر الأعظم إبراهيم باشا بمثابة السكرتير الخاص للسلطان سليمان قبل توليته الصدارة العظمى ، وكان يلقب « أغا خاص أوطه باشى » أى رئيس الأغوات الداخليـة (داخل السراى) ، وكان يقوم بمهام السلطان الخاصة مثل إلباسه ملابسه ولذلك كان أقرب المقربين منه (على حمت : أبو الفتح محمد الثانى وحياته العملية ، تعريب محمد احسان ، هامش صفحة ١٨٠) .

(٣) Hammer. J. : Histoire de l'Empire Ottoman, Tome 6, p. 283.

(٤) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت (مترجم) جـ١ ، ص ١٠٣ .

(٥) ذكر هامر (Tome 6. p. 144) أن رستم باشا قد عين صدراً أعظم لأول مرة فى سنة ١٠٤٤ ثم عزل فى سنة ١٠٥٣ ، وتولى للمرة الثانية فى سنة ١٠٥٥ وظل محتفظاً بمنصبه حتى وفاته فى سنة ١٠٦٦ م .

باشا تدخل « الحريم » فى الشئون العاملة للدولة ، وذلك لأن رستم باشا كان يعتمد على قرابته بالإمبراطورة روكسلانة -- والدة زوجته والزوجة المحببة الى قلب السلطان سليمان -- فى الاحتفاظ بمنصبه ، وفى تنفيـــذ أغراضه . وكذلك رحب رستم باشا بتدخل « روكسلانة » فى شئون الحكم اعتقاداً منه بأن فى ذلك تدعيما لمركزه، غير أن هذا التدخل كان البادرة المبكرة التى أدت الى أن يصبح الصدور العظام فيما بعد ألعوبة فى أيدى « الحريم » ، وأتباعهن من الخدم[١] . واستغل رستم باشا من ناحية أخرى حاجة السلطان سليمان الى المـال لمواجهة نفقات دولته المتزايدة فلجأ الى الطرق المختلفة فى جمع المـال لإرضاء حاجة السلطان . ومن هذه الطرق أنه أخذ فى تعيين غير الجديرين فى الوظائف الحكومية ليزيد من ايرادات الدولة وذلك عن طريق مايقدمونه من هدايا ، كما منح رستم باشا التزام الأراضى وغيرها من مصادر الثروة لمن يدفع المزيد دون مراعاة لأى شيء آخر ، فعمل هؤلاء بالتالى على ابتزاز الأموال من الأهالى بكل الوسائل لتعويض ما دفعوه الى الخزانة العامة ، ولتكوين الثروات الخاصة[٢] . وأخيراً فقد أضطر السلطان سليمان ازاء حاجته الى المال أيضاً الى قبول «الهدايا» من رجالات دولته عند تعيينهم فى المناصب الجديدة وكان لهـــذه « الهدايا » آثارها البالغة الخطورة على كيان الدولة فيما بعد لأنها كانت فى حقيقتها عبارات عن « رشا » للحصول على الوظائف العالية أو حتى على أية خدمات من الدولة[٣] .

ولقد أدت هذه الإجراءات وغيرها الى أن بدأ الاضطراب يدب فى

---

(١) Hammer J. J : Histoire de l'Empire Ottoman, Tome 6. pp. 367—368

(٢) Ibid. : p. 284.

(٣) Lybyer, A.H, : The Government of the Ottoman Empire in the time of Suleiman the Magnificent, p 179.

نظم الدولة العثمانية وأوضاعها ، إلا أن قوة شخصية السلطان سليمان ، وقوة نظم الدولة وتماسكها حتى ذلك الحين قد أخفى آثار هذه الإضطرابات إلى أمد بعيد كما أشرنا بعد وفاة السلطان سليمان . غير أن حساسية أوضاع اليمن الخاصة كما أشرنا فى بداية هذا الفصل قد جعلته أسبق من غيره إلى الثورة ، فقد ترتب على هذه التغييرات التى طرأت على نظم الدوله العثمانية ، أن تولى أمر اليمن بعد أزدمر باشا بعض الولاة الضعفاء الذين أهملوا شئون الرعية ، وجعلوا همهم الأول هو الحصول على الثروات الضخمة للاعتماد عليها فى الوصول إلى المناصب الرفيعة فى العاصمة العثمانية نفسها ، أو لتولى حكم بعض الولايات الأخرى الأكثر أهمية مثل مصر .

وقد سادت الإضطرابات اليمن بعد عزل أزدمر باشا مباشرة . وذلك لسوء سياسة الولاة من ناحية ، ولتفشى الإضطراب بين الأمراء والجنود العثمانيين من ناحية أخرى ، فقد ترتب على سوء سياسة مصطفى باشا النشار أن فقد العثمانيون أهم حليف لهم فى اليمن وهو شمس الدين بن الإمام شرف الدين الذى كان أزدمر باشا قد نجح فى جذبه إليه طوال مدة إقامته فى اليمن . وكان مصطفى باشا النشار قد نجح فى أن يتولى حكم اليمن للمرة الثانية لإدعائه بأنه أكثر خبرة بشئون هذه الولاية ، ولكن ثبت فشله منذ أن وطأت قدماه أرض اليمن . فقد أرسل إليه شمس الدين ابنه محمداً لاستقباله عند وصوله إلى اليمن ، ولكن محمد بن شمس الدين ابنه عاد إلى أبيه لينصحه بالابتعاد عن هذا الوالى والإنضمام إلى جبهة عمه المطهر . ونحن لانعرف كثيراً عما دار فى المقابلة التى تمت بين مصطفى النشار ومحمد بن شمس الدين وذلك بالرغم من وضوح نتيجتها ، فقد وقف محمد بن شمس الدين معه أياماً يسيرة وعرف من أحواله وأموره ماغير خاطره وأدخل الوحشة فى قلبه ، ورجع إلى والده إلى كوكبان وأفهمه ماشاهد فلتات لسان مصطفى باشا وصفحات وجهه ، ورأى رأياً لوالده وهو الجنوح

لمصالحة المطهر والميل إلى جانبه فتم الصلح بعد ذلك»[١] . ولقد كان من نتائج سياسة مصطفى باشا هذه أن أصبح محمد بن شمس الدين من أكبر أعوان المطهر كما سنرى فيما بعد. وخاصة بعد وفاة والده شمس الدين فى أواخر سنة ٩٦٣هـ (١٥٥٦/٥م)[٢] أى فى نفس الساعة التى حدث فيها هذا النفور . وكان وقوع هذا النفور يعنى أن مصطفى باشا النشار لم يستطع استغلال الخلافات الأسرية التى كانت تسود العلاقات بين أفراد أسرة الإمام شرف الدين كما فعل أزدمر باشا من قبل، فبدأ المطهر منذ ذلك الحين ينتهز هذه الفرصة ليجمع حوله شتات أسرته .

ولم يقتصر الأمر عند حدود سياسة الوالى نفسه ، بل وقعت بعض الإضطرابات بين صفوف الجنود والأمراء ايضاً ، فمن ناحية ، تمرد جنود حامية « صنعاء » على أميرهم حاكم المدينة وحاولوا قتله ، وذلك بعد عزل أزدمر باشا مباشرة . وتفاقم هذا التمرد بعد ذلك بشكل خطير ، إذا أغلق الجنود أبواب « صنعاء » وهاجموا بيوت السناجق بها كما قتلوا أحدهم . وكادت أعمال السلب والنهب تعم المدينة لولا وقوف أهالى « صنعاء » إلى جانب الوالى ضد هؤلاء المتمردين ومساعدتهم له فى القضاء عليهم خوفاً من أن تمتد أيدى هؤلاء إلى بيوتهم وممتلكاتهم[٣] .

ومن ناحية أخرى ، حدث خلاف بين كبار الأمراء العثمانيين فى اليمن بعد وفاة مصطفى باشا النشار كاد أن يؤدى إلى قيام الحرب بين صفوف العثمانيين أنفسهم . وكان مصطفى باشا النشار قد أوصى عندما اشتد به المرض بأن يتولى دفتر دار اليمن زمام الأمور به حتى يتم تعيين

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ١ ، ص٧٧ب — ٧٨ أ .
(٢) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٢٩ .
(٣) أحمد بن يوسف فيروز : مطالع النيران (مخطوطة) ، ص٢٥ أ — ٢٥ ب .

الوالى الجديد ، ولكن كاشف « تعز » نافسه على الرئاسة ، فقبض على مقاليد الحكم فى اليمن وكاد أن يتحول النزاع بين هذين الأميرين إلى صدام مسلح لولا ميل الدفتر دار إلى السلام وقبوله للأمر الواقع[١]

وتتمثل خطورة هذه الأحداث الجزئية وأمثالها فى أنهـا هزت أمام أعين اليمنيين صورة البناء السياسى والعسكرى الذى شيده أزدمر باشا ، مما شجع اليمنيين فيما بعد على الثورة على العثمانيين ، وعلى تحطيم هذا البناء الكبير . وكان اليمنيون وغيرهم من معاصريهم وقتذاك يعتقدون أن العثمانيين قوة لا تقهر . ولذلك كان خوف اليمنيين المعنوى من هذه القوة يمثل سبباً رئيسياً من أسبـاب هزائمهم المتوالية أمام أزدمر باشا كما رأينا فى الفصل السابق .

وربما كان من الممكن القضاء على هذه الاضطرابات إذ تولى أمر اليمن حينئذ وال قوى بعد مصطفى باشا النشار الذى لم تطل مدة ولايتـــه أكثر من ستة أشهر[٢] ، ولكن توالى على حكم اليمن بعد ذلك عدد من الولاة الضعفاء الفاسدين الذين حولوا ولايتهم لليمن إلى مجرد وسيلة لتحقيق المصالح الخاصة ولابتزاز الأموال وجمعها .

وأول هؤلاء الولاة هو مصطفى باشا قرة شاهين الذى تولى أمر اليمن لمدة أربع سنوات دون أن تؤثر عنه أية أعمال هامة ، سوى اشتهاره بحبه لجمع المال ، وبتضييقه على الجنود ، وبعدم الإنفاق على الأعمال العامة[٣] .

---

(١) عبد الصمد الموزعى : الإحسان فى دخول اليمن تحت عدالة آل عثمان (مخطوطة)، ص ١٠ ب — ١١ أ .

(٢) وصل مصطفى باشا النشار إلى اليمن فى ٢٠ صفر سنة ٩٦٣ هـ (٤ يناير ١٥٥٦م) ولكنه مرض بعد قليل ثم توفى ودفن فى زبيد فى ١٠ شعبان ٩٦٣ هـ (يونيه ١٥٥٦م) .

(٣) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٢٩ أ .

وقد حقق مصطفى قرة شاهين غرضه من وراء هذه السياسة المـــالية ، وهو أنه عند عزله من اليمن « جهز من الخزائن والهـدايا ما لا يحد ولا يوصف »[١] .

وحققت هذه الأموال والهدايا بدورها أغراض مصطفى باشا الخاصـة ، إذ ساعدته على تولى حكم مصر بعد عزله من اليمن مباشرة . ولم يكن غريباً أن يتبع مصطفى باشا فى مصر نفس السياسة التى كان يتبعها فى اليمن ، وهى السياسة التى وصفها أحد المؤرخين المصريين بقوله ، وجاءت له التولية وهو مقيم بمصر ، فجعل الرشوة شعاره والظلم دثارة مع عدم إنصاف الرعايا »[٢] .

وقد ازداد الأمر سوءاً فى اليمن على يد محمود باشا الذى تولى الحكم به بعد عزل مصطفى باشا قرة شاهين ، ويعتبر محمود باشا نموذجاً بارزاً لتلك الفئة من الحكام والمسئولين التى بدأت فى الظهور والانتشار فى الدولة العثمانية منذ أواخر عهد السلطان سليمان القانونى والتى كانت تتصف بكل الصفات التى يتصف بها الوصوليون والانتهازيون الذين يعملون على تحقيق أغراضهم الخاصة بمختلف الوسائل الملتوية غير المشروعة .

وقد حدد محمود باشا سياسته فى اليمن تحديداً دقيقاً فى أمرين اثنين :

أولها : عمل على إبقاء الأوضاع القائمة فى اليمن كما هى وخاصة فى المنطقـة الشمالية ، فحرص على عدم التصادم مع المطهر ، بل أرسل إليـه عقب وصوله إلى « صنعاء » مباشرة فى أواسط جمـــادى الآخرة سنة ٩٦٨ هـ

---

(١) أحمد بن يوسف فيروز : مطالع النيران (مخطوطة) ، ص ٢٦ أ

(٢) محمد بن أبى السرور البكرى : المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية (مخطوطه) ، ص ٧٩ .

(فبراير / مارس سنة ١٥٦١ م) أحد مندوبيه لإقرار قواعد الصلح التى كان المطهر قد عقدها مع أزدمر باشا ، فوافق المطهر على ذلك وأحسن وفادة هذا المندوب[١] .

ثانيهما : عمل على جمع أكبر قدر ممكن من المال ليتمكن بذلك من تحقيق غرضه الشخصى وهو تولى حكم مصر . وكان حرصه على التهادن مع المطهر جزء من خطته للإثراء السريع حتى لا تضيع جهوده فى حروب داخلية تعطله عن تحقيق باقى أطماعه خارج اليمن .

وبدأ محمود باشا فى تنفيذ هذه السياسة منذ اللحظة الأولى التى وصل فيها إلى اليمن ، فقد تعمد أن يدخل إلى اليمن من ميناء « جيزان » عند أقصى شمال الساحل اليمنى حتى يعطى الأمراء والمسئولين العثمانيين فى اليمن أثناء سيره إلى « زبيد » فرصة إعـــداد الهدايا الكبيرة التى عليهم أن يقدموها إليه عند استقباله[٢] . وعند وصوله إلى « زبيد » . أمر بقتل « رئيس دار سك النقود واستولى على أمواله الوفيرة بتهمة التلاعب بالعملة وغشها بغلبة النحاس على الفضة »[٣] . وكانت هذه تهمة باطلة فى الحقيقة وذلك بالرغم من تناقص قيمة العملة فى اليمن عن مثيلاتها فى القاهرة واستانبول نتيجة انقاص نسبة الذهب أو الفضة بها . ولكن مسئولية ذلك كانت تقع على عاتق ولاة اليمن السابقين لطمعهم فى الحصول على هذه المعادن النفيسة من أقرب الطرق[٤] .

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ص ١٣٠ .

(٢ و ٣) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ص ٣٠ أ .

(٤) وصف قطب الدين سوء السياسة المالية فى اليمن فى عبارة هامة عنـد حديثه عن قتل رئيس دار سك النقود فقال « ولم يكن ذلك بفعل إلا البكلاربكية (أى الولاة) السابقة الطامع وجمع المال فان الدينار الذهب السلطانى الذى وزنه الآن درهم وقيراطان فهو فى الروم (الأناضول) بستين عثمانياً ، وفى مصر بثمانين عثمانياً وصار فى اليمن بثلثماية عثمانياً ، ولايزال يتزايد إلى أن صار الدينار بألف عثمانى وصار وفر ذلك مأكلا للبكلاربكية » .

وتابع محمود باشا تنفيذ سياسته للحصول على الأموال والثروات بقتله أحد الأمراء اليمنيين غدراً وهو على بن عبد الرحمن بن محمد النظارى أمير إقليم « عبدان » الذى يقع شرقى وسط الهضبة اليمنية والذى يشتهر بوفرة منتجاته الزراعية والحيوانية . وكانت أسرة على بن النظارى تتوارث حكم هذا الإقليم منذ عهد السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهرى ، كما عملت على الاحتفاظ بحكم هذا الإقليم رغم إختلاف السيادات التى فرضت نفسها فى اليمن فى هذه الفترة ، فدخلت فى طاعة الإمام شرف الدين عندما إمتدت سيطرته إلى « عدن » جنوباً ، ثم دخلت فى طاعة العثمانيين بعد إمتــــداد سيطرتهم إلى شمال اليمن . وكانت هذه الأسرة من ناحية أخرى ، تتهافت على إرضاء الحكومات القائمة حتى تظل محتفظة بحكمها وممتلكاتها الإقطاعية ، وقد اتضح هذا بجلاء فى مسارعة على النظارى إلى تقديم الهدايا إلى مصطفى باشا النشار حين جاء إلى اليمن على رأس المدد العسكرى لمساعدة أزدمر باشا كما أوضحنا ، وذلك قبل أن يتولى حكم اليمن للمرة الثانية[1] . ورغم هذا كله فقد فشل النظارى فى إرضاء محمود باشا الذى طمع فى الحصول على جميع ثروات النظارى الوفيرة فبدأ فى تلفيق التهم له حتى يتخلص منه وحتى يستولى على تلك الثروات . وكان النظارى يحتفظ بكنوزه وثرواته فى حصن « حب » الذى كان مشهوراً بحصانته ومناعته — وهو يقع شرقى « تعز » — والذى كانت أسرة النظارى تتخذه ملجأ لها . كما تعتبره مخزناً أمينا لحفظ ثرواتها التى تراكمت على مر السنين منذ أيام الطاهريين .

وقد أعلن محمود باشا الحرب على النظارى بعد أن اتهمه بالخروج على طاعة السلطنة ، ولكنه لقى معارضة كبيرة من جانب بعض الأمراء العثمانيين الذين كانوا يدركون حقيقة أغراضه من وراء إعلان الحــــرب على

---

(١) أحمد بن يوسف فيروز : مطالع النيران (مخطوطة) ، ص ١٢ أ — ١٢ ب .

النظارى ، كما كانوا يدركون براءة النظارى من هذه التهمة التى ألصقت به . وقد رأى هؤلاء الأمراء أن يكتفى محمود باشا بزيادة الأموال المقررة على النظارى إذا كان هناك ضرورة لذلك ، ولكن محمود باشا أصر على إعلان الحرب ، ثم تخلص من معارضة هؤلاء الأمراء له بقتل اثنين من زعمائهم وبالاستيلاء على أموالها[1] .

وقد فشل محمود باشا فى الإستيلاء على حصن « حب » بالقوة ، وذلك بعد أن حشد أغلب القوات العثمانية فى اليمن حول هذا الحصن ، وبعد أن تولى بنفسه قيادة المعركة ضد النظارى[2] . ولجأ محمود باشا عندئذ إلى الخديعة بعد أن استمر حصار حصن «حب» حوالى سبعة أشهر دون جدوى . فأرسل إلى النظارى أحد حلفائه من زعماء الإسماعيلية ، وهو محمد بن عبد الله الداعى ، ليعرض عليه عقد الصلح بشرط أن يسلم نفسه للعثمانيين، وأن يتنازل لهم عن إقليم « بعدان » بما فى ذلك حصن « حب » مقابل تعيينه أميراً لإقليم آخر من أقاليم اليمن . ورحب النظارى بعقد الصلح رغم قسوة هذه الشروط نظراً لضيقه بالحرب وبطول مدة الحصار ، غير أن محمود باشا أمر بقتله غدراً هو وبعض أتباعه عندما قاموا بتسليم أنفسهم اليه ، وذلك بعد أن تعهد بالمواثيق المؤكدة بأنه سيحافظ على حياتهم . وفى نفس الوقت كان محمود باشا قد أعد جماعة من الجند للهجوم على حصن « حب » والاستيلاء على ما به من ثروات بعد أن غادره النظارى ومعه كبار قادته[3] . وكان لنكث محمود باشا بأيمانه وغدره بالنظارى أثره السيء فى نفوس اليمنيين بوجه عام ، اذ

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص٣٠ب — ٣١ أ .
(٢) أحمد بن يوسف فيروز : مطالع النيران (مخطوطة) ص٢٩ أ .
(٣) وصف قطب الدين (ص ٣١ ب) ضخامة غنائم محمود باشا بعد الاستيلاء على حصن «حب» بقوله « وكانت أموالا كثيرة وجواهر نفيسة . وأخبرنى حسين بك دفتر دار اليمن إذ ذاك أنه من جملة ما شاهد كرسياً من الذهب مكللا بالجواهر الثمينة لا يوجد فى خزائن =

كانت هذه الفعلة خيانة قبيحة وغدراً فاحشاً صارت بها العرب لا تستأمن الأتراك ولا تصدقها فى إيمانها وعهودها ، وصاروا يسمون أمثال هذا الغدر : « غدراً محمودياً »[1] . وقد واصل محمود باشا خطته لتصفية ثروات أسرة على النظارى بقتل صهره الذى كان يقيم حينئذ فى مدينة « إب » وأستولى على أمواله وكان هذا الرجل من أغنى تجار اليمن، كما كان يمتلك بعض السفن الخاصة التى كانت تقوم بنقل التجارة بين اليمن والهند[2] .

ويبدو أن محمود باشا كان قد ضاق ذرعاً بالبقاء فى اليمن بعد أن ظل به ما يزيد عن أربع سنوات تمكن خلالها من أن يجمع الثروات الضخمة التى تساعده على القفز إلى المناصب الأعلى ، وبعد أن تيقن — كما قال أحد المعاصرين متهكما رغم أنه كان معروفاً بتحيزه للعثمانيين — أن باقى حصون اليمن ليس بها ذهباً أو فضة مثل حصن « حب » ولكنها مليئة بمعدات الحرب والدفاع فقط[3] . وقد نجحت مساعى محمود باشا فى استانبول فعزل عن اليمن فى جمادى الآخرة سنة ٩٧٢ هـ (يناير / فبراير سنة ١٥٦٥ م) وذلك بحجة أنه أصيب بمرض عضالى فى قدمه ، وأنه يود أن يقيم فى مصر لعلاج هذا المرض[4] . وكذلك نجحت مساعى محمود باشا بعد وصوله إلى استانبول بقليل فى أن يتولى حكم مصر ، فاستمر والياً لها حتى قتل على يد مجهول بعد أقل من عامين أى فى ٢٤ جمادى الأولى سنة ٩٧٥ هـ (٢٦ نوفمبر

... اللؤلؤ . وعصى مرصعة بالجواهر من ذخائر عامر بن عبد الوهاب ، ومن النقود القديمة المسكوكة من الذهب والفضة حمولا ، ومن كتب العلم والفقه على مذهب الشافعى وعلم الحديث والمصاحف الكبيرة المذهبة شيئاً كثيراً » .

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٣١ ب .

(٢) نفس المرجع : ص ٣١ أ .

(٣و٤) ابن داعر الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، جـ١ ، م١ ، ص ١٩٤ أ .

سنة ١٥٦٧م)[١] . وسيتضح فيما بعد بالتفصيل الدور الكبير الذى لعبه محمود باشا فى تاريخ اليمن أثناء ولايته لمصر ، ولكن يهمنا أن نشير إلى بعض الأمور التى توضح أسلوب تلك الفئة من المسئولين الذين اتصفوا بالوصولية والانتهازية فى تحقيق أطماعهم الخاصة ، والتى توضح فى نفس الوقت بعض الخلل الذى أصاب أجهزة الدولة العثمانية ونظمها فى ذلك الحين .

أولا : اعتمد محمود باشا على أساليب التضليل والادعاءات الكاذبة فى إخفاء أغراضه الخاصة وليبرهن أمام السلطان سليمان وأمام المسئولين فى « استانبول » على مدى إخلاصه للسلطنة وتفانيه فى خدمتها . فبعد أن قتل النظارى وبعض رجاله أمر بأن تقطع رؤوسهم وبأن تسلخ وتملأ تبناً ثم ترسل إلى استانبول ليؤكد أمام السلطان ادعاءه بأنه بذل جهوداً كبيرة للقضاء على النظارى بعد أن خلع طاعة السلطنة ، وأثار الاضطراب فى اليمن . وقد أتت هذه الادعاءات الكاذبة أكلها عند السلطان سليمان ، فأرسل إليه الخلع الثمينة تقديراً لجهوده ، كما أمر بترقية جميع الذين طالب محمود باشا ترقيتهم من أعوانه وأمرائه[٢] .

ثانياً : تقاعس مصطفى باشا قرة شاهين والى مصر حينئذ . وهو المسئول بحكم وظيفته عن أوضاع العثمانيين فى البحر الأحمر بوجه عام — عن كشف ادعاءات محمود باشا أمام المسئولين فى « استانبول» رغم معرفته بحقيقة أوضاع اليمن منذ أن كان والياً له ، ورغم إدراكه لغرض محمود باشا الحقيقى من وراء قتله للنظارى ، وذلك حتى لا يثير عليه حقد محمود باشا وغضبه « ولأنه علم أن لا فائدة من المعارضة »[٣] ، ولقد كان السبب الحقيقى لموقف مصطفى باشا

(١) زين الدين النحريرى : الدر المنضد فى مدح الوزير محمد (مخطوطة) ، ص ٢٣ .

(٢) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٣٢ أ .

(٣) المصدر السابق : نفس الصفحة .

من محمود باشا هو وحدة المصلحة أو وحدة السياسة والأهداف بين الرجلين ، أو بمعنى آخر هو خوف مصطفى باشا من أن يسعى محمود بدوره إلى كشف سياسة مصطفى باشا فى مصر التى لم تكن خيراً من سياسته فى اليمن .

ثالثاً : تعمد محمود باشا أن ينثر الهدايا والرشاوى على طول الطريق إلى « استانبول » حتى يحيط نفسه بهالة من الهيبة والعظمة ، وحتى يمهد الطريق أمامه لتحقيق أغراضه الخاصة عند وصوله إلى استانبول . وتحقيقاً لهذا الغرض ، تعمد محمود باشا أن يمر « بكوتاهية » حيث يقيم الشاه زاده سليم[1] ، وقدم إليه الهدايا الجمة التى أكسبته ثقته ورضاه[2] . وتدل هذه الزيارة المتعمدة على وصولية محمود باشا ، إذ كان سليم هو المرشح لتولى الحكم بعد أبيه السلطان سليمان الذى كان قد كبر سنه حينذاك إلى حد كبير .

رابعاً : وضع محمود باشا كل ثقله فى « استانبول » حتى نجح فى أن يعين والياً لمصر ، فقدم كل مايملك من تحف وأموال السلطان وكبار رجال دولته ، بل واقترض الكثير من الأموال ليواصل تقديم الهدايا إلى رجالات الدولة حتى نجح أخيراً فى مسعاه . وقد بهرت كثرة ونفاسة هدايا محمود باشا كلا من السلطان والصدر الأعظم كما كانت موضع إعجابهما ودهشتهما[3] ، ولذلك لم يكن غريبا أن يتم تعيين محمود باشا واليا لمصر بعد وقت قصير من وصوله إلى « استانبول » .

خامسا : كان ثمن تولية محمود باشا حكم مصر غاليا للغاية ، إذا كان يعنى فى حقيقة الأمر خرقا لتقليد اتبعته الدولة العثمانية بالنسبة لولاة مصر ، كما يعنى أن هذا المنصب الهام — وهو ولاية مصر — أصبح مباحا لكل من يدفع

---

(١) كان أبناء السلاطين يلقبون بالشاه زادات ومفردها الشاه زاده .

(٢و٣) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٣٥ ب .

الثمن الأعلى ، فقد كان هذا المنصب وقفا على أتباع السلطان المقربين إليه — أى الذين تربوا فى داخل السراى السلطانى — وذلك لضمان صلاحية الوالى ، وليكون موضع ثقة السلاطين ، ولكن تعيين محمود باشا واليا لمصر دون أن يكون من بين هؤلاء المقربين قضى على هذا التقليد ، كما أضعف من هيبة هذا المنصب وأهميته . وكان محمود باشا يعلم جيداً بوجود هذا التقليد ، ولكنه كان يعلم فى نفس الوقت بوجود التيارات الخفية التى بدأت تسرى فى جسد الدولة العثمانية منذ ذلك الحين ، فأصر على الوصول إلى غرضه مستغلا الثغرات التى أصابت نظم الدولة[1] .

سادسا : كانت النتيجة الطبيعية لوصول محمود باشا إلى هذا المنصب عن طريق تقديم الهدايا والرشاوى إلى المسئولين فى الدولة هو وقوع المظالم فى مصر ، وقد اتضح هذا منذ اللحظة الأولى التى وصل فيها محمود باشا إلى ميناء الإسكندرية ، إذ حرص على إجبار الأمراء والأعيان على تقديم الهدايا إليه وذلك لكى يعوض ما أنفقه فى استانبول من أموال[2] .

---

(١) ذكر قطب الدين (ص٣٢ب) الحديث الذى دار بينه وبين محمود باشا أثناء مروره بجدة بعد عزله من اليمن ، وهو حديث هام يدل على تفكير محمود باشا السياسى وفهمه للأوضاع السياسية المعاصرة وقتذاك ، وقد جاء فى هذا الحديث « ثم ذكر لى أنه لابد من ولاية مصر ، فقلت أنتم أهل لذلك وزيادة ولى خاطرى استبعاد هذا الأمر فان مصر منذ فتحت ما أعطاها السلطان إلا لخاصة مماليكه الذين خرجوا من عنده من السراى وتربوا بين يديه ؛ وهذا ما هو من الذين خرجوا من عنده من السراى ؟ ففهم من وجهى عدم قبول ذلك من حذقه وكان فطناً ذكياً فقال لى ، الدراهم مراهم والنقود تحل العقود والبرطيل حكيم يوصل إلى المقصود ، وقد رأيت فى منام صادق أنى طرت من شرفة قصر تعز ووقعت على شرفة قلعة مصر ولا تأويل لذلك إلا ولايتى مصر وسأذكرك ذلك» .

(٢) محمد بن أبى السرور البكرى : المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية (مخطوطة) من ٨١ — ٨٤ (اهتم أبو السرور كثيراً بدراسة عهد محمود باشا فى مصر ، فوصف ظلمه وسفكه للدماء واغتصابه للأموال ، واهتمامه باحاطة نفسه بمظاهر الفخامة والعظمة . وتؤكد هذه الدراسة ما ذكره المؤرخون اليمنيون عن حكم محمود باشا فى اليمن) .

وهكذا تتضح لنا الملامح الرئيسية لسياسة محمود باشا أبرز ولاة فترة انكماش السيطرة العثمانية فى اليمن ، كما تتضح أيضا الأعراض التى بدأت تصيب بناء الدولة العثمانية منذ ذلك الحين . ولقد كان من المتوقع ، كما كان رد الفعل الحتمى لسياسة محمود باشا الفاسدة ، هو تدهور السيطرة العثمانية فى اليمن وانهيارها ، وذلك لضعف العثمانيين الذاتى هناك من ناحية ، ولقيام اليمنيين بالثورة على هذه السيطرة من ناحية اخرى ، ومن الطريف أن نذكر أن محمود باشا نفسه قد تنبأ بوقوع الاضطرابات فى اليمن ، فقال بعد عزله أثناء مروره بالحجاز أنه « سيخرب اليمن ويقع بها فتن عظيمة ، وأنى رأيت ذلك فى واقعات لاتكاذب معى[1] » .

وقد صدق حدس محمود باشا إذ عمت الثورات اليمن بعد عزله بقليل ، واستطاع المطهر ابن الإمام شرف الدين الذى تزعم ثورات ذلك الحين أن العثمانيين من جميع أقاليم اليمن ماعدا « زبيد » وبعض المناطق التهامية المحيطة بها . وقد تضافرت العوامل العديدة فى إشعال الثورة فى اليمن فى ذلك الوقت ، قد أضعف محمود باشا من شوكة العثمانيين بقتله لبعض الأمراء العثمانيين من أصحاب الخبرة الطويلة بأوضاع البلاد وأحوالها ، وكذلك أدت سياسة الولاة وكبار الأمراء إلى اضطراب أحوال الجنود وإلى إضعافهم مما أدى بالتالى إلى اتجاه هؤلاء الجنود إلى ظلم الأهالى . وقد أشار قطب الدين فيما يشبه التقرير السياسى إلى انخفاض قيمة العملة وانهيار الأوضاع الاقتصادية عامة فى ذلك الوقت عند حديثه عن انهيار أوضاع العثمانيين فى اليمن حينذاك ، وهو مما يوضح لنا الأسباب الحقيقية لقيام اليمنيين بالثورة على الحكم العثمانى . وقد اشار فى هذا التقرير إلى ضعف قيمة مرتبات الجند فضلا عن انخفاض قيمة العملة حتى قال : « وذلك لايفى

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٣٢ ب .

بثمن القهوة التي يشربها (الجندى) فضلا عن ساير حوايجه وضرورياته ، فشرعوا (أى الجنود) فى ظلم الرعايا لضيق معاشهم ، وصارت الحكام تتغافل عن انصاف الرعية من العسكر لعلمهم بشدة ضرورة العسكر إلى أن دهكوا الرعية وأضعفوها ، ثم لما ضعفت الرعية وانكسرت ولم يبق معهم شىء ينهبه العسكر أو يأخذونه بالقهر منهم صار العسكر يبيعون السروج المذهبة والسيوف المسقطة إلى أن أفنوها وصاروا يبيعون أثواب بدنهم إلى أن أفنوها ، فباعوا أسلحتهم وما أبقوها ، فشرعوا يهربون إلى مطهر . وافتقروا ، وامتلأت بهم البلاد ، وضعفوا عن قتال العدو إلى أن استولى العـــدو على بلادهم (أى ممتلكاتهم فى اليمن) شيئاً فشيئاً[١].

وبالإضافة إلى هذه الأسباب الموضوعية الكفيلة بإشعال الثورة فى اليمن فى ذلك الوقت ، فقد ازداد الأمر سوءاً عند تعيين رضوان باشا خلفاً لمحمود باشا فى سنة ٩٧٣هـ (٥/١٠٦٦م) ، إذ لم يكن لهذا الوالى الكفاءة والمقدرة على مواجهة الانهيار الذى أصاب الحكم العثمانى فى اليمن ، بل على عكس ذلك كانت سياسته عاملا هاماً ومباشراً لانفجار الثورة فى عهده .

وكانت حداثة سن رضوان باشا وقلة خبرته بأمور الحكم من الأسباب الرئيسية لفشله فى معالجة أزمـــة الحكم العثمانى فى اليمن ، إذ كان شاباً غراً بالأمور لم تحنكه التجارب بعد ، وهذا أول منصب من البكلربكية ، ولا يكمل الإنسان إلا بطول التجاريب (أى التجارب)»[٢]. وقد ساعد على إبراز ضعف رضوان باشا السياسى ، أنه عاصر رجلين عرفا بخطورتهما السياسية ودهائهما وهما محمود باشا والمطهر ابن الإمام شرف الدين . ومن الغريب أن رضوان باشا

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٣٠ ب .

(٢) قطب الدين : نفس المرجع ص ٣٢ ب . ويلاحظ أن السبب الحقيقى فى توليـــة رضوان باشا حكم اليمن هو استناده على نفوذ أبيـــه إذ كان ابناً لمصطفى باشـــا قرة شاهين سالف الذكر .

لم يتلاف خطورة هذين الرجلين ، بل سارع إلى الاصطدام بهما، ولذلك عملا من ناحيتهما على الإطاحة به والقضاء عليه .

وقد بدأ رضوان باشا اصطدامه بمحمود باشا — الذى كان والياً لمصر حينئذ — بعد تعيينه والياً لليمن مباشرة ، فقد أخذ رضوان باشا يعمل على كشف مظالم محمود باليمن ، ويرسل التقارير المتتالية إلى « استانبول » للتنديد به وبأعماله. وكان رد الفعل لدى محمود باشا عنيفاً كما يوضح فى نفس الوقت أثر المواقف الشخصية على الأحداث السياسية ، فقد اقترح على المسئولين فى استانبول أن يقسم اليمن إلى ولايتين لاتساع مساحته وكثرة مشاكله ، على أن تشمل الولاية الأولى المناطق الجبلية الشمالية وتكون عاصمتها « صنعاء » ، وتشمل الولاية الثانية المناطق التهامية وجنوب الهضبة اليمنية على أن تكون « زبيد » أو « تعز » عاصمة لها ، ويكون لكل من الولايتين وال خاص بها وذلك حتى يعضد كل منهما الآخر[1] . وقد نجح محمود باشا فى تحقيق هذا المسعى لأنه كان يتفق واتجاه الدولة العثمانية التى كانت قد بدأت تميل إلى التوسع البيروقراطى ، أو على حد تعبير قطب الدين : « الى توسيع الملك وتكثير المناصب »[2] ، وذلك لمواجهة الاحتياجات المتزايدة والمهام المتنوعة للدولة ، ولإيجاد الفرص لمكافأة رجالها بتعيينهم فى المناصب المختلفة .

ولم يكن محمود باشا دون شك حسن النية عند عرض هذا الاقتراح ، إذ أن وجود واليين فى اليمن يؤدى حتما الى قيام الاحتكاك والتنازع بينهما

---

(١) محمد بن محمد الأدرنوى : نخبة التواريخ والأخبار (باللغة التركية) ، ص ١٠٩—١١٠ .

(٢) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٣٧ ب وكذلك عبر الموزعى (١١ب — ١١٢أ) عن الغرض من تقسيم اليمن الى ولايتين بقوله : « وقبل عرضه لى الباب العالى قصدا إلى تكثير المناصب وتمديد البكرابكية فوزعت اليمن بين بكرابكين ... » .

مما يؤدى بالتالى إلى ضعف كل منها بل وإلى ضعف النفوذ العثمانى بوجه عام فى اليمن ، بل كان غرض محمود باشا الحقيقى هو إضعاف نفوذ رضوان باشا ومضايقته بإيجاد منافس له فى اليمن ، وقد تم تقسيم اليمن قبل مرور عام كامل على ولاية رضوان باشا له ، ففى أواخر محرم سنة ٩٧٤ هـ (يولية/ أغسطس ١٥٦٦) وصل مراد باشا إلى اليمن ليكون والياً للمنطقة الجنوبية التهامية ، واقتصرت ولاية رضوان باشا على المنطقة الجبلية الشمالية فقط . وكان تخصيص هذه الولاية لرضوان باشا عملا متعمداً من جانب محمود باشا أيضاً . إذ أنه رغب فى كشف ضعف رضوان باشا وعجزه لأنه كان يعلم جيداً أن المنطقة الشمالية منطقة فقيرة بالنسبة لباقى مناطق اليمن ، كما أنها منطقة مليئة بالاضطرابات والمشاكل[١].

وقد واصل محمود باشا تدبير المؤامرات لرضوان باشا حتى تم عزل الأخير من اليمن فى شوال سنة ٩٧٤ هـ (أبريل/مايو ١٥٦٧م) أى فى نفس العام الذى وصل فيه مراد باشا إلى اليمن . وكان الصدام بين الواليين قد وصل إلى حد التراشق بالتهم . وكان كل منهما يرسل التقارير المطولة التى تكيل التهم للآخر إلى « استانبول » . فكان محمود باشا — باعتباره والياً لمصر — يعمل على إعاقة وصول رسائل رضوان باشا إلى « استانبول » وفى نفس الوقت يسارع بإرسال رسائل مراد باشا إلى هناك[٢] .

ومن ناحية أخرى فقد بدأ الصدام بين رضوان باشا والمطهر بعد وصول الأول إلى اليمن مباشرة أيضاً . فقد تلكأ رضوان باشا فى الإتصال بالمطهر بعد وصوله إلى صنعاء ليخبره بوصوله الى اليمن ، ولإقرار الصلح القائم معه كما جرت عادة الولاة السابقين ، وذلك لأنه كان يمتلىء غروراً

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ١٣٩ أ .

(٢) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، جـ ١ ، م ١ ، ص ٢٠١ أ .

واعجاباً بنفسه ، مع إدراكه لأهمية أو خطورة المطهر فى اليمن . وبعد مدة من الوقت أرسل رضوان باشا إليه أحد مندوبيه — وكان قاضياً يمنياً كما كان مثل رضوان باشا مغروراً بنفسه — فأساء معاملة المطهر مما أدى إلى توتر العلاقة منذ البداية بينه وبين رضوان باشا [١]. وقد وصل هذا التوتر إلى حد الصدام المسلح بعد أن رفع رضوان باشا من قيمة الأموال المقررة على منطقة « وادى السر » التى كانت تقع بالقرب من « صنعاء » والتى كانت من « التزام » على بن الإمام شرف الدين . وزيادة على ذلك رفض رضوان باشا الشكوى التى رفعها المطهر إليه بخصوص هذه الزيادة ، والتى كان على ابن الإمام قد رفعها بدوره إلى أخيه المطهر . واتبع رضوان باشا رفضه لشكوى المطهر بخطوة أكثر حدة ، إذ أرسل أحد الكشاف الى « وادى السر » لقمع الاضطرابات به ولجمع الأموال المقررة بالقوة . وقد أشعل هذا كله من ثورة الأهالى هناك ، فقاموا بمهاجمة الكاشف بعد أن ازداد ظلمه لهم وقتلوه . وعندئذ استعد رضوان باشا للحرب فتقدم فى ذى القعدة سنة ٩٧٣ هـ (مايو / يونية سنة ١٥٦٦ م) على رأس جيوشه الغفيرة إلى مدينة « عمران » وأقام بها . وفى نفس الوقت طلب من مراد باشا الذى كان قد تسلم مهام منصبه قبل ذلك بقليل فى الولاية الجنوبية ، أن يمده بالمال والرجال لإخماد الاضطرابات فى الشمال . ويقال إن مراد باشا كان على وشك التوجه بنفسه إلى رضوان باشا لمساعدته ، ولكنه تراجع عن ذلك واكتفى بأن أرسل إليه القليل من المال والرجال . ويرجع تقاعس مراد باشا حينئذ إلى قيام النزاع بينه وبين رضوان باشا حول تحديد الحدود بين ولايتيهما ، وكان رضوان باشا قد نجح فى أن يستصدر فرماناً خاصاً بضم المنطقة الغنية التى تشمل مدن « جبلة » و « ذى سفال » و « القاعدة » إلى ولايته الجبلية ، ولكنه فشل فى تنفيذ

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، حـ أ ، ص ٨٠ أ .

ذلك عملياً لتدخل محمود باشا واستصداره فرمانا آخر بإبقاء هذه المنطقة ضمن ولاية مراد باشا[1] .

وبالإضافة إلى اصطدام رضوان باشا بكل من محمود باشا والمطهر ، فقد خسر رضوان باشا بسياسته المرتجلة الحلفاء التقليديين للحكم العثماني فى اليمن وهم الإسماعيليون المعروفون بعدائهم الشديد للمطهر وللزيديين بوجه عام ، والذين وقفوا باستمرار إلى جانب العثمانيين . وكان العثمانيون يعفون أفراد الطائفة الإسماعيلية من الضرائب باعتبارهم جنوداً فى الجيش العثمانى باليمن ، فجاء رضوان باشا وأجبر هؤلاء على دفع الضرائب المقررة على أقاليمهم وذلك لحاجته الملحة إلى المال . وإلى جانب ذلك ، انتهز رضوان باشا فرصة وجود الخلافات بين « دعاتهم » وعمل على إشعالها فأرسل محمد بن عبد الله الداعى على رأس قوة من الجند للاستيلاء على قلاع الداعى الكبير[2] . وقد هدم رضوان باشا بسياسته هذه أحد السدود الهامة التى كانت تقف فى وجه المطهر لأن أقاليم هؤلاء الإسماعيلية كانت تتاخم أقاليم المطهر الخاصة كما حددها اتفاقه الخاص مع أزدمر باشا .

وهكذا يتضح تخبط رضوان باشا فى سياسته تجاه القوى المختلفة المحيطة به ، واصطدامه بها ، وذلك فى نفس الوقت الذى كان يحتاج فيه إلى استقرار الأوضاع حتى يستطيع أن يعالج الانهيار الذى أصاب الحكم العثمانى فى اليمن قبل مجيئه إليه . ولقد كان هذا التخبط هو السبب المباشر فى الإسراع بانهيار السيطرة العثمانية فى اليمن . إذ لم يقو رضوان باشا على مواجهة الثورة اليمنية عند اندلاعها ، كما لم يستطع مراد باشا أن يصمد أمام زحف جيوش المطهر إلى جنوب اليمن ، ولذلك فقد العثمانيون جميع ممتلكاتهم اليمنية ماعدا « زبيد » فى غضون عام تقريباً بعد اندلاع الثورة .

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٣٩ أ .
(٢) نفس المرجع : ص ٤٠ — ٤٠ ب .

وقبل أن نتابع الأحداث التى دارت فى فترة ولايتى رضوان باشا ومراد باشا التى انتهت بهزيمة العثمانيين ، علينا أن نلخص عوامل انهيار السيطرة العثمانية التى سبق الإشارة إليها والتى ظهرت آثارها فى الإسراع بهزيمة العثمانيين كما سنرى فيما بعد .

أولا : ضعف أوضاع العثمانيين السياسية والعسكرية والمالية فى اليمن بوجه عام نتيجة سوء سياسة الولاة السابقين وعدم اهتمامهم برعاية شئون الأهالى .

ثانياً : تقسيم اليمن إلى ولايتين أضعف من قوة العثمانيين الذاتية لتجزئتها من ناحية ولتنازع الواليين من ناحية أخرى حول الأموال والقوات وتعيين الحدود بين ولايتيهما :

ثالثاً : تخبط سياسة رضوان باشا المالية ورفعه الضرائب لشدة حاجته إلى المال فأدى هذا إلى اصطدامه بالزيديين والاسماعيليين على السواء ، فعمل هذا على تقارب هذه العناصر وتحالفها ضد العثمانيين .

رابعاً : تذمر اليمنيين بوجه عام ، وانتشار روح الثورة بينهم ، مما دفعهم إلى الوقوف إلى جانب المطهر ضد العثمانيين كما حدث عندما تقدمت قواته إلى الأقاليم الجنوبية .

خامساً : قوة شخصية المطهر ومهارته السياسية والعسكرية ، ووجوده على رأس الثورة حينذاك .

سادساً : نجاح المطهر فى الاحتفاظ بوحدة الجبهة الزيدية تحت زعامته فى ذلك الوقت ، إلى جانب نجاحه فى جذب الكثير من زعماء الإسماعيلية إليه بعد صدامهم مع رضوان باشا ، وذلك بالإضافة إلى نجاحه فى الاتصال بالعناصر اليمنية الأخرى وربطها به .

وكيفما كان الأمر ، فقد بدأت الحرب بين رضوان باشا والمطهر بعد أن انتقل الأول من « صنعاء » إلى مدينة « عمران » كما ذكرنا ، ولكن لم تصمد جيوشه المنهارة الضعيفة أمام جيوش المطهر إلا بضعة أشهر ، ولذا سارع رضوان باشا فى رجب سنة ٩٧٤ هـ (يناير / فبراير ١٥٦٧ م) إلى عقد الصلح مع المطهر بعد أن كان قد فقد أغلب مناطق ولايته . وقد أصر المطهر على أن يحتفظ بالمناطق التى استولى عليها فى خلال هذه الحرب ثمناً للصلح ، فضم إليه لذلك بلاد نهم وخولان والحدا وقيفة وجميع بلاد ذى مرمر والظواهر وحراز وحفاش وملحان وكذلك عمران»[1] وتوج المطهر انتصاراته فى الشمال بالاستيلاء على « صعدة » على يد الأشراف الذين نجح فى تقريبهم إليه بعد أن وقفوا ضده لمدة طويلة وكان المطهر فى حاجة إلى فتح الجبهات المتعددة أمام الجيوش العثمانية لإضعاف شوكتها ، فدفع الشريفين أحمد بن الحسين ومحمد بن الناصر — بعد أن أزال ما كان بينهما من خلافات — إلى مهاجمة « صعدة » معاً ، وذلك أثناء اصطدامه هو بالجيوش العثمانية فى منطقة « الظاهر » التى تقع إلى الجنوب الغربى من « صعدة » . وقد نجح هذان الشريفان فى الاستيلاء على « صعدة » ، فكافأهما المطهر بأن جعل لهما معاً حكم هذه المدينة الهامة وما يليها شمالا من المناطق اليمنية[2] .

ولا شك فى أن الخلافات بين مراد باشا ورضوان باشا كانت من العوامل الهامة التى ساعدت المطهر على تحقيق انتصاراته العسكرية فى الولاية الشمالية إذ أن هذه الخلافات حرمت العثمانيين من تركيز قواتهم وجهودهم لمواجهة ثورة المطهر والقضاء عليها قبل انتشارها . وكان المطهر من جانبه يستفيد من وجود هذه الخلافات ويعمل على إبقائها لتحقيق أغراضه الخاصة ، ولذلك اتهمه

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ٢ ، ص ٨٠ ب .
(٢) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٣١ .

البعض مثل قطب الدين بأنه هو الذى وسع هوة الخلاف بين هذين الواليين عندما اتصل بمراد باشا ليشكو إليه خشونة رضوان باشا فى معاملته ، ولكننا نرى أنه لم يكن فى مقدور المطهر أن يزيد من ضعف البناء العثمانى فى اليمن إلا إذا كان هذا البناء يحمل فى ثناياه عوامل ضعفه ، كما نرى أن المطهر لم يفعل أكثر من استغلال هذا الضعف لتحقيق أغراضه هو . وكان المطهر قد شكا فى رسالة طويلة له إلى مراد باشا ظلم رضوان باشا وسوء معاملاته له ، وذلك عندما قامت الحرب بينهما ، فقام مراد باشا بإرسال الخطاب نفسه إلى « استانبول » للتشهير برضوان باشا وذلك بعد أن جعل بعض الفقهاء اليمنيين المقربين إليه يوقعون عليه لتوثيقه[1] .

وقد استمر المطهر يعرف كيف يستفيد من ضعف العثمانيين وأخطائهم لتحقيق مطالب الثورة اليمنية ، فقد نجح حينذاك فى توجيه ضرباته إلى أقاليم اليمن الجنوبية حتى كاد أن يخرج العثمانيين نهائياً من اليمن . وكانت مؤامرات محمود باشا ومراد باشا قد أتت أكلها فى ذلك الوقت ، فعزل رضوان باشا فى شوال سنة ٩٧٤ ه (أبريل / مايو ١٥٦٧ م) وعين حسن باشا بدلا منه على أن يكون مراد باشا مسئولا عن ولايتى اليمن إلى حين وصول الوالى الجديد إلى

---

(١) أعلن المطهر فى بداية خطابه إلى مراد باشا تمسكه بطاعة السلطان ومحافظته على قواعد الصلح المعقود بينه وبين العثمانيين منذ أيام أزدمر باشا . ثم ذكر أن رضوان باشا هو الذى نقض هذا الصلح فزاد الأموال المقررة على التزام أخيه على فى « وادى السر » الذى اشتعل بالثورة بعد أن أرسل رضوان باشا إليه أحد الكشاف الذى ظلم الأهالى واضطهدهم. وقد تبرأ المطهر فى خطابه من قتل هذا الكاشف فقال إن بعض المتهورين من الأهالى هم الذين اعتدوا عليه بعد أن ازداد ظلمه وبطشه . وكذلك أوضح المطهر لمراد باشا أنه لم يخض غمار الحرب إلا دفاعاً عن نفسه عندما أعلنها عليه رضوان باشا ، ثم ختم خطابه بقوله « فما أمكننا إلا التوكل على الله تعالى والمصابرة إلى أن يصل خبرنا أحد من عقلاء الأمراء فيوصله إلى مولانا السلطان الأعظم (قطب الدين : ص ٣٩ أ — ٣٩ ب) .

ولايته . وقد تأخر وصول حسن باشا إلى اليمن إلى أواخر صفر سنة ٩٧٥ هـ (أغسطس / سبتمبر سنة ١٥٦٧ م)[١] ، فانفرد مراد باشا بالحكم فى اليمن حتى لقى مصرعه به . وكان المطهر قد انتهز فرصة وجود الفراغ الذى أحدثه عزل رضوان باشا من الولاية الشمالية فتقدم إلى « صعناء » وحاصرها ، وذلك بحجة أن الصلح الذى عقد بينه وبين رضوان باشا كان محدوداً ببقاء الأخير فى اليمن وينتهى بعزله[٢] . وكذلك انتهز المطهر فرصة تذمر الأهالى العام على الحكم العثمانى ، ليعمل على إشعال ثورة شاملة فى اليمن .

ولقد نجح المطهر فى الحقيقة فى أن يكون رمزاً لثورة اليمنيين فى ذلك الوقت ، وذلك بفضل قوة شخصيته ، ولمهارته السياسية والحربية معاً . وقد ساعده على ذلك ضعف شخصية مراد باشا الذى كان يقف حينئذ على رأس القوة المعادية له ، والذى كان فى الحقيقة موضع كراهية اليمنيين والعثمانيين على السواء . ونحن إذا قارنا بين أوضاع كل من المطهر ومراد باشا ، فسنجد أن ميزان القوى فى ذلك الوقت كان فى صالح المطهر ، إذ كان يستند إلى قوى الشعب اليمنى الثائرة على الحكم العثمانى ، التى كانت مستعدة للتضحية والفداء من أجل التخلص من هذا الحكم ، والتى كانت مستعدة كذلك للانضواء تحت لواء زعيم قوى يستطيع أن يقود الثورة وأن يوحد عناصرها المتناثرة . وكانت ظروف المطهر حينذاك تساعده على أن يقود هذه الموجة الثورية ، اذ كان قد نجح حتى ذلك الوقت فى أن يجمع شتات أسرته حوله ، وخاصة بعد وفاة أخيه شمس الدين فى سنة ٩٦٣ هـ (١٥٥٦/٥ م) كما ذكرنا ، ثم وفاة أبيه

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٤٤ ب .

(٢) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ ٢ ، ص ٨٠ ب .

الإمام شرف الدين فى سنة ٩٦٥ هـ (١٥٥٨/٧م)[1] وهما اللذان عملا على تحطيم زعامته باستمرار . وكذلك كان المطهر ناجحاً فى تقريب الكثير من الأشراف إليه وفى جعلهم من أكبر قواده ومعاونيه ، وذلك بعد أن ظلوا مدداً طويلة يمثلون إحدى القوى المعادية له . ولهذا كله فقد أصبح المطهر — فى فترة ولايتى رضوان باشا ومراد باشا — قوة معنوية كبيرة فى حد ذاتها تستطيع أن تجذب إليها العناصر الثائرة الأخرى . وقد بدأ المطهر اتصاله بهذه العناصر منذ وقت مبكر أى منذ أن بدأ الصدام بينه وبين رضوان باشا فى شمال اليمن ، فأرسل دعاته إلى القبائل المختلفة ليحرضها على الثورة والخروج على طاعة العثمانيين[2] . وكانت استجابة القبائل لدعوة المطهر فورية وقوية لما كان لديها من أسباب موضوعية تدعوها إلى الثورة ، فقامت بمهاجمة الحاميات العثمانية فى كل مكان وأثارت المتاعب لمراد باشا حتى تم لها القضاء عليه وإحراز النصر على العثمانيين . وكانت بعض ثورات هذه القبائل تتسم بالروح الفردية المحلية البحتة ، ولكن قوة المطهر الذاتية كانت كفيلة بضم هذه الثورات المحلية إلى الثورة الشاملة ، ويجعلها تسير فى الإطار العام الذى رسمه المطهر وذلك بالإضافة إلى حاجة هذه الثورات المتفرقة إلى المساندة والتعاون فيما بينها حتى تتمكن من الوقوف فى وجه العثمانيين .

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ٢ ، ص ٧٨ أ (كان الإمام شرف الدين قد اعتزل الحياة العامة قبل ذلك بعدة سنوات بعد أن كبر سنه وفقد بصره ، فانسحب إلى حصن « كوكبان » للاقامة به مع ابنه شمس الدين ، وذلك بعد أن أجبرها المطهر على التخلى عن السلطة له عندما بدأ العثمانيون فى الزحف الى أقاليم اليمن الداخلية فى ولاية أويس باشا ثم أزدمر باشا . غير أن اعتزال الإمام شرف الدين للحياة العامة كان لايقلل من تأثيره فى أحداث هذه الفترة لأهميته الشخصية فى حد ذاتها ، وقد ظل الإمام شرف الدين طوال اعتزاله غير راض عن ابنه المطهر لعنف الأخير من ناحية ، ولوقوع الإمام تحت تأثير ابنه شمس الدين المنافس القوى للمطهر .

(٢) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) جـ١ ، م١ ، ص ٢٠٠ ب .

أما مراد باشا فقد كان يقف على رأس الجانب الضعيف فى المعركة التى دارت بين اليمنيين والعثمانيين ، فخزانته مفلسة وقواته خائرة ضعيفة ، وتركته مثقلة بالأعباء التى خلفها له محمود باشا ورضوان باشا بوجه خاص . وبالإضافة إلى ذلك فلم يكن لمراد باشا المؤهلات الشخصية التى تساعده على مواجهة هذه الأعباء ، كما لم يكن نداً للمطهر ، فلم يستطع لهذا كله أن يجمع حوله العثمانيين ، أو أن يزيل تذمر اليمنيين ، وعلى عكس ذلك أثار مراد باشا ضده العثمانيين واليمنيين على السواء ، لأنه كان فيما يبدو من مدرسة محمود باشا التى تميل إلى التظاهر واقتناء الثروات . فقد أشيع عنه أنه دس السم لأميرين عثمانيين هما سنجق « عدن » وسنجق « جبلة » عند استقبالهما له بعد وصوله إلى اليمن ، وذلك طمعاً فى مالهما ، وحتى يستغل هذا المال فى إحاطة نفسه بالأبهة والعظمة عند دخوله إلى « زبيد » لأول مرة[1] . وكذلك نفر منه اليمنيون لسوء تصرفاته ولشكه دون حق فى وقوف بعض زعمائهم إلى جانبه ، فقد كاد مراد باشا أن يقتل أحد زعماء منطقة وسط الهضبة لمجرد شكه فى بعض أعماله[2] ، فانقلب هذا الزعيم عليه بعد فراره من قبضته وأصبح من أكبر أعوان المطهر .

وهكذا تتضح لنا الظروف العامة التى أحاطت بالصدام الذى وقع بين المطهر وبين مراد باشا بعد عزل رضوان باشا من الولاية العثمانية ، والتى أدت فى النهاية إلى إنهيار السيطرة العثمانية فى اليمن . وكان المطهر فى هذه الفترة قد استطاع أن يخرج العثمانيين من جميع أقاليم اليمن الشمالية ، وأن يقوم بمحاصرة حاميتهم فى « صنعاء » نفسها ، ولذلك فقد كان على مراد باشا أن يزحف بجيوشه من ولايته الجنوبية لإنقاذ هذه الحامية ، ولإعادة السيطرة العثمانية إلى شمال اليمن . وكان مراد باشا فى هذه الأثناء هو المسئول الوحيد عن مواجهة المطهر

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص٣٨ب ،

(٢) ابن داعر : نفس المرجع ، ص٩٠١ب .

وانتصاراته المتتالية وذلك رغم ضعفه الشخصي والمـادي — كما اتضحا من قبل — بالنسبة لهذا الزعيم اليمني، إذ كان قد تم عزل رضوان باشا قبل ذلك بقليل، كما كان حسن باشا — الذي تولى بدلا منه — لم يصل بعد إلى اليمن.

وقد بدأ الصدام بين المطهر ومراد باشا عندما زحف الأخير من «تعز» إلى الشمال لفك حصار «صنعاء» الذي ضربه المطهر حولها، ولكن مراد باشا عجز عن مواصلة سيره إليها واضطر إلى البقاء في «ذمار» بعض الوقت، نتيجة لقيام بعض أهالي المنطقة الواقعة بين «ذمار» و«تعز» بالثورة، وهجومهم على الحاميات الموجودة في منطقتهم مثل حامية «إب»، وذلك بقيادة الزعيم الذي كان قد نجا من القتل بعد أن تآمر عليه مراد باشا كما ذكرنا، ففر أفراد الحامية إلى «جبله» حيث حاصرهم الأهالي بها حتى اضطروا إلى تسليم أنفسهم إلى الثائرين. وقد لقي جميع أفراد هذه الحامية حتفهم على يد الأهالي رغم تعهد هؤلاء بتأمين حياتهم، وذلك بحجة أن مواثيق الأهالي لهم كانت «مواثيق محمودية»[1]، نسبة إلى غدر محمود باشا بالنظاري أمير إقليم «بعدان» كما ذكرنا. وتتمثل أحداث «اب» و«جبله» في أنها شجعت القبائل المختلفة على الثورة على العثمانيين، «فأظهرت العصيان وانقطعت الطرق وزحفت القبايل على محطة مراد باشا «بذمار» وضيقوا عليه بعد أن خربوا الطريق»[2]. وكان المطهر من ناحيته قد أرسل حسين بن شمس الدين وعلى بن الشويع أحد أشراف الجوف — الذي كان قد تحالف من قبل مع العثمانيين حتى منحه هؤلاء لقب سنجق — على رأس قوة من الجند لمهاجمة مراد باشا في «ذمار» ولإعاقة تقدمه إلى «صنعاء».

---

(١) ابن داعر: الفتوحات المرادية في الجهات اليمانية (مخطوطة) ج ١، م ١، ص ٢٠١ ب.

(٢) قطب الدين: البرق اليماني في الفتح العثماني (مخطوطة)، ص ٤٢ ب.

وقد نجح هذان الأميران فى إثارة المتاعب فى وجه مراد باشا حتى أنه قرر العودة إلى « تعز » ليعيد تنظيم قواته بها قبل أن يتقدم إلى « صنعاء » ، وذلك لأن هذه الجيوش كانت قد هاجمت أطراف قواته ، وقطعت طرق مواصلاته ، واستولت كذلك على القافلة الوحيدة التى قرر إرسالها إلى « صنعاء » لمد المحاصرين بها بالمؤن والذخائر بعد أن أعدت لها جيوش المطهر كميناً بين جبلين(١) .

وازاء هذه الاضطرابات كلها ، صمم مراد باشا على التقهقر إلى « تعز » رغم معارضة أغلب القادة له ، وكان هؤلاء يرون أنه من الجدير بهم التقدم إلى « صنعاء » لإنقاذ حاميتها ولو أدى ذلك إلى هلاكهم جميعاً ، لأن التقهقر فى حد ذاته يظهر العثمانيين بمظهر الضعف أمام اليمنيين الذين يتربصون بهم الدوائر وخاصة فى هذا الوقت العصيب . وكان هؤلاء القادة على صواب ، فقد بدأت هزائم العثمانيين تتوالى منذ أن أصر مراد باشا على الانسحاب . وكان مراد باشا قد طلب من أحد شيوخ المنطقة أن يدله على أقرب طرق العودة وأكثرها أماناً مقابل مكافأة مالية كبيرة ، فوافق هذا الشيخ بعد أن أضمر الغدر بمراد باشا ، إذ عاد فأبلغ قواد المطهر بتفاصيل خطة انسحاب العثمانيين ، فأعد هؤلاء عدداً من الكمائن للقضاء على جيش مراد باشا وكان مراد باشا من ناحية أخرى قد أخفى خطته عن كثير من جنوده حتى لا تنتشر أخبارها ، فتظاهر بالتحرك الى « صنعاء » ، ثم عاد بعد قليل واتخذ طريق « تعز » فأدى هذا إلى اضطراب نظام الجيش ، وضلت الفرق الامامية طريقها وواصلت السير إلى « صنعاء » ، فتعرضت لذلك للهلاك . وقد تعرض مراد باشا نفسه للهلاك كذلك ، وهو فى طريقه إلى « تعز » ، فعند وصوله إلى « نقيل السود » — إلى الجنوب من « تعز » — وجد أن اليمنيين قد سدوا الطريق أمامه بالحجارة لإعاقة تقدم

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٤١ ب — ٤٢ أ .

جيوشه ، ثم هاجموا هذه الجيوش من فوق قمم الجبال المحيطة به ونهبوا الجمال المحملة بالمعدات والذخائر ، ثم قتلوا من لحقوا به من الجنود الذين سارعوا بالفرار[١] . ورغم نجاح مراد باشا فى الخروج من هذا الكمين ومعه أغلب قواته ، فقد كانت الضربة التالية التى تلقاها مراد باشا عند « وادى خبان » كفيلة بتشتيت جيشه وبالقضاء عليه ، كما كانت هذه الضربة توضح كيف يستغل اليمنيون باستمرار ومهارة تضاريس بلادهم فى حروبهم المحلية ، فقد قام أحد زعماء « بعدان » الذين كانوا قد انضموا إلى المطهر ، وهو أحمد بن على البعدانى ، بإغراق « وادى خبان » بالمياه لإعاقة حركة القوات العثمانية به ، ثم هاجم على رأس جيوشه قوات مراد باشا التى أصبحت لقمة سائغة للقوات المهاجمة ، « فكان الخيال إذا دخل فى الوحل ما يمكنه الخروج ، فتأتى العرب إلى الرومى وينظرون إن شهر سيفاً قتلوه ، وإن استسلم لهم سلبوه وأعطوه قطعة خرقة يستر بها عورته »[٢] . وقد تعرض مراد باشا لمثل هذا المصير دون أن تعرف شخصيته لحلول الظلام ، ففر عندئذ متخفياً عارياً ومعه بعض كبار قواده إلى قمم الجبال حتى قبضت عليه قبائل « المضرح » ، وقتلته هو ومن كان معه بعد أن اعترف بحقيقة شخصيته ، ثم أرسلت هذه القبائل برأسه إلى المطهر[٣] .

وكان قتل مراد باشا إيذاناً بانهيار باقى نفوذ العثمانيين فى اليمن ، إذ بدأت جيوش المطهر تكتسح الأقاليم الجنوبية حتى وصلت إلى « عدن » جنوباً ، وانحصرت سيطرة العثمانيين عندئذ فى « زبيد » والمناطق التهامية المحيطة بها

(١ ، ٢) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطه) ، ص ٤٣ أ .

(٣) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، حـ ١ ، م أ ، ص ٢٠٢ أ .

التى تصل بينها وبين ساحل البحر الأحمر . وقد استغل المطهر رأس مراد بأ فى إضعاف مقاومة المحاصرين فى «صنعاء» فسلمت الحامية نفسها له ، بعد أن فقدت الأمل فى وصول الإمدادات كما كانت قد فقدت المقدرة على الصمود . وعندئذ سقطت « صنعاء » فى أيدى المطهر ، فدخلها فى موكب كبير فى صفر سنة ٩٧٥هـ (أغسطس/سبتمبر ١٥٦٧م)[١] . وفى نفس الوقت أرسل المطهر جيشاً كبيراً تحت قيادة على بن الشويع للاستيلاء على «تعز» و«عدن» كما دخلت أغلب المناطق التهامية الشمالية فى طاعة المطهر على يد حليفه عيسى بن المهـــدى شريف « جيزان »[٢] .

ورغم أنه كان من الصعب ــ من الناحية العملية ــ إنقاذ سيطرة العثمانيين فى اليمن من الانهيار إلا على يد حملة جديدة قوية كما سنرى فى الفصل التالى، إلا أنه كان من المتوقع استمرار الانهيار لبقاء الظروف الموضوعية التى أدت إليه كما هى.

فمن ناحية ، كان محمود باشا والياً لمصر حتى ذلك الوقت ، فكان يتعمد إخفاء حقيقة الأوضاع فى اليمن عن «استانبول» ، ويكتفى بإرسال القليل من الجند من مصر إلى اليمن بين الحين والآخر[٣] ، فحرم العثمانيون فى اليمن لذلك من وصول النجدات والإمدادات الكبيرة إليهم . وكان محمود باشا يخشى أن يكلف بإخماد الثورة فى اليمن بنفسه ، كما كان يخشى أن يقع تحت طائلة العقاب ، وذلك لأنه كان المسئول عن استتباب الأحوال فى حوض البحر الأحمر باعتباره والياً لمصر، ولأنه كان المسئول عن تقسيم اليمن إلى ولايتين وما نتج عن ذلك من آثار .

ومن ناحية أخرى ، كان حسن باشا ضعيف الشخصية ، متردداً، لا يقوى

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ٢ ، ص ٨١ ب .

(٢) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٣٢ .

(٣) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ص ٤٧ ب .

على مواجهة الأعباء الضخمة التى ألقيت على عاتقه فور وصوله إلى «زبيد» لذلك فلم يكن الوالى «المنتظر». وكان حسن باشاقد عين بدلا من رضوان باشا فى الولاية الشمالية، ولكنه فوجىء عندوصوله إلى اليمن بمقتل مرادباشاو بسقوط «صنعاء» فى أيدى المطهر، فبقى «بزبيد» لا يقوى على مغادرتها حتى أتى إليه الزيديون وحاصروه بها. وقد فقد العثمانيون «تعز» لطول تردد حسن باشا فى التوجه إليها أو نجدتها بالمدد اللازم وذلك رغم إلحاح حاميتها فى طلب النجدة، ورغم استعداد بعض القادة فى التوجه إليها بدلا منـــه، فانتهى الأمر لذلك بسقوطها فى أيدى على بن الشويع فى ١٣ ربيع الثانى سنة ٩٧٥ هـ (٩ أكتوبر سنة ١٥٦٧م)[١]، أى بعد وصوله إلى «زبيد» بحوالى شهر. وأدت سياسة حسن باشا أيضاً إلى ضعف جبهة العثمانيين وتفككها فى ذلك الوقت العصيب، فقد خاف حسن باشا من شعبية حاكم «زبيد» العثمانى بين الجنود وأبعده عن المناصب الهامة رغم شجاعة هذا الحاكم وطول خبرته بشئون اليمن[٢]. وقد خاف هذا الحاكم بدوره انتقام حسن باشا منه، فأخذ يتحين الفرص للابتعاد عن «زبيد»، ثم غادر اليمن كلية بعـــد فراره إلى «المخا» أمام جيوش على بن الشويع، وتوجه إلى «جدة[٣]». وكذلك خسر حسن باشا مساندة أهالى «زبيد» له لكثرة ما ارتكبه من مصادرات للأموال ونهب للممتلكات وذلك لشدة حاجته إلى المال فى ذلك الوقت، فأدى هذا إلى تخلى الأهالى عنه، بل وإلى مغادرتهم المدينة أيضاً للابتعاد عنه[٤].

وبالإضافة إلى هذه الظروف العامة التى أحاطت بالعثمانيين فى لحظة انهيار سيطرتهم فى اليمن، ظلت باقى عوامل الضعف التى أشرنا إليها طوال هذا الفصل

---

(١) قطب الدين: البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة)، ص ٤٥ أ.
(٢) نفس المرجع، ص ٤٤ ب.
(٣) نفس المرجع: ص ٤٦ ب.
(٤) ابن داعر: الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانيـة (مخطوطه)، جـ١، م١، ص ٢٠٣ أ.

تلعب دورها الكبير في إلحاق الهزائم المتوالية بالعثمانيين. أما المطهر فقد كان لديه كل أسباب النصر ، إذ كان يشتهر كما ذكرنا بالمهارة السياسية والحربية ، وكان وراءه كذلك شعب ثائر متذمر ، ولذلك اكتسحت جيوشه جميع مدن الجنوب حتى «عدن» في سرعة خاطفة[1] .

ولكن هذا المد اليمني توقف أخيراً عند حدود مدينة «زبيد»، فأصبحت لذلك النقطة التي وقف عندها تقهقر العثمانيين ، والتي بدأوا منها فيما بعد استعادة سيطرتهم على اليمن .

وفي الحقيقة استبسل العثمانيون في الدفاع عن «زبيد» رغم ضعف قواتهم واضطراب أحوالهم ، ويرجع ذلك إلى عدة عوامل هامة :

أولا : كانت «زبيد» هي آخر معاقل العثمانيين في اليمن،ولذلك دافع هؤلاء عن أنفسهم بشجاعة خوفاً من تنكيل اليمنيين بهم إذا وقعوا في أيديهم .

ثانياً : أصبحت «زبيد» مركزاً لتجميع العثمانيين في اليمن . فقد كانت من ناحية ملجأ لفلول العثمانيين به . كما حشد حسن باشا بها من ناحية أخرى جميع الفرق العثمانية المتناثرة في تهامة للدفاع عنها .

ثالثا : كان العثمانيون عموما في ذلك الوقت يمتلئون بالشعور بقوة دولتهم، ولذلك كان حسن باشا وجنوده يؤمنون بقدرة الدولة على مدهم بما طلبوه من معدات ونجدات . وأن عليهم بالتالي الصمود في «زبيد» إلى أن تصل إليهم الإمدادت المتوقعة حتى لا يفقدون ممتلكاتهم في اليمن نهائيا . وكان هذا الشعور هو الدافع الحقيقي الذي دفع حسن باشا إلى أن يرفض طلب رسول علي بن الشويع الذي جاء لمقابلته قبل الهجوم على «زبيد» ليعرض عليه تسليمها مقابل تأمين حياته حتى يغادر اليمن سالما . كما كان هذا الشعور هو الذي دفع الجنود داخل «زبيد»

(١) قطب الدين : البرق اليماني في الفتح العثماني (مخطوطة) ، ص ٤٦ ب — ٤٧ أ .

الى الهجوم على هذا الرسول عندما علموا غرضه الحقيقى من زيارة حسن باشا ، فقتلوا به ثم أحرقوا جثته «استحقاراً به وبمن أندبه»[1] .

ولقد قيل إن الغرور الذى ملأ على بن الشويع هو الذى أدى إلى فشله فى الاستيلاء على «زبيد»[2] ، كما قيل إن سبب هذا الفشل هو مخالفته لأوامر المطهر، وتسرعه فى الهجوم على «زبيد»[3] ، ولكننا نرى أن هذه العوامل الخاصة بصمود العثمانيين وبسالتهم فى الدفاع عن أنفسهم فى «زبيد» هى أهم أسباب فشل على بن الشويع فى إلحاق الهزيمة بهم . وكان فتح على بن الشويع لجميع أقاليم اليمن الجنوبية فى سرعة خاطفة قد أنساه حقيقة هامة ، وهى أنه لم يكن فى مقدوره تحقيق هذه النتائج الباهرة دون تعاون أهالى هذه الأقاليم معه، ودون قيام ثورة اليمنيين الشاملة . وقد اتضح أثر موقف الأهالى بجلاء فى سقوط مدينة «موزع» التهامية فى يد الزيديين ، فقد ثار الأهالى بها وقتلوا حاكمها قبل أن يصل إليها على بن الشويع فدخلها دون حرب بعد أن كان قد قضى على النجدة التى كانت فى طريقها إليها[4] . وقد رفض على بن الشويع — نتيجة هذا الغرور — نصيحة المطهر له بأن يتخذ مدينة «حيس» التهامية مركزاً له — وهى تقع إلى الجنوب بقليل من «زبيد» — ثم يعمل من هناك على محاصرة «زبيد» والتضييق على من بها حتى تسقط المدينة فى يده . وكان المطهر صاحب الخبرات الحربية الواسعة يرى عدم تعريض قواته لمعركة غير مضمونة النتائج مع العثمانيين ، وذلك لأن ميدان الحرب حول «زبيد» ميدان سهلى مفتوح يتناسب مع إمكانيات العثمانيين وقدراتهم أكثر مما يتناسب مع قواته التى تجيد الحرب فوق قمم الجبال . ولكن رفض على بن الشويع هذه النصيحة

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطه) ، ص ٤٧ أ .

(٢) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، جـ١ ، م١ ، ص٢٠٢ أ — ٢٠٣ ب .

(٣) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، حـ٢ ، ص٨٢ أ .

(٤) قطب الدين : نفس المرجع ، ص ٤٦ ب .

وتقدم إلى «زبيد»، فخرج إليه العثمانيون لملاقاته عندما اقترب منها، ودارت بين الطرفين معركة حامية الوطيس جرح فيها ابن الشويع بجروح كثيرة، وكذلك قتل وجرح كثير من جنوده، فاضطر عندئذ إلى الفرار إلى «حيس» ثم توجه منها مسرعا إلى «تعز»[1] .

وهكذا تم إخراج العثمانيين من أقاليم اليمن المختلفة ماعدا «زبيد» . وكاد أن يتم إخراجهم من اليمن بأجمعه لولا مجيء حملة سنان باشا إليه فأعادت فتحه كما سنرى فى الفصل التالى . غير أنه من الجدير بالذكر أن نبرز أهم العوامل التى أدت إلى تدهور السيطرة العثمانية فى اليمن فى تلك الفترة حتى يتضح لنا فيما بعد كيف تغلب العثمانيون عليها عند إعادة فتح اليمن .

أولا : ظهور بعض الخلل فى أنظمة الدولة فى أواخر عهد السلطان سليمان مما أدى إلى ظهور بعض الولاة الضعفاء الفاسدين فى اليمن الذين ساعدوا على انهيار السيطرة العثمانية به لسوء سياستهم وإهمالهم .

ثانيا : تخبط سياسة الولاة وحرصهم على جمع الثروات الخاصة أدى إلى سوء أحوال الأهالى والجنود على السواء ، مما أدى بدوره إلى تذمر الأهالى من ناحية، وإلى ضعف أحوال الجنود ومعنوياتهم من ناحية ثانية .

وقد سبق أن أشرنا إلى هذا التذمر، وإلى أن انتشاره فى ربوع اليمن كان عاملا على نجاح جيوش المطهر فى التقدم إلى الأقاليم الجنوبية حتى «عدن» جنوبا .

ثالثاً : قوة الإمامة الزيدية حينذاك ممثلة فى المطهر وخاصة بعد وفاة أخيه شمس الدين ثم أبيه الإمام شرف الدين ، وبعد أن تغلب على منافسيه الأشراف ممن أعلنوا إمامتهم، أو ممن انضووا تحت لوائه بعد أن ارتفع شأنه. وكان امتداد

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٣٢ أ .

سيطرة الإمامة الزيدية بعض الوقت فى عهد الإمام شرف الدين قبل امتداد السيطرة العثمانية الى أقاليم اليمن الداخلية — فى عهد أزدمر باشا — قد رفع من شأن هذه الإمامة أمام اليمنيين المعاصرين وقت ذاك. وقد استطاع المطهر بقوة شخصيته ومهارته السياسية والحربية أن يحتفظ لهذه الإمامة بقوتها وأهميتها رغم انقسام أسرته وتفككها، ثم استطاع كذلك أن يعيد لهذه الإمامة زعامتها فى اليمن منذ أن تمكنت من الصمود فى حصن «ثلا» أمام القوات العثمانية الغفيرة. وكان هذا الصمود هو نقطة البداية نحو جميع اليمنيين حوله عندما ازداد تذمرهم، وعندما نجح فى تحقيق بعض الانتصارات الأولية أمام قوات رضوان باشا فى المناطق الشمالية، ثم بعد أن بدأت قواته فى الزحف إلى باقى أقاليم اليمن حتى وقفت خارج أسوار «زبيد».

الفصل الخامس

الفتح العثمانى الثانى لليمن

٩٧٦ — ٩٧٨ هـ

١٥٦٩ — ١٥٧١ م

يعتبر قطب الدين النهروالى [١] أول من استعمل العنوان الذى استعرناه هنا، وذلك عندما تحدث عن حملة سنان باشا الكبيرة التى أعادت للعثمانيين أملاكهم فى اليمن بعد الانهيار الكبير الذى أصاب سيطرتهم هناك، وذلك كما أوضحنا فى الفصل السابق، وتبعه فى ذلك كثير من المؤرخين والكتاب الأجانب الذين اهتموا بدراسة تاريخ هذه البلاد فى تلك الفترة. وذلك للتعبير عن أهمية هذه الحملة، وعن أهمية ماحققته فى اليمن. ورغم استعمالنا لهذا العنوان فإن هذا لايدل على إيماننا بصحته المطلقة، إذ أنه يحمل بعض المبالغة فى تقدير أهمية حملة سنان باشا، ولكننا رغبنا فى استعارته لأنه من ناحية يحتاج إلى مناقشة وتوضيح. ومن ناحية أخرى فإنه يتيح الفرصة لتركيز الحديث عن هذه الحملة حتى تتضح العوامل المختلفة — وخاصة المحلية — التى تلعب دوراً كبيراً فى تاريخ اليمن بصفة مستمرة.

وقد يبدو أن هناك تناقضاً بين تطور الأوضاع فى استانبول وبين تطورها فى اليمن فى ذلك الوقت. ولكن دراسة أحداث الفتح العثمانى الثانى لليمن، وماصاحبه من ظروف، ستؤكد مرة أخرى أن النظرة السريعة

---

(١) يعتبر قطب الدين من أهم الشخصيات العربية التى كتبت تاريخ اليمن فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى).

إلى الأحداث انما هى نظرة خادعة بالنسبة للدراسات التاريخية . ويتضح هذا التناقض فى أنه بينما كان يتولى الحكم فى استانبول سلطان ضعيف هو السلطان سليم الثانى (١٥٦٦ — ١٥٧٤ م) الذى لقبه معاصروه باسم سليم السكير لولعه بشرب الخمر ، والذى كان أول من تمنطق سيف عثمان من سلاطين هذه الأسرة ثم يحجم عن قيادة الجيوش بنفسه ، بل وينصرف أيضاً عن تصريف شئون دولته ليقضى الساعات الطويلة فى ملذاته الرخيصة»[١] . بينما كان هذا السلطان يتولى الحكم فى استانبول كانت الجيوش العثمانية فى اليمن تؤكد قوة الدولة ، وتحرز الانتصارات المتتالية به .

ولكن هذا التناقض كان أمراً ظاهرياً فقط إذ ليس من طبيعة الأمور أن ينهار البناء الضخم الذى شيده السلطان سليمان وأسلافه الكبار على يد وريث واحد غير قدير[٢] ، ولذلك ظلت الدولة تتمتع بالقوة والهيبة مدة طويلة بعد وفاة السلطان سليمان ، بالإضافة إلى ذلك ؛ فقد ظل رجال السلطان سليمان القانونى هم الذين يديرون كافة أجهزة الدولة فى عهد السلطان سليم الثانى ، وكان على رأس هؤلاء الصدر الأعظم محمد باشا الصوقللى الذى كان السلطان سليمان قد عينه فى هذا المنصب قبل وفاته بعامين ، والذى ظل يقبض على زمام الأمور فى الدولة طوال عهد السلطان سليم الثانى . وكان محمد باشا على قدر كبير من الذكاء والمهارة السياسية والادارية ، وكان ممن تقلبوا فى الوظائف المختلفة فى عهد السلطان سليمان وتحت رعايته ، ولذلك ظل يدير شئون الدولة بنفس الروح والأسلوب اللذين كانا للسلطان سليمان « حتى أن الدولة لم تشعر بفقد السلطان سليمان »[٣] . ونتيجة لوجود هذا الرجل القدير على رأس الوزارة العثمانية ، استطاعت الدولة فى عهد

---

(١) Creasy, E.S. : History of the Ottoman Turks, p. 212.

(٢) Lane-Poole, Stanley : Turkey, p. 208.

(٣) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت [مترجم] جـ١ ، ص٤٨ .

السلطان سليم الثانى أن تحتفظ بقوتها ، بل وتضم اليها المزيد من الأراضى والممتلكات ، فقد عادت السيطرة العثمانية إلى اليمن ، واستولى العثمانيون على قبرص فى عام ٧٠/١٥٧١م[١] . وأرسل هؤلاء حملة كبيرة إلى « استراخان » لربط نهرى الدون والفولجا بعضهما ببعض ، واستطاعوا أن يعوضوا خسارتهم بسهولة فى معركة ليبانتو البحرية فى ٧ أكتوبر سنة ١٥٧١ م ، فحولوا هزيمتهم أمام الحلف الأوربى البحرى إلى نصر ، واحتفظوا بذلك بتفوقهم البحرى فى البحر المتوسط [٢] ، وبالإضافة إلى ذلك كله فقط تمكن العثمانيون من استعادة تونس من أيدى الأسبان الذين كانوا قد استولوا عليها قبل ذلك بقليل وبنوا بها قلعة قوية لهم[٣] .

ولكن مظاهر القوة التى أبدتها الدولة العثمانية حينذاك يجب ألا تخفى عن أعيننا عوامل الضعف والفساد التى كانت قد بدأت فى الانتشار فى عهد سليم الثانى . والتى كانت قد أخذت فى الظهور منذ أواخر عهد السلطان سليمان القانونى كما أشرنا فى الفصل السابق . فالحقيقة أن القوة التى أبدتها الدولة فى عهد سليم الثانى كانت نتيجة قوة الدفع الذاتى لجهود السلاطين السابقين ونتيجة لوجود بعض الشخصيات القوية التى حاولت الاحتفاظ للدولة العثمانية بقوتها وعظمتها . ورغم نجاح محمد باشا الصوقللى فى المحافظة على

---

(١) يحلو للدارسين الأوربيين أن يذكروا أن سبب الاستيلاء على قبرص هو طمع سليم الثانى فى الحصول على النبيذ القبرصى الشهير بحلاوة مذاقه ، ولكن الحقيقة هى أن استيلاء العثمانيين على قبرص كان جزءاً من الصراع البحرى بينهم وبين البنادقة فى حوض البحر المتوسط .

(٢) يذكر . (Creasy (p. 233 أن الومضة الوحيدة التى أظهرها سليم الثانى التى تجعله يستحق الانتساب إلى بيت آل عثمان هى تحمسه الشديد فى مساعدة محمد باشا الصوقللى فى إعادة بناء الأسطول بسرعة فائقة بعد أن تحطم معظمه فى معركة ليبانتو ، فقد تبرع من ماله الخاص بسخاء ، كما تنازل عن جزء من حدائق السراى الجميلة ليبنى به أحواض السفن الجديدة .

(٣) Creasy, E.S. : History of the Ottoman Turks, p 223 .

كيان الدولة ، وفى الوقوف فى وجـــه تفشى الفساد ، فقد كان لا يستطيع دائمـا أن يمنع صدور الأوامر الفاسدة ، أو أن يكبح جماح حيـاة سليم الخاصة[١].

وعكست حملة سنان باشا إلى اليمن كل هذه الأمور المتناقضة كما تبدو ، فتجهيز هـذه الحملة وما قامت به من أعمال من ناحية ، كان يؤكد قوة الدولة فى ذلك الوقت أوكان تعبيراً عنها فى حقيقة الأمر ، ومن ناحية أخرى ، فإن الظروف التى أحاطت بتجهيز هذه الحملة . ثم موقف والى مصر منها أثناء وجودها فى اليمن على سبيل المثال ، كانت من الأمور التى تعبر عن إنتشار بعض أوجه الفساد فى أنظمة الدولة وأجهزتها حينذاك .

وقد بدأ التفـكير فى إعداد هـذه الحملة بعد وفاة والى مصر محمود باشا فى نوفمبر ١٥٦٧ م ، أى بعـد أن تـكشفت حقيقة أوضاع العثمانيين فى اليمن ، وهى التى كان محمود باشا يخفيها عن المسئولين فى استانبول حتى لا يعرض نفسه للعقاب ، وحتى لا يكلف بالذهاب إلى اليمن لإخماد الثورات به وذلك كما أوضحنا فى الفصل السابق . وكان محمود باشا يحتجز لديه تقارير ولاة اليمن الخـــاصة بانهيار السيطرة العثمانية به ، والتى كانت تطالب بإرسال الإمدادات الـكبيرة لإخماد الثورة هناك ، فقام من جاء بإرسال هذه التقارير إلى استانبول .

وقد أبدى الباب العالى حينئذ اهتماماً كبيراً بإرسال حملة ضخمة إلى اليمن لإعادة السيطرة العثمانية إليه . ويرجع هذا الاهتمام إلى أمرين :

أولهما أن الدولة كانت تمتلك القوة والمقدرة اللازمتين للاحتفاظ بأملاكها. وثانيهما أن اليمن كان يمثـل جزءاً هاماً من استراتيجية العثمانيين فى البحر

---

(١) Creasy. E.S. : History of the Ottomon Turks p. 212.

الأحمر ، وهى غلق هذا البحر أمام الخطر البرتغالى الذى ظل يمثل خطراً قائماً فى البحار الجنوبية إلى ذلك الحين .

ولقد أحاط تعيين سنان باشا قائداً للحملة بعض الظروف الخاصة التى توضح بجلاء المظاهر الجديدة التى طرأت على سياسة الدولة ونظمها ، والتى كان لها تأثيرها الهام فى أحداث الحملة بعد ذلك . فقد صدر الأمر بتعيين مصطفى باشا اللالا[1] قائداً لهذه الحملة ، ولكن لم يقدر له الذهاب إلى اليمن بالرغم من إتخاذه بعض الخطوات الإيجابية لتنفيذ هذا الأمر . وكان غرض محمد باشا الصوقللى عند اختيار مصطفى باشا قائداً لحملة اليمن هو إبعاده عن السلطان سليم الثانى لتقوية قبضته هو على زمام الحكم ، وذلك بعد أن نجح فى ابعاد جميع ذوى الخطوة أو النفوذ لدى هذا السلطان ما عدا مصطفى باشا الذى كان أستاذاً ومربياً للسلطان قبل توليه الحكم ، والذى ساعده كثيراً أثناء نزاعه مع أخيه بيازيد حول ولاية العهد . وفى نفس الوقت صدر أمر السلطان بتعيين عثمان باشا ابن أزدمر باشا والياً لليمن ، كما عين لولاية مصر سنان باشا الذى كان عدواً لدوداً لمصطفى باشا اللالا لأن الأخير كان قد تسبب فى إعدام أخيه إياس باشا فى عهد السلطان سليمان لانحيازه إلى بيازيد فى أثناء أزمة ولاية العهد[2] .

ولعب الخلاف بين اللالا مصطفى وسنان باشا دوراً هاماً فى تقرير مصير الحملة ، وفى أن يتولى أمرها سنان باشا بدلا من مصطفى باشا . وقد اضطربت روايات المؤرخين فيما بينها حول تطور هذا الخلاف وتفاصيله حتى انتهى إلى تغيير قائد الحملة . فهناك من يتهم سنان باشا بأنه هو الذى أعاق اللالا مصطفى عن القيام بمهمته بعد أن جاء إلى مصر لتجهيز حملة اليمن ، وذلك لما كان بين

---

(١) اللالا هو أستاذ أو مربى ابن السلطان .

(٢) Hammer, J. : Histoire de l'Empire Ottoman, Tome 6, pp. 367—368.

الرجلين من ضغائن قـديمة . وكان الصدر الأعظم قد أمر اللالا مصطفى بأن يجمع ما يستطيع من جند الشام ثم يتوجه إلى مصر ليضم إليه بعض جنودها وليكمل بها تجهيز الحملة ، ولـكن سنان باشا تلـكأ فى إمداده بالجنود والمعدات حتى يظهره بمظهر المتراخى الذى يرفض تنفيذ أوامر السلطان . وتطور موقف سنان باشا أكثر من ذلك ، فأمر أميرين من أتباعه بأن يوحيا إلى الجنـــود بالاعتذار عن الذهاب إلى اليمن وبعدم إطاعة أوامر اللالا مصطفى ، وكذلك بدأ فى الـكتابة إلى استانبول بأن اللالا مصطفى يخاف الذهاب إلى اليمن ، وبأنه يبالغ فى مطالبه من مصر ليحل الخراب والاضطراب بها ، ثم ذكر بين سطور كتاباته بأنه مستعد لقيادة حملة اليمن بدلا من مصطفى باشا اللالا[١] . وقد بلغت اتهامات سنان باشا قمتها عندما اتهم اللالا بأنه يعمل على الاستقلال بحكم مصر، والانفصال بها عن السلطنة العثمانية وذلك باسم ابن السلطان قانصوه الغورى[٢] .

ولـكن هنـاك من يقول بأن اللالا مصطفى هو الذى خاف فعلا الذهاب إلى اليمن لمـا اشتهر به هذا الإقليم من كثرة الاضطرابات والحروب ، وأنه لم يجىء إلى مصر إلا مضطراً حتى لا يتعرض لغضب السلطان إذا لم يقم بتنفيذ أوامره وكذلك تقاعس الجنود العثمانيون بمصر وأبدوا الاعتذارات المختلفة لمصطفى باشا لإعفائهم من الاشتراك فى حملة اليمن « لأنهم ألفوا فى هذه السنين الراحة والدعة ، وتنعموا فى مصر باللذات المتنوعة ، وأكثروا فيها النسب ، وتعلقوا فيها بكل سبب ، وكثرت أولادهم وأحفادهم ، وصارت مصر وطناً وديارا لهم ، ألفوها وألفوا أهلها دهراً طويلا »[٣] .

---

(١) ابن داعـر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانيـة (مخطوطة) ، جـ١ ، م١ ، ص ٢٠٤ أ .

(٢) Hammer, J. J. : Histoire de l'Empire Ottoman, Tome 6, p. 370.

(٣) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٤٧ ب .

ويصعب فى الحقيقة البت فى أمر هـــذا الخلاف وتطوره ، فربما كان مصطفى باشا اللالا يخشى الذهاب إلى اليمن كما أشيع عنه ولكنه رغب فى البقاء فى استانبول قريباً من السلطان سليم الثانى حتى يجنى ثمرة علاقته به ومساعدته له قبل توليه الحكم ، وحتى ينعم بالراحه والدعة فى العاصمة العثمانية نفسها . وقد نجح اللالا مصطفى بعد عودته من مصر إلى استانبول فى استرضاء السلطان بعد أن نفى عن نفسه ما وجه إليه من تهم وبعد أن أخـذ يذكره بخدماته السابقة التى بذلها من أجله فعفى عنه السلطان وعينه وزيراً فى الديوان[1]. وربما أيضاً كان سنان باشا هو الذى أثار المتاعب فى وجه مصطفى اللالا لما بينهما من ضغائن سابقة ، ولكنه كان فى نفس الوقت يحلم بقيادة حملة اليمن ليكسب بذلك نصراً شخصياً يساعده على اعتلاء المناصب العليا .

ولكن هذه الخلافات يجب ألا تخفى حقيقة هامة وهى أن مصطفى باشا اللالا قد اتخـذ أثناء وجوده بمصر خطوتين إيجابيتين وإن كانتا اتصفتا بأنهما جزء من خطته للتهرب من الذهاب إلى اليمن . أولاهما : أنه حاول حل أزمة اليمن سلمياً وذلك بالكتابة إلى المطهر يدعوه إلى الرجوع إلى طاعة السلطنة ، وثانيتهما : أنه ساعد على سرعة إرسال عثمان باشا إلى ولايته الجديدة على رأس قوة كبيرة وذلك لإنقاذ موقف العثمانيين فى اليمن .

ولقد كان خطاب مصطفى باشا اللالا إلى المطهر يعبر فى جملته عن ضعف موقف العثمانيين حينذاك ، وذلك رغم محاولة مصطفى باشا إخفاء هذا الضعف بشىء من التودد والدبلوماسية الدقيقة ، فقد أخـذ يرسم للمطهر طريق العودة إلى الحظيرة العثمانية ، ويبدى عنه الأعذار المختلفة بإلقاء مسئولية الاضطرابات التى وقعت فى اليمن على عاتق القبائل والعربان ، وليس على عاتقه هو لأنه كان

---

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، جـ١ ، م١ ، ص٢٠٥ ب .

دائماً مخلصاً للسلطنة العثمانية ، وذلك « تأتياً له بعذر فى الظاهر ، واكتفاء به لصون دماء المسلمين ، ورضا منه بهذا القدر من إظهار الطاعة »[١] . وكان خطاب شريف « مكة » — الذى كلفه اللالا مصطفى بإرساله إلى المطهر — يحمل نفس المعانى أيضاً ، فبعد تهديده بقوة الجيش المعد لإرساله إلى اليمن ، دعاه إلى التبرؤ مما حدث فى اليمن من حروب واضطرابات وإلقاء تبعته على رعاع القوم ، كما دعاه أن يعلن أن اشتراكه فى هذه الحروب لا يعبر عن ثورته على العثمانيين إنما كان من أجل المحافظة على ممتلكاته فى اليمن من أيدى القبائل والعربان[٢] . ولكن لم تفلح هذه المحاولة السلمية مع المطهر ، فقد ظل عند موقفه ورد رداً مقتضباً على كل من اللالا مصطفى وشريف مكة . وكان هذا الرد لا يحمل معنى التحدى للعثمانيين لأن المطهر كان يدرك جيداً مدى قوتهم ، كما كان لا يحمل أيضاً معنى الدخول فى طاعتهم لأنه كان عندئذ فى مركز قوى ، ولذلك فقد قال المطهر فى خطابه إلى الشريف « إنا منذ كنا لم نسع فى الأرض بالفساد ، ولم يصدر منا شيء من البغى والعناد ، وهكذا جرت الأقدار ، ولا نبدى ولا نعيد فى ذلك عذراً ، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً »[٣] . ولذلك كان هذا الرد الموجز مثار تضايق قطب الدين فقال « وأمر أن يكتب عن ذلك جواباً لا محصل له ، ليس فيه إطاعة ، ولا استمرار على عصيان »[٤] .

ولقد سارع اللالا مصطفى عندئذ إلى اتخاذ خطوته الثانية وهى المساعدة[٥] فى سرعة إرسال عثمان باشا إلى اليمن تلبية لإلحاح حسن باشا فى « زبيد » فى

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٤٨ أ .

(٢) نفس المرجع : ص ٤٩ أ — ٤٩ ب .

(٣ ، ٤) نفس المرجع : ص ٤٩ ب .

(٥) توحى عبارة قطب (ص ٤٩ ب) الخاصة بإرسال عثمان باشا إلى اليمن بأنه كان من قبل مصطفى باشا ، وبأنه كان يأمل أن يستطيع عثمان باشا إخماد الثورة فى اليمن فلا يحتاج الأمر =

إرسال النجدة إليه . وقد ذهب عثمان باشا إلى اليمن على رأس قوة كبيرة تتألف من ثلاثة آلاف جندى نظامى بالاضافة إلى بعض الخدم والعبيد ، ومن سبع عشرة سفينة ، فوصل إلى « زبيد » فى جمادى الآخرة سنة ٩٧٦ هـ [١] (نوفبر / ديسمبر سنة ١٥٦٨ م) ، أى بعد هجوم على بن الشويع على « زبيد » بحوالى شهرين فقط ، أو بالأحرى فى أثناء فترة جمود الأعمال الحربية التى تلت مباشرة فشل على بن الشويع فى الاستيلاء على « زبيد » . وكان وصول عثمان باشا إلى « زبيد » فى ذلك الوقت تدعيماً لموقف العثمانيين فى اليمن بوجه عام ، كما تحول هذا الموقف من الدفاع إلى الهجوم ، فقد تقدم عثمان باشا بعد قليل إلى « تعز » واستولى عليها فى شعبان سنة ٩٧٦ هـ (يناير/فبراير سنة ١٥٧٠م) قبل أن تصل إليها إمدادات المطهر [٢] .

وهكذا فمهما كان دافع اللالا مصطفى إلى اتخاذ هاتين الخطوتين فقد نجحتا حينئذ فى التعبير عن أحوال العثمانيين حينذاك ، وعن قدرتهم على اتخاذ خطوة إيجابية لإعادة سيطرتهم إلى اليمن ، كما كانتا أيضاً مقدمة طبيعية لازمة لحملة سنان باشا التى ذهبت إلى اليمن بعد ذلك بقليل .

وفى هذه الأثناء كان النزاع بين سنان باشا ومصطفى باشا اللالا قد بلغ

= بعد ذلك إلى أن يسافر هو إلى هناك ، فقال « أخذ فى تدبير من يتجهز عنه الى اليمن ، ويسد فى إصلاح هذا الخلل الذى ثبت وتمكن ، ويريحه من هذه السفرة الشاقة ويحمل عنه متاعب هذا المسير ومشاقه ، فبادر عثمان باشا الى قبول هذه الأعباء لعلاقة سابقة لوالده بتلك المملكة مدداً وحقباً » ولكننا نرى أن تعيين عثمان باشا كان من قبل السلطان وليس من قبل اللالا مصطفى ، وأن هذا الأخير لم يفعل أكثر من مساعدة عثمان باشا فى الذهاب الى ولايته لإلحاح حسن باشا فى طلب النجدة ، ولهذا كله استعملنا لفظ « مساعدة » ، ولم نتبع قطب الدين فيما ذهب إليه .

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ ٢ ، ص٨٢ أ .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

قته ، ونجح سنان باشا فى الوصول إلى ما يصبو إليه ، فتولى قيادة حملة اليمن ، وأعطيت له جميع الصلاحيات اللازمة ليتخذ ما يشاء من إجراءات لحل أزمة العثمانيين فى اليمن وذلك بعد ترقيته إلى درجة وزير[١] ، واستدعى اللالا مصطفى إلى استانبول مغضوباً عليه ، ولكنه تمكن هناك من أن يسترضى السلطان سليم الثانى كما أشرنا ، فعفى عنه وعينه وزيراً فى الديوان .

وكيفما كان الأمر ، فإن غرض الحملة هو الذى يفسر لنا ضخامتها وكذلك أهميتها فى تاريخ اليمن فى تلك الفترة . وقد تبلور هذا الغرض فى الاحتفاظ بعدن — أو بمعنى أشمل بالسواحل اليمنية — لأهميتها الاستراتيجية فى النزاع الدائر بين العثمانيين والبرتغاليين ، فمنذ بداية القرن السادس عشر أصبح اليمن بمثابة خط الدفاع الأمامى بالنسبة لحوض البحر الأحمر ، وأصبح المماليك ثم العثمانيون يحرصون على أن تكون لهم قواعد فى اليمن لغلق هذا البحر أمام الخطر البرتغالى الذى يهدد الحرمين الشريفين والعالم العربى بوجه عام من ناحية الجنوب . وقد كانت هذه الأمور واضحة وملحة تفرض نفسها على رجالات الباب العالى ، ولذلك تضمنت أوامر السلطان إلى سنان باشا تركيزاً خاصاً على أهمية استرجاع عدن ، إذ جاء فى هذه الأوامر : « إن استردادنا لمملكة اليمن وإن كان ذلك مما يتعين علينا لأنها ميراث أبينا المرحوم المقدس ، لكن جل قصدنا من ذلك إنما هو حفظ ثغر عدن صوناً للحرمين الشريفين على (من) الكفار الملاعين[٢] » ، ولهذا كان ضخامة حملة سنان باشا ترجمة صادقة لاهتمام العثمانيين بالاحتفاظ باليمن تحت سيطرتهم . وقد اهتم مؤرخو هذه الفترة على

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، حـ١ ، م أ ، ص ٢٠٥ أ .

(٢) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص٥٣ ب .

أختلاف مواقفهم واتجاهاتهم بوصف هذه الضخامة وبوصف معدات الحملة وتجهيزاتها[1] ، مما يصور لنا فى النهاية مدى الاهتمام الذى أظهره العثمانيون فى هذه الفترة تجاه مسألة البقاء فى اليمن .

ومن ناحية أهمية حملة سنان باشا بالنسبة لتاريخ اليمن ، فإن هذه الأهمية لاتتمثل فى أنها أعادت السيطرة العثمانية إلى اليمن فحسب ، بل فى أنها كانت أيضاً تجسيماً واقعياً للظروف التاريخية اليمنية والعثمانية على السواء فى هذه الفترة . فقد أبرزت هذه الحملة العوامل المادية والاجتماعية التى كانت تؤثر فى أحداث اليمن باستمرار ، فهى تبرز أهمية الدور الذى تلعبه تضاريس اليمن الجبلية فى سير الأحداث التاريخية ، كما توضح كيف يستغل اليمنيون بنجاح هذه التضاريس فى الوقوف فى وجه السلطة القائمة أو فى مقاومة الغزاة الأجانب . ولقد كانت حصيلة العلاقة بين هذه البيئة الخاصة وبين سكانها الجبليين هى تأكيد لزعامة هؤلاء الجبليين ، أو بالأحرى الأئمة الزيديين ، منذ ذلك الوقت فى تاريخ اليمن الحديث ، فنتيجة لهذه الظروف تمكن الأئمة من مقاومة جيوش سنان باشا حتى اضطر إلى الصلح معهم ، كما تمكنوا بالتالى من قيادة الثورة على العثمانيين حتى أخرجوهم تماماً من بلادهم فيما بعد . ولقد كانت ظروف المقاومة ثم الثورة تؤكد زعامة الجبليين لأنها كانت تخفى وتذيب الاختلافات المذهبية

(١) أطال عيسى بن لطف الله فى وصف هذه الحملة حتى قال لانه لم يخرج الى اليمن مثل هذه الحملة الضخمة فى مختلف العصور سواء فى الجاهلية أو بعد ظهور الاسلام سواء أثناء قيام الدولة الأموية أو العباسية أو بعد ذلك فى عهد الدولة العثمانية « وإن جملة جماله تزيد على ستين ألف جمل ومن الجنود ألوف غير الخدم والخيول (ج ٢ ، ص ٧٣أ) وقد اهتم بذكر عدد الجمال هنا لأنها كانت وسائل نقل الذخائر والمعدات . وكذلك اهتم قطب الدين بوصف هذه الحملة حتى قال « وبالجملة فكان ديوان مصر بجميع عساكره انتقل الى مكة (وهى فى طريقها الى اليمن) مع ما أضيف الى ذلك من عسكر الشام وحلب وقرمان وآمد ومرعش وغير ذلك من الممالك الشريفة السلطانية بحيث لم يجتمع مثل ذلك فى عهد سابق » (ص ٤٧ ب) .

التى كان المؤرخون والكتاب المعاصرون وقتذاك – كما أشرنا – يبالغون جداً فى إبرازها ، وفى تصوير مدى أثرها على وحدة اليمنيين أو اتحادهم أمام العثمانيين .

وأبرزت هذه الحملة أيضاً الجوانب الإيجابية والسلبية فى سياسة العثمانيين فى اليمن ، فأبرزت أنه كما كانت قوة العثمانيين العسكرية عاملا إيجابياً فى تدعيم سيطرتهم فى اليمن ، فقد كانت الأخطاء الفردية لبعض الأمراء والجنود العثمانيين كفيلة بتحطيم هـذه السيطرة ، كما كانت عاملا فى إثارة اليمنيين وفى دفعهم إلى مقاومة الحكم العثمانى باستمرار. حقيقة كان لسنان باشا بعض المواقف الحاسمة فى وجه انحراف هؤلاء الأمراء الجنود ، ولكن ظلت هذه المواقف لا تمثل سياسة عامة يلتزم بها العثمانيون بوجه عام فى اليمن ، لذا اتسمت هذه المواقف بالسمة الفردية الخاصة .

ولهذا كله فإنه من الضرورى منهجياً أن نربط بين سير العمليات الحربية الخاصة بحملة سنان باشا وبين الظروف المحيطة بها ، إذ لا شك فى أن الصدام الذى وقع بين سنان باشا وبين فئات الشعب اليمنى المختلفة كان هو المجال الحقيقى والواقعى لتوضيح العوامل المتباينة التى أثرت فى تاريخ اليمن حينذاك ، وبالتالى فإنه يمكن أن تقسم فترة وجود سنان باشا فى اليمن إلى ثلاثة مراحل :

المرحلة الأولى ، هى التى تم فيها سقوط « تعز » أو بالأحرى سقوط منطقة الجنوب بما فى ذلك «عدن» فى أيدى العثمانيين .

والمرحلة الثانية ، هى التى تم فيها إخضاع منطقة وسط الهضبة اليمنية حتى « صنعاء » شمالا للسيطرة العثمانية .

والمرحلة الثالثة ، وهى التى حدث فيها الصدام المباشر بين سنان باشا

والمطهر عند « ثلاء » دون تحقيق نتائج هامة حتى عقد الصلح بينهما، وحتى مغادرة سنان باشا اليمن .

ولقـــد غادرت الحملة مصر بقيادة سنان باشا فى ١٧ رجب سنة ٩٧٦ هـ (٥ يناير سنة ١٥٦٩ م) ، وعند وصولها إلى ميناء « ينبع » أنزل سنان باشا أغلب أفراد الحملة إلى الساحل ، ثم توجه إلى « المدينة و « مكة » كعادة أغلب ولاة اليمن عند ذهابهم إلى ولايتهم أو عند عودتهم منها .وقد تعمد سنان باشا أن يتوجه إلى اليمن براً لإخضاع شمال تهامة -- أى منطقة « جيزان » — للسيطرة العثمانية ، ولا ستعراض قوة حملته فى أنحاء اليمن أثناء زحفه فى تهامة ، وذلك لإشاعة الرعب بين اليمنيين .ونجحت خطة سنان باشا هذه ، فعند وصوله إلى «جيزان» فى أول شوال سنة ٩٧٦ هـ (١٩ مارس ١٥٦٩ م) هرب أميرها من قبل المطهر، كما أقبل إليه رؤساء ومشايخ قبائل المنطقة يعلنون ولاءهم للسلطنة العثمانية[١] . ولم يطل مقام سنان باشا فى « جيزان » فقد أسرع الى « تعز » بعد قليل لإنقاذ موقف عثمان باشا بها .وكان عثمان باشا قد استولى على مدينة « تعز » بعد وصوله إلى « زبيد » بقليل كما ذكرنا ، ولـكنه لم يتمكن من الاستيلاء على قلعتها التى اشتهرت باسم «القاهرة» أو «القاهرية» لمناعتها وحصانتها ، ولذلك تحول انتصاره إلى فشل ، وأصبح استيلاؤه على هذه المدينة عبئاً عليه ، فبالإضافة إلى ارتفاع قلعة «القاهرة» وحصانتها فقد أرسل المطهر الجيوش الـكبيرة إلى « تعز » تحت قيادة ابن أخيه محمد بن شمس الدين ، فقامت هذه الجيوش بمحاصرة قوات عثمان باشا هناك ، وقطعت طرق مواصلاته ، ومنعت عنه وصول المؤن والذخائر من « زبيد » كما استحال عليه الاستيلاء على باقى منطقة « تعز » ، أو قلعة « القاهرة» التى كانت تمطر جيوشه بحجارة المدافع فتشلها عن الحركة باستمرار[٢] .

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ١٥٠ أ .
(٢) نفس المرجع : ص ١٥٠ ب .

وقـــد تجمدت أوضاع عثمان باشا فى « تعز » حتى كاد أن يقضى على قواته لولا وصول سنان باشا ، الذى رأى أن يعمل أولا على تفتيت الحصار المضروب حول العثمانيين هناك قبل أن يركز هجماته على قلعة القاهرة . وقد بدأ تنفيذ هذه الخطة عندما أرسل عثمان باشا على رأس قوة كبيرة من الجند إلى جبل « الأغبر » الذى كان يواجه قلعة القاهرة . والذى كان محمد ابن شمس الدين يتخذه مركزاً له ونجح عثمان باشا فى مطاردة محمد بن شمس الدين من فوق هذا الجبل وذلك الاغترار الأخير بوفرة جنوده وتخليه عن مواقعه الحصينة ، إذ نزل إلى السفح لمواجهة عثمان باشا فتغلب عليه الأخير فى هـذا الميدان السهلى . وكانت هذه المعركة الصغيرة التى وقعت فى ١٤ ذى القعدة سنة ٩٧٦ هـ (٣٠ أبريل سنة ١٥٦٩ م) بداية لسقوط جنوب اليمن فى أيدى العثمانيين إذ توالت بعد ذلك هزائم الزيديين ، كما توالى تقهقر محمد بن شمس الدين إلى الشمال[1] . وقد ركز سنان باشا اهتمامه عندئذ للاستيلاء على قلعة « القاهرة » فشدد حولها الحصار حتى اضطرت حاميتها إلى التسليم فى ١٧ ذى القعدة سنة ٩٧٦ هـ (٣ مايو سنة ١٥٦٩ م) بعد أن تعهد سنان باشا بتأمين حياة أفرادها . ويلاحظ أن موقف عثمان باشا المتشدد من هذه الحامية هو الذى كان قد أخر الاستيلاء على هـذه القلعة ، فبعد سقوط مدينة « تعز » مباشرة عرضت الحامية تسليم القلعة بشرط تأمين حياتها . ولـكن عثمان باشا أصر على أن يكون التسليم بدون قيد أو شرط أو يستمر الحصار حتى يستولى على القلعـة بالقوة[2] . وكذلك كان تأمين حياة هذه الحامية بعد أن سلمت نفسها لسنان باشا موضع خلاف بين سنان باشا وعثمان باشا — كما كانت بداية لخلافات أخرى أكثر حدة ، فقد طلب الأخير قتل

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ٢ ، ص ٨٣ أ .

(٢) الموزعى : الإحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان (مخطوطة) ص ١٥ ب .

جميع جنود الحامية انتقاماً منهم لموقفهم من قراته أثناء الحصار ، ولكن سنان باشا أصر على أن يفى بعهده حتى يطمئن اليمنيون إليه ، وحتى ينفى عن العثمانيين ما لحق بهم من سمعة سيئة بأنهم لا يوفون بعهودهم ، فيحقق بذلك نصراً سياسياً كبيراً يساعده على اجتذاب اليمنيين للسيطرة العثمانية . ولهذا فقد أحسن سنان باشا استقبال أفراد هذه الحامية وكانوا زهاء خمسمائة نفر ، فأنعم عليهم بالخلع ، وضمهم إلى القوات العثمانية للاستفادة من خبراتهم ، ليكفل لهم الحياة المستقرة بما قرره لهم من مرتبات[1] .

وكان لسقوط حصن القاهرة فى أيدى العثمانيين دلالة أخرى تشير بوضوح إلى نقطة ضعف هامة فى جبهة اليمنيين ، وهى الخلاف التقليدى القديم بين الزيديين والإسماعيليين الذى كان يتجدد باستمرار لاختلاف مصالح هاتين الطائفتين ، ولأن الإسماعيليين كانوا يجدون فى وجود العثمانيين فى اليمن فرصة لتحقيق مصالحهم الخاصة . وكان موقف « رضوان باشا » الخاطئ من الإسماعيلية قد أعطى الفرصة للمطهر لأن يوجه إلى هذه الطائفة ضربة قوية أضعفت شأنها إلى حد كبير ، فدخل بعض أفرادها فى خدمته مثل على الهمدانى الذى عينه قائداً لحامية قلعة « القاهرة » ، وقبض على البعض الآخر وعلى رأسهم الداعى محمد بن عبد الله ، وتشتت الباقى فى أنحاء اليمن . وقد استمر شأن هذه الأقلية الصغيرة ضعيفاً طوال فترة انكماش السيطرة العثمانية وذلك لارتباطها بالعثمانيين ، وعند مجىء سنان باشا إلى اليمن لجأ إليه محمد بن عبد الله الداعى الذى كان قد هرب من اعتقال المطهر قبل مجيئه بقليل ، والذى كان قد استقر « بزبيد » حيث رحب به حسن باشا . وقد عاد الداعى محمد بن عبد الله إلى سابق عادته فى تقديم خدماته إلى العثمانيين وذلك لتوجيه الضربات إلى الزيديين ولإضعاف شأنهم .

---

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانيـــة مخطوطة ، جـ١ ، م١ ، ص ٢٠٦ ب .

وقد إتضح هذا بجلاء عند استيلاء العثمانيين على قلعة « القاهرة » فقد تم هذا الاستيلاء بعد أن قام الداعي محمد بن عبد الله بالاتصال بقائد الحامية الإسماعيلي على الهمداني وبإقناعه بأهمية تسليم قلعته للعثمانيين، وقد أكد على الهمداني طاعته للعثمانيين أمام سنان باشا بعد أن سلم نفسه له، كما أوضح له أنه كان قد اضطر إلى الدخول في طاعة المطهر « لظلم البكاربكية له ولطائفته، وشدة طمعهم وتكليفهم له بما لا يطيقه، وعدد من ذلك أموراً عديدة محصلها أنهم هم الذين ألجأوه إلى التشبث بالغير »[١] .

ولكن يلاحظ أن الإسماعيليين لم يكونوا العنصر الوحيد في إضعاف الجبهة اليمنية في الجنوب أمام العثمانيين لموقفهم المعادي من الزيديين، فقد كان هناك بعض الشوافع من سكان مدينة « تعز » — ممن أضيرت مصالحهم المادية بامتداد السيطرة الزيدية إلى أقاليمهم — قد ساعدوا أيضاً على إضعاف هذه الجبهة. فقد تآمر بعض أهالي هذه المدينة مع عثمان باشا أثناء محاصرته لها على فتح أحد أبواب سور المدينة ليلا أمام قوات العثمانيين، فكان هذا هو السبب المباشر في سقوطها في أيديهم[٢] .

وكان وجـــود محمد بن شمس الدين على رأس قوات المطهر في منطقة جنوب اليمن سبباً آخر وهاماً لضعف موقف الزيديين في هذه المنطقة، إذ لم يكن له الدراية التامة بالحروب وخدعها وفنونها . فمن ناحية لم يستمع إلى رأى قادته في اختيار المراكز التي يوزعون جيوشهم عليها حول العثمانيين في « تعز »، ومن ناحية أخرى بخل على جنوده بالأموال المستحقة لها

(١) قطب الدين : البرق اليماني في الفتح العثماني (مخطوطة)، ص ١٥١ أ — ٢٥ ب .

(٢) الموزعي : الإحسان في دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان (مخطوطة) ص ١٤ أ .

فتترت همتهم فى الوقوف إلى جانبه . وكان هؤلاء القادة يرون — قبل مجىء سنان باشا إلى اليمن — أن تبقى قواتهم فوق الجبال حول « تعز » ثم يقومون بين الحين والآخر بالهجوم على قــوات العثمانيين حتى يضيق حولها الخناق ، ولكن محمد بن شمس الدين أصر على أن يدخل إلى قلعة القاهرة لتعضيد من بها فحوصر بداخلها ولم يتمكن من الخروج منها إلا بعد أن بذلت جيوشه جهوداً كبيرة لإنقاذ نفسها[١] . وكذلك خالف محمد بن شمس الدين أوامر المطهر الذى نصحه بالانسحاب إلى حصن « التعكر » القريب من « تعز » والإقامة به مع توزيع قواته فى باقى الحصون القريبة منه وفوق قمم الجبال حتى يثير بذلك المتاعب للعثمانيين ، ويعوق تقدمهم إلى الشمال . وكان المطهر قد أدرك قوة حملة سنان باشا منذ قدومها إلى « جيزان » ، وأدرك أنه لا قبل لقواته فى مواجهة هذه الحملة فى ميادين سهلية مفتوحة ، ولذلك رأى بنظرته الشاملة ، أن يكتفى بخلق المواقع المنيعة فى طريق العثمانيين لإجهاد قواتهم ، وحتى يثير ضدهم أهالى اليمن جميعاً غير أن محمد بن شمس الدين رفض بنظرته المحدودة إلى ميدان الحرب ، التخلى عن جبل « الأغبر » ليظل مسانداً للمحاصرين بداخل قلعة « القاهرة »[٢] . والحقيقة أن اختيار محمد بن شمس الدين لقيادة القوات الزيدية فى الجنوب لم يقم على أساس مهارته العسكرية بل ليحقق المطهر هدفاً سياسياً هاماً ، وهو جمع شتات أسرته حوله ، وحتى لا يتهم بانحيازه إلى جانب أبنائه الذين اشتركوا فى هذه الحرب تحت قيادة محمد بن شمس الدين . وقد حرص المطهر على تحقيق هذا الهدف السياسى باستمرار ، ولذلك نراه يمتنع عن توجيه اللوم إلى محمد بن شمس الدين عندما اضطر إلى الفرار إلى صنعاء فيما بعد لعدم طاعته للأوامر أو لما ارتكبه من أخطاء ، بل أحسن استقباله وعينه قائداً

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٣٢ — ١٣٣ .

(٢) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٥٠ ب .

لحامية حصن «كوكبان» الذى كان لأبيه من قبل [1].

وكيفما كان الأمر فقد كان استيلاء العثمانيين على «تعز» وقلعتها الحصينة يعنى بالضرورة سقوط باقى المناطق الجنوبية فى أيديهم، وذلك لأهمية «تعز» الاستراتيجية بالنسبة لهذه المناطق، ولأن الزيديين كانوا يتخذونها مركزاً لتجمع قواتهم. وكان استيلاء العثمانيين على «عدن» أمراً متوقعاً فى هذه الأثناء، وخاصة لأن تركيز الهجوم على «تعز» منذ وصول عثمان باشا إلى اليمن كان قد حرم «عدن» من وصول الإمدادات الزيدية إليها. وبالإضافة إلى ذلك فقد ركز سنان باشا اهتمامه باستعادة «عدن» منذ وقت مبكر، أو بالأحرى أثناء زحفه من «جيزان» إلى «تعز»، فقد جهز بميناء «المخا» أسطولا قوياً أرسله إلى «عـــدن» ليحاصرها من ناحية البحر، وليمنع الزيديين من الاتصال بالبرتغاليين إذا فكروا فى الاستعانة بهم. واهتم سنان باشا كذلك بإرسال حملة قوية إلى «عدن» لمحاصرتها من ناحية البر، ولكن تأخر إرسال هذه الحملة لمدة شهر بسبب ما واجه سنان باشا من صعوبات حول «تعز» كما أوضحنا، وقد سقطت «عدن» فى أيدى العثمانيين بعد أيام قلائل من حصارها براً وبحراً، وذلك لضخامة القوات العثمانية التى أعدها سنان باشا للاستيلاء على هذا الميناء الهام[2]. وقـد قتل امير «عمى» قائد القوات البرية العثمانية — والذى كان مشهوراً بحبه لسفك الدماء منذ أن كان كاشفاً بمصر — الأمير قاسم ابن الشويع حاكم «عدن» الزيدى بعد أن كان قد تعهد بتأمين حياته، ودون أخذ رأى سنان باشا[3]، فأدى هـذا إلى رد فعل سيء لدى القادة الزيديين وذلك كما سنرى فيما بعد.

---

(١) عيسى بن لطف الله: روح الروح (مخطوطة)، جـ٢، ص ٨٣ ب.

(٢) قطب الدين: البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة)، ص٥٨، ابن داعر: الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة)، جـ١، م١، ص ٢٠٦ ب.

(٣) يحيى بن الحسين: أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة)، ص ١٤٣.

وهكذا يتضح كيف إنتهت المرحلة الأولى من حملة سنان باشا باستيلاء العثمانيين ثانية على مناطق تهامة وجنوب اليمن حتى « تعز » شمالا فى مدة وجيزة، وذلك نظراً لقوة وضخامة القوات العثمانية التى أحضرها معه كل من عثمان باشا وسنان باشا، ولسهولة هذا الميدان براً وبحراً بالنسبة لجيوش العثمانيين الغفيرة العدد، وبالنسبة لأسلحتهم الضخمة. وقد إتضح أيضاً كيف تضافرت العوامل السياسية مع العوامل العسكرية فى إحراز هذا النصر السريع، فقد كانت قوة شخصية سنان باشا ومهارته السياسية تقابلها ضعف مواقف محمد بن شمس الدين وتخبط سياسته.

ولقد تم فى المرحلة الثانية استيلاء سنان باشا على منطقة وسط الهضبة اليمنية أو بمعنى آخر، لقد تم فى هذه المرحلة انتقال سنان باشا من «تعز» إلى «صنعاء» فواجه المطهر عندئذ فى داخل منطقته الجبلية الوعرة. ولهذه المرحلة أهمية خاصة، إذ تغلبت فيها المواقف السياسية على الأعمال الحربية على عكس المرحلتين السابقة واللاحقة. وإن كان ذلك لا يعنى قلة الجهود الحربية التى بذلها سنان باشا خلال زحفه فى هذه المنطقة.

وقد بدأ سنان باشا أعماله فى هذه المرحلة باتخاذ موقف سياسى هام وهو عزل عثمان باشا من ولاية اليمن وتعيين حسن باشا مؤقتاً بدلا منه، وذلك لما أبداه عثمان باشا من صلابة فى الرأى، بل لميله تعالياً إلى عدم التعاون مع سنان باشا. فبالإضافة إلى مواقف عثمان باشا الحادة المعارضة لمواقف سنان باشا والتى كان أبرزها موقفه من قتل أفراد حامية قلعة « تعز » بعد الاستيلاء عليها، فقد كان السبب المباشر فى عزله هو رفضه التوجه إلى معسكر سنان باشا لمناقشة خطة الزحف إلى « صنعاء ». وكان سنان باشا قد دعى كبار قادته إلى الاجتماع لدراسة هذه الخطة، ولكن عثمان باشا أنف أن توجه إليه الأوامر من جانب سنان باشا لشعوره بأنه ند له. وخشى سنان باشا أن يؤدى هذا الموقف إلى الانقسام فى داخل صفوف العثمانيين، وخاصة لأن أخبار الخلافات بينه وبين عثمان باشا

كانت قد شاعت من قبل بين الجنود ، فأصدر لذلك الأمر بعزله وذلك بما كان لديه من صلاحيات وسلطات واسعة فى اتخاذ جميع الإجراءات اللازمة لتحقيق هدف الحملة فى اليمن[١] . وكان عثمان باشا قد تصادم بعد وصوله إلى اليمن مباشرة مع حسن باشا حول بعض أعمال الأخير أثناء مهاجمة الزيديين « لزبيد » مثل مصادرة أموال بعض أهاليها أثناء مهاجمتها ، فانتهى هذا الصدام بأن غادر حسن باشا اليمن على ظهر إحدى السفن فأعاده سنان باشا معه بعد أن قابله فى ميناء « جيزان » حتى يستفيد من خـــبراته العسكرية ومن معرفته بأحوال اليمن[٢] .

وبعد الانتهاء من هـذه الخطوة السياسية الهامة — وهى عزل عثمان باشا من ولاية اليمن — بدأ سنان باشا أعماله الحربية وذلك بعد وصوله إلى مدينة « القاعدة » التى تقع إلى الشمال من « تعز » بقليل .وكان اليمنيون قد قرروا عرقلة تقدم العثمانيين إلى «صنعاء» وجهاد قواتهم أثناء اختراقها للمسالك الجبلية الموصلة إليها ، « فـسدوا الطرق ، وجعلوا بعضها مخاضة بتسليط الأنهار ، وبعضها وحلا بالمياه الجارية فى الأراضى الرخـــوة من تلك الديار ، وسدوا بعض الشعاب بالصخور الكبار ، ودحرجوا إلى بعض المسالك عظيم الأحجار ، وأخلوا تلك المسافة من القرى وتركوها قاعاً صفصفاً »[٣] . وتعطينا هذه الصورة وغيرها بالإضافة إلى عرض مصاعب الطرق التى وقف عندها سنان باشا كاسترى، عمقاً جديداً لفهم استعداد اليمنيين لمواجهة القوات العثمانية ، وكيف يستغلون بيئتهم الجبلية فى حروبهم المحلية . ولهذا قضى سنان باشا بعض الوقت فى « القاعدة » لاختيار أحد هذه الطرق الموصلة إلى « صنعاء» . وكان الطريق الأول هو طريق « نقيل أحمر » ، وهو عبارة عن ثغرة ضيقة بين جبلين عاليين ، ويمتاز بقصره

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٥٤ أ .
(٢) نفس المرجع : ص ٥٥ أ .
(٣) نفس المرجع : ص ٥٦ ب .

ولكنه ملىء بالعقبات الطبيعية التى كان يصعب معها نقل المدافع الكبيرة به ، ولذلك قرر سنان باشا عدم اجتياز هذا الطريق. وكذلك رفض سنان باشا اجتياز الطريق الثانى وهو طريق وادى « سنحان » الذى كان يمتاز بقصره أيضاً ، إذ كان هذا الطريق كثير الالتواء ، وبه عدد من الهضاب المرتفعة . أما أراضى الوادى نفسها فهى أراض رخوة تكثر بها الأوحال ، ويصعب على الدواب اجتيازها وخاصة وهى تحمل أو تجر المعدات الثقيلة . ولذلك قرر سنان باشا أن يختار الطريق الثالث وهو طريق وادى « ميثم » رغم طوله الملموس ، ورغم أنه كان لا يخلو من بعض العقبات الطبيعية ، وذلك لأن اليمنيين كانوا قد أهملوا بث العراقيل به مثـــل إغراق أراضيه بالمياه ، ومثل سد مسالكه بالأحجار الضخمة[1] . ويبدو أن اليمنيين كانوا قد أهملوا تخريب هذا الطريق لأنهم استبعدوا أن يكون موضع اختيار سنان باشا ، أو يبدو أن ذلك كان عملا متعمداً من جانب اليمنيين حتى يصبح هذا الطريق كميناً طبيعياً للجيوش العثمانية بعد أن تتوغل به قواتهم . ونحن نرجح الافتراض الأخير لما أبداه اليمنيون حينئذ من جهود ضد القوات العثمانية طوال اختراقها لهذا الطريق الطويل ، فقد قاموا بمناوشة هذه القوات وتخطفوا جنودها من فوق قمم الجبال ، كما هاجموا مؤخرة الجيش العثمانى للاستيلاء على المعدات والذخائر[2] . وقد بدا حينذاك أن النصر فى هذه المنطقة كان فى جانب اليمنيين ، إذ كان اليمنيون قد نجحوا فى تحويل الحرب ضد العثمانيين إلى ما يشبه حرب عصابات وتحاشوا الصدام المباشر مع القوات العثمانية النظامية ، ولذلك كانت خسائرهم وقتلاهم أقل بكثير من

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٥٦ ب — ٥٧ أ .

(٢) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ، ص ١٣٣ .

خسائر العثمانيين وقتلاهم ، وكانت طبيعة هذه المنطقة الجبلية هى العامل الحاسم فى تحديد هذه النتيجة ، فهذه الجبال تتلاءم بشكل كبير مع الحروب غير النظامية التى يجيدها اليمنيون ، كما كان هؤلاء أقدر من العثمانيين على تسلق هذه الجبال ،وأعرف بمسالكها، ورغم هذا فقد استطاع سنان باشا أن يجتاز هذا الطريق وأن يصل إلى « ذمار » التى تقع إلى الجنوب بقليل من صنعاء ، كما استطاع خلال هذه المسيرة أن يستولى على معظم جهات وسط الهضبة ، وخاصة إقليم « بعدان » — الذى كان يشتهر باسم مملكة « بعدان » — ماعدا حصن «حب» الشهير ، فقد استولى سنان باشا على مدينة «إب» — أهم مدن هذه المنطقة — فى ١٠ محرم سنة ٩٧٧هـ (٢٥ يونيه ١٥٦٩م) . كما استولى على مدينة « التعكر » وحصنها المنيع وغير ذلك من المدن والحصون الأقل أهمية . وإن كان ذلك قد كبده الكثير من المتاعب والخسائر فى المعدات والأرواح[١] ، وفى نفس الوقت ، فضل سنان باشا أن يواصل زحفه إلى « صنعاء » عن إضاعة الوقت فى الاستيلاء على حصن « حب » الذى كان محمود باشا قد حاصره أثناء ولايته لمدة ثمانية أشهر دون طائل ، ولم يستطع أن يستولى عليه إلا بالخديعة والغدر كما سبق أن أوضحنا ، وكان المطهر قد عين أخاه علياً — الذى كان مرشحاً للإمامة من قبل كما ذكرنا — حاكما لهذا الحصن بعد أن استولى عليه أثناء فترة انهيار السيطرة العثمانية فى اليمن ، وقد اكتفى سنان باشا حينذاك بتعيين أميرين لمحاصرة هذا الحصن بصفة مستمرة لإضعاف مقاومته ، وذلك بعد أن هيأ لهذين الأميرين سبل الإقامة الطويلة حول الحصن ، وبعد أن هدم حصنين صغيرين كانا يقعان بالقرب من حصن « حب » حتى لا يستفيد بهما اليمنيون فى إثارة المتاعب للعثمانيين هناك[٢] .

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٦١ أ — ٩١ ب .

(٢) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، حـ ١ ، م ١ ، ص ٢٠٨ أ .

ولقد سقطت « ذمار » ثم « صنعاء » فى أيدى سنان باشا بعد قليل دون حرب ، وذلك لأن المطهر كان قد قرر سحب قواته الرئيسية إلى المنطقة الجبلية شمال « صنعاء » لتركيز الدفاع بها . وقد سلم أهالى هاتين المدينتين بلديهما لسنان باشا بأمر المطهر حتى لا يتعرضا للتخريب أو السلب والنهب كما حدث فى عهد أزدمر باشا . وكان وصول سنان باشا إلى « صنعاء » فى ١١ صفر سنة ٩٧٧ هـ (٢٦ يولية سنة ١٥٦٩ م) أى بعد حوالى خمسة أشهر فقط من وصوله إلى « جيزان » فدخلها فى أمان وذلك بعد أن كان قد أرسل إليها أحد الأمراء على رأس قوة صغيرة « ليمنع العساكر من دخول البيوت والبحث عن العلف والقوت »[١] .

وهكذا توج سنان باشا – فى سرعة نسبية – أعماله فى المرحلة الثانية بالاستيلاء على « صنعاء » ، وبإخضاع أغلب جهات اليمن للسيطرة العثمانية ، فلم يعد أمامه إلا المنطقة الجبلية الشمالية . وقد اتضح لسنان باشا فى خلال هذه المرحلة أمران هامان ، أولهما هو نوع العقبات الطبيعية التى يختص بها اليمن ، وثانيهما هو نوع الحروب التى يجيدها اليمنيون فى داخل بلادهم ، ولذلك فقد كانت هذه المرحلة ، وما لمسه خلالها سنان باشا ، مرحلة تمهيدية للمرحلة التالية التى برزت فيها بوضوح جميع العقبات الطبيعية والاجتماعية التى تواجه دائماً الأنظمة أو الأشكال السياسية التى تحاول أن تفرض نفسها فى اليمن ، أو التى تحاول أن تقيم دولة لنفسها به .

ولقد كان أهم مايميز المرحلة الثانية من مراحل حملة سنان باشا فى اليمن هو نجاح المطهر فى أن يفرض على سنان باشا الميدان الذى يحارب فيه ، وفى أن يفرض عليه نوع الحرب التى كان عليه أن يخوضها ، وذلك حتى أجبره على عقد

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) جـ٢ ، ص ٨٣ ب .

الصلح معه . وكان المطهر قد وضع خطته منذ وصول سنان باشا إلى اليمن على أساس أن تكون المنطقة الشمالية الجبلية هى نقطة ارتكازه الأخيرة التى يواجه بها جيوش العثمانيين الجرارة بعد أن تقوم قواته المتناثرة بأقاليم اليمن المختلفة بإضعاف قوة هذه الجيوش ، وبإعاقة اندفاعها ، فتتمكن عندئذ من إلحاق الهزيمة بها بين ثنايا الصخور الصماء ، وأن تجبرها على الأقل على عقد صلح معه ، وكان انسحاب المطهر من « صنعاء » منذ أن أدرك اضطراد زحف سنان باشا إليها ، جزءا من خطته فى لقاء جيوش العثمانيين فى داخل الجبال وليس فى ميادين سهلية مفتوحة ، ولذلك نراه يتوجه إلى حصنه الخاص وهو حصن « ثلاء » ليقيم به ـ وهو الحصن الذى كان يلجأ إليه دائماً فى الشدائد منذ نزاعه مع أبيه الإمام شرف الدين ، ثم أقام محمد بن شمس الدين فى حصن « كوكبان » . كما أقام أبناءه وقواده فى باقى حصون وقلاع هذه المنطقة ، مع شحنها بالأسلحة والمؤن التى يحتاج إليها المحاربون أثناء الحصار[١] .

ولقد كان توزيع جيوش المطهر فى داخل هذه المراكز الحصينة يحرم سنان باشا من مواجهة جيش نظامى موحد فى معركة أو عدة معارك محددة ، بل يجبره بالتالى على توزيع جيوشه على عدد من الجبهات المتباعدة ، وفى نفس الوقت كانت وعورة هذه المنطقة تحرم سنان باشا أيضاً من الاستفادة من معداته الحربية الثقيلة ، إذ كان يصعب على جنوده نقلها من مكان إلى آخر ، كما تحرمه كذلك من الاستفادة من فرسانه حيث يصعب على الخيول فى العادة تسلق الجبال ، ومن ناحية أخرى كانت قلاع المطهر بمثابة ملاجىء حصينة لجماعاته الصغيرة بعد أن تقوم بمناوشة الفرق العثمانية التى كان يصعب عليها متابعة اليمنيين فوق الجبال أو اللحاق بهم ، وذلك لمعرفة هؤلاء اليمنيين بمسالك هذه الجبال ، وبطرق

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٣٤ .

ارتقائها المختلفة ، وفى النهاية فقد ظل سنان باشا طوال مدة إقامته فى هذه المنطقة تحت رحمة ضربات اليمنيين الخاطفة . رغم أنه كان فى موقف المهاجم كما يبدو فى الظاهر وذلك حتى تم عقد الصلح بينه وبين المطهر .

وهناك حقيقة هامة يجدر الإشارة إليها عند عرض تحركات سنان باشا فى هذه المنطقة ، وهى أنه واجه بها كتلة زيدية موحدة تحت قيادة المطهر وأنه لذلك كان مجبراً على اتباع طريق معين وهو الاتجاه أولا إلى « ثلاء » للقضاء على المطهر باعتباره رأس المقاومة اليمنية حينذاك ، وذلك على عكس ما كان قائماً فى أيام أزدمر باشا الذى ساعده انقسام أسرة الإمام شرف الدين على نفسها على الاستيلاء على أغلب جهات المنطقة الشمالية حتى « صعدة » شمالا قبل أن يتوجه إلى المطهر فى « ثلاء » وكانت هذه الحقيقة تفرض بالضرورة على سنان باشا أن يكون حذراً متأنياً أثناء زحفه إلى « ثلاء » ، وأن يعمل باستمرار على تأمين قواته أثناء إقامتها أو تحركها . أو بالأحرى فرضت عليه أن يعمل على تطهير المناطق المحيطة بجيوشه أينما وجدت .

وقد ثارت المتاعب حول العثمانيين فى المنطقة الشمالية بعد استيلائهم على « صنعاء » مباشرة ، فقد قام الأمير قطران حاكم « خولان » من قبل المطهر بمناوشة القوات العثمانية حول (صنعاء) كما قام بمهاجمة مؤخرة جيش سنان باشا أثناء زحفه إلى « ثلاء » ، وعندئذ اضطر سنان باشا ــ لخطورة هذه الأعمال ــ إلى أن يرسل قوة خاصة من جنوده للقضاء على هذا الأمير ، وقد نجح القائد العثمانى الأمير «مى» ــ وهو الذى سبق له الاستيلاء على عدن ــ فى أن يجبر الأمير قطران على اللجوء إلى حصنه فى «خولان» حيث حوصر به بعض الوقت. واعتمد قطران على معرفته بطبيعة المنطقة ومسالكها فى إنقاذ حاميته من الحصار أو من الأسر ، فالتجأ إلى الخديعة للخروج من هذا المأزق ، وتظاهر بأنه يرغب فى التسليم ، ثم عاد فأظهر رغبته فى الحرب عند خروج جنوده إلى أبواب

الحصن ليجبر العثمانيين على التراجع قايلا لملاقاته ، وعندئذ فر هو وجنوده في سرعة خاطفة إلى الجبال المحيطة بالحصن ، قبل أن يلحق بهم أحـــد من العثمانيين[١] .

وقد ظل قطران بعد ذلك طليقاً يثير المتاعب في وجه سنان باشا طوال مدة إقامته في المنطقة الشمالية ، ولكن يلاحظ أن الأمير «مى» عمد إلى هدم حصن «خولان» بعد الاستيلاء عليه ، وذلك طبقاً لخطة سنان باشا التي كانت تهدف إلى هدم كل الحصون التي يستولى عليها لإضعاف المقاومة اليمنيـــة بوجه عام .

وكيفما كان الأمر فقد كان هدف سنان باشا بعد «صنعاء» هو الاستيلاء على حصن «ثلاء» ولكنه لاقى العديد من العقبات الطبيعية والبشرية التي أعاقته في النهاية عن تحقيق هدفه . وقد بلور سنان باشا خطته حينذاك في أمرين يكمل بعضهما الآخر ، أولهما: ضرورة الاستيلاء على القلاع الحصينة المزروعة في الطريق إلى «ثلاء» ، وثانيهما : الاعتماد كلية تقريباً على إمكانيات المنطقـة نفسها للحصول على حاجيات قواته ، وذلك لأن الاستيلاء على أقاليم هـذه المنطقة الجبلية من ناحية يحتاج إلى وقت طويل أو بالأحرى إلى «نفس طويل» ، ولأن طول طرق تموينه وما يحيط بها من أخطار أو صعوبات من ناحية أخرى يجعل الحصول على الإمدادات والمؤن من «زبيد» أو «تعز» أو غيرهما أمراً صعباً .

وقد استطاع سنان باشا أن يستولى على مدينة «شبام» - المدينـــة الجبلية الهامة التي تقع بالقرب من حصن كوكبان - ولكنه لم يستطع البقاء بها بل انسحب منهـا بعد أن هدم سورها ، وحطم وسائل دفاعها . ومدينـة «شبام» تقع فوق هضبة جبليـة مرتفعة ، ويحيط بهـا الجبال من ثلاث

(١) قطب الدين : البرق اليماني في الفتح العثماني (مخطوطة) ، ص٦٤ أ — ٦٤ ب .

نواحى ، كما يحيط بها سور ضخم من الناحية الرابعة ، ولذلك فقد رأى سنان باشا أن بقاءه بها سيجعله تحت رحمة حصن «كوكبان» الذى يقيم به محمد ابن شمس الدين على رأس حامية قوية[1] . وقد أدرك سنان باشا عندئذ أهمية إقامة معسكره فى نقطة متوسطة بين حصن «كوكبان» و «ثلاء» باعتبارهما أهم مراكز الزيديين فى هذه المنطقة ، وذلك حتى يمنع الاتصال بينهما ، وحتى يضعف بالتالى من مقاومتهما ، ومن أثرهما فى مقاومة باقى المنطقة الشمالية . وقد سارت الحرب حينذاك على وتيرة واحدة تقريباً دون تقدم يذكر ، فإزاء ضربات الزيديين الخاطفة المتكررة ، فقد كان الطابع الغالب على أعمال سنان باشا هو إرسال الدوريات اليومية لصد هذه الضربات ، وإلى ما حول حصنى «ثلاء» و«كوكبان» لمعرفة أحوال حاميتهما ، واكتشاف الطرق المؤدية إليهما ، أو لمحاولة تضييق الحصار حولهما . وبالاضافة إلى هذه الصورة العامة للأعمال الحربية فى هذه المنطقة ، فقد كان هناك جانب هام هو اهتمام سنان باشا بتركيز الحصار نسبياً حول حصن «كوكبان» ، لقرب مكانها من «صنعاء» ، ولتحطيم أحد شقى الرحى التى وقع بينهما بوقوفه بين «كوكبان» ، «وثلاء» ، ولذلك فقد عين حسن باشا على رأس قوة كبيرة من الجند لتضييق الحصار حول «كوكبان» ، وللاستيلاء عليه فى النهاية .

ولتنفيذ خطة سنان باشا التى فرضتها الظروف الخاصة بهذه المنطقة ، والتى كانت تقوم على توزيع القوات العثمانية على الجهات المتعددة لا تركيزها ، والتى كانت تعتمد على طول النفس وليس على الهجوم السريع على جيش منظم فى معركة بذاتها ، فقد لجأ سنان باشا لهذا كله إلى الأقاليم المحيطة به

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص٦٥ب — ١٦٦أ .

(٢) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمنية (مخطوطة) ، جـ١ ، ص٢٠٨أ — ٢٠٨ب .

للحصول على المؤن اللازمة لقواته . وقد أثار سنان باشا ضده اليمنيين الذين أساءهم استيلاءه بالقوة على محاصيلهم وأقواتهم ، ولاتسام أعماله حينذاك بسمة السلب والنهب ، وذلك بالرغم من حرصه الشديد على التزام العدل والإنصاف في معاملة الأهالي منذ وصوله اليمن ، ورغم حرصه على تقريب اليمنيين إليه .

وكان العثمانيون قد بدأوا يشعرون بحاجتهم إلى المؤن بعد دخولهم «صنعاء» بقليل ، ولذلك فقد أرسل سنان باشا حسن باشا على رأس قوة من الجند إلى « وادي السر » الذي كان تحت حكم لطف الله بن المطهر ، وذلك بحجة تطهير هذا الوادي القريب من « صنعاء » من القوات الزيدية . وللحصول على المؤن اللازمة في حقيقة الأمر كما عبر قطب الدين رغم أنه كان معروفاً بانحيـازه للعثمانيين ، فقد كان الأمر الذي أصدره إلى حسن باشا هو « أن يغير على القرى وينهب مايجد فيها من الغلال »[1]. وواصل سنان باشا مثل هذا العمل بعد ذلك فقد أغار بنفسه على رأس قوة من الجند على إحدى القرى القريبة من معسكره بين « كوكبان » و « ثلاء » ، واستولى على مابها من محصولات وأغنام ، وكذلك قطع جنوده « من الزرع ما أرادوا ، وقلعوا من الأبواب وأخشاب السقوف ماقدروا عليه ، وأصابوا في ذلك وأجادوا ، ورجعوا إلى المحطة « المعسكر » ، واتسعوا طعاماً وإطعاماً ، ثم احتاجوا إلى مثل ذلك فتوجه الأمير محمود مع بعض الفرسان ، وخرج بطائفة من الخدم والغلمان ، وأرسلهم إلى المزارع المعهودة على الوجه المعهود »[2].

واعتمد سنان باشا كذلك على حلفائه الإسماعيليين في الحصول على المؤن اللازمة لقواته فقد أرسل الداعي محمد بن عبد الله إلى « همدان »

---

(١) قطب الدين : البرق اليماني في الفتح العثماني (مخطوطة) ، ص ٦٤ ب .
(٢) نفس المرجع ، ص ٦٦ أ — ٦٦ ب .

وغيرها من الأقاليم التى يتركز فيها أتباعه الإسماعيلية لتجنيد الأعداد الغفيرة منهم للوقوف الى جانب القوات العثمانية فى حصار حصن (كوكبـــان) ، وليجلبوا على العسكر أنواع الميرة ، ومايحتاجون إليه من المنافع الكثيرة[1] . ومن ناحية أخرى ذهب على الهمدانى الإسماعيلى — الذى كان قائداً لحصن (تعز) قبل سقوطه فى أيدى العثمانيين — إلى إحدى قرى وادى (البون) واستولى على الكثير من الأغنام والأبقار ، وعلى الكميات الكبيرة من المحاصيل الزراعية ، نظراً لدرايته بأحوال هذا الوادى ومسالكه منذ أن كان متولياً لأموره من قبل المطهر فى فترة انكماش السيطرة العثمانية[2] .

وهكذا يتضح كيف دارت أعمال سنان باشا فى هذا الميدان الحربى المحدود الذى يمتد لمسافة خمسين كيلو متراً فقط بين صنعاء وثلاء ، كما يتضح أيضاً كيف اعتمد سنان باشا على إمكانيات هذا الميدان المحلية فى مد قواته بضرورياتها من المؤن ، مما أدى إلى تذمر اليمنيين واستيائهم ، ثم انضمامهم بالتالى إلى جبهة المطهر .

وقد إتبع المطهر بدوره خطة ذات شقين ، إحداهما عسكرية وتتمثل فى مهاجمة القوات العثمانية ومناوشتها دون التصادم معها ، والأخرى دعائية تهدف إلى إثارة اليمنيين فى جميع أقاليم اليمن ضد العثمانيين بوجه عام لإثارة المتاعب فى وجوههم . وقد اعتمد الجانب العسكرى فى خطة المطهر كما أشرنا على مايشبه حاليا حرب العصابات التى تعتمد أساسا على الكر والفر السريع ، وعلى عدم الصدام الجماعى بالجيوش النظامية ، بل الاعتماد على الجهود الفردية فى تكبيد العدو أكبر قدر ممكن من الخسائر لإجهاد قواته ، ولإضعاف الروح

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٦٦ أ ٦٦ ب.
(٢) نفس المرجع : ص ٦٦ ب — ٦٧ أ .

المعنوية بين جنوده . وكذلك يعتمد هذا النوع من الحرب على معرفة الأهالى التامة بطبيعة أقاليمهم ، وعلى خفة حركتهم ومرونتهم حتى يتمكنوا من الاختفاء السريع بعد إلحاق الضرر بعدوهم ، ولذلك فقد كان المطهر يواصل إرسال جماعاته الصغيرة لمهاجمة معسكر سنان باشا أثناء تغيبه ، أو لمهاجمة فرسانه عندما تتوجه جماعاتهم إلى السفوح بحثاً عن الكلأ لخيولهم ، أو لمفاجأة بعض قواته فى أوقات راحتها ثم تعود مسرعة إلى أوكارها وقلاعها فوق قمم الجبال. وقد فسر بعض المعاصرين وقتذاك مثل قطب الدين وابن داعر انسحاب قوات المطهر السريع تفسيراً خاطئاً ، وعللوا ذلك بأنه انهزام ، أو انعدام المقدرة على الوقوف فى وجه العثمانيين ، ولكننا نرى أن الانسحاب السريع إنما هو إدراك واع لطبيعة حرب العصابات التى يعتبر شعار (إضرب واهرب) من أهم شعاراتها .وكان المطهر يحرص كذلك — إكمالا لخطته — على أن تبقى قوات سنان باشا فى سفوح الجبال والوديان ، حتى تظل تحت رحمة اليمنيين الذين يرتقون قمم الجبال ، ولذلك اشتد نشاط المطهر عندما اشتد اقتراب العثمانيين من حصن « كوكبان » حتى لا يسقط فى أيديهم ، وحتى تبقى قواتهم محاصرة بين شقى الرحى الذى فرضه عليهم فرضا . ولم تقتصر جهود المطهر لإنقاذ (كوكبان) على مهاجمة العثمانيين وإشغال قواتهم حتى لا تتفرغ لمحاصرة هذا الحصن ، بل عمل على مد المحاصرين بداخل الحصن سراً بما يلزمهم من مؤن وذخائر عن طريق أتباعه الذين يجيدون تسلق الجبال ومعرفة دروبها ، وبذل الأموال للداخل والخارج ، (وكان يجعل لمن دخل عشرة دنانير ذهباً أحمر ، ولمن خرج كذلك ، وكان كل ما يحتاجونه فى الحصن يرسل به فى الليل ، ويجعل محبة من يحسن التطفل ويدرك الحيل)[١].

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، ﺣ ٢ ، ص ٨٤ أ .

وكان القسم الدعائي من خطة المطهر يكمل في الحقيقة القسم العسكري ، فهو يهدف إلى إثارة اليمنيين في كل أقاليم اليمن ضد العثمانيين للتمرد عليهم ولمهاجمة قواتهم أينما وجدت ، وقد نجحت هذه الخطة في تحقيق أهدافها كاملة حتى أصبح الاضطراب الذي ساد باقي أقاليم اليمن أثناء وجود سنان باشا في معسكره بين « كوكبان » و « ثلاء » من أهم الأسباب التي أجبرته على عقد الصلح مع المطهر ، وقد إعتمد في أعماله الدعائية على عدة أمور منها قرابته للرسول ، وجهل عامة الشعب اليمني وتعلقهم بالخرافات والأساطير ، ومنها كذلك استخدامه للمال في تقريب بعض القبائل إليه ، أو إعتماده على علاقات القرابة القبلية والأسرية بينه وبين القبائل الأخرى . ومن ناحية أخرى عبر المطهر بمهارة عن تذمر اليمنيين من سياسة العثمانيين وأخطائهم الفردية أو الجماعية ، فكان يحرض الأهالي على القتال بتذكيرهم بما ارتكبه العثمانيون من أخطاء ومظالم ، « وما يجرى عليهم من العسف في المدن والأسواق والبلاد ، ومن استخدام الصبيان بالقهر والطغيان ، وما يجرى من إنتهاك الحرم والنسوان ، وأن ذلك صار جهاراً في الجند من غير نكير ولا قدرة على الدفع »[1] . وكانت كتبه إلى القبائل المختلفة تمتلىء بمثل هذه الإشارات ، « وأضاف إلى إرسال كتبه ونقوده إرسال شعور بناته ونسائه ، وشعور أهل بلده وأقربائه ، واستصراخهن على الأروام بأنهم يسلبونهن ويفعلون بهن الفعل الحرام » ، ثم يناشد ضمائر اليمنيين ويدعوهم إلى الثورة فيقول « فأين الحمية وإن ذهبت العصبية ، وهؤلاء يتبذلون نساء الأشراف ، ويلجؤهن إلى مهاوى الاعتساف ، ويكرهوهن على الزنا ، ويفتضون الأبكار الحصناء ، وأنتم حشو أثوابكم ، تأكلون وتشربون ، وترقصون وتطربون ، ولا تدفعون عن حريمكم هذا العار ، ولا تركبون في دفع هذا العار عنكم مراكب

---

(١) يحيى بن الحسين : انباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٣٤ .

الأخطار »[١] . ولجأ المطهر أحياناً فى دعايته إلى إدعاء الكرامات أو العلم بالغيب مستغلا فى ذلك جهل العامة فى تفسير الظواهر الطبيعية ، فأشاع أنه رأى الرسول (ص) فى المنام ، وأنه بشر بقرب زوال الدولة العثمانية ، وأنه يجب على المسلمين محاربتها ، ثم يذكر أن الرسول (ص) قد أوصاه خيراً باليمن واليمنيين ، وأن عليه أن يعفو عنهم ، ويغفر لهم دخول بعضهم فى طاعة العثمانيين ويرفع عنهم الخراج لمدة ثلاث سنوات تخفيفاً عنهم ، وقد برهن المطهر على صدق هذه الرؤيا بأن أشاع أيضاً أن الرسول (ص) أخبره بكسوف القمر فى إحدى الليالى ، وأن هذه الظاهرة الطبيعية ستكون تصديقاً لحديثه إلى الناس الذين عليهم أن يبادروا إلى محاربة العثمانيين ، وإلى إخراجهم من ديارهم عند حدوث هذا الكسوف . وقد علق أحد المعاصرين على هذه الرؤية بقوله : « واستفاد كسوف القمر فى تلك الليلة من بعض التقاويم ، فأبرزه فى هذا القالب السقيم ، وما خشى عار الكذب فى ذلك لأن العربان جهال ، وعقولهم فى غاية الضلال ، ويظنون أن ذلك من علم الغيب »[٢] .

وكان المطهر يحيط معاركه الصغيرة دائماً بهالة من التضخيم والمبالغة ، ويتظاهر بأنه يحقق باستمرار الانتصارات الضخمة على العثمانيين ، ليرفع بذلك معنويات أتباعه ، وليغرى القبائل المختلفة على الوقوف بجانبه حتى تشاركه الغنائم والأسلاب بعد أن لحق الضعف والإنهيار بقوات العثمانيين . وقد لجأ المطهر فى ذلك إلى تقليد معروف فى اليمن ، وهو إشعال النيران فوق قمم الجبال فى الليل لإعلان انتصاره ، وكان من عادة اليمنيين إذا وقع حرب بين قبيلتين فإن

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٨٨ أ .

(٢) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص٨٧ب (يلاحظ أن قطب الدين كان على رأس المتحازبين إلى العثمانيين وخاصة سنان باشا ، ولذلك كان كثير الهجوم على المطهر فيصفه بالأعرج دائماً لما يساقه من عرج أو اللعين أو غير ذلك) .

القبيلة المنتصرة تشعل النيران فوق قمة جبلها لإعلان فرحها وسرورها بالنصر الذى حققته على القبيلة الأخرى .

وهكذا نرى أن المطهر قد اتبع كافة أساليب الدعاية وأشكالها فى تحطيم الروح المعنوية لدى العثمانيين ، وفى تأليب اليمنيين عليهم . وكان المطهر فى الحقيقة يجد فى أخطاء العثمانيين ومفاسدهم مادة غزيرة لتغذية دعايته ضدهم ، ولتحويل ثورته فى شمال اليمن إلى حركة وطنية عامة تهدف إلى التخلص من حكم العثمانيين ، وإلى إخراجهم من بلادهم . وكان العثمانيون بسياستهم وسلوكهم يساعدون المطهر من حيث لا يدرون ، فبالإضافة إلى المفاسد التى أشرنا إليها فى فترة انكماش السيطرة العثمانية ، ظهرت بعض هذه المفاسد أثناء وجود سنان باشا فى اليمن ، وكاد أن يتفشى آثارها السيئة لولا وقوف سنان باشا فى وجهها بما كان له من سلطات واسعة وقدرة إدارية وسياسية عالية . فقد قام سنان باشا أثناء وجوده أمام (كوكبان) و (ثلاء) بعزل أحد أمراء (صنعاء) من منصبه عندما اشتكاه الأهالى له ، (وذكروا مظالمه وتعديه على الرعايا)[١] . وفى نفس الوقت تقريباً عزل سنان باشا والى (تعز) الذى تفشى ظلمه واضطهاده للأهالى (بحيث قالوا عن حكمه حكم قراقوش)[٢] . ولكن هذه المواقف الحاسمة لم تكن تقضى تماماً على نتائج تصرفات الولاة الفاسدة ، فقد أدى تذمر أهالى (صنعاء) إلى تجديد نشاط الأمير قطران ضد العثمانيين حتى كاد أن يستولى على (صنعاء) نفسها من أيديهم بمعاونة بعض أهاليها لولا انكشاف أمره فى اللحظات الأخيرة

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٩٣ب .

(٢) نفس المرجع : ص ٩٠ب .

وإحباط خطته . وكذلك أدى سخط أهالى « تعز » إلى اشتداد الاضطرابات بها وبباقى جهات الجنوب ، فكان ذلك من أهم الأسباب التى دفعت سنان باشا إلى الإسراع إلى عقد الصلح مع المطهر حتى يتفرغ للقضاء على هذه الاضطرابات .

وكيفما كان الأمر فقد سارت أعمال سنان باشا فى المنطقة الشمالية بطيئة للغاية حتى كادت تتسم بالجمود ، وذلك نتيجة وعورة هذا الميدان الجبلى . وقد ركز سنان جهوده حينئذ من أجل الخروج من هذا المأزق ، ولذلك عمل مافى وسعه الاستيلاء على حصن « بيت عز » — الذى كان أكثر حصون جبل « كوكبان » قرباً إلى « ثلاء » — وذلك للاقتراب من حصن كوكبان نفسه من ناحية ، ولتحطيم طرق المواصلات بصورة فعلية بين هذا الحصن وبين « ثلاء » من ناحية أخرى . وتعطينا محاولات سنان باشا للاستيلاء على هذا الحصن صورة واقعية للجهود المضنية التى بذلها للاستيلاء عليه ، وفى نفس الوقت تعطينا صورة لما بذله اليمنيون فى الدفاع عن حصنهم ، وكيفية وقوفهم فى وجه العثمانيين . فقد تقدم سنان باشا بنفسه على رأس ألف جندى تقريباً إلى حصن « بيت عز » ، فدفع بالمشاة إلى المقدمة لأنهم أقدر على تسلق الجبال ، ثم لحق بهم الفرسان . وجعل المدافع وآلات الحصار فى المؤخرة لثقلها وصعوبة نقلها إلى المرتفعات ، وكانت خطة سنان باشا هى تسلق الجبل أثناء الليل حتى يفاجىء من فى الحصن ، غير أن قواته توقفت عن التسلق فى منتصف الطريق لصعوبة ارتقاء الجبل أثناء الليل وخاصة لأنهم كانوا يتحاشون إشعال المواقد حتى لا يكتشف أمرهم ، وفى الصباح « فطن لهم أهل القلعة ، فبرزوا من قلعتهم ، وملكوا سطح الجبل ، وانتشروا خلف الصخار ، يدفعون الأحجار الكبار ، فتحطم ما تصادف من الخيل ، وعلى من تحتهم من العسكر الكرار ، وصار الحجر الواحد يدحرج معه عدة من الأحجار ، فتحطم ما تصادف من الخيل والرجال ، وتطحن ما تمر عليه من العسكر الأبطال ولم تجد العسكر محلا يمكن

الصعود فيه ، وما وجدوا مسلكاً إلى الجبـل ، ولا طريقاً إلى مراقيه »[١] ، وقد استطاع سنان باشا أخيراً أن ينقذ باقى قواته من هذا الهلاك المحقق بأن أشار إلى مدافعه التى مازالت عند سفح الجبل بأن تطلق طلقاتها لإشغال اليمنيين الذين بأعلى الجبل عن دحرجة الحجارة أو رمى السهام ، وكرر سنان باشا هذه المحاولة مرة أخرى بعد أن أمر حسن باشا أن يتسلق الجبل مع قواته من جهته الأخرى ، ولـكن هذه المحاولة باءت بالفشل أيضاً ، لتأخر حسن باشـا عن الالتقاء بسنان باشا فى الموعد المحدد ، ولأن الأخير وجد مسـالك الجبل التى سلكها فى المرة الأولى قد سدت بالحجارة ، ووقف وراءها الجنود المدججون بالسلاح ، وقد تعرض سنان باشا هذه المرة لما تعرض له فى المرة السابقة لأنه وجد اليمنيين ـ عندما اقترب من قمـة الجبل ـ فى غاية الاستعداد واليقظة ، كما كانوا قد هيأوا حجارتهم « على شفير ذروة الجبل بحيث لايحتاج فى دحرجتها إلى أسفل إلا إلى أدنى حركة ، فإذا دحرجوا الحجر الواحـــد من فوق دحرج معه عدة أحجار بقدر مايصادف فيتحطم من كان فى ممر هبوطه كائناً من كان »[٢] .

وأخيراً ، نجح العثمانيون فى ارتقاء جبل « كوكبان » الـكبير ـ وهو عبارة عن هضبة ضخمة يستوى سطحها إلى حد كبير ، وتتناثر فوقها الحصون العديدة ، وأهمها حصن « كوكبان » الذى يقيم به محمـد بن شمس الدين ـ وذلك بعد أن تضافرت جهود قوات سنان باشا مع جهود قوات حسن باشا وقوات الداعى محمد بن عبد الله من الإسماعيلية ، وتمثلت أهميـة الخطوة العثمانية فى أنه أصبح لهؤلاء موضع قدم فوق جبل « كوكبان » وأنه أصبح فى مقدورهم بالتالى محاصرة حصون هـذا الجبل حتى يتم سقوطها فى أيديهم فيسهل لذلك التفرغ لمحاصرة

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٧١ ب — ٧٢ أ .
(٢) نفس المرجع : ٧٢ أ — ٧٢ ب .

المطهر فی «ثلا» . وكان حصن «بيت عز» هو أول حصون هذا الجبل التي سقطت فی أيدی العثمانيين ، وكان سقوطه فی ١٦ جمادى الأولى سنة ٩٧٧ هـ (٢٧ أكتوبر ١٥٦٩ م) أی بعد مرور أربعة أشهر كاملة من سقوط (صنعاء) ، فأدى هذا إلى سقوط بعض الحصون الأخرى الأقل أهمية[1] . وقد تلى ذلك مباشرة تقدم حسن باشا إلى حصن (كوكبان) ذاته لمحاصرته ، وذلك بعد أن أمده سنان باشا بالمدافع الكبار وآلات الحصار اللازمة . وقد لاقى العثمانيون الأمرين أمام هذا الحصن دون طائل ، وذلك لحصانته ، ولقوة وسائل دفاعه ، فبالإضافة إلى ارتفاعه فقد كان مشحوناً بالمدافع الكبار التى ظلت تحرم العثمانيين فرصة الاقتراب منه ، كما كان محاطاً بخندق عميق عريض يصعب اجتيازه ، وقد بذل العثمانيون الجهود المختلفة لعبور هذا الخندق ولكن دون فائدة ، فقد حاولوا ردم جزء منه بالحجارة ولكنهم فشلوا لأن اليمنيين كانوا ينزلون كل ليلة من داخل الحصن إلى قاع الخندق لتفريغه من الحجارة . وكذلك جاب العثمانيون الأخشاب اللازمة من (صنعاء) لبناء جسر فوق هذا الخندق ، ولكنهم فشلوا فی وضعه فی مكانه لقذفهم بالمدافع من أعلى الحصن[2] .

وقد طال حصار (كوكبان) لعدة أشهر حتى ضاق الطرفان بالحصار ومال كل منهما إلى التصالح ، فتم عقد الصلح بين محمد بن شمس الدين وسنان باشا فی ١٠ ذی الحجة سنة ٩٧٧ هـ (١٦ مايو سنة ١٥٧٠ م) أی بعد حوالى سبعة أشهر من بدء الحصار . وكان الصلح مع محمد بن شمس الدين الخطوة التمهيدية التی أدت إلى عقد الصلح مع المطهر بعد قليل بالرغم من ضيق المطهر من انفراد محمد بن شمس الدين فی اتخاذ هذه الخطوة ، ومن تسرعه فی اتخاذها .

ويعتبر ضعف شخصية محمد بن شمس الدين وضيقه بالحصار من أهم أسباب

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانی فی الفتح العثمانی (مخطوطة) ، ص ٧٧ ب .
(٢) نفس المرجع والصفحة .

ميله إلى عقد الصلح ، وذلك رغم مساندة المطهر له باستمرار مادياً ومعنوياً ، ورغم خوفه هو من عمه المطهر وتظاهره أمامه بقوة بأسه وقدرته على المجالدة والصبر على الحرب .

ومن ناحية سنان باشا فقد تضافرت عدة عوامل هامة على إجباره على عقد الصلح رغم حرصه على الاستيلاء على حصن (كوكبان) وعلى غيره من حصون المنطقة الشمالية بالقوة حتى يؤكد قدرته العسكرية أمام المسئولين العثمانيين فى استانبول ، وليكسر شوكة الزيديين فى اليمن بوجه عام .

وكان صمود حصن «كوكبان» أمام قوات سنان باشا لمدة طويلة هو حجر الزاوية الذى تحطمت عليه آمال سنان باشا ، والذى جعله أميل إلى المسالمة . فرغم ميل محمد بن شمس الدين إلى الصلح منذ وقت مبكر من بدء الحصار ، فقد ظل صامداً يرد عن نفسه وعن قواته جميع المحاولات العثمانية المستميتة للاستيلاء على الحصن ، وكان محمد بن شمس الدين قد أطلق سراح الأمراء الستة المسجونين فى حصن «كوكبان» بعد بدء الحصار بقليل ، وبعد أن أوصاهم بالتوسط لإتمام الصلح ، ورغم ذلك فقد أصر على الصمود حتى تم الصلح وليس التسليم . وبدت خطوة إطلاق سراح الأسرى وكأنها خطوة لجس نبض سنان باشا فقط بالنسبة للصلح[1] .

وكان اشتداد نشاط المطهر بعد بدء حصار (كوكبان) من أهم الأسباب أيضاً التى أجبرت سنان باشا على عقد الصلح مع محمد بن شمس الدين ثم مع المطهر . وقد سبق أن أشرنا إلى الجانب الدعائى الذى لجأ إليه المطهر فى تحريض اليمنيين ضد العثمانيين ، وأنه استطاع بذلك أن يجمع اليمنيين على اختلاف اتجاهاتهم حوله ، وأن يخلق المتاعب فى وجه العثمانيين فى كل أقاليم اليمن ، وذلك رغم وقوف بعض الفئات اليمنية إلى جانب العثمانيين وعلى رأسهم

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٨٩ أ .

الإسماعيلية ، ورغم وقوف فئات أخرى مواقف سلبية بالنسبة للطرفين المتنازعين، المطهر وسنان باشا. وقد نجح المطهر نجاحاً كبيراً فى تنفيذ خطته حتى أجبر مؤرخ حملة سنان باشا - قطب الدين - على الاعتراف بهذا النجاح رغم أسلوبه المتحيز فى التعبير عن هذا النجاح ، فقد عبر عن اضطراب الأحوال فى اليمن بقوله « ولما تخبطت أدمغة عصاة العرب وحصل لهم الغرور بما أرســـل به إليهم الأعرج - يقصد المطهر - وكتب ، وصدقوا بما افتراه من الأباطيل وكذب ، شرعوا فى البغى والعناد ، وقطعوا السبل وأخافوا العباد »[1] . واعترف هـذا المؤرخ أكثر من ذلك بتحديد مناطق التمرد والثورة بعد أن أعطانا هذه الصورة التامة للاضطرابات التى وقعت أثناء وجود سنان باشا فى المنطقة الشمالية ، فذكر أن الثورة هبت فى أهم مدن منطقة وسط الهضبة أى فى « تعز » و « التعكر » و (ذراع الكلب) كما ذكر أيضاً أن أهالى (بعدان) قد هاجوا - بالاتفاق مع المحاصرين فى حصن (حب) تحت قيادة على بن شرف الدين - الحامية العثمانية التى تركها سنان باشا حول الحصن وكبدوها خسائر فادحة ، ثم امتد نشاط هؤلاء الأهالى أيضاً إلى (ذمار) و (صنعاء)[2] . وأكد مؤرخ آخر انتشار الثورة على العثمانيين إلى خارج المنطقة الشمالية الزيدية بقوله (حتى بلغ الخلاف على الأروام فى بلاد الشافعية فخرج العرب هنالك على الأروام الذين فى (التعكر) والذين فى مدينة (تعز) ، وبقوا فى أضيق حال)[3] ، وذلك بعد أن أطال فى وصف مظاهر هذه الثورات وفى تحديد أماكن قيامها .

وبالإضافة إلى هـذه الأسباب الخاصة بالمطهر وباليمنيين بوجه عام فقد كانت هناك أسباب خاصة بسنان باشـا تجبره على عقد الصلح . وأهم هـذه الأسباب هى قلة عدد جنوده بالنسبة لقوات المطهر أو للقوات اليمنيـة ،

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٨٩ أ .
(٢) نفس المرجع : ص ٨٩ ب .
(٣) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٣٥ و

فقوات سنان باشا رغم ضخامتها وقوة إعدادها فقد كانت لا تمثل غير جيش أجنبي بالنسبة للشعب اليمنى الذى استطاع المطهر أن يتزعم حركة مقاومته . وينبع من هذه الحقيقة أمر هام وهو أن سنان باشا كان مضطراً إلى توزيع جيوشه على الأقاليم اليمنية المختلفة ، مما أدى بالتالى إلى ضعف قوة العثمانيين الذاتية ، والإقلال من فرص انتصارهم . ويتضح هذا إذا ما عرفنا أنه لم يكن حول سنان باشا فى شمال اليمن غير ألف ومائتى جندى تقريباً من المشاة والفرسان ، وكان يرسل نصف هذا العدد بالتناوب يومياً إلى أعلى جبل « كوكبان » لمساعدة حسن باشا فى محاصرة حصن « كوكبان » . أما قوات المطهر فقد بلغت حينئذ حوالى ألف فارس ، وثمانية آلاف من المشاة ، وكان من بين الأخيرين حوالى أربعة آلاف من حملة البنادق[١] ، وهى التى استولى عليها اليمنيون من أيدى العثمانيين طوال السنين السابقة .

ولقد كانت ضراوة الحرب فى اليمن ، إلى جانب إتساع رقعة البلاد السببين الرئيسيين فى تناقص القوات العثمانية باستمرار ، وعدم القدرة على تركيزها فى جبهة أو جبهات محددة . فبالإضافة إلى جموع القوات العثمانية التى كانت قد انسحبت أمام قوات المطهر إلى « زبيد » أثناء فترة انكماش السيطرة العثمانية ، فقد توافد إلى اليمن فى هذه المدة القصيرة حوالى ثمانية آلاف جندى ، إذ جاء مع حسن باشا إلى اليمن حوالى ألف جندى ، ومع عثمان باشا حوالى ثلاثة آلاف جندى ، ومع سنان باشا حوالى أربعة آلاف جندى ، وذلك كله غير من انضم إلى سنان باشا من اليمنيين من طائفة الإسماعيلية ، أو من غيرها . ورغم ذلك فلم يجد سنان باشا من جند عثمان باشا غير ألف جندى فقط ، غادر اليمن منهم مع عثمان باشا نحو ثلثمائة ، كما لم يجد من قوات حسن باشا ومن

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ٨٤ب — ٨٥ أ .

جميع القوات العثمانية التى أتت قبل ذلك إلى اليمن غير ألف جندى فقط[١] . ولذلك لم يكن غريباً ألا يضم معسكر سنان باشا أمام «ثلا» غير ألف جندى تقريباً ، وذلك لوفاء الكثير من قواته فى الحروب ، ولتفرق الباقى على الحاميات المختلفة .

وإلى جانب هذا كله ، فقد كانت بعض العوامل الخارجية تزيد من ضعف موقف سنان باشا فى اليمن ، ومن إحراجه . وقد تجسمت هذه العوامل فى موقف والى مصر حينئذ اسكندر باشا الشركسى (١٥٦٨ — ١٥٧١م) من حملة اليمن ، فقد حرص هذا الوالى على تحقيق مصالحه الخاصة دون مراعاة لما يجرى فى اليمن من أحداث ، وذلك بالرغم من أن الاهتمام بأحداث اليمن كان جزءاً من مهام منصبه ، وبالرغم من صدور الأوامر السلطانية الصريحة إليه بأن يكون سنداً لسنان باشا طوال مدة إقامته فى اليمن ، فيمده بما يحتاج إليه من الرجال والمال حتى يتم تحقيق أهداف الحملة . غير أن اسكندر باشا الشركسى أهمل جميع هذه الواجبات ، وحرص على إرضاء السلطان ورجاله فقط ، وذلك بإرسال جميع خراج مصر إلى استانبول لإدراكه بحاجة السلطان إلى المال دون مراعاة لمطالب حملة اليمن أو استنجاد سنان باشا المتكررة به . وقد انعكس هذا التقصير على أوضاع العثمانيين فى اليمن ، فقد أفلست خزائنهم ، وتناقص عددهم ، فضعف شأنهم فى النهاية . وكان سنان باشا يضطر إلى الاعتماد على موارد اليمن الداخلية لتعويض نقص موارده ، فأدى هذا بدوره إلى استياء اليمنيين وإلى انضمام جماهيرهم إلى جانب المطهر ، وكذلك اضطر سنان باشا إلى الاستعانة ببعض اليمنيين لتعويض تناقص قواته ، وإن كان هذا لا يعد تعويضاً كاملا أو حتى حقيقياً لنقص هذه القوات . وكانت ضراوة المقاومة اليمنية للعثمانيين التى أطالت بدورها مدة الحروب ، من أهم العوامل التى كشفت هذه النقائص فى أوضاع العثمانيين . فنتيجة لموقف اسكندر باشا الشركسى ،

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، ص ٩١ ب — ٩٢ أ .

عجز سنان باشا عن دفع مرتبات جنوده بعد عدة أشهر من وصوله إلى اليمن ، كما عجز أيضاً عن تقديم الهدايا اللازمة إلى رؤساء القبـــائل أو غيرهم لتقريبهم إليه ، وهذا ما لجأ إليه كثيراً لتخفيف حدة التوتر المحيطة به فى اليمن . وكان سنان باشا قد صرف مقدماً لجنوده قبل مغادرته مصر مرتبات ستة أشهر كاملة ، كما كان قد حمل معه من الأموال ما يكفى لصرف مرتبات ثمانية أشهر أخرى ، أى بالتحديد إلى نهاية شهر شعبان سنة ٩٧٧ هـ (يناير سنة ١٥٧١م) ، ولكن استمرار الحرب إلى ما بعد ذلك أجبره على اللجوء إلى اتباع الوسائل المختلفة لجمع المـال اللازم للصرف على حملته رغم حرصه الشديد على تقليل مواضع الصدام بينه وبين اليمنيين كلما أمكن ذلك . وقد اتضح موقف والى مصر من حملة سنان باشا بجلاء عند إرساله مؤخراً عدداً من الجند إلى اليمن ذراً للرماد حتى لا يتهم بالتقصير ، فقد كان عدد الجنود لا يتجاوز خمسمائة جندى فقط ، كما أجبرهم هذا الوالى على السفر دون صرف المرتبات المستحقة لهم بحجة أن سنان باشا سوف يصرف لهم هذه المرتبات رغم علمه بإفــلاس خزانة الأخير . وقد وصل هؤلاء الجند إلى اليمن فى أسوأ حال ، فأصبحوا بذلك عبئاً جديداً على سنان باشا ، إذ كانوا قد اضطروا إلى بيع ممتلكاتهم وأسلحتهم أثناء السفر لشراء ما يلزمهم من طعام وشراب ، كما كانوا فى حالة تذمر عام لتأخر صرف مستحقاتهم عن مدة ستة أشهر كاملة . ولهذا كله ، وحتى لا يلجأ إلى مصادرة أموال الأهالى فيزيد من سخطهم ، أمر سنان باشا ببيع بعض ممتلكات العثمانيين من الأقمشة والمعدات المخزونة فى « زبيد » لصرف مستحقات هؤلاء الجنود ولتسليحهم[1] .

وهكذا يتضح أنه كان لدى سنان باشا عوامل داخلية وأخرى خارجية تجبره على الإسراع بعقد الصلح ، فتمثلت العوامل الداخلية فى اشتداد المقاومة

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٩٥ ب — ٩٦ أ .

اليمنية ، وفى اضطراب الأحوال العامة فى اليمن ، وتمثلت العوامل الخارجية فى تخاذل والى مصر فى معاونة سنان باشـــا ، وفى مده بما يحتاجه من مال ورجال .

وكيفما كان الأمر فقد جرت المفاوضات بين محمد بن شمس الدين وسنان باشا أثناء حصار حصن « كوكبان » ، وذلك عن طريق أحد القضاة اليمنيين المقربين إلى سنان باشا . وقد حرص محمد بن شمس الدين على أن تأخـذ هذه المفاوضات الطريق السرى وذلك خوفاً من عمه المطهر الذى كان يرى أن إطار المقاومة ونجاحها لا تسمح لسنان باشا بفرض الشروط القاسية على اليمنيين عند عقد الصلح وحرص محمد بن شمس الدين كذلك على أن يشمل عقد الصلح عمه المطهر ، فقد طلب فى خطابه إلى القاضى المذكور أن يسعى فى عقد الصلح مع المطهر أيضاً حتى يكون الصلح تاماً لأنه كما قال « بركتنا وعمدتنا ولا يتم الصلح إلا بعد دخوله أيضاً معنا فى الصلح ، فاسعوا بينه وبين حضرة الوزير فى الصلح ليكون الصلح تاماً »[1] . وقد انتهت هذه المفاوضات بعقد الصلح بين الطرفين فى ١٠ ذى الحجة سنة ٩٧٧ هـ (١٦ مايو سنة ١٥٧٠ م) . وكانت شروط الصلح ترجمة لسياسة العثمانيين العامة وهى الاعتراف بالزعامة المحلية فى داخل امبراطوريتهم طالمــا قبلت هذه الزعامة الاعتراف بسيطرة العثمانيين عليها ، ولذلك فقد أبقت شروط الصلح محمد بن شمس الدين فى حصن « كوكبان » كما هو على أن يكون له ما كان لوالده من ممتلكات وهى « جبل تيس وبلاد شمات والطويلة وبيت العز » ، وذلك مقابل أن تـكون الخطبـــة والسكة للسلطان العثمانى ، أى مقابل الاعتراف بالسيطرة العثمانية[2] .

وقد ضاق المطهر دون شك بموقف محمد بن شمس الدين فقام بالرد على

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطه) ، ص ٩٦ أ — ٩٩ أ .
(٢) نفس المرجع : ص ١٠٠ ب .

ذلك بمظاهرة سياسية بارعة أكدت أمام سنان باشا بطريقة قاطعة زعامته لحركة المقاومة اليمنية وجعلته يؤمن بضرورة السعي لعقد الصلح معه حتى يضمن هدوء الأحوال في اليمن . وكان المطهر قد علم بميل محمد بن شمس الدين إلى عقد الصلح مع سنان باشا فأخذ يرسل إليه الكتب والرسل لتشجيعه ، وليطلب منه مواصلة الحرب لمدة شهر واحد لأن التعب والضعف قد أخذ من العثمانيين كل مأخذ بعد أن أثار ضدهم الأهالي في مختلف بقاع اليمن ، ولأن اضطراب الأحوال سيجبر حتما سنان باشا على أن يسعى هو إلى عقد الصلح مما سيتيح الفرصة أمام المطهر وأتباعه لإملاء شروطهم عليه[1] . ولكن ضيق محمد بن شمس الدين بالحصار جعله لا يستمع إلى نصائح عمه المطهر وواصل مسعاه سراً حتى تم عقد الصلح ، وعندئذ توجه المطهر ومعه بعض أتباعه وجنوده إلى حصن «كوكبان» لزيارة محمد بن شمس الدين وليس لمعاتبته كما أكد له[2] . وقد أثارت هذه الزيارة دهشة كل من محمد بن شمس الدين وسنان باشا على السواء ، فقد اضطربت أحوال محمد بن شمس الدين النفسية والسياسية ، وأمر بالاحتفال بقدوم عمه المطهر ، وبأن تكون مراسيم الاحتفال كما كانت قبل عقد الصلح ، وأكد له كذلك خضوعه التام له . وبالنسبة لسنان باشا ، فقد اهتز كثيراً لهذه الزيارة لأنها أوضحت أمامه ضعف الحصار الذي يضربه حول «ثلاء» ، ولأنها أكدت له أهمية دور المطهر في اليمن حتى أنه علق على هذه الزيارة بقوله «قد تيقنت أن الكل في قبضته والجميع تحت بسطه»[3] .

---

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية في الجهات اليمانية (مخطوطة) ، جـ ١ ، م ١ ، ص ٢١٢ أ .

(٢) يقال إن المطهر أنشد البيت الآتي عند مقابلته محمد بن شمس الدين في كوكبان :

زرنا كم لا نؤاخذكم بهفواتكم — إن المحب إذا لم يستزر زارا

(عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ٢ ، ص٨٥ أ .

(٣) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ٢ ، ص٨٥ أ .

ونحن لانبالغ كثيراً إذا قلنا إن هذه الزيارة ، وماتضمنته من معان ودلائل كانت العامل المباشر الذى دفع سنان باشا إلى عقد الصلح مع المطهر ، وذلك بالإضافة إلى العوامل العديدة الأخرى التى سبق الإشارة إليها . وقد قام الصلح على دعامتين هامتين إلى جانب بعض التفصيلات التى تتفرع منهما . وأولى هاتين الدعامتين هى اعتراف المطهر بالسيادة العثمانية عليه فتكون « الخطبة والسكة فى البلاد باسم السلطان العثمانى ، والدعامة الثانية هى أن تبقى للمطهر ممتلكاته الخاصة ، على ما كانت عليه فى مدة أزدمر باشا وهى « ثلاء والظواهر وصعدة وذى مرمر ونهم والشرف وحجة وبعض لاعة والأهنوم »[1] . وقد ترتب على الدعامة الثانية تخلى المطهر عن حصن الطويلة للعثمانيين كما كان الأمر فى عهد أزدمر باشا وذلك لأهمية هذا الحصن الاستراتيجية على حدود ممتلكات المطهر. وكذلك حرص سنان باشا على أن يكون للعثمانيين حامية رمزية صغيرة فى « صعدة » لتكون رمزاً لامتداد السيادة العثمانية إلى جميع أقاليم اليمن ، أو إلى ما كانت عليه فى عهد أزدمر باشا ، فوافق المطهر على هذا الشرط لعدم أهميته أو خطورته لأن عدد الجنود الذين اتفق على وضعهم فى « صعدة » كان لايتجاوز الثلاثين جندياً[2] . وقد أظهر المطهر براعته السياسية فى موافقته على شرط آخر وهو عدم مساعدته لأخيه على بن شرف الدين — المحاصر فى حصن « حب » — أثناء الحرب بينه وبين سنان باشا[3] . لأنه كان من غير المتوقع أن يكف المطهر يده عن مساعدة أخيه ولو بطريقة سرية كما حدث فيما بعد ، ولذلك فقد وافق المطهر نظرياً على هذا الشرط حتى لايعطل عقد الصلح الذى حقق له عملياً مكاسب ضخمة .

---

(١) يحيى بن الحسين . أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٣٥ .

(٢) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، جـ١ ، م١ ، ص ٣١٢ ب .

(٣) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ص ١٠٢ أ .

وهكذا تتضح أهم ملامح الصلح الذى توصل إليه سنان باشا بعد أن ظل واقفاً أمام «ثلاء» و «كوكبان» حوالى عام كامل، ولكن هل يعنى هذا الصلح القضاء على الثورة والاضطرابات فى باقى أقاليم اليمن ؟

لم يؤد الصلح مع المطهر فى الحقيقة إلى القضاء على اضطرابات اليمن وإن كان قد قضى على أحد عناصر الثورة اليمنية الهامة الذى كان يساعد على قيام هذه الاضطرابات وعلى استمرارها . وكانت هناك بعض الأسباب الأخرى الموضوعية التى تجعل استمرار الاضطرابات أمراً متوقعاً ، وذلك مثل فساد بعض الأمراء العثمانيين ، أو تعدى الجنود على الأهالى ومصادرة أموالهم ، أو حتى مثل طمع بعض الأهالى — وخاصة من سكان المناطق الجبلية — فى الحصول على الغنائم والأسلاب عند مهاجمتهم للقوات العثمانية .

وهذه الحقيقة — وهى عدم هدوء الأحوال بعد عقد الصلح مع المطهر — تذكرنا بحقيقة هامة سبق أن أشرنا إليها فى التمهيد ، وهى أن ظروف اليمن الطبيعية تساعد على تفتيت الوحدة السياسية والاجتماعية فى حالة ضعف الحكومة المركزية ، وتعمل على أن يكون لكل جهة من جهات اليمن مشاكلها الخاصة ومواقفها المنفردة .

ولهذا كله فيمكن القول بأن الصلح مع المطهر لم يعمل على هدوء الأحوال تماماً فى اليمن ، وهى حقيقة أدركها كلٌّ من المطهر وسنان باشا ، فكان المطهر يعلم أنه رغم نجاحه فى إثارة الاضطرابات فى اليمن فى وجه سنان باشا وفى ربط عناصرها به ، فإنه لايستطيع أن يوقفها لعدم سيطرته على كل عناصرها ، ولعدم قدرته على القضاء على أسبابها ، ولهذا فقد وافق على عقد الصلح عندما حقق له هذا الصلح مصالحه الخاصة ، أو ربما ليعطيه هذا الصلح فرصة أكبر فى مساعدة باقى أهالى اليمن ضد العثمانيين . وكذلك وافق سنان باشا على

الصلح لتفتيت الثورة اليمنية ، أو ليضمن من ناحية هدوء الجزء الشمالي من اليمن ، حتى يتفرغ من ناحية أخرى للقضاء على الاضطرابات فى باقى أقاليم اليمن .

ولهذا كله فيمكن القول بأن المرحلة الثالثة من حملة سنان باشا على اليمن — التى ذكرنا أنها الخاصة بأعماله فى شمال اليمن — لم تنته بعقد الصلح مع المطهر ، ولكنها تمتد فى الحقيقة حتى مغادرة سنان باشا لليمن . وقد تميز الجزء الباقى من هذه المرحلة بوجود بهرام باشا الذى كان قد صدر الأمر السلطانى بتعيينه والياً لليمن بدلا من عثمان باشا . والذى كان قد وصل إلى زبيد فى ٩ ذى الحجة سنة ٩٧٧ هـ (١٥ مايو سنة ١٥٧٠م)[١] ، أى أثناء إجراء مفاوضات الصلح مع المطهر . ورغم أهمية وصول بهرام باشا إلى اليمن فى هذا الوقت بالذات ، فإنه لم يكن يمثل تماماً النجدة المرجوة التى ينتظرها سنان باشا ، وذلك لعدم اكتراث والى مصر بإرسال حملة قوية معه تلبية لاستنجاد سنان باشا به « ولا جهز معه عسكراً كما ينبغى بل لفق نحو ستماية عسكرى كتبهم فى مصر ممن لا سلاح له ولا قوة ، وأعطاهم نفقتهم إلى أن يصلوا إلى « زبيد » فقط ، فطال مكثهم فى الطريق ، وأكلوا كل ما معهم ، وباعوا أثوابهم وما وصلوا إلى زبيد إلا وهم عرايا جياع فقراء ضعفاء عن كل شىء »[٢] . وقد انعكس هذا على خط سير بهرام باشا فى داخل اليمن ، فهو لم يتوجه مباشرة إلى سنان باشا فى الشمال كما طلب منه ، بل توجه أولا إلى « تعز » حيث أحسن أميرها استقباله ، وأمده بما يحتاج إليه من مال وسلاح ، كما سلمه قيادة ثمانمائة جندى ممن كانوا فى هذه المنطقة .

---

(١) محمد بن يحيى الطيب : بلوغ المرام فى تاريخ دولة مولانا بهرام (مخطوطة) ، ص ٥ أ .

(٢) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ١٠٢ ب .

ورغم ضعف بهرام باشا عند وصوله إلى اليمن ، فقد قام هذا الوالى بدور كبير فعال فى تحقيق أهداف حملة سنان باشا فى مراحلها الأخيرة . واتضح هذا فى ميدانين هامين : فى «تعز» وما حولها من المناطق الجنوبية والتهامة ، وفى إقليم «بعدان» وبصفة خاصة أمام حصن «حب» ، إذ كان بهرام باشا هو العامل المباشر واليد المنفذة فى القضاء على الاضطرابات فى هذه الجهات ، وفى إخضاعها للسيطرة العثمانية . ففى «تعز» اهتم بهرام باشا بإخماد الاضطرابات التى كانت قد ثارت بها نتيجة سوء سياسة أميرها السابق ، فقام بالقبض على بعض زعمائها كما أخذ رهائن بعض قبائلها[1] . وكذلك قام بهرام باشا بدور هام فى إقليم «بعدان» ، وذلك بعد أن تغلب بمساعدة النجدات التى أرسلها إليه سنان باشا على الجموع اليمنية الصغيرة التى اعترضت تقدمه عند «نقيل أحمر» وهى نفس النقطة التى وقف عندها سنان باشا من قبل أثناء زحفه من «تعز» إلى «صنعاء» . وكان سنان باشا حينذاك قد انتهى من عقد الصلح مع المطهر ، فساعده ذلك على إرسال نجدتين متتاليتين إلى بهرام باشا حتى استطاع أن يتغلب على هذه الجموع التى قيل إنها كانت تبلغ الثلاثين ألفاً ، وإنها كانت تتألف من قبائل وسط الهضبة ، أى من «أهل صهبان والأرازق والشوافى وحبيش والتعكر وذو سفال وبعدان وغيرهم من عرب تلك البلدان»[2] . وكان الصلح مع المطهر لا يعنى الصلح مع أخيه على بن شرف الدين المحاصر حتى ذلك الوقت فى حصن «حب» ، وذلك لأن سنان باشا كان يعتبر أن إقليم «بعدان» — وبه حصن «حب» — يخرج عن نطاق المنطقة الشمالية التى تخضع للنفوذ الزيدى ، ولذلك فقد بدأ سنان باشا عند ذاك يوجه طاقاته نحو الاستيلاء على هذا الحصن المنيع ،

---

(١) محمد بن يحيى الطيب : بلوغ المرام فى تاريخ دولة مولانا بهرام (مخطوط) ، ص ٨ أ .

(٢) نفس المرجع : ص ١١ ب .

فأرسل بهرام إليه على رأس قوات ضخمة لمحاصرته ، وانتقل هو إلى « ذمار » ليكون قريباً منه . وتتمثل خطورة على بن شرف الدين فى أنه أصبح رمزاً للمقاومة اليمنية فى منطقة وسط الهضبة ، ثم ازدادت هذه الخطورة بعد إتمام الصلح مع المطهر . وكذلك كان على بن شرف الدين فى مركز القوة وليس فى مركز الضعف كما يبدو ، فقد استطاع منذ البداية ، وبفضل نجاحه فى تجميع قبائل المنطقة حوله ، أن يضعف من خطورة القوات العثمانية التى أرسلها سنان باشا لمحاصرته بصفة مستمرة أثناء زحفه هو إلى «صنعاء» ثم إلى «ثلاء» ، بل وأن يهاجم هذه القوات حتى يجعلها فى موقف الدفاع عن النفس فقط بعد أن قضى على معظم أفرادها[١] . ولهذا كله فلا نبعد عن الحقيقة كثيراً إذا ذهبنا إلى أن سنان باشا عندما بدأ فى العمل على الإستيلاء على هذا الحصن إنما كان يبدأ من الصفر . وهذا ما عكسته خطته فى إقليم « بعدان » فى حقيقة الأمر ، فقد بدأ فى إخضاع جهات هذا الإقليم أولا للسيطرة العثمانية حتى تم له عزل حصن « حب » ، ثم أقام حول هـذا الحصن قوات ضخمة تحت قيادة بهرام باشا لإحكام الحصار حوله . وقـد ازداد اهتمام سنان باشا بأن يبقى على ابن شرف الدين معزولا فى حصن « حب » بعد أن لمس بنفسه نشاط المطهر السرى فى مساعدة أخيه . وكان المطهر قد أرسل بعض قواته إلى القرب من هذا الحصن تحت قيادة على بن الشويع لتخفيف حدة الحصار حول أخيه على ، ولمده فى نفس الوقت بما يحتاجه من مؤن وذخائر ، وذلك مع إعلانه — أو إدعائه — بأن هذه القوات لا تعمل لحسابه لأنها قد خرجت عليه . وقـد نجحت هذه القوات فى إثارة المتاعب فى وجه سنان باشا لبعض الوقت ، غير أنه استطاع أخيراً أن يطاردها بعيـداً عن الحصن ، وأن يقضى على خطورتها[٢] .

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوط) ، ص ٩٤ب .

(٢) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، جـ١ ، م ١ ، ص ٢١٩أ .

ورغم ما أبداه سنان باشا من نشاط للاستيلاء على حصن « حب » ، ورغم تركيز جهوده بعد سحب قواته من شمال اليمن لتحقيق هذا الغرض ، فلم يسقط هذا الحصن فى أيدى بهرام باشا إلا بعد حوالى ستة أشهر من عقد الصلح مع المطهر ، وبالتحديد فى ٥ رجب سنة ٩٧٨ هـ (٣ ديسمبر ١٥٧٠ م) ، والجدير بالذكر هو أن حصن « حب » لم يسقط فى أيدى العثمانيين فى هذه المرة أيضاً إلا بالغدر ، فقد تآمر بهرام باشا مع اثنين من عبيد على بن شرف الدين على قتله بدس السم له فى طعامه . فقامت الحامية بتسليم نفسها لبهرام باشا بعد أن حاولت إخفاء خبر وفاة على بن شرف الدين لبضعة أيام ، وقد وافق بهرام باشا على تأمين حياة أفراد هذه الحامية عند تسليم أنفسهم له ، ولكنه أرسل إليهم بعد إطلاق سراحهم ، من عرضهم على الحسام البتار إلا من فر بنفسه[1] » .

ويعتبر سقوط حصن « حب » فى أيدى العثمانيين آخر أعمال سنان باشا الحربية فى اليمن تقريباً ، فقد غادر اليمن بعد ذلك بحوالى ثلاثة أشهر أى فى ٥ شوال سنة ٩٧٨ هـ (٢ مارس ١٥٧١ م) وذلك بعد أن قام بتنظيم شئون اليمن ، وبتسليم مقاليد أموره إلى بهرام باشا[2] .

وهكذا عادت السيطرة العثمانية إلى اليمن مرة أخرى على يد سنان باشا بعد أن ظل مقيما به حوالى عامين كانا مليئين بالكثير من الأعمال الحربية والمواقف

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ٢ ، ص٨٥ ب .

(٢) أدى سنان باشا فريضة الحج أثناء عودته من اليمن كعادة أغلب ولاة اليمن ، ثم تولى أمر مصر لمدة عامين تقريباً (النحريرى) الدر المنضد فى مدح الوزير محمد، مخطوطة ص ٢٣) . وكان سنان باشا ممن تربوا فى السراى السلطانى فى عهد السلطان سليمان القانونى وصار أمير لواء فى سناجق ملاطية وقسطمونى فى الأناضول ، ثم غزة وطرابلس ، ثم أصبح بكلربكى لولايات أرضروم وحلب ومصر ، ثم قاد حملة اليمن كما ذكرنا وتولى ولاية مصر ثانية بعد ذلك . وقد قاد سنان باشا الحملة البحرية التى استعادت تونس وحلق الوادى سنة ٩٨٠هـ =

السياسية، كما سادهما مقاومة يمنية عنيفة، وقد أوضحت هذه الحملة ـ كما أشرنا فى بداية الفصل ـ ما طرأ على نظم الدولة وقيمها من التغيرات التى ازداد ظهورها فيما بعد ، والتى أصبحت من أهم العوامل التى أثرت فى تاريخ اليمن فيما بعد، وكذلك أوضحت هذه الحملة العوامل الطبيعية والاجتماعية التى تلعب دوراً هاماً فى تاريخ اليمن باستمرار ، مثل بيئة اليمن الجبلية ، أو انقسام شعبه إلى جبليين وسهليين أو إلى زيديين وشافعيين .

وتستحق هذه الحملة ما نالته من شهرة فى تاريخ اليمن الحديث، فكما أعادت للعثمانيين سيطرتهم على اليمن ، فقد كانت بداية لمرحلة أخرى طويلة لهذه السيطرة، إذ استمر وجود العثمانيين فى اليمن إلى سنة ١٦٣٥ م بعد أن كانوا على وشك الخروج منه فى سنة ١٥٦٨ م على يد المطهر بن شرف الدين .

ورغم أهمية هذه الحملة وشهرتها فى تاريخ اليمن، فقد اختلفت حولها الآراء والتقديرات، وتناقضت أقوال المؤرخين المعاصرين وقتذاك فى تقييم أعمال سنان باشا، وما حققه فى اليمن من نتائج، وذلك بالنسبة لضخامة هذه الحملة ، ويرجع اختلاف الآراء أساساً ـ كما يتضح بوجه خاص بين قطب الدين وابن داعر ـ إلى وقوع هؤلاء المعاصرين فى خطأين :

<u>أولهما</u>: أن نظرتهم للأحداث وتفسيرهم لها كانت تقوم على أساس

= (١٥٧٢/٢م) ثم عاد إلى الآستانه فأصبح وزيراً فى الديوان عند تولية السلطان مراد الثالث الحكم وفى سنة ٩٨٨ (٨٠ / ١٥٨١ م) أصبح الوزير الثالث فى الديوان ثم قاد حملة إلى بلاد فارس (العجم) وعاد منها ليتولى الصدارة العظمى لأول مرة. ومنذ ذلك الوقت وحتى وفاته فى ٥ شعبان سنة ١٠٠٤ هـ ، تولى سنان باشا الصدارة العظمى خمس مرات ، وكذلك كان قد تولى قيادة الجيوش العثمانية لخمس مرات أيضاً . وقد نال سنان باشا شهرة كبيرة باعتباره صدراً أعظم حتى قيل إنه ثالث الصدرين العظيمين رستم باشا ومحمد باشا صوقللى (كاتب جلبى « فذلكة التواريخ (باللغة التركية) ، ج ١ ، ص ٧٦ — ٧٧) .

العلاقات الشخصية بينهم وبين ولاة تلك الفترة وقادتها وليس على أساس موضوعى سليم .

ثانيهما : أنهم قاموا بالحكم على سنان باشا وأعماله فى اليمن من خلال المقارنة بينه وبين أزدمر باشا الفاتح الأول لليمن دون النظر إلى اختلاف الأوضاع والظروف التى واجهت أو أحاطت بكل منهما .

ومن الخطأ أن نقارن بين أعمال كل من أزدمر باشا وسنان باشا ، أو بين ما حققه كل منهما فى اليمن ، لأن ظروف كل منهما تختلف عن ظروف الآخر رغم وحدة الميدان ووحدة الهدف . فمن ناحية أزدمر باشا فقد كان يسانده سلطان قوى حازم هو السلطان سليمان القانونى ، فكان يمده بما يحتاج من مال ورجال عن طريق ولاة مصر الذين كانوا مجرد أداة تنفيذية صالحة فى أيدى هذا السلطان . أما من ناحية سنان باشا فقد ذهب إلى اليمن بعد أن اضطربت نظام الدولة بعض الشىء فى عهد السلطان سليم الثانى كما أشرنا فى بداية هذا الفصل ، مما انعكس على موقف والى مصر المتخاذل من سنان باشا أثناء وجوده فى اليمن . وكذلك كان شعور اليمنيين نحو العثمانيين الذى واجه أزدمر باشا يختلف عن الشعور الذى واجه سنان باشا ، فقد كان الشعور الذى واجه أزدمر باشا إما شعور ودى لما كان يتمتع به العثمانيون حينذاك من سمعة طيبة فى العالم العربى والإسلامى ، وإما شعور يملؤه الخوف من قوة الجيوش العثمانية أو قوة أسلحتها النارية التى كان يجهلها اليمنيون ، أو التى لم تكن تنتشر بينهم على الأقل ، وكذلك كانت فتوحات أزدمر باشا تلى عهد الاضطرابات التى سادت اليمن أثناء الحروب التى دارت بين المماليك والطاهريين والزيديين. أما سنان باشا فقد واجه فى اليمن شعوراً عدائياً للعثمانيين فى مجمله ، وذلك لما ارتكبه بعض الولاة والجنود من أخطاء خلال السنوات الطوال السابقة التى تلت ولاية أزدمر باشا لليمن حتى مجىء سنان باشا إليه . وبالإضافة إلى ذلك

فقد أصبح اليمنيون لا يخشون كثيراً الجيوش العثمانية لأنهم ألفوا معاشرتها ، ولأنهم أصبحوا يمتلكون الكثير من أسلحتها التي كانوا يغنمونها خلال حروبهم السابقة معها . وكذلك كان جنود سنان باشا لا يحاربون بنفس الروح المندفعة التي حارب بها جنود أزدمر باشا ، لأن الميدان اليمني كان قد فقد بريقه لدى الجنود العثمانيين ، وأصبح يشتهر لدى هؤلاء الجنود بصعوبته وخطورته من ناحية ، وبقلة غنائمه وأسلابه من ناحية أخرى .

وكيفما كان الأمر ، فإنه لا يجدر التقليل من أهمية حملة سنان باشا على اليمن ، فقد نجحت إعادة السيطرة العثمانية إليه ، كما كانت بداية لعهد طويل من هذه السيطرة في اليمن .

الفصل السادس

عهد توطيد السيطرة العثمانية فى اليمن

٩٧٨ — ١٠١٦ هـ

١٥٧١ — ١٦٠٧ م

ربما يكون من الصعب القول بأن هذه الفترة من تاريخ اليمن كانت فترة استقرار للحكم العثمانى لأن الاستقرار فى حد ذاته يعنى تحقيق سيطرة الحكومة القائمة على مقدرات الأمور ، إلى جانب تحقيق الهدوء فى ربوع البلاد ، وهما أمران لم يتحققا تماماً فى اليمن فى هذه الفترة ، ولذلك فقد تعمدنا استعمال هذا العنوان لأن التوطيد قد يعنى أنه بالرغم من قوة مركز العثمانيين وتفوق جانبهم فى هذه الفترة ، فإنهم كانوا فى حاجة إلى بذل الجهود الحربية والسياسية المستمرة لتثبيت سيطرتهم ، ولنشر الأمن والهدوء فى ربوع اليمن . فمن ناحية كان على العثمانيين أن يواصلوا هذه الجهود لسد الثغرات التى تركها سنان باشا ، ومن ناحية أخرى كان إخماد الثورة اليمنية عسكرياً لا يعنى القضاء على عناصر هذه الثورة ، كما لا يعنى أنه قد تم معالجة أسبابها ، ولذلك فقد كان التوطيد لا الاستقرار هو سمة هذه الفترة .

ورغم هذا فقد كانت هذه الفترة أكثر فترات الحكم العثمانى فى اليمن استقراراً ، كما كانت أكثر فترات الاستقرار طولا . وقد تضافرت عدة عوامل لجعل هذه الفترة تتميز عن غيرها من فترات الحكم العثمانى فى اليمن ، وفى جعلها تتصف بالهدوء والاستقرار بالنسبة لباقى الفترات . فمن ناحية ، فقد بدأت هذه

الفترة بداية قوية ، لأنها كانت تستند على جهود سنان باشا الحربية ، ومن ناحية أخرى ، ولى الحكم فى اليمن فى هذه الفترة ولاة أقوياء استطاعوا أن يحافظوا على النتائج التى حققتها حملة سنان باشا ، وأن يطوروا هذه النتائج ليصلوا بها إلى قمتها فى فترة حكم حسن باشا آخر ولاة هذه الفترة . وكذلك ساعدت الظروف الداخلية على هدوء الأحوال نسبياً فى هذه الفترة ، فإلى جانب ضعف القوى اليمنية نتيجة كثرة الحروب التى شنها سنان باشا فى اليمن ، فقد توفى المطهر بعد قليل دون أن يخلفه شخص قوى يستطيع أن يتزعم اليمنيين أو أن يقود ثورتهم، بل خلفه أبناء ضعاف تنازعوا الأمر فيما بينهم ، فضعف شأنهم حتى أصبحوا ألعوبة فى أيدى العثمانيين ، ولذا اتصفت الثورات والاضطرابات التى قامت فى اليمن هذه الفترة بالصفة المحلية والفردية مما كان يساعد العثمانيين على القضاء عليها بسهولة ، وذلك على عكس ما حدث فى عهد المطهر الذى نجح فى تجميع هذه الثورات وفى ربطها به حتى استطاع أن يجبر سنان باشا على الخضوع لشروطه كما رأينا فى الفصل السابق .

وقد تأكد فى هذه الفترة أيضاً تغلب العوامل المحلية الخاصة باليمن على العوامل الخارجية ، أى الخاصة بالدولة العثمانية ، فى التأثير على أحداث اليمن الداخلية . إذ كان نجاح العثمانيين فى فرض سيطرتهم فى اليمن حينذاك يرجع إلى العوامل المحلية مثل قوة شخصية الولاة وضعف موقف اليمنيين نسبياً أكثر مما يرجع إلى قوة الدولة ، أو إلى قوة مساندتها للولاة فى اليمن . فقد توالى حكم السلاطين الضعفاء فى استانبول ، فبعد وفاة السلطان سليم الثانى عام ١٥٧٤ م تولى بعده ابنه السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥م) الذى كان أكثر ضعفاً من أبيه والذى وقع تحت تأثير رجال حاشيته وندمائه ، كما خضع لسيطرة أربعة من السيدات هن والدته وزوجتاه وكبيرة وصيفات السراى أو كتخدا الحريم[١] . وقد اتضح اضطراب الأمور فى عهد السلطان إذ بدأت هذه

(١) Creasy, ES: History of the Ottoman Turks, pp. 225—226.

الفئات فى التدخل فى شئون الدولة العامة لتحقيق مصالحها الخاصة ؛ وعملت على إجبار رجالات الدولة بما فيهم الصدر الأعظم على تنفيذ رغباتها ، كما عملت على الإطاحة بالصدور العظام وقتلهم أحياناً إذا رفضوا تنفيذ هذه الرغبات[١] .

وكذلك سارع المقربون والندماء إلى جمع الثروات الطائلة ، وتدخلوا فى توزيع التيمارات والزعامات (أى الإقطاعيات العسكرية) على أتباعهم وحواشيهم رغم أنها كانت حقاً من حقوق المحاربين فقط ، ورغم أن السلاطين الأوائل كانوا يتحرون الدقة فى توزيع هذه الإقطاعات العسكرية على مستحقيها ، ويعزلون الولاة الذين يخطئون فى توزيعها[٢] . وكان لتكالب هؤلاء على جمع الثروات واحتلال المناصب الهامة فى الدولة أثره الكبير فى إضعاف الإمبراطورية وإفلاس خزانتها من ناحية ، وإلى تذمر الأهالى والجيش من ناحية أخرى ، وذلك كما حدث فى عهد السلطان مراد الثالث نفسه . فقد تعددت ثورة أهالى الولايات على حكامهم كما حدث فى جبل الدروز فى لبنان وفى ترانسلفانيا ومولدافيا وولاشيا (الأفلاق والبغدان) ، كما تعددت الثورات فى صفوف الجيش أيضاً ، ففى سنة ١٥٨٩ ، تجرأ الانكشارية على مهاجمة سراى السلطان حيث كان يجتمع الديوان ، وطالبوا برأس محمد باشا بكلربكى الروملى وأحد المقربين إلى السلطان ، الذى أذعن لمطلبهم بعد أن هددوا بمهاجمته هو إذا رفض تسليم محمد باشا إليهم . وتكررت ثورات الانكشارية بعد ذلك ، فقاموا بثورتين فى خلال الأعوام الأربعة التالية ، ونجحوا فى كل منهما فى إجبار السلطان على تغيير صدره الأعظم . وكان يتخلل هذه الاضطرابات وغيرها الكثير من المصادمات المسلحة بين الانكشارية والسباهية فى شوارع استانبول أو الولايات المختلفة مما كان يزيد من متاعب الأهالى واضطراب أحوالهم[٣] .

---

(١) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت (ترجمة عبدالقادر لدنا) ، جـ ١ ، ص ١٠٤

(٣،٢) نفس المرجع : ص ١١١ .

وفى عهد هذا السلطان — أى مراد الثالث — بدأ العالم الخارجى يشعر باختلال نظم الدولة العثمانية واضطرابها ، وذلك بعد سقوط الصدر الأعظم محمد باشا الصوقللى الذى ظل محتفظاً بمنصبه طوال عهد السلطان سليم الثانى ولمدة الخمسة أعوام الأولى من عهد السلطان مراد الثالث حتى أغتيل على يد مجهول أثناء رئاسته لإحدى جلسات الديوان فى سنة ٩٨٧هـ (١١ أكتوبر سنة ١٥٧٩م)[١] .

ورغم هذا كله فقد ظلت الدولة حينذاك تتمتع بحيويتها وقوتها، إذ تمكن العثمانيون من إحراز الانتصارات أمام الفرس، ومن ضم بعض الممتلكات إلى امبراطوريتهم الواسعة . وكانت الحرب بينهم وبين الفرس قد نشبت بعد تولية مراد الثالث العرش مباشرة ، فاستمرت عدة سنوات حتى عقد الصلح بينهما فى سنة ١٥٩٠م بعد أن حصل العثمانيون بمقتضى هذا الصلح على جورجيا ومدينة تبريز ، وعلى أذربيجان وشيروان ولورستان وشيرحزول . وفى الميدان الأوربى ، ظلت القوى الأوربية المختلفة ترعى قواعد الصلح السابقة ، وتحافظ على السلام بينها وبين الدولة العثمانية ، وذلك طوال عهد السلطان مراد الثالث حتى قبيل وفاته بعامين فقط حيث أعلن الحرب على النمسا ، وذلك إذا استثنينا ماكان يقع من مصادمات على الحدود فى المجر بين الباشوات العثمانيين وبين الأمراء المسيحيين[٢] .

وقد انعكست أوضاع الدولة العثمانية العامة بجانبيها الإيجابى والسلبى على أوضاع اليمن الداخليـــة ، فبينما ظلت الدولة تحرص على إرسال النجدات

---

(١) يقال أن شخصاً مجهولا هو الذى قتل محمد باشا الصوقللى بعد أن تخفى فى زى مجذوب ودخل الديوان ثم طعنه بخنجر كان يخفيه بين طيات ملابسه ، وقد قتل هـــذا الشخص فى الحال فازداد أمره غموضاً إذ لم يتضح حينئذ هل كان دافع هذه الجريمة دافعاً شخصياً أم أنها كانت نتيجة مؤامرة مدبرة للتخلص من محمد باشا الصوقللى (تاريخ جـودت : جـ١ ، ص٤٨) .

(٢) Creasy, E. S. : History of the Ottoman Turks, p, 226–227,

والمساعدات لولاتها فى اليمن ، فقد خضعت هذه النجدات لمواقف ولاة مصر الشخصية ، كما تأثرت بمدى تحقيقها للمكاسب الخاصة . وبينما تميز بعض ولاة هذه الفترة ببعض المميزات الحميدة مثل قوة الشخصية أو الرغبة فى تحقيق العدالة ، فقد ظل هدف الكثير من العثمانيين فى اليمن هو الحصول على المكاسب الشخصية السريعة على حساب ظلم الأهالى ، أو حتى بإعلان التمرد والعصيان على الولاة . وقد انعكست هذه الأوضاع بالتالى على أهالى اليمن، وتأثرت أحوالهم بهذه الأوضاع المتناقضة ، فبينما استفاد البعض من الهدوء الذى حققه العثمانيون فى بعض الجهات ، أو من الدخول فى خدمة العثمانيين والتعلق بهم ، فقد ظلت أغلبية الأهالى يقاسون من جراء محاولات العثمانيين المستمرة لتشديد قبضتهم على زمام الأمور فى اليمن ، كما كانوا يعانون من التصرفات الفردية لبعض الأمراء والجنود التى كانت مظهراً من مظاهر التغيرات التى طرأت على نظم الدولة وقيمها .

وكانت التنظيمات التى وضعها سنان باشا قبيل مغادرته لليمن قد أدت إلى زيادة الأعباء الملقاة على كاهل الأهالى فى هذه الفترة ؛ إذ رفع سنان باشا « الخراج » المقرر على اليمن إلى أكثر من الضعف ، كما رفع كثيراً من مرتبات ودرجات الأمراء والجنود فى اليمن مكافأة لهم على أعمالهم أثناء وجوده فى اليمن ، أو لإغرائهم على البقاء به . ولقد كانت هذه الزيادات لا تعتمد على أساس اقتصادى متين ، فقد كان اليمن يمر بكساد تجارى عام نتيجة النشاط البرتغالى المعادى فى البحار الشرقية ، وذلك بالإضافة إلى أن « خراج » الأقاليم التى ظلت تحت سيطرة المطهر كان يعتبر إيراداً خاصاً له نظير خضوعه للسيطرة العثمانية ، كما كان العثمانيون مكلفين بمنح الأمراء الزيديين وعلى رأسهم محمد بن شمس الدين رواتب سنوية كبيرة باعتبارهم أمراء عثمانيين .

ولهذا كله . وبناء على جهود سنان باشا الحربية ، فقد اتسمت سياسة

ولاة هـذه الفترة بالجدية والعنف معاً ، كما كانت تهدف إلى تثبيت السيطرة العثمانية باليمن ، وإلى تشديد قبضة العثمانيين على زمام الأمور به ، وذلك على الرغم من اختلاف أعمال هؤلاء الولاة بعضهم عن بعض طبقاً لمقتضيات الظروف التى فرضت نفسها فرضا على كل منهم .

ولقد كانت المهمة الأولى التى واجهت بهرام باشا الذى تولى أمر اليمن أثناء وجود سنان باشا به كما ذكرنا فى الفصل السابق ، هى مواصلة الخطوات الحربية بل والمواقف السياسية التى بدأها سنان باشا حتى يتم للعثمانيين توسيع سيطرتهم فى اليمن ودعم هـذه السيطرة . واختلفت سياسة بهرام باشا وأعماله من إقليم إلى آخر من أقاليم اليمن المختلفة وذلك استجابة لظروف هذا الإقليم أو ذاك ، أو لموقفه العسكرى أو السياسى من العثمانيين .

ففى الأقاليم الشمالية ، حرص بهرام باشا أشد الحرص على المحافظة على شروط الصلح مع المطهر ، بل وحاول التقرب منه ومداراته حتى يضمن بقاء الهدوء فى هذه المناطق وحتى لا يثير المطهر اليمنيين ثانية ضده . وقد بلغت محاولات التقرب من المطهر قمتها عندما قامت الثورة فى أحد أقاليم الأخير ، وهو إقليم « الأهنوم » فى ربيع الأول سنة ٩٨٠هـ (يولية/أغسطس ١٥٧٢م) . فقد سارع بهرام باشا إلى نفى ما قد أشيع حينذاك بأن العثمانيين هم الذين حثوا على قيام الثورة فى « الأهنوم » كما عرض على المطهر أن يرسل إليه قوة من الجند لمساعدته فى إخماد الثورة حتى يؤكد براءته ، ولكن المطهر رفض هـذا العرض وقام بمفرده بإخماد الثورة وذلك بعد أن شكر لبهرام باشا موقفه منه[١] : وكانت محاولات التقرب من المطهر تصل أحياناً إلى حد السعى إلى إرضائه ، وذلك كما حدث عندما دفع المطهر محمد بن شمس الدين

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ١ ، ص٨٦ أ .

إلى مطالبة بهرام باشا بدفع راتبه السنوى إليه الذى كان قد تأخر دفعه قليلا عن موعده . وكان غرض المطهر من وراء ذلك هو إحراج موقف بهرام باشا ، وكذلك حث محمد بن شمس الدين على الوقوف إلى جانبه لأنه — أى المطهر — كان على وشك إعلان الثورة على العثمانيين ، ولكن بهرام باشا سارع إلى صرف مرتب محمد بن شمس الدين رغم اضطراب أحواله المالية[1] . وكانت سياسة بهرام باشا هذه امتداداً لسياسة سنان باشا التى هدفت من وراء عقد الصلح مع المطهر إلى تفتيت الثورة فى اليمن ، وإلى تهدئة المنطقة الشمالية الوعرة للتفرغ لإخماد الثورة فى باقى المناطق ، ولذلك ظل بهرام باشا يحرص على مهادنة المطهر — أو حتى ممالأته — حتى توفى الأخير فى نفس عام ٩٨٠ هـ (سنة ٢ / ١٥٧٣ م) ، كما ظل حريصاً على اتباع هذه السياسة مع خلفاء المطهر حتى عزل عن ولاية اليمن .

وقد اتبع بهرام باشا فى الأقاليم التى خضعت للعثمانيين خضوعاً مباشراً سياسة مختلفة تماماً عن السياسة التى اتبعها فى الأقاليم الشمالية ، فقد استعمل الشدة والعنف مع الأهالى حتى اشتهر فى اليمن بقسوته وبحبه لسفك الدماء . وكان الغرض الرئيسى من وراء استعمال هذه الشدة هو تصفية العناصر التى شاركت فى الثورة من قبل ، وذلك بالإضافة إلى إشاعة الخوف والرهبة بين الأهالى . وقد أسرف بهرام باشا فى التنكيل بالأهالى وفى الانتقام منهم ، فأخذ يسجن أو يقتل كل من حامت حوله الشبهات دون تحرى الحقيقة ودون التحقق من صحة هذه التهم ، وذلك « حتى أفنى من أهل اليمن خلقاً ليس إلى حصرهم سبيل لتعذر الانحصار »[2] . واتسع نطاق هذه الأعمال حتى شمل

---

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، جـ ١ ، م ١ ، ص ٢١٤ أ .

(٢) نفس المراجع : جـ١ ، م١ ، ص٢١٣ ب .

أغلب أقاليم اليمن ، فقد أسرف الأمراء بدورهم فى المدن والأقاليم المختلفة فى الانتقام من الأهالى للتخلص من الشخصيات اليمنية القوية المناوئة لهم ، وقد بلغت هذه الموجة ذروتها فى « صنعاء » نفسها وما حولها حتى تم القضاء على الكثير من العناصر القبلية المحيطة بها[١] .

وفى نفس الوقت استعمل بهرام باشا أسلوباً آخر من أساليب الشدة والعنف هو أسلوب شن الحرب المباشرة ، وذلك فى الأقاليم التى استعصى على سنان باشا اخضاعها للسيطرة العثمانية أثناء حملته على اليمن ، والتى كانت لا تخضع لأية قوى أخرى غير قوة رؤساء قبائلها . فقد شن بهرام باشا الحرب على عدد من الأقاليم مثل ريمة وملحان وخفاش وبرع — وهى التى تقع إلى الغرب من الخط الممتد بين « صنعاء » و « تعز » — عقب مغادرة سنان باشا لليمن مباشرة لدعم السيطرة العثمانية بها . وكانت هذه الأقاليم تشتهر بارتفاع جبالها ووعورتها ، كما كانت تتمتع باستمرار بنوع من الاستقلال تحت حكم زعمائها المحليين ، مما كان يصعب على الحكام المختلفين إخضاع هذه الأقاليم لسيطرتهم فكانوا يكتفون لذلك بتقريب زعمائها إليهم ، أو بمحاصراتها حتى لا يغير سكانها على الأقاليم المجاورة لهم . ولم يكن الأمر سهلاً أمام بهرام باشا ، فقد واصلت قواته الحرب فى إقليم واحد من هذه الأقاليم هو اقليم « ريمة » أكثر من عام حتى تم لها اخضاعه لسيطرتها ؛ اذ كان قد أرسل فى ١٥ رمضان سنة ٩٧٨ هـ (١٠ فبراير ١٥٧١ م) حملة قوية الى هذا الإقليم تتألف من المشاة والفرسان وبعض القوى اليمنية التى كان بهرام باشا يحرص على استخدامها فى جيوشه لضمان وقوعها بجانبه من ناحية ، ولدرايتها بطبيعة البلاد وطرقها من ناحية أخرى ، فلم تتمكن هذه القوة من اخضاع اقليم « ريمة » لسيطرتها الا فى ١٨ ذى القعدة سنة

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) جـ١ ، م١ ، ص ١١٣ ب .

٩٧٩هـ (أبريل ١٥٧٢م) [١] . وقد مال بهرام باشا إلى استعمال العنف فى معاملة أهالى هذه الأقاليم ، فأخذ من بينهم الكثير من الرهائن ، واستولى بالقوة على الأموال المفروضة عليهم ، كما هدم الكثير من قلاعهم وحصونهم حتى لا يستفاد منها فيما بعد .

ويمكن أن نخرج بحقيقة هامة هنا ، وهى ان ضراوة الحرب فى هـــذه الأقاليم ، إلى جانب موقعها إلى الغرب مباشرة من الخط الممتد بين (صنعاء) (وتعز) تؤكد أن خضوع بعض القوى اليمنية مثل الزيديين أو الإسماعيليين للسيطرة العثمانية ، أو سقوط المراكز والحصون الكبيرة فى أيدى العثمانيين ، لا يعنى خضوع أو سقوط باقى أهالى أو أقاليم اليمن فى أيديهم ، بل كان كل إقليم من الأقاليم يحتاج إلى جهد حربى خاص حتى يخضع لتلك السيطرة . وهناك حقيقة هامة أخرى ، وهى أن أهالى هذا الإقليم كانوا من السنة ، أى ممن يتفقون مع العثمانيين فى المذهب ، غير أن هذا الاتفاق لم يمنع هؤلاء الأهالى من الخروج على طاعة العثمانيين ، وهذا يؤكد ماذهبنا إليه وهو أن الخلاف بين أهالى المناطق الشمالية الزيديين وبين العثمانيين كان لا يرجع إلى اختلاف المذهب بل كان يرجع إلى أسباب موضوعية أخرى ، وذلك بالرغم من ميل بعض المعاصرين وقتذاك إلى تأكيد أهميه الخلاف المذهبى فى قيام الحرب فى شمال اليمن .

ولكن يلاحظ أن بهرام باشا لم يعمد إلى استعمال القسوة والعنف فى اليمن لإحكام سيطرة العثمانيين أو لجمع الأموال من الأهالى فحسب ، بل كان يرمى الى تحقيق هدف عسكرى هام وهو انتزاع الأسلحة — وخاصة النارية — من أيدى الأهالى للقضاء على ثوراتهم المسلحة ، ولإجبارهم على الخضوع له . وقد استطاع بهرام باشا أن يجمع الكثير من هذه الأسلحة التى

---

(١) محمد بن يحيى المطيب بلوغ المرام فى تاريخ دولة مولانا بهرام (مخطوطة) ، ص١٩ب — ٢٠ ب .

كان اليمنيون قد استولوا عليها من أيدى العثمانيين أثناء الحروب السابقة ، والتى كانت تضم الكثير من الأسلحة النارية الخفيفة والثقيلة معاً[١] . وسارع بهرام باشا الى ارسال الجزء الأكبر من هذه الأسلحة الى مصر لحفظها بها[٢] ، وذلك حتى تكون بعيدة عن متناول اليمنيين اذا قاموا بالثورة مرة أخرى ، أو حتى يستطيع أن يعلن عن نجاحه فى اليمن ، وأنه أعاد الى الخزانة العثمانية بعض ممتلكاتها الضائعة ، فيكسب بذلك ثقة وتقدير المسئولين فى مصر أو استانبول .

غير أن ميل بهرام باشا الى استعمال سياسة الشدة — رغم نجاحها الى حد كبير فى تثبيت أقدام العثمانيين — قد أتت بنتيجة عكسية عندما بالغ فى اتباعها ، وذلك سواء لدى اليمنيين الذين ضاقوا بهذه السياسة ، أو لدى الجنود العثمانيين الذين لم يجنوا ثمار تنفيذ هذه السياسة - أو الى حد ما - ثمار تحقيق أغراض بهرام باشا الذى كان يهمه ارضاء رجالات الدولة فى مصر واستانبول أكثر مما كان يهمه ترضية من حوله من الأمراء والجنود . فقد فكر المطهر فى نقض الصلح واعلان الثورة على العثمانيين عندما زاد ظلم بهرام

---

(١) نفس المرجع : ص ٣٧ب — ٣٨أ (اهتم المطيب باعتباره مؤرخ بهرام باشا باحصاء لأعداد هذه الأسلحة وبيان أنواعها ، ورغم عدم قدرتنا على التأكيد من صحة الأرقام التى ذكرها فانها توضح لنا ضخامة عدد هذه الأسلحة وكذلك أنواع أسلحة هذه الفترة . فقد ذكر المطيب أن الأسلحة المجموعة فى المدة من ٧ ذى الحجة سنة ٩٧٧هـ الى آخر صفر سنة ٩٨٢هـ (١٧مايو ١٥٧٠ — ٩ يونية ١٥٧٤م) فقط هى « من البنادق ستة آلاف وثلثمائة واحدى وثلاثين قصبة . ومن السيوف تسعة آلاف وثلثمائة وسبعة عشر سيفاً ومن المزاريق (الحراب) ثلاثة آلاف وثلاثة وعشرين مزراقاً ، ومن المطيف ألف عطيف ، ومن القاليم عدداً لا يحصى ، ومن الخوذ سبعة وتسعين خوذة ، ومن الطوس ستين ، ومن الحافر والخف (الخيل والجمال) ما لا يحصى عدداً ، وشيئاً كثيراً من آلات الحرب » . والعطوف مصيدة فيها خدبة معطوفة الرأس وجمعها عواطيف ، والمعطاف هو السيف وجمعها عطف وأعطفة — والطاس لصف كرة مجوفة من الفضة أو النحاس يزان بها جوانب الطبنجة (القاموس التركى . شمس الدين سامى ، استانبول ، أقدام مطبعة سى) .

(٢) محمد بن يحيى المطيب : نفس المرجع ، ص ٤٠ب (ذكر أن الدفعة الأولى من البنادق التى أرسلها بهرام باشا الى مصر كانت تبلغ أربعة آلاف بندقية) .

باشا للأهالى ، وعندما شعر بازدياد سخط اليمنيين وتذمرهم . وترجم المطهر تفكيره هذا الى عمل ايجابى عندما دعا كبار أعوانه الى اجتماع عام للتشاور فى اعلان الثورة على بهرام باشا ، غير أن مشروعه هذا لم يخرج الى حيز التنفيذ رغم اجماع آراء المجتمعين ، وذلك لتخاذل محمد بن شمس الدين واظهار الضعف ، ولوفاته هو بعد قليل من عقد هذا الاجتماع(١)

وساد التذمر الجنود العثمانيين أيضاً ، وذلك نتيجة تأخر مستحقاتهم ومرتباتهم فى نفس الوقت الذى كانوا يقومون فيه بجهود مضاعفة لتنفيذ سياسة بهرام باشا . وكان هذا الوالى فى موقف لا يحسد عليه فى الحقيقة ، فبالإضافة الى ضعف الموارد اليمنية حينذاك ، وحرصه هو وكبار الأمراء على جمع الثروات الخاصة ، فقد تضاعف — كما ذكرنا — الخراج المقرر ارساله الى استانبول ، وزادت الأعباء المالية الملقاة على عاتق خزانة اليمن . وقد اتضح تذمر الجنود وتمردهم على بهرام باشا بصـــورة سافرة عند وفاة السلطان سليم الثانى وتولية ابنه مراد الثالث بدلا منه فى أواخر سنة ١٥٧٤م، وكذلك عند عزل بهرام باشا بعد ذلك بقليل . وكان منح الجنود الهبات والعطايا مع رفع مرتباتهم اليومية عند تولية سلطان جديد من العادات القديمة فى الدولة العثمانية ، فقد ظهرت هـذه العادة منـــذ عهد محمد الثانى (الفاتح) (١٤٥١ — ١٤٨١ م) وظلت مرعية الجانب حتى القضاء على الانكشارية فى سنة ١٨٢٦ م فى عهد السلطان محمود الثانى . وكان الجنود يصرون على الحصول على هذه المنح دون مراعاة لأحوال الدولة المالية ، ويلجأون أحياناً الى التمرد والثورة للحصول عليها(٢) . وقد ظهر من الجنود عند تولية السلطان

---

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، جـ١ ، م ١ ، ص ٢١٤ أ .

(٢) Andarsou, A. D: : The Structure of the Ottoman Dynasty p. 43.

سليم الثانى نفسه بعض المواقف الخشنة مما دعا بعض كبار رجال الدولة إلى التدخل لحماية السلطان ، وإلى الإسراع فى صرف المنح المطلوبة[1] . وفى بداية الأمر كان صرف هذه المنح مقصوراً على الجنــود المحيطين بالسلطان فى « استانبول » ثم انتشرت فيما بعد إلى باقى الولايات ، فكان الجنود يضغطون على ولاتهم لصرف المنح والترقيات إليهم أسوة بزملائهم فى استانبول . ولهذا كله ، اشتدت ثورة الجنود على بهرام باشا عندما وصل خبر تولية السلطان الجديد إلى اليمن فى ذى القعدة سنة ٩٨٢ هـ (فبراير سنة ١٥٧٥ م) بل وانتهزوا هــذه الفرصة لمطالبته بمستحقاتهم المتأخرة لديه . وازداد هياج الجنود على بهرام باشا عنـدما علموا بخبر عزله بعد ذلك بقليل واستعداده للرحيل ، فهاجموا قصره وحاولوا قتله والاستيلاء على أمواله ، فأذعن بهرام باشا لمطالبهم ، وصرف لهم مستحقاتهم من أمواله الخاصة لتخليص نفسه من أيديهم ، وذلك بعد أن توسط كبار الأمراء بينه وبين هؤلاء الثائرين[2] وكاد أن يتطور تمرد الجنود على بهرام باشا من أجل الحصول على الأموال إلى انشقاق خطير بين صفوف العثمانيين ، إذ قيل إن دفتردار اليمن حينذاك كان وراء هـذا التمرد ، وأنه هو الذى كان يثير الجنود على بهرام باشا للقضاء عليه ، بل وللاستقلال بحكم اليمن ، وأنه وعدهم بأنه سيغدق الأموال عليهم عند تحقيق هذه الغاية[3] . وقد أدى هذا دون شك الى زيادة حرج موقف بهرام باشا وخاصة أثناء مغادرته لليمن بعد عزله ، غير أنه استطاع أن يقضى على هذا التمرد عندما استعاد سلطاته بعد أن علم

---

(١) محمد بن محمد الأدرنوى : نخبة التواريخ والأخبار (باللغة التركية) ، ص ١٠٧ — ١٨٠ .

(٢) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، جـ ١ ، م ١ ، ص ٢١٣ ب .

(٣) محمد بن يحيى المطيب : بلوغ المرام فى تاريخ دولة مولانا بهرام (مخطوطة) ، ص ٤٥ ب — ٤٦ ب .

بوفاة الوالى الجديد مصطفى باشا عقب وصوله إلى ميناء « البقعة » اليمنى . وكان تكاتف أغلب الأمراء العثمانيين حول بهرام باشا العامل الرئيسى الذى ساعده على القبض على الدفتردار وقتله ، وكذلك على القضاء على زعماء هذا التمرد[1]. وكان هؤلاء الأمراء يخشون اتساع أمر هذه الفتنة لأنه يؤدى إلى إضعاف شأنهم أمام اليمنيين ، وذلك لأنه بالرغم من أن بعد اليمن عن مقر السلطنة العثمانية كان يغرى بعض العناصر العثمانية على التفكير فى الاستقلال بأمر اليمن ، فإن هذا البعد نفسه ، بالإضافة إلى صعوبة الميدان اليمنى ، كانا يدفعان البعض الآخر - وهم الأغلبية دائماً - على التمسك بطاعتهم للسلطنة للاستناد عليها ، ولتثبيت أقدامهم فى اليمن .

وهكذا تتضح الخطوات التى اتخذها بهرام باشا لتثبيت أقدام العثمانيين فى اليمن بعد مغادرة سنان باشا له ، كما يتضح أن هذه الخطوات رغم نجاحها الظاهرى فإنها لم تؤدى إلى تحقيق ما يصبو إليه تماماً ، فقد ازداد تذمر اليمنيين وسخطهم حتى كادت أن تنشب الثورة مرة أخرى بزعامة المطهر لولا أن عاجلته المنية ، ولولا انشغال أبنائه من بعده فى منازعاتهم الخاصة وكذلك أدت خطواته إلى تذمر الجند وتمردهم عليه حتى كادت أن تتعرض حياته للهلاك .

ولقد مرت جبهة المطهر - أو بالأحرى المنطقة الشمالية - بدورها بتطورات هامة فى هذه الفترة أيضاً ، وذلك نتيجة لما طرأ حينذاك من عوامل جديدة أهمها عقد الصلح نفسه مع سنان باشا ، ثم وفاة المطهر بعد ذلك بحوالى عامين فى ٣ رجب سنة ٩٨٠ هـ (نوفمبر ١٥٧٢م)[2] . فقد نتج عن الهدوء الذى ترتب على

---

(١) محمد بن يحيى الطيب : بلوغ المرام فى تاريخ دولة مولانا بهرام (مخطوطة) ، ص ٤٩ ب — ٥٠ ب .

(٢) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، حـ٢ ، ص ٨٦ ب . (أسهب عيسى بن لطف الله فى مدح المطهر ووصف مناقبه وصلاحه وتقواه وأنه كان يكثر من الصلاة وتلاوة القرآن ، كما وصف ضخامة جنازته لأهميته الكبيرة فقال «وخرجت فى جنازته الجنود فى السلاح والخيل وفى الدروع والرماح ، واجتمع عنده كافة الأنام » .

عقد الصلح أن بدأت المشاكل الخاصة بالمنطقة تطغو على السطح بعد أن كان الوقوف فى وجه سنان باشا قد أخفى هذه المشاكل تحت ستار الوحدة أو الاتحاد تحت زعامة المطهر . وكانت وعورة هذه المنطقة الجبلية ، وانتشار المذهب الزيدى بها ، وكذلك وجود عدد كبير من الأشراف بها ، تؤدى جميعها إلى انقسام هذه المنطقة إلى عدد من المقاطعات الصغيرة عندما تضعف بها القيادة المركزية أو عندما تنتفى الأخطار الخارجية التى تجبرها على توحيد عناصرها وطاقاتها .

وكان المذهب الزيدى ـ كما أشرنا فى التمهيد ـ يجعل من هؤلاء الأشراف أنداداً متساويين ، ويفسح الفرصة بالتالى لكل منهم لأن يوسع ممتلكاته أو نفوذه على حساب الآخرين وبالصدام معهم . وقد استطاع المطهر بفضل قوة شخصيته أن يوحد هؤلاء الأشراف تحت قيادته ، وأن يجعلهم يوجهون طاقاتهم لصد العثمانيين عن ممتلكاتهم ، أما بعد عقد الصلح مع سنان باشا فقد اضطر إلى أن يبذل جهوداً مستمرة من أجل إخضاع المنطقة الشمالية لسيطرته ، أو من أجل إحكام قبضته على عناصرها . وقد اتضح هذا بجلاء عندما ثار أحد أتباع المطهر عليه فى « الأهنوم » بعد عقد الصلح بقليل ، فأرسل إليه المطهر على بن الشويع على رأس قوة من الجند استطاعت أن تقضى على هذه الثورة بسهولة . ومن ناحية أخرى ، ثار النزاع بين الشريفين أحمد بن الحسين المؤيدى ومحمد بن ناصر اللذين — كلفهما المطهر معاً بحكم « صعدة » وما يليها شمالا بعد الاستيلاء على هذه المناطق من أيدى العثمانيين — فقام المطهر بإرسال على بن الشويع إلى « صعدة » للاصلاح بينهما ، ولإعادة أحمد بن الحسين إلى « صعدة » بعد أن طرده منها محمد بن ناصر . وقد انتهى الأمر بقيام على بن الشويع وأحمد بن الحسين بشن الحرب على محمد بن ناصر عندما رفض الامتثال للصلح . وألحقا به الهزيمة ففر إلى الجوف واستقر به . وظل المؤيدى فى « صعدة » كما كان من قبل[1] .

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٣٥ — ١٣٦ .

وقد ظل وجود المطهر كفيلا بالقضاء على مثل هذه الثورات ، أو حتى بإخفاء النزعات الاستقـــلالية التى كانت تداعب خيال بعض أتباعه من الأشراف وغيرهم .

ولقد أثرت وفاة المطهر بدورها تأثيراً بالغاً فى أوضاع المنطقة الشمالية ، إذ أدت إلى تفتيت هذه المنطقة ، كما أدت كذلك إلى انهيار سيطرة أسرة الإمام شرف الدين ، إذ لم تخلف المطهر شخصية قوية تستطيع أن تقبض على زمام الأمور كما فعل هو ، ولم يحافظ أبناؤه على وحدتهم أو وحـدة أملاكهم ، بل تنازعوا فيما بينهم حول السلطة والنفوذ ، وتقاسموا ممتلكات أبيهم بينهم ، وذلك لأن المطهر كان قد ولى أبناءه الأجزاء المختلفة من ممتلكاته قبل وفاته بمدة غير قصيرة[1] .

ويصعب فى الحقيقة رسم خريطة سياسية للمنطقة الشمالية بعد وفاة المطهر لانقسامها إلى عدد كبير من الأقسام ، ولغموض المراجع المعاصرة وقتذاك . فقد اهتمت هذه المراجع بذكر المقاطعات الكبيرة فقط دون المقاطعات الصغيرة التى لم تشر إليهـا إلا فى سياق الحديث عن بعض الأحداث فقط ، وكذلك اهتمت المراجع بذكر كل مقاطعة دون تحديد واضح لحدود كل منها . وبالإضافة إلى ذلك فإن كثرة الحروب التى دارت فى المنطقة الشمالية ، وما كان يترتب عليها من ثغرات سريعة ومستمرة فى حدود كل مقاطعة ، كانت من الأمور التى تزيد من صعوبة معرفة حقيقة أوضاع هذه المنطقة بعد وفاة المطهر . وعلى ضوء هذه الاعتبارات فيمكن القول بأن المنطقة الشمالية قد قسمت بعد وفاة المطهر إلى عدد كبير من المقاطعات بين أبناء المطهر وغيرهم من كبار أتباعه ، فقد استقل لطف الله بن المطهر بحكم حصن « ذى مرمر » وبلاده ونصف إقليم

---

(١) نفس المرجع : ص ١٣٦ .

الشرف، واستقل على يحي[1] بن المطهر بحكم حصن «ثلا»، ومناطقه و«عمران» وجبل «عيال يزيد»، واستقل عبد الرحمن بن المطهر بحكم «حجة» وبلادها، واستقل غوث الدين بن المطهر «بعفـــار» واتخذها مقراً لحكم منطقة «الأهنوم»، وكان لحفظ الله بن المطهر نصف إقليم «الشرف»، وكذلك استقل باقى أبناء المطهر وبعض إخوته بمقاطعات أخرى أقل أهمية وأصغر مساحة. وبالإضافة إلى ذلك فقد استقل محمد بن شمس الدين بحصن «كوكبان» وما حوله، واستقل أحمد بن الحسين المؤيدى «بصعدة» وأقاليمها، واستقرت أوضاع محمد بن ناصر فى نفس الوقت فى إقليم الجوف[2]. ولم يقف الأمر عند حدود تقسيم المنطقة الشمالية إلى هذا العدد من الأقسام، بل سرعان ما قامت المنازعات بين زعماء هذه المنطقة حول الاستئثار بالسلطة والنفوذ، أو من أجل توسيع الممتلكات. وقد أدت هذه المنازعات إلى انهيار الأحوال فى المنطقة الشمالية انهياراً تاماً فى خلال عامين فقط بعد وفاة المطهر، فقد أدى اشتعال الحروب العنيفة بين أمراء هذه المنطقة إلى ضعف مركز هؤلاء الأمراء أمام العثمانيين حتى إن بعض هؤلاء قد لجأ إلى العثمانيين للاستعانة بهم ضد الآخرين. وضعف مركز الأمراء كذلك أمام أهالى المنطقة الذين ضاقوا بهذه الحروب، وبكثرة الاضطرابات التى كانت لا تخدم إلا مصلحة الأمراء الشخصية، لذلك ثار الأهالى على حكامهم «وخالفت البلاد جميعاً على أولاد المطهر لما اشتغل أولاد المطهر بحرب بعضهم بعضاً»[3]. وقد أسهب مؤرخو هذه الفترة فى ذكر تفاصيل المنازعات والحروب التى دارت بين أمراء المنطقة الشمالية حتى أصبح من الصعب متابعتها وذلك دون توضيح كاف

(١) اشتهر على يحيى بلقب ذو الإسمين.

(٢) عيسى بن لطف الله: روح الروح (مخطوطة)، جـ٢، ص ٨٦ب.

(٣) يحيى بن الحسين: أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة)، ص ١٣٦.

لأسباب هذه المنازعات . ورغم هذا فيمكن القول بأن أهم هذه الأسباب هي محاولة علي يحيى بن المطهر تقليد أبيه ، وعمله على فرض سيطرته على باقي إخوته وباقي أمراء المنطقة وذلك دون أن تكون له مؤهلات أبيه الشخصية ، أو حنكته السياسية والحربية . وكذلك كان موقف محمد بن شمس الدين من باقي الأمراء من بين الأسباب الهامة في إثارة هذه المنازعات ، فقد عمل من جانبه على تفتيت وحدة هذه المنطقة حتى يظل محتفظاً بأملاكه ونفوذه، وكذلك عمل على توطيد علاقته بالعثمانيين حتى أصبح أقرب هؤلاء الأمراء إليهم . وبالإضافة إلى هذا كله فقد كان عداء بعض الأمراء لمحمد بن ناصر الذي فرض سيطرته في منطقة الجوف ، واستيلائهم على أملاكه عاملا هاماً من عوامل انهيار هذه المنطقة[1] ، فقد لجأ محمد بن ناصر إلى بهرام باشا للاستنجاد به عندما ألحق بعض الأمراء الزيديين الهزيمة به ، فرحب به بهرام باشا وأحسن وفادته تقريباً له ، ومنحه لقب ومرتب سنجق عثماني . وقد اعتبر بهرام باشا التجاء محمد بن ناصر إليه نصراً سياسياً له باعتباره أول من لجأ إليه من أمراء المنطقة الشمالية ، ولذلك علق أحد المعاصرين على هذا بقوله « لحصل بمواجهته الأنس العظيم ، والنصر العميم ، كون المذكور من أعيان رؤساء تلك البلاد »[2] .

وكيفما كان الأمر ، فقد أدت وفاة المطهر إلى انهيار حكم أسرة الإمام شرف الدين وزوال سيطرتها . ولقد كان المطهر من أبرز الشخصيات اليمنية التي ظهرت في خلال الربع الثاني والثالث من القرن السادس عشر ، وذلك رغم اختلاف معاصريه حول تقييمه . فقد مدحه بعض المؤرخين والكتاب خاصة الزيديين منهم ، فوصفوه بالصلاح والتقوى ، وأنه كان

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ٢ ، ص ٨٧ أ .

(٢) محمد بن يحيى المطيب : بلوغ المرام في تاريخ دولة مولانا بهرام (مخطوطة) ، ص ٣٢ ب .

دءوباً على العمل والحركة حتى فى خلال مرضه الأخير ، وأنه حارب العثمانيين لرفع ظلمهم عن اليمنيين[١] .

وقد هاجمه من ناحية أخرى البعض الآخر من المؤرخين وخاصة السلبيين ، فوصفوه بأقذع الأوصاف مثل الملحد والمفسد والمضلل والأعرج وغير ذلك لاختلافه عنهم مذهبياً ، ولوقوفه فى وجه العثمانيين[٢] . وقد أخطأ المطهر فى الحقيقة خطأين كبيرين فى مقتبل حياته الحربية والسياسية ، فقد مال إلى القسوة البالغة فى معاملة اليمنيين أثناء حروبه لفرض سيطرة أبيه الإمام شرف الدين فى أقاليم اليمن المختلفة لأول مرة ، وذلك سواء ضد الزيديين فى الشمال ، أو ضد الطاهريين فى الجنوب ، وكذلك أخطأ المطهر عندما استعان بالعثمانيين ضد أبيه أثناء خلافه معه ومع أخيه شمس الدين ، وقد اعترف المطهر بهذا الخطأ وندم لوقوعه[٣] . ومن المرجح أن صغر سن المطهر عند بداية اشتراكه فى الحياة العامة اليمنية ، وطبيعته الجبلية ، كانا من أهم العوامل التى أدت به إلى ارتكاب مثل هذه الأخطاء . فمن المعروف أن المطهر قد بدأ فى قيادة بعض جيوش أبيه وهو فى السادسة عشر من عمره ، كما أنه من المعروف أيضاً أن الجبليين يشتهرون بالغلظة والخشونة ، غير أن هذا كله لا يقلل من أهمية المطهر ودوره الكبير فى تاريخ اليمن فى هذه الفترة ، فقد قاد الشماليين مرتين إلى باقى أقاليم اليمن حتى

---

(١) عيسى بن لطف الله ، نفس المرجع (مخطوطة) ، ص٨٦أ — ٨٦ب .

(٢) أهم هؤلاء المؤرخين هما قطب الدين وابن دعر .

(٣) محمد ابن اسماعيل الكبسى : اللطائف السنية فى أخبار الممالك اليمانية (مخطوطة) ، ص٣٠٩ (ذكر الكبسى أن المطهر قد قال فى أواخر عمره « لى فى الزمان ثلاث هفوات ، فقيل له ماهن ؟ فقال الأولى خلافى على والدى رحمه الله والثانى : عمارتى «طيبة» (وهى التى اتخذها مقراً له أثناء تمرده على والده) وإنفاق فيها نفائس الأموال ، والثالثة ، منعى لأهل صنعاء من مواجهة ازدمر باشا ، فهذه لا أعرف لنفسى هفوات سواها ، أسأل الله أن يهون جزاءها) .

« عدن » جنوباً وبسط نفوذهم بها ، وكانت المرة الأولى فى عهد أبيه الإمام شرف الدين قبل أن يختلفا معاً ، أما المرة الثانية فكانت بعد أن استقل بزعامة الزيديين ، واستطاع أن يبسط حكمه فى اليمن لمدة عامين ونصف حتى جاء سنان باشا إلى اليمن كما ذكرنا فى الفصل السابق . وقد استطاع المطهر كذلك أن يصمد فى « ثلاء » أمام جيوش العثمانيين مرتين ، الأولى أمام أزدمر باشا ، والثانية أمام سنان باشا ، فحقق له هذا الصمود بالتالى زعامة حركة المقاومة اليمنية ضد العثمانيين لمدة نصف قرن تقريباً ، إذ أصبح خلال هذه المدة رمزاً للثورة اليمنية وذلك بعد أن نجح فى أن يجمع حوله أغلب اليمنيين على اختلاف اتجاهاتهم ومشاربهم . وأخيراً فإنه يمكن القول بأن المطهر هو الذى وضع اللبنات الأولى للحكم الزيدى فى اليمن فى التاريخ الحديث ، وإن كان الإمام القاسم وأولاده الذين ظهروا بعد ذلك هم الذين شيدوا بناء هذا الحكم .

ولهذا كله فلا غرابة أن نربط بين وفاة المطهر وبين استقرار الحكم العثمانى نسبياً فى اليمن فى هذه الفترة ، بل وأن نقول إن وفاته كانت من العوامل الهامة فى استقرار هذا الحكم ، فقد أتاح الفراغ السياسى الذى نتج عن وفاته الفرصة أمام هؤلاء لمد سيطرتهم إلى أقاليم اليمن المختلفة وتدعيمها[1] . وقد اتضح هذا بجلاء فى فترة حكم بهرام باشا ، فقد استطاع هذا الوالى أن يوجه الضربات المتتالية لليمنيين لتوطيد الحكم العثمانى بل وأن يتغلب على تمرد الجنود العثمانيين ضده ، وذلك بفضل هدوء الأحوال فى شمال اليمن بعد عقد

---

(١) ذهب أحد اليمنيين المحدثين وهو أحمد حسين شرف الدين فى كتابه (اليمن عبر التاريخ ، ص٢٦٤) إلى أن المطهر بطلا قومياً وذلك أثناء حديثه عن حملة سنان باشا على اليمن ، ثم قال : « ولقد كانت وفاة المطهر بالنسبة للأتراك نصراً عظيما وبشرى سعيدة أتاحت لهم المزيد من السيطرة وبسط النفوذ والتنكيل بأعيان البلاد » .

الصلح مع المطهر ، ثم نتيجة لوفاة الأخير قبل أن يعلن ثورته الجديدة التى كان قد قرر القيام بها قبل وفاته بقليل .

وقد ازداد وضوحاً أثر وفاة المطهر فى تاريخ اليمن بعد ذلك ولمدة طويلة وذلك لضعف خلفائه ، أو بالأحرى لعدم ظهور شخصية يمنية قوية تستطيع أن تملأ الفراغ الذى خلفته وفاة المطهر ، والذى أدى ـ بصفة خاصة ـ إلى أن تصبح المنطقة الشمالية موضع طمع العثمانيين بعد أن كانت مصدر إقلاق لهم . فقد كان فى وسع بهرام باشا أن يمد نفوذه إلى المنطقة الشمالية بعد وفاة المطهر عندما اتضح ضعف خلفائه ، وبعد أن أدت كثرة منازعاتهم إلى ضعف شأنهم ، غير أنه فضل أن يترك هذه المنطقة وشأنها[1] حتى لا يتهم بأنه هو الذى نقض الصلح الذى عقده سنان باشا ، ونظراً لكثرة مشاكله الخاصة بباقى أقاليم اليمن .

ولقد التزم مراد باشا الذى تولى الحكم بعد بهرام باشا بهذا الموقف أيضاً ، وهو عدم التدخل فى منازعات أمراء الإقليم الشمالى ، وعدم استغلال هذه المنازعات لمد السيطرة العثمانية إلى الإقليم ، طالما أن هذه المنازعات لا تمس السيادة العثمانية ، ولا تتخطى حدود المناطق المنصوص عليها فى الصلح الذى عقد مع المطهر . غير أن سياسة مراد باشا كانت تختلف عن سياسة بهرام باشا فى أقاليم اليمن ، وإن كانت تهدف إلى معالجة آثارها السيئة ، وإن كانت تتفق معها فى الهدف وهو توطيد السيطرة العثمانية فى اليمن . فقد حرص مراد باشا منذ وصوله إلى اليمن فى ١٤ ربيع أول سنة ٩٨٤ هـ (١١ يونيه سنة ١٥٧٦م) على الرفق باليمنيين وعلى نشر العدل بينهم فأدى ذلك إلى اطمئنانهم إليه والتفافهم حوله . وفى نفس الوقت وقف مراد باشا فى وجه الأمراء العثمانيين الذين اشتهروا بظلم الأهالى والفساد ، فعزل بعضهم وقتل البعض الآخر .

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٣٦ .

ويعتبر مراد باشا فى الحقيقة من أكثر الولاة العثمانيين الذين اشتهروا بإقامة العدل فى اليمن ، فقد حرص على رفع الظلم عن اليمنيين ، وعلى القضاء على المظالم المالية والإدارية التى كانت تسىء إلى سمعة العثمانيين باليمن . وأكد مراد باشا هذه السياسة منذ وصوله إلى اليمن ، فقد أذاع فور وصوله إلى هناك نداء عاماً إلى اليمنيين والعثمانيين على السواء بأنه سيقتص من الظالم للمظلوم ، وأنه قد عفا عن أخطاء اليمنيين السابقة فلن يعاقب أحداً منهم إلا لما يرتكبه من أخطاء جديدة[1] . وكان لهذا النداء أثره الطيب فى نفوس الأهالى ، فبدءوا فى الاطمئنان إليه والإلتفاف حوله ، وخاصة بعد أن اتخذ مراد باشا الخطوات العملية لتنفيذ هذا النداء ، وكان مراد باشا يؤكد هذه السياسة أثناء إنتقاله البطىء بين المدن التهامية حتى وصل إلى « زبيد » وهناك قام بعزل حاكمها عندما شكاه الأهالى وأظهروا فساده أمامه . وكان هذا الحاكم قد فرض إتاوة على أهالى زبيد تسمى « المجابرة » ، وكانت « صورتها أنه متى عضه الإفلاس وتعطلت منه الأكياس ، لسوء سيرته فى الناس ، عطف على الرعية بهذه القضية الرزية ، ولم يجد مدخلا عليهم فى تقريرها ، ولا وجهاً مصوغاً لتشخيصها وتصويرها غير تسميتها مجابرة ، وإرسالها فيهم إرسال الأمثلة السايرة »[2] . ولم يقف مراد باشا عند حد عزل الأمراء العثمانيين الفاسدين ، بل كان يأمر أحياناً بقتلهم ، وذلك كما حدث مع حاكم « حيس » التى تقع إلى الجنوب من « زبيد » بقليل ، والتى سارع سكانها بالشكوى من حاكمهم عند وصول مراد باشا إليها . وتكرر ذلك فى « تعز » ، فقد أمر مراد باشا بقتل أحد القادة الكبار الذى كثر تعديه على الأهالى والذى كان من زعماء التمرد على بهرام باشا . وكان مراد قد دعا هذا القائد للتحقيق معه فى شكوى الأهالى ، فأساء هذا القائد التصرف أمام

(١و٢) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، ج١ ، م٢ ، ص ٢٩٥ أ .

مراد باشا وهاجم الشاكى وشتمه ، فأمر الأخير بقتله على الفور[١] .

وقد أدت هذه الأعمال وغيرها إلى تثبيت أقدام العثمانيين فى اليمن ، كما نجحت فى تحقيق هدفى مراد باشا وهما من ناحية جذب اليمنيين إليه وتهدئة خواطرهم ، ومن ناحية أخرى القضاء على عناصر الفساد والاضطراب بين الأمراء العثمانيين . وكان تمرد الجنود على بهرام باشا فى أواخر فترة حكمه فى اليمن قد أثارت اهتمام المسئولين فى استانبول وخاصة بعد وصول تقاريره إلى هناك ، ثم بعد وصوله هو إلى استانبول عند عزله ، ولذلك كان القضاء على عناصر التمرد والشغب بين الأمراء والجنود العثمانيين من أهم أهداف مراد باشا فى اليمن ، بالإضافة إلى هدفه الهام الآخر وهو إزالة آثار الحروب السابقة من نفوس اليمنيين ، ونشر الأمن والعدل . وقد ظل مراد باشا يتعقب هذه العناصر بعد استقراره فى « صنعاء » ، وخاصة الذين كان بهرام باشا قد حدد أسماءهم فى تقاريره ، وذلك مثل الأمير كشك على الذى قتله مراد باشا عقب وصوله إلى « صنعاء »[٢] .

وكان عنف مراد باشا المتعمد فى معاملة الأمراء والجنود العثمانيين يقابله لين وتسامح فى معاملة اليمنيين ، وذلك بناء على العفو العام الذى أعلنه عند وصوله إلى اليمن . وقد تمثل هذا بوضوح فى إعفائه — رغم معارضة قادته له — عن أحمد بن على البعدانى الذى كان من أكبر أعوان المطهر فى إقليم « بعدان » أثناء فترة تدهور السيطرة العثمانية التى سبقت مجىء سنان باشا إلى اليمن[٣] ، وذلك لتحقيق هدفه السياسى وهو جذب اليمنيين إليه ، وبث الطمأنينة فى نفوسهم

---

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، جـ ١ ، م ٢ ، ص ٢٢٥ ب .

(٢) نفس المرجع : ص ٢٩٦ أ .

(٣) نفس المرجع : ص ٢٩٥ ب .

نحو الحكم العثمانى . وبالإضافة إلى ذلك فقد اهتم مراد باشا أثناء إقامته فى « صنعاء » بالقيام ببعض المشروعات العمرانية مثل تجديد عمارة مسجد بها ، وتجديد حفر « غيل » لتوصيل المياه إليها[1] . وكذلك اهتم مراد باشا — ارضاء لليمنيين — بمحاربة العادات السيئة التى تنتشر عادة بين الجنود فى أوقات السلم ، والتى كانت تؤذى مشاعر اليمنيين وتؤدى إلى تذمرهم[2] .

وفى نفس الوقت حافظ مراد باشا على شروط الصلح المبرم بين الأمراء الزيديين والعثمانيين ، فقد حرص على عدم التدخل فى منازعاتهم الخاصة التى ثارت بينهم عقب وفاة المطهر . وقد أفاد مراد باشا بهذا الموقف قضية وجود العثمانيين فى اليمن ، فقد رأى أن هذه المنازعات ستؤدى حتما إلى ضعف هؤلاء الأمراء ، وإلى سقوطهم بالتالى فى أيدى العثمانيين دون أن يكلفوا أنفسهم أية مشقة أو أموال ، ودون أن يتيح الفرصة لهؤلاء الأمراء أن يوحدوا صفوفهم لمهاجمته إذا شن الحرب عليهم ، وكان هذا الموقف يستند إلى أساس واقعى ، فقد رأينا كيف أدت منازعات هؤلاء الأمراء قبل مجىء مراد باشا إلى اليمن إلى اضطراب أحوالهم حتى ثار الأهالى ضدهم ، كما رأينا أن هؤلاء الأمراء لجأوا الى بهرام باشا بعد هزيمته أمام باقى الأمراء الزيديين ، فأحسن بهرام باشا وفادته وقربه اليه بل وعينه حاكماً لمدينة « رداع » التى تقع على الحدود الجنوبية للمنطقة الشمالية . وكان مراد باشا يبرر موقفه أحياناً من الأمراء الزيديين بتبرير دينى ، وهو أنه لا يجب أن يحارب هؤلاء الأمراء لقرابتهم من الرسول (ص) طالما أن منازعاتهم تنحصر فى داخل أقاليمهم ، أو بمعنى آخر « إلا أن تمتد الفتنة الى شىء من

---

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، جـ ١ ، م ٢ ، ص ٢٩٦ أ .

(٢) وذلك مثل أعمال السلب والنهب الفردية وتعدى الجنود على بيوت الأهالى وأسواقهم وأملاكهم ، وكذلك مثل إقبال الجنود على العربدة وشرب الخمر والزنا .

بلاد السلطان أو يحصل منهم التعدى إلى محل من ذلك أو مكان »[١].

ولكن موقف مراد باشا اللين المتسامح مع اليمنيين كان لا يعنى تهاونه فى المحافظة على السيطرة العثمانية فى اليمن ، بل كانت هذه السياسة فى جوهرها ترمى إلى توطيد وتدعيم هذه السيطرة ، وقد اتخذ مراد باشا إجراءات متشددة عنيفة مع اليمنيين عندما شعر بأن هناك مايهدد هذه السيطرة ، واتضح هذا بوجه خاص فى موقفين هامين ، أولهما فى موقفه ممن أعلن أنه المهدى المنتظر ودعى الناس إلى محاربة العثمانيين وذلك فى منطقة « آنس » الواقعة إلى الجنوب من « صنعاء » . وثانيهما فى موقفه من دعوة الإمام الحسن الذى أعلن إمامته فى منطقة الأهنوم الجبلية . وقد ظهرت هاتان الدعوتان فى نفس الوقت تقريباً وذلك فى خلال عام ٩٨٦هـ (١٥٧٩/٨ م) وكانتا تتفقان فى الهدف تقريباً رغم تباعدهما مكاناً ، ورغم اختلافهما مذهباً ، إذ كان من ادعى « المهدوية » سنى المذهب . وكذلك كانت كل منهما تعبيراً عن تذمر اليمنيين من الحكم العثمانى بوجه عام ، ومن الأمراء اليمنيين القائمين بالحكم أيضاً وخاصة كما اتضح فى دعوة الإمام الحسن ، كما اتخذتا صيغة قومية واضحة وخاصة كما ظهر فى دعوة « المهدى المنتظر » . فقد اتخذت قصة المهدى المنتظر المعروفة الذى سيظهر فى آخر الزمان ليهدى الناس إلى الحق وليعيد الأمور إلى نصابها ، اتخذت هذه القصة شكلا يمنياً بحتاً للتعبير عن شخصية اليمنيين المستقلة وعن أمانيهم ، وذلك كما يتضح من رواية أحد المعاصرين عن ظهور هذه الدعوة ، إذ قال : « وفى سنة ٩٨٦ هـ ظهر فى بلاد « آنس » رجل ادعى أنه منصور حمير المذكور فى الملاحم الذى يخرج فى آخر الزمان ، وأن العلامات المذكورات فيه ، وأنه سيرد ملك حمير وقحطان ، ويفتح الأمصار ، ويستولى على جميع الأقطار ، ويظهر

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ٢ ، ص٨٩ أ .

الكنوز والخزاين فاجتمع إليه خلق كثير »(١) . ومن المعروف أن الدولة الحميرية هى آخر الدول المستقلة التى ظهرت فى اليمن قبل دخول الإسلام اليه ، وأن قحطان هو الجد الأكبر لليمنيين اذ أن سكان اليمن الأصليين من القحطانيين .

وقد اهتم مراد باشا بالقضاء على هذه الدعوة ، فأرسل حملة قوية الى منطقة « آنس » غير أنها لاقت الكثير من المتاعب حتى قبضت على هذا الداعى وذلك للجوئه الى قمم جبال هذه المنطقة(١) ، ولالتفاف كثير من الأهالى حوله ، وقد قتله مراد باشا بعد القبض عليه وسلخ جلده(٢) .

وتغير كذلك موقف مراد باشا من المنطقة الشمالية ، ونظرته اليها بعدظهور الإمام الحسن بن على بن داود المؤيدى فى « الأهنوم » ، وذلك لمجاهرة هذا الإمام بعداوته للعثمانيين . وقد شجع مراد باشا على تغيير موقفه استعانة أبناء المطهر وباقى الأمراء الزيديين بالعثمانيين ضدهذه الدعوة الجديدة ، وكان الإمام الحسن يقيم فى « صعدة » قبل اعلان امامته ، غير أنه سخط على حكم أحمد ابن الحسين المؤيدى بها لسوء سياسته ، كما كان يتبرم من حكم باقى الأمراء الزيديين فى المنطقة الشمالية ، ولذلك غادر « صعدة » منحرفاً من السيد أحمد ابن الحسين المؤيدى ومنكراً عليه فى سيرته ، مع ما كان من ملاطفة السيد أحمد المذكور وتعظيمه له ، مع القرابة التى كانت بينهما »(٣) . وقد انتشرت هذه الدعوة بسرعة كبيرة بين أهالى المنطقة الشمالية لضيقهم بحكم هؤلاء الأمراء ، ولتذمرهم من كثرة حروبهم التى لاتخدم سوى مصالحهم الشخصية . وفى نفس الوقت عارض الحكام القائمين سواء اليمنين أو للعثمانيين دعوة

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ٢ ، ص ٨٨ ب .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ص١٣٧ .

الإمام الحسن بكل قوة لتهديدهم مصالحهم ومراكزهم ، ولذلك كانت المصلحة المشتركة هي التي وحدت بين صفوف هؤلاء الحكام لمحاربة الإمام الحسن . وقد حقق هذا الإمام في بداية الأمر الانتصارات المتتالية على بعض أبناء المطهر بفضل ثورة الأهالي على حكامهم ، فقد خالف على لطف الله بلاد الشرق جميعه، وخالف على غوث الدين بلاد عفار وحصروه فيه (أى فى حصن عفار ، وخالف على عبد الرحمن حجة وخرج منها مواجهاً الإمام الحسن ، وانضم إلى الإمام رضى الدين بن المطهر وناصره ، وتجهز الأمير محمد بن ناصر (الذى كان قد لجأ إلى بهرام باشـــا) على السيد أحمد بن الحسين المؤيدى وأخرجه من «صعدة»[1] وذلك لأنه كان قد انضم إلى الإمام الحسن طمعاً فى استرداد أملاكه فى « صعدة» . وتوالت انتصارات جيوش الإمام الحسن بعد ذلك حتى اضطر بعض أبناء المطهر وعلى رأسهم على يحيى حاكم «ثلاء» — وغيرهم من الأمراء — إلى الدخول فى طاعته بعد أن تعهد لهم بإبقائهم فى مراكزهم[2] ، واضطر البعض الآخر من أبناء المطهر مثل لطف الله حاكم حصن « ذى مرمر » . إلى الاستعانة بالقوات العثمانية لإخماد الثورة التى نشبت فى إقليمه ، فتقدم عندئذ الأمير سنان الكيخيا من « صنعاء » على رأس قوة من الجند ، وألحقوا بأتباع الإمام الحسن الهزيمة « وقتلوا منهم عدة ونهبوا وسلبوا فسكنت أكثر بلاد ذى مرمر»[3] .

غير أن انتصار الإمام الحسن لم يلبث غير قليل لتكاتف العثمانيين وأبناء المطهر على محاربته . وكان مراد باشا قد شعر بخطورة دعوة الإمام الحسن على السيطرة العثمانية فاتخـذ من امتداد سيطرة الإمام على « صعدة » — التى كان بها قوة عثمانية رمزية — ذريعة إلى إرسـال القوات إلى المنطقة الشمالية ، وذلك

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ٢ ، ص ٨٨ ب .

(٢) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٣٧ .

(٣) عيسى بن لطف الله : نفس المرجع والصفحة .

بالإضافة إلى استعانة أبناء المطهر به . وكذلك رأى أغلب أبناء المطهر الذين كانوا قد دخلوا فى طاعة الإمام الحسن التخلى عنه عندما قبض على أحدهم بعد أن اكتشف أنه يتآمر ضده للقبض عليه وتسليمه للعثمانيين ، (فقالوا إن الإمام لايركن عليه ، وأن ماوقع فى عبد الله يقع بهم لا محالة ، وأن الرأى الاجتماع على حربه)[١]. ، وقد دارت الحروب العديدة بين الإمام الحسن وبين التحالف الكبير الذى تكون ضده من أبناء المطهر، وباقى الأمراء الزيديين، وبعض القوات العثمانية ، فانتهت هذه الحروب بهزيمة الامام الحسن ،وباستقراره فى جبل (الأهنوم) حيث اشتغل هناك بالعلم والتدريس وبنشر دعوته وأفكاره[٢]. ورغم ذلك فقد ظل الامام الحسن يمثل خطراً دائماً لكل من العثمانيين والأمراء الزيديين الذين كانوا قد ارتضوا بقاء الامام فى (هجرته)[٣] فى جبل الأهنوم ،والذين ظلوا معادين له ، وذلك حتى تم القبض عليه ونفيه إلى استانبول كما سنرى فيما بعد .

وكان ظهور الامام الحسن فى هذا الوقت أمراً متوقعاً نظراً لاضطراب الأحوال فى المنطقة ،ولسوء سياسة الأمراء القائمين بها ، وقدساعد على ظهور هذا الامام أن المذهب الزيدى بطبيعته — أو بالاحرى طبقاً لشروطه — يبيح لأى من الأشراف الزيديين إذا توافرت فيه الشروط اللازمة أن يعلن إمامته ، ويدعو الناس إلى مبايعته ، وكذلك ساعد المنطقة الشمالية الجبلية

---

(١) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ، ص١٣٨ .

(٢) يحيى بن الحسين : أنبـاء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطه) ، ص ١٣٩ — ١٤٠ .

(٣) تلقب المدينة أو — القرية — التى يهاجر اليها أحد الأئمة للاستقرار بها عند ضعف نفوذه بلقب دار الهجرة أو هجرة فلان ، وذلك تشبيها بدار هجرة الرسول وهى المدينة المنورة .

الثائرين دائماً بطبيعتها على إعلان ثورتهم ، وعلى الصمود فى الدفاع عن هذه الثورة . ولهذا كله استطاع الإمام الحسن أن يعلن إمامته ، وأن يثبت هذه الإمامة لعدة سنوات ، وقد نجحت دعوته فى بداية الأمر لأنها كانت تجسيماً لمعارضة الأهالى للأوضاع القائمة وللحكام القائمين بالأمر . غير أن هذا النجاح لم يستمر طويلا لموقف الحكام المعادى منها ، سواء كانوا من الأمراء الزيديين الذين ظلوا على شىء من القوة حتى ذلك الوقت رغم كثرة منازعاتهم ، أو كانوا من العثمانيين أصحاب القوة فى البلاد الذين حرصوا على القضاء على هذه الدعوة. غير أن شدة بطش هؤلاء الحلفاء بأتباع الإمام ، واستعمالهم القسوة البالغة فى القضاء على الدعوة الجديدة[1] ، لم تكن هى السبب الوحيد لضعف سيطرة الإمام الحسن ، بل كانت هناك عدة أسباب أخرى ، فمن ناحية فقد أبقى الإمام الحسن عدداً من أبناء المطهر فى مراكزهم أملا فى تعاونهم معه ، رغم أن معارضة الأهالى لهؤلاء الحكام كانت من أكبر أسباب التفافهم حول دعوة الإمام الجديد ، ومن ناحية أخرى ، فلقد أصبحت الدعوة الجديدة — بعد أن فقدت بريقها الأول وبعد أن قبل الإمام الحسن التعاون مع الأمراء السابقين — مثار حرب بين فئات يمنية متجانسة ، وليس بين يمنيين وعثمانيين كما كان الحال فى أيام المطهر ، ورغم هذا كله فقد كان ظهور الإمام الحسن فى هذا الوقت له أهمية خاصة ، إذ كشف عن مدى ضعف الأمراء الزيديين ، وعن تخلى الأهالى عنهم واستيائهم من حكوماتهم ، وهو ما لمسه حسن باشا أيضاً — الذى تولى

---

(١) أجمع الكتاب المعاصرون وقتذاك سواء كانوا متعاطفين مع الإمام الحسن أو معادين له على ان أبناء المطهر وغيرهم من الأمراء قد استعملوا العنف بالتعاون مع العثمانيين فى محاربة الإمام وأتباعه فيقول يحيى بن الحسين (١٣٩) أثناء حديثه عن الحروب التى دارت حينذاك : « وبالغ على يحيى فى جمع إخوته ، وتحشيد قبايل جهته ، وبذل الأموال » ، كما قال عيسى بن لطف الله (ج٢ ، ص٨٩ أ) « وجر عليهم الأمير سنان المدفع ، ثم عاد الى صنعاء بالرءوس » .

أمر اليمنيين بعد مراد باشا والذى استغل هذه الأوضاع ، فعمل لذلك على التخلص من هؤلاء جميعاً ، وعلى مد السيطرة العثمانية إلى أجزاء المنطقة الشمالية المختلفة .

وكيفما كان الأمر ، فلقد كانت فترتا حكم بهرام باشا ومراد باشا تمهيداً لفترة حكم حسن باشا التى تحقق فيها أقصى توطيد وأوسع امتداد للسيطرة العثمانية فى اليمن ، وبمعنى آخر ، فإن الجهود العثمانية التى بذلت فى حوالى عشر سنوات بعد مغادرة سنان باشا لليمن ، آتت أكلها فى عهد حسن باشا الذى وصل إلى ميناء « الصليف » فى ١٢ ذو القعدة سنة ٩٨٨ هـ (١٩ ديسمبر سنة ١٥٨٠ م) ، والذى استطاع بدوره أن يبلور هذه الجهود خلال مدة ولايته الطويلة لليمن التى بلغت حوالى خمسة وعشرين عاماً . وكانت سياسته فى بعض المواقف امتداداً لسياسة الواليين السابقين ، أو تطويراً لها فى مواقف أخرى ، فقد استعمل الشدة أحياناً فى معاملة اليمنيين ، وأرسل الحملات العديدة إلى أقاليم اليمن المختلفة لإخماد الثورات والاضطرابات بها ، وفى نفس الوقت استعمل اللين فى أحيان أخرى ، فعمل على تقريب اليمنيين إليه باستخدامهم فى الوظائف المختلفة ، وبتقديم الهدايا والمرتبات الكبيرة إلى رؤساء وشيوخ القبائل .

وقد ذهب بعض المؤرخين المعاصرين والمتأخرين — سواء من العرب أو الترك — إلى أن حسن باشا هو فاتح اليمن الثانى ، وذلك نظراً للجهود التى بذلها فى اليمن ، وللنتائج التى حققها به[1] . وهناك عدة عوامل ساعدت

---

(١) أحمد راشد باشا : تاريخ يمن وصنعاء (باللغة التركية) ، جـ١ ، ص ١٨٦ — ١٨٧ ، عاطف باشا : يمن تاريخى (باللغة التركية) ص ٨٨ ، ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) جـ٢ ، م٣ ص ١٤٣ ب — ١٤٤ أ (يعتبر ابن داعر مؤرخ حسن باشا الشخصى وكتابه يحمل وجهة النظر هذه ، وهى أن حسن باشا هو فاتح اليمن الثانى وليس سنان باشا ، بل وهاجم الأخير فى أكثر من موضع من كتابه) .

لحسن باشا على بلوغ هذه الأهمية والشهرة فى تاريخ اليمن وهى تتلخص فى النقاط الآتية :

أولا : طول مدة ولايته لليمن (١٥٨٠ - ١٦٠٥ م) فقد ساعده هذا على فهم أوضاع اليمن ومشاكله ، بل ومعرفة أبرز شخصياته معرفة شخصية ، ولذلك كانت حلوله المشاكل اليمنية تستند إلى الواقع ، كما تعتمد على الدراسة الواعية لمختلف العوامل والظروف المحيطة بهذه المشاكل .

ثانياً : قوة شخصية حسن باشا وطول خبرته بالأعمال السياسية والإدارية، فقد كان حسن باشا أحد مماليك السلطان مراد الثالث الخاصة إذ دخل فى خدمته منذ أن كان ولياً للعهد ، فأتاح له هذا فرصة التقلب فى المناصب المختلفة . والجدير بالذكر أن حسن باشا تولى أمر اليمن وهو فى الرابعة والأربعين من عمره أى وهو فى مرحلة النضوج[1] .

ثالثاً : قوة شخصية سنان باشا الذى كان يشغل منصب كتخدا حسن باشا ومهارته السياسية والحربية، وقد اعتمد عليه حسن باشا كثيراً فى أغلب أعماله العسكرية ، كما كان موضع ثقته ورعايته ، فأخذ يوليه المناصب المختلفة ثم رشحه لولاية اليمن عند عزله فتم له ذلك كما سنرى .

رابعاً : قوة الدولة العثمانية حينذاك وقوة مساندتها لحسن باشا فى اليمن وذلك رغم ما أشرنا إليه فى بداية هذا الفصل عن ضعف نظم الدولة وحدوث بعض الاضطرابات بها ، وقد اتضحت مساندة الدولة لحسن باشا بجلاء بعد ظهور الإمام القاسم وقيام الحرب بينه وبين حسن باشا ، « ففى سنة ١٠٠٨ هـ (١٥٩٩/١٦٠٠م) ، ولما أبلغ الباب العالى بوجود الحاجة إلى الذخائر والعسكر

---

(١) ابن داعر . الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، جـ١ ، م٢ ، ص ٢٩٧ب - ٣٠٠ب (أفرد ابن داعر بابا خاصا لترجمة حياة حسن باشا قبل توليه أمر اليمن) .

مع الأمور الهامة الأخرى ، أرسل إلى خضر باشا والى مصر وإلى سائر الأمراء رسائل لتجهيز الجند لإرسالها على وجه السرعة إلى اليمن»[1] .

خامساً : ضعف الأحوال اليمنية الداخلية ، فبالإضافة إلى انهيار الأحوال الاقتصادية — نظراً للحصار البحرى البرتغالى ، ونظراً لكثرة الاضطرابات والحروب الداخلية — فقد افتقد اليمن فى هذه الفترة الشخصية القوية التى تستطيع أن تجمع حولها العناصر اليمنية الساخطة الثائرة ، والتى تستطيع أن تقود هذه العناصر فى ثورة عامة شاملة ضد الحكم العثمانى كما حدث فى أيام المطهر . ولذلك فرغم قيام بعض الثورات فى عهد حسن باشا فقد ظلت هذه الثورات تتسم بأنها محدودة ومتناثرة مما كان يساعد العثمانيين على القضاء على كل منها بسهولة . وقد اتضح ضعف الأحوال اليمنية الداخلية حينذاك فى عدم قدرة الإمام القاسم على الصمود أمام قوات حسن باشا ، عند ظهوره فى أواخر فترة حكم حسن باشا كما سنرى ، واضطراره إلى الاختفاء حتى تم عزل حسن باشا عن ولاية اليمن .

وأخيراً ، فإنه يمكن القول بأن حسن باشا قد وجد أرضاً ممهدة فى اليمن لتوطيد السيطرة العثمانية به ، وأن الظروف التى أحاطت به قد ساعدته على أن يمد هذه السيطرة إلى أقصى امتداد لها ، فاستحق لذلك ما اكتسبه من شهرة فى تاريخ اليمن ، وما قيل عنه بأنه الفاتح الثانى له بعد أزدمر باشا ، وليس سنان باشا الذى تعصب له كثيراً المؤرخ المعروف قطب الدين النهروالى فى مخطوطته « البرق اليمانى فى الفتح العثمانى » .

ولقد تركزت سياسة حسن باشا فى اليمن خلال مدة ولايته الطويلة فى النقاط التالية :

---

(١) مصطفى نعيم : تاريخ نعيما (باللغة التركية) ، جـ ١ ، ص ١٢٦ .

أولا : العمل على التخلص من العناصر القوية من أبناء المطهر وغيرهم من الأمراء الشماليين ، ومد النفوذ العثماني المباشر إلى أقاليم المنطقة الشمالية إلى « صعدة » و « نجران » شمالا .

ثانياً : توجيه الضربات العنيفة إلى الثورات التي نشبت في أقاليم اليمن المختلفة مثل « ريمة » و « وصاب » و « يافع » و « الحجرية » وغيرها ، وهي جميعها أقاليم جنوبية شافعية .

ثالثاً : الاهتمام بإقامة المنشآت العمرانية المختلفة مثل بناء أو تعمير المساجد ، أو حفر الآبار والقنوات لتوصيل المياه أو تجديد حفرها ، أو مثل بناء القصور والمحطات التجارية وتمهيد الطرق وتأمينها ، وغير ذلك من الأعمال التقليدية الخاصة بحكام ذلك العصر .

رابعاً : الاهتمام بتقريب اليمنيين إليه ونشر العدل والأمن بينهم كلما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وذلك مع استخدامهم في الوظائف المختلفة ، وتقديم الهدايا والمرتبات إلى رؤساء وشيوخ القبائل ، وكذلك إلى الزعماء السياسيين وخاصة الشماليين .

غير أن سياسة التوطيد التي اتبعها حسن باشا ، ثم نجاحه إلى حد كبير في تحقيق أهدافه ، كانا لا يعنيان هدوء الأحوال في اليمن ، كما لم يؤديا إلى استكانة اليمنيين تماماً للحكم العثماني ، وذلك رغم ضعف الأحوال اليمنية الداخلية كما أشرنا . وقد اتضح ذلك في عدة مواقف :

أولا : ظل أمراء المنطقة الشمالية يحاولون الاحتفاظ بمواقفهم الاستقلالية رغم محافظتهم على الولاء للسلطنة العثمانية . وقد أدى هذا إلى استمرار الحروب في المنطقة حتى تم القبض على أمرائها ، ثم نفيهم إلى استانبول ، وذلك بعد حوالي ست سنوات من تولية حسن باشا أمر اليمن .

ثانياً : ظهور الإمام القاسم فى « شهارة » فى سنة ١٠٠٦ هـ (١٥٩٨/٧م) — أى بعد ١٠ سنوات من نفى الإمام الحسن وبعض أبناء المطهر إلى استانبول — وذلك للتعبير عن ثورة اليمنين وتمردهم على الحكم العثمانى ، فأدى هذا بالتالى إلى تجدد الحروب فى المنطقة الشمالية ، وإن ظلت الغلبة فى هذه الحروب للعثمانيين حتى تم عزل حسن باشا عن اليمن فى سنة ١٠١٣ هـ (١٦٠٥/٤) .

ثالثاً : أدت شدة وطأة الحكم العثمانى أثناء ولاية حسن باشا ، إلى جانب ضخامة الأعباء المالية الملقاة على كاهل اليمنيين ، إلى قيام الثورات المتعددة فى أقاليم اليمن المختلفة . وقد تساوى فى ذلك جميع فئات الشعب اليمنى ؛ فقد قامت أغلب هذه الثورات فى المناطق التى يسود فيها المذهب الشافعى . وقد قضى حسن باشا السنوات الطوال فى القضاء على هذه الثورات حتى امتلأ عهده بالحروب وبالأعمال العنيفة رغم ماذكرنا بأن عهده كان أكثر عهود العثمانيين فى اليمن استقراراً ونجاحاً . وكانت أسباب ثورة الأقاليم الجنوبية تتشابه مع أسباب ثورة الأقاليم الشمالية الزيدية ، وهى ترجع إلى وطأة الحكم العثمانى على هذه الأقاليم مع فقرها المادى إذ كانت الأقاليم التى كانت تقوم بها الثورات فى الجنوب من الأقاليم الجبلية أيضاً .

رابعاً : تمثل نجاح العثمانيين فى توطيد سيطرتهم فى اليمن فى السواحل وفى المدن والمراكز والحصون الهامة وفيما حولها من أقاليم ، أما المناطق البعيدة عن هذه المراكز وخاصة الجبلية فقد كانت لاتخضع إلا لرؤسائها المحليين وهم شيوخ القبائل ، ولذلك ظلت علاقة حسن باشا بهذه المناطق إما علاقة عدائية فيعلن الحرب عليها لإخضاع سكانها له أو لصد هجمات هؤلاء على مناطق السيطرة العثمانية ، وإما علاقة ودية ، وذلك نتيجة تقديم الهدايا والمرتبات إلى هؤلاء الشيوخ ، أو إدخالهم فى خدمة الجيوش العثمانية .

وكيفما كان الأمر ، فقد بدأ حسن باشا أعماله فى اليمن باتخاذ خطوات إيجابية للتدخل فى شئون المنطقة الشمالية ، والقضاء على النزعات الاستقلالية بها ، وذلك على عكس موقف بهرام باشا ومراد باشا منها . وقد ساعده على ذلك ضعف هذه المنطقة نتيجة كثرة الحروب التى دارت بين أمرائها بعد وفاة المطهر ، ذلك الضعف الذى اتضح بجلاء عند ظهور الإمام الحسن فى «الأهنوم» قبل وصول حسن باشا إلى اليمن بحوالى عامين كما أشرنا . وقد لمس حسن باشا بنفسه مدى ضعف هؤلاء الأمراء منذ وصوله إلى اليمن عندما تهافت هؤلاء على أن يرسلوا إليه خطابات التهنئة بوصوله ، وبتمسكهم بالولاء للسلطنة ، وذلك على عكس ما كان يحدث أيام المطهر ، فكان الولاة هم الذين يحرصون على الكتابة إليه لإخباره بوصولهم إلى اليمن ، وبتمسكهم بشروط الصلح المعقود معه منذ أيام أزدمر باشا ، فيكتفى المطهر بإعلان طاعته للسلطنة وبمحافظته على شروط الصلح . وقد سارع محمد بن شمس الدين إلى الكتابة إلى حسن باشا فوصل خطابه إليه فور وصوله إلى ميناء «الصليف» اليمنى ، ثم توالى وصول خطابات الأمراء إليه بعد ذلك حتى وصوله إلى «صنعاء» التى حرص على دخولها فى موكب ضخم واحتفال كبير[1] .

واتضح ضعف أمراء المنطقة الشمالية أمام حسن باشا كذلك فى إسراع بعض هؤلاء إلى الدخول فى خدمته ، وذلك مثل المطهر بن الشويع الذى رغب فى تحقيق مصالحه الخاصة عن طريق الدخول فى خدمة حسن باشا بعد أن فشل فى تحقيقها عن طريق على يحيى بن المطهر . وكان المطهر ابن الشويع أحد كبار قادة المطهر ، ثم عينه ابنه على يحيى حاكماً لمدينة «السودة» وأقاليمها حتى ظهر الإمام الحسن فدخل المطهر بن الشويع فى خدمته بعد

---

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانيـة (مخطوطة) ، جـ١ ، م٢ ، ص ٣٠٦ أ — ٣٠٧ ب .

فشله فى الصمود أمامه وأصبح من كبار قادته . ثم تخلى المطهر بن الشويع عن الإمام الحسن عندما ضعف شأنه ، وذلك تحت إغراء محمد بن شمس الدين له بأنه سيكون أميراً لأحد أقاليم على يحيى ، ولكن الأخير لم يف بوعده له ، فنصحه محمد بن شمس الدين بالدخول فى خدمة حسن باشا لتعويض ما فاته من المناصب والثروات . وقد بالغ حسن باشا فى الترحيب به ، وجعله سنجقاً عثمانياً ، وحدد له مرتباً كبيراً [1] ، وذلك لإغراء غيره من الأمراء على الدخول فى خدمة العثمانيين .

وقد شجع هذا كله حسن باشا على أن يقرر بسط السيطرة العثمانية على أقاليم المنطقة الشمالية ، فبـدأ فى البحث عن المبررات الضرورية لإعلان الحرب على أمراء هذه المنطقة دون أن يثير ثائرة الأهالى ضد العثمانيين ، كما عمل على استغلال تضارب المصالح بين الزعماء الزيديين وعلى توسيع الهوة بينهم حتى لايسارع هؤلاء — رغم خلافاتهم — إلى تكوين جبهة قوية من بينهم للوقوف ضده . وقد رأى حسن باشا أن يوجه ضربته الأولى إلى محمد بن ناصر الذى كان يقيم حينئذ فى حصن « ظفار » الذى يقع إلى الجنوب من « صعدة » وذلك لشكه فى ولاء محمد بن ناصر للعثمانيين ، وكان الأخير قد لجأ إلى بهرام باشا كما ذكرنا ، فأحسن الأخير وفادته وعينه حاكماً لمدينة « رداع » التى تقع على الحدود الجنوبية للمنطقة الشمالية ، وذلك للاستعانة به ضد باقى الأمراء الزيديين — إذا اقتضت الحاجة — لما بينه وبينهم من عداء . غير أن محمداً بن ناصر لم يمكث طويلا فى « رداع » ؛ إذ سارع إلى الدخول فى طاعة الإمام الحسن عند إعلان إمامته ، وذلك عندما أغراه الإمام بحكم منطقة « صعدة » إذا تمكن من هزيمة أميرها أحمد ابن الحسين المؤيدي عدو ابن ناصر القديم .

---

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانيـة (مخطوطة) ، جـ١ ، م٢ ، ص٣٠٩ أ — ٣٠٩ ب .

وفى نفس الوقت تظاهر محمد بن ناصر ببقائه موالياً للعثمانيين ، وبأنه سيستولى على «صعدة» باسمهم . وقد رأى مراد باشا الذى كان قد تولى أمر اليمن حينذاك أن يتغاضى عن نشاط محمد بن ناصر فى المنطقة الشمالية ، فلم يعزله عن حكم مدينة «رداع» وظل يرسل إليه مرتبه المقرر له باعتباره سنجقاً عثمانياً[١] . وكان مراد باشا يهدف من وراء ذلك إلى الاحتفاظ بعلاقته بمحمد بن ناصر رغم إدراكه لخداعه له ، كما كان يرى أن حروب ابن ناصر فى داخل المنطقة الشمالية ستؤدى حتما إلى زيادة ضعف هذه المنطقة ، وهو مما يعتبر هدفاً رئيسياً للعثمانيين ، وذلك بالإضافة إلى أن هذه الحروب ستدور فى ميادين بعيدة عن المناطق الخاضعة للعثمانيين خضوعاً مباشراً . وقد تحقق حدس مراد باشا ، فقد اندفع محمد بن ناصر بكل طاقته فى الحروب التى أثارها الإمام الحسن بعد إعلان إمامته ، وقام بالإستيلاء على «صعدة» من أيدى أحمد بن الحسين المؤيدى حتى اضطر إلى إخلائها بعد أن ضعف شأن هذا الإمام واستقر أخيراً فى حصن «ظفار» بناء على مساعدة أنصار الإمام له . غير أن حسن باشا رأى أن يطالب محمد بن ناصر بتحديد موقفه بوضوح من العثمانيين ، أو بالأحرى رأى أن يتخذ من هذا الموقف المتأرجح ذريعة لسد نفوذه إلى داخل المنطقة الشمالية ، فكاتبه أولا لإغرائه على العودة إلى الحظيرة العثمانية ، ثم عزله عن مدينة «رداع» ، وأعلن عليه الحرب ، وذلك بعد أن لمس إصراره على هذا الولاء المزدوج[٢] . وكان محمد بن ناصر — فيما نرجح — يفضل البقاء فى «ظفار» عن العودة إلى «رداع» حتى يظل بعيداً عن قبضة العثمانيين ، وحتى يظل بالتالى أكثر أماناً رغم عداوة بعض الأمراء الزيديين له ، فقد كان هؤلاء الأمراء يرتبطون بعضهم ببعض بأواصر القربى إذ كانوا جميعاً من الأشراف

---

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، جـ١ ، م٢ ، ص٣١٣ أ — ٣١٣ب .

(٢) نفس المرجع : ص٣١٣ب .

بما فى ذلك الأمير محمد بن ناصر ، كما كانوا يشعرون بوحدة المصلحة فيما بينهم رغم كثرة منازعاتهم ومصادماتهم فكانوا يتقاربون فى كثير من الأحيان لصد الأخطار الخارجية عن أقاليمهم ، وذلك كما رأينا طوال الفصول السابقة . وقد طالت الحرب بعض الوقت بين محمد بن ناصر وبين القوات العثمانية التى أرسلها إليه حسن باشا، والتى كانت تضم بعض اليمنيين تحت قيادة المطهر بن الشويع ، ومحمد بن عبد الله الداعى ، فاضطر حسن باشا إلى إرسال كتخداه إلى « ظفار » حيث تمكن من القبض عليه بعد أن ضيق عليه الحصار ، فأودع سجن « صنعاء » حتى توفى به بعد عدة أشهر وذلك فى شعبان سنة ٩٩٠ هـ (أغسطس / سبتمبر ١٥٨٢ م)[١] .

وتركزت أهمية سقوط «ظفار» فى أيدى العثمانيين فى أنه أصبح لهم مركز قوى فى داخل المنطقة الشمالية ، وفى أن هذا كان يزيد من قدرة العثمانيين على بسط سيطرتهم على باقى أجزاء هذه المنطقة. وكان خلق هذه الركيزة القوية يحمل الكثير من المعانى ، فهو يعنى أن حسن باشا كان قد بدأ يتخذ الخطوات العملية للقضاء على النزعات الاستقلالية فى المنطقة الشمالية ، ولإضعاف شأن هذه المنطقة حتى لا تمثل خطراً يهدد سيطرة العثمانيين فى اليمن بعد ذلك . وكان سقوط « ظفار » يعنى من ناحية أخرى ، بداية تجمع وتحرك العناصر الزيدية المختلفة للوقوف فى وجه هذا الخطر الداهم الذى زحف إلى داخل أقاليمهم . وقد ظهر أول تجمع بين هذه العناصر أثناء حصار « ظفار » ، فقد سعى محمد بن ناصر إلى الإتصال بباقى الأمراء لمساعدته ، كما حذرهم من التفات العثمانيين إليهم بعد ذلك إذا تم انتصارهم عليه ، فقام أحمد بن الحسين حاكم « صعدة » وعلى يحيى بن المطهر حاكم « ثلاء » — وهما أكبر أمراء المنطقة الشمالية نفوذاً وسلطة تقريباً بمده سراً ببعض المال ، وذلك رغم العداوة القديمة بينه وبينهما ،

---

(١) عيسى بن لطف الله « روح الروح (مخطوطة) » ، جـ ٢ ، ص ٨٩ ب .

ورغم نصيحة محمد بن شمس الدين له بعدم مساعدته[١] . ولقد لمس هذان الأميران وغيرهما مدى خطورة إعلان الحرب على محمد بن ناصر فى « ظفار » اذ أن اعلان الحرب كان قد أدى الى مرور الجيوش العثمانية فى داخل الأقاليم الشمالية للوصول الى ممتلكات محمد بن الناصر التى تقع فى شمال المنطقة الشمالية . وقد أكدت أعمال حسن باشا فى هذه المنطقة مخاوف أمرائها ، فقد أقام مركزاً صغيراً فوق جبل « عيال سريح » على حدود ممتلكات على بن يحيى لتأمين الطريق بين « صنعاء » و « ظفار »[٢] . واتخذ حسن باشا بعد الاستيلاء على ممتلكات محمد بن ناصر خطوة ثانية هامة لتثبيت أقدام العثمانيين فى المنطقة الشمالية، وهى اعادة تحصين مدينة «عمران» وشحنها بالرجال والعتاد خاصة المدافع الضخمة[٣] . وتعتبر « عمران » من أهم مدن المنطقة الشمالية فهى ذات موقع استراتيجى هام فى وسط هذه المنطقة . وكان للعثمانيين نفوذ اسمى ضعيف فى المدينة منذ أيام سنان باشا ، الذى كان قد أصر على أن يستعيدها من أيدى المطهر بحجة أنها كانت من ضمن ممتلكات العثمانيين فى اليمن فى أيام أزدمر باشا ، فقام المطهر بهدم جميع أسوارها وقلاعها عند انسحابه منها .

وقد أثارت هذه الخطوات وغيرها أبناء المطهر وغيرهم من أمراء الشمال ، فبدأ التقارب ثم التحالف يسود علاقاتهم بعد أن تناسوا منازعاتهم القديمة . وكان أول وأبرز هذه المحالفات هى التى تمت بين أمراء « صعدة » و « ثلاء » و « ذى مرمر » وكان حسن باشا من ناحية قد أعلن الحرب على أحمد بن الحسين المؤيدى فى « صعدة » بحجة اهماله لشئون الحامية العثمانية

---

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، حـ١ ، م٢ ، ص ٣١٤أ .

(٢) المصدر السابق : ص ٣١٧ب .

(٣) نفس المرجع : ص ٣٣٤أ .

الصغيرة التي كان سنان باشا قد أصر على زعامتها فى « صعدة » للتعبير عن إمتداد السيطرة العثمانية إلى أقصى شمال اليمن ، وذلك كما أوضحنا فى الفصل السابق . وفى نفس الوقت كان حسن باشا قد شعر بوجود هذا التحالف، كما كان يتوقعه، ولذلك حرص على أن يوجه ضرباته أولا إلى على يحيى فى « ثلاء » ولطف الله فى « ذى مرمر » لقرب أملاكهما من « صنعاء » وذلك قبل أن يغامر بإرسال قواته لمحاربة أحمد بن الحسين فى « صعدة » فى أقصى الشمال . وكانت حجة حسن باشا فى ذلك هى أن جيوش هذين الأميرين قد تصدت للجيوش العثمانية أثناء زحفها فى المنطقة الشمالية[1]، وذلك رغم أن استعدادات هذين الأميرين كانت للدفاع فقط . وقد قيل إن على يحيى كان قد أخذ فى حشد جيوشه وفى التصريح بأنه لن يسمح بمرور العثمانيين إلى « صعدة » وأن هـــذه المواقف والتصريحات كانت ضرباً من التصرفات الخاطئة، أو قضاء لأمر الله وقدره — كما قيل — وذلك لأنها جرت عليه النقمة والشقاء[2] . ولكننا نرى أن إستعدادات على يحيى وغيره لم تكن ضرباً من التخبط وسوء السياسة ، فقد كان هؤلاء جميعاً يشعرون بمدى خطورة إمتداد سيطرة العثمانيين إلى داخل منطقتهم ، ولذلك مالوا إلى التقارب للدفاع عن أنفسهم .

وكيفما كان الأمر ، فقد أثار حسن باشا ما يشبه الحرب الشاملة فى المنطقة الشمالية،غير أن هذا الموقف لم يكن موقفاً ثابتاً جامداً ، بل كان يحمل فى طياته عدة مواقف فى حقيقة الأمر . فبينما كان حسن باشا يوجه الضربات القوية الحاسمة لبعض الأمراء ، كان يعمل جاهداً على تقريب البعض الآخـــر إليه ، وبينما كان يقسو فى معاملة من يقف فى سبيله ،كان يبالغ فى الترحيب

---

(١) أحمد بن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، جـ١ ، م٢ ، ص٣٢٦ ب .

(٢) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ٢ ، ص٨٩ب .

بمن يدخل فى خدمته . ولذلك أدت هذه السياسة التى جمعت بين اللين والشدة إلى تحقيق أغراض حسن باشا فى هذه المنطقة ، وإلى تحقيق ما عجز غيره من الولاة عن الوصول إليه .

ويصعب فى الحقيقة متابعة أعمال حسن باشا ومواقفه فى السنوات القليلة التالية فى المنطقة الشمالية وذلك لكثرتها وتشعبها ، ورغم ذلك فيمكن أن نشير إلى اهم ملامح سياسته وأهم خطوطها مما قد يوضح فى النهاية كيف نجح حسن باشا فى بسط سيطرته على هذه المنطقة إلى « نجران » شمالا لأول مرة فى تاريخ العثمانيين فى اليمن . فقد اهتم بصورة فعالة بتفتيت الجبهة التى تألفت ضده ، فعمل على منع الإتصال بين عناصرها أو التعاون بين قواتها ، وساعده على ذلك ضعف هذه الجبهة فى حد ذاتها وضعف عناصرها ، كما ساعده كذلك نجاحه فى تثبيت أقدامه فى داخل هذه المنطقة بفضل الخطوات السابقة التى كان قد اتخذها قبل ذلك ، والتى كان على رأسها استيلاؤه على حصن « ظفار » ، وتحصين مدينة « عمران » . وتمثلت خطواته فى تفتيت هذه الجبهة فى إرسال بعض قواته — فى وقت واحد — إلى ممتلكات كل من على يحيى ولطف الله ، وفى نفس الوقت وقفت قوات أخرى فى « ظفار » أمام قوات أحمد بن الحسين فى « صعدة » ، وذلك لإشغال كل منهم عن مساعدة الآخر . واتبع حسن باشا نفس هذه الخطة فى داخل ممتلكات كل منهم ، فقد اهتم على سبيل المثال بمحاصرة حصنى « ثلاء » و « مدع » فى وقت واحد ، وهما من أهم حصون على يحيى ، وذلك حتى يجبر على يحيى على توزيع جيوشه وعلى عدم حشدها فى مكان واحد ، وإن كان قد ركز حصاره حول حصن « مدع » لأنه أكثر توسطاً بين ممتلكات باقى الأمراء . ورغم هذا كله ، فقد استمر حصار حصن « مدع » حوالى ثمانية أشهر ، ولم يتم تسليمه للعثمانيين الا بعد عقد الصلح مع على يحيى ، وذلك بفضل استبسال

المحاصرين به فى الدفاع عنه[1] .

وأكمل حسن باشا خطة تفتيت جبهة أعدائه عسكرياً بخطة سياسية أكثر أهمية وأعمق أثراً . وهى ضرب الزعماء الزيديين بعضهم ببعض ، وذلك لحرص كل منهم على المحافظة على مصالحه الخاصة ، واعتمد حسن باشا فى ذلك أحياناً على اثارة الخلافات القديمة التى كانوا يحاولون تصفيتها لمجابهة الخطر العثمانى صفاً واحداً ، كما اعتمد أحياناً أخرى على التلويح لهم بإمكان تحقيق أطماعهم الخاصة على حساب الأمراء الآخرين عن طريق الدخول فى خدمة العثمانيين . وكانت أوضاع المنطقة كما رأينا تساعد حسن باشا على تحقيق خطته نظراً لكثرة الخلافات والمنازعات التى قامت بين الأمراء الزيديين بعد وفاة المطهر . وقد لعب محمد بن شمس الدين الدور الرئيسى فى التعاون مع حسن باشا وذلك بالاضافة الى باقى الأمراء الذين كانوا قد دخلوا فى خدمة حسن باشا من قبل . وتتلخص وجهة نظر محمد بن شمس الدين فى أنه لابد من الارتباط بالعثمانيين أصحاب السلطة الرئيسية فى البلاد وذلك لتوسيع ممتلكاته بمساعدتهم ، أو لحماية ممتلكاته على الأقل بإضعاف قوة باقى الأمراء ، وكان حسن باشا يدرك هذا جيداً ويوافق عليه طالما كان محمد بن شمس الدين حريصاً على ولائه للعثمانيين . وقد تأكد موقف حسن باشا بصورة واضحة عند عقد الصلح مع على يحيى ، فقد تم الصلح «على أن يسلم على يحيى مدع وبلاده للباشا حسن ، ويسلم «بكر» و «بنى الخياط» ونصف «لاعة» لمحمد بن شمس الدين»[2] ، وذلك مكافأة لهذا الأخير على اخلاصه فى خدمة العثمانيين كما قيل[3] . وكان حسن باشا قد استعان بقوات

---

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانيــة (مخطوطة) ، جـ١ ، م٢ ، ص٣٣٦ ب .

(٢) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٤٠ .

(٣) ابن داعر : نفس المرجع ، ص ٣٣٥ب .

محمد بن شمس الدين فى حروبه ضد على يحيى ، غير أن جهود محمد بن شمس الدين فى خدمة العثمانيين لم تكن تقف عند حد التعاون العسكرى ، بل كانت له مواقفه السياسية الهامة التى ساعدت فى النهاية على زيادة ضعف المنطقة الشمالية أمام العثمانيين . فقد نجح فى أن يجذب عبد الرحمن بن المطهر حاكم « حجة » ثم أخيه غوث الدين حاكم « عفار » الى صفوف حسن باشا بعد أن كانا قد وقفا الى جانب أخيهما على يحيى عند بداية حصار « مدع » . وقد رحب حسن باشا بتقريب هذين الأميرين اليه ، ثم عمل على مساعدة عبد الرحمن بن المطهر — اغراء له على الارتباط به — على استرداد أملاكه من أيدى على يحيى الذى كان قد ضمها اليه أثناء منازعاتهما السابقة[١] . وزيادة على ذلك عمل محمد بن شمس الدين على تقريب باقى آل شرف الدين الى حسن باشا مثل عبد الله بن المطهر الذى كان يقيم حينذاك مع محمد بن شمس الدين فى حصن « كوكبان » بعد قيام النزاع بينه وبين الامام الحسن ، ومثل عمه الحسن بن شرف الدين حاكم حصن « كحلان تاج الدين » الذى كان مشهوراً بمسالمته ، وبابتعاده عن الحروب الأسرية التى سادت المنطقة الشمالية فى هذه الفترة . وقد أكمل حسن باشا بدوره هذه الخطوة بخطوة أخرى أكثر اهمية وهى أنه دعا عبد الله بن المطهر الى زيارة « صنعاء » لمقابلته ، وذلك لنفى ما كان قد أشيع حينئذ من أنه سيقتل كل من يقع فى يده من آل شرف الدين . وقد بالغ حسن باشا كثيراً فى استقباله عند وصوله الى « صنعاء » ، اذ أمر كبار القادة باستقبال عبد الله بن المطهر عند دخوله المدينة فى موكب كبير ، ومنحه لقب سنجق عثمانى ، ثم عاد مكرماً معززاً الى « كوكبان »[٢] .

وقدم التزم حسن باشا بموقف هام بلور به خططه المختلفة فى الوقوف

---

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانيـة (مخطوطة) ، جـ١ ، م٢ ، ص ٣٣٤ب — ٣٣٥ب .

(٢) المرجع السابق : ص٣٣٦ أ .

أمام الأمراء الزيديين الذين تصدوا له ، فقد تعمد ألا يسمح لأحد من هؤلاء بأن يعتبر نفسه ممثلا للآخرين ، أو أن يتحدث باسمهم . فبعد أن نجح فى الفصل بينهم وأصبح كل منهم مشغولا بصد جيوش العثمانيين عن ممتلكاته ، أجبر على يحيى عند عقد الصلح معه على أن يكون هذا الصلح خاصا به دون أن يتضمن باقى حلفائه مثل أخيه لطف الله أو أحمد بن الحسين[1] .

وكان لطف الله قد تشجع على المجاهرة بعدائه للعثمانيين بعد أن رأى قيام التحالف بين بعض الأمراء الشماليين وهم أحمد بن الحسين وعلى يحيى وعبد الرحمن وغوث الدين ، فسحب جيوشه التى كانت تقف بجانب العثمانيين أثناء حصار محمد بن ناصر فى حصن « ظفار » ، وبدأ فى تأليب القبائل ضدهم . وقد تمثلت خطورة لطف الله بن المطهر بالنسبة للعثمانيين فى قرب ممتلكاته من « صنعاء » ، وبالتالى فى قدرته على تهديد طرق مواصلات العثمانيين فى المنطقة الشمالية ، ولذلك حرص حسن باشا على إعلان الحرب ضده فى نفس الوقت الذى أرسل فيه جيوشه لمحاربة على يحيى . وقد نجح حسن باشا مرة أخرى فى الاستعانة بالعناصر الزيدية المحلية ضد لطف الله ، فقد أرسل اثنين من شيوخ قبائل « خولان » المقربين إليه ، إلى قبائلهما بالمال والوعود لدفعها إلى التخلى عن لطف الله الذى كان قد قد استطاع أن يحرك هذه القبائل ضد العثمانيين ، ويجعلهم يقطعون طرق مواصلاتهم ويهاجمون قوافل تموينهم . وقد نجح هذان الشيخان فى إلحاق الهزائم بقوات لطف الله بعد أن تخلت عنه قبائل « خولان » ، واحتلا أحد حصونه[2] . واستعان حسن باشا كذلك بالمطهر بن الشويع الذى كان قد تولى إمارة الجوف بعد دخوله فى خدمة العثمانيين ، فتقدم إلى حصن « ذى مرمر » لمعاونة القوات العثمانية فى محاصرة

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ٢ ، ص ١٩٠ أ .

(٢) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، جـ١ ، م٢ ، ص ٣٤٠ .

لطف الله به ، وذلك حتى تم عقد الصلح مع الأخير فى شوال سنة ٩٩١هـ (أكتوبر / نوفمبر سنة ١٥٨٣م) بعد أن يئس من مساعدة أخيه على يحيى ، الذى كان قد عقد الصلح بدوره مع حسن باشا قبل ذلك بقليل . وقد حرص حسن باشا على أن ينتزع ممتلكات لطف الله من بين يديه حتى يبعد خطورته عن «صنعاء» ؛ فقد نصت شروط الصلح على أن يتنازل لطف الله عن حصن «ذى مرمر» وباقى ممتلكاته مقابل أن يتولى إمارة حصن «كحلان قرسان» وما حوله من إقليم الشرف ، وذلك بعد أن منحه حسن باشا لقب سنجق[1] .

وقد مهدت هذه الخطوات كلها الطريق أمام حسن باشا إلى «صعدة» ، فقام بإرسال قوة كبيرة تحت قيادة كتخداه سنان باشا لمهاجمة أحمد بن الحسين الذى كان قد تحصن بجبل الشرفة — أو شرفة عمار — جنوبى « صعدة » ، حيث دارت الحرب بين الطرفين بصورة عنيفة وانتهت بمقتل أحمد بن الحسين وبهزيمة جيشه . وقد أدت هذه الهزيمة إلى سقوط «صعدة» وما يليها شمالا حتى «نجران» فى أيدى العثمانيين ، اذ فرت حينذاك بقايا أسرة أحمد بن الحسين لا تلوى على شىء الى حصن «أم ليلى» القريب من «صعدة» وتحصنت به[2]. وعندئذ اكتفى سنان باشا الكيخيا بوضع قوة صغيرة حول هذا الحصن للتضييق على من به ، وتوجه بنفسه على رأس باقى الجيش لإخضاع باقى الجهات الشمالية بما فى ذلك «نجران» وقد تحقق عندئذ أقصى اتساع للسيطرة العثمانية فى اليمن ، فقد استطاع سنان باشا الكيخيا أن يخضع هذه الجهات له ، وأن يتسلم رهائن قبائلها[3] وقد اهتم سنان باشا

---

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، جـ٢ ، م٣ ، ص ٢٠ أ .

(٢) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ٢ ، ص ٩٠ ب .

(٣) ابن داعر : نفس المرجع ، ص ٣١ أ .

الكيخيا بالاستيلاء على حصن « أم ليلى » بعد ذلك ، فتم له ذلك بعد فترة طويلة نسبياً ، اذ أن أحد أبناء أحمد بن الحسين كان قد لجأ الى الإمام الحسن الذى كان يقيم حينذاك فى جبل « الأهنوم » ، فأعانه الامام ببعض أتباعه الذين ساعدوه على مناوشة العثمانيين حول حصن « أم ليلى » . ولم تستمر هذه الانتفاضة الأخيرة طويلا ، فقد استطاع سنان باشا الكيخيا أن يخمدها بعد قليل وأن يستولى على هذا الحصن فى رمضان سنة ٩٩٢ هـ (سبتمبر / أكتوبر ١٥٨٤ م) ، وذلك بعد أن وصلته الامدادات من حسن باشا[١] . وقد أكمل سنان باشا الكيخيا مهمته فى المنطقة الشمالية بالقبض على الامام الحسن بعد أن ضيق الحصار حول جبل « الأهنوم » ، ثم أرسله الى « صنعاء » فوضع فى السجن[٢] .

وهكذا يتضح أن سنان باشا قد استطاع أخيراً أن يخضع المنطقة الشمالية للسيطرة العثمانية وذلك بالاعتماد على السياسة حيناً وباللجوء الى الحرب حيناً آخر ،ولكن يهمنا هنا أن نشير الى بعض النقاط التى اتخذها حسن باشا لتثبيت أقدامه فى المنطقة :

(أولا) : لم يحارب حسن باشا أبناء المطهر وغيرهم من الأمراء الزيديين الا ليقضى فقط على ما لديهم من نزعات استقلالية ، فقد أبقى بعضهم فى أماكنهم السابقة ، ونقل البعض الآخر من مكان الى آخر ، وذلك بعد أن منح كلا منهم لقب سنجق وقرر له مرتباً محدداً . وقد أكد حسن باشا هدفه من وراء هذه الحروب ، وأنه لا يمانع فى استخدام الأمراء الزيديين فى ادارة المناطق الشمالية ، فى موقفين هامين فى أثناء هذه المدة أو بالأحرى فى خلال عام ٩٩٢ هـ (١٥٨٤ م) . فعند مقتل عبد الرحمن بن المطهر حاكم

---

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة)، جـ٢، م٣، ص١٣٣أ.

(٢) يحيى ابن الحسين : أنبــاء أبنــاء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٤٠ — ١٤١ .

حجة ، قام حسن باشا بتعيين ابنه عبد الرحيم بدلا منه فى إمارته ، وكذلك عند وفاة محمد بن شمس الدين حاكم « كوكبان » ، عين ابنه أحمد فى منصبه[1].

(ثانياً) : اتخذ حسن باشا من مرور المحمل اليمنى — الذى كان موضع اهتمام الولاة العثمانيين — خلال المنطقة الشمالية تحدياً سلبياً — إن صح هذا التعبير — للقوى السياسية فى المنطقة ، وذلك بعد أن بسط سنان باشا السيطرة العثمانية إلى نجران شمالا ؛ فقد أمر حسن باشا قائد المحمل بعد وصوله «جيزان» عائداً من الحجاز ، بأن يغير طريقه المعتاد عبر تهامه إلى « زبيد » ، وأن يتجه إلى « صعدة » ، ومنها إلى « صنعاء » ثم إلى « زبيد » ، وذلك ليؤكد سياسياً نجاحه العسكرى فى هذه المناطق الجبلية ، وإن كان هناك من فسر هذا العمل السياسى تفسيراً دينياً ضعيفاً ، فذكر أن حسن باشا كان يرمى من وراء مرور المحمل فى هذه الجهات « أن يشمل مروره تلك الممالك بالبركة ويشهده من لم يره فى الزمان ، وليشترك فى نيل البركة أهل الممالك اليمانية غوراً ونجداً ووعراً وسهلا[2]» .

(ثالثاً) : اتخذ حسن باشا خطوة أخيرة ضـــد أبناء المطهر وغيرهم للتخلص منهم وذلك بعد أن أنهك قواهم العسكرية تماماً ، وبعد أن تأكد من عدم مساندة الأهالى لهم ، فقد أمر سنان باشا بالقبض عليهم — بعد تدبير الحيلة لتجميعهم — ثم نفاهم إلى استانبول . وكان حسن باشا قد دعا لطف الله ثم على يحيى إلى زيارته فى « صنعاء » ، ثم إدعى بعد ذلك أنه يريد أن يقوم بزيارة « صعدة » على أن يصحبه هذين الأميرين ، وعند وصوله

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ٤٠ أ .

(٢) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانيــة (مخطوطة) ، جـ٢ ، م٢ ، ص ٢٧ أ .

إلى منطقة « الشرف » إلى الجنوب من « صعدة » — وهى منطقة نفوذ لطف الله — وكان قد دعا إليه باقى أبناء المطهر ، أمر سنان باشا الكيخيا بدعوتهم جميعاً إلى خيمته والقبض عليهم ، ثم أمر بإيداعهم سجن « صنعاء » الذى كان مشهوراً حينذاك باسم « الدار الحمراء » ، وبعد عدة أشهر أى فى ٥ شوال سنة ٩٩٤ هـ (١٩ سبتمبر ١٥٨٦ م) قام حسن باشا بإرسال لطف الله وعلى يحيى وحفظ الله وغوث الدين أبناء المطهر إلى ميناء « المخا » ومعهم الإمام الحسن وأحد أتباعه وهو الشيخ وهان العذرى ومحمد بن الهادى بن المطهر ، ثم أرسلهم من هناك إلى استانبول ، فأقاموا بها الى أن وافتهم المنية جميعاً[1] . ولقد أدت هذه الخطوة السياسية الجريئة الى هدوء الأحوال فى المنطقة الشمالية الى حد كبير لبضع سنوات ، وذلك حتى ظهور الإمام القاسم فى أوائل سنة ١٠٠٦ هـ (١٥٩٧ م) كما سنوضح فيما بعد . وقد أجاد أحد المعاصرين فى تفسير ما آلت اليه أحوال أبناء المطهر فقال « وسبب فساد الأمر على أولاد المطهر اختلاف رأيهم وعدم جمع كلمتهم ، فنهم من حارب أخاه ، ومنهم من مال الى الأتراك ، ومنهم من ثار على الإمام الحسن بن على المؤيدى وحاربه ؛ فلذلك سهل أخذهم عن آخرهم ، وعند ذلك ضرب اللسان بهم المثل »[2] .

وكيفما كان الأمر فلم يكن نجاح حسن باشا فى المنطقة الشمالية ، ثم هدوء الأحوال بها نسبياً بعد نفى بعض زعمائها الى استانبول ، يعنى نجاح حسن باشا فى تهدئة الأحوال فى باقى أقاليم اليمن . فقد ثارت بعض الأقاليم على الحكم العثمانى مما كان يجبر حسن باشا على ارسال الحملات المتعددة لإخماد هذه الثورات ، وذلك مثلما حدث فى أقاليم « ريمة » و « الحجرية » و « يافع » . وقد تميزت هذه الثورات وغيرها بعدة صفات ، فقد قامت فى أقاليم تشتهر بأنها أقاليم جبلية حيث يسهل على الأهالى الالتجاء الى قمم الجبال والتحصن بها . وكذلك

(١ و ٢) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٤١ .

تميزت هذه الثورات بأنها كانت ذات مضمون اجتماعى أكثر منه سياسى ؛ اذ لم يكن فى هذه الأقاليم زعماء مستقلون أو شبه مستقلين كما كان الحال فى أقاليم الشمال ، بل ثار الأهالى هنا لرفع الظلم عنهم ، أو على الأقل لتخفيف شدة وطأة الحكم العثمانى عليهم . وقد يبدو هذا المضمون الاجتماعى فى حديث أحد المعاصرين عن ثورة اقليم « الحجرية » عندما توجه سنان باشا اليها على رأس حملة كبيرة وذلك رغم تحيز هذا الكاتب الى جانب العثمانيين ، فقد ذكر أن بلاد الحجرية « كانت مغالقة بالعصيان ، قد رفع أهلها تسليم الأموال والمطالب والغلال وكف الطاعة والإمتثال ، ففتحها قهراً ودخلها قسراً »[١] .
ومن ناحية أخرى تميزت الحروب التى ثارت فى هذه الأقاليم لإخماد الثورات بها بالضراوة والقسوة ، وذلك كما حدث على يد سنان باشا الكيخيا الذى اعتمد عليه حسن باشا فى اخماد أغلب هذه الثورات ، فقد قتل الألوف ، وهدم القرى ، وجمع الرهائن بأعداد غفيرة تعد بالمئات والآلاف ، كما كان يتعمد أحياناً « أن تكون الرهينة مثلثة العدد زوجة وبنتاً وذكراً من الولد »[٢] وذلك امعاناً فى اذلال الأهالى وفى كسر شوكتهم . وكانت هذه القسوة البالغة تضاعف من استبسال الأهالى فى الدفاع عن أنفسهم وعن أقاليمهم فيؤدى ذلك الى اطالة مدة الحرب حتى أن بعض هذه الحروب استمر عدة سنوات حتى تحقق النصر للعثمانيين .

وقد استمرت الحروب فى اقليم « يافع » على سبيل المثال لمدة اربع سنوات متوالية حتى استطاع سنان باشا الكيخيا أن يخمد الثورة به وأن يقبض الرهائن من قبائله ، ولذلك تعمد حسن باشا أن يبالغ فى استقباله عند عودته من « يافع » الى « صنعاء » فى شعبان سنة ١٠٠٠ هـ (مايو /

---

(١) الموزعى : الإحسان فى دخول اليمن فى ظل عدالة آل عثمان (مخطوطة) ، ص ٢٤ أ .
(٢) نفس المرجع ، ص ٢٤ أ — ٢٤ ب .

يونية ١٥٩٢م) وأنعم عليه وعلى قادته وجنوده بالخلع والترقيات الوفيرة[١] . وكان اقليم «يافع» يشتهر بقوة رجاله وبأنهم محاربون شجعان ، وأنهم من الجبليين الأشداء ، ولذلك كان السلاطين الطاهريون يستخدمونهم فى جيوشهم ، كما أرسل الإمام شرف الدين ـ عندما امتد نفوذه الى جنوب اليمن ـ بعض أهالى « يافع » الى الحبشة لمساعدة أمرائها المسلمين فى حروبهم ضد النجاشى عند استنجادهم به وذلك حتى يتخلص من وقوفهم ضده . وكذلك كان أزدمر باشا يضطر الى غض النظر عن تمرد اقليم « يافع » وعن ثورة بعض الأهالى به وذلك لانشغاله فى حروبه فى شمال اليمن ولمعرفته بوعورة هذا الإقليم وبأس رجاله[٢]. وازاء هذا كله فقد كانت استعدادات حسن باشا لإخضاع هذا الإقليم استعدادات ضخمة للغاية ، كما ضمت جيوش سنان باشا الكثير من زعماء المنطقة الشمالية أو أبنائهم ، ومع كل منهم الغفير من أهالى الجبال الشمالية[٣] .

وأخيراً : فإنه يمكن القول بأن حسن باشا قد استطاع فى مدة ولايته الطويلة ـــ التى امتدت حتى سنة ١٠١٣ هـ (١٦٠٥/٤ م) ـــ أن يوطد سيطرة العثمانيين فى اليمن ، وأن يمد هذه السيطرة الى الجهات التى لم تمتد اليها من قبل . وقد تولى أمر اليمن بعد عزله كتخداه سنان باشا فواصل تنفيذ سياسته حتى عزل بعد ثلاث سنوات فقط أى فى سنة ١٠١٦ هـ (١٦٠٨/٧ م) ثم توفى أثناء سفره فى ميناء « المخا »[٤] .

غير أنه يجدر الإشارة الى أمرين هامين يساعدان على توضيح أوضاع اليمن فى ذلك العهد :

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ٢ ، ص ٩٢ أ .
(٢) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانيـة (مخطوطة) ، جـ٢ ، م٣ ، ص ٩٨ب .
(٣) المرجع السابق : ٩٩ب .
(٤) المحبى: خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ، جـ٢ ، ص٣١٧ — ٣١٨ .

أولا : اهتم حسن باشا بالأعمال العمرانية والإنشائية فى اليمن ، وقد تقتصر أعماله على الحروب التى شنها فى أقاليم اليمن المختلفة . وقد ازدحم كتاب ابن داعر ، الذى يعتبر المؤرخ الشخصى لحسن باشا ، بالإشارة الى مثل هذه الأعمال التى كان أهمها بناء المساجد والدماسر (التى تشبه التكايا فى مصر) والمدارس والقصور التى كانت تضم مقار الحكومة ، أو حفر القنوات الصغيرة وقد اهتم حسن باشا فى أوائل عهده على سبيل المثال بعمارة مسجد فروة بن مسك الصحابى فى « صنعاء » ثم بنى بجواره سمسرة[1] . واهتم حسن باشا كذلك بالاحتفال بالأعياد الدينية فكان يقيم الولائم ويوزع المنح والهدايا على الأشراف والعلماء والفقهاء والفقراء[2] . وفى نفس الوقت كان يتابع أعمال « عماله » فى الأقاليم المختلفة ويقوم بعزل الفاسدين منهم ، ولذلك قام بعزل حاكم « صعدة » عندما أساء معاملة الأهالى ، وأرسل مع الحاكم بعض الجند ، كما أعطاه الكثير من المال والهدايا لتوزيعها على الأهالى ورؤساء القبائل لاسترضائهم[3] .

ثانياً : لم تهدأ الأحوال تماماً فى اليمن رغم نجاح حسن باشا الى حد كبير فى القضاء على الثورات التى قامت فى أقاليمه المختلفة . ويرجع ذلك أساساً الى حساسية أوضاع اليمن التى كانت تتمثل فى ضعفه الاقتصادى حينذاك وطبيعته الجبلية ، وفى شهرة رجاله بأنهم محاربون أشداء وقد ساعد على حساسية هذه الأوضاع ارتفاع شأن الأئمة الزيديين على يد المطهر وخاصة بعد امتداد سيطرتهم مرتين الى الجنوب حتى « عدن » ، فقد كان

---

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، جـ١ ، م٣ ، ص ٦٠ أ .

(٢) نفس المرجع : ص ٦٤ ب .

(٣) « « : ص ٩٢ ب .

هؤلاء، بحكم طبيعة بلادهم الجبلية ، وبناء على مرونة مذهبهم وانتشاره بين الأهالى فى شمال اليمن ، أقدر على اعلان الثورات . ولذلك فلم يكن غريباً أن يعلن الإمام القاسم امامته بعد نفى أبناء المطهر والإمام الحسن بسنوات قليلة ، وأن يقود ثورة اليمنيين على الحكم العثمانى حتى ينجح ابنه فى اخراجهم من اليمن سنة ١٦٣٥ م ، وهذا ما سنوضحه بالتفصيل فى الفصل التالى .

الفصل السابع

ثورة الإمام القاسم وخروج العثمانيين من اليمن

١٠٠٦ — ١٠٤٥ هـ

١٥٩٨/٧ — ١٦٣٥ م

لا شك ان قيام ثورة الإمام القاسم التى أدت الى خروج العثمانيين من اليمن عام ١٦٣٥ م كانت تحمل فى طياتها الكثير من الدلائل المعبرة عن أوضاع هذه الفترة الهامة من تاريخ اليمن ، كما أنها هى التى أدت الى قيام الدولة الزيدية التى استمر حكمها فى اليمن حتى قيام الجمهورية به فى سنة ١٩٦٢ م . فلقد جسدت هذه الثورة من ناحية أمرين هامين هما : قلق اليمنيين تحت الحكم العثمانى وتبرمهم منه وكذلك زيادة قوة الإمامة الزيدية فى اليمن حتى أصبحت القوة الرئيسية فى البلاد وحتى استطاعت أن تلعب الدور الرئيسى فى تاريخ اليمن حينذاك ، وذلك بعد أن ظلت تمثل قوة ثانوية فى اليمن طوال العصور الوسطى كما اتضح فى التمهيد . ومن ناحية أخرى كانت أحداث هذه الثورة ، ثم نجاحها ، تظهر ضعف الحكم العثمانى واضطرابه وخاصة بعد عزل حسن باشا وسنان باشا الكيخيا حتى عد هذا الضعف من أهم العوامل التى أدت الى توالى هزائم العثمانيين ثم خروجهم من اليمن .

غير أن اعلان امامة القاسم ثم نجاح ثورته لم يكن بالأمر السهل اذ لم يتم اخراج العثمانيين من اليمن الا بعد اعلان امامته بنحو أربعين عاماً ، كما لم تطرد انتصارات الإمام وأبنائه بل صادفهم الكثير من العقبات والإنتكاسات حتى انه يمكن القول بأن هذه الثورة قد مرت بخمسة مراحل حتى تم اخراج العثمانيين من اليمن ، وذلك كما ذهب اليه صاحب سيرة الإمام

القاسم، إذ قال: «للإمام أربع نهضات: الأولى من الدعوة إلى خروجه من «شهارة» إلى «برط» والثانية من خروجه من «برط» إلى انعقاد الصلح بينه وبين سنان ثم جعفر باشا، والثالثة خروجه على جعفر باشا بعد موت إبراهيم باشا. والرابعة خروجه على محمد باشا ويعقبها وفاته»[1]. وقد التزمنا هذا التقسيم فيما بعد لدقته عند عرض أحداث هذه الثورة، ثم أضفنا إليها مرحلة خامسة — أو نهضة خامسة على حسب تعبيره هو، وهى التى شملت حروب الإمام المؤيد ضد العثمانيين، والتى انتهت بخروجهم من اليمن.

وقد دل طول هذا الصراع وضراوته على مدى قوة السيطرة العثمانية فى اليمن نتيجة الجهود الحربية والسياسية التى بذلها الولاة منذ فتح العثمانيين لليمن حتى إعلان إمامة القاسم، كما دل على أن العثمانيين لم يكونوا — كما يقال — قد فقدوا كل أسباب وجودهم فى اليمن حتى يسهل اقتلاعهم منه. وظهر أثر قوة العثمانيين حينذاك على موقف الأهالى من الإمام القاسم عند بداية إعلان إمامته. فقد تقاعدت بعض القبائل الزيدية عن مناصرة الإمام القاسم خوفاً من بطش العثمانيين، وفى نفس الوقت، انضمت فئات يمنية صراحة إلى جانب العثمانيين ضد الدعوة الجديدة لارتباط مصالحها بوجود العثمانيين وبقوة سيطرتهم فى اليمن، وذلك مثل بعض الأمراء الشماليين وخاصة من آل الإمام شرف الدين، أو مثل أصحاب النفوذ والعلماء من أهالى الأقاليم الجنوبية. غير أن قوة هذه السيطرة كانت لا تخفى عوامل الضعف التى كانت تحملها بين ثناياها، والتى أدت إلى نجاح ثورة القاسم.

ولكن هل يعنى إعلان إمامة القاسم قيام ثورة فى اليمن؟ ولماذا قامت هذه الثورة بزعامة أحد الأئمة الزيديين؟ ويسهل الإجابة على هذه التساؤلات، وغيرها إذا رجعنا إلى ما تحدثنا عنه فى «التمهيد» من طبيعة المذهب الزيدى

---

(١) المطهر بن محمد الجرموزى: سيرة الإمام القاسم بن محمد (مخطوطة)، م٢، ص١٣٦ أ [وتسمى هذه المخطوطة أيضاً: الدرة المضية فى السيرة القاسمية].

وشروط الإمامة به ، وإذا رجعنا إلى ماقام به الزيديون من جهود ضد العثمانيين بزعامة الإمام شرف الدين وأبنائه ـ وخاصة المطهر ـ منذ دخول العثمانيين إلى اليمن ، فالمذهب الزيدى بطبيعته يبيح لأتباعه من السادة الأشراف إعلان الثورة على السلطة القائمة إذا كان هناك مايبرر ذلك مثل فساد هذه السلطة أو اضطراب أحوالها ، وإذا جاهر أحد هؤلاء الأشراف بإمامته وحمل سيفه مدافعاً عن هذه الإمامة .

وقد ساعد هذا على بقاء المذهب فى اليمن وعلى انتشاره بين الأهالى فى المنطقة الشمالية طوال العصور الوسطى حتى ظهور الإمام شرف الدين عند فجر العصور الحديثة ، فاستطاع هذا الإمام بدوره أن يؤكد قدرة الزيديين على بسط سيطرتهم على أقاليم اليمن المختلفة حتى « عدن » جنوباً وذلك نظراً لتغير الظروف التاريخية المحيطة به ، وقد قامت الحروب بين آل شرف الدين والعثمانيين منـــذ فتح الأخيرين لليمن ، فأدى هذا إلى توطيد زعامة الزيديين به فى هذه الفترة من تاريخه ، وذلك كما اتضح فى خلال الفصول السابقة . ولهـذا كله ، فقد أصبح المذهب الزيدى فى اليمن ، بحكم طبيعته ، وبحكم التطورات التاريخية الطويلة ، قوة سياسية قادرة على أن تعلن تمردها وثورتها على السلطة القائمة ، وكان انتشار هذا المذهب بين بعض أهالى اليمن ، إلى جانب وعورة المنطقة الشمالية وفقرها ، من أهم العوامل التى ساعدت هذا المذهب على البقاء والنمو فى اليمن : بل وعلى أن يكون حزباً سياسياً ـ إذا استخدمنا التعبير الحديث ـ يستطيع أن يطالب بالسلطة فى البلاد ، وأن يحصل عليها . ونتيجة لهذا فلا غرابة أن تعتبر دعوة الإمام القاسم حينذاك بمثابة ثورة على الحكم العثمانى ، وأن هذه الثورة كانت ذات مضمون اجتماعى لأنها كانت تحارب فساد الحكم العثمانى وتطالب برفع الظلم عن اليمنيين .

وإلى جانب هذا فيجدر الإشارة إلى أن ضعف سيطرة العثمانيين فى اليمن ،

واضطراب أحوالهم به فى هذه الفترة ، لم يكن هو العامل الوحيد الذى ساعد على نجاح الثورة اليمنية ، بل كان اضطراب أحوال الدولة العثمانية نفسها حينذاك ، وانشغالها فى المنازعات الداخلية وفى الجبهات الخارجية وخاصة فى العراق ، ثم ضعف البحرية البرتغالية فى البحار الشرقية وظهور منافسين أوربيين لها فى هذه البحار مثل إنجلترا وهولندا ، كان هذا كله من أهم العوامل التى جعلت العثمانيين لا يستطيعون مساندة ولاتهم فى اليمن المساندة الكافية ، ولا يفكرون حينذاك فى استعادة اليمن بعد إخراجهم منه .

وكيفما كان الأمر فقد دعا الإمام القاسم بن محمد[1] إلى إمامته فى أواخر ولاية حسن باشا لليمن كما أشرنا فى الفصل السابق . فهبت عندئذ بعض القبائل الشمالية لمناصرته ، واستطاع أن يبسط سيطرته على أغلب الأقاليم الشمالية بين « صعدة » و « صنعاء » . وفى نفس الوقت هب العثمانيون ومعهم أصحاب المصالح والنفوذ من الأمراء اليمنيين للقضاء على الدعوة الجديدة فى مهدها ، فتمكنوا بالفعل من إخماد جذوتها بعد مدة قصيرة حتى اضطر الإمام القاسم إلى اللجوء إلى جبال « برط » عند أقصى الشمال الشرقى لليمن ، واتخذها منفى اختيارياً له بعض الوقت . وكان أول ظهور دعوة القاسم فى « القارة » إحدى قرى إقليم الشرف جنوبى « صعدة » ، وذلك فى ٦ صفر سنة ١٠٠٦ هـ (١٨ سبتمبر سنة ١٥٩٧ م)[2] ، وإن كان هناك من يذكر أن الإمام القاسم قد دعا لنفسه فى خلال شهر محرم من

---

(١) هو الإمام القاسم بن محمد بن على بن محمد بن على بن الرشيد بن أحمد بن الحسين بن على بن يحيى بن محمد بن يوسف بن القاسم بن المختار بن يوسف يحيى بن الناصر بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب (يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ، ص١٤١ ؛ الجرموزى : سيرة الإمام القاسم بن محمد ، م١ ، ص١ أ) .

(٢) مجهول المؤلف : تاريخ دولة الترك (مخطوطة) ، ص ٦ ب .

نفس هذا العام، ولكنه لم يستطع أن يجاهر بدعوته إلا فى أوائل صفر بعد أن سانده أحد مشايخ هذه المنطقة فى إظهار الدعوة[١] .

وقد أطنب معاصرو الإمام القاسم من الكتاب والمؤرخين والزيديين وخاصة الجرموزى صاحب سيرته فى التحدث عن أخلاقه وصفاته الحميدة وكراماته العديدة، كما أطنب هؤلاء أيضاً فى ذكر الإشارات والدلائل التى كانت تنبىء بقرب ظهور دعوته، ويعتبر الإمام القاسم فى الحقيقة من أهم الشخصيات اليمنية التى ظهرت عند بداية القرن السابع عشر الميلادى، نظراً لقوة شخصيته وغزارة علمه، ولدوره الكبير فى تاريخ اليمن حينذاك . وقد ولد الإمام القاسم فى ١٢ صفر سنة ٩٦٧ هـ[٢] (١٢ نوفمبر ١٥٥٩ م) فأخذ العلم عن كبار علماء المذهب الزيدى، كما اتصل بالإمام الحسن بن على وظل ملازماً له حتى نفى الأخير إلى «استانبول» كما ذكرنا فى ولاية حسن باشا . وقد أكد الإمام قوة شخصيته فى إصراره على مواصلة الثورة على العثمانيين رغم ما قابله من صعوبات وخاصة عند بداية دعوته حتى أنه فكر فى مغادرة اليمن إلى العراق كما سنرى بعد أن ضاقت به السبل فى منفاه الاختيارى فى «برط» . وكذلك أظهر تردده فى قبوله «الإمامة» عندما ألح عليه بعض أتباعه فى أن يعلن إمامته[٣] مدى جديته وتقديره للمسئولية التى رغبوا فى إلقائها على عاتقه ، وذلك نظراً لقوة قبضة العثمانيين على زمام الأمور فى عهد حسن باشا الذى أعلن القاسم إمامته أثناء ولايته . وكان العثمانيون قد شعروا بخطورته قبل ظهور إمامته، وأخذوا يجتهدون فى التجسس عليه ومطاردته للقبض عليه دون طائل، اذ ظل عدة سنوات متخفياً يطوف الأقاليم الشمالية حاثاً الأهالى على الثورة ،

---

(١) المطهر بن محمد الجرموزى : سيرة الإمام القاسم بن محمد (مخطوطة)، م١، ص ٤٥ ب .

(٢) نفس المرجع : م١، ص٢ أ .

(٣) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة)، ص ١٤٢ .

وعاكفاً على العلم والدرس والتأليف[1] . وقد اعتمد الإمام على بث دعوته على الخطابات والرسائل المطولة والكتب الكثيرة التى كان يرسلها الى الأفراد والجماعات ، أو التى كان يوجهها الى المسلمين عامة ، فهذه الخطابات ـ التى كانت تشبه المنشورات السياسية فى الأزمنة الحديثة ـ كانت تحمل الى الأهالى المبادىء التى كان يدعو اليها ، والتى كانت تتلخص فى الحث على الثورة ، وعدم الخضوع للعثمانيين نظراً لفساد حكمهم وخروجهم على مبادىء الدين . فقد جاء فى أحد خطاباته العامة الى اليمنيين « أما بعد فإننا نحمد الله الذى لا اله الا هو ، انا ندعوكم الى جهاد أعداء الله الذين ظلموا العباد ، وأظهروا فى الأرض الفساد ، وشربوا الخمور ، ونكحوا الذكور ، واستباحوا دماء المسلمين المحترمين من المؤمنين ، فقتلوا الأطفال والنساء ، ومن لا يحمل سلاحاً من الضعفاء والمساكين ، وأنتم تعلمون ذلك ولا تجهلون[2] . وكان الإمام بعد أن يوضح سوءات العثمانيين يدعو اليمنيين الى ضرورة الثورة ، والى عدم الخضوع للعثمانيين حتى لا يتهموا باشتراكهم معهم فى الإثم ، وذلك كما جاء فى خطاب له : ولا ترضوا لأنفسكم فى مداراتهم فإنا نعلم أنه لولا مداراتكم وامدادكم بالمال ، ما استقامت لهم راية أبداً ، فذلك منكم معاونة على اثمهم وظلمهم ، ولا تعتذروا بأنكم مستضعفون لأن الله تعالى يقول : الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا »[3] .

وقد وجدت دعوة الإمام القاسم استجابة كبيرة لدى الكثيرين من أهالى اليمن الذين رأوا فيها تعبيراً عن تذمرهم من سياسة العثمانيين وتصرفاتهم وذلك

---

(١) الجرموزى : سيرة الامام القاسم بن محمد (مخطوطة) ج١ ، ص٣٦ أ .
(٢) نفس المرجع : ص ٨ ب .
(٣) » » : ص ٤٤ أ .

رغم تقاعس أغلب هؤلاء الأهالى عن الوقوف إلى جانب الإمام القاسم خوفاً من بطش العثمانيين بهم . ولقد اتضح طوال الفصول السابقة الأسباب التى كانت قد تدفع اليمنيين إلى الثورة سواء فى المناطق الزيدية تحت زعامة الأئمة ، أو فى باقى المناطق اليمنية تحت زعامة رؤسائها المحليين . غير أنه يجدر هنا إبراز أهم هذه الأسباب والتركيز عليها حتى يتضح لنا تطور أحداث هذه الفترة منذ ظهور دعوة الإمام القاسم والتفاف الأهالى حولها حتى تم إخراج العثمانيين .

اولا : شدة وطأة العثمانيين فى اليمن الذى كان يتميز بأوضاع طبيعية وبشرية خاصة ، والذى كان يعانى حينذاك ضعفاً اقتصادياً نتيجة الحصار البحرى البرتغالى ، ونتيجة كثرة الحروب به . حقيقة أن بعض الولاة كانوا قد نجحوا فى أن يحققوا الأمن والهدوء باليمن وعلى رأسهم حسن باشا — كما ذكرنا فى الفصل السابق — وذلك كما شهد أحد المؤرخين الزيديين أنفسهم عند حديثه عن أحداث عام ١٠٠٠ هـ[١] (١٥٩٢/١م) فقال « وفيها سكن المعارض للوزير حسن وجرت أوامره وأقلامه فى جميع قطر اليمن ، واستراح الناس وسكنت الفتن ، ومال الناس إلى الوزير حسن باشا وبذل العطاء والصدقات من الدراهم والخلع »[٢] . غير أن هذا النجاح كان يعتمد على القوة العسكرية أكثر منه على الناحية السياسية ، كما كان يعتمد على القمع والشدة أكثر منه على العلاقات الطيبة ، أو على القيام بالإصلاحات اللازمة التى تجذب اليمنيين إلى حكمهم . وكيفما كانت أسباب هذا النجاح ، فقد حرص العثمانيون على تقريب بعض العلماء ورؤساء القبائل إليهم لتوطيد سيطرتهم ، كما حرصوا على القيام

---

(١) كان سنان باشا الكخيا انه فرغ حينئذ من إخضاع قبائل يافع بعد حروب استمرت أربع سنوات كما ذكرنا فى الفصل السابق .

(٢) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص٤٢ أ .

بعض الأعمال العمرانية مثل تشييد المساجد والقصور أو تعميرها ، أو مثل حفر الآبار والقنوات ، وذلك رغم أن هذه الأعمال كانت فى الحقيقة لخدمة أغراضهم العسكرية والسياسية أكثر منها للخدمة العامة ، كما كانت فى واقع الأمر محدودة الفائدة أو العدد .

ثانياً : ضخامة الأعباء المالية الملقاة على عاتق اليمنيين فى العهد العثمانى ، فقد كان على اليمنيين أن يتحملوا الخراج الذى يرسل إلى «استانبول» سنوياً ، وأن يتحملوا كذلك تكاليف الإدارة العثمانية فى اليمن من مرتبات وغير ذلك ، وكان « الخراج » المقرر إرساله من اليمن إلى خزانة السلطان العثمانى عند بداية عهد العثمانيين باليمن حوالى خمسين ألفاً ذهباً ، فرفعه سنان باشا عند انتهاء حملته فى اليمن إلى مائتى ألف ذهب[1] . وقد اختلفت الآراء حول تقدير هذا « الخراج » فذهب أحد الأتراك المتأخرين إلى أن إيراد ولاية اليمن كان حوالى خمسمائة ألف ذهباً ، فكان يرسل إلى « استانبول » خمسين ألف ذهباً بعد دفع مرتبات الجند وتعييناتهم ومرتبات الموظفين المحليين ، ومصاريف الحرب وتعمير القلاع وغير ذلك[2] . ولا يهمنا كثيراً اختلاف هذه التقديرات وغيرها إذ يصعب تحقيق صحتها نظراً لقلة الإحصائيات والمصادر اللازمة ، غير أن هذه التقديرات فى جملتها توضح فى النهاية ضخامة الالتزامات التى كانت ملقاة على عاتق اليمنيين . وإلى جانب ذلك فقد كان على اليمنيين أن يتحملوا تكاليف إقامة حوالى عشرين ألف جندى بين ظهرانيهم . فقد كان الجيش العثمانى باستمرار يتكون من حوالى خمسة عشر ألفاً من العثمانيين الى جانب خمسة آلاف من أهالى البلاد الذين يدخلون فى خدمة العثمانيين[3] . ولقد كان التناقض بين ضخامة الأعباء المالية وبين ضعف الأحوال الاقتصادية حينذاك ، يدفع العثمانيين

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٣٥ .

(٢و٣) أحمد راشد ، تاريخ يمن وصنعاء (باللغة التركية) ، جـ١ ، ص ٢٠٧ .

الى استعمال القسوة والشدة فى جمع الأموال المقررة على الأهالى . وقد أشار أحد المعاصرين وقتذاك الى ذلك بقوله : « أما المال فلهم فى أخذه قرة سطوة ، فلقد يعذبون أهله العذاب العظيم مثل ضرب السياط قليلا وكثيراً ، وقد يجلدون بعضهم حتى يموت مع المشاهرة والكى بالنار وغير ذلك »[1] . ولم يقف الأمر عند حد هذا التعذيب بل كان النظام المالى العثمانى فى اليمن يحمل بعض الثغرات التى كانت مثار تذمر اليمنيين ، فقد كان العثمانيون يعتمدون على نظام «الالتزام» — أو نظام «الضمان» أو « التضمين » كما كان يسمى فى اليمن — فى جمع الخراج المقرر على الأقاليم المختلفة ، مع أن هذا النظام كان يحمل فى طياته الكثير من الاجحاف بالأهالى . والى جانب هذا فقد كان تقدير الضرائب على الممتلكات والأموال والماشية للأفراد أو الجماعات يبقى كما هو مدداً طويلة برغم تغير الأحوال المالية عند هؤلاء ، ولذلك كان من حسنات أحد ولاة هذه الفترة وهو جعفر باشا أنه أمر بأن تتمشى قيمة الضريبة على الممتلكات حسب الحالة المالية لدافعى الضرائب[2] ، غير أن هذه الاصلاحات المالية كانت لاتتعدى أن تكون بمثابة مواقف فردية لبعض الولاة العثمانيين .

ثالثاً : سوء تصرفات بعض الولاة والعمال والجنود العثمانيين مما كان يثير ضيق اليمنيين وتذمرهم . فقد أتى هؤلاء ببعض التصرفات التى كانت تسىء الى سمعتهم الأخلاقية والدينية رغم ما كانوا يشيعون بين اليمنيين بأنهم حماة الاسلام ؛ وبأنهم أتوا الى اليمن للدفاع عنه ضد البرتغاليين « الكفرة » ، وكانت هذه التصرفات اما أعمال سلب ونهب فردية ، وابتزاز لأموال الأهالى لتغطية تكاليف الحياة التى كانت لاتتفق مع مرتبات العثمانيين المنخفضة حينذاك

---

(١) الجرموزى : سيرة الامام القاسم بن محمد (مخطوطة) م١ ، ص٧٦ ب .

(٢) يحيى بن الحسين : أنباء ابناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ص ١٥٥ .

والتى كانت لاتتناسب مع ميلهم الى الترف والبذخ ولو عن طريق ظلم الأهالى واما أن تـكون هذه التصرفات من نوع الأخطاء الأخلاقية التى تقع دائماً من جانب جنود جيش أجنبي فى حالة السلم، وذلك مثل اقبالهم على الزنا وشرب الخمر والولع باللهو والطرب وغير ذلك مما كان يثير أهالى البلاد . وكان يزيد من تجسيم هذه التصرفات والأخطاء عاملان هامان : أولهما، ضعف أحوال البلاد الاقتصادية حينذاك وخاصـة فى المناطق الجبليـة الوعرة أو فى المناطق الرملية والحصوية الحارة فى تهامة وفى الشرق ، وثانيهما، قوة نفوذ الفقهاء والعلماء فى ذلك العصر الذى كانت السيطرة فيه للدين والعادات والتقاليد . والذى كان هؤلاء الفقهاء والعلماء يمثلون فيه الزعماء السياسيين والاجتماعيين، ويلعبون الدور الذى يلعبه الآخيرون فى وقتنا الحالى ، وقد أبرز الـكتاب والمؤرخون اليمنيون المعاصرون وقتذاك على اختلاف مواقفهم من العثمانيين، الـكثير من أخطاء العثمانيين الاجتماعية التى كانت تؤذى مشاعر اليمنيين ، ومن صور هذه التصرفات ما ذكره أحد المعاصرين فقال « وأما النسوان ففى كل مداينهم لهن حوانيت معروفة، مأهولة للفساد ، متخذة لهذا المعنى ، وكل فاسدة تزين نفسها وبابها وتعرض لمن مر عليها ، وعليهن وال ، وعلى كل واحدة اقبال يومية وشهرية[1] » ، وذلك بعد أن تحدث عن معاشرة الجنـود للصبيان ومجاهرتهم بذلك . وقد استطرد الجرموزى فى وصف هذه العادات السيئة فقال « وأما الخمور فظاهرة تدار عليهم فى الأسواق كما يدار بالماء ، وربما قد يتشدد بعض ولاتهم اذا كثر فيقطعه من السوق ويجعلون له حانات لذلك تباع فيها ، وأما اللهو والطرب فهو عادتهم المعروفة وأخلاقهم المألوفة ، وأما المعاملة فى الربا فظاهرة غالبة عليهم ولايذكر فيه تحريم ولاتحليل ، وانما يسمونه

---

(١) الجرموزى : سيرة الامام القاسم بن محمد (مخطوطة) ، م١ ، ص٧٦ب .

فايدة »[1] . ولاشك أن مثل هذه التصرفات وغيرها كانت تدفع باليمنيين إلى الاستجابة لدعاة الثورة ، وإلى الالتفاف حول الإمام القاسم .

رابعاً : اتخذ العثمانيون خطوتين سياسيتين كانتا تثيران الكثير من اليمنيين وتدعوهم إلى النفور من الحكم العثمانى ، أولها ، أنهم كانوا يقربون إليهم بعض اليمنيين لتكوين طبقة تساندهم فى حكم البلاد وذلك باعتبارهم غرباء عنها ، شأنهم فى ذلك شأن أى حكام أجانب فى بلد ما . وكان العثمانيون فى حاجة مستمرة إلى تكوين هذه الطبقة مع منحها الامتيازات التى يتمتعون بها حتى تعمل بالتالى على حماية الحكم العثمانى والإبقاء عليه . وقد عبر حسن باشا على ذلك فى حديث ودى فى إحدى جلساته الخاصة مع أحد أبناء المطهر الذى بقوا فى اليمن بعد نفى بعضهم إلى استانبول ، فقد برر تقريبه لأحد اليمنيين الذين كان ابن المطهر يهاجمه، فقال « أما والدك فمن العرب والبلد بلده وأما نحن فعجم من كذا وكذا ما لنا صديق فنجعل مثل المذكور مثلنا ونخلطهم بنفوسنا ليحرسوا سلطاننا فى اليمن »[2]. وكان خلق هذه الطبقة يثير باقى الطبقات اليمنية وخاصة ذات المكانة السياسية والاجتماعية فى البلاد ، كما كان أيضاً على حساب الأهالى العاديين الذين تقع عليهم دائماً أعباء الإمتيازات التى تحصل عليها الطبقة الحاكمة فى العادة . وثانيهما، أنهم عمدوا إلى جمع الرهائن من القبائل والأقاليم لتحقيق الأمن والهدوء فى البلاد . ورغم أن سياسة جمع الرهائن كانت ظاهرة تقليدية فى البلاد ، كما ظلت موجودة بها حتى قيام الجمهورية اليمنية سنة ١٩٦٢م، فقد زادت هذه السياسة من كره اليمنيين للعثمانيين لأن الأخيرين كانوا قد أساءوا استعمالها ، فأكثروا من عدد الرهائن التى كانوا يجمعونها ، كما أساءوا معاملة هؤلاء الرهائن رغم أنهم دائماً

---

(١) الجرموزى : سيرة الامام القاسم بن محمد (مخطوطة) ، م ا ص ٧٧ ب .

(٢) نفس المرجع : ص ١٥٥ ب .

كانوا من بين ذوى المكانة والرفعة وسط قبائلهم وعشائرهم . وقد هاجم أحد الأتراك المتأخرين نظام الرهائن وسوء معاملة العثمانيين لهؤلاء فقال : «وبينما كان يجب أن تؤمن لهم سبل الراحة والمعيشة حتى يعادوا إلى ذويهم وبلدهم ، فإن اعتقالهم ومعاملتهم كأنهم مجرمون لم يكن من العدالة فى شىء كما أنه عمل على إثارة حفيظة ذويهم والحط من كرامة الأهالى[1] . وكان سوء معاملة الرهائن مصدراً مباشراً لكثير من الاضطرابات فى اليمن ، بل وسبباً لانقلاب بعض القبائل أو الأقاليم على العثمانيين . وقد ذخرت كتب المعاصرين من اليمنيين بالكثير من الأمثلة على هروب بعض الرهائن من قبضة العثمانيين ، وفرارهم إلى قبائلهم لإثارتها ضدهم أو لإعلان انضمامهم إلى جانب الثورة التى تزعمها المطهر بعض الوقت ، أو إلى جانب الإمام القاسم وأبنائه . وذخرت هذه الكتب كذلك بتمرد الرهائن فى داخل القلاع أو الدور التى يحبسون بها ، حتى يصبح ذلك بالتالى مصدر إقلاق للسلطات العثمانية ، وذلك مثلما حدث فى «عدن» فى سنة ١٠٠٧هـ (١٥٩٩/١٦٠٠م) فقد قتل الرهائن حارسهم ، بعد أن ضاقوا من سوء المعاملة ، استولوا على الأسلحة التى بالسجن ، وكادت أن تتسع هذه الفتنة لولا أن رأى حاكم المدينة وكبار أتباعه أن يطلقوا سراح هذه الرهائن قبل أن ينتقل خبر التمرد إلى قبائلهم فهاجم المدينة . وقد سارع بعض هؤلاء الرهائن بمغادرة «عدن» وتعرض الباقى للتنكيل على يد القوات التى أرسلها حسن باشا وسنان باشا الكيخيا على وجه السرعة ، إلى « عدن » ، وأعيدوا إلى الحبس ، ثم صلب زعماؤهم[2] .

خامساً : كثرة الاضطرابات بين صفوف العثمانيين مما كان يلحق الأذى بالأهالى من ناحية ، ومما كان يؤدى إلى ضعف جانب العثمانيين أمام اليمنيين

---

(١) عاطف باشا : يمن تاريخى : (باللغة التركية) ص ٩٧ .

(٢) الموزعى : الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان (مخطوطة) ، ص ٣٣ب — ٣٥ أ .

من ناحية أخرى . وترجع أسباب هذه الاضطرابات فى العادة إلى تأخر صرف مرتبات الجنود ، أو إلى رغبة بعض الأمراء فى الاستقلال بمناطقهم ، أو إلى المنافسات الخفية بين الأمراء المختلفين أو حتى إلى ضعف شخصية بعض الولاة. وقد سبق أن أشرنا فى الفصول السابقة إلى الكثير من هذه الاضطرابات التى كانت أحياناً تؤدى إلى انقسام العثمانيين وإلى تعرضهم إلى الهلاك ، وذلك كما حدث عند مقتل أويس باشا وقيام أزدمر باشا بالأمر. وقد أصبحت هذه الاضطرابات كذلك من أهم الأسباب التى أدت إلى انتصار الإمام القاسم ثم ابنه الإمام المؤيد على العثمانيين حتى تم اخراجهم من اليمن كما سنرى فيما بعد .

وهكذا يتضح أنه كان هناك ما يدعو الى تذمر اليمنيين من الحكم العثمانى ، وما كان يجعلهم يستجيبون للدعوات المعارضة لهذا الحكم . وقد عبر أحد اليمنيين المعاصرين عن أسباب استجابة اليمنيين للدعوة الجديدة فى وضوح كبير وصراحة تامة رغم اختياره للعثمانيين حينذاك ورغم معارضته لدعوة الامام القاسم لأنه كان من آل الإمام شرف الدين ، فقد قال « وقد كان قبل الفتنة (يقصد ثورة القاسم) أطبق على العباد الجور ، وضعفت البرية . واستهلك العمال أموال الرعية ، وقاست القبائل من الظلم أشد التعب ، والهول والنصب ، فمن أجل ذلك أشعلت القبايل نارها ، وحملت على جنوبها أكفانها ، وأصدقت مع الإمام الحروب[1] .

ولا شك فى أن صدق الأهالى فى الوقوف الى جانب الدعوة الجديدة كان يرجع الى التذمر العام الذى ساد اليمن فى تلك الفترة ، كما كان هناك بعض العوامل التى كانت تساعد على اعلان الثورة فى اليمن يمكن أن نجملها فى عاملين هامين : أولهما ، الأوضاع الطبيعية والبشرية الخاصة باليمن التى سبق الحديث عنها فى التمهيد ، وذلك بالإضافة الى ضعف أحوال البلاد الاقتصادية حينذاك . وثانيهما ،

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، ج٣ ، ص ٣٥٣ .

قوة الإمامة الزيدية فى ذلك الوقت بوجه عام نتيجة جهود الإمام شرف الدين ثم ابنه المطهر ، وقوة شخصية الإمام القاسم بوجه خاص واصراره على مواصلة الثورة . فقد شجع هذان العاملان اليمنيين على الثورة على العثمانيين ؛ إذ كانا يساعدانهم على الإحساس بالظلم وفساد الحكم القائم من ناحية ، وعلى القيام بالثورة كلما ضاق بهم الأمر من ناحية أخرى ، وهذا ما عبرنا عنه قبل ذلك بحساسية أوضاع اليمن الخاصة .

وكيفما كان الأمر فقد هب حسن باشا للقضاء على دعوة الإمام القاسم منذ بداية ظهورها . فأرسل الجيوش والمعدات الوفيرة الى المناطق الشمالية المختلفة قبل أن تسقط فى أيدى الإمام . غير أن انتشار هذه الدعوة ، واستجابة القبائل لها ، كان أسرع من وصول الجيوش العثمانية الى تلك المناطق ، فقد هاجمت القبائل القادة الذين أرسلهم حسن باشا الى الأقاليم الشمالية ، والذين كانوا من الأمراء اليمنيين ممن دخلوا فى خدمة العثمانيين ، وذلك مثل مطهر بن الشويع الذى زحف الى مدينة « خمر » واضطرته قبائل الشرف الى التراجع الى اقليم « البون » ، حيث ألحقت به هزيمة منكرة ، ومثل عبد الله بن المعافا الذى تقدم الى مقر امارته وهى مدينة « السودة » ، فحاصرته هذه القبائل بها حوالى سبعة أشهر حتى اضطر الى تسليم نفسه للامام[1] . ودون الدخول فى تفاصيل الحروب التى دارت فى المنطقة الشمالية فى الفترة القصيرة التى تلت ظهور دعوة الإمام القاسم، فإنه يمكن القول بأن الإمام قد نجح فى بسط سيطرته فى غضون عدة شهور على الحصون والأقاليم الممتدة من «صعدة» شمالا الى «صنعاء» جنوبا ، وذلك ما عدا هاتين المدينتين اللتين تعرضتا لحصار قوات الإمام وهجماتها، وما عدا بعض الحصون الهامة الأخرى التى كانت فى يد آل شرف الدين مثل حصن « كوكبان » حيث يوجد أحمد بن محمد بن شمس الدين ، وحصن « الطويلة » حيث تجمع

(١) مجهول المؤلف : تاريخ دولة الترك (مخطوطة) ، ص ٧ أ — ٧ ب .

باقى أسرة الإمام شرف الدين ، وكذلك حصن «ذى مرمر» لقربه من «صنعاء».
ولذلك كانت هذه الانتصارات السريعة موضع دهشة أعداء الإمام القاسم من الزيديين أنفسهم حتى قيل إنه «كان من العجايب أن أصحابه إذا توجهوا على حصن فتحوه فى أقرب مدة »[١] . ولقد زاد من تأكيد خطورة دعوة الإمام القاسم أن « صنعاء » نفسها كانت موضع هجوم أتباع الإمام ، فقد كان هؤلاء الأتباع يشددون الهجوم عليها أحياناً من الخارج حتى « أن الرمى بالبنادق كان يصل إلى قصر حسن باشا بها »[٢]. كما كانوا يتسللون إلى داخلها أحياناً أخرى أثناء الليل ، فيهاجمون حاميتها ويستولون على بعض أسلحتها وذخائرها ثم يفرون منها فى آخر الليل إلى جبل « نقم » المشرف عليها ويحتمون به[٣] .

ورغم أن انتصارات الإمام القاسم السريعة المتتالية كانت توضح مدى استجابة الأهالى لدعوته ، بل ومدى تذمر هؤلاء من الحكم العثمانى وخاصة فى المناطق الشمالية الجبلية الفقيرة ، فقد يزداد الأمر وضوحاً إذا عرفنا أن اليمنيين حينئذ كانوا لايملكون إلا القليل النادر من الأسلحة النارية ، وأنهم كانوا يرتعدون خوفاً من العثمانيين وبطشهم بهم نتيجة سياسة العثمانيين العسكرية التى اتخذت طابع الشدة طوال فترة توطيد سيطرتهم فى اليمن ، وذلك كما أوضحنا فى الفصل السابق . وكان الولاة طوال هذه الفترة يعمدون إلى جمع الأسلحة على اختلاف أنواعها وخاصة النارية من أيدى الأهالى لاضعاف قدرتهم على الثورة ولذلك «كانت البنادق فى تلك المدة (أى عند ظهور دعوة القاسم) قليلة مع القبائل لاتكاد توجد إلا مع أرباب

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ج٢ ، ص٩٤ أ .

(٢) الجرموزى : سيرة الإمام القاسم بن محمد (مخطوطة) م١ ، ص٦٤ أ .

(٣) عيسى بن لطف الله : نفس المرجع ، ص٩٤ ب .

الدولة »[١] ورغم هذا فقد استطاعت هذه القبائل أن تعوض نقص الأسلحة بعد قيام الحرب بينها وبين العثمانيين وذلك بالاستيلاء على ما بأيدى الأخيرين منها . وكانت هذه القبائل تحتفظ بهذه الأسلحة بحذر شديد خوفاً من بطش العثمانيين بهم ، وذلك كما ظهر عند انتصار أتباع الإمام من قبائل « الحيمة » على العثمانيين ، فقد خاف هؤلاء أن يستولوا على البنادق « من خوف عاقبة دولة الترك»وتردد كل منهم فى الاستيلاء عليها حتى تم الاتفاق أخيراً على أن تكون ملكية هذه الغنائم من البنادق ملكية جماعية بين الأفراد حتى لا يتعرض أحد منهم بمفرده لعقاب العثمانيين[٢].

وقد أثارت هذه الانتصارات دون شك ذعر حسن باشا الذى سارع بطلب الامدادات من مصر واستانبول ، كما استدعى إليه كتخداه سنان باشا الذى كان مشغولا حينذاك فى إخماد بعض الاضطرابات فى الأقاليم الجنوبية ، والذى كان مشهوراً بقسوته وشدته حتى أصبح ذكر اسمه — كما قيل — يثير الرعب والذعر فى قلوب اليمنيين[٣] . واهتمت السلطنة بدورها بالقضاء على الثورة فى اليمن ، فأرسلت إلى والى مصر بتجهيز الامدادات اللازمة لإرسالها إلى اليمن على وجه السرعة ، كما أرسلت الخلع والهدايا — بناء على طلب حسن باشا أيضاً — إلى حاكمى « كوكبان » و « حجة » من آل شرف الدين ، وهما أحمد بن محمد بن شمس الدين وعبد الرحمن بن المطهر ، وذلك لتعاونهما مع العثمانيين فى القضاء على هذه الثورة[٤] ، وسنتناول بالتفصيل فيما بعد طبيعية التعاون بين بقايا أسرة الامام شرف الدين وبين العثمانيين وأسبابه . واستدعى حسن باشا إلى اليمن كذلك على باشا والى الحبش فوصل الأخير إلى

---

(١) الجرموزى : سيرة الامام القاسم بن محمد (مخطوطة) م١ ، ص٤٦ أ .
(٢) نفس المرجع : ص ٥٧ ب
(٣) الموزعى : الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان (مخطوطة) ، ص ١٣٢ أ .
(٤) كاتب جلبى (حاجى خليفة) : فذلكة التواريخ (باللغة التركية) ، جـ١ ص١٢٩ .

هناك فى رجب سنة ١٠٠٧ هـ (يناير ١٥٩٩م) فعينه حسن باشا حاكمالاقليمى « وصاب » و « ريمة » اللذين كانا قد انضما إلى جانب الثورة . وقد استطاع على باشا بعد جهود مضنية أن يخضع أغلب هذه الجهات للسيطرة العثمانية ، غير أنه لقى حتفه بإقليم « ريمة » بعـــد قليل فى ٢٣ صفر سنة ١٠٠٩ هـ (٣ سبتمبر ١٦٠٠ م) عندما ألقى جماعة من الأهالى كانوا يختفون وراء الصخور حجراً كبيراً على رأسه أودى بحياته[١] .

وقد استطاع حسن باشا بفضل هذه الاستعدادات ، وبفضل من انضم إليه من الأمراء الزيديين أصحاب السلطة والنفوذ فى المنطقـة الشمالية من أسرة الامام شرف الدين أو من غـيرهم ، استطاع أن يلحق الهزائم بقوات الامام القاسم فى هذه المنطقة ، حتى انتهى الأمر بمحاصرته فى حصن « شهارة » بإقليم الأهنوم . وقد تمـكن الامام القاسم أثناء الحصار من أن ينجو بنفسه ، فيفر من الحصن إلى أقصى شمال شرق اليمن حيث استقر بجبال « برط » . وترك أمر الدفاع عن الحصن لابنه محمد الذى واصل الحرب حتى ضاق حوله الحصار فاضطر إلى الموافقة على تسليم نفسه للعثمانيين ، بشرط أن يكون خروجه من حصن « شهارة » إلى أيدى أحمد بن شمس الدين حاكم (كوكبان) ، وبشرط أن تخرج قواته من الحصن فى أمان ومعها أسلحتها . وأن يذهب جنوده إلى حيث يشاءون ، فتم تسليم الحصن للعثمانيين على هـذه الشروط فى محرم سنة ١٠١١ هـ (يونية / يولية سنة ١٦٠٢ م)[٢] . وقد وافق العثمانيون على هـذه

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ٢ ، ص٩٥ أ — ٩٥ب ؛ الموزعى : الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان (مخطوطة) ص ٣٤ أ — ٣٤ ب .

(٢) الجرموزى : سيرة الإمام القاسم بن محمـد (مخطوطة) م أ ، ص ١٢٥ أ — ١٢٥ ب .

الشروط خوفاً من انتقام القاسم رغم ضعف قوته حينذاك ، وحتى لا يثيرون الأهالى ضدهم إذا قتلوا محمد بن الامام القاسم أو نكلوا به .

أما الامام القاسم فقد استقر فى جبال « برط » . وبنى هناك مسجداً جعله مقر دعوته ، حيث التف حوله بعض أتباعه من العلماء والفقهاء ، وحيث قصده مريدوه من كل أنحاء البلاد لتلقى تعليماته أو لتسليمه الأموال والنذور التى يتبرع بها أتباعه . وقد بقى الامام فى (برط) بعض الوقت بعيداً عن متناول العثمانيين حتى أتيحت له الفرصة لاعلان الحرب عليهم ثانية ، غير أن إقامته هناك لم تكن آمنة تماماً ، فقد تبرم بعض أهالى (برط) من إقامته بينهم خوفاً من بطش العثمانيين بهم إذا امتدت أيديهم إلى بلادهم ، كما لم تكن إقامته آمنة كذلك لأن حاكم (صعدة) العثمانى أرسل بعض قواته إلى هناك للقبض عليه ولكن لم يتم له ذلك[1].

وهكذا انتهت المرحلة الأولى من ثورة الامام القاسم بعد حروب دامت حوالى خمس سنوات استطاع الامام خلالها أن يبسط سيطرته على أغلب أقاليم المنطقة الشمالية وحصونها ، ثم عاد فخسر كل هذه الممتلكات ، ولجأ إلى منفاه الاختيارى فى (برط) . وقد لجأ العثمانيون إلى استعمال القسوة البالغة فى إخماد ثورة القاسم منذ قيام دعوته ، فقد طاردوا رسله إلى القبائل المختلفة وقبضوا عليهم ثم نكلوا بهم ليكونوا عبرة لغيرهم ، وذلك كما حدث مع (العيانى) الذى كان ينتقل فى الأقاليم الممتدة بين (شهارة) و (صنعاء) فقد سلخ العثمانيون جلده حياً ، وكما حدث مع (الحماطى) الذى كان ينشر الدعوة فى داخل مدينة (ذمار) ، إذ مات بعد وضعه فى سجن (صنعاء) بقليل[2] واشتد

---

(١) الجرموزى : سيرة الامام القاسم بن محمد (مخطوطة) م أ ، ص ١٢٥ أ — ١٢٥ ب .

(٢) الموزعى : الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان (مخطوطة) ، ص ٣١ب — ٣٢ أ .

العثمانيون كذلك فى معاملة أتباع الامام وجيوشه عنـــدما بدأت سيطرته فى الانكماش ، فقد أخذوا ينكلون بالأسرى ويقتلون بعضهم ، ويأخذون من بين قبائلهم الرهائن الكثيرة ، كما كانوا يمثلون بقادته وكبار أتباعه عند وقوعهم فى أيديهم . وقد آتت هذه السياسة القاسية أكلها فى إخماد ثورة الامام القاسم من ناحية ، وفى تقاعد بعض القبائل عن مناصرة الامام عندما قرر إعلان الحرب ثانية على العثمانيين من ناحية أخرى ، ولهذا فقد ظل مقيما فى (برط) بعض الوقت يفتقد الأنصار والأتباع . وقد اتضح ذلك فى موقف قبائل (وادعة الشام) ــ أى الشمالية ــ منه ، فقد رفضت الاستجابة لدعوته ، بل واستعدت لمحاربته ، وذلك رغم أن هذه كانت (من أهل السبق والمحبة : وإنما قد أذلهم العجم فإنهم أخذوا منهم رهائن جمة ، ثم أخذوا من كل قبيلة من يعرف فيها وكتبوهم فى ديوان عساكرهم ووجهوهم اليمن (أى إلى جنوب البلاد) ، وكذا غيرهم من بلاد حاشد وبكيل) [١] .

غير أن استعمال القسوة فى إخماد ثورة الإمام القاسم فى مرحلتها الأولى لم يكن الأمر الوحيد الذى يلفت النظر فى هذه المرحلة ، بل كان التعاون بين آل شرف الدين وغيرهم من الأمراء الزيديين أصحاب السلطة والنفوذ فى المنطقة الشمالية وبين العثمانيين ــ فى القضاء على دعوة الإمام القاسم منـــذ اللحظات الأولى لظهورها ــ مما يلفت النظر أيضاً . ودون الدخول فى تفسيرات نظرية مجردة ، فلقد كان هذا التعاون يقوم على وحدة المصلحة ، كما كان يهدف إلى المحافظة على السلطة والنفوذ . فقـد كان من الصعب على العثمانيين ــ وعلى حلفائهم من اليمنيين من مختلف أقاليم اليمن ــ أن يدركوا المضمون الاجتماعى لثورة القاسم ، بل نظروا إليها من جانبها السياسى فقط ، وأنهـا كانت ترمى إلى انتزاع السلطة من أيديهم فحسب ، وذلك رغم أن المضمون الاجتماعى لهذه الثورة كان هو الدافع الحقيقى إلى التفاف الأهالى

---

(١) الجرموزى : نفس المرجع ، م٢ ، ص١٣٦ أ ــ ١٣٦ ب .

حول الامام القاسم . حتى تم له انتزاع أغلب أقاليم المنطقة الشمالية من أيدى العثمانيين فى غضون عدة أشهر فقط . ولاينفى هذا كله الجانب السياسى لدعوة الامام القاسم ، بل كان هذا الجانب — الذى كان يستهدف أساساً الاستيلاء على السلطة — هو الغلاف الخارجى لهذه الدعوة ، وان كان قد اتخذ شعارات دينية وذلك طبقاً لطبيعة هذا العصر . ولقد اتضح التعاون بين العثمانيين وبين حلفائهم من اليمنيين عند ظهور دعوة الامام الحسن كما ذكرنا فى الفصل السابق ، فقد حمل أبناء المطهر العبء الأكبر فى محاربة هذا الامام وفى القضاء على دعوته . ولذلك فنحن نؤمن بما ذهب اليه أحد المعاصرين وقتذاك بأن نفى أغلب أبناء المطهر الى استانبول كان من العوامل المساعدة على نجاح ثورة القاسم ، فإنهم لو بقوا لدفعوا فى صد الامام ، وكانوا أشد نكاية عليه من الأروام (أى الترك)[1] ، ورغم ذلك ، فقد اتضحت دلائل التعاون بين بقايا أسرة الامام شرف الدين وبين العثمانيين منذ بداية ظهور دعوة الامام القاسم كما أشرنا . وكان عبدالرحيم ابن عبد الرحمن ابن المطهر حاكم (حجة) وأقاليمها هو أول من حارب الامام القاسم ، اذ قام بمهاجمته هو وجماعته عندما علم بتجمعهم لأول مرة فوق جبل (القارة)[2] ، وكان عبد الرحيم كذلك أول من أبلغ حسن باشا — والى اليمن حينئذ — بقيام الامام القاسم بدعوته[3] ، وذلك عندما فشل هجومه على الامام فى القبض عليه ، أو فى القضاء على جماعته . وهذه البداية من جانب عبد الرحيم هى التى أشعلت الحرب ضد الامام القاسم ، فقد اتخذ حسن باشا حينذاك الاستعدادات اللازمة للقضاء على هذه الدعوة فى مهدها ، وكان هذا التعاون — أو التحالف — يقوم على أساسين : رسمى ، وواقعى : فمن الناحية الرسمية ،

---

(١) مجهول المؤلف : تاريخ دولة الترك (مخطوطة) ، ص ٥ أ .

(٢) الجرموزى : سيرة الامام القاسم بن محمد (مخطوطة) ، م ١ ، ص ٤٧ ب .

(٣) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، ج ٢ ، ص ٩٢ ب — ٩٣ ب .

كان هؤلاء الأمراء بمثابة عمال عثمانيين لدخولهم فى خدمة الأخيرين ، ومن الناحية الواقعية ، كانت وحدة المصلحة التى تربط بين عناصر الطبقة الحاكمة هى التى تدعم أواصر هذا التحالف وتبقى عليه .

غير أن انتصارات الإمام القاسم المتتالية أجبرت بعض الأمراء اليمنيين على الدخول فى طاعته وعلى رأسهم عبد الرحيم ، وعبد الله بن المعافا ، كما أجبرت البعض الآخر على التحصن فى داخل قلاعهم القليلة المتبقية فى أيديهم وخاصة حصن « كوكبان » و « الطويلة » . وقد بقى هؤلاء الأمراء — أى الذين دخلوا فى طاعة الإمام قسراً بعد انهزام قواتهم على ولائهم للعثمانيين طوال مدة قوة الإمام وسيطرته ، ثم تأكد هذا الولاء عند انحسار موجة سيطرته ، وذلك كما يتضح من موقف الأمير عبد الرحيم وعبد الله بن المعافا وغيرهما . فقد انتهز عبد الرحيم أقرب فرصة للإفلات من يد الإمام واللجوء إلى حسن باشا وسنان باشا الكيخيا ثانية ، وذلك بعد أن اضطر — لتوالى هزائمه — إلى الدخول فى طاعة الإمام القاسم الذى قربه إليه ، وولاه قيادة قواته التى وجهها للاستيلاء على « عمران » من أيدى العثمانيين . ولكن عبد الرحيم دبر عندئذ مكيدة بالاتفاق مع سنان باشا الكيخيا لتسليم كبار قادة الإمام له عند وقوع الصدام بين الطرفين ، إلا أن مكيدته انكشفت فى لحظاتها الأخيرة ففر إلى سنان باشا الكيخيا الذى خلع عليه وأكرمه[1] . وانقلب عبد الله بن المعافا كذلك على الامام القاسم أثناء انكماش سيطرته وتوالى انتصارات سنان باشا الكيخيا فى المنطقة الشمالية ، فلم يسمح للإمام باللجوء إلى حصن « السودة » للتحصن به ، ومنعه من دخول الحصن ، فاتجه الإمام عندئذ إلى حصن « شهارة » بالأهنوم بعد أن تأكد من خيانة ابن المعافا له[2] . وإلى جانب هذا وذاك فقد كان الأمير أحمد بن محمد بن شمس الدين حاكم « كوكبان »

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) جـ٢ ، ص٩٣ ب .
(٢) نفس المرجع : ص ٩٤ ب .

من أهم العناصر التى وقفت فى وجه الإمام القاسم وذلك لاتساع أملاكهم وأهميتها ، ولعلاقة أسرته الوثيقة بالعثمانيين منذ جده شمس الدين بن الإمام شرف الدين. ولقد لعب أحمد بن محمد شمس الدين الدور الرئيسى فى إخماد ثورة القاسم وخاصة بعد أن تقدم العثمانيون ثانية إلى أقاليم المنطقة الشمالية ، وقد رأينا كيف أنه كان على رأس المحاصرين لحصن « شهارة » ، وأن محمد بن الإمام القاسم الذى ظل بالحصن بعد خروج أبيه منه قد سلم نفسه له وليس للعثمانيين ، وأنه ظل مأسوراً فى « كوكبان » وليس فى « صنعاء » حتى تم فك أسره فيما بعد .

وهكذا يتضح مدى تعاون الأمراء الشماليين مع العثمانيين ، وذلك دون الإطالة فى ذكر الكثير من أسماء هؤلاء الأمراء ، أو ذكر مواقفهم أو أعمالهم وقد استمر هذا التعاون طوال الفترة التالية حتى تم إخراج العثمانيين من اليمن، وذلك مما يؤكد أن هذه الحروب لم تكن بين الإمام وبين العثمانيين فحسب ، بل بينه وبين الطبقة الحاكمة التى كان العثمانيون يمثلون العنصر الرئيسى بها . وكان هذا التعاون ـ أو بالأحرى وحدة صفوف الفئات الحاكمة ـ من الأمور الواضحة أمام نظر الإمام القاسم منذ قيامه بالدعوة ، وذلك كما كانت واضحة أمام الإمام الحسن من قبل وأمام غيرهما من اليمنيين . وقد عبر الإمام القاسم عن إدراكه لهذا الأمر فى إحدى خطاباته العامة الموجهة إلى اليمنيين كافة بقوله: « وبعد فإن الله قد أوجب عليكم قتل هؤلاء الأتراك وأعوانهم من الحرب على أى حال ولو خفية فى الطرقات والمساجد والبيوت ، ومن ترك ذلك وهو يقدر عليه فهو عند الله من الهالكين »[1] .

وأخيراً فإنه يمكن القول بأن التعاون الذى حدث بين الأمراء الشماليين وبين العثمانيين ـ ذلك التعاون الذى قام على وحدة المصلحة ـ كما كان العامل

(١) الجرموزى : سيرة الامام القاسم بن محمد (مخطوطة) ج ١ ، ص ٢٧ أ .

الرئيسى فى إخماد ثورة الإمام القاسم مؤقتاً ، فقد كان ما دفعه إلى مغادرة «برط» ليعلن الحرب ثانية على العثمانيين ، وليبدأ المرحلة الثانية من ثورته . وقد كان الأمير عبد الرحيم نفسه هو الذى أتاح الفرصة أمام الإمام لأن يبدأ هذه المرحلة بعد أن أعلن تمرده على العثمانيين ، وبدأ التقرب من الإمام ، وذلك عندما بدأ أحد كبار أتباعه فى إثارة الوقيعة بينه وبين سنان باشا الكيخيا الذى كان قد أصبح والياً فى ذلك الوقت [١] . ولكن يبدو — كما قيل — أن عبد الرحيم خاف أن ينقلب عليه سنان باشا الكيخيا عندما تستتب له الأمور فى اليمن [٢] ، وخاصة لأن نفوذ عبد الرحيم كان قد اتسع وتقوى أثناء إخماد ثورة الإمام القاسم لاعتماد العثمانيين عليه إلى حد كبير ، ولأن سنان باشا الكيخيا — كما كان معروفاً عنه — لا يسمح بوجود شخصية قوية الى جواره . وسرعان ما تحول التقارب بين الإمام القاسم وعبد الرحيم إلى خطوات عملية ، فقد أمر عبد الرحيم بالدعاء للإمام القاسم فى الأقاليم الواقعة تحت سيطرته ، وفى مقابل ذلك طالب الإمام أتباعه المنتشرين فى تلك الأقاليم بالوقوف إلى جانب عبد الرحيم الذى كان يمثل سلطة العثمانيين فى أقاليمه ، فتشجع هؤلاء على الإعلان عن أنفسهم دون خوف من العثمانيين ، أو دون خوف من عبد الرحيم نفسه الذى كان يشتهر بالغلظة والشدة . وتشجع الإمام بدوره كذلك على الانتقال من جبال «برط» إلى منطقة «الظاهر» التى تقع إلى الجنوب من «صعدة» ، لإثارة قبائلها ضد الأتراك ، وذلك بعد أن ضاقت به جبال «برط» كما ذكرنا حتى كاد أن يغادر اليمن إلى العراق ليقيم فى البصرة [٣] . وقد ترددت بعض قبائل «الظاهر» فى نصرة الإمام عند وصوله إليها وذلك فى سنة ١٠١٤ هـ (١٦٠٦/٥) ، غير أن

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ٢ ، ص ٩٦ أ — ٩٦ ب .

(٢) الجرموزى : سيرة الامام القاسم بن محمد (مخطوطة) ، م ٢ ، ص ١٣٩ ب — ١٤٠ أ .

(٣) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ص ١٤٨ .

وقوف بعضها الى جانبه ، ثم انتصاره على قوات عبد الله بن المعافا الذى كان سنان باشا قد أرسله لمحاربة الإمام فى « وادعة » ، قد شجع باقى قبائل هذه المنطقة على مساندة الإمام ، وعلى الوقوف الى جانبه حتى استطاع أن يبسط سيطرته على أغلب جهاتها[1] .

ولقد أثارت هذه البداية الناجحة غيرة الأمير عبد الرحيم حليف الإمام حينذاك ، وخاف أن تتضاءل سيطرته فى أقاليم الشمال أمام توسع الإمام وانتصاراته . وقد تجلى موقف عبد الرحيم من الإمام بعد أن أصر قائد الحامية العثمانية فى حصن (شهارة) على أن يسلم نفسه الى يد قوات الإمام وليس الى يد قوات عبد الرحيم التى كانت تقوم بمحاصرة هذا الحصن تحت قيادة أخيه المطهر ، وذلك خوفاً من بطش عبد الرحيم بها ، وعندئذ (اشتد غضبه على أخيه المطهر ، وعزله من البلاد ، ووجهها الى آخر)[2] . وقد اتسعت هوة الخلاف بين الإمام القاسم وعبد الرحيم منذ ذلك الحين حتى أن الأخير سارع بالاتصال بالو الى الجديد جعفر باشا عند وصوله الى اليمن لعقد الصلح معه ، ولكن لم يتم ابرام هذا الصلح لشك جعفر باشا فى صدق نية عبد الرحيم ، اذ كان الأخير يقوم ببعض الأعمال العسكرية لتوسيع مناطق سيطرته أثناء مفاوضات عقد الصلح . وعلى العكس من ذلك تم عقد الصلح بين الإمام وجعفر باشا ، اذ كان اشتعال الحروب ضد العثمانيين فى المنطقة الشمالية من جانب الإمام القاسم والأمير عبد الرحيم يغرى جعفر باشا على عقد الصلح مع أحدهما ليتفرغ لمحاربة الآخر ، أو حتى مع كليهما لإطفاء نار هذه الحروب التى واجهته عند بداية توليته أمر اليمن ، وذلك حتى تستتب له الأمور فيعلن الحرب على من يشاء . ولذلك كان فشل جعفر باشا فى عقد الصلح مع عبد الرحيم هو الذى دفعه الى التقرب من

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص١٣٩ .
(٢) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ٢ ، ٩٧ ب .

الإمام القاسم وإلى عقد الصلح معه . وكان الإمام يرغب فى أن يشمل صلحه مع العثمانيين الصلح مع عبد الرحيم أيضاً ، غير أن الأخير أصر على مواصلة الحرب ضد العثمانيين ، واتهم الإمام بالضعف والعجز[١] ، فأتاح ذلك الفرصة أمام العثمانيين أن يشددوا ضرباتهم ضد عبدالرحيم حتى تم إلحاق الهزيمة به والقبض عليه ، ثم نفى الى استانبول وذلك فى شعبان سنة ١٠٢٠ هـ (أكتوبر / نوفمبر سنة ١٦١١ م)[٢] . وكان الإمام يرغب من وراء ضم عبدالرحيم اليه عند عقد الصلح أن يضاعف من ثقله أمام العثمانيين رغم كراهيته لعبد الرحيم لسوء تصرفات الأخير ولقسوته فى معاملة الأهالى ، ورغم ذلك فقد أدى القضاء على عبد الرحيم الى زيادة قوة الإمام القاسم فى المنطقة الشمالية ، اذ لم يبق أمامه بعد نفى عبد الرحيم من اليمن من آل الإمام شرف الدين الا أبناء شمس الدين حكام « كوكبان » ، فقد بقى هؤلاء يمثلون قوة مناهضة للامام فى هذه المنطقة حتى تم الحاق الهزيمة بهم فيما بعد على يد أبنائه[٣] .

ولقد كان هذا الصلح تتويجاً لانتصارات الإمام القاسم عند نهاية المرحلة الثانية من مراحل ثورته ، وتثبيتاً لأقدامه فى المنطقة الشمالية ، وذلك على عكس ماحدث عند نهاية المرحلة الأولى التى انتهت بهزيمته ، وبلجوئه الى جبال « برط » للاختفاء بها . فقد استطاع الإمام القاسم عند نهاية مرحلته الثانية أن يفرض وجوده على العثمانيين ، وأن يجبرهم على الاعتراف به ، اذ اعترف جعفر باشا فى هذا الصلح الذى عقد لمدة عشر سنوات ، بسيطرة الإمام على بعض أقاليم المنطقة الشمالية وهى « الأهنوم » و « عذر » و « وادعة »

---

(١) الجرموزى : سيرة الامام القاسم بن محمد (مخطوطة) ، م٢ ، ج٢ ، ص١٥٨ أ .

(٢) مجهول المؤلف : تاريخ دولة الترك (مخطوطة) ، ص١٦ ب .

(٣) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص١٥١ .

وذالحيمة »[1] . ووافق جعفر باشا كذلك على فك أسر محمد ابن الإمام القاسم من « كوكبان »[2] ، وذلك فيما نرجح لاسترضاء الإمام ، ولتهدئة الأوضاع فى شمال اليمن .

والحقيقة أن كلا من الامام القاسم وجعفر باشا كانا فى حاجة إلى هدنة طويلة لتنظيم شئونهما فى داخل أقاليمهما . فمن ناحية الإمام فقد كان انتصار قواته حينذاك لا يعنى تماماً قوة سيطرته أو انتشار دعوته فى المنطقة الشمالية فقد ظلت بعض القبائل تخاف قوة العثمانيين وبطشهم ، وتتردد فى مناصرة الإمام ، كما وقفت قبائل أخرى إلى جانب الإمام طمعاً فى الغنائم والأسلاب وليس لنصرة دعوته التى كانت تعتمد على التعاليم الدينية ، تلك التعاليم التى كانت تمثل الفكر السياسى الذى تقوم عليه سيطرته ونفوذه فى الأقاليم الخاضعة له، ولذلك كان عليه أن يطالب هؤلاء الأهالى بالتمسك بأهداب الدين، ويحارب العادات السيئة المنتشرة بينهم ، فكان يقيم حدود الدين بين السارق والزانى وشارب الخمر وغيرهم ، كما أمر بقطع شجرة كان الأهالى يتقربون إليها بالذبائح والقرابين[3] .

أما من ناحية جعفر باشا فقد كان فى حاجة أيضاً إلى عقد هذا الصلح ، إذ ترك سنان باشا الكيخيا اليمن وهوملتهب بالحروب والاضطرابات. فقد واجه جعفر باشا عند بداية توليته ثورة الإمام القاسم وتمرد الأمير عبد الرحيم ، وفى نفس الوقت حارب جعفر باشا أمير « صعدة » العثمانى لاتخاذه موقفاً استقلالياً متمرداً حتى أبعده عن اليمن ، وكذلك دارت الحرب بينه وبين الكتخدا عبد الله شلبى الذى أعلن التمرد عليه . وبالإضافة إلى هذا كله فقد

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٥٠ .

(٢) مجهول المؤلف : تاريخ دولة الترك (مخطوطة) ، ص ١٥ ب .

(٣) الجرموزى : سيرة الإمام القاسم بن محمد (مخطوطة) ، ص ١٧٠ ب — ١٧١ ب .

تهددت الاضطرابات فى باقى أقاليم اليمن ، مما كان يضعف فى نهاية الأمر من جانب العثمانيين ومن هيبتهم .

وهكذا فيمكن القول بأن هذا الصلح - الذى عقد فى ذى الحجة ١٠١٦ ﻫ (مارس / أبريل سنة ١٦٠٨) - كان توطيداً لأقدام الإمام القاسم فى المنطقة الشمالية ، كما كانت الاضطرابات التى واجهت جعفر باشا من جانب العثمانيين واليمنيين على السواء بداية لامتداد سيطرة الإمام القاسم إلى الأقاليم الشمالية ثم إلى باقى أقاليم اليمن فى عهد أبيه الإمام المؤيد . وكان جعفر باشا قد حرص على عقد الصلح مع الإمام القاسم حتى يتفرغ كما ذكرنا لمحاربة عبد الرحيم ، ولذلك فقد ركز جهوده ضد الأخير حتى ألحق الهزيمة به ثم نفاه إلى استانبول، وذلك بعد حروب استمرت حوالى عامين بعد عقد الصلح مع الإمام القاسم[١] . والتفت جعفر باشا بعد ذلك إلى القضاء على نزعة أمير (صعدة) الاستقلالية ، فأصدر أمره بعزله من منصبه. غير أن هذا الأمير رفض الإذعان لأمره واستعد للمقاومة . وكان طول بقاء هذا الأمير فى إمارته فى (صعدة) قد زاد من قوته وشجعه على التشبث بها عند عزله ، إذ كان قد تولى حكم هذه المدينة الهامة منذ ولاية حسن باشا ، وبقى بها طوال ولاية سنان باشا الكيخيا الذى كان قد عزم على إقالته من منصبه عندما لمس ميوله الاستقلالية لولا إنشغاله بحروبه مع عبد الرحيم . وقد هزم جعفر باشا قوات أمير (صعدة) بعد صدام قصير ، فقام هذا الأمير بمغادرة اليمن بعد أن أخذ معه أمواله وبعض أتباعه[٢] . ويبدو أن أمير (صعدة) كان ذا صلات وثيقة ببعض رجالات استانبول ، إذ قيل أن صدامه مع جعفر باشا كان أحد أسباب عزل جعفر باشا عن ولاية اليمن بعد ذلك بقليل[٣] . وقد ازدادت الاضطرابات بين صفوف العثمانيين عند

---

(١) الجرموزى : نفس المرجع ، ص١٥٨ أ .
(٢) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) جـ٢ ، ص٩٩ ب .
(٣) الجرموزى : نفس المرجع ، ص١٧٢ أ — ١٧٢ ب .

عزل جعفر باشا ووصول الوالى الجديد إبراهيم باشا إلى اليمن فى ربيع أول سنة ١٠٢٢ هـ (أبريـل / مايو ١٦١٣ م)[١] فقد سارع عبد الله شلبي كتخدا جعفر باشا إلى الدخول فى خدمة إبراهيم باشا طمعاً فى البقاء فى اليمن ، فقـربه الأخير اليـه للاستعانة بخبرته بشئون البلاد ، وولاه امارة (صنعاء) لتمهيد الأمـور بها حتى وصوله هو اليها . غير أن وفاة ابراهيم باشا عند وصوله الى (صنعاء) فى٢٨ جمـادى الأول سنة ١٠٢٢ هـ (١٦ يولية سنة ١٦١٣ م) أى بعد حـوالى شهرين فقط من وصوله الى اليمن ، أدى الى انفجار الأزمة بين عبد الله شلبي وبين جعفر باشا الذى عاد الى تولى مهام منصبه حتى وصول وال جـــديد لليمن ، والذى كان كارهاً لخروج عبد الله شلبي من خدمته . ودون الخوض فى ذكر تفاصيل الصدام الذى دار بين الرجلين،ورغم أن جعفر باشا كان قد أرسل الى عبد الله شلبي بموافقته على ابقائه فى منصبه حاكماً (لصنعاء)، فقد خاف الأخير انتقام جعفر باشا منه ، ورفض الاعتراض بولايته لليمن بعد عزله . وقد اتخذ عبد الله شلبي موقفاً معارضاً صريحاً لجعفر باشا أدى الى ظهور الانقسام بين صفوف العثمانيين ، اذ اقترح فى رده على خطاب جعفر باشا تقسيم اليمن بينهما ، على أن يكون له (صنعاء) وما يليها شمالا ، وأن تكون الأقاليم الممتدة من (ذمار) الى (عدن) جنوباً لجعفر باشا . وفى نفس الوقت أخذ فى جمع الأمراء وقادة الجيش حوله ، ودعاهم الى معارضة جعفر باشا ، كما اقترح عليهم — اغراء لهم — أن يستقل كل أمير بمـا تحت يده حتى يتم تعيين وال جديد لليمن . وقـد اتسع هذا الخـلاف حوا، الساطة حتى قامت الحرب بين عبد الله شلبي وجعفر باشا ، واستطاع الأخير أن يلحق الهزيمة بعبد الله شلبي بعد أن تخلى عنه أغلب الأمراء ، ثم أمر بقتله[٢] . وقد حدث أثناء تغيير

---

(١) الموزعى : الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان (مخطوطة) ، ص ٤٥ ب .

(٢) نفس المرجع : ص٤٦ ب — ٥٠ أ .

الولاة فى اليمن بعض الاضطرابات كذلك فى المناطق الجنوبية ، فقد تمرد بعض جنود حامية « تعز » على أميرها ، وعاثوا فساداً فى المدينة حتى تم تعيين أمير جديد لها من قبل إبراهيم باشا ، فعمل على إعادة الهدوء إليها بعد أن قبض على زعيم الجنود المتمردين[١] . وقد استغل بعض أهالى ولايتى «تعز» و «الحجرية» هذه الاضطرابات فخلعوا طاعة العثمانيين ، مما أجبر جعفر باشا على إرسال بعض قواته إلى هذه الجهات لإعادتها إلى الطاعة ، وذلك بعد أن استقرت أحواله ثانية فى « صنعاء » . بعد القضاء على تمرد الكيخيا عبد الله شلبى[٢] .

وكيفما كان الأمر ، فقد أغرت هذه الاضطرابات الإمام القاسم على نقض الصلح وشن الحرب على العثمانيين ليبدأ بذلك المرحلة الثالثة من مراحل ثورته. وكان الإمام ينتظر وصول موافقة ابراهيم باشا على تجديد الصلح معه غير أن الأخير وافته المنية كما أشرنا فور وصوله إلى « صنعاء » كما لم يثق الإمام بما أرسله إليه عبد الله شلبى بشأن إبقاء الأوضاع على ماهى عليه طبقاً لشروط الصلح . ومما زاد من إغراء الإمام على شن الحرب على العثمانيين أن عبد الله شلبى كان قد سحب إلى « صنعاء » أغلب الحاميات العثمانية المنتشرة فى المنطقة الشمالية لمساعدته فى الوقوف أمام قوات جعفر باشا ، فدفع هذا بالتالى قبائل هذه المنطقة إلى إعلان انضمامها إلى الإمام ومبايعته ، ولهذا كله بدأ الإمام فى إرسال قواته إلى الأقاليم المختلفة ، وذلك لأنه كما قيل « خاف إن انتظم لهم — أى للعثمانيين — أمرهم ثاروا عليه جميعاً ، فنبذ إليهم عهدهم ، واستعان الله سبحانه وتعالى ، وشن عليهم الغارات »[٣] .

---

(١) الموزعى : الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان (مخطوطة) ، ص ٤٥ ب — ٤٦ ب .

(٢) نفس المرجع : ص ٥٠ ب .

(٣) الجرموزى : سيرة الامام القاسم بن محمد (مخطوطة) ، م ٢ ، ص ١٧٣ أ .

وقد نجح الامام فى أن يمد سيطرته إلى الكثير من أقاليم المنطقة الشمالية مثل «حجة» و «عفار» و «الظاهر» وجبل «عيال يزيد»[١] — وهى من الأقاليم التى كانت تحت سيطرة الأمير عبد الرحيم قبل نفيه إلى استانبول — وذلك فى خلال المدة القصيرة التى تخللها عزل جعفر باشا ثم عودته إلى منصبه وقضائه على تمرد عبد الله شلبي . غير أن استقرار جعفر باشا فى «صنعاء» ثانية أعطى للعثمانيين قوة جديدة ، فاستطاعت قواته أن تلحق بعض الهزائم بقوات الامام القاسم ، كما استطاعت أن تأسر ابنه الحسن فى إحدى المعارك وترسله سجيناً إلى (صنعاء) وفى نفس الوقت استطاعت هذه القوات أن تستعيد «صعدة» بعد أن كانت قد سقطت فى أيدى قوات الامام[٢] . وقد تبادلت قوات الامام القاسم مع قوات جعفر باشا الهزيمة والنصر مايزيد عن عامين حتى وصل خبر عزل جعفر باشا من منصبه فى اليمن وتعيين محمد باشا بدلا منه ، وذلك فى سنة ١٠٢٥ هـ (١٦١٦م) ، فسعى جعفر باشا حينذاك إلى عقد هدنة مع الإمام لمدة عام لأنه كما قيل (خاف أن يسير والفتنة فى أثره)[٣].وقد أحرز الامام فى هذه المرحلة نجاحاً ملحوظاً فى توسيع حدود ممتلكاته ؛ إذ سقطت أغلب أقاليم المنطقة الشمالية فى يده ، ولم يبق للعثمانيين بها إلا بعض المراكز الرئيسية مثل (صعدة) التى سقطت بعد قليل فى أيدى القبائل الموالية للامام ، ومثل (خمر) و (كوكبان)[٤] .

ولكن هذه الانتصارات لم تكن تخفى عن الامام القاسم حقيقة هامة ، وهى أنها — أى هذه الانتصارات — لاتعنى ضعف شوكة العثمانيين كثيراً

---

(١) مجهول المؤلف : تاريخ دولة الترك (مخطوطة) ، ص١٦ ب .
(٢) يحيى بن الحسين: أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٠٣ — ١٠٤ .
(٣) الجرموزى : سيرة الامام القاسم بن محمد (مخطوطة) ، ص٤ ٢٦ ب .
(٤) مجهول المؤلف : نفس المرجع ، ص٢٤ أ .

فى اليمن حتى ذلك الحين ، فالمناطق التى سيطر عليها الامام مناطق جبلية فقيرة تكلف العثمانيين للاحتفاظ بها أكثر مما كانوا يحصلون عليه منها ، كما كانت جيوش العثمانيين أكثر عدداً وأحسن تسليحاً . ولهذا فقد سعى الامام من جانبه ـ خضوعاً لهذه الحقيقة ـ إلى الاتصال بمحمد باشا عند وصوله إلى «صنعاء» ـ عند بداية تعيينه والياً لليمن ـ وطلب إطالة مدة الصلح إلى عشر سنوات بدلا من سنة واحدة ، وذلك بحجة عدم أهمية المناطق الجبلية وفقر سكانها وقلة خراجها ، ولكن محمد باشا رفض هذا الاقتراح لأنه ـ كما قيل ـ لم يدرس بعض أوضاع اليمن لقرب وصوله إليه ، ولذلك « فلا ينبغى المبادرة إلى الهدنة إلا بعد معرفة أحوال البلاد[1] » .

وكان موقف محمد باشا برفض هذا الاقتراح هو بداية المرحلة الرابعة من مراحل ثورة الامام القاسم إذ التهبت المنطقة الشمالية عندئذ بالحروب لعدة سنوات . وكان محمد على باشا فى حقيقة الأمر يأمل فى أن يحرز نصراً حاسماً أمام قوات الامام القاسم ليرفع من شأنه لدى رجالات الدولة العثمانية،وخاصة لأنه كما كان يقول « أدرى الناس بأحوال أهل اليمن »[2] ، وذلك لأنه كان كاتب الديوان بمصر قبل تعيينه والياً لليمن ، فكان على اطلاع مستمر بأحواله من واقع تقارير ورسائل ولاته . وقد اغتر محمد باشا بمعلوماته النظرية عن أوضاع اليمن ، وأصر على شن الحرب على الامام فى شعبان سنة ١٠٢٦ هـ (أغسطس سنة ١٦١٧ م) أى بعد انتهاء مدة الهدنة التى كان جعفر باشا قد أبرمها مع الامام القاسم فى رجب سنة ١٠٢٥هـ (يولية/أغسطس سنة ١٦١٦م). وكان بعض أتباعه ينصحونه بالميل إلى السلام ، كما ذكروا له «أن هذا الأمر (أى النصر) لا يتم فى اليمن إلا بعد ما تملك رؤوس القبائل ، وترغب الجنود بالعطايا ، وتشحن الأنبار السلطانى (المخازن) بالحبوب فما قبل ، بل تجلدو تنمر وقال إما الملك أو الهلاك »[3]. ولقد

(١) يحى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(٢ و ٣) المحبى : خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ، حـ ٤ ، ص ٢٩٦ — ٢٩٧ .

خيب واقع اليمن حينذاك آمال محمد باشا ، فقد عاد إلى الموافقة على الصلح مع الإمام بعد حروب استمرت ثلاث سنوات متواصلة لم يستطع أن يحرز فيها نصراً يذكر ، بل على عكس ذلك تمكن الإمام خلالها من أن يوسع ممتلكاته فى المنطقة الشمالية على حساب العثمانيين ، وقد تم إبرام هذا الصلح فى جمادى الأولى سنة ١٠٢٨ هـ (أبريل / مايو سنة ١٦١٩ م) وذلك « على أن يكون له (أى الإمام) ما تحت يده »[١] .

وهكذا انتهت مراحل ثورة الإمام القاسم الأربعة التى أشار إليها صاحب سيرته ، والتى وضعت الأسس الأولى للدولة القاسمية الزيدية فى اليمن التى استمرت قائمة حتى قيام الجمهورية فى اليمن سنة ١٩٦٢ ؛ فقد توفى الإمام القاسم بعد عقد الصلح مع محمد باشا بقليل أى فى ١٢ ربيع أول سنة ١٠٢٩ هـ (١٦ فبراير ١٦٢٠ م)[٢] . فقام أتباعه بمبايعة أكبر أبنائه وهو محمد الذى تلقب بلقب الإمام المؤيد ، والذى تم فى عهده إخراج العثمانيين من اليمن سنة ١٦٣٥ م . ولقد كان الإتفاق ثم الإجماع على مبايعة الإمام المؤيد من العوامل الهامة التى أدت إلى استمرار وحدة القوى الزيدية وتماسكها أثناء حروبها مع العثمانيين مما حقق لها فى النهاية الإنتصار عليهم ، وذلك على عكس ما حدث بعد وفاة الإمام شرف الدين قبل ذلك ، إذ تنازع أبناؤه فيما بينهم على السلطة والنفوذ فانتهى أمرهم إلى الهزيمة والضعف ، وذلك رغم الانتفاضات الكبيرة التى قام بها المطهر فى تاريخ اليمن كما ذكرنا فى الفصول السابقة .

ولقد تميزت بداية عهد الامام المؤيد بالهدوء والاستقرار لاتفاقه مع محمد باشا والى اليمن حينذاك على إبقاء الصلح المعقود مع والده الامام القاسم كما هو[٣] ،

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ٢ ، ص ١٠٤ أ .

(٢) الجرموزى : سيرة الامام القاسم بن محمد (مخطوطة) ، م٢ ، ص٢٤٦ ب .

(٣) نفس المرجع : ص ٢٤٨ ب — ٢٤٩ أ .

فأدى هذا إلى استمرار الهدوء النسبي فى اليمن حوالى ثمان سنوات ، إذ لم تتجدد الحروب إلا فى محرم سنة ١٠٣٦ هـ (سبتمبر ١٦٢٦ م) فى ولاية حيدر باشا . وقد تحقق فى هذه الفترة الهادئة تغير واضح فى ميزان القوى بين الزيديين والعثمانيين إذا صح هذا التعبير ، وذلك بالاضافة إلى أنها كانت آخر فترات الهدوء التى سادت اليمن حينذاك قبل خروج العثمانيين منه فقد حاول كل من الطرفين انتهاز هذه الفترة لتقوية قبضته فى داخل ممتلكاته ، حتى تحين الفرصة للوثوب على الطرف الآخر ، وذلك لأن الصلح فى حقيقة الأمر لم يكن إلا هدنة مسلحة . غير أن الزيديين كانوا أكثر نجاحاً فى استغلال هذا الهدوء من العثمانيين ، ولذلك توالت انتصاراتهم بعد أن ثارت الحرب بينهما ثانية ، نظراً لتغير ظروف كل من الجانبين الموضوعية . فقد كان الحكم الامامى يمثل الجديد القابل للنمو والامتداد ، بينما كان الحكم العثمانى يمثل القديم المثقل بالأعباء والأخطاء معاً . وعلى سبيل المثال لا الحصر ، فقد كان الحكم الامامى غير مرتبط بواجهة ببروقراطية عريضة تكلفه الكثير من التكاليف الباهظة التى تثقل بالتالى كاهل الأهالى بالضرائب الفادحة ، وذلك على عكس الحكم العثمانى الذى كان يشتد فى جمع الأموال من الأهالى لتغطية حاجاته الكثيرة المتزايدة . وانعكس هذا بوضوح فى أن الامام كان « لا يأخذ منهم (أى من القبائل) مالا ، ولا يفرض سؤالا ، ولا يقبض منهم إلا الذى يطابق هواهم »[١] . ومن ناحية أخرى فقد كانت صفوف الزيديين تتمتع حينذاك بالوحدة تحت زعامة الامام المؤيد ، بينما كانت المنازعات والانقسامات بين صفوف العثمانيين تثير الحروب بين بعضهم البعض وتضعف من شأنهم ، وذلك كما رأينا أثناء النزاع بين جعفر باشا والكيخيا عبد الله شلبي .

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٥٨ وذكرت هذه العبارة ضمن الحديث الذى حاول به أتباع محمد باشا إقناعه بضرورة المحافظة على الصلح مع الامام القاسم عند بداية تعيينه والياً لليمن . ولذلك فأهمية هذه العبارة أنها صادرة عن أعداء الامام .

ورغم وحدة الصف الزيدى حينذاك وقلة أعباء حكم الإمام بالنسبة للأهالى، ورغم تعلق القبائل فى المناطق الشمالية بالإمام والتفاف رؤسائها وشيوخها حوله لاعتماده عليهم فى حكمه، فقد استخدم الإمام المؤيد القوة أحياناً لإخضاع بعض الأقاليم لحكمه، ولتقوية قبضته فى داخل ممتلكاته. ففى سنة ١٠٢٩ هـ (١٩/١٦٢٠ م) وهى السنة التى بويع فيها بالامامة، اضطر إلى إرسال أخيه أحمد - حاكم «صعدة» حينئذ - إلى بعض القبائل التى تقطن الجهات القريبة منها، على رأس قوة من الجند للقضاء على تمردها[1]. وتجددت الاضطرابات فى شمال اليمن بعد حوالى عامين أى فى سنة ١٠٣١هـ (١/١٦٢٢م) وذلك نتيجة الخلاف الداخلى بين فئات الجيش الامامى فى هذه الأقاليم. وقد فشل حاكم «صعدة» فى فض هذه الخلافات، فأرسل الامام المؤيد أخيه الحسن إلى «صعدة» على رأس قوات كبيرة للقضاء عليها. وقد تولى الحسن حينذاك حكم «صعدة» بعد نجاحه سلميا وعسكرياً فى فض هذه الخلافات، فقام عندئذ بفرض سيطرته على مناطق «نجران» وغيرها من مناطق أقصى شمال اليمن، كما وجه ضرباته أيضاً إلى مناطق «فيفاء» التى تقع إلى الشمال الغربى من «صعدة» والتى كانت تعيش حياة مستقلة طول تاريخها، فاستطاع أن يخضعها للحكم الامامى وذلك فى خلال عام ١٠٣٥هـ (١٦٢٦م)[2].

ومن ناحية العثمانية، فقد اهتم ولاة هذه الفترة الهادئة بتثبيت أقدام الحكم العثمانى فى داخل ممتلكاتهم، وذلك بالطرق السلمية أحياناً، وباستعمال القوة أحياناً أخرى، وقد تقدمت الطرق السلمية التى اتبعها هؤلاء لتحقيق أغراضهم فى اليمن، فعلى سبيل المثال، قام جعفر باشا كما أشرنا بالقضاء على إحدى المظالم المالية التى كانت سائدة هناك قبيل ولايته، وذلك بأن ربط الضرائب بالثروة والحقيقية

(١) يحيى بن الحسين: أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة)، ص ١٥٩ — ١٦٠.

(٢) الكبسى: اللطائف السنية فى تاريخ الممالك اليمنية (مخطوطة)، ص ٣٩٩ — ٤٠٢.

للأفراد ، ومنع تجميدها رغم ظروف هؤلاء المالية . وفى نفس الوقت اشتهر جعفر باشا بتقريب العلماء والفقهاء إليه ، ومناقشتهم فى المسائل العلمية والفقهية ، وذلك لأنه كان على قدر كبير من العلم وممن يهتمون به وبنشره ، حتى قيل عنه إنه هو الذى «أخرج تفسير ابن السعود من الروم (يقصد من استانبول) فنسخ منه عدة نسخ وانتشر فى اليمن وظهر »[١] . واهتم محمد باشا من ناحيته بإقامة العدل فى اليمن ، وأقام «الديوان فى «صنعاء» للنظر فى مظالم الأهالى . فأنصف المظلوم من الظالم ، وساوى طريق الحق بين المالك والمملوك والغنى والصعلوك ، فطمع الضعيف فى إنصافه ، وخاف القوى فى انحرافه ، فحصل له فى القلوب هيبة ورحمة ومحبة»[٢] . وصرف محمد باشا كذلك بعض المنشآت العمرانية ، فاهتم بتجديد سور «صنعاء» ، وبتعمير مسجد طلحة الصحابى بها ، وبتشييد مسجد كبير فى «بريم» ، وفى نفس الوقت اهتم ببناء القلاع والحصون أو ترميم الموجود منها[٣] . وواصل فضلى باشا — الذى تولى أمر اليمن بعد محمد باشا — الاهتمام بالأعمال الانشائية ، فأكمل تجديد سور «صنعاء» ، وكذلك أكمل حفر بئر محمد باشا فى «صنعاء» وهو الذى اشتهر باسم «بئر باشا»[٤] وقد اشتهر فضلى باشا بتقواه وصلاحه رغم قصر مدة ولايته فى اليمن ، فقد «أزال أدنان الخمر من بيوت الذميين ، وشنق يهوديا ممن باع الخمر بعد نهيه ، وكان يدور بنفسه على بيوت الأشراف للصدقة ، وكان كثير الصلاة والجماعة والجمعة ومن تأخر عن ذلك عاقبه أشد العقاب ، وبرزت أوامره

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص١٥٢ .

(٢) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ٢ ، ص١٠٢ ب .

(٣) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ٣٥٦ ، عيسى ابن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ٢ ، ١٠٣ أ .

(٤) عاطف باشا : يمن تاريخى (باللغة التركية) ، ص٩٧ .

إلى ساير الولاة بإقامة الجمعة والجماعات ويأمروا المسلمين بذلك حتى عمرت المساجد فى زمانه »[١] . وانعكست سياسة الولاة على سياسة عمالهم فى الأقاليم المختلفة ، فقد اهتم محمد بن سنان باشا الكيخيا - حاكم « تعز » فى عهد محمد باشا - بتوصيل المياه من جبل « صبر » إلى القرب من قصره بداخل « تعز » ثم أقام هناك سبيلا ليشرب الأهالى منه ، وبجواره حوضاً كبيراً خاصاً بالبهائم وذلك بعد أن كان أهالى « تعز » يتكبدون المشقات والتكاليف الباهظة لنقل المياه من جبل « صبر » إلى بيوتهم[٢] .

وإلى جانب هذه المواقف والأعمال السلمية ، فقد اضطر هؤلاء الولاة أيضاً إلى استخدام القوة كما فعل محمد باشا عند إخماد الثورات التى ظلت قائمة فى أقاليم « ريمة » و « وصاب » و « عتمة » بعد عقد الصلح مع الامام القاسم ، وهى من الأقاليم التى بقيت تحت أيدى العثمانيين بعد عقد هذا الصلح ، والتى كانت تشتهر بجبليتها الوعرة ، وباستمرار الثورات بها[٣] . واضطر محمد باشا إلى استخدام القوة أيضاً ضد حاكم « الحجرية » اليمنى لتنازعه مع أحد جيرانه اليمنيين . ثم تطور هذا النزاع إلى الخروج على طاعة الوالى العثمانى فى اليمن . وكان حاكم الحجرية — ويدعى على الشرجى —[٤] أحد شيوخ هذه المنطقة ، فقربه إليه جعفر باشا ومنحه لقب أغا ، ثم رقاه بعد قليل إلى رتبة « السنجق »[٥] . وقد اتسعت الاضطرابات فى « الحجرية » إلى حد كبير

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٦١ ، ويلاحظ أن يحيى بن الحسين كان أحد المؤرخين الزيديين المعارضين للحكم العثمانى ، ولهذا اهتممنا بذكر عبارته .

(٢) الموزعى : الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان (مخطوطة) ، ص ٥٠ ب — ٥١ ب .

(٣) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ، ص ١٥٨ — ١٥٩ .

(٤) نسبة إلى جبل شرجب بإقليم الحجرية .

(٥) الموزعى : نفس المرجع ، ص ٥١ ب .

وخاصة بعد أن فشل محمد باشا فى حل النزاع سلمياً بين الأميرين اليمنيين ، واستمرت الحروب بها حوالى عامين حتى تم إخمادها على يد الأمير «صفر» الذى كان قد وصل حينذاك إلى اليمن مدداً لمحمد باشا[١] . وقد حضر الأمير (صفر) إلى اليمن فى خلال سنة ١٠٢٨ هـ (١٦١٩/١٨ م) على رأس قوة من الجند قدرها أربعمائة جندى كان محمد باشا قد طلب إرسالها إليه أثناء حروبه السابقة فى شمال اليمن[٢] .

ولم تقف متاعب العثمانيين حينئذ عند حدود قيام بعض الثورات والاضطرابات فى الأقاليم التى ظلت تحت أيديهم ، بل كانت تتعدى ذلك إلى حدوث بعض الاضطرابات والانقسامات فى داخل صفوفهم لتنازعهم فيما بينهم حول السلطة والمال ، فقد قام جعفر باشا قبيل عزله بقتل الدفتر دار فى اليمن ، وذلك - كما قيل - حتى لا يطلع الوالى الجديد على أحوال خزانة اليمن عند وصوله إليه[٣] . وعلى عكس ذلك قتل فضلى باشا دفتر داره أيضاً لاتهامه بالسرقة والاختلاس . ومما يوضح مدى أهمية تصادم الولاة بالدفتر داريين أن الآخرين كانوا بمثابة وزراء المالية فى الولايات ، كما كانوا يحتلون المرتبة الثانية بعد الولاة مباشرة . ومن ناحية أخرى ، كان النزاع حول الحصول على الأموال يمتد إلى صفوف الجند فيثور هؤلاء ضد أمرائهم للمطالبة بمستحقاتهم المتأخرة لديهم . وكان الولاة والأمراء يرضخون فى أغلب الأحيان لمطالب الجند لتهدئة ثوراتهم كما حدث عندما ثارت حامية (الحجرية) ضد أميرها لصرف مستحقاتها المتأخرة لديه ، فاضطر هذا الأمير إلى الاستجابة لمطالب الجند ، مع مخالفة أوامر محمد باشا الذى كان يلح فى إرسال خراج إقليم (الحجرية) كاملا إليه قبل صرف هذه

---

(١) الموزعى : الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ، ور ٥٨ ب - ٦٦ ب .

(٢) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٥٧ .

(٣) أحمد باشا راشد : تاريخ يمن وصنعاء (باللغة التركية) ، حـ١ ، ص ١٩٦ .

المستحقات إلى الجنود[١] . وكذلك ثار الجند ضد محمد باشا قبل مغادرته لليمن عند عزله ، ولم يتمكن من التخلص من أيديهم إلا عندما استجاب لمطالبهم المالية . وإلا عندما وعدهم الوالى الجديد فضلى باشا بأنه سيمنحهم ما يشاءون من الأموال[٢] .

وهكذا تتضح محاولات كل من الزيديين والعثمانيين لتقوية قبضتهم فى داخل ممتلكاتهم ، كما يتضح فى نفس الوقت أن الزيديين كانوا أكثر نجاحاً من العثمانيين فى تحقيق هدفهم رغم ضعف قواتهم أو إمكانياتهم بالنسبة لقوات وإمكانيات العثمانيين ، وذلك نظراً لاختلاف الظروف الموضوعية والتاريخية المحيطة بكل منهم . وقد عبر محمد باشا عند عزله عن مدى تخلخل أوضاع العثمانيين فى اليمن حينذاك فى عبارة لاذعة فقال (كنت أعتمد على دفاترى وحفظى من أخبار اليمن وأقوال ليس أحد أعرف منى بأحوال اليمن . واعترف الآن أنى دخلت اليمن وخرجت منه ولا عرفت ولا حققت قدر أنملة)[٣] . ولقد كان عقد الصلح مع الإمام مظهراً من مظاهر ضعف الحكم العثمانى فى اليمن وخلخلة نظمه ، بل أكثر من ذلك أن العثمانيين كانوا يحرصون على بقاء هذا الصلح لحاجتهم إليه ، فيعملون بدورهم على تهدئة الأحوال مع الأئمة سادة الشمال للتفرغ لحل مشاكلهم فى باقى أقاليم اليمن . وقد اتضح هذا فى موقف فضلى باشا - عند بدء تعيينه - من قضية هروب الحسن بن الإمام القاسم من سجنه فى (صنعاء) أثناء فترة تغيير الولاة ، فقد اكتفى بمعاقبة حارس السجن وفى نفس الوقت سارع بالكتابة إلى

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ٣ ، ص٣٤٠ .

(٢) الموزعى : الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان (مخطوطة) ، ص ٧٤ أ - ٧٤ ب .

(٣) المحبى : خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ، جـ٤ ، ص٢٩٧ .

الإمام المؤيد ليخطب وده ، فأرسل اليه (كتاباً فيه تواضع وأدب وعرض ببقاء الصلح والذمم والاستمرار على الصلح ، وأنه لاحرج في خروج الحسن وأنه لوبقى إلى وصوله (صنعاء) لكان هو المطلق له من السجن على وجه جميل)[١]، وكان من مظاهر تخلخل النظام العثماني وضعفه في ذلك الوقت أيضاً تحايل فضلي باشا في مغادرة اليمن عند عزله منه قبل وصول الوالي الجديد إلى اليمن بسبعة أشهر ، فتسلم الحكم في هذه الفترة بدلا منه كتخداه محمد بك ابن سنان باشا الكيخيا ، وذلك حتى لايتعرض لتمرد الجند عليه ومطالبته بالأموال الطائلة ، (كما وقع على من تقدمه من الحكام وخاف من عاقبة هذا الأمر أن يكون سبباً لخراب البلاد)[٢] .

وعلى ضوء هذه الاعتبارات كلها ، فقد كان من المتوقع أن تثور الحرب بين الزيديين والعثمانيين عندما يشعر أحد الطرفين رجحان كفته وازدياد قوته، وكان من المتوقع أيضاً أن يكون الإمام هو البادىء بإعلان الحرب على العثمانيين، لا لإزدياد قوته فحسب ، بل لأنه كان يلمس عن كثب مدى اضطراب الحكم العثماني في اليمن ، ومدى تذمر الأهالي منه . وكان الإمام يعتمد إلى حد كبير على النواحي المعنوية — أو العقائدية حسب تعبيرنا الحديث — في تقوية سيطرته في اليمن ؛ إذ كان يعتمد على الشعارات التي يرفعها ضد العثمانيين وحكمهم لجذب الأهالي إليه ، وذلك على عكس العثمانيين الذين كانوا يعتمدون — في تدعيم حكمهم في اليمن — على قوتهم المادية ، وعلى ربط بعض الفئات اليمنية بهم .

وكان أمر العثمانيين قد ازداد سوءاً منذ أن تسلم حيدر باشا ولاية اليمن في أوائل سنة ١٠٣٤ هـ (١٦٢٥/٢٤ م) ؛ إذ تخبطت سياسة هذا الوالي منذ

---

(١) الكبسي : اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية (مخطوطة) ، ص ٣٩٨ .
(٢) المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، جـ٤ ، ص٢٨٧ .

البداية ، كما ساءت سيرته بين الأهالى إلى حد كبير . فقد قام حيدر باشا بقتل محمد بن سنان باشا الكيخيا فى (المخا) بعد وصوله إلى اليمن بقليل وذلك خوفاً منه لالتفاف الجنود حوله ، ثم أمر بقتل بعض أتباعه خوفاً من انتقامهم منه[١] .

وقد أضعفت هذه الخطوة من قوة العثمانيين ، إذ كان محمد بن سنان وأتباعه من ذوى المكانة الكبيرة فى اليمن ، ومن أصحاب الخبرة الطويلة بشئونه . ومن ناحية أخرى انصرف حيدر باشا إلى شرب الخمر واللهو ، وترك شئون الحكم فى يد أتباعه ، واقتدى به أمراؤه وعماله فى الأقاليم ، فزادت الفوضى والاضطرابات فى اليمن[٢] .

وكان من نتيجة تفشى هذه العادات — إلى جانب ما كان هناك من تذمر عام — أن قام أهالى (حفاش) التى تقع إلى الغرب من صنعاء — بالثورة على أميرهم ثم قتلوه ، وذلك بعد أن أساء مقابلة بعض العلماء والفقهاء الذين توجهوا لمقابلته بعد صلاة إحدى الجمع ، لأنه قابلهم وهو مخمور[٣] .

وكيفما كان الأمر ، فقد كان السبب المباشر لنقض الصلح وإعلان الحرب ضد العثمانيين ، هو أن حيدر باشا كان قد قتل فى رمضان سنة ١٠٣٥ هـ (مايو/يونية سنة ١٦٢٦ م) أحد الفقهاء من كبار أتباع الإمام المؤيد أثناء زيارته (لصنعاء) لقضاء بعض حاجاته[٤] ، وذلك لاتهامه زوراً بأنه كان يدعو الأهالى إلى مبايعة الإمام[٥] . وقد طالت المكاتبات بين الامام المؤيد وحيدر باشا حول

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ٣ ، ص٣٤٠—٣٤١ .
(٢) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص١٦١ .
(٣) نفس المرجع : ص١٦١ .
(٤) مجهول المؤلف : تاريخ دولة الترك (مخطوطة) ، ص ٣١ ب .
(٥) عيسى بن لطف الله : نفس المرجع ، جـ٣ ص ٣٤١ .

تسليم قاتل الغتيه الى الإمام لمعاقبته ، أو لدفع دية القتيل، ولكن هذه المكاتبات لم تلته الى شيء . وكان يشجع الإمام المؤيد على اعلان الحرب على العثمانيين أن الكثير من رؤساء وشيوخ المناطق الشمالية وغيرها كانوا يراسلون سراً الإمام لتأييده ولمطالبته بالهجوم على العثمانيين ، بل وكانوا يرسلون أبناءهم اليه رهينة لديه لتأكيد ولائهم له[١] .

وقد أدى هذا كله الى إشعال نيران الحرب فى اليمن ، أو بالأحرى الى بداية المرحلة الخامسة والأخيرة من مراحل ثورة الإمام القاسم ، وهى التى كانت فى هذه المرة تحت قيادة ابنه الإمام المؤيد . وقد توالت أحداث الحرب حينذاك عندما وجه الإمام المؤيد أخوته أحمد والحسن والحسين على رأس جيوشه فى أواخر محرم سنة ١٠٢٦ هـ (أوائل اكتوبر سنة ١٦١٦ م) الى مراكز العثمانيين الهامة فى المناطق الشمالية التى بقيت بأيديهم حتى ذلك الحين . وكانت انتصارات جيوش الإمام سريعة متتالية لمساندة معظم قبائل هذه الأقاليم له، فقد تمكنت هذه الجيوش فى غضون أشهر قليلة من اكتساح أغلب المناطق الشمالية ، فلم يبق فى أيدى العثمانيين الا حصنا (عمران) و (ثلاء) ، كما لم يبق فى أيدى حلفائهم آل شمس الدين بن الإمام شرف الدين غير حصنى (كوكبان) و (الطويلة)[٢] . غير أن مقاومة هذه الحصون لم تمكث غير قليل ، إذ تساقطت هى وغيرها من الحصون الأقل أهمية فى أيدي قوات الإمام المؤيد فى غضون عام ١٠٢٦ هـ (١٦٢٧/٦ م) الذى بدأت فيه الحرب . وكان الأمير عبد الرب ابن على بن شمس الدين أمير (كوكبان) هو ركيزة العثمانيين الوحيدة الباقية من أسرة الإمام شرف الدين الذى ظل متعاوناً مع حيدر باشا ضد أتباع الإمام المؤيد حتى اضطر أخيراً الى التسليم

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٦٢ .

(٢) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ ٣ ، ص ٣٤٤ ب .

فى ٢٥ رجب سنة ١٠٣٦ ﻫ (٨ أبريل سنة ١٦٢٧ م) فأبقاه الإمام المؤيد فى حصنه « كوكبان » ، وأمن حياته[1]، فأصبح حينئذ هو وأسرته من أكبر أعوان الإمام ، وحاربوا إلى جانبه حتى تم إخراج العثمانيين من اليمن فيما بعد .

وكانت هذه الانتصارات تمثل جانباً واحداً من انتصارات الإمام المؤيد التى شملت جميع أنحاء اليمن ، إذ بدأت الفئات والأقاليم اليمنية المختلفة تخلع طاعتها للعثمانيين وتعلن انضمامها إليه . فبعد بدء القتال بقليل دخل أشراف « صبيا » و « جيزان » فى طاعة الإمام مقابل إبقائهم فى مراكزهم ، فأرسل الإمام قوة من الجنود استطاعت أن تستولى على قلعة (جيزان) فى مدة وجيزة ، وأن تهزم الحامية العثمانية بها[2] . وفى نفس الوقت ، دخل شريف آخر فى طاعة الإمام ، وهو حسين بن الناصر أمير (الجوف) ، فأرسله الحسين بن الإمام القاسم إلى المناطق الجنوبية من (صنعاء) وعندئذ قام هذا الأمير بالاستيلاء على أغلب هذه المناطق حتى (تعز)[3] ، وإن لم تستقر فتوحاته بها حتى لحقه الحسن إليها فيما بعد . وكان حاكم (ذمار) التركى - وتقع (ذمار) الى الجنوب من صنعاء بقليل - قد لجأ إلى الحسن ابن الإمام القاسم لاختلافه مع حيدر باشا ، فأبقاه الحسن فى ولايته ، واستعان به فى قيادة بعض قواته[4] . ومثلت (صنعاء) جبهة هامة من جبهات تلك الحرب الشاملة ، فقد بدأ الحسن بن القاسم فى تشديد الحصار حولها منذ أوائل شعبان سنة ١٠٣٦ ﻫ (أبريل/ مايو سنة ١٦٢٦ م) ، وذلك بعد إتمام الإستيلاء على حصن (كوكبان) ، وانضمام أميره عبد الرب

---

(١) مجهول المؤلف : تاريخ دولة الترك (مخطوط) ، ص ٣٩ أ .

(٢) العقيلى : من تاريخ المخلاف السليمانى أو الجنوب العربى فى التاريخ ، القسم الأول من الجزء الأول ، ص ٣٣٠ .

(٣) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٦٤ .

(٤) الكبسى : اللطائف السنية فى أخبار الممالك اليمنية (مخطوطة) ، ص ٤١٠ .

ابن شمس الدين إلى جانبه[١] . وقد مال حيدر باشا حينئذ إلى عقد الصلح مع الإمام المؤيد على شرط أن يغادر سالما (صنعاء) بجنوده وعتاده إلى جنوب اليمن ، فوقع كتابه إلى الإمام فى أيدى الحسن الذى عرقل عقد هذا الصلح ، وأصر على أن يكون خروج حيدرباشا من (صنعاء) بدون قيد أو شرط، فأدى هذا إلى تماسك العثمانيين واستبسالهم فى الدفاع عنها بعض الوقت[٢]. وقد قامت قبائل همدان - التى كانت تعتنق المذهب الإسماعيلى والتى تقطن الأقاليم الواقعة إلى الغرب من (صنعاء) مباشرة ـ قامت بانتفاضة هامة وأخيرة ضد الزيديين أعدائهم التقليديين ، فتم الاتصال بينهم وبين حيدر باشا لمهاجمة قوات الإمام المؤيد التى تحاصر (صنعاء) ، غير أن هذه القوات قضت بعد قليل على انتفاضة الإسماعيليين ، مما أدى إلى دخولهم فى طاعة الإمام[٣] .

وقد طال حصار (صنعاء) لمدة عامين كاملين ، حتى اضطر حيدر باشا أخيراً إلى الاستسلام لقوات الإمام المؤيد، وسلم لها المدينة بعد أن اشترط أن يخرج منها سالماً إلى (زبيد)، فتم له ذلك فى أول رجب سنة ١٣٠٨ هـ (٢٤ فبراير ١٦٢٩ م)[٤] .

ولقد كان جنوب اليمن حتى (عدن) يمثل جبهة أخرى من جبهات القتال بين الإمام والعثمانيين طوال مدة حصار (صنعاء) حتى تم سقوطها كما ذكرنا ، فقد قرر الحسن بن القاسم أن يترك أخاه أحمد لمواصلة حصار (صنعاء) وأن يتوجه هو ـ ومعه الأمير عبد الرب بن شمس الدين ـ الى المناطق الجنوبية لنجدة أمير الجوف الذى تعثر فى الاستيلاء على تلك المناطق عندما أرسله

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ٣ ، ص٣٥٨—٣٥٩ .
(٢) يحيى بن الحسين : نفس المرجع (مخطوطة) ، ص ١٦٣ .
(٣) مجهول المؤلف : تاريخ دولة الترك (مخطوطة) ، ص ٤١ب — ٤٢ أ .
(٤) عيسى بن لطف الله : نفس المرجع ، ص٣٨٣ .

الحسن اليها . وقد توالت انتصارات الحسن بن القاسم فى هذه المناطق حتى وصل الى (تعز) ، فقام بحصارها ما يقرب من العام حتى تم له الاستيلاء عليها فى ١٠ شوال سنة ١٠٣٨ هـ (٢ يونية سنة ١٦٢٩)[١] . وكان لوصول جيوش الإمام الى (تعز) أثره الهام فى سقوط باقى المناطق الجنوبية، فقد سارع حينئذ أمير (عدن) ـ وهو أحد شيوخ قبائل يافع ـ الى الدخول فى طاعة الامام ، فأبقاه الحسن بن القاسم فى ولايته[٢] . غير أن هذا لا ينفى أن الحسن كان قد لقى بعض المقاومة من جانب الأمراء والشيوخ اليمنيين الذين كانوا قد ربطوا أنفسهم بالعثمانيين وأصبحوا من أصحاب السلطة والسيطرة فى البلاد، وذلك مثل أمير مدينة (الجند) التى تقع قرب (تعز) ، فقد رفض الاستجابة لنداء الحسن للدخول فى طاعته ، وأخذ يثير اليمنيين والعثمانيين على السواء للوقوف فى وجه الحسن حتى ألحق الأخير به الهزيمة بعد معركة صغيرة[٣] .

وهكذا تم للإمام المؤيد فى خلال عامين فقط مد سيطرته الى أقاليم اليمن المختلفة بما فى ذلك (صنعاء) و (تعز) ، ولم يبق فى أيدى العثمانيين سوى (زبيد) والأقاليم التهامية المحيطة بها . وقد أثارت هذه الانتصارات ذعر المسئولين العثمانيين فى مصر ، وأصبح لزاماً عليهم أن يعملوا من أجل انقاذ السيطرة العثمانية فى اليمن باعتبارهم المسئولين عن السيادة العثمانية فى حوض البحر الأحمر بوجه عام . غير أن جهود ولاة مصر فى ذلك الوقت جاءت ضعيفة متهاونة ، وذلك على عكس إما حدث من قبل عندما تراجعت السيطرة العثمانية فى اليمن الى (زبيد) فقط كما أوضحنا فى الفصل الرابع ، ويرجع ضعف

---

(١) عيسى بن لطف الله: روح الروح (مخطوطة) ، ص ٣٧٥ .

(٢) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٦٥ .

(٣) مجهول المؤلف : تاريخ دولة الترك (مخطوطة) ، ص ٤٥ب ـ ٤٦ب .

موقف هؤلاء الولاة إلى ضعف واضطراب أحوالهم فى مصر نفسها ، وهو ما كان يعكس الضعف العام الذى كان قد أصاب الدولة العثمانية حينئذ نتيجة اضطراب الأحوال فى استانبول نفسها كما سيتضح فيما بعد . وبالاضافة إلى ذلك ، كانت صعوبة الميدان الحربى فى اليمن ، إلى جانب صعوبة إعداد الحملات إليه ، من أهم العوامل التى أثرت فى موقف المسئولين العثمانيين — فى مصر أو استانبول — من مسألة تدهور السيطرة العثمانية به حينذاك ، وبمعنى آخر فقد كانت صعوبة البقاء فى اليمن لظروفه الطبيعية والبشرية ، وصعوبة تجهيز الحملات الكبيرة إليه لضخامة تكاليف إعداد هذه الحملات فى ذلك الوقت الذى اضطربت فيه أحوال الدولة العامة ، من أهم عوامل ضعف موقف المسئولين بالنسبة لليمن أو بالأحرى من أهم العوامل التى أجبرت هؤلاء على إهمال شئون اليمن فى ذلك الوقت .

وكيفما كان الأمر ، فقد أمر والى مصر حينئذ والى الحبشة بالتوجه إلى اليمن لنجدة العثمانيين به ، فوصل عابدين باشا إلى ميناء « المخا » على رأس ألف جندى ، وذلك فى أواخر عام ١٠٣٧ هـ (يولية / أغسطس ١٦٢٨ م)[١] . ويقال إن عابدين باشا هو الذى توجه إلى اليمن من تلقاء نفسه لطمعه فى أن يتولى أموره ، وذلك بعد أن علم باضطراب الأحوال به وبمحاصرة حيدر باشا فى « صنعاء »[٢] . ويؤكد هذا القول أن عابدين باشا أساء معاملة حيدر باشا عند وصوله إلى « زبيد » فاستولى على أمواله ، وهم بقتله لولا تدخل بعض الأمراء ، فاكتفى بسجنه مؤقتاً فى جزيرة « كران »[٣]. ولكننا نرى أن والى مصر هو الذى أمر

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ص ١٦٥ .

(٢) مجهول المؤلف : تاريخ دولة الترك (مخطوطة) ص ٤٦ أ .

(٣) نفس المرجع : ص ٤٩ ب .

بتوجه عابدين باشا إلى اليمن لعجزه عن إعداد حملة جديدة من مصر بعد غرق الحملة التى كانت تحت قيادة أحمد باشا أمام « جدة »[١] ، والتى كان قد أرسلها إلى اليمن قبل أن يتوجه إليه عابدين باشا[٢] . وقد فشل الأخير فى إنقاذ موقف العثمانيين فى اليمن ، بل ظل مقيما فى ميناء « المخا » حتى تقدم الحسن بن القاسم إليه وحاصره به ، وكان عابدين باشا قد أرسل قوة كبيرة من الجند لنجدة المحاصرين فى « تعز » فاستطاع الحسن بن القاسم أن يلحق الهزيمة بها عند « نجد قسيم » وذلك فى محرم سنة ١٠٣٨ هـ (سبتمبر سنة ١٦٢٨م)[٣] . ولقد كان لهذه المعركة الصغيرة أثر سيء فى نفوس العثمانيين فى اليمن . فقد أدت إلى إضعاف معنوياتهم ، كما أدت إلى تقاعد عابدين باشا فى ميناء « المخا » وعلى عكس ذلك ، أزالت هذه المعركة الخوف الذى أصاب اليمنيين عند قدوم عابدين باشا إلى الساحل اليمنى ، فتقدم الحسن بن القاسم على رأس بعض قواته لمحاصرة ميناء « المخا » ،

---

(١) يذكر مصطفى نعيم فى كتابه (تاريخ نعيما » باللغة التركية » حـ٢ ، ص ٤١٢ — ٤١٣) « أن أحمد باشا كان والياً للحبشة ثم عزل منها وتوجه الى مصر حيث صدر الأمر بتعيينه والياً لليمن بدلا من حيدر باشا . وقد حنق عليه والى مصر بيرام باشا (أو بهرام باشا) لامتناعه عن إقراضه بعض المال ، ولميل الأمراء إلى تعيينه والياً لمصر بدلا منه لتضجرهم من بيرام باشا ، فسارع الى ارساله الى اليمن على رأس قوة من الجند التخلص منه ، وفى نفس الوقت أرسل الى شريف مكة رسالة سرية للعمـــل على قتل أحمد باشا . وقد اصطدمت سفينة أحمد باشا بالشعب المرجانية بعد مغادرتها لميناء « جدة » ، وذلك بناء على أمر شريف مكة لربان السفينة بضرورة التخلص من أحمد باشا قبل وصوله الى اليمن . غير أن أحمد باشا نجا من الموت وكشف أطراف المؤامرة عندما هم بقتل ربان السفينة ، فشكا الأمر إلى الباب العالى الذى أمر بعزل شريف مكة وتعيين شريف آخر بدلا منه . وقد تحايل الشريف الجديد فى قتل أحمد باشا مسموماً أثناء ضيافته وذلك بإيعاز من الشريف القديم » . ولاشك فى أن هذه الحادثة توضح مدى اضطراب الأوضاع فى الدولة العثمانية حينذاك مما كان من العوامل الهامة فى خروج العثمانيين من اليمن .

(٢) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٦٥ .

(٣) نفس المرجع : ص ١٦٥ — ١٦٦ .

غير أنه منى بالهزيمة لانشغال بعض جنوده بجمع الغنائم[١] .

ولكن كانت هناك محاولة أخرى وأخيرة من جانب ولاة مصر لانقاذ السيطرة العثمانية فى اليمن ، وذلك بالرغم من الضعف العام الذى كان قد أصاب الدولة العثمانية حينذاك . وتمثلت هذه المحاولة فى تعيين أحمد قانصوه باشا والياً لليمن بدلا من حيدر باشا ، وفى إرساله على رأس قوات ضخمة إلى هناك لاستعادة أملاك العثمانيين فى اليمن وقد بذل قانصوه باشا جهوداً صادقة فى استعادة هذه الأملاك . ولكنها كانت جهوداً يائسة منيت أخيراً بالفشل وتم فى ولايته خروج العثمانيين من اليمن فأصبح بالتالى آخر ولاة العثمانيين هناك فى هذه الفترة . وكان قانصوه باشا يعقد آمالا عريضة فى نجاحه على ضخامة قواته التى بالغ معاصروه من المؤرخين اليمنيين فى تصويرها[٢] ، غير أن أوضاع العثمانيين فى اليمن — إلى جانب أوضاع الدولة العثمانية العامة — كانت قد وصلت إلى الحد الذى يصعب معه استرجاع مافقده العثمانيون حتى ذلك الوقت .

وقد تركزت أعمال قانصوه باشا فى تهامة فقط ولم يستطع التوغل إلى داخل اليمن نظراً للاستعدادات الضخمة التى أعدها الإمام المؤيد تحت قيادة أخويه الحسن والحسين منذ علم بضخامة قوات قانصوه باشا . وكان الأخير قد تعمد أن ينزل بقواته إلى ميناء « أبى عريش » عند أقصى شمال الساحل اليمنى لإشاعة الخوف بين اليمنيين — وقد نجح فى ذلك إلى حد كبير — ولاسترجاع منطقة شمال تهامة من أيدى قوات الإمام . وكان نجاح قانصوه باشا فى هذه المنطقة ، عند وصوله إليها فى ربيع الثانى سنة ١٠٣٩هـ

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ص ١٦٦ .
(٢) كرر المؤرخون المعاصرون ذكر ضخامة هذه الحملة ، وأسهبوا فى وصفها ، وقد قال يحيى بن الحسين (ص ١٦٧) انها تتألف من ألف فارس ، ومن ثمانية آلاف من المشاة ، ولكننا نرى أن هناك مبالغة فى تقدير هذه الحملة نظراً للظروف المختلفة التى أحاطت بها .

(نوفمبر / ديسمبر ١٦٢٩ م)، نجاحا مؤقتا فقد عاد أشراف «صبيا» و«جيزان» إلى موالاة الامام المؤيد بعد مغادرة قانصوه باشا لبلادهم مباشرة ، وطردوا الحامية التى تركها فى قلعة «جيزان»[1] . غير أن قانصوه باشا نجح فى توطيد السيطرة العثمانية فى باقى الأقاليم التهامية أثناء زحفه إلى «زبيد» ، كما نجح فى التخلص من عابدين باشا ؛ إذ أمر بقتله غدراً بحجة إساءة معاملة والى اليمن السابق حيدر باشا[2] . وكان عابدين باشا يأمل أن يقره والى مصر والياً لليمن حتى يتسم انتقاله إليه من الحبشة بالصفة الشرعية ، غير أن وصول قانصوه باشا إلى اليمن خيب آماله ، وجعله يخشى لقاءه حتى أوقع به الأخير وقتله . وقد قيل إن عابدين باشا حاول أن يستميل والى مصر إلى جانبه فطلب منه الاعتماد عليه فى استعادة اليمن ، وادعى كذبا فى خطابه إليه هدوء الأحوال فى اليمن ، وأنه يتوغل إلى داخل البلاد فقال : «إنى سرت فى بلاد اليمن ما رميت بحجر واحد ، وما أضرت فى طريقى بمساند ، وسيصل إليكم كتب من « صنعاء» عن قريب[3] .

وقد فشل قانصوه باشا فى إحراز نجاح ما بعد ذلك ، فقد دارت جهوده الحربية فى داخل دائرة ضيقة محدودة يمتد قطرها بين « زبيد » و « المخا » فقط ، وذلك بعد أن فشلت محاولاته فى أن تتقدم جيوشه إلى « تعز » لاستعادتها . وكان قانصوه باشا قد أرسل قوة كبيرة من جنده إلى « تعز »، فاعترضت طريقها قوات الزيديين عند « نجد المخيرب » - بالقرب من « زبيد » — وألحقوا بها هزيمة منكرة بعد هرب قائدها مذعوراً قبل بدء القتال ، وذلك فى آخر رمضان سنة ١٠٣٩ ﻫ (١٣ مايو سنة ١٦٣٠ م)[4] .

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٦٧ .

(٢) الكبسى : اللطائف السنية فى أخبار الممالك اليمنية (مخطوطة) ، ص ٤١٣ .

(٣) مجهول المؤلف : تاريخ دولة الترك (مخطوطة) ص ٥٥ أ .

(٤) نفس المرجع : ص ٥٦ أ — ٥٧ أ .

وقد تشابهت نتائج هذه المعركة مع نتائج معركة « نجد قسيم » التي هزمت فيها قوات عابدين باشا من قبل ، فقد تقاعد قانصوه باشا عن القيام بعمل إيجابي آخر. وطلب عقد الصلح لمدة سنة فوافق الإمام على ذلك ، وتم عقد الصلح في أول المحرم سنة ١٠٤٠ هـ (١٠ أغسطس ١٦٣٠ م)[١] .

ولقد جدد هذا الصلح مؤقتاً الأعمال الحربية حول « زبيد » وتهامة ، فطالت مدته إلى ما بعد انقضائه بكثير ، وذلك لانشغال كل من الطرفين بمشاكله الخاصة . فقد رأى الإمام المؤيد وإخوته أن يعملوا على تثبيت أركان حكمهم، وعلى تنظيم شئون البلاد ، وذلك ليكونوا على أهبة الاستعداد عند توجيه الضربة الأخيرة للعثمانيين . فقد قام الحسن بجولة كبيرة في أنحاء البلاد لتفقد أحوالها ، ولإصلاح الحصون والقلاع وتوفير ما يلزم من السلاح والعتاد ، ولجمع الجيوش الغفيرة من الأقاليم المختلفة[٢] .وكذلك اهتم الحسن بالقضاء على الاضطرابات التي نشبت حـــول « عدن » ، وذلك لخوفه من أن ينتهز العثمانيون قيام هذه الاضطرابات لاسترجاعها[٣] . ومن ناحية العثمانيين ، فقد تكررت مظاهر الفوضى والاضطراب بين صفوفهم مما كان يضعف من قوتهم في هذه الفترة العصيبة من تاريخهم في اليمن. ولقد كانت هذه الاضطرابات امتداداً للاضطرابات السابقة كما كانت نتيجة لها ، فقد كانت الأخيرة تدور أيضا حول النزاع على السلطة أو للحصول على الأموال والهبات[٤] . ولكن حدث في هذه الآونة الأخيرة ظاهرة خطيرة تدل على انهيار الأوضاع بين صفوف العثمانيين إلى حد كبير . فبعد أن كان بعض الجنود يلجأون إلى الأئمة أو إلى القبـــائل في بعض فترات ضعف الحكم العثماني

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن في تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٦٧ .
(٢) مجهول المؤلف : تاريخ دولة الترك (مخطوطة) ، ص٤٨ب — ٤٩ أ .
(٣) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ، ص ١٦٨ .
(٤) نفس المرجع : ص ١٦٨ — ١٦٩ .

فى اليمن ، إذ بهم فى الفترة الأخيرة يهربون فى شكل جماعات كبيرة إلى خارج اليمن . ففى سنة ١٠٤١هـ (١٦٣٢/١) اجتمع زهاء ألف جندى من بين الحاميات العثمانية المنتشرة فى تهامة ، وقرروا مغادرة اليمن براً إلى الشام ، فعاثوا فساداً طوال الطريق إلى «مكة» ، وهناك قاموا بقتل بعض الأشراف ونهبوا البيوت والمتاجر ، مما أدى إلى اهتمام والى مصر ، فأرسل قوة كبيرة من الجند إلى «مكة» أعادت الأمن إلى نصابه[1].

وكيفما كان الأمر ، فقد تجددت الحرب ثانية فى خلال سنة ١٠٤٣هـ (٣/ ١٦٣٤م) بين الامام المؤيد والعثمانيين ، وكان قانصوه باشا هو البادىء بإشعال الحرب ، وذلك لاستعادة بعض البقاع ، أو لاضعاف الحصار المضروب حوله وللحصول على ماتحتاجه جيوشه من المؤن . ففى خلال هذا العام أرسل قانصوه باشا قوة من الجند على ظهر سفينتين إلى «عدن» للاستيلاء عليها بحراً بعد أن تآمر مع بعض جنودها اليمنيين على فتح أبوابها أمام جنوده ، ولكن مؤامرته باءت بالفشل ، فعادت حملته إلى «المخا» ثم قام بإرسال حملة أخرى إلى ميناء «جيزان» فاستولت عليه بغتة ، وقامت بأعمال السلب والنهب به وببعض المناطق التهامية المجاورة له ، مما دفع بعض شيوخ تلك المناطق إلى اللجوء إلى الامام المؤيد للاستعانة به فى صد العثمانيين عن بلادهم[2] . وقد تركزت حروب هذه الفترة حول «زبيد» و «المخا» ، إذ انسحبت إليهما جميع الحاميات العثمانية فى «تهامة» لتركيز الدفاع عنهما ، وذلك عندما علمت بتحرك جيوش الامام المؤيد إلى «زبيد» . وقد أظهر العثمانيون حينذاك نشاطاً حربياً ملحوظاً حتى لايضيق حولهم الخناق[3] ، ولكن جهود الحسن ابن القاسم وقواته

---

(١) مصطفى نعيم : تاريخ نعيما (باللغة التركية) ، حـ ٣ ، ص ١٤٩ — ١٥٠ (أسهب فى ذكر التفصيلات عن هذه الحادثة) ؛ يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٦٩ — ١٧٠ .

(٢) مجهول المؤلف : تاريخ دولة الترك (مخطوطة) ، ص ٥٩ أ — ٥٩ ب .

(٣) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، حـ ٣ ، ص ٣٨٧ — ٣٨٩ ،

بالإضافة إلى التفاف أهالى المناطق الجنوبية حوله وانضمامهم إلى جيوشه[١] ، كانت جميعها كفيلة بإلحاق الهزائم بالعثمانيين حتى اضطر قانصوه باشا إلى أن يطلب عقد الهدنة لمدة سنة فوافق الإمام المؤيد على طلبه — رغم معارضة أخيه الحسن — وذلك فى ٢٠ محرم سنة ١٠٤٥ هـ (٢٦ يوليه ١٦٣٥ م)[٢] .

وكان الحسن — من وجهة نظر عسكرية — يرى أن يواصل الحرب ضد العثمانيين حتى يتم الإجهاز عليهم فيتحقق له بذلك نصر سريع ، أما الإمام المؤيد فكان يرى — من وجهة نظر سياسية — أن مواصلة الحرب تعنى أن يتحمل اليمنيون — سواء الذين يقفون فى صفوف الحسن أو الذين يقطنون المناطق الخاضعة للعثمانيين — أن يتحمل هؤلاء المزيد من الجهد والضحايا دون مبرر ، إذ أن تضييق الحصار حول العثمانيين ، بالإضافة إلى اضطراب أحوالهم باليمن حينذاك ، كفيلان بالإجهاز على بقايا الحكم العثمانى فى اليمن . وقد صدق حدس الإمام المؤيد ، فبعد أقل من شهر من عقد الهدنة الأخيرة ، تحايل قانصوه باشا حتى هرب من « زبيد » ، ولجأ إلى معسكر الحسن بن القاسم وسلم نفسه له لضعف شأنه وموقفه ، ولازدياد تمرد الجند وتعديهم عليه . وقد أكرم الحسن وفادة قانصوه باشا ، حتى غادر اليمن بعد أن أعد له مايلزمه للسفر بحراً إلى مصر[٣] .

وكان لهروب قانصوه باشا من « زبيد » أثره السيء فى موقف باقى العثمانيين ، فجاهر بعض الجنود بالذهاب إلى معسكر الحسن بن القاسم ، أو إلى خارج اليمن ، وبايع البعض الآخر الأمير مصطفى الكتخدا والياً عليهم لمواصلة الدفاع عن أنفسهم . غير أن الأخير لم يمكث غير قليل ثم طلب عقد الصلح مع الحسن ابن القاسم على شرط أن يغادر هو وجنوده اليمن سالمين إلى مصر ، فتم خروج

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) ، جـ٣ ، ص ٣٨٣ .

(٢) مجهول المؤلف : تاريخ دولة الترك (مخطوطة) ، ص٦٢أ — ٦٣ أ .

(٣) نفس المرجع : ص ٦٣ب — ٦٤ أ .

العثمانيين فى العشر الأوائل من شهر جمادى الأولى سنة ١٠٤٥ هـ (٢٢ أكتوبر ١٦٣٥)"[١] .

وهكذا تم إجلاء العثمانيين عن اليمن فى هذا الوقت المبكر بعد فتحهم الأول له ، فأصبح بذلك أول ولاية عربية تنفصل عن السيادة العثمانية التى امتدت إلى كافة أجزاء الوطن العربى ـ ماعدا المغرب الأقصى ـ خلال النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى . ولقد تمتع اليمن باستقلاله ما يزيد عن المائتى عام تحت حكم الأئمة الزيديين ، حتى عاد العثمانيون ثانية إليه سنة ١٨٧٢، بعد أن كان حكم الأئمة قد وصل إلى حد كبير من الضعف ، وبعد أن كان الإنجليز قد احتلوا عدن والأقاليم المجاورة لها سنة ١٨٣٩ ، وهى التى عرفت باسم المحميات أو الجنوب العربى حتى تم استقلالها فى سنة ١٩٦٧ تحت اسم جمهورية جنوب اليمن الشعبية .

وقد تضافرت عدة عوامل ساعدت على خروج العثمانيين من اليمن فى سنة ١٦٣٥ م ، كما ساعدت على انصرافهم عن التفكير فى الرجوع إليه حتى سنة ١٨٧٢ م . وتنقسم هذه العوامل إلى قسمين ، قسم داخلى خاص باليمن وما جرى به من أحداث ، وقسم خارجى يتعلق بأحوال الدولة العثمانية نفسها ، وما أحاط بها من ظروف وأحداث .

وقد أشرنا فى مناسبات كثيرة إلى العوامل المختلفة الخاصة باليمن التى كانت تؤدى إلى إضعاف السيطرة العثمانية به حتى تم إخراجهم منه ، وهى التى كانت تتمثل فى طبيعة اليمن الجبلية ، وفى خصائصه البشرية ، بل وفى ازدياد قوة الأئمة

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) جـ٣ ، ص ٣٩٣ « ذهب يحيى بن الحسين (ص ١٧١ — ١٧٢) إلى أن خروج الأمير مصطفى كان فى شعبان ١٠٤٥ هـ (يناير/فبراير سنة ١٦٣٦) وأن الذى غادر اليمن فى جمادى الأولى سنة ١٠٤٥ هـ (أكتوبر / نوفمبر سنة ١٦٣٥) هو قانصوه باشا ، ولكننا اعتمدنا على رواية عيسى بن لطف الله لاتفاقها مع سياق الأحداث » .

الزيديين مع مطلع القرن السادس عشر الميلادى . وكانت هذه العوامل تجعل من استقرار الحكم العثمانى فى اليمن أمراً صعباً ومكلفاً ، كما أصبحت فى نفس الوقت من العوامل التى عملت على تقاعد العثمانيين عن التمسك باليمن أو الرجوع إليه بعد أن اضطروا إلى الخروج منه فى سنة ١٦٢٥ م . وقد أكسبت هذه العوامل اليمن شهرة كبيرة لدى المعاصرين وقتذاك بأنه ميدان صعب كثير المخاطر ، ولذلك كان المسئولون العثمانيون يلجأون إلى رفع مرتبات الجنود لإغرائهم على الذهاب إليه أو البقاء به ، وذلك كما فعل الوزير سنان باشا أثناء حملته المشهورة على اليمن أو عند مغادرته له . وتزداد نظرة المعاصرين إلى اليمن وضوحاً إذا عرفنا أنه كان ينظر إليه باعتباره منفى للمجرمين والعصاة . فكان رجالات الدولة فى استانبول أو مصر يرسلون إليه هذه الفئات للتخلص منها ولتأديبها . فقد قام والى مصر محمد باشا الوزير (١٦٠٧ - ١٦١١م) بإرسال حوالى ثلاثمائة جندى من مصر إلى اليمن مقيدين بالسلاسل ممن كانوا يثيرون الاضطرابات فى مصر ، وذلك بناء على نصيحة أحد أتباعه بعد أن كان محمد باشا قد قتل الكثير من هؤلاء المشاغبين ، فكف عن القتل ، وأرسل الباقى وهم ثلاثمائة إلى اليمن[١] . وكذلك أرسلت استانبول إلى مصر أثناء ولاية محمد باشا الصوفى (١٦١١ - ١٦١٥ م) حوالى ألفى جندى « لينفوا إلى اليمن لفساد وقع منهم »[٢] . وقد امتنع هؤلاء الجنود عن الذهاب إلى اليمن بعد وصولهم إلى القاهرة ، واعتصموا فى إحدى دورها ، فاضطر الوالى إلى إرسال قوة من الجند لمحاصرتهم ولإخراجهم بالقوة ، فاستسلموا لمصيرهم بعد أن قتل من بينهم ثلاثة جنود أثناء المقاومة التى بذلوها ، وبعد أن فشلت الوساطة السلمية فى إقناعهم بالتوجه إلى اليمن[٣] .

---

(١) محمد بن أبى السرور البكرى : المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية (مخطوطة) ، ص ١٤٠ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٥٥ .

(٣) محمد ابن أبى السرور البكرى : المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية (مخطوطة) ، ص ١٥٦ .

ولقد تعددت كذلك حوادث هروب الجنود العثمانيين من اليمن نتيجة صعوبة وخطورة هذا الميدان الحربى ، وخاصة فى أواخر عهد العثمانيين باليمن كما رأينا أثناء ولاية قانصوه باشا له . فقد غادر اليمن فى هذه الأثناء حوالى ستمائة جندى — دفعة واحدة — وذلك بعد أن عجز قانصوه باشا عن دفع مرتباتهم ولضيقهم بمناخ تهامة الحار . وكان هؤلاء الجنود من جنود الروم ؛ أى ممن أتوا معه من مصر ، وكانوا من المجبولين على الفسق والشقاق — كما قيل — فشجر بينهم وبين عسكر اليمن القدماء — أى ممن كانوا فى اليمن قبل مجىء قانصوه باشا إليه — من المنافسة والحسد ما أدى إلى النزاع والتطاحن . وإلى عدم ولائهم للباشا لدرجة أنه أصبح ضعيف الحيلة معهم[1] . وكانت كذلك بعض الفرق العثمانية تعمل على الهرب إلى «مكة» أثناء توجهها إلى اليمن ، أو تلجأ إلى الإمام مباشرة وترفض الانضمام إلى صفوف العثمانيين فى اليمن ، فقد حدث أثناء محاصرة حيدر باشا فى « صنعاء » أن رفض بعض الجنود — وهم حوالى مائة — النزول إلى ميناء « المخا » وتوجهوا إلى ميناء « اللحية » حيث لجأوا إلى الإمام المؤيد ودخلوا فى خدمته ، وذلك بعد أن فشلوا فى التوجه إلى ميناء «القنفدة» للذهاب إلى مكة[2] .

ومن ناحية العوامل الخارجية بالنسبة لليمن ، فقد كان ضعف أحوال الدولة العثمانية حينذاك ، وانعكاس ذلك على أوضاع العثمانيين فى اليمن ، من أهم العوامل التى أضعفت من سيطرتهم عليه حتى انتهى الأمر بخروجهم منه وقد

---

(١) مصطفى نعيم : تاريخ نعيما (باللغة التركية) جـ٣ ، ص ١٤٩ .

(٢) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ص ١٦٦ (كان هؤلاء الجنود من أهالى مصر وليسوا من الجنود العثمانيين النظاميين لأن هؤلاء الأخيرين كانوا مشغولين فى حروبهم فى العراق مع السلطان مراد الرابع ولذلك جمع والى مصر أغلب جنود هذه النجدة لوالى اليمن من الفلاحين المصريين) .

سبق أن أشرنا فى الفصول السابقة إلى مظاهر الضعف والاضطراب التى أصابت نظم الدولة العثمانية وأوضاعها منذ أواخر عهد السلطان سليمان القانونى ، والتى ازدادت وتضخمت فى عهد خلفائه الذين كانوا أقل منه قدرة وحنكة . وقد ازداد الأمر سوءاً فى عهد السلطان مصطفى الأول (١٦١٧ – ١٦١٨ م) الذى لم يكن رجل دولة أو سياسة ، فعزله العلماء وقادة الجيش بعد ثلاثة أشهر فقط من توليته ، وولوا مكانه ابن أخيه السلطان عثمان الثانى (١٦١٨ – ١٦٢٢) الذى كان فى الرابعة عشر من عمره ، فدفع حياته ثمناً لمحاولته فى إصلاح الجيش الذى أصابه الفساد حينذاك إلى حد كبير[1] . ولم يمكث السلطان مصطفى الأول الذى أعيد إلى الحكم ثانية – إلا عاماً واحداً (١٦٢٢ – ١٦٢٣ م) لاختلال أحواله الشخصية ، فعزل وعين بدلا منه السلطان مراد الرابع (١٦٢٣–١٦٤٠م) الذى لم يكن قد تجاوز الثالثة عشر من عمره بعد[2] .

ومن غريب الصدف أن ينفصل اليمن عن السيادة العثمانية فى عهد هذا السلطان – أى مراد الرابع – الذى كان الومضة القوية الأخيرة فى بيت آل عثمان، والذى أعاد بأعماله إلى الأذهان عهد سلفه الكبير السلطان سليمان القانونى ؛ فقد بذل هذا السلطان – بمعاونة والدته السلطانة وبعض رجالات دولته – جهوداً جبارة لإصلاح الخلل الذى أصاب دولته ، كما قاد الجيوش بنفسه – على عكس عادة أسلافه منذ السلطان سليمان القانونى – فاستعاد أملاك العثمانيين فى العراق إلى ما كانت عليه من قبل .

وكانت الجهود التى بذلها السلطان مراد الرابع فى إصلاح شئون دولته ، والحروب التى قام بها فى المناطق القريبة من عاصمته ، هى التى شغلته

---

(١) Creasy, M. A. : History of the Ottoman Turks, p. 243.

(٢) Ibid , pp. 241—246.

وشغلت الدولة بالتالى ـ عن الاهتمام بالإبقاء على اليمن تحت السيادة العثمانية أو باستعادته بعد خروج العثمانيين منه . فقد شغل هذا السلطان فى إصلاحات داخلية حتى أواخر سنة ١٦٣٣ حيث استطاع أن يغادر عاصمته لأول مرة إلى الأناضول ، وذلك لإخماد الاضطرابات التى كانت قد انتشرت به من قبل . وقد أعاد السلطان الكرة فى ربيع سنة ١٦٣٥ لتوطيد نفوذه وسيطرته بين أمراء ولايات الأناضول ، وليستعيد بعض المدن الواقعه على الحدود الشرقية وخاصة (إروان) Eriwan من أيدى الفرس . وفى سنة ١٦٣٨ قام السلطان مراد الرابع بحملته الضخمة ـ والأخيرة ـ لاستعادة (بغداد) التى كان الفرس قد استولوا عليها قبل ذلك بخمسة عشر عاماً ، فتمكن من استعادتها بعد حصار قاس فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٦٣٨ ، ثم عاد إلى استانبول فدخلها فى ١٠ يونيو ١٦٣٩ م ثم مات بها بعد قليل أى فى ٩ فبراير ١٦٤٠[1]. وقد ذكر أحد اليمنيين أن السلطان مراد الرابع كان ينوى التوجه إلى اليمن لاستعادته بعد الاستيلاء على (بغداد) ، ولكنه فضل العودة سريعاً إلى (استانبول عندما علم باعتلاء أخيه إبراهيم العرش أثناء غيبته فى العراق ، ثم مات فى أثناء الطريق[2] . ولكننا لانرى هذا الرأى لعدم دقة معلوماته ، ولأن استعادة اليمن كانت تتطلب ظروفاً أكثر عمقاً وتنظيماً من الظروف التى كانت تتوفر حينذاك للسلطان مراد الرابع أثناء وجوده فى العراق . فقد كانت استعادة اليمن تتطلب إعداد حملة كبيرة ذات تكاليف باهظة ، وذلك مالم يكن متوفراً أو ممكناً للدولة العثمانية حينذاك ، وذلك بالإضافة إلى كثرة مشاكلها فى ذلك الوقت ، مما كان يبعد اليمن واستعادته عن دائرة اهتمامها[3] ، وبمعنى آخر ، فقد كانت مشاكل الدولة العثمانية الداخلية

---

(١) Creasy) M. A. , History of the Ottoman Turks, pp. 253-257.

(٢) الكبسى : اللطائف السنية فى أخبار الممالك اليمنية (مخطوطة) ، ص ٣٥٧ — ٣٥٨ .

(٣) أحمد راشد باشا : تاريخ يمن وصنعا (باللغة التركية) ، جـ ١ ، ص ٢٥٦ .

والخارجية العديدة تشغلها عن القيام بعمل إيجابي كبير نحـو اليمن قبل أو بعد انفصاله عن الدولة . ويتأكد هذا إذا عرفنا أن السلطنة العثمانية كانت قد أحالت أمر اليمن إلى ولاية مصر فى أول ولاية حيدر باشا لليمن (١٠٣٢هـ-٣٣/ ١٦٢٤)[١]. غير أن ضعف الدولة العثمانية بوجه عام، كان ينعكس على ولاياتها، ولذلك لم يستطع ولاة مصر إمداد حيدر باشا بالجيوش التى كان يلح فى طلبها، واكتفى بهرام باشا والى مصر حينذاك (١٦٢٦ — ١٦٢٨) بتكليف عابدين باشا والى الحبشة فى ذلك الوقت بمد حيدر باشا بما يلزمه . وزيادة على ذلك فيقال إن بهرام باشا أرسل إلى حيدر باشا ينصحه بعدم جدوى الحرب فى اليمن، وأن عليه أن يعمل على العودة سالماً فى أسرع وقت ، لأن الباب العالى قد نسى ـ أو بالأحرى أهمل شأن ـ اليمن ، ولكن رسوله إلى حيدر باشا وقع أسيراً فى يد الإمام المؤيد فازداد نشاطاً فى محاربة العثمانيين[٢]. وكذلك كان تعيين قانصوه باشا والياً لليمن بعد انهيار السيطرة العثمانية به تعبيراً عن ضعف الدولة العثمانية واضطراب نظمها حينذاك ، إذ لم تكن له الصفات اللازم توافرها فيمن يعول عليه إنقاذ السيطرة العثمانية فى هذه الولاية البعيدة فى هذا الوقت العصيب . فلم يكن قانصوه باشا ذا خلق أو شجاعة أو مقدرة ، بل على عكس ذلك كان إرسال قانصوه باشا إلى اليمن للتخلص منه لما كان يثيره من المضايقات والشغب، ولذلك آثر والى مصر أن يضحى بتجهيز حملة كبيرة لإرسالها إلى اليمن تحت قيادته حتى يبعده عن مصر[٣] . وقد أكد قانصوه باشا فى حديث ودى له مع الحسن بن القاسم ـ بعد فراره إليه ـ انشغال السلطنة عن إرسال حملة كبيرة لاسترجاع اليمن ، وأنه هو الذى طمع فى تولى أمر هذه الولاية ، فقال ما معناه « أنا الذى اخترت

---

(١) أحمد راشد : تاريخ يمن وصنعا (باللغة التركية) ، حـ١ ص ٢٥٥ — ٢٥٦ .

(٢) عاطف باشا : يمن تاريخى (باللغة التركية) ، ص ١٠٠ .

(٣) نفس المرجع : ص ١٠٣ — ١٠٤ .

الخروج إلى اليمن ، وكنت نائباً فى مصر ، وحين رأيت كثرة أموالى طمعت فى مملكة اليمن لنفسى ،فتحملت مئونة العساكر الرومية من مالى ، وأما السلطان فهو مشتغل بالعراق وماله نية على التخريج »[١]. ورغم ما قد يحمله هذا الحديث من مبالغة ، فإنه يوضح موقف الدولة العثمانية إلى حد كبير من اليمن .

وبالإضافة إلى ضعف أحوال الدولة العثمانية حينذاك وإنشغالها فى مشاكلها الأخرى الأكثر إلحاحاً ، وبالإضافة إلى بعد اليمن عن مقر السلطنة وصعوبة فرض السيطرة العثمانية به ، فقد كان لدى الدولة العثمانية ما يبرر لها ضعف موقفها من اليمن ، وهو ضعف البحرية البرتغالية فى ذلك الوقت وهدوء الأحوال نسبياً فى البحار الجنوبية ، وهذا ما سنوضحه فى الفصل التالى .

غير أنه مما يجب الإشارة إليه هنا ، هو أنه صاحب ضعف الدول العثمانية وعجزها عن البقاء فى اليمن ، نمو قوة يمنية جديدة هى الامامة الزيدية التى استطاعت أن تفرض وجودها فى اليمن من خلال المعارك الطويلة التى خاضتها ضد العثمانيين ، أو بالأحرى التى تزعمت ثورة اليمنيين ضد الحكم العثمانى فى خلال هذه المعارك حتى استطاعت أن تحل محل العثمانيين عند خروجهم من اليمن .

وأخيراً فإنه يمكن القول بأنه كما كان لدى العثمانيين ما شغلهم عن اليمن ، أو ما أضعفهم عن البقاء به أو الرجوع إليه فى ذلك الوقت ، فقد كان لدى اليمنيين ما دفعهم إلى محاربة العثمانيين حتى اضطروهم إلى الخروج من بلادهم .

---

(١) الكبسى : اللطائف السنية فى أخبار الممالك اليمنية (مخطوطة) ص ٢٢٢ ؛

الفصل الثامن

النشاط العثمانى فى البحار العربية الجنوبية

٩٤٥ — ١٠٤٥ هـ

١٥٣٨ — ١٦٣٥ م

سبق أن تتبعنا الغزو البرتغالى للبحار الشرقية منذ مراحله الأولى حتى تم للبرتغاليين السيطرة على هذه البحار، وحتى نجح هؤلاء فى التحالف مع الأحباش، وفى تهديد جنـــوبى البحر الأحمر حتى ميناء « جدة » شمالا. وتتبعنا أيضاً الجهود العربية المضادة التى حمل لواءها المماليك بعض الوقت، ثم تلك التى قام بها العثمانيون بعد دخولهم مصر. وقد اتضح كيف بدأت الخطوات العثمانية البحرية فى البحر الأحمر بطيئة ضعيفة، ثم كيف نمت بعد ذلك حتى وصلت ذروتها عندما تمكن العثمانيون من إرسال حملة سليمان باشا الكبيرة إلى الهند فى سنة ١٦٣٨ م، وكانت هذه الحملة دليلا قوياً على ما بذله العثمانيون من جهود بحرية ضد الغزو البرتغالى للبحار الشرقية، كما كانت أيضاً بداية لمرحلة جديدة من النشاط البحرى العثمانى تميزت ببعض السمات الخاصة بها. وقد قام سليمان باشا بعد فشله فى الهند بتثبيت السيطرة العثمانية على السواحل اليمنية، وكذلك فى باقى موانىء البحر الأحمر، فتحولت السواحل اليمنية بذلك إلى قاعدة بحرية هامة عندمدخل البحر الأحمر الجنوبى، كما تحول هذا البحر بدوره إلى بحيرة عثمانية. ولعبت هذه الحقيقة الدور الرئيسى فى رسم سياسة العثمانيين البحرية فى البحار العربية الجنوبية لفترة امتدت حوالى قرن من الزمان، وهى السياسة التى انتهت إلى منع البرتغاليين وباقى القوى الأوربية التى وصلت إلى المياه الشرقية مع نهاية القرن السادس عشر من التوغل فى البحر الأحمر. وكذلك كانت الأهمية

الاستراتيجية هي العامل الرئيسي أيضاً في حرص العثمانيين على إبقاء نفوذهم في اليمن ، بل وتدعيم هذا النفوذ كلما أمكنهم ذلك حتى خرجوا من اليمن في سنة ١٦٣٥ م . وكان هذا الترابط النابع من وحدة الهدف هو الذى جعل النشاط البحرى العثمانى فى المياه العربية الجنوبية يصاحب أو بالأحرى يسير موازياً للنشاط الحربى الذى أظهره العثمانيون بعد دخولهم إلى اليمن بقليل على يد أزدمر باشا . وفى نفس الوقت أكمل العثمانيون خطتهم ـ الحربية والبحرية ـ فى جنوب البحر الأحمر بمد نفوذهم إلى السواحل الأفريقية الشرقية المواجهة للسواحل اليمنية لإحكام غلق البحر الأحمر فى وجه البرتغاليين والقوى الأوربية الأخرى .

ويمكن القول ـ منذ البداية ـ بأن النشاط البحرى الذى أبداه العثمانيون فى البحار العربية الجنوبية بعد فتحهم لليمن ، كان نشاطاً قوياً مؤثراً رغم أنه كان محلياً ومحدوداً فى نفس الوقت ، إذ لم يتعد حدود السواحل العربية الجنوبية ، ومن ناحية أخرى كانت قوة هذا النشاط ترتبط بقوة الدولة العثمانية العامة ، ولذلك نراه يميل إلى الضعف كلما ازداد ضعف هذه الدولة ،وبالأحرى لقد سار هذا النشاط فى المرحلة التى تلت فتح السواحل اليمنية من القوة إلى الضعف ، وذلك بعكس مساره الأول قبل فتح هذه السواحل .

وقد قوبلت البحرية العثمانية فى البحر الأحمر بعد سنة ١٥٣٨ م ـ أى بعد فتحهم للسواحل اليمنية ـ بتحد برتغالى كبير . وكان لهذا التحدى فى الحقيقة رد فعل مباشر لحملة سليمان باشا الخادم إلى الهند سنة ١٥٣٨م رغم فشلها هناك، فقد أثارت هذه الحملة قلق البرتغاليين ، ودفعتهم إلى الإصرار على القضاء على هذه القوة البحرية حتى لا تظل مصدر تهديد دائم لنفوذهم ومصالحهم فى الهند. وكانت خطة البرتغاليين قد تغيرت منذ عهد اصطدامهم بالماليك من مجرد مهاجمة السفن التجارية العربية فى عرض البحار ، أو من مجرد غلق المنافذ البحرية العربية ، إلى الرغبة فى القضاء على القوة الإسلامية البحرية فى البحر الأحمر ـ

المتمثلة آنذاك فى القوة المملوكية - قضاء نهائياً وبخاصة بعد أن هددتهم هذه القوة فى الهند سنة ١٥٠٩ كما ذكرنا، وبعد أن أصبح إرسال حملة بحرية كبيرة من مصر إلى الهند موضع أمل للهنود أنفسهم للتخلص من البرتغاليين، وذلك كما أوضح البوكيرك فى أحد خطاباته إلى ملك البرتغال كما أوضحنا من قبل.

وقد ظهر التحدى البرتغالى للعثمانيين عندما تقدمت قوة بحرية برتغالية إلى البحر الأحمر فى أوائل سنة ١٥٤١ م فى محاولة للهجوم على « السويس » نفسها التى كانت موقع التجمع البحرى العثمانى فى هذا البحر، وقد فشلت هذه المحاولة بالرغم من وصول الأسطول البرتغالى إلى القرب من « السويس » وعاد أدراجه إلى السواحل الحبشية دون أن يحقق شيئاً يذكر. وكان « استافوداجاما » نائب ملك البرتغال فى الهند حينذاك — والابن الأكبر للقائد البحرى الشهير فاسكوداجاما — على رأس هذه القوة البحرية التى بلغ عدد سفنها أكثر من ثمانين سفينة.

وقد وصل استافوداجاما إلى ميناء « مصوع » فى ١٠ فبراير سنة ١٥٤١، ولكنه لم يمكث هناك غير قليل، فقد أقلع إلى « السويس » بعد ثمانية أيام فقط على رأس سبعين سفينة بعد أن ترك سفن الشحن الكبيرة فى « مصوع » تحت قيادة أحد أقربائه وهو عمانويل داجاما[1]. وقد قام استافودا جاما وهو فى فى طريقه إلى « السويس » بمهاجمة ميناء « سواكن » وجزر « دهلك » بالمدافع وخربهما وأسر بعض سكانهما، كما هاجم أيضاً بعض السفن الشراعية الصغيرة فى « القصير » و « الطور » ولم يجرؤ الأسطول البرتغالى بعد ذلك على التقدم إلى « السويس » لمباغتة الأسطول العثمانى بها؛ إذ كان الأسطول الأخير فى

(١) Castanhoso. M. ; The portuguese Expedition to Abyssinia in 1541-1543, pp. xi-xli.

حالة استعداد تام لملاقاة البرتغاليين ، وبخاصة لأن العثمانيين كانوا على وشك إرسال بعض السفن ـ حوالى اثنى عشر سفينة ـ إلى « عدن »[١] ، وكان استافوداجاما ـ بعد وصوله إلى « الطور » ـ قد أمر ثمان سفن استطلاعية بالتقدم ليلا إلى ميناء « السويس » لمعرفة الأحوال به ، فعادت هذه السفن إليه على وجه السرعة لتخبره بيقظة العثمانيين واستعداد أسطولهم ، فرأى استافوداجاما عندئذ أن يلوذ بالفرار حتى لايتعرض لهجوم العثمانيين عليه فى هذا الجزء الشمالى الضيق من خليج « السويس » وقد عزا أحد البرتغاليين فشل خطة مباغتة العثمانيين فى « السويس » إلى ماقام به أمير « سواكن » من تحذير العثمانيين بعد أن هاجمه البرتغاليون ، وبعد أن علم بحقيقة اتجاههم إلى « السويس »[٢] .

ولقد ترتب على هذا المشروع الجرىء ـ وهو محاولة مهاجمة العثمانيين فى « السويس » نفسها ـ عدة نتائج هامة تنطلق جميعها من ناحية إحساس العثمانيين بقوة الخطر البرتغالى بعد أن كان سليمان باشا الخادم قد أوهم المسئولين فى الدولة بأنه قضى تماماً على البرتغاليين فى الهند ، وتصب جميعها من ناحية أخرى فى ضرورة اتخاذ الخطوات الحاسمة اللازمة لصد هذا الخطر .

فمن ناحية البرتغاليين فقد شعر هؤلاء بخطورة الإقـــدام على مثل هذا المشروع مرة أخرى حتى لايعرضوا أساطيلهم للدمار فى داخل البحر الأحمر الذى أصبح حينئذ بمثابة بحيرة عثمانية ، ولذلك ركز البرتغاليون جهودهم بعد ذلك فى الحبشة توطئة لعمل مشترك كبير فى داخل هذا البحر .

ومن ناحية العثمانيين فقد بادروا إلى اتباع سياسة معينة ذات ثلاث شعب هى :

---

(١) Serjeant, R.B. : The Portuguese off the South Arabian Coast. pp. 98-100 (Ba Makhramah, Al Shihri, 107 a).

(٢) Castanhose, M. : Ibid, p xxxli.

أولا : غلق البحر الأحمر فى وجه البرتغاليين ، ثانياً : قطـــع الاتصال بين البرتغاليين وبين الأحباش ، ثالثاً : العمل على تطهير السواحل العربية الجنوبية من الجيوب البرتغالية المتناثرة بها .

ولهذا فيمكن القول بأن حملة استافوداجاما على « السويس » هى التى أقنعت العثمانيين بأهمية اتخاذ مثل هذه السياسة الواقعية قبـل التفكير فى إرسال حملة بحرية أخرى إلى الهند . وقد اتضحت ملامح السياسة العثمانية الجديدة فى أكثر من ناحية ، فمن ناحية بدأت السفن العثمانية ـ كما ذكر أحد البرتغاليين المعاصرين ـ تطوف بانتظام بأنحاء البحر الأحمر ، حتى جعلت الاتصال بين الحبشة والهند نوعاً من المخاطرة[١] . ومن ناحية أخرى بدأ العثمانيون يزيدون من اهتمامهم باليمن وتدعيم نفوذهم به ، كما عملوا على زيادة عدد قواتهم هناك وذلك كما حدث فى عهد مصطفى باشا النشار أول ولاتهم باليمن ، ثم فى عهد أويس باشا بعد ذلك بصفة خاصة .

وهكذا فيمكن القول بأنه إذا كانت حملة « لوبوسوارين » على « جدة » عام ١٥١٧ هى التى جذبت بقوة أنظار العثمانيين بعد فتحهم لمصر مباشرة إلى الخطر البرتغالى ، فقد كانت حملة «استافوداجاما على «السويس» سنة ١٥٤١ م هى التى دفعت العثمانيين إلى زيادة قوتهم البحرية فى البحر الأحمر ، وإلى تشديد قبضتهم على ممتلكاتهم فى اليمن .

وكان العثمانيون مضطرين من ناحية إلى اتخاذ مثل هـــذه الإجراءات باعتبارها ضرورة حربية ، ولشعورهم كذلك بالمسئولية أمام معاصريهم من المسلمين . وقد عبر أحد هؤلاء المعاصرين عن استيائه لتخاذل العثمانيين أمام البرتغاليين عند هجوم هؤلاء على « سواكن » و « دهلك » ونهب وأسر

---

(١) Stripling; G.W.F. : The Ottoman Turks and the Arabs, 1511-1574, p. 93.

أهالبهما، فقال متهكما بأن هذه الأحداث قد وقعت بينما كانت « عدن » و « زبيد » مزدحمتين بالجنود والمعدات العثمانية[١] .

وكذلك لفتت حملة استافو داجاما أنظار العثمانيين إلى ميدان جديد هو الميدان الحبشى ، فقد اضطرتهم الأحداث الحالية هناك إلى أن يرسلوا أول حملة عسكرية لهم إلى داخل الحبشة منذ وقت مبكر أثناء ولاية مصطفى باشا النشار ، وذلك بناء على طلب الزعيم الحبشى المسلم أحمد جران[١] . وكان استافو داجاما قد اعتذر لأباطرة الحبشة عن تقديم يد المساعدة إليهم عند وصوله إلى « مصوع » لأول مرة لانشغاله بمواصلة السير إلى « السويس » ، ولكنه قبل هذه الدعوة عند رجوعه إلى « مصوع » وذلك حتى يدعم نفوذ البرتغاليين فى الحبشة ، وحتى يعرض فشل حملته فى « السويس » . وقد قام ستافودا جاما عندئذ بإعداد حملة من أربعمائة جندى مجهزين بأحدث الأسلحة والمعدات، تحت قيادة أخيه الأصغر « كريستوفر داجاما » وكان من بين هؤلاء الجنود حوالى سبعين عاملا فنياً ممن أعدوا فى الهند للاقامة فى الحبشة ، كما ضمت الحملة إليها مائة وثلاثين شخصاً من أهالى البلاد لخدمة جنود الحملة ولحمل أثقالهم بل ولمساعدتهم فى المعارك لأنهم كانوا فى الحقيقة محاربين أقوياء وقد تم تجهيز هذه الحملة وإرسالها إلى داخل الحبشة فى ٩ يوليه سنة ١٥٤١ ، فعاد عندئذ

---

(١) Serjeant, R.B. : Ibid, P. 98. (Ba Makhramoh: Al-Shibri, 107 a).

(٢) هو أحمد بن ابراهيم المجاهد ، ويطلق عليه أحمد جان أى الأشول ، كما يطلق عليه أحمد جراد المجاهد، ويطلق الأحباش لقب جراد على أمراء المقاطعات الإسلامية التابعة للأباطرة ، ولكن المسلمين هناك يطلقونه عموماً على الحكام الإقطاعيين . ويقال إن أحمد جران قد قتل فى سنة ٩٥٠ ﻫ (١٥٤٤/٣ م) . وذكر العيدروس (النور السافر : ص ١٩٨ — ١٩٩) فى ترجمته « واستفتح كثيراً من بلاد الحبشة وقهر الكفار وواظب على الجهاد والغزو فى سبيل الله ، ونقل عنه فى ذلك ما يبهر العقول حتى سمعت بعضهم يقول ما تشبه فتوحاته إلا بمثل فتوحات الصحابة » .

ستافو داجاما على رأس الأسطول إلى الهند[1] . وقد أحرز الحلفاء من الأحباش والبرتغاليون فى بداية النصر على الإمام أحمد جران لوفرة الأسلحة النارية البرتغالية ، فاضطر الإمام إلى التقهقر إلى « زابول » على الحافة الشرقية للهضبة الحبشية انتظاراً للمدد المتوقع من حلفائه حكام الجزيرة العربية .

وكانت الحــرب قد اشتد أوارها بين الإمام أحمد وأباطرة الحبشة فى المدة السابقة ، وكان النصر حليف الإمام أحمد الذى استطاع أن يستولى على إقليم « هرر » ويضمه إليه ، والذى كان قد أسر ابن الامبراطور فى إحدى المعارك . وكانت هزائم أباطرة الحبشة المتكررة تدفعهم دفعاً إلى الإلحاح فى طلب المساعدة من البرتغاليين حتى استجاب « ستافو داجاما » أخيراً لهذا الإلحاح فأرسل الحملة المذكورة تحت قيادة أخيه كما أشرنا . وقد اشتكى إمبراطور الحبشة فى خطاب أخير له وجهه إلى القس « برمودز » — أحد القساوسة البرتغاليين المقيمين فى الهند — من ضعف قواته ، ومن خروج بعض أتباعه عليه ، ثم ألح فى طلب مساعدة البرتغاليين له حتى يتمكن من الوقوف أمام أعدائه الأمراء المسلمين المحيطين به . والقس برمودز[2] هذا أحد القساوسة المغامرين الذين كانوا ينظرون إلى الحبشة باعتبارها ميداناً خصباً لتحقيق طموحهم . وكان « برمودز » يطمع فى فصل كنيسة الحبشة عن كنيسة مصر ليتولى هــو رئاستها ، ولكن ساءت سيرته فى الحبشة واتضحت أطماعه فطرده النجاشى من بلاده ، وكان النجاشى قد شكاه إلى ملك البرتغال فى خطاب له مؤرخ فى ١٣ مارس سنة ١٥٤٦ م ، فأعلن الملك تبرأه منه ، وطلب من النجاشى أن يعاقبه بما يراه[3] . وكان وجود القس

(١) Castanhoso T. : The Portguese Expedition to Abyssinia 1541-1543. pp xli-xlv.

(٢) Ibid : pp. 107-108.

(٣) Ibid : pp. 110-112.

« برمودز » بين بحارة السفن التى أقامت أمام ميناء «مصوع» أثناء توجه ستافو داجاما إلى « السويس » ، من العوامل الهـــامة التى دفعت استافو داجاما إلى الإسراع فى إرسال حملته إلى النجاشى . فقد نجح « برمودز » فى هذه الأثناء فى تحريض البحارة على ضرورة الدخول إلى الحبشة للتمتع بالحياة الناعمة فوق هضابها ، أو بالجنة المنتظرة هناك على حد قوله . وقد أدت هذه الدعايات إلى هروب مائة جندى من على ظهر السفن إلى داخل الحبشة أثناء غيبـة استافو داجاما فى شمال البحر الأحمر . ولـكنهم لقوا حتفهم جميعاً بعد قليل من نزولهم إلى البر على يد قوات الإمام أحمد جران[1].

وكيفما كان الأمر ، فقد سارع الإمام أحمد جران إلى طلب المعونة من العثمانيين فى « زبيد » بعـد أن ألحقت به الهزيمة أمام الأحباش وحلفائهم البرتغاليين . وذلك باعتبار أن العثمانيين كانوا أقوى قوة إسلامية فى الشرق العربى فى ذلك الوقت ، فأرسل إليه مصطفى باشا النشار حملة مكونة من خمسمائة جندى — وقيل تسعمائة — مزودين بالبنادق ، كما أرسل مع الحملة عشرة مدافع كبار . وقد اتخذ الصراع المحلى فى الحبشة عندئذ صفة الصراع الدولى وذلك لوقوع الصدام بين العثمانيين والبرتغاليين فى هذا الميدان الصغير ، وقد استطاع الإمام أحمد جران ، بفضل مساعدة حلفائه العثمانيين ، أن يحقق انتصاراً ساحقاً على أعدائه الأحباش وحلفائهم البرتغاليين أدى إلى القضاء على أغاب جنود الحملة البرتغالية ، وإلى تشتت قوات النجاشى .

ولم يستقر بالعثمانيين المقام فى الحبشة بعد هذه الحروب بل عادوا بعـد وقت قصير إلى « زبيد » ، وقيل إن الإمام أحمد هو الذى عمل على التخلص منهم لمضايقة بعض الجنود له طمعاً فى المزيد من الأموال والمكافآت[2].

---

(١) Castanhoso : Ibid, pp. xli-xlv.

(٢) Serjeant, R.B. : Ibid, pp. 102-104, (Ba Makhramah, Al-Shibri, 111 a).

كما قيل إن سبب الخلاف بينه وبين العثمانيين هو تسرع الإمام فى قتل قائد الحملة البرتغالية كريستوفر داجاما بعد أسره، بينما كان العثمانيون يرغبون فى إرساله حياً إلى استانبول للتدليل على نجاح جهودهم فى الحبشة[١]. ونحن نرى أن هذين السببين ليسا إلا تعبيراً عن مواقف فردية فقط من ناحية بعض الجنود والأمراء العثمانيين، وأن السبب الحقيقى لعودة الحملة العثمانية من الحبشة إلى اليمن هو أن المسئولين فى الدولة العثمانية لم يكونوا قد قرروا بعد التوسع فى الأراضى الحبشية، بل كانوا يكتفون باستيلائهم على «سواكن» فقط منذ حملة سليمان باشا الخادم إلى الهند لتكون موضع قدم لهم على الساحل الإفريقى، وأن توسع العثمانيين فى الأراضى الحبشية لم يحدث إلا بعد ذلك بعدة سنوات على يد أزدمر باشا بعد عزله من ولاية اليمن.

ولم يقف نجاح العثمانيين فى ذلك الوقت عند حدود الميدان الحبشى الداخلى، بل نجحوا بحرياً أيضاً فى قطع الاتصال بين الأحباش والبرتغاليين، فقد قامت السفن العثمانية «بعدن» بمهاجمة خمس سفن برتغالية وأجبرتها على الفرار، وذلك قبل وصولها إلى ميناء «مصوع» لتقديم الإمدادات اللازمة للحملة البرتغالية فى الحبشة، وكان استافو داجاما قد وعد أخاه بمده بالجنود والمعدات فور عودته إلى الهند، ولكنه لم يتمكن من ذلك حتى تعرضت حملة البرتغاليين فى الحبشة للهلاك كما ذكرنا. وقد ازدادت أوضاع البرتغاليين فى الحبشة سوءاً بعد ذلك، فقد قرر نائب ملك البرتغال — الذى خلف ستافو داجاما مؤقتاً — منع أية محاولة للاتصال بالبرتغاليين الذين فى الحبشة نظراً لخطورة النشاط البحرى العثمانى حول السواحل الحبشية وقتذاك[٢].

---

(١) Serjeant, R. B. : Ibid, p. 103, Note 3.

(٢) Castanhoso, M. : The Portuguese Expedition to Abyssinia in 1541-1543., P. L.

وهكذا يتضح مدى ما أظهره العثمانيون من نشاط بحرى بعد فتحهم لليمن مباشرة ، ويلاحظ أنه بالرغم مما اتسم به هذا النشاط من قوة وحيوية ، فقد كان فى مجمله دفاعاً عن النفس أكثر منه هجوماً على البرتغاليين كما كان الحال بالنسبة لحملة سليمان باشا الخادم على الهند . وقد نجح العثمانيون فى ذلك الوقت فى تأكيد وجودهم فى حوض البحر الأحمر باعتبارهم قوة بحرية ذات وزن كبير ، فقضوا على مساعدة البرتغاليين للنجاشى فى داخل الحبشة كما أثروا بصورة فعالة فى الإتصال البحرى بين الحبشة وقواعد البرتغاليين فى الهند . وقد أجبر هذا كله البرتغاليين على أن يخطبوا ود العثمانيين ، وعلى أن يتقربوا منهم ، ولكن لم تؤد الخطوات التى اتخذت فى هذا الشأن إلى نجاح يذكر .

وكان خوف البرتغاليين من أن توجه الدولة العثمانية اهتمامها وجهودها الحربية حينئذ إلى الهند إذا واصلوا نشاطهم فى البحر الأحمر ، هو السبب الرئيسى الذى جعلهم يحدون من نشاطهم فى البحر الأحمر ، وبخاصة لأن البرتغاليين كانوا يدركون جيداً مدى قوة الدولة العثمانية فى ذلك الوقت . وقد حاول ملك البرتغال فى أواخر سنة ١٥٤١ م نفسها تفادى الصدام مع الدولة العثمانية ؛ لأنه فضل عدم الاستمرار فى إثارتها كما حدث عندما هاجم ستافو داجاما السويس فى بداية هذا العام — فحاول عقد إتفاق تجارى مع العثمانيين ينص على إحضار كميات معينة من الفلفل إلى الموانى العثمانية مقابل أن يسمح العثمانيون للسفن البرتغالية بالتجول فى البحر الأحمر ، ولكن لم تسفر المفاوضات حينئذ عن أية اتفاقيات[١] . وفشلت كذلك محاولات البرتغاليين بعد ذلك فى سنة ١٥٤٤ م عندما توجه السفير البرتغالى « أودوردو

---

(١) Stripling, G.W.F. : The Ottoman Turks and the Arabs, 1511.1574, p. 93.

كتانو Odoardo Cataneo إلى « استانبول » فى هذه السنة لعقد الصلح بين الباب العالى والبرتغال[1] .

وقد واصل العثمانيون جهودهم البحرية فى البحار الغربيـــة الجنوبية عند منتصف القرن السادس عشر أى بعد وقوع الأحداث السابقة بسنوات قليلة ، ويلاحظ هنا عدة أمور :

أولا : كان هذا الجهد استمراراً لخطة العثمانيين البحرية فى المياه الشرقية وهى غلق البحر الأحمر مع قطع الإتصال بين الحبشة والبرتغاليين ، وتطهير السواحل العربية الجنوبية من الجيوب البرتغالية المتناثرة بها .

ثانياً : اتخذ هذا الجهد البحرى ميداناً محلياً هو السواحل العربية الجنوبية فقط ، فلم يفكر العثمانيون حينئذ فى إرسال حملة بحرية كبيرة أخرى إلى الهند ، كما حدث فى عام ١٥٣٨ م .

ثالثاً : كان هذا الجهد البحرى تعبيراً عن قوة الدولة العثمانية حينذاك ، ولذلك نراه يصاحب الجهد الحربى البرى الذى أظهره العثمانيون فى داخل اليمن وبخاصة على يد أزدمر باشا .

وكانت اضطرابات الخليج العربى فى ذلك الوقت هى السبب المباشر لما أظهره العثمانيون حينئذ من جهد حربى ملحوظ ، وكان النفوذ العثمانى قد امتد اسمياً إلى سواحل الخليج العربى فى المنطقة الشمالية ، فقد دخل أمراء « البصرة » و « القطيف » و « البحرين » فى طاعة العثمانيين أثناء فتح السلطان سليمان القانونى للعراق سنة ١٥٣٤م . ثم امتد النفوذ العثمانى بصفة فعلية إلى « البصرة » فى سنة ٩٥٣ هـ (١٥٤٧/٦ م) بعد أن طرد العثمانيون أميرها العربى — الأمير راشد بن مغامس — الذى كان قد خلع طاعتهم قبـــل ذلك

---

(1) Hammer, J. : Histoire de L'Empire Ottoman, Tome 17., p. 150.

بقليل[1] . وفى سنة ١٥٥٠ ، سلم أمير « القطيف » قلعته للعثمانيين ، فأثارت هذه الأحداث جميعها ذعر البرتغاليين فى « هرمز » . وقد سبق أن أوضحنا أنه كان للبرتغاليين السيطرة على الملاحة فى الخليج العربى نتيجة استيلائهم على مملكة « هرمز » التى تقع عند مدخل هذا الخليج والتى كانت تضم جزيرة « هرمز » وما يحيط بها من جزر صغيرة ، وكذلك الشريط الساحلى العربى المواجه لها . وقد وطد البرتغاليون نفوذهم فى هذه المملكة بعد بناء الحصون القوية بجزيرة « هرمز » وباقى المدن الساحلية الهامة وبعد أن تنازل لهم شاه فارس عن سيادته على هذه المملكة مقابل مساعدتهم له ضد العثمانيين كما ذكرنا فى الفصل الثانى .

ولقد بدأ الصدام بين العثمانيين والبرتغاليين عندما استنجد أمير « البصرة » الطريد بالبرتغاليين ، فقد طلب منهم مساعدته فى استعادة أملاكه مقابل أن يسمح لهم ببناء حصن فى ميناء « البصرة » . وقد رحب البرتغاليون بهذه الفرصة للقضاء على النفوذ العثمانى الذى برز فى شمال الخليج العربى وأصبح خطراً يهدد نفوذهم فى جنوب هذا الخليج . ولذلك قام البرتغاليون فى الهند بإرسال حملة بحرية كبيرة إلى الخليج تتكون من تسع عشرة سفينة ، ومن ألف ومائتى جندى ، فهاجمت قلعة « القطيف » بالمدافع وضربتها ، ثم هاجمت « البصرة » ، ولكنها لم تنجح هناك تماماً كما نجحت فى « القطيف » ، وذلك بفضل حيلة حاكمها العثمانى وخداعه لقائد الحملة[2] . ولهذا كله قرر السلطان سليمان إرسال حملة بحرية إلى الخليج العربى لمحاربة النفوذ البرتغالى به ، وللاستيلاء على جزيرة « هرمز » وإلحاق إدارتها « بالبصرة »[3] . وقد تم تجهيز هذه الحملة البحرية فى « السويس » ، وكانت تتكون من ثلاثين سفينة من

---

(١) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ، جـ٤ ، ص٩٤ .
(٢) Wilson; A. T. : The Persian Gulf, pp. 124—125.
(٣) بجوى إبراهيم باشا : تاريخ بجوى (باللغة التركية) ، جـ١ ، ص٣٠١ .

مختلف الأنواع والأحجام ، وعندئذ غادر بيرى باشا — أو بيرى ريس سنة قبودان مصر « السويس » فى سنة ٩٥٩ هـ (١٥٥٢/١ م) على رأس الأسطول ، فمر « بعدن » للتزود منها ، ثم هاجم البرتغاليين فى « مسقط» فاستولى على قلعتهم بها ، كما نجح فى أسر قائد حاميتها . وتقـــدم بيرى باشا بعد ذلك إلى جزيرة « هرمز » نفسها ، فحاصرها حصاراً شديداً ، ولكنه فشل فى الإستيلاء عليها فى النهاية ، فاضطر إلى الإنسحاب إلى « البصرة »[١] . وقد أعدم بيرى باشا بعد عودته إلى مصر لإتهامه بالخيانة ، وذلك لانسحابه إلى « البصرة » دون الإستيلاء على « هرمز » بعد أن كادت تسقط فى يده ، وقد قيل إن انسحابه هذا يرجع إلى قبول الرشوة من البرتغاليين ؛ إذ أن المحاصرين الملاعين أعطوا القبودان بيرى مقداراً من المـال وأرضوه ، فأقلع عن هرمز وقصد البصرة ومكث بها[٢] . وكان رجوع بيرى باشا بمفرده إلى مصر على ظهر سفنه الخاصة الثلاث بعد أن ترك باقى الأسطول « بالبصرة » ، هو الذى أكد خيانته أمام المسئولين ، فقد وقع بيرى باشا تحت تأثير خديعة أسيره قائد « مسقط » البرتغالى الذى أوهمه بزحف أسطول برتغالى كبير إلى الخليج العربى ، وبأن عليه أن يسارع بالهرب قبل أن يغلق البرتغاليون مضيق « هرمز » فى وجه الأسطول العثمانى . ولما كانت حالة الأسطول لا تسمح له بمغادرة البصرة على الفور ، فقد قـــرر بيرى باشا عندئذ أن يبحر بسفنه الثلاث فقط إلى مصر — بعد أن ملأها بأمواله وممتلكاته الخاصة — على أن يترك باقى الأسطول فى «البصرة » . وقد قبض عليه والى مصر عند وصوله إليها ، وكتب إلى السلطان سليمان بما وقع من أحداث ، فأمر السلطان بإعدام بيرى باشا ، وبمصادرة أمواله الوفيرة[٣] .

(١) سولاق زاده : تاريخ صولاق زادة (باللغة التركية) ، ص ٥٣٤ و Haji Khalifeh : The History of the Maritime Wars of the Turks, p. 71. ...

(٢) بجوى إبراهيم باشا : نفس المرجع ، ص ٣٥١ .

(٣) Haji Khalifeh : The History of the Maritime Wars of the Turks, pp. 71—72.

وقد تبلور نشاط العثمانيين البحرى فى الفترة التالية فى إنقاذ الأسطول العثمانى المقيم فى « البصرة » حتى لايتعرض لهجوم البرتغاليين عليه ، فأمر السلطان سليمان مراد بك سنجق « القطيف » السابق ، والذى كان يقيم فى « البصرة » حينئذ بأن يبحر على رأس سبع عشرة سفينة إلى « السويس » ، وبأن يترك باقى قطع الأسطول فى « البصرة » . وقد فشل مراد بك فى مهمته ، واضطر إلى الرجوع إلى « البصرة » بعد أن وصل إلى مضيق « هرمز » ، وذلك بعد أن قامت بينه وبين أسطول برتغالى معركة كبيرة بالقرب من هذا المضيق . وقد تكبد العثمانيون بعض الخسائر فى الأرواح فى هذه المعركة ، كما جنحت إحدى سفنهم على الشاطىء الفارسى أثناء الإنسحاب بعد أن توقف القتال عند المساء[١] .

وبذل العثمانيون جهداً جديداً لانقاذ أسطولهم فى البصرة ، فأصدر السلطان سليمان أمره بتعيين « سيدى على ريس » قبوداناً لمصر على أن يتوجه مباشرة من « حلب » — حيث كان يوجد السلطان عندئذ — إلى « البصرة » لاعادة الأسطول إلى السويس . ويعتبر سيدى على ريس من أشهر أمراء البحر العثمانيين الذين ظهروا فى القرن السادس عشر ، فقد اشترك مع السلطان سليمان فى الاستيلاء على جزيرة « رودس » سنة ١٥٢٢ ، كما اشترك فى كثير من المعارك البحرية فى البحر المتوسط تحت قيادة كبار القادة البحريين العثمانيين أمثال خير الدين بربروس وسنان باشا وغيرهما ، وذلك قبل أن يكلفه السلطان بالقيام بهذه المهمة .

وقد اهتم سيدى على بإصلاح السفن وبإعدادها للسفر فور وصوله إلى البصرة فى صفر سنة ٩٦١ هـ (فبراير سنة ١٥٥٤)[٢] . وعندما حل موسم

---

(١) Haji Khalifeh : The History of the Maritime Wars of the Turks, p. 72.

(٢) Sidi Ali Reis : The Travels and Adventures, Translated from the Turkish by A. Vambery, p. 7.

الرياح ، رغب سيدى على فى الكشف عن وجود أسطول برتغالى عند مضيق « هرمز » وذلك قبل أن يبدأ رحلته إلى مصر ، فأمر والى « البصرة » أحد بحارته بالتجول على ظهر إحدى السفن الخفيفة فى أنحاء الخليج العربى حتى مضيق « هرمز » للتجسس على أخبار البرتغاليين فى هذا الخليج. وقد غادر سيدى على « البصرة » فى شوال ٩٦١هـ (أغسطس /سبتمبر ١٥٥٤م) على رأس خمس عشر سفينة تقريباً بعد أن طمأنه هذا البحار بعدم وجود أية أساطيل برتغالية فى الخليج[١].

وقد فشل سيدى على أيضاً فى الوصول بأسطوله إلى « السويس » رغم عبوره مضيق « هرمز » فى سلام ، ورغم ما أظهره من شجاعة كبيرة ، ومهارة فائقة فى الشئون البحرية . ويرجع هذا الفشل فى الحقيقة الى ماقابله سيدى على من صعوبات وعقبات غير متوقعة ، فقد اضطر سيدى على الى أن يخوض معركتين كبيرتين ، الأولى ضد الأساطيل البرتغالية التى واجهته والتى كان عدد سفنها يفوق عدد سفن أسطوله ، والمعركة الثانية ضد الظروف الطبيعية السيئة وهى التى ألحقت الهزيمة بسيدى على فى الحقيقة ، فقذفت بسفنه فى النهاية الى ساحل (كجرات) بالهند.

وقد بدأ صدام سيدى على بالبرتغاليين بعد عبوره مضيق « هرمز » بقليل فقد واجه أمام ساحل « ظفار » بالقرب من « خورفكان » أسطولا برتغالياً كبيراً يتكون من خمس وعشرين سفينة . فوقعت بين الطرفين . معركة كبيرة « تعجز كلماته عن وصفها كما قال »[٢] . وقد دارت هذه المعركة بعد أربعين يوما من مغادرة سيدى على « للبصرة » أى فى ١٠ رمضان سنة ٩٦١هـ (٩ أغسطس ١٥٥٤ م) . فاستمر القتال طوال نهار ذلك اليوم حتى أرخى الليل سدوله فانسحب الأسطول البرتغالى إلى الشرق ناحية « هرمز » وواصل سيدى علـــى رحلته تجاه الغرب أمام الساحل العمانى حتى وصل إلى

(١) Sidi Ali Reis : The Travels and Adventures, p. 9.

(٢) Ibid : p. 11.

القرب من «مسقط» وهناك وفى صباح ١٦ «رمضان سنة ٩٦١ هـ (١٥ أغسطس ١٥٥٤ م) ، أى بعد ستة أيام فقط من الصدام الأول ، وقع الصدام البحرى الثانى والأخير بين البرتغاليين وبين سيدى على ، فقد قام أسطول برتغالى كبير مكون من اثنتين وثلاثين سفينة بمهاجمة أسطول سيدى على الصغير . وقد دارت بين الطرفين معركة رهيبة تكبد فيها كل منهما خسائر جسيمة فى الأرواح ، كما تعطلت بعض السفن ، وجنح بعضها الآخر إلى الساحل العمانى حيث أحسن الأهالى العرب استقبال العثمانيين الجرحى أو الذين سبحوا إلى الساحل ، وانتهت هذه المعركة دون أن يحقق أحد الطرفين نصراً محققاً[١] .

أما معركة سيدى على مع الطبيعة فقد بدأت فى مساء يوم المعركة مع البرتغاليين ، ففى هذا المساء اشتدت الرياح إلى درجة كبيرة حتى أبعدت أسطول سيدى على عن الشاطئ العربى تماماً ، وقذفت به إلى ساحل « كرمان» الفارسى فاضطر إلى التجول هناك لمدة يومين حتى تمكن من أن يرسو فى أحد الموانى المجاورة وهو ميناء « جوادور » الهندى على ساحل « بلوخستان » . وقد أحسن حاكم هذا الميناء المسلم استقبال سيدى على ورفاقه عندما علم أنهم عثمانيون ، وأمدهم بما يحتاجونه من ماء وطعام ، كما أرسل معهم — بناء على طلب سيدى على — أحد البحارة المهرة ليعود بهم إلى الشاطئ العربى[٢] .

وبدأت جولة سيدى على الثانية ضد الطبيعة بعد أن اقترب أسطوله ثانية من ميناء « ظفار » على الساحل العمانى فقد هبت فجأة عاصفة شديدة ، وساء الجو كثيراً ، وعم الظلام ، حتى أصبح النهار يشبه الليل ، واستمرت هذه الأحوال السيئة عشرة أيام ، وفى نهاية هذه المدة وقع الأسطول العثمانى

---

(١) Sidi Ali Reis : The Travels and Adventures, pp. 12—14.

(٢) Ibid : p. 16.

أسير دوامة كبيرة، كادت أن تودى إلى غرق جميع قطعه لولا مهارة سيدى على البحرية، وتشجيعه المستمر لبحارته وسط هذه الظروف القاسية. ولم تهدأ هذه الدوامة حتى وجد العثمانيون أنفسهم أمام ساحل كجرات بالهند، وهناك وقع العثمانيون أسرى دوامة كبيرة أخــرى أفقدتهم السيطرة على سفنهم، وحطمت بعضها، ثم وجدوا أنفسهم فى النهاية أمام ميناء « دامان » بكجرات[١]. وقد رست سفن سيدى على أمام هذه الميناء بعد جهاد عنيف آخر استمر خمسة أيام، فنصحه حاكم « دامان » بضرورة السير إلى ميناء « سورات » حتى لا يتعرض لهجوم السفن البرتغالية، فسار سيدى على إلى ميناء « سورات » والتجأ إليه أخيراً. وذلك بعد مرور ثلاثة أشهر كاملة من مغادرته للبصرة[٢].

ونظراً لهذه الظروف القاسية التى واجهها جنود هذه الحملة، ولأنهم رأوا استحالة عودتهم إلى مصر بحراً، فقد قرر أغلب الجنود الدخول فى خدمة أمراء كجرات والاستقرار فى الهند، أما سيدى على فقد أصر هو وخمسون من جنوده فقط على العودة براً إلى استانبول وذلك بالرغم من إلحاح سلطان كجرات عليه بالدخول فى خدمته مقابل أجر كبير[٣]. ولم يكن قد تبقى مع سيدى على إلا ست سفن فقط، فقام بتسليمه إلى حاكم « سورات » على أن يدفع ثمنها فيما بعد إلى السلطان العثمانى. وأخيراً بدأ سيدى على رحلته البرية المثيرة فى صفر سنة ٩٦١ هـ (ديسمبر / يناير سنة ١٥٥٥ م) إلى استانبول، فوصل إلى هناك فى أول رجب سنة ٩٦٤ هـ (٢٠ أبريل ١٥٥٧ م) أى بعد أكثر من عامين من مغادرته لكجرات[٤].

---

(١) Sidi Ali Reis : The Travels and Adventures, : p. 23.

(٢) Ibid : p. 26.

(٣) Ibid : p. 33.

(٤) Ibid : pp. 105-106.

وهكذا انتهى أمر الحملة البحرية التى أرسلها العثمانيون من «السويس» لتطهير السواحل العربية الجنوبية من الجيوب البرتغالية المتناثرة بها. ورغم فشل هذه الحملة كما يبدو من النهاية التى انتهت إليها، فقد نجحت هذه الحملة فى إحراز بعض الانتصارات، فاستولت على ميناء «مسقط» الهام من أيدى البرتغاليين وزعزعت لأول مرة النفوذ البرتغالى القوى فى الخليج العربى، بل وكادت أن تقضى نهائياً على هذا النفوذ لولا فشل بيرى باشا فى الاستيلاء على جزيرة «هرمز».

ولقد أكمل العثمانيون حينذاك هذه الجهود البحرية بجهود حربية فى داخل الحبشة نفسها، فقد أظهر العثمانيون اهتمامهم بهذا الميدان الهام لمطاردة البرتغاليين هناك من ناحية، ولإحكام غلق البحر الأحمر من ناحية أخرى. وقد تدعم نفوذ العثمانيين فى الحبشة كما أشرنا على يد أزدمر باشا بعد عزله من اليمن، بعد أن كان نفوذ العثمانيين هناك لايتعدى حدود نيابة «سواكن» التى كانت لاتضم سوى ميناءى «سواكن» و «زيلع» اللذين ورثهما العثمانيون عن المماليك بعد استيلائهم على مصر، وقد لمس أزدمر باشا أثناء ولايته لليمن مدى أهمية مد النفوذ العثمانى إلى الحبشة بالنسبة للصراع الدائر بين العثمانيين والبرتغاليين فى جنوب البحر الأحمر، كما لمس أيضاً مدى ضعف نيابة «سواكن» واضطراب أحوالها أثناء عودته من اليمن. وكان أزدمر باشا قد فضل العودة إلى «استانبول» بعد عزله من اليمن عن طريق سواكن، وليس عن طريق «جدة» كعادة أغلب ولاة اليمن العثمانيين، وذلك لفتور العلاقة وقتذاك بينه وبين شريف مكة. وقد اهتم السلطان سليمان كثيراً بمشروع أزدمر باشا الذى عرضه عليه عند مقابلته

---

* (قام سيدى على أثناء عودته عن طريق البر بالمرور على عدة بلاد هى: السند والبنجاب وأفغانستان وخورسان وأذربيجان وفارس. وقد وصف هذه الرحلة الطويلة فى كتابه هذا الذى يعد من أهم كتب الرحلات فى تلك الفترة).

فى «استانبول» ، والذى كان يقضى بتدعيم النفوذ العثمانى على ساحل الحبشة ، وبتوسيع مداه ، فأرسله السلطان إلى مصر لتجهيز جيش بها ، وللسير منها إلى الحبشة لفتح بعض جهاتها . وقد سار أزدمرباشا براً من القاهرة على رأس ثلاث آلاف جندى عن طريق صعيد مصر ، فنجح حينذاك فى السيطرة على بعض جهات النوبة ، كما استولى على بعض الأقاليم الساحلية حول «سواكن» . ولقد تم عندئذ تكوين «ولاية الحبش» ، وأصبح أزدمر باشا أول وال لها حتى توفى بها فى سنة ٩٦٧ هـ (٥٩/١٥٦٠م)[١] . وقدظلت هذه الولاية مقصورة على المناطق الساحلية ، وأصبح ميناءا (سواكن) و (مصوع) أهم مراكزها ، كما ألحق بها ميناء (جدة)[٢] .

وهكذا تتضح لنا الجهود البحرية والحربيةالتى بذلها العثمانيون عقب دخولهم اليمن حتى الخمسينات من القرن السادس عشر الميلادى ، والتى بلغت قمتها فى حملة بيرى باشا على جزيرة (هرمز) بعد استيلائه على ميناء (مسقط) . وقد تضاءلت جهود العثمانيين البحرية بعد ذلك فى هذه المناطق ، فلم يقم العثمانيون بنشاط بحرى ملحوظ إلا حوالى عام ٩٨٠ هـ (١٥٧٣/٢ م) ، وتركزت أهمية السواحل اليمنية بعد جهود سيدى على فى البحار الجنوبية فى كونها قاعدة بحرية لغلق البحر الأحمر فقط ولم تعد نقطة انطلاق لحملات كبيرة إلى الهند ، أو حتى إلى الخليج العربى .

وقد ارتبط تضاؤل النشاط البحرى العثمانى فى المياه الشرقية إلى حد كبير بضعف النشاط البرتغالى منذذلك الحين فى هذه البحار ، وبضعف النفوذ البرتغالى فى داخل الحبشة . وكانت البرتغال فى ذلك الوقت تبذل محاولة كبيرة وأخيرة

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٢٨ أ — ٢٨ ب .
(٢) ساطع الحصرى : البلاد العربيـة والدولة العثمانية ، ص ١٣٧ (الملحق الأول الخاص بالأيالات العربية فى أوائل القرن السابع عشر) .

لتدعيم نفوذها فى الحبشة ، وذلك بربط كنيستها الأرثوذكسية بالكنيسة البرتغالية الكاثوليكية .

وبدأ البرتغاليون يتخذون الخطوات العملية لتنفيذ هدفهم فى سنة ١٥٤٦م، ففى خطاب مؤرخ فى ١٣ مارس من هذا العام من ملك البرتغال إلى النجاشى ، صرح الملك بأنه سيرسل بطريركا من قبله لرياسة الكنيسة الحبشية ، وليهدى الأهالى إلى الطريق المستقيم وليساعد النجاشى فى تدبير شئونه)[١] ، وكان غرض ملك البرتغال من وراء هذا التصريح هو جس نبض النجاشى فيما نرجح، ولكن رد النجاشى كان رداً غامضاً عاماً ، إذ لم يقطع برأى محدد فى هذا الأمر حتى لا يحرم نفسه من مساعدات البرتغاليين له . وذلك بسبب حاجته إلى هذه المساعدات حتى ذلك الحين . وتلى ذلك أن أمر ملك البرتغال فى سنة ١٥٥٤م نائبه فى الهند بأن يرسل من قبله أحد مندوبيه إلى الحبشة ليكتب تقريراً مفصلا عن حقيقة الأوضاع بها ، فعاد هـذا المندوب إلى الهند فى مايو سنة ١٥٥٦ م بعد أن أمضى حوالى عام بالحبشة ليؤكد أن النجاشى ليس لديه نية تغيير عقيدة أسلافه ، وربط نفسه بالكنيسة الكاثوليكية . غير أن ملك البرتغال كان يعمل جاداً فى هذه الأثناء لإعداد البعثة الدينية المزمع إرسالها إلى الحبشة ، ووصلت هذه البعثة بالفعل إلى الهند فى نهاية سنة ١٥٥٦ قبل أن يعرف الملك حقيقة موقف النجاشى من هذا المشروع . وقد أحرجت هذه الخطوة موقف نائب الملك فى الهند الذى عجز عن تنفيذ أوامر الملك التى كانت تقضى بإرسال هـذه البعثة إلى الحبشة على ظهر أسطول كبير ، وبصحبة قوة عسكرية مكونة من خمسمائة جندى ، وذلك لمعرفة نائب الملك بحقيقة موقف النجاشى المعادى من ناحية ، ولأنه كان ينقصه المال والرجال والمعدات اللازمة لإعداد هذه الحملة .

---

(١) Castanhoso, M. : The Portuguese Expedition to Abyssinia in 1541-1543, pp. 110-112.

ولذلك فقد قرر نائب الملك عدم إرسال البطريرك البرتغالى إلى الحبشة، والاكتفاء بإرسال مندوب عنه لاتخاذ الخطوات التمهيدية اللازمة ، فوصل هذا المندوب إلى الحبشة فى بداية سنة ١٥٥٧ . وقد فوجىء مندوب البرتغال عند وصوله إلى الساحل الحبشى باحتلال العثمانيين (لمصوع) كما لمس بعد قليل من وصوله إلى هناك معارضة نجاشى الحبشة الإمبراطور جلاوديوس لإحداث أية تغييرات مذهبية فى كنيسته كما يبغى البرتغاليون . وهنا بدأ الصدام العلنى بين أباطرة الحبشة وبين هذا المندوب المتعصب الذى أمر البرتغاليين فى الحبشة بعدم إطاعة الإمبراطور أو تنفيذ أوامره، وذلك باعتبـــاره خارجاً على الكنيسة الكاثوليكية . واشتد هذا الصدام فى عهد الإمبراطور (ميناس) الذى خلف أخاه بعد مقتله فى إحدى المعارك فى مارس سنة ١٥٥٩ م ، وذلك لأن هـذا الامبراطور اتبع سياسة دينية أكثر تشدداً وعنفاً من سياسة أخيـه ، فمنع الأحباش من دخول الكنائس اللاتينية ،كما منع زوجات البرتغاليين الحبشيات من اعتناق مذهب أزواجهن . وتطور هذا الصدام العقائدى إلى حرب سافرة، فقد انضم المندوب البرتغالى على رأس جماعة من البرتغاليين المتذمرين إلى جانب أحد الأمراء الأحباش الخارجين على طاعة الامبراطور . وكان هـذا الأمير قد استعان بالعثمانيين فى حروبه ضـد النجاشى ، وحققوا معاً بعض الانتصارات فى سنة ١٥٦٢ م عند حدود الحبشة الشمالية . وقد انتهت هـذه المصادمات والحروب إلى إضعاف النفـوذ البرتغالى فى الحبشة ، فلم يعد البرتغاليون الحلفاء الأوفياء لأباطرة الحبشة ، ولم يعد هؤلاء الأباطرة يثقون بهم أو يطلبون مساعدتهم ، بل عملوا بعد ذلك على التخلص منهم ، وطردهم خارج الحبشة[١] . ولهذا فإنه يمكن القول بأنه كما كان السعى إلى ربط الكنيسة

---

(١) Castanheso, M. : The Portuguese Expedition to Abyssinia in 1541-1543., p. lxxv-lxxviii.

الحبشية الأرثوذكسية بالكنيسة البرتغالية الكاثوليكية هدفاً رئيسياً من أهداف البرتغاليين لتدعيم نفوذهم فى الحبشة ، فقد كان السعى سبباً رئيسياً لانهيار نفوذهم بها ؛ إذ رفض أباطرة الحبشة تغيير عقيدتهم . وتطورت الخلافات التى دارت حول هذا الموضوع إلى حروب عنيفة بين الأحباش وبين حلفائهم البرتغاليين ، فأدت هذه الحروب فى النهاية إلى فتور العلاقات الحبشية البرتغالية ، بل وإلى طرد البرتغاليين من الحبشة عند نهاية القرن السادس عشر الميلادى تقريباً .

وبالاضافة إلى الخلافات المذهبية بين الأحباش والبرتغاليين ، وأثرها فى إضعاف النفوذ البرتغالى فى الحبشة ، فقد أدى تطور الأحداث فى أوربا من ناحية أخرى إلى ضعف موقف البرتغاليين فى الشرق بوجه عام . فقد دخلت البرتغال فى حكم أسبانيا لمدة ستين عاماً أى من ١٥٨٠ — ١٦٤٠م نتيجة توحيد تاجى أسبانيا والبرتغال فى تاج واحد ، وذلك عندما توج فيليب الثانى ملك أسبانيا (١٥٨٠ — ١٥٩٨م) ملكا للبرتغال فى نفس الوقت . ولم يكن ضعف البرتغال فى الشرق فى هذه الفترة ناتجاً عن إهمال الأسبان لمصالح البرتغاليين فى الحقيقة . بل كان نتيجة لمشاركة البرتغال فى تحمل تبعات السياسة الأسبانية ومشاكلها ، إذ يلاحظ أن الأسبان قد تركوا للبرتغاليين رعاية مصالحهم فى الشرق ، كما ظل (نائب الملك) فى الهند يعين من بين البرتغاليين أنفسهم[١] . غير أن أثر الاتجاه بين أسبانيا والبرتغال قد ظهر بوضوح عندما فقدت الأخيرة قوتها البحرية فى سنة ١٥٨٨ م ، بعد أن أجبرت على أن تشترك بأسطولها مع الأسطول الأسبانى — الذى عرف حينئذ باسم (الارمادا) — فى الهجوم على انجلترا ، فقد تحطم (الارمادا) أمام الشواطىء الانجليزية ، وفقدت أسبانيا والبرتغال معاً سيطرتهما على البحار . واتضح ضعف البرتغال بجلاء عندما عجزت

---

(١) Stephens, H. M. : Porsugal. p 283.

فى سنة ١٥٩٥ م عن صد هجوم انجليزى على سواحلها ، وذلك عندما هاجم الانجليز ميناء « فارو » البرتغالى . كذلك بدأت البرتغال تفقـــد احتكارها لتجارة الشرق فى فترة دخولها فى حكم أسبانيا ، فقد نجحت هولندا فى سنة ١٥٩٥ م فى إرسال أول حملة بحرية لها حول رأس الرجاء الصالح ، وذلك بقيادة أحد مواطنيها ويدعى « هوتمان » الذى عمل بعض الوقت على ظهر السفن البرتغالية . ورغم أنه كان من المتوقع أن تنجح باقى قوميات أوربا فيما بعد فى منافسة البرتغال فى تجارة الشرق ، فقد كانت سياسة فيليب الثانى الأوربية هى التى دفعت الهولنديين إلى التعجيل باتخاذ هذه الخطوة الجريئة التى أنهت إلى الأبد احتكار البرتغال لتجارة الشرق ، وكان فيليب الثانى قـــد أغلق أسواق « لشبونة » فى وجه تجار الأراضى الواطئة فى سنة ١٥٩٤م ، فبدأ هؤلاء يتلمسون طريقهم الخاص إلى المصادر الأصلية للتجارة الشرقية ونجحوا فى الوصول إليها فى العام التالى مباشرة[١] . وجاءت الضربة التالية للنفوذ البرتغالى فى الشرق من ناحية الانجليز الذين نجحوا بعـد قليل فى الوصول إلى الهنـد بحراً عن طريق رأس الرجاء الصالح ، كما نجحوا فى خلال رحلتهم الأولى إلى هناك (١٦٠٢/١٦٠٣) فى تأسيس العلاقات التجارية ، أو إقامة المحطات والمراكز التجارية فى « سومطرة » و « جاوة » وغيرهما من جزر الهند الشرقية[٢] . وقد بدأ النفوذ البرتغالى منذ ذلك الحين يأخذ طريقه إلى الضعف والانهيار للمنافسة الخطيرة التى واجهها على يد الانجليز والهولنديين . وكان التنافس بين هذه القوى المختلفة يؤدى إلى الصدام المسلح بين بعضها البعض فى أغلب الأحيان ، فقد حاول البرتغاليون عبثاً صد هؤلاء التجار الجدد عن مراكز التجارة الشرقية ، كما عمل هؤلاء من جانبهم على طرد البرتغاليين من البحار الشرقية للاستئثار بتجارة الشرق .

---

(١) Stephens, H. M. ; Portugal, pp. 290-291.

(٢) Sir George Birdwood ; Report on the Old Records of the Indian Office, Second Reprint, London 1891, p. 205.

وكان نجاح الانجليز والهولنديين فى هذه المناطق سريعاً حاسماً، فلم ينتصف القرن السابع عشر الميلادى تقريباً إلا وكانت البرتغال قد فقدت معظم أجزاء امبراطوريتها الساحلية الواسعة التى كانت تمتد على السواحل الأفريقية والأسيوية من رأس الرجاء الصالح إلى الصين واليابان، ولم يبق لها سوى بعض الجيوب الصغيرة على الساحل الإفريقى أو فى « جوا » و « دامون » فى الهند[١] . ويرجع نجاح هؤلاء القادمين الجدد إلى الشرق فى الحقيقة إلى ترحيب أمراء وأهالى الشرق بهم — وخاصة عند المراحل الأولى من وصولهم إلى هذه المناطق — وذلك نكاية فى البرتغاليين ، أو بالأحرى للاستعانة بهم فى التخلص من البرتغاليين . وقد إنطبق هذا أيضاً على اليمن نفسه فقد وجد الانجليز طريقهم إلى « المخا » فى سنة ١٦١٨ م ، وحصلوا على موافقة السلطات به على الاشتغال بالتجارة فى هذا الميناء ، وإن ظلت علاقتهم بهذا الميناء تتأرجح بين القوة والضعف لاعتمادها فى الحقيقة على شخصية الحاكم التركى القائم بالميناء ، وعلى موقفه من التعامل مع القوى المسيحية الأوربية[٢] . وفى الخليج العربى كانت ضربة الإنجليز للنفوذ البرتغالى به ضربة قاضية؛ إذ نجح هؤلاء بالتعاون مع الفرس فى طرد البرتغاليين من « هرمز » فى سنة ١٦٢٢م ، وذلك فى مقابل اقتسام إيراداتها مع شاه الفرس الشاه عباس[٣] .

وبالإضافة إلى هذه الأسباب الخاصة بضعف نفوذ البرتغاليين فى الشرق، كان الفساد الذى دب بين أوساط الضباط والجنود البرتغاليين يمثل أيضاً سبباً رئيسيا من أسباب هذا الضعف . وكان العنصر العسكرى يمثل العنصر الرئيسى

---

(١) Birdwood, G : Report on the Old Records of the Indian Office, p. 179.

(٢) Audrew Crichton ; History of Arabia, Ancient and Modern, Vol. 11 , pp. 153—154, Second Bdition, wdinburgh, 1834 .

(٣) Ibid , p. 213.

بين العناصر البرتغالية التى غزت الشرق وذلك نظراً للظروف التاريخية التى أحاطت بالكشوف البرتغالية منـــذ مراحلها الأولى ، والتى أوضحناها فى الفصول السابقة وقد أصاب الفساد العنصر العسكرى بعد عهد البوكيرك (١٥٠٩-١٥١٥ م) فى الهند مباشرة تقريباً ، فنظراً لضخامة الأرباح التى تحققها تجارة الشرق ، فقد انصرف الضباط والجنود عن واجباتهم العسكرية إلى الاشتغال بالتجارة ، وتحول القادة إلى تجار ، فانحدرت القيم ، واضطربت الأحوال[١].

وهكذا تتضح الأسباب التى تتعلق بالبرتغاليين أنفسهم التى أدت إلى ضعف ثم انهيار النفوذ البرتغالى فى الشرق ، وهى إما أسباب ذاتيـة تتصل بفساد إدارتهم وسياستهم فى الشرق ، وإما أنها أسباب تتعلق بظروف السياسة الأوروبية مثل دخول البرتغال فى حكم أسبانيا من ١٥٨٠ الى ١٦٤٠ م وما ترتب على ذلك من آثار ، ومثل نجاح الدول الأوروبية الأخرى وبخاصة انجلترا وهولندا فى تحطيم الاحتكار البرتغالى لتجارة الشرق بعد وصول سفنهما الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح منذ أواخر القرن السادس عشر .

ولهذا كله يمكن أن تبرز أمامنا الحقيقة التالية وهى أن القضاء على النفوذ البرتغالى فى الشرق لم يتم على أيدى العثمانيين وذلك بالرغم من محاولتهم المبكرة للقضاء على هذا النفوذ فى الهند كما حدث على يد سليمان باشا الخادم فى سنة ١٥٣٨ م ، أو فى الخليج العربى ، وعلى السواحل العربية الجنوبية كما حدث على يد بيرى باشا فى سنة ١٥٥١م. ولا ينفى هذا القول الجهود البحرية التى بذلها العثمانيون فى البحار العربية الجنوبية منذ دخـــولهم الى مصر سنة ١٥١٧ م كما لا يقلل من أهميتها ، فقد كان لهذه الجهود الأثر الكبير فى ميدان محلى هو البحر الأحمر والسواحل القريبة من مدخله الجنوبى .

---

(١) Wilson, A. T. : The Persian Gulf, p. 122.

وقد سبق أن انتهينا إلى أن جهود العثمانيين البحرية كان قد أصابها الضعف بعد فشل حملة بيرى باشا إلى الخليج العربى ، وإلى أن منذ الجهود قد جمدت عند حدود السواحل اليمنية ، ولذلك فيمكن القول بأن أهمية هذه السواحل قد ازدادت حينذاك حتى أصبحت هدفاً فى حد ذاتها للاستراتيجية العثمانية فى البحر الأحمر ، وبمعنى آخر كان اهتمام العثمانيين بهذه السواحل يزداد قوة كلما ازدادت البحرية العثمانية فى البحر الأحمر ضعفاً . وقد إتضح هذا الاهتمام فى إسراع الدولة العثمانية إلى استرجاع « عدن » فى سنة ١٥٤٨ م بعد أن استقل بها على بن سليمان الطولقى وطرد الحامية العثمانية منها وذلك كما ذكرنا فى الفصل الثالث . وتكرر حرص العثمانيين على الاحتفاظ بعدن فى أيديهم بعد ذلك أيضاً فى عهد السلطان سليم الثانى (١٥٦٦ — ١٥٧٤ م) الذى اهتم بإرسال حملة سنان باشا الكبيرة إلى اليمن فى سنة ١٥٦٩ م لاستعادته من أيدى المطهر بن الإمام شرف الدين الذى كان قد نجح فى إخراج العثمانيين من جميع ممتلكاتهم فى اليمن ما عدا « زبيد » ، وقد أوضح السلطان سليم الثانى الغرض الحقيقى من إرسال سنان باشا إلى اليمن فى عبارته التى وجهها إلى هذا القائد قبل سفره إلى اليمن والتى جاء فيها « إن استردادنا لمملكة اليمن وإن كان ذلك مما يتعين علينا لأنها ميراث أبينا المرحوم المقدس ، لكن جل قصدنا من ذلك إنما هو حفظ ثغر « عدن » صوناً للحرمين الشريفين على الكفار الملاعين[1] » .

والحقيقة أنه من الصعب أن نفهم حرص العثمانيين الشديد على البقاء فى اليمن دون أن نربط هذا الحرص بأهمية موقع اليمن عند مدخل البحر الأحمر الجنوبى ، تلك الأهمية التى لعبت دورها الكبير طوال تاريخ اليمن كما أوضحنا فى التمهيد . وقد يقال إنه كان من الممكن للعثمانين أن يكتفوا بالاستيلاء على سواحل اليمن فقط دون باقى أقاليم اليمن إذا كان هناك ضرورة لذلك بالنسبة

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ص ٥٧ أ .

للصراع الذى دار بينهم وبين البرتغاليين فى القرن السادس عشر ، وقد يقال إنه كان من الممكن أن يعتمد العثمانيون على القوى المحلية اليمنية دون أن يضطروا إلى إخضاع اليمن لسيطرتهم ، ولكن رغم صحة هذه الافتراضات من الناحية النظرية فإنه كان من الصعب تنفيذ ذلك عملياً لوحـــدة أقاليم اليمن الجغرافية والتاريخية والاقتصادية من ناحية ، وللتطورات السياسية التى صاحبت وصول العثمانيين إلى البلاد العربية بوجه عام من ناحية أخرى .

وعلى ضوء هذا كله ، فيمكن أن نلخص أوضاع العثمانيين البحرية فى البحار العربية الجنوبية منـذ أوائل النصف الثانى من القرن السادس عشر إلى حين خروجهم من اليمن فى سنة ١٦٣٥ فى النقاط التالية :

أولا : لم يعد فى إمكان العثمانيين إرسال حملات بحرية كبيرة للقضاء على البرتغاليين فى الهند أو غيرها من أقاليم المحيط الهندى أو البحار العربية ، بل أصبح نشاط العثمانيين البحرى محدوداً لا يتعدى منطقة مدخل البحر الأحمر الجنوبى ، كما أصبحت مهمة هذا النشاط هى غلق البحر الأحمر فقط لحماية الحرمين الشريفين وباقى السواحل العربية داخل هذا البحر .

ثانياً : إزدادت أهمية اليمن لدى العثمانيين منذ ذلك الوقت باعتباره القاعدة الدفاعية الأمامية للدفاع عن ممتلكاتهم فى البحر الأحمر ، ولتعويض ضعف بحريتهم فى هذا البحر ، ولذلك حاول هؤلاء قدر إمكانياتهم تدعيم سيطرتهم باليمن وذلك كما حدث على يد حملة سنان باشا الكبيرة ، وكما يتضح من اهتمامهم بإرسال الإمدادات المستمرة إلى ولاتهم به .

ثالثاً : إرتبط ضعف العثمانيين البحرى فى البحر الأحمر بالضعف العام الذى أصاب بحريتهم حينذاك ، بل والذى أصاب أجهزة الدولة المختلفة منـذ نهاية عهد السلطان سليمان القانونى .

وبالإضافة إلى هذه النقاط ، بل وتأكيـــداً لها فى نفس الوقت ، لم يقم العثمانيون إلا بجهد بحرى محدود على السواحل العربية والإفريقية القريبة من السواحل اليمنية وذلك خلال العقد التاسع من القرن السادس عشر . وكان هذا الجهد البحرى هو الجهد الأخير الذى قام به العثمانيون أمام هذه السواحل ، وربما كان هذا هو السبب الوحيد الذى جعل من هذا الجهد عملا بارزاً فى تاريخ هذه المنطقة ، وذلك بالرغم من ضعفه من ناحية بالنسبة للجهود البحرية السابقة ، وبالرغم من أنه بدأ من ناحية أخرى وكأنه جهد فردى من جانب القبطان على بك ، وليس جهداً رسمياً من جانب الدولة . وكان على بك مشهوراً بشجاعته وجرأته ونشاطه ، وقد اتسعت هذه الشهرة عندما قام بالهجوم على « مسقط » فى سنة ١٥٨٠م واستولى عليه من أيدى البرتغاليين الذين كانوا قد استعادوها بعد استيلاء بيرى باشا عليها فى سنة ١٥٥٣م . ولم يؤد هذا الهجوم إلى استقرار العثمانيين فى «مسقط» لضعف قواتهم حينذاك . وذلك رغم نجاح على بك فى تحطيم قوة البرتغاليين بها ، وفى الاستيلاء على إحدى سفنهم التى كانت ترسو فى الميناء وهى محملة بالبضائع ، والتى كانت فى طريقها إلى « هرمز »[١] .

وكان نشاط على بك بعد ذلك أمام ساحل إفريقية الشرقى هو السبب الحقيقى لشهرته فى التاريخ البحرى العثمانى فى البحار العربية الجنوبية . ومن الغريب حقاً أن نشاط العثمانيين البحرى أمام هذا الساحل كان مقصوراً حتى ذلك الوقت على الجزء الشمالى منه أى الجزء المواجه للساحل اليمنى فقط ، وذلك لتحقيق

---

(١) Serjeant. R.B. : The portuguese off the South Arabian Coast, p. 111 , (Al-Shihri, 186 b).
(ويلاحظ أن الشحرى قد ذكر أن هجوم على بك على «مسقط» كان فى سنة ٩٨٤هـ (١٠٧٧/٦م) وأن الذى قام بهـــذا الهجوم يدعى سنان ، ولكننا نوافق سارجنت على ما انتهى إليه فى هوامش كتابه من أنه يرجح أن هـــذا الهجوم كان فى سنة ٩٨٩ هـ (١٠٨١/٨٠ م) وأن على بك هو الذى قام بالهجوم على مسقط، وذلك لاتفاق هذا الترجيح مع سياق الأحداث ومع ما ذهبت إليه باقى المراجع) .

غلق البحر الأحمر فى وجه البرتغاليين . وقد بدأت علاقة على بك بساحل إفريقية الشرقى فى سنة ١٥٨٤ م عندما أرسله والى اليمن إلى هناك لإحضار بعض الأخشاب اللازمة لأسطول البحر الأحمر[١] . ويقال إن توجه على بك إلى هذه الجهات كان فى سنة ١٥٨٦ م ، وأنه لم يكن معه إلا سفينتان فقط ، وكانت إحداهما فى حالة غير صالحة تماماً . وقد نجح على بك منذ وصوله إلى « مقدشيو » فى جذب رؤساء هذا الميناء إليه وفى جعلهم يدخـــلون فى طاعة العثمانيين ، أو بالأحرى لقد رحب أهالى « مقدشيو » بالاعتراف بسيادة العثمانيين عليهم لتقوية جانبهم فى نزاعهم المستمر مع البرتغاليين . وواصل على بك نجاحه فى إثارة هذه الساحل الإفريقى الشرقى وكذلك أهالى الجزر الصغيرة الممتدة أمامه ، وذلك اعتماداً على كره هؤلاء الأهالى البرتغاليين . وقد استطاع على بك أن يستولى على بعض السفن البرتغاليين فى هذه الرحلة الموفقة وذلك بمعاونة أهالى هذا الساحل الذين كانوا يقبضون على بحارة هذه السفن ويسلمونهم للعثمانيين[٢] . وشجعت هذه النتائج على بك على أن يقوم برحلته الثانية التى كان قد وعد بها أهالى ساحل أفريقية الشرقى ، فتقدم من « مخا » على رأس خمس سفن إلى « ملندى » — المركز الرئيسى للبرتغاليين على هذا الساحل — ولكنه فشل فى الاستيلاء عليها بعد أن لاقى مقاومة عنيفة من جانب حاميتها البرتغاليــة . فاضطره هذا إلى التقهقر إلى « ممبسا » ليعد عدته لهجوم آخر على «ملندى». وقد أعد البرتغاليون فى الهند فى هذه الأثناء أسطولا برتغالياً يتكون من عشرين سفينة ومن تسعمائة جندى ، وذلك لإنقاذ سيطرتهم على الساحل الإفريقى الشرقى . ونجح هذا الأسطول فى أداء مهمته إلى حد كبير ، فأعاد السيطرة

---

(١) Dames, M. L. : The Portuguese and Turks in the Indian Ocean in the Sixteenth Century, J.R.A.S. Part 1., Jenuary 1921 p. 26.

(٢) M. Guillain : Docuements sur l'Histoire, la Géographic et Commerce de l'Afrique Orientale, pp 396—397.

البرتغالية إلى المدن الإفريقية التي كانت قد تخلصت من هذه السيطرة ، ثم تقدم إلى « ممبسا » في مارس ١٥٨٩ م حيث ألحق الهزيمة بأسطول على بك ، ثم قبض عليه ، وأرسله بعد ذلك مأسوراً إلى « لشبونة » فبقى فيها حتى توفى ، ويقال إنه اعتنق المسيحية هناك قبل وفاته(١).

ولقد كان من الممكن أن يقضى العثمانيون على قوة البرتغاليين البحرية فى البحار الشرقية فى ذلك الوقت ؛ إذ كانت البحرية البرتغالية تعانى ضعفاً شديداً حينئذ من جراء الهزيمة التى لحقت ، بالأرمادا ، فى سنة ١٥٨٨ ، ولكن ضاعت هذه الفرصة من أيدى العثمانيين لضعف قوتهم البحرية فى ذلك الوقت أيضاً(٢).

وهكذا إنتهى آخر نشاط بحرى كبير للعثمانيين فى البحار العربية الجنوبية ، وأصبح نشاطهم محصوراً فى ميدان ضيق أمام السواحل اليمنية ، كما أصبح الهدف الوحيد لهذا النشاط بعد ذلك هو اتخاذ السواحل اليمنية قاعدة للدفاع عن سواحل البلاد العربية المطلة على البحر الأحمر ، فعملوا على منع البرتغاليين وغيرهم من الأوربيين الذين وفدوا إلى الشرق منذ نهاية القرن السادس عشر الميلادى من التوغل فى هذا البحر أبعد من الموانىء اليمنية ، وبالتحديد أبعد من ميناء « المخا » . ولقد نجح العثمانيون منذ ذلك الحين ، ومن خلال سياستهم البحرية السابقة فى البحر الأحمر ، فى وضع أسس تقليد جديد سيظهر فيما بعد وهو تحديد نطاق توغل السفن الأوربية فى البحر الأحمر بحجة أشراف الحجاز — حيث الحرمين الشريفين — على هذا البحر . وقد إستمر هذا التقليد مرعياً من جانب العثمانيين طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر : والحقيقة أن الغرض العسكرى كان هو الغرض الحقيقى للعثمانيين من وراء وضع هذا التقليد ، فقد لجأوا إلى وضع هذا التقليد بعد أن فشلوا فى تطهير البحار الشرقية

(١) Guillain, M. : Documents sur l'Histoire, la Géographie et la Commerce de l'Afrique Orientale, pp. 398-401.

(٢) Domes, M.L. : J.R.A S., Part 1, January 1921. p. 26.

من القوى الأوروبية وذلك نظراً للظروف التاريخية التى صاحبت مجىء هذه القوى إلى الشرق .

ولقد أتهم العثمانيون بأنهم عزلوا العالم العربى عن التطور العالمى الذى بدأ مع بداية العصور الحديثة وذلك عندما فرضوا ستاراً حول العالم العربى بحجة حمايته أمام الغزو العسكرى الأوربى ، ولكننا نرى أن تخلف العالم العربى فى هذه الفترة ليس من مسئولية العثمانيين وحدهم ، إذ رغم الستار العسكرى الذى فرض حول العالم العربى فقد سمح هؤلاء بوجود تبادل تجارى بين العرب وبين الأوربيين ، أى أنهم لم يعملوا على قطع الصلات اللازمة لأى تطور حضارى داخل العالم العربى . ولقد اتضحت جوانب هذه السياسة بجلاء فى جنوب البحر الأحمر منذ أوائل القرن السابع عشر الميلادى ، فقد سمح العثمانيون — فى تردد وحذر — بأن تقوم السفن التجارية الأجنبية بالتردد على ميناء « مخا » اليمنى والاشتغال بالتجارة به ، ولكنهم منعوا هذه السفن من التوغل إلى داخل البحر الأحمر ، بل جعلوا السفن العربية تنقل البضائع من ميناء « مخا » إلى باقى موانىء البحر الأحمر حتى موانىء مصر ، وكانت شهرة ميناء « مخا » التجارية قد غطت منذ ذلك الحين على شهرة ميناء « عدن » الذى تحول خلال النزاع البحرى بين العثمانيين والبرتغاليين إلى قلعة حربية عند مدخل البحر الأحمر الجنوبى مما ساعد على إضعاف أهميته التجارية . وكان اكتشاف زراعة البن فى المنطقة الخلفية لميناء « مخا » ، وتحول محصوله إلى محصول اقتصادى ، وقربه من السواحل الإفريقية المواجهة له ، من أهم أسباب شهرة هذا الميناء فى ذلك الوقت .

وكانت أولى المحاولات الأوروبية للتردد على ميناء (مخا) هى محاولة الكابتن الكسندر شاربى الإنجليزى فى سنة ١٦٠٩ م . وقد تأرجح موقف الأتراك فى بداية الأمر من تردد هؤلاء الإنجليز على الساحل اليمنى . فقد

وأفقوا تارة على أشتغال الإنجليز بالتجارة فى « مخا » ومنعوهم تارة أخرى ، وذلك حتى عام ١٦١٨ م حين حصل الإنجليز على فرمان من السلطات فى اليمن يقضى بحرية التجارة فى هذا الميناء دون أن يتعرض لهم أحد بأذى . وكان حاكم « مخا » التركى قد استقبل الكسند شاربى بتسامح كبير فى سنة ١٦٠٩ م ، ولكن عندما جاء السير هنرى مدلتون من قبل شركة الهند الشرقية فى العام التالى ، استقبله حاكم الميناء حينئذ بفتور شديد ، ثم أرسله إلى « صنعاء » بعد أن سجنه بعض الوقت فى « مخا » . وقد أطلق سراح مدلتون بعد قليل بعد أن تعهد ألا يتردد مرة أخرى على ميناء « مخا » أو أى موانىء عربية أخرى . ورغم ذلك فقد تقدم الكابتن « ساريز » إلى ميناء « مخا » بعد ذلك بقليل فلم يقابل بمثل هذا العنف الذى قوبل به مدلتون ، ولكنه لمس أن الروح العامة هناك لا تشجع على استمرار اشتغاله بالتجارة . وقد ظل موقف العثمانيين متأرجحاً من التجار الأجانب هكذا حتى استقر الأمر نسبياً فى سنة ١٦١٨ (١) .

وكان ضعف العثمانيين البحرى فى البحر الأحمر يعكس الضعف العام الذى أصاب البحرية العثمانية فى البحر المتوسط بعد وفاة خير الدين بربروس سنة ١٥٤٦م . حقيقة ظل الأسطول العثمانى صاحب التفوق فى الحوض الشرقى من البحر المتوسط حتى سنة ١٥٧٢ ، كما ظل يحرز الانتصارات المتتالية حتى أوائل القرن السابع عشر على الأقل ، ولكن هذا كله لا ينفى توقف نمو البحرية العثمانية عند منتصف القرن السادس عشر تقريباً ، ثم اتجاهها إلى الضعف والانهيار بعد ذلك حتى أصبحت المهمة الأولى للأسطول العثمانى هى المحافظة على الثغور فقط . وكانت تولية « القبطانية » بعد خير الدين بربروس لرجال غير رجال البحر من أهم أسباب ضعف الأسطول العثمانى فى البحر المتوسط ، فقد

(١) Crichton' A. : Histo y of Arabia, Ancient and Modern, vol II, pp. 153—154.

تولى هذه القبطانية قادة غير بحريين مثل محمد باشا صوقللى وسنان باشا وبياله بك وعلى باشا ، وذلك لعلاقات أو لأهواء شخصية أدت إلى إبعاد القادة البحريين الحقيقيين مثل طور غورجه باشا وقليج على باشا عن قيادة الأسطول العثمانى[١].

ولقد كانت أولى الصدمات التى تلقتها البحرية العثمانية فى البحر المتوسط هى هزيمة الأسطول العثمانى فى معركة « ليبانتو » فى ٧ أكتوبر عام ١٥٧١ م أمام الحلف الأوربى بزعامة البندقية وأسبانيا ومالطة . وقد تحطمت القوة الرئيسية للأسطول العثمانى فى هذه المعركة ، فقد غرقت أو احترقت حوالى أربع وتسعين سفينة ، ووقعت مائة وثلاثين سفينة فى الأسر ، كما خسر العثمانيون أيضاً فى هذه المعركة حوالى ثلاثين ألفاً من رجالهم[٢] . ورغم ضخامة هذه الخسائر فلم تكن الخسارة المادية هى خسارة العثمانيين الحقيقية فى هذه المعركة ، فقد عوض العثمانيون هذه الخسائر بعد وقت قصير ببناء أسطول ضخم جديد ، كما أن هذه الهزيمة لم تغير كثيراً ميزان القوى البحرية فى البحر المتوسط . ولكن الخسارة الحقيقية هى الخسارة المعنوية ؛ إذ خسر العثمانيون منذ ذلك الوقت شهرتهم بأنهم أصحاب الجيوش والأساطيل التى لا تهزم[٣] .

وهكذا يتضح لنا أنه قد صاحب ضعف البرتغاليين البحرى ، ضعف البحرية العثمانية أيضاً ، وأنه بالرغم من فشل العثمانيين فى تطهير البحار العربية الجنوبية تماماً من النفوذ البرتغالى فقد نجحوا فى الدفاع عن سواحل البحر الأحمر ، وفى تحديد النشاط البحرى الأوربى فى هذا البحر ، وفى المحافظة على صفة هذا البحر باعتباره بحيرة إسلامية ، وهى الصفة التى برزت وتأكدت خلال العصور الوسطى كما أوضحنا فى التمهيد . ولقد ترتب على ضعف الجانبين

---

(١) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت (مترجم) ، جـ١ ، ص ١٥٧ — ١٥٩ .

(٢) Hammer, J. : Histoire de L'Empire Ottoman, Tome 6, pp. 428—429.

(٣) Stanley Lane—Poole ; Turkey, p. 210.

البرتغالى والعثمانى أن بدأت قوى أخرى جديدة تأخذ مكانهما ، فبدأت انجلترا وهولندا تطارد البرتغاليين فى الشرق منذ نهاية القرن السادس عشر ، كما نجح اليمنيون فى إجبار العثمانيين على الجلاء عن اليمن فى سنة ١٦٣٥ م . وبالإضافة إلى هذه النتيجة التاريخية لضعف الجانبين فلقد كان ضعف البرتغاليين البحرى من بين الأسباب الرئيسية التى جعلت العثمانيين لا يصرون على البقاء فى اليمن — أو يحاولون الرجوع إليه بعد إخراجهم منه سنة ١٦٣٥ م — وذلك عندما أجبروا على الجلاء عن اليمن فى ذلك العام بعد توالى هزائمهم أمام الثورة اليمنية حينذاك .

الفصل التاسع

اليمن تحت الحكم العثمانى

٩٤٥ — ١٠٤٥ هـ

١٥٣٨ — ١٦٣٥ م

يصعب فى الحقيقة رسم صورة واضحة لليمن تحت الحكم العثمانى فى تلك الفترة — أو حتى للمسميات الأخرى لهذا الموضوع وهى « الحكم العثمانى فى اليمن» ، « أوضاع اليمن تحت الحكم العثمانى » ، و « اليمن ولاية عثمانية » ، وذلك نظراً لقلة المادة التاريخية اللازمة ؛ إذ أن أغلب المراجع العربية والتركية والأفرنجية التى رجعنا إليها إنما تهتم أساساً بتطور الأحداث السياسية أكثر مما تهتم بالنواحى الإدارية والاجتماعية والاقتصادية ، ورغم هذا فيمكن أن نرسم هذه الصورة بشكل تقريبى إذا وضعنا فى الاعتبار أمرين هامين : أولهما ، أن الغرض الرئيسى من وراء مد السيطرة العثمانية على اليمن حينذاك كان اتخاذه قاعدة أمامية لصد الغزو البرتغالى عن الحرمين الشريفين وعن حدود هذه الامبراطورية العثمانية بعد امتدادها جنوباً إلى أغلب البلاد العربية ، وذلك بعد فشل جهود العثمانيين فى ضرب مراكز للبرتغاليين فى الهند ، ومنع تحول تجارة الشرق إلى طريق رأس الرجاء الصالح . وثانيهما ، تشابه الأوضاع فى اليمن فى ذلك الوقت مع باقى أوضاع الدولة العثمانية ، وذلك باعتبار اليمن إحدى ولايات الامبراطورية العثمانية ، وخضوعه لنفس النظم والأحكام السائدة فى باقى مناطق هذه الإمبراطورية .

أما بالنسبة الاعتبار الأول ، فقد سبق أن أوضحنا في خلال الفصول

السابقة كيف أدى النزاع المملوكى العثمانى إلى امتداد السيطرة العثمانية إلى بعض البلاد العربية، وكيف أن هـذا الامتداد الجديد للامبراطورية العثمانية أدى بدوره إلى أن يصبح العثمانيون وجهاً لوجه أمام البرتغاليين فى البحار العربيـة الجنوبية . وقد اضطر العثمانيون أمام خطر هؤلاء البرتغـاليين إلى أن يتبعوا نفس الخطط المملوكية التى استهدفت احتلال السواحل اليمنية واتخاذها قاعدة أمامية لمهاجمة المراكز البرتغالية فى الهند وللدفاع عن سواحل البحر الأحمر . وقد أكدت حدة الصراع العثمانى البرتغالى أهمية السواحل اليمنية بالنسبة للعثمانيين، فدفعهم هذا إلى الاحتفاظ بها تحت سيطرتهم كلما أمكنهم ذلك . ومن ناحيـة أخرى فإن أهمية البقاء فى هذه السواحل هى التى تفسر زحف العثمانيين إلى داخل اليمن واصطدامهم بالقوة السياسية القائمة به حينذاك وهى الإمامة الزيدية تحت زعامة الإمام شرف الدين وأبنائه ، وذلك لإقامة عمق استراتيجى لهم فى داخل البلاد ، ولحماية وجودهم فى السواحل اليمنية ضد الأخطار التى قد تهدد هـذا الوجود من ناحية القوى اليمنية المختلفة .

وقد ترتب على أهمية السواحل اليمنية بالنسبة للعثمانيين بالإضافة إلى أهمية أقاليم اليمن الداخلية بالنسبة لهذه السواحل أن اهتم العثمانيون بفتح اليمن ثم اهتموا ببقائهم به كلما أمكنهم ذلك ، ولهذا فنحن نتفق مع أحد كتاب اليمن المحدثين الذى وصف اهتمام العثمانيين بفتح اليمن بقوله « وكانت اليمن إحدى أمنيات السلطان سليمان نظراً لأهميتها من الناحية العسكرية والموقع الاستراتيجى المهيمن على شواطىء البحرين العربى والأحمر »[١] . غير أن وعورة اليمن الطبيعية ، وأوضاعه البشرية الخاصة وكثرة الثورات به ، إلى جانب بعده عن قلب الدولة العثمانية ، وصعوبة إرسال الحملات إليه وبخاصة بعد اضطراب نظم الدولة وضعفها، كل هذه العوامل أجبرت العثمانيين فى النهاية على التخلى عن اليمن ، وذلك بعد

(١) أحمد حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ ، ص ٢٦١ .

أن أيقنوا أن نفقات الاستيلاء عليه والاحتفاظ به ، كانت أكثر من العائدات التى يجبونها منه[1] .

أما الاعتبار الثانى الذى يساعد على فهم موضوع « اليمن تحت الحكم العثمانى » وهو تشابه أوضاع اليمن مع الأوضاع التى سادت الدولة حينذاك ، وذلك باعتبار اليمن ولاية عثمانية . فإن هذا الاعتبار يحتم علينا أن نلقى نظرة سريعة إلى النظام العام للدولة العثمانية ، وإلى نظام الحكم فى الولايات المختلفة حتى يتضح أمامنا الإطار العام الذى أحاط بولاية اليمن العثمانية ، وذلك قبل أن نتناول بالتفصيل الحكم العثمانى فى اليمن .

ويصعب فى الحقيقة تناول موضوع نظم الحكم فى الدولة العثمانية فى ذلك الوقت لضيق المجال هنا بالنسبة لهذا الموضوع الهام[2] . غير أنه من الممكن الإشارة إلى بعض النقاط التى قد تساعد على فهم طبيعة الحكم العثمانى المحلى فى اليمن .

أولا : تشعبت مصادر نظم الحكم العثمانى بين البيئة الأصلية للأتراك فى وسط آسيا حيث تسود الأوضاع القبلية وتنظيماتها الخاصة وبين النظم والحضارات الفارسية والعربية والبيزنطية التى ورثتها الدولة العثمانية ، ولذلك كانت النظم العثمانية فى نهاية الأمر خليطاً من هذه النظم جميعها ، وذلك كما اتضح فى نظم الجيوش والإدارة والتعليم والقضاء وغيرها . وترتب على تشعب المصادر واختلاط النظم أن اختلف موقف العثمانيين بين التمسك بالقديم وبين الأخذ بالجديد ، فأدى هذا بدوره إلى اختلاف نظمهم من إدارة إلى أخرى ، ومن

---

(١) Niebuhr, Carsten : Description de L'Arabie, p. 170

(٢) قام الدكتور محمد أنيس فى كتابه : « الدولة العثمانية والشرق العربى ، ١٥١٤ — ١٩١٤ » (ص ٥٩ — ٩٩) بدراسة موسعة لموضوع « نظم الحكم فى الدولة العثمانية فى القرن السادس عشر » يمكن الرجوع إليها .

ولاية إلى أخرى ، وذلك طبقاً لما تقتضيه الظروف والأوضاع بكل منها . وتميزت النظم العثمانية لذلك بأنها مرنة وعملية ، وبخاصة فى فترات نمو الدولة وحتى القرن السادس عشر الميلادى ، غير أن توقف نمو الدولة أدى إلى ضعفها وتفكك نظمها لتناقض ذلك مع طبيعة نشأتها وقيامها .

ثانياً : تضافرت العوامل المختلفة التى تنتمى إلى بيئة العثمانيين الأصلية ، والتى اقتبسها هؤلاء من الحضارات الأخرى ، إلى أن أصبحت النظم العثمانية جميعها تعتمد على وجود السلطان وتستمد سلطاتها من سلطته ، فهو رأس الحكومة المركزية والحكومات المحلية ، وهو قائد الجيش النظامى والإقطاعى وغير النظامى ، كما أن « الهيئة الإسلامية » تعتبره الرئيس الأعلى لها ، وهو الذى يعين كبار رجالها المختارين من بين أعضائها ، وحتى الهيئات الدينية غير الإسلامية — المسيحية واليهودية — التى كانت تعرف فى النظام العثمانى باسم « الملل » فكانت أيضاً تستمد وجودها من سلطته[١] .

ثالثاً : نظراً لطبيعة العثمانيين الأولى ، ونظراً لطبيعة نشأة دولتهم فقد كانت الحكومة والجيش شيئاً واحداً ، أو بالأحرى كانت الحكومة العثمانية جيشاً قبل أى شىء آخر . أى كانت الحرب هى المهمة الأولى للدولة ثم يأتى الحكم فى المرتبة الثانية . ومع نمو الدولة ، وبوجه خاص بعد فتح القسطنطينية ، فقد أدت الحاجة الى ادارة الأقاليم الواسعة الى ترجيح كفة المهمة الثانية للدولة وهى الحكم ، ورغم ذلك فحتى عهد السلطان سليمان القانونى ، فقد ظلت وظيفتا الهيئة الحاكمة — وهما الحرب والحكم — مرتبطين ببعضهما البعض أشد الارتباط ، فقد كانت مهمة هذه « الهيئة » من الناحية العسكرية هو أن تقوم

---

(١) Lybyer, A H : The Government of the Ottoman Empire in the time of Suleiman the Magnificent, p. 151.

بالحرب فى الخارج ، وأن تخمد الثورات وتحافظ على الأمن والنظام فى الداخل، ومن الناحية الإدارية ، فقد كانت تكلف بالأعمال الإدارية الواسعة ؛ اذ كان عليها أن تقوم بجمع الأموال المقررة ، وبتنفيذ القانون وبالمحافظة على سير أعمال الهيئات الأخرى فى الدولة . ولذلك فقد كان كبار الموظفين هم فى الوقت نفسه كبار قادة الحرب ، كما أن قادة الجيش هم الذين يدبرون شئون قواتهم ، كما كانوا يقومون بإدارة أجهزة الدولة ، أو بحكم الأقاليم[١] .

رابعاً : نظراً لطبيعة حكومات ذلك العصر ، فلم يكن من بين مهام الحكومة العثمانية — شأنها فى ذلك شأن جميع حكومات تلك الفترة سواء فى الشرق أو الغرب — الاهتمام بالإصلاحات والخدمات العامة مثل مد شبكات الطرق أو بناء الكبارى أو القيام بالخدمات العريدية العامة ، أو بإصلاح أحوال الزراعة والصناعة والتجارة ونظام التعليم العام ، اذ أن هذه الأعمال لا تقوم بها الحكومات الا لتسهيل مهمة الحكم مثلما كان يفعل بعض السلاطين العظام ، أو للتقرب الى الأهالى وكسب ثقتهم كما كان يفعل بعض الباشوات أو الأمراء الأقوياء فى ولاياتهم ، وذلك كله لأنه لم يكن فى حسبان حكومات القرن السادس عشر القيام بمثل هذه الأعمال بل كان كل ما يهم هذه الحكومات هو زيادة قوتها وتوسيع ممتلكاتها من ناحية ، وتدعيم سيطرتها من ناحية أخرى فى داخل أقاليمها[٢] .

خامساً : تشابه الحكم المحلى فى الولايات العثمانية مع الحكم المركزى فى الدولة ، فكان على رأس كل ولاية وال — أو بكلربكى بمعنى أمير

---

(١) Lybyer, A.H. : The Government of the Ottoman Empire in the time of Suleiman the Magnificent, pp. 90 - 91.

(٢) Ibid ; p. 147.

الأمراء ـ وسلطاته فى داخل ولايته تشبه سلطات السلطان المركزية . كذلك يساعد الوالى فى حكم ولايته بمجموعة من الموظفين تتشابه أعمالهم وألقابهم مع أعمال وألقاب موظفى الحكومة المركزية ، وذلك مثل المفتى والريس أفندى والدفتردار ومعه مجموعة الكتاب والمحصلين لمعاونته فى جمع الأموال المقررة على الأهالى وتحديد أوجه صرفها . وإلى جانب هؤلاء جميعاً كانت هناك مجموعة السناجق أمراء المقاطعات والمدن الهامة فى داخل الولاية ، وكان إلى جانب كل سنجق بدوره مجموعة من الموظفين تشبه مجموعة موظفى الوالى ، مما أدى بمرور الوقت إلى تضخم جهاز الدولة التنفيذى ، فشكل هذا خطراً كبيراً فيما بعد على كيان الدولة[1] . وكان أقـــل « أفراد الهيئة الحاكمة » رتبة هو « الصوباشى » أو « الآغا » ، وهو يحكم المدن فى وقت السلم ، ويعاونه فى ذلك عدد من الانكشارية والعزب أو الفرسان غير النظاميين لحفظ الأمن فى منطقته . ويلى هذا فى المرتبة « أمير آلاى » وعليه أن يكون على استعداد للإنتقال من مكان إلى آخر كلما لزم الأمر على رأس قوة من الجند تتكون من مائتين إلى خمسمائة جندى . وفوق هؤلاء يوجد السناجق ـ أو الأمراء ـ الذين يقومون بحكم المدن الهامة أو المقاطعات ، كما كان لهم السلطة العليا على عدد من المدن والأقاليم الواقعة تحت سيطرتهم . ويرأس هؤلاء جميعاً البكاربكى وهو « أمير الأمراء » الذين فى ولايته . وكان لدى جميع هؤلاء الموظفين الكبار عدد كاف من الملازمين والكتبة وكتبة الحسابات وأمناء الخزانة[2] .

وهكذا تبرز أهم ملامح النظم العثمانية دون الدخول فى التفصيلات

---

(١) Lybyer, A.H. : The Government of lhe Ottoman Empiro in the time of Suleimяn the Magnificent, p. 174.

(٢) Ibid ; p. 103.

التنظيمية الدقيقة مثل تقسيمات أجهزة الجيش والإدارة ، أو مثل اختصاصات وظيفة كل جهاز أو حتى إختصاصات الوظائف المختلفة فى الدولة ، إذ يضيق المجال هنا كما أشرنا عن تناول كل هذه الموضوعات والتفصيلات ، كما أنه من الممكن تناول بعض نواحي هذه الموضوعات أثنا عرض أوضاع اليمن المحلية فى تلك الفترة .

وكيفما كان الأمر ، فيمكن القول - منذ البداية بأنه رغم خضوع اليمن للسيطرة العثمانية ، وبالتالى للنظم والقوانين العثمانية ، فقد كان لليمن أوضاعه الخاصة فى داخل الإطار العثمانى العام، وذلك نظراً لطبيعة أوضاعه الطبيعية والبشرية الخاصة . فمن الناحية الطبيعية ، أثر الطابع الجبلى على النواحى الاقتصادية البشرية فى البلاد ، ليس من ناحية تحديد نوعية هذه النواحى فحسب، بل من ناحية طبعها بطابع خاص ، يحتاج إلى سياسية ومعالجة خاصة للأمور . وقد رأينا كيف أن جبال اليمن قد قللت من فاعلية الجيوش العثمانية النظامية رغم قوة ضخامتها، ورغم تفوقها من ناحية السلاح والعتاد وذلك لوعورة هذه الجبال ، وفى نفس الوقت رأينا كيف استغل اليمنيون هـــذه الجبال فى الثورة ضد العثمانيين كلما ساءت إدارتهم ، بل وعلى إخراجهم من بلادهم فى وقت مبكر بالنسبة لخروج العثمانيين من باقى البلاد العربية. وكان فقر المناطق الجبلية الوعرة إقتصادياً من أهم العوامل التى زادت من حساسية أهالى هذه المناطق ضد الحكم العثمانى ، والتى جعلتهم أكثر اندفاعاً إلى الثورة والحرب ، وذلك كما اتضح فى المناطق الجبلية الشمالية ، وفى المناطق الجبلية الأخرى مثل « يافع » و « وصاب » و « ريمة » وغيرها . ومن الناحية البشرية ، خلقت بيئة اليمن قوى بشرية ذات أوضاع طبيعية ونفسية خاصة ، فأصبح هناك الشافعى والزيدى والإسماعيلى ، وهناك السهلى والجبلى ، وهناك من ارتبط بالأرض حيث يعمل بالزراعة . أو من يعمل بالتجارة أو الرعى أو يسكن قمم الجبال وقد رأينا كذلك أن المذاهب الشيعية — مثل

الزيدية والإسماعيلية — قد وجدت في جبال اليمن وبخاصة الشمالية ملجأ حصيناً بعيداً عن « بغداد » السنية أو حتى عن الأغلبية السنية المحيطة بها ، فانتشرت بين أهالي هذه الجبال الذين وجدوا في اعتناق هذه المذاهب فرصة لمحاربة القوى السياسية الحاكمة ، ولفرض وجودهم الخاص في اليمن .

ولهذا كله ، فلا غرابة إن كان لليمن وضعه الخاص في داخل الإطار العثماني العام ، وساعد على ذلك مرونة النظم العثمانية وبخاصة في فترة نمو الدولة ، إذ استطاعت هذه الدولة أن تستوعب النظم التي وجدتها في البلاد المفتوحة ، وأن توائم بطريقة عملية بين نظم الأتراك الأصلية وبين أوضاع البلاد المختلفة التي خضعت لسيطرتها . ولذلك اختلفت النظم العثمانية من بلد إلى آخر ، ومن إقليم إلى آخر . مما ساعد العثمانيين في النهاية على حكم إمبراطوريتهم المترامية الأطراف .

وقد فرضت ظروف اليمن الخاصة نفسها على التطور التاريخي لهذه الولاية من ناحية . وعلى الوضع الإداري لها من ناحية أخرى ، فعكست نفسها بوضوح في هاتين الناحيتين طوال الحكم العثماني لليمن .

فمن ناحية تطور ولاية اليمن العثمانية من الناحية التاريخية ، نجد أن مساحة هذه الولاية — أو بالأحرى المناطق التي خضعت للسيطرة العثمانية — قد تغيرت بين الضيق والاتساع من فترة إلى أخرى طبقاً لتطور الأحداث الداخلية ، وذلك كما رأينا في الفصول السابقة ، أو كما يؤكد أحد المراجع التركية المعاصرة وقتذاك[1] عند التعليق على التقسيمات الإدارية لهذه الولاية بأن هذه الولاية

---

(١) يذكر ساطع الحصري في كتابه (البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ١٢٨) في بداية الملحق الأول الخاص بالأيالات العربية في أوائل القرن السابع عشر بأن أشمل الوثائق التي اطلع عليها عن التقسيمات الإدارية في الدولة العثمانية ، هي : رسالة تركية عنوانها : =

كان « يضبطها الأئمة — تغلباً — من وقت إلى آخر »[1] .

وترتب على عدم استقرار السيطرة العثمانية انتقال عاصمة العثمانيين فى اليمن بين « صنعاء » و« زبيد» و«تعز » تبعاً لتطور الأحداث الداخلية ، وذلك رغم احتفاظ « صنعاء » بأهميتها التاريخية باعتبارها العاصمة التقليدية ، بل لا نبالغ إذا قلنا إن « صنعاء » قد استعادت أهميتها القديمة فى فترة الحكم العثمانى بعد أن نافستها « زبيد » ثم « تعز » بعد إنشائهما فى خلال العصور الوسطى ، وذلك نتيجة سيطرة الدول السنية الجنوبية فى اليمن على مقدرات البلاد طوال تلك العصور كما أوضحنا فى التمهيد . ولهذا ، فإنه بالرغم من تغير عاصمة العثمانيين فى اليمن ، فإنه يمكن أن تنتهى إلى أن (صنعاء) ظلت عاصمة البلاد فى عهد العثمانيين، بل واستطاعت أن تستعيد أهميتها القديمة على أيديهم ، وأن (زبيد) أو (تعز) كانتا مجرد (دار مقر) فقط كما يقال ، وذلك عندما كانت الأحداث الداخلية تجبر العثمانيين على التخلى عن (صنعاء) .

غير أن قيام الثورات فى ولاية اليمن واختلاف مساحتها من فترة إلى أخرى كان لا يعنى أن اليمن بحدوده الجغرافية الواسعة لم يتمتع بوحدته السياسية تحت الحكم العثمانى، بل على عكس ذلك حرص العثمانيون على توحيد هذا الإقليم تحت سيطرتهم ، فامتدت حدوده من جيزان وصعدة شمالا إلى عدن وحضر موت جنوباً ،وذلك باستثناء تلك الفترات التى نجح فيها الأئمة فى

= « قوانين آل عثمان در مضامين دفتر ديوان » وترجمتها « قوانين آل عثمان فيما يتضمنه دفتر الديوان » . وقد ألف هذه الرسالة — سنة ١٠١٨ هـ الموافقة سنة ١٦٠٩ م — « عين على أفندى » الذى كان أميناً للدفتر الخاقانى » ، فكان لهذا السبب مطلعاً على جميع سجلات الدولة المتعلقة بالأمور الإدارية والمالية . وقد أخذنا نحن عن كتاب الأستاذ ساطع الحصرى .

(١) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ١٣٦ .

الأستقلال ببعض أقاليم اليمن . وقد نجح سليمان باشا الخادم — كما رأينا فى الفصل الثانى — فى اخضاع السواحل اليمنية للسيطرة العثمانية ، أما الأقاليم الداخلية فقد تم فتحها على يد أويس باشا وأزدمر باشا . وكان سلطان حضرموت بدر الطويرق قد قبل طواعية الدخول فى طاعة العثمانيين أثناء ذهاب حملة سليمان باشا الخادم الى الهند ، فاعترف بالسيادة العثمانية ، وجعل الخطبة والسكة باسم السلطان العثمانى ، ومع ذلك دفع الجزية السنوية للوالى العثمانى فى اليمن . وقد حرص سلاطين حضرموت بعد ذلك على ولائهم للعثمانيين طوال مدة بقاء الأخيرين فى اليمن ، وكانوا يتوجهون الى صنعاء أو غيرها لمقابلة والى اليمن للتعبير عن طاعتهم للسلطنة العثمانية ، ولدفع الجزية المقررة عليهم ، بل وللاحتكام الى هؤلاء الولاة لفض المنازعات التى تثور بينهم[1] . وقد رضيت حضرموت الدخول فى طاعة السلطنة العثمانية حتى تنعم بحماية هذه السلطة القوية ضد هجمات البرتغاليين على سواحلها ، وخاصة أنها احتفظت لنفسها بالحكم الذاتى تحت السيطرة العثمانية ، ولذلك كان السلطان بدر الطويرق موضع مدح العيدروس الذى ترجم حياته فقال « هو خير من الأروام (أى الأتراك) وما روى من ذلك عنهم ولولاه ماسلمت حضرموت منهم ولاستحلوا الحرام وظلموا الأنام »[2] .

ومن ناحية الوضع الإدارى لولاية اليمن فى العهد العثمانى — وذلك بعد هذه الإشارة للتطور التاريخى لهذه الولاية — فإنه من الصعب كذلك أن نوضح بالتفصيل حقيقة هذا الوضع لقلة المادة التاريخية اللازمة ، ولانصراف أغلب المراجع المعاصرة وقتذاك عن توضيح مثل هذا الموضوع بالتفصيل .

---

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، جـ٢ ، م٢ ، ص ٣٤٣ أ .

(٢) العيدروس : النور السافر فى أخبار القرن العاشر ، ص ٣٢٨ .

غير أن الرسالة التركية التي اعتمدعليها « ساطع الحصري » تعطي بعض الضوء رغم أن معلومات هذه الرسالة عن اليمن — كما أشار — كانت مقتضبة ، ورغم أنها كانت خاصة بالأوضاع الإدارية في أوائل القرن السابع عشر . وقد أظهرت هذه الرسالة أن اليمن لم يقسم إلى تلك الإقطاعيات العسكرية — وتسمى خاص وزعامت وتيمار — التي عرفها كثير من الولايات العثمانية المختلفة . ومن ناحية أخرى كانت أيالة (أو ولاية) اليمن تضم تسع ألوية (أو سناجق) هي صنعاء ، مخا ، زبيد ، تعز ، صهلة ، كوكبان ، طويلة ، مأرب ، عدن[1] .

وأوضحت هذه الرسالة من ناحية أخرى أن ضرائب الولاية اليمنية وتكاليفها المختلفة كانت تجيء باسم خزينة الدولة — مباشرة أو عن طريق الالتزام — وكان يخصص لأمرائها ورؤسائها رواتب مقننة ، تدفع لهم من الخزانة ، وتعرف باسم « السليانة »[2] .

وكان خراج اليمن هو خمسمائة ألف ذهباً ، ويرسل منه إلى « استانبول » سنوياً حوالي خمسين ألف ذهباً بعد دفع مرتبات الجند وتعييناتهم ومرتبات الموظفين المحليين ومصاريف الحرب وتعمير القلاع وغير ذلك[3] . غير أنه لا يمكن التأكد تماماً من صحة هذه الأرقام ودقتها لقلة مراجع هذا الموضوع ولأن اضطراب أوضاع اليمن الداخلية كان يؤدي بطبيعة الحال إلى عدم استقرار قيمة الخراج ، أو بالأحرى ايرادات خزانة هذه الولاية .

ولا تكفي هذه الصورة المقتضبة لتوضيح النواحي الإدارية والمالية في اليمن في العهد العثماني ، بل علينا أن ندرس سياسة العثمانيين في اليمن بشيء من التفصيل حتى تتضح هذه النواحي بصورة أكثر عمقاً .

(١) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ١٣٦ .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣) أحمد راشد باشا : تاريخ يمن وصنعا (باللغة التركية) ، جـ١ ، ص ٢٥٧ .

وقد قامت السياسة العثمانية فى اليمن على عدة نقاط هامة يمكن إبرازها هنا :

أولا : كان الغرض الرئيسى لسياسة العثمانيين فى اليمن هو إخضاع البلاد لسيطرتهم وتدعيم سيطرتهم به ، وذلك مما كان يتمشى مع هدف العثمانيين من وراء فتح اليمن ، ومع وجهة نظر العثمانيين فى الحكم فى ذلك العصر ، ولذلك كان الهدف العسكرى هو الهدف الرئيسى لسياسة العثمانيين فى اليمن مع مايترتب على ذلك من ضرورة جمع المال اللازم لتحقيق هذا الهدف .

ثانياً : لم يكن قيام العثمانيين بالإصلاحات أو الخدمات فى اليمن جزءاً من مهام الولاة به ، بل كان هؤلاء يقومون بمثل هذه الأعمال للتقرب إلى الأهالى ، ولتسهيل مهمة الحكم .

ثالثاً : طبقاً لطبيعة الدولة العثمانية ونشأتها ، فقد كان الجهاز الإدارى الحاكم فى اليمن هو فى نفس الوقت الجيش المكلف بالمحافظة على السيطرة العثمانية هناك وعلى إخماد الثورات به . فكان والى اليمن هو القائد الأعلى للجيوش العثمانية به ، كما كان السناجق والكشاف وغيرهم من حكام المدن والمناطق اليمنية المختلفة هم قادة الفرق العسكرية هناك .

رابعاً : إستعان العثمانيون بأهالى البلاد فى مختلف الوظائف والرتب فى الإدارة والجيش بصرف النظر عن الاختلافات المذهبية ، فولى يمنيون حكم بعض الأقاليم ، وقادوا الفرق العسكرية ، وتولوا الوظائف الإدارية والمالية والقضائية المختلفة ، بل وتولى بعضهم الوظائف الكتابية فى الديوان العثمانى .

وبناء على هذه النقاط وعلى غيرها — مما سنوضحه خلال عرض سياسة

العثمانيين فى اليمن — فإنه يمكن القول بأنه نتج عن اعتماد العثمانيين على القوة العسكرية فى فرض سيطرتهم فى اليمن ، أن التزموا باتباع سياسة معينة وهى ضرورة إرسال النجدات والإمدادات إلى ولاتهم لتدعيم سيطرتهم به ، وذلك رغم عجز الدولة أحياناً عن تجهيز الإمدادات القوية ، ورغم عزوف الجنود بل الولاة عن الذهاب إلى اليمن لكثرة الثورات به ، ولصعوبة الحرب أو الإقامة فيه . وقد التزم العثمانيون باتباع هذه السياسة منذ وقت مبكر بعد دخولهم إلى اليمن ، فقد رأينا كيف جاء الوالى الثانى أويس باشا إلى اليمن على رأس قوات كبيرة ومجهزة بالمعدات الضخمة ، كما رأينا أن السلطان سليمان سارع بإرسال إمدادات كبيرة تحت قيادة مصطفى باشا النشار لمساعدة أزدمر باشا بعد أن تقدم زحف العثمانيين إلى داخل البلاد . كذلك تزخر المخطوطات اليمنية التى سبق الإستعانة بها فى خلال الرسالة بذكر الإمدادات التى كانت ترسل إلى اليمن تباعاً لدعم السيطرة العثمانية به، وذلك رغم ضعف بعض هذه الإمدادات وقلة استعداداتها ، أو رغم أن بعضها كانت تتكون من العناصر الفاسدة والمجرمين غير المرغوب فيهم كما رأينا فى خلال الفصول السابقة ، وكانت أبرز هذه النجدات والإمدادات هى حملة سنان باشا الوزير الذى ذهب قطب الدين النهر والى إلى أن إرسالها إلى اليمن كان يعد فتحاً ثانياً له . واستمر إرسال هذه النجدات حتى آخر عهد العثمانيين باليمن ، فقد ذكرنا أن آخر ولاتهم به هو قانصوه باشا ، كان قد أتى إلى اليمن على رأس قوات ضخمة رغم ضعف الدولة حينذاك وانشغالها عن اليمن ، ولكنه لم يحقق نجاحاً يذكر أمام أبناء الإمام القاسم — للعوامل التى أشرنا إليها فى الفصل السابع — مما اضطره فى النهاية إلى تسليم البلاد إليهم وعودته إلى مصر . ومما يؤكد اعتماد العثمانيين على القوة العسكرية فى تدعيم سيطرتهم فى اليمن ، أن تعداد جيوشهم به كانت فى المتوسط حوالى عشرين ألف جندى ، منهم خمسة عشر ألف جندياً من الأتراك ، والباقى من العرب من

أهالى البلاد الذين كانوا يدخلون فى خدمة العثمانيين[1] . وتأكد اعتماد العثمانيين أيضاً على القوة العسكرية فى ناحية أخرى هى اهتمام الولاة فى اليمن حينذاك بإنشاء الحصون والقلاع ، أو بتعمير القائم منها ، وشحنها بالسلاح والعتاد ، وذلك كما اتضح خلال الفصول السابقة .

وكان من المحتم أن يقع صدام بين العثمانيين والقوى السياسية فى اليمن ، وخاصة الإمامة الزيدية بقيادة الإمام شرف الدين وابنه المطهر ، ثم بقيادة الإمام القاسم وأبنائه ، وذلك بعد أن تمكن هؤلاء العثمانيين من القضاء على زعماء الثورة المملوكية فى « زبيد » ، وعلى قوة الطاهريين فى « عدن » على يد سليمان باشا الخادم أثناء فتحه للسواحل اليمنية . وترجع حتمية هذا الصدام بطبيعة الحال إلى اهتمام العثمانيين بفرض سيطرتهم فى اليمن ، وبالمحافظة على هذه السيطرة كلما أمكنهم ذلك ، وإن كان هذا لا يعنى أنهم كانوا لا يوافقون على إبقاء الزعامات المحلية فى اليمن على اختلاف مذاهبها طالما اعترفت هذه الزعامات بالسيطرة العثمانية عليها ، إذ أن الصدام الذى حدث بينهم وبين هذه الزعامات إنما يرجع إلى ميل هذه الزعامة وخاصة الإمامة الزيدية — إلى الثورة على الحكم العثمانى ، وإلى الاستقلال .

ولهذا كله ، لم يلتزم العثمانيون بسياسة معينة تجاه القوى اليمنية المختلفة ، بل اختلفت أساليبهم الإدارية والمالية تبعاً لاختلاف الفئات أو الجهات ، فعمدوا إلى الأخذ بالشدة وفرض الضرائب العالية أحياناً ، ومالوا إلى اللين وتقريب الأهالى إليهم مع استخدامهم فى إدارة أقاليمهم أحياناً أخرى .

وكانت الإمامة الزيدية هى أهم وأقوى الزعامات اليمنية ، وكانت لها

---

(١) أحمد راشد باشا : تاريخ يمن وصنعا (باللغة التركية) ، حـ١ ، ص ٢٠٧ .

السيطرة السياسية على أقاليم اليمن الداخلية عند فتح سليمان باشا الخادم للسواحل اليمنية سنة ١٥٣٨ م ، ولذلك اتخذت علاقة العثمانيين بهذه الإمامة أشكالا عديدة اختلفت بين الشدة واللين ، أى بين الحرب والسلم . وكان من الصعب فى الحقيقة القضاء على هذه الإمامة تماماً فى اليمن لانتشار للذهب الزيدى بين الكثير من أهالى المناطق الشمالية ، ولوعورة المناطق الجبلية التى يقطنها هؤلاء ، ولالتفاف باقى أهالى اليمن حول تلك الإمامة للوقوف فى وجه العثمانيين عندما يزداد تبرمهم من الحكم العثمانى ، كما حدث فى زمن المطهر بعد أن انفرد بزعامة الزيديين ، وكما حدث فى عهد الإمام المؤيد بن القاسم بعد زحف جيوشه إلى الأقاليم الجنوبية من اليمن . ورغم هذا فقد ظل العثمانيون يرون أن الأشراف فى اليمن — وأغلبهم ممن يعتنقون المذهب الزيدى وممن يختار الإمام من بينهم — هم مصدر القلاقل والاضطرابات فى اليمن ، وخاصة لأن هؤلاء الأشراف كانوا يستغلون قرابتهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فى جذب الأهالى إليهم ، كما كانوا يلجأون إلى الدين لإثارة هؤلاء الأهالى ضد العثمانيين[١] . وقد عبر حيدر باشا عن وجهة نظر العثمانيين بوضوح أثناء محاصرة أبناء الإمام القاسم له فى « صنعاء » فقال « إذا عاد إلينا ملك اليمن فسنجمع الأشراف ، الجميع ، ونرسل بهم إلى (جزيرة)[٢] « كمران » « فما أتتنا الفتن إلا من قبلهم »[٣] . ودون الخوض فى مناقشة وجهة نظر

---

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، جـ١ ، م٢ ، ص ٣١٩٠أ ، حـ٢ ، م١ ص٧٩ب .

(٢) زيادة فى النص للتوضيح ، ويقصد حيدر باشا هنا أنه يجب نفيهم إلى خارج اليمن .

(٣) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) حـ٣ ، ص ٢٧٣ (ويلاحظ أن هذا الحديث كان موجهاً إلى عيسى بن لطف الله نفسه ، إذ ظل مقيما لدى حيدر باشا فى صنعاء حتى خرج الأخير منها مهزوماً إلى زبيد وذلك لأن عيسى بن لطف الله ظل معادياً لآل الإمام القاسم حتى ذلك الحين ، شأنه فى ذلك شأن أغلب أفراد أسرة الإمام شرف الدين الذين ظلوا يناصرون العثمانيين مدة طويلة بعد ظهور الإمام القاسم) .

العثمانيين ، فنحن نرى أنهم كانوا مسئولين إلى حد كبير فى إثارة هذه « الفتن » التى أشار إليها حيدر باشا فى حديثه وذلك لسوء سياسة وتصرفات بعضهم ، ويؤكد هذا أن بعض الولاة الأقوياء كانوا يستطيعون بفضل حسن سياستهم وعدلهم أن يمنعوا قيام هذه الفتن ، أو أن يخففوا من حدتها على الأقل ، وأن يجذبوا أهالى اليمن إلى الحكم العثمانى بعيداً عن تأثير الأئمة أو الأشراف عموماً .

وإزاء التناقض البين بين وجهة نظر العثمانيين فى الأشراف الزيديين وبين صعوبة القضاء عليهم سياسياً على الأقل ، فقد اضطر العثمانيون إلى اتخاذ سياسة متعددة الأوجه تجاه هؤلاء . فمن ناحية . لجأ العثمانيون إلى استخدام القوة لإخضاع هؤلاء الأشراف للسيطرة العثمانية وذلك مثلما فعلوا مع باقى أهالى اليمن . وقد نجح العثمانيون فى تحقيق غرضهم من وراء استخدام القوة ، غير أن هذا النجاح كان مؤقتاً مرحلياً فى أغلب الأحيان ، إذ سرعان ماينقلب الأشراف عليهم عندما تضعف قبضتهم على زمام الأمور فى البلاد ، وذلك مثلما حدث مع أغلب أفراد أسرة الامام شرف الدين وعلى رأسهم المطهر . ومع معاصريهم من الأشراف . وكان العثمانيون لا يجدون غضاضة فى الابقاء على هؤلاء الأشراف فى أقاليمهم بعد اعلان طاعتهم للسلطنة العثمانية ، اذ كانت النظم العثمانية لاتعارض الاستعانة بالزعماء المحليين فى حكم أقاليمهم بعد منح هؤلاء الزعماء الرتب والألقاب العثمانية . وقد اتضح هذا فى مناطق مختلفة من الامبراطورية العثمانية ، كما فى مناطق ألبانيا وكردستان الجبلية ، أو الجزيرة العربية ، فرغم خضوع هذه المناطق للسيطرة العثمانية المباشرة ، فقد كان هذا الخضوع اسمياً فى الحقيقة ، اذ أبقى العثمانيون على التنظيمات القبلية فى هذه الجهات كما هى ، واستخدموا الرؤساء المحليين فى حكم أقاليمهم بعد منحهم

ألقابا عثمانية[1] ، أى إعتبارهم أمراء أو سناجق عثمانيين وقد رأينا طوال فصول الرسالة أن الكثير من الأشراف الزيديين بما فى ذلك أفراد أسرة الإمام شرف الدين قد دخلوا فى خدمة العثمانيين — وخاصة فى فترات قوة سيطرة هؤلاء - فمنحهم العثمانيون الألقاب المختلفة وعينوهم حكاماً للمناطق الشمالية أو قادة للفرق العسكرية . وقد حدث أن استعان حسن باشا الوزير بعدد كبير من أمراء وزعماء المناطق الشمالية - باعتبارهم أمراء عثمانيين - فى الحملة الكبيرة التى أرسلها تحت قيادة سنان باشا الكيخيا للقضاء على ثورات الأقاليم الجنوبية وخاصة إقليم « الحجرية » و « يافع »[2] ، وذلك فضلا عن استعانة الولاة العثمانيين بوجه عام ببعض الأمراء الزيديين ضد البعض الآخر فى المنطقة الشمالية ذاتها . وكان هؤلاء الولاة يبالغون فى تكريم من يدخل فى خدمتهم من بين أمراء المناطق الشمالية ، فيصرفون لهم المنح والهدايا ، كما يدخلون أتباعه وأنصاره فى خدمة الجيوش العثمانية حتى تصرف لهم الجوامك (أى المرتبات) السلطانية[3] . وكان السلاطين العثمانيون يشتركون فى تكريم هؤلاء الأمراء، فكانوا يرسلون الخلع والترقيات إليهم من استانبول - بنـــاء على طلب ولاة اليمن - مع تلك التى يرسلونها إلى الولاة والأمراء الأتراك ، وذلك مقابل الخدمات التى يقدمونها للسلطنة العثمانية[4] .

ولم تكن هـذه السياسة الإدارية والمـالية جميعها هى موقف العثمانيين الوحيد تجاه الجماعات الزيدية ، فقد عمد بعض الولاة إلى تقريب الفقهاء والعلماء — على اختلاف مذاهبهم — إليهم وإجراء المناقشات الطويلة معهم ،

---

(١) Lybyer, A.H. : The Government of the Ottoman Empire in the time of Suleiman the Magnificent, p. 30.

(٢) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، جـ١ ، م أ ، ص ٩٩ ب .

(٣) نفس المرجع : ص ٩١ أ .

(٤) نفس المرجع : ص ٧٤ ب .

وذلك لإذابة الفوارق المذهبية، ولتقريب وجهات النظر فى المسائل السياسية والدينية . وقد اتضح هذا بشكل كبير على يد جعفر باشا الذى عاصر اشتداد ثورة القاسم كما ذكرنا ، والذى اشتهر بعلمه وتفقهه فى الدين ، فقد قرب إليه بعض الفقهاء الزيديين المعتدلين وأحسن إليهم وناقشهم فى أمور فقهية عديدة حتى أظهر لهم « أن الخلاف إنما هو لفظى فيما بينهم »[1] . ومن ناحية أخرى كان العثمانيون يتقربون إلى أمراء المنطقة الشمالية وزعمائها ورؤساء قبائلها عن طريق توليتهم المناصب الكبيرة، أومنحهم الرواتب الضخمة، أو حتى إقطاعهم الأراضى الواسعة . وقد حاول سنان باشا الكيخيا بعد انفراده بولاية اليمن التفاوض مع الإمام القاسم على أن « يجعل له قطعة بلاد أو كفايته هو وأولاده »[2] ، مقابل التراجع عن ثورته ، ولكن الإمام أصر على مواصلة الثورة .

وهكذا يتضح أن العثمانيين قد استخدموا القوة قبل أى شىء آخر فى إخضاع المنطقة الشمالية لسيطرتهم ، ولكن هذا لم يمنعهم من استعمال الأساليب السياسية المتعددة فى تحقيق أغراضهم فى هذه المنطقة ، وفى إدخال أمرائها فى طاعتهم ، فقد استغلوا خلافاتهم وطمعهم فى السلطة فى الإيقاع بينهم ، كما استعملوا الأموال والهدايا فى تقريبهم إليهم ، وأدخلوهم فى خدمتهم بجعلهم حكاماً لأقاليمهم أو قادة لبعض قواتهم مع صرف المرتبات السنوية الكبيرة إليهم ، وهى التى عرفت باسم « السليانة » . وكان الإستثناء الوحيد من هذه المعاملة المالية خاصة بالمطهر بن الإمام شرف الدين كما رأينا ، فقد كانت شروط الصلح الذى أبرم مع أزدمر باشا ثم جدد مع سنان باشا الوزير تنص على أن يترك للمطهر خراج الأقاليم الخاضعة له ، مقابل إعترافه بالسيادة العثمانية ، أى

---

(١) يحى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ص ١٥٣ .
(٢) نفس المرجع : ص١٤٧ .

مقابل أن تكون « الخطبة والسكة » فى هذه الأقاليم باسم السلطان .

ولم تقف هذه السياسية الإدارية والمالية للعثمانيين عند حدود المنطقة الشمالية فقط ، بل كانت سياسة عامة تشمل جميع أنحاء اليمن ، وذلك لخلق طبقة يمنية قوية تلتف حولهم ، لزيادة دعم سيطرتهم فى البلاد . ففى نهاية ولاية أزدمر باشا — أى فى أوائل عهد العثمانيين باليمن — كان أحد الأمراء اليمنيين وهو الفقيه شجاع حاكماً لمدينة « إب » ، وبعد وفاته تولى أخوه الفقيه شمس الدين بدلا منه[1] . كذلك سبق أن أشرنا فى خلال الفصول السابقة إلى بعض اليمنيين الذين تولوا حكم بعض المدن أو الأقاليم الجنوبية ، مثل أمير « الجند » — التى تقع بالقرب من تعز — الذى قاوم بعض الوقت جيوش الإمام المؤيد أثناء تقدمها إلى الجنوب ، والذى شجع عابدين باشا على إرسال نجده عسكرية إليه ، ولكنه منى بالفشل ، ومثل أمير « عدن » الذى كان أحد رؤساء قبائل « يافع » والذى سارع إلى الدخول فى طاعة الإمام المؤيد بعد سقوط « تعز » فى أيدى قواته . ومن ناحية أخرى استخدم العثمانيون بعض هؤلاء الأمراء فى قيادة قواتهم لإخماد الثورات والاضطرابات الداخلية ؛ إذ أرسل بهرام باشا أحمد الحجرى — أحد أمراء إقليم الحجرية — « وصحبته جماعة من أبطال الأروام ومعهم أمير سنجق ضرغام »[2] ، فأخضع هذا الإقليم للسيطرة العثمانية ، ثم تولى حكمه لمدة عام ونصف حتى عزل عنه[3] . وزيادة على ذلك فقد استعان العثمانيون ببعض أهالى جنوب اليمن فى الوظائف الكتابية ، إذ قام بهرام باشا بتعيين اثنين من علماء « زبيد » فى الديوان لإجادتهما للغة العربية « فأمر بأن

---

(١) أحمد بن يوسف فيروز : مطالع النيران (مخطوطة) ، ص ١٧ ب — ١٨ أ .

(٢ و٣) محمد بن يحيى المطاب : بلوغ المرام فى تاريخ دولة مولانا بهرام ، (مخطوطة) ص ٢٦ أ — ٢٦ ب .

يلازما معاً كتابة الإنشاء بالديوان السعيد السلطاني باليمن المعمور »[1] .

ويجدر الإشارة إلى علاقة هؤلاء العثمانيين بطائفة الإسماعيلية، إكمالا للحديث عن علاقة هؤلاء العثمانيين بالفئات اليمنية المختلفة . وتعتبر هذه الطائفة إحدى أقليات اليمن ، كما كانت على عداء شديد مع الزيديين لاختلافات مذهبية ؛ إذ كان الإسماعيليون يرون — على سبيل المثال — أن الزيديين يتساهلون كثيراً في شروط الإمامة[2] . وقد لجأ الإسماعيليون إلى العثمانيين منذ بداية دخول الأخيرين إلى اليمن ، وذلك لعدائهم التقليدى مع الزيديين ، الذى كان قد بلغ ذروته قبل ذلك بوقت قصير . ودل التقارب الذى حدث بين العثمانيين والإسماعيليين على حاجة كل منهما للآخر ، فقد كان العثمانيون فى حاجة إلى حليف قوى لتدعيم وجودهم فى اليمن ، كما كان الإسماعيليون فى حاجة كذلك إلى حليف قوى للانتقام من الإمام شرف الدين الذى سبق له محاربتهم فى « همدان » بعد دخوله « صنعاء » لأول مرة مباشرة . وكان داعى الإسماعيلية الكبير محمد بن إسماعيل قد لجأ إلى زبيد بعد صدامه مع الإمام شرف الدين ، كما تشتت الكثيرمن الإسماعيلية فى أنحاء اليمن ، واضطر الآخرون إلى الدخول فى طاعة الإمام وابنه المطهر . وقد رأينا فى خلال الفصول السابقة كيف تفانى الإسماعيليون فى خدمة العثمانيين للقضاء على أعدائهم الزيديين ، كما رأينا أن إغراء الداعى محمد بن إسماعيل لأويس باشا على ضرورة فتح « صنعاء » كان من بين العوامل الهامة التى شجعت العثمانيين على التوسع فى أقاليم اليمن الداخلية ؛ إذ قال هذا الداعى الى أويس باشا « دركى أخذ صنعاء فمعى خمسون ألف مقاتل ، كل واحد منهم يرى أنه يجب عليه إطاعة أمرى تديناً وإلا يكون عاصياً ، فتم (الاتفاق)[3] على ذلك ،

(١) محمد بن يحيى المطيب : بلوغ المرام فى تاريخ دولة مولانا بهرام (مخطوطة) ص ٤ ب .

(٢) Tritton, A. S. : The Rise of the Imams of Sanaa, p. 125.

(٣) زيادة فى النص للتوضيح .

وشمر واجتهد»[1] . وقد ظل التعاون وثيقاً بين الطرفين طوال الحكم العثمانى فى اليمن ، ما عدا تلك الفترة القصيرة من ولاية رضوان باشا الذى اصطدم فيها بداعى الإسماعيلية ، واستغل بعض زعمائها ضد البعض الآخر ، وفرض عليهم الضرائب لزيادة إيرادات خزانته بعد أن كانوا يعفون منها باعتبارهم جزءاً من الجيش العثمانى فى اليمن ، وذلك منذ أن اشتركوا مع أويس باشا ثم أزدمر باشا بعد قتل الأول فى محاربة الإمام شرف الدين ، فقد كان أزدمر باشا «كتب لهم خطوطاً (أى أوامر ومراسيم) واستخرج لهم مراسيم سلطانية ، وأعطى الشيخ محمد بن إسماعيل سنجقاً سلطانياً ، وكان لهم الإعزاز والإكرام الكلى لأنه لم يكن للزيدية غريم سواهم»[2] .

أما سياسة العثمانيين الإدارية والمالية بالنسبة للقبائل اليمنية المختلفة ، فقد كانت تمثل جانباً هاماً من سياسة العثمانيين فى اليمن ، وخاصة تلك القبائل القوية التى تحتفظ دائماً بتنظيماتها القبلية نظراً لظروفها الطبيعية والموضوعية الخاصة ، والتى كانت تقطن المناطق الجبلية الوعرة أو بعيداً عن المناطق الصالحة للزراعة المأهولة بالسكان ، وذلك لأن هذه القبائل — نظراً لتنظيماتها القبلية المعقدة ولظروفها المعيشية الصعبة — تكون أميل إلى الخروج على السلطة المركزية لتدير أمورها بنفسها وفق تقاليدها الخاصة ، كما تكون أميل إلى الحرب والإغارة للحصول على حاجاتها الضرورية نظراً لفقر أقاليمها . وقد خشى العثمانيون هذه القبائل لشدة بأسها ولأنها قبائل محاربة كما كانت العنصر الأساسى فى الثورات التى قامت فى أقاليم اليمن دون استثناء فى تلك الفترة .

ونتيجة لهذا اتبع العثمانيون مختلف الوسائل والطرق لإخضاع هذه القبائل لسيطرتهم ، فاستعملوا القسوة البالغة فى إخضاعها أحياناً ، واستعملوا

---

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ، ص ٤١ أ .

(٢) نفس المرجع ، ونفس الصفحة .

الأساليب السياسية أحياناً أخرى لتقريبها إليهم . وقد رأينا فى خلال الفصول السابقة الكثير من مواقف العثمانيين العديدة المتباينة من هذه القبائل ؛ إذ مال بعض الولاة إلى استخدام القوة فى إخضاع هذه القبائل ، فكانوا يأمرون بنهب قراها بعد دخول قواتهم إليها ، وبقتل الأسرى ، وبأخذ الرهائن من الرجال والنساء ، كما كان البعض الآخر من الولاة يميل — أو حتى يضطر — إلى استعمال اللين لكسب ولاء هذه القبائل ، فكانوا يقدمون الأموال والهدايا إلى رؤسائها لجذبهم إليهم . وتعتبر هذه الهدايا فى حقيقة أمرها رشوة مقنعة لضمان هدوء هذه القبائل ، إذ كان العثمانيون يخلعون على هؤلاء الرؤساء الخلع النفيسة ، ويمنحونهم الألقاب الكبيرة ، كما كانوا أحياناً أخرى يسجلون أسماءهم فى سجلات الجيش فى اليمن حتى يتمكنوا من صرف المرتبات لهم . ففى المرحلة الأولى من ثورة القاسم قام سنان باشا الكيخيا بتوزيع الأموال على بعض القبائل لتتخلى عن الإمام القاسم ، إذ أخذ « يرسل للمشايخ بالذهب الأحمر المغشوش حتى أفسدهم ، ولم يتقدم مكاناً إلا برضا مشايخه »[1] . وذلك حتى تم له إخماد ثورة القاسم فى هذه المرحلة ، فلجأ الأخير إلى جبال « برط » كما سبق أن ذكرنا .

وبعد أن استتب الأمر لسنان باشا الكيخيا فى المنطقة الشمالية حينذاك مال إلى استعمال القسوة مع قبائل هذه المنطقة لكسر شوكتها عقاباً لها على مناصرتها للإمام القاسم حتى أن بعضها — مثل قبائل « وادعة » — خشى الإنضمام إلى القاسم عندما بدأ المرحلة الثانية من ثورته ، إذ كان سنان باشا الكيخيا قد تعمد فى هذه الأثناء إذلال هذه القبائل ، فأخذ من بينهم كثيراً من « الرهائن » من الرجال والنساء ، كما أخذ المحاربين منهم وأرسلهم إلى المناطق الجنوبية من اليمن للانضمام إلى صفوف العثمانيين فى حروبهم ضد قبائل يافع وغيرها[2] .

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٤٥ .
(٢) الجرموزى : سيرة الامام القاسم بن محمد (مخطوطة) ، م ٢ ، ص ١٣٦ ب .

وقد عمد العثمانيون كذلك إلى صرف المرتبات المنتظمة للقبائل التى تقطن بالقرب من المدن الهامة لضمان هدوئها ، وللمحافظة على الطرق الموصلة إلى هذه المدن ، وذلك كما فعل محمد باشا مع فروع قبيلة « خولان » القريبة من « صنعاء» فقد قيل « ولما عرف محمد باشا من خولان صنعا أنهم أكثروا الضرر فى الطرق والخلاف حول صنعا كتب منهم ثمان مائة نفر فى الجوامك (أى المرتبات المقررة للجند) فبسبب ذلك كف شرهم »[١] وقد سبق أن أشرنا إلى أن الجيش العثمانى فى اليمن كان يضم بصفة مستمرة حوالى خمسة آلاف يمنى سواء ممن كانوا يبقون فى أقاليمهم للمحافظة على الهدوء بها ، أو ممن يحاربون إلى جانب العثمانيين فى أقاليم يمنية أخرى غير أقاليمهم . وكان العثمانيون يحرصون على استخدام هؤلاء للإستفادة من خبرتهم بأحوال بلادهم ، أو لخدمة أفراد الجيش أثناء الحرب أو السلم . ويسمى الذين يقومون بالخدمة فى الجيوش باسم : « الشفاليت ، وهم طائفة من العرب ملفقين من كل قبيلة يأكلون العلوفة (أى المرتبات العينية) السلطانية ، ويخدمون العسكر سفراً وحضراً ، ويسمى الواحد منهم شفلوت »[٢] . غير أن سياسة إعتماد العثمانيين على توزيع الأموال والهدايا على القبائل لجذبها إليهم أو لتهدئتها ، كانت سياسة فاشلة إذ كانت ذات نتائج مؤقتة فقط ، بل أحياناً كانت تؤدى إلى نتائج عكسية . فقد كانت بعض القبائل تميل إلى العصيان لطمعها فى الحصول على المزيد من هذه الأموال ، كما كان البعض الآخر من هذه القبائل يخلع طاعة العثمانيين إذا لم يحصل على المنح التى حصلت عليها القبائل الأخرى . وقد أشار إلى هذا أحد المعاصرين وقتذاك عند حديثه عن تقدم جيوش حسن باشا الوزير تحت قيادة كتخداه سنان باشا إلى إقليم « يافع » فقال : « وانثالت إلى مواجهته

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٤٦ .
(٢) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ص ٦٦ ب .

قبايل شتا « شتى » فمنهم طامع فى النوال ، ذاهب إلى جمع الحطام والمال ، ومنهم جازع من إقدام الأبطال بالمرهف الحسام، ومنهم من هو طليعة لقومه فى الإقدام والإحجام، ومنهم من هو صادق المقال، وما أقل من هو موصوف بهذه الحال، إذ جمهور القبايل أولوا تحول وانتقال ، وأرباب زيغ وزوال ، إن أعطوا لم يرضوا ، وربما حملهم ذلك على الخلاف والقتال ، ولاسيما إذا فضل بعضهم على بعض فى العطاء ، وإذا منعوا عن الإحسان، وصدوا عن سبيل البذل والامتنان ، توقدت أشرارهم ، وتكدرت أسرارهم ، وسارعوا إلى القتال من غير تراخ ولا إملال ، وبالجملة فأمرهم مشكل على كل حال من الأحوال ، وإنما صلاحهم موكول إلى ذى الكبريا والجلال »[1] .

وهكذا يتضح أن العثمانيين استخدموا القوة والسياسة معاً لإخضاع القبائل اليمنية لسيطرتهم ، ولكن هل نجح العثمانيون طوال مدة حكمهم لليمن فى تحقيق هدفهم بالنسبة لهذه القبائل ؟ وهل استطاعوا خلال هذه المدة الطويلة أن يغيروا النظم أو العلاقات القبلية ؟

لقد فشل العثمانيون فى الحقيقة فى تحقيق سيطرتهم على القبائل اليمنية رغم اتباعهم للأساليب المختلفة للوصول إلى ذلك ، كما فشلوا أيضاً فى تغيير النظم أو العلاقات القبلية السائدة فى اليمن . فرغم نجاح العثمانيين فى تحطيم القوى القبلية أحياناً عن طريق استخدام القوة والعنف ، وأحياناً أخرى فى إضعاف العلاقات القبلية وخلخلتها ، إلا أن هذا النجاح أو ذاك ظل عديم الأثر ، أو ذا آثار مؤقتة على الأقل . فقد ظلت هذه القبائل مصدر قلق دائم للحكم العثمانى فى اليمن ، كما ظلت موضع اهتمام المسئولين العثمانيين به فى نفس الوقت . فقد كانت هذه القبائل هى صاحبة السلطة الفعلية فى أقاليمها ، ليس ذلك فى أوقات الحروب والثورات

---

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية ، جـ٢ ، ص ١٠٠ ب .

فحسب ، بل كان ذلك فى أوقات السلم والهدوء أيضاً . وكان على العثمانيين أن يتقربوا إلى رؤساء هذه القبائل بطريقة أو بأخرى حتى يضمنوا خضوعهم لسيطرتهم ، أو حتى يتأكدوا من هدوئهم على الأقل . وبمعنى آخر كانت سلطة العثمانيين فى الواقع لاتتعدى المدن الهامة أو القلاع والحصون المنتشرة فى البلاد، وذلك بالإضافة إلى الأقاليم القريبة منها والمحيطة بها[1] .

ويرجع فشل العثمانيين فى الواقع إلى عاملين رئيسيين :

أولها — أنه لم يكن من أهداف العثمانيين من وراء حكمهم لليمن أو لغيره من البلاد أن يحدثوا تغييراً حقيقياً فى أوضاع البلاد الاجتماعية بل كان هدفهم الرئيسى من وراء إخضاع هذه القبائل لسيطرتهم هو دعم سيطرتهم فى اليمن فقط .

ثانيهما — أن تغيير النظم والأوضاع القبلية فى اليمن يحتاج إلى تغيير حضارى كبير فى أقاليم القبائل اليمنية لم يتمكن العثمانيون من القيام به لأنه أكبر من قدراتهم أو إمكانياتهم ، بل ولا نبالغ إذا قلنا إنه لا يمكن تحقيق هذا التغيير فى أثناء حكم معين أو فى خلال مرحلة تاريخية معينة من مراحل تاريخ اليمن ، وذلك لأنه يحتاج إلى إمكانيات كبيرة وفترات طويلة . فتغيير هذه النظم والأوضاع لا يتحقق إلا اذا تغيرت علاقات الإنتاج فى أقاليم هذه القبائل وتعدت الطور الإقطاعى البدائى الذى يسود العلاقات هناك ، أو بالأحرى إلا اذا تغيرت ظروف معيشة القبائل بتغير علاقة الأهالى بالظروف الطبيعية التى يعيشون فيها . ويتأتى هذا عن طريق نشر التعليم بين الأهالى من ناحية ، وعن طريق امتصاص طاقاتهم وجهودهم فى القيام بأعمال إنشائية وعمرانية كبيرة

---

(١) Niebuhr, C. : Description de L'Arabie, 167.

زراعية كانت أو صناعية . وتنفيذ هذه القفزة الحضارية لا يتم الا على يد حكومة قوية عصرية تستطيع أن تتعاون مع هـذه القبائل لتتغلب على ظروف بيئتها الطبيعية الصعبة التي يغلب عليها الطابع الجبلي أو الصحراوى ، أو حتى أن تدفعهم إلى ذلك بما لها من امكانيات الحكومات القوية الفنية والمالية . ويتأتى هـذا التغيير الحضارى على سبيل المثال — بتوفير مياه الرى لتوسيع الرقعة الزراعية داخل أقاليم القبائل ، من طريق حفر الآبار لاستغلال المياه الجوفية ، أو بإقامة السدود الصغيرة لتخزين مياه الأمطار ، أو بإقامة المشروعات التعدينية والصناعية الضخمة التي تعتمد على وفرة معادن هذه المناطق . وبطبيعة الحال لم يكن فى استطاعة العثمانيين القيام بهذا التغيير فى ظروف معيشة الأهالى ، ولذلك ظلت الأوضاع القبلية كما هى ، كما ظلت سياسة العثمانيين سياسة مؤقتة مرتجلة تستجيب للواقع ولا تغير فيـــه ، مثلها فى ذلك مثل سياسة حكومات اليمن التى سبقت الحكومة العثمانية أو حتى التى لحقتها حتى قيام النظام الجمهورى فى اليمن الذى نأمل أن يقوم بالتغيير الحضارى اللازم هناك .

وتتضح صعوبة الأوضاع القبلية وتعقيداتها فى اليمن اذا عرفنا أن موقف هذه القبائل الاستقلالى أو المعارض من العثمانيين كان موقفاً عاماً من الحكومة المركزية هناك مهما كان نوعها أو صفتها ؛ اذا كانت هذه القبائل لا تتوانى عن الثورة على الحكومة القائمة ، كما لا تتأخر عن اعلان الحرب ضد بعضها البعض ، وذلك عندما تشتد وطأة « الدولة » ، أو بالأحرى عندما تتعارض مصالحها مع مصالح الحكومة المركزية أو جيرانها . ومن ناحية أخرى ، كانت هـذه القبائل شديدة الحرص على الأخذ بالثأر ، كما كانت هـــذه العادة من أبرز عاداتها التقليدية ، ولذلك كانت هذه القبائل تشن الحرب ضد بعضها البعض باستمرار على مر السنين والأجيال[1] ، كذلك كانت ضراوة القبائل ترجع

---

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانيـة (مخطوطة) ، جـ٢ ، ص ٩٥ أ .

أساساً إلى قسوة بيئتها الخاصة سواء الجبلية أو الصحــــراوية وليس إلى نوع معاملة العثمانيين لها ؛ إذ أن الجبلى أو البدوى – مهما اختلفت جنسيتـه أو موطنه — معروف ببأسه وغلظته . وقد رأينا خلال فصول الرسالة كيف قسا اليمنيون فى معاملة بعضهم بعضاً ؛ وخاصة على أيدى القبليين ، أو بالأحرى كما حدث فى المناطق التى تقطنها القبائل ، ولذلك أشرنا إلى قسوة المطهر فى معاملة أهالى اليمن عند مطلع حياته السياسية والعسكرية عندما كان يعمل على بسط أبيه الإمام شرف الدين فى أقاليم اليمن المختلفة بعد سقوط السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهرى . غير أن هـذا كله لا ينفى قسوة العثمانيين فى معاملة اليمنيين ، تلك القسوة التى كانت ترجع إلى طبيعة العثمانيين العسكرية الخشنة من ناحية ، وإلى أنها — أى القسوة — كانت ظاهرة منتشرة فى العالم المعاصر وقتذاك .

وكيفما كان الأمر ، فقد اتضحت لنا علاقة العثمانيين بالفئات اليمنية المختلفة، فظهر أن هذه العلاقة كانت لا تسير على وتيرة واحدة بل اختلفت بين العنف واللين ، وذلك لتحقيق هـدف رئيسى هو إخضاع هذه الفئات دون استثناء للسيطرة العثمانية . كذلك اتضح خلاف موقف هذه الفئات من العثمانيين ، فقد عارضهم البعض للاحتفاظ بسيطرتهم الخاصة فى البلاد ، وعلى رأس هؤلاء الأئمة الزيديين الذين رضخوا أحياناً للسيطرة العثمانية عندما لم يجدوا مفراً من ذلك ، كما عارض البعض الآخر العثمانيين لتحقيق مصالح خاصة مؤقتة مثلما كانت تفعل بعض القبائل اليمنية . ورضخ بعض هذه الفئات من ناحية أخرى للسيطرة العثمانية خوفاً واستسلاماً وخاصة فى أوقات قوة وازدهار هذه السيطرة ، كما رضخ البعض الآخر لتحقيق مصلحة أو مكاسب خاصة مثل بعض علماء وأعيان البلاد على اختلاف مذاهبهم وأقاليمهم ، أو مثل الإسماعيليين الذين حاولوا استخدام

العثمانيين - بعد دخولهم فى طاعتهم - فى المحافظة على وجودهم وكيانهم فى اليمن ضد العداء الزيدى التقليدى لهم . وقد أسهبنا فى الفصل السابع فى توضيح كيف رحب العثمانيون بدخول بعض الفئات أو حتى الشخصيات الكبيرة فى طاعتهم ، أو بمعنى آخر كيف عمل العثمانيون على تقريب هذه الفئات أو الشخصيات الكبيرة إليهم لتكوين طبقة اجتماعية عريضة حولهم فى اليمن لتدعيم سيطرتهم به . وذلك بعد منح هذه الطبقة بعض أو كل الامتيازات التى يتمتع بها العثمانيون هناك ، أو بالأحرى بعد ربط مصالح هذه الفئات والشخصيات بمصالح العثمانيين ، وربط وجودها وارتفاع شأنها بوجودهم .

غير أن علاقة العثمانيين بالفئات اليمنية المختلفة كما سبق أن أوضحنا ، كانت لا تمثل إلا جانباً واحداً فقط من سياسة العثمانيين فى اليمن ، إذا كان لهذه السياسة عدة جوانب أخرى تتصف بالعمومية أو الشمولية لأنها كانت تتصل بالأهالى عموماً دون أن تختص بفئة أو بفئات معينة ، وذلك مثل اهتمام العثمانيين بإقامة المنشآت الخيرية العامة كبناء المساجد والمدارس وغيرها ، أو مثل اهتمامهم بمظاهر الحياة الدينية والاجتماعية العامة . ولقد كان الهدف الرئيسى من وراء اهتمام العثمانيين بهذه الجوانب العامة هو الهدف السياسى ، أى للتقرب من الأهالى عموماً لتسهيل مهمة الحكم فى البلاد ، أو بمعنى آخر لتهدئة الأوضاع فى اليمن ، ولامتصاص شحنات الغضب والثورة عند الأهالى ، وهى التى قد تؤدى عند إهمال معالجتها أولا بأول إلى قيام الاضطرابات والحروب .

وقد سبق أن ذكرنا أنه طبقاً لنظرية حكومات تلك الفترة فى الحكم ومنها الحكومة العثمانية ، فلم يكن من مهام هذه الحكومات الاهتمام بتطوير الزراعة والصناعة والتجارة ورفع شأنها ، أو تقديم الخدمات العامة للأهالى مثل تسهيل طرق المواصلات والبريد ، أو بناء المدارس والمستشفيات وغيرها ،

بل كانت هذه الأعمال من مهمة الأهالى أنفسهم وفقاً لتقاليدهم وأوضاعهم الخاصة. أما اهتمام الحكومات بهذه الأمور — إذا أبدت اهتماماً يذكر بها — فإنه يكون من أجل زيادة موارد الأهالى فى بلادهم لزيادة موارد خزانة الدولة بالتالى، أو من أجل رغبة بعض الحكام فى تخليد ذكراهم بإقامة المنشآت الكبيرة كالمساجد والمدارس أو القلاع والحصون، أو من أجل توطيد حكمهم بجذب الأهالى إليهم، أو بمد الطرق وتعبيدها إلى الأماكن البعيدة أو الوعرة، وذلك لأن مهمة هذه الحكومات كانت تحقيق الأمن والعدل فى داخل البلاد من ناحية، والمحافظة على حدودها أو توسيع رقعتها من ناحية أخرى .

وعلى ضوء هذه الاعتبارات فيمكن أن نفهم حقيقة وطبيعة اهتمام الولاة العثمانيين فى اليمن فى القيام ببعض الأعمال أو «الخدمات العامة» إذا جاز لنا استعمال هذا التعبير الحديث، كما يمكن أن نفهم اهتمام الكتاب والمؤرخين اليمنيين وخاصة من المنحازين إلى العثمانيين — بل وتهليلهم أحياناً — عند ذكر الأعمال الخيرية لأحد الولاة، أو عند ذكر اهتمام هذا الوالى أو ذاك برفع إحدى المظالم الإدارية أو المالية .

وكانت حصيلة أعمال العثمانيين الإنشائية فى اليمن كثيرة فى الواقع، وذلك كما يؤكد أحد الرحالة الأوربيين الذى زار اليمن بعد خروج العثمانيين منه بقليل فقد ذكر أنه كان للباشوات فى اليمن البعيدين عن القسطنطينية موارد ضخمة، ولهذا كانوا يسعون إلى كسب سمعة حسنة بين الأهالى، ويحاولون إرضاءهم، وذلك بالقيام ببعض الأعمال. ولذلك فلايزال يشاهد — فى زمن هذا الرحالة — فى عدد من المدن مساجد رائعة وأضرحة جميلة أقيمت تحت رعاية هؤلاء الباشوات. كذلك اهتم هؤلاء بتمهيد طرق القوافل، وأقاموا المحطات لراحة المسافرين ولتزويدهم بالمياه. ورغم ذلك فيبدو

أن نير الحكم التركى لم يكن مقبولا لدى اليمنيين الذين كانوا يثورون على العثمانيين ، والذين أصبحوا أكثر خطورة بعد أن تعلموا استعمال الأسلحة النارية ، وبعد أن زال عنهم الشعور بأن العثمانيين أناس لا يقهرون[١] .

وزخر المخطوطات اليمنية التى رجعنا إليها فى الحقيقة بذكر منشآت بعض الولاة فى اليمن وبذكر أعمالهم الخيرية ، وخاصة أولئك الولاة الأقوياء الذين ساد الهدوء — أو حتى بعض الهدوء — فترة ولايتهم لليمن . وعلى سبيل المثال لا الحصر ، اهتم حسن باشا الوزير أثناء ولايته الطويلة بإقامة بعض المنشآت التى أشار إليها وأشاد بها مؤرخه الشخصى ابن داعر الذى قال «فمن ذلك ما أمر به فى هذه السنة (٩٩٤هـ — ١٥٨٦/٥م) إنشاء منارة عالية البنيان شامخة الأركان بمسجد القليجى فى مدينة صنعاء ، وله بجنب هذا المسجد قبة حسنة أقيمت بصناعات محكمة متقنة ، ونقاشات بديعة مستحسنة .. ، وحولها دور عديدة وقصور منيفة مشيدة سكنها صالحو أهل هذه المدينة .. ، ولم يوفق أحد من الملوك وأرباب الولايات فى سالف الزمان وقديم السنوات إلى إقامة منارة هناك يتم بها كمال هذا المسجد .. فأدركه الله تعالى بعناية حضرة الوزير ، وصرف إلى عمارته وإصلاحه الاهتمام الكبير حتى استقام بنيانه من عوج الخراب ، وأصبح عالى الأركان شامخ القباب .. »[٢] . ويستطرد ابن داعر بعد ذلك فى ذكر اهتمام حسن باشا الوزير بتعيين المؤذنين والخدام والأئمة وغيرهم لهذا المسجد وبمنحهم ما يكفيهم من المرتبات وأشار ابن داعر إلى الكثير من أعمال هذا الوالى الخاصة بتعمير المساجد وتجديدها حتى قال « حتى أتا (أتى) على جملة ما فى مدينة صنعا من المساجد على كثرتها ، ولا يعتوره (لا يعتريه) فى ذلك

---

(١) Niebuhr, C. : Description de L'Arabie, p. 168.

(٢) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، جـ٢ ، م أ ، ص ٧٣ب — ٧٤ أ .

ملل ، ولا يلتابه فيما ذكرناه تراخ ولا كسل »[١] . ومثال آخر هو ما قام به بهرام باشا الذى تولى أمر اليمن بعد حملة سنان باشا مباشرة ، والذى انشغل بإكمال أعمال هذه الحملة بعد عودتها من اليمن ، فقد أرسل هذا الوالى « مالا جزيلا تصرف فى إصلاح ما تشعث من عمارة الجامع الكبير بمدينة زبيد »[٢] ، وذلك إلى أحد القضاة اليمنيين بالمدينـــة ، الذى اهتم بتعمير هذا المسجد وبتجديد أثاثه .

وكان يرتبط بالإهتمام ببناء المساجد أو تجديد القائم منها ، القيام ببعض الأعمال الخيرية الأخرى ذات الصفة الدينية ، مثل قيام الولاة والعمال بزيارة الأضرحة والاشتراك فى الاحتفالات الدينية ، وتوزيع الهدايا والصدقات فى المواسم والأعياد الدينية على العلماء والفقهاء والفقراء والأشراف وغيرهم[٣] .

غير أن أعمال الولاة الإنشائية لم تقف عند حد تعمير المساجد أو أعمال الخير والبر ، بل اهتم هؤلاء الولاة أيضاً بالقيام ببعض الأعمال الإنشائية والعمرانية الأخرى ، ومن ذلك تمهيد طرق الجبال الوعرة ، وتسهيل الطريق وتوطية تلك العقاب (العقبات) وبناء الجسور للمارة على مياه تمر ببعض طرقها كبناء جسر « عنه » وغيره ، كون المحل المذكور إذا كثر السيل به منع المـارة عن السلوك فيه ، وربما كان إذا اشتد السيل صرع المسافر وأهلكه وقد مات جمع من ذلك »[٤] .

---

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانيـة (مخطوطة) ، جـ٢ ، م أ ، ص ٨٥ ب .

(٢) محمد بن يحيى المطيب : بلوغ المرام فى تاريخ دولة مولانا بهرام (مخطوطة) ، ص ٣٠ب — ٣١ أ .

(٣) نفس المرجع : ص٣١ب — ١٣١ أ .

(٤) نفس المرجع : ص ٥٤ب .

وكانت مثل هذه الأعمال العامة تخفي وراءها الغرض العسكري أو مصلحة العثمانيين الخاصة بطبيعة الحال ؛ إذ أن تمهيد الطرق وبناء الجسور وخزانات المياه وغيرها ، كانت تهدف إلى تسهيل انتقال الجيوش العثمانية بين ربوع اليمن ، كما أن نشاط حركة القوافل كان يؤدي إلى زيادة موارد خزانة اليمن من وراء فرض الضرائب على التجارة وعلى الأسواق .

ولم يقتصر القيام بالأعمال الخيرية والإنشائية على الولادة فقط ، بل كان عمال المدن والأقاليم - أي السناجق والكشاف - يقومون بدورهم بتنفيذ مثل هذه الأعمال في داخل مناطق اختصاصهم . وأمثلة ذلك عديدة أيضاً تزخر بها المراجع اليمنية المعاصرة وقتذاك ، وذلك مثل قيام علي بك أمير تعز في عهد مراد « ببناء سمسرة[1] شرقي مدينة تعز على يسار الداخل من الباب الكبير ، وجعل فيها أربعة وستين مسكناً على طبقتين ، فالطبقة السفلى تخازين والطبقة العليا مناظر ورواشين ، وعين من كراها أربعين حرفاً (إحدى الوحدات النقدية حينذاك) في كل سنة يشترى بها ثياباً لتكفين الموتى من الفقراء والمساكين صدقة منه وحسنة ، وصرف بقية الكرا في مصاريف لازمة ، وجعل في ذلك بصيرة شرعية جلدت في صفحات الدفاتر والسجلات ، وعين لإدارة هذه السمسرة أحد القضاة وأحد الكتاب وعين لكل منهما مرتبا معينا يصرف كل شهر وذلك من إيرادات هذه السمسرة أيضا »[2] . ويلاحظ أن إنشاء هذه السماسر كان موضع اهتمام كثير من الولاة والعمال في اليمن لفائدتها المالية والاجتماعية .

وكانت تعز في الحقيقة موضع اهتمام العمال العثمانيين لأهميتها بالنسبة

---

(١) السمسرة في اليمن — وجمعها سماسر — تشبه التكايا أو الخانات في مصر ، وهي التي ينزل فيها الغرباء من التجار أثناء تنقلهم بين البلاد وذلك لعرض بضائعهم وللاقامة فيها مقابل أجر معين .

(٢) الموزعي : الاحسان في دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان (مخطوطة) ، ص ٢٠ ب .

للمناطق الجنوبية من اليمن ، فأقاموا بها الكثير من المباني واتقصور الفخمة ، واهتموا بتعمير المدارس والمساجد الموجودة بها ، وعملوا على تسوية طرقاتها على شكل مدرجات ، وأدخلوا إليها المياه بعد حفر القنوات الموصلة إليها من جبل « صبر » القريب منها ، وغير ذلك من الأعمال التي أدت إلى ازدهارها ورفاهيتها[١] .

وقد اهتم العثمانيون كذلك « بالمحمل اليمني » اهتماماً لفت إليه أنظار معاصريهم من اليمنيين ، وكان تجهيز قافلة الحج اليمني وخروجها من اليمن في احتفال كبير في الحقيقة موضع اهتمام بعض سلاطين اليمن الأقوياء السابقين ، أي كان من التقاليد الموجودة في اليمن طوال العصور الوسطى الإسلامية ، فاهتم العثمانيون بإحياء هذا التقليد ، بل وبالغ بعض الولاة لأهداف سياسية في الاحتفال بهذا المحمل أثناء مغادرته اليمن أو عودته إليه . وقد رأينا أن اهتمام العثمانيين « بالمحمل اليمني » قد بدأ منذ أوائل عهدهم باليمن ، أو بالتحديد منذ ولاية مصطفى باشا النشار الثانية بعد أن تم للعثمانيين فتح أقاليم اليمن الداخلية على يد أزدمر باشا . وكان الهدف الرئيسي من وراء هذا الاهتمام هدفاً سياسياً بطبيعة الحال ، وذلك لجذب قلوب الأهالي حول الحكم العثماني . وقد استغل حسن باشا الوزير هذا المحمل كما رأينا في الفصل السادس استغلالا سياسياً ناجحاً لتأكيد خضوع المناطق الشمالية العثمانية . وذلك عندما أمر القائد العثماني لقافلة المحمل اليمني — عند وصوله إلى « جيزان » بعد عودته من الحجاز — بأن يتوجه على رأس المحمل إلى « صعدة » ، ثم يخترق الأقاليم الشمالية إلى «صنعاء» ومنها يواصل سيره إلى « زبيد » التي كانت نقطة بداية ونهاية رحلة هذا المحمل. واهتم محمد باشا كذلك بتجهيز قافلة المحمل كعمل دعائي سياسي هام ، وذلك لأنه

---

(١) الموزعي : الاحسان في دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان (مخطوطة) ، ص ٢٦ ب — ٢٨ أ ، ٥٠ ب — ٥١ ب .

كان يعاصر اشتداد ثورة الإمام القاسم الذى كان قد نجح حينذاك فى إخضاع بعض الأقاليم الشمالية لسيطرته . وقد وصف أحد المعاصرين وقتذاك هذا الاهتمام من قبل محمد باشا بقوله « ومن المآثر العديدة الزيادة العظيمة التى زادها مع المحمل الشريف اليمانى ، فى زيادة الجمال والرواحل لركوب الضعفا والفقرا والأرامل ، وزيادة البقسماط والبر والأرز والسمن والعسل وغير ذلك مما يحتاج إليه المحتاج من المسافرين والحجاج حتى الكعبة ، جعل جميع ذلك كافياً زائداً بحيث يحصل فيه المدد للحجاج ذاهباً وعائداً »[1] . ومن الطريف أن نذكر أن جزءاً من اهتمام ولاة اليمن بالمحمل كان محاكاة لاهتمام ولاة مصر بالمحمل المصرى ، ويتأكد ذلك إذا عرفنا أن الولاة فى اليمن الذين أظهروا اهتماماً كبيراً بالمحمل اليمنى كان أصلا من بين أمراء العثمانيين فى مصر ؛ إذ كان مصطفى باشا النشار على سبيل المثال أحد أمراء مصر وقائداً لقافلة الحج المصرى لعدة سنوات قبل أن يتولى أمراء اليمن ، كذلك كان محمد باشا أحد أمراء مصر ، وكاتباً فى ديوانها .

وهناك جانب آخر من جوانب السياسة العثمانية التى اتصفت بالعمومية أو الشمولية ، أى التى كانت تتعلق بالأهالى عموماً وليس بفئة معينة من فئات الشعب اليمنى ، وهذا الجانب هو الذى كان يختص بالسياسة الإدارية والمالية فى البلاد . ويصعب منهجيا فى واقع الأمر دراسة هذا الجانب دراسة تفصيلية دقيقة ، وذلك لقلة اهتمام مراجع هذه الفترة من ناحية بمثل هذه الموضوعات الإدارية والمالية ، ولأنها من ناحية أخرى لا تذكر هذه المادة القليلة إلا من خلال ذكر أعمال بعض الولاة الأقوياء الإصلاحية أو التعديلية بالنسبة للأوضاع الفاسدة التى كانت تواجههم أثناء توليهم أمور اليمن . ومن هنا فإنه

---

(١) الموزعى : الإحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان (مخطوطة) ، ص ٥٤ ب .

لا يمكن عرض سياسة العثمانيين الإدارية والمالية فى اليمن ، كما لا يمكن معرفة مظاهر الفساد والانحراف التى كانت تصيب هذه السياسة ، أو حتى معرفة مصير إصلاحات بعض الولاة بعد عزلهم ، لا يمكن القيام بهذا كله إلا من خلال تلك المادة التاريخية القليلة الخاصة بذكر إصلاحات بعض ولاة اليمن فى النواحى الإدارية والمالية . غير أنه من الممكن أن نبرز هنا عدداً من النقاط التى قد توضح بعض جوانب هذه النواحى ، وذلك قبل أن نشير إلى بعض تفاصيلها .

أولا : لم يكن من خطة العثمانيين أو من سياستهم إحداث أى تغييرات فى البلاد التى دخلت تحت سيطرتهم إلا بالقدر الذى يضمن بقاء هذه السيطرة ، ولذلك ظل كثير من أوضاع البلاد المفتوحة كما هى .

ثانيا : ترتب على اتساع الإمبراطورية العثمانية وزيادة مواردها أن مال السلطان ورجالات دولته ، ثم باقى موظفى الدولة وجنودها بدورهم ، وخاصة منذ نهاية عهد السلطان سليمان القانونى ، إلى مظاهر الترف والبذخ فى جميع نواحى الحياة . وقد ترتب على التناقض بين تسرب مظاهر الحياة الجديدة إلى العثمانيين وبين بقاء المرتبات والدخول على ماهى عليه ، أن مال أصحاب السلطة فى البلاد سواء من الإداريين أو العسكريين إلى الحصول على الأموال بالطرق الملتوية لتغطية نفقات احتياجاتهم الجديدة .

ثالثا : كان بعد اليمن عن مقر السلطنة العثمانية ، وتأثره بما أصاب نظم الدولة من اضطراب وانحراف ، مما كان يؤدى إلى تولى بعض الولاة الفاسدين لأموره ، وإلى انتشار الرغبة بين العمال والجنود فى ابتزاز أموال الأهالى ، كان هذا كله من العوامل الرئيسية التى تساعد على اضطراب الأمور فى اليمن ، وانتشار الفوضى به .

رابعا : كان رضاء اليمنيين عن الحكم العثمانى أو سخطهم عليه يتوقف

أساسا على نجاح العثمانيين أو فشلهم فى النواحى الإدارية والمالية ، ولذلك فلا نبالغ إذا قلنا إن اضطراب هذه النواحى وفسادها ،كان العامل الرئيسى فى قيام الثورات فى اليمن ، أما باقى العوامل فهى عوامل مساعدة فقط وذلك مثل قوة الامامة الزيدية حينذاك ووعورة تضاريس اليمن ومساعدتها للأهالى على الثورة ، وانتشار النظم والعلاقات القبلية التى تساعد على التحركات الجماعية ضد العثمانيين .

خامسا : أدت طبيعة النظم العثمانية ،كما أدت الظروف التى أحاطت بها وخاصة فى اليمن ، إلى إتاحة الفرصة أمام بعض الولاة والعمال وغيرهم إلى استغلال مناصبهم لتكوين الثروات الخاصة ، وإلى الحصول على المناصب الكبيرة .

وكان النظام الادارى فى اليمن حينذاك يقوم على شكل هرمى ، ويقف الوالى عند قمته ، ثم يأتى بعده الكتخدا والدفتردار ، ثم مجموعة حكام الأقاليم والمدن الهامة أى السناجق والكشاف ، وهم فى نفس الوقت قادة القوات العثمانية فى اليمن ، ثم يأتى بعدهم أمراء الآلايات والصوباشية ، وهم قادة الفرق العسكرية الصغيرة ، وحكام المدن أو الأقاليم الأقل أهمية ، كما كانوا قادة لحاميات الحصون ، أو للقوات المتناثرة فى أنحاء اليمن التى كانت مهامها تشبه المهام البوليسية فى الأزمنة الحديثة . وكان ضعف الولاة أو فسادهم يؤدى إلى انتشار الظلم والفوضى فى البلاد لضعف الاشراف العملى على حكام الأقاليم، وعلى تصرفات الجنود والضباط العثمانيين . وقد رأينا طوال فصول الرسالة أن فساد بعض الأمراء كان يؤدى إلى اندلاع الثورة فى بعض أو كل أقاليم اليمن ،كما رأينا أن بعض الولاة الأقوياء كانوا يقفون ضد تفشى الفساد، فيعزلون بعض الحكام والأمراء أو يقتلونهم لاستئصال أسباب شكوى الأهالى . وعلى سبيل المثال ، فقد قتل حسن باشا الوزير أمير « صنعاء » لكثرة ظلمه للرعية

وتعديه على أموالهم ، وذلك بعد وصول حسن باشا إلى « صنعاء » بقليل عند بدء توليه لأمور اليمن[1] .

ولقد تحرى السلاطين ورجالات الدولة العثمانية الدقة فى الحقيقة فى اختيار ولاة اليمن وخاصة قبل أن ينتشر الفساد بين نظم الدولة وأجهزتها ؛ إذ كان يتم اختيار هؤلاء الولاة من بين مماليك السلطان الخاصة أى ممن نشأوا فى السراى السلطانى حتى يكونوا موضع ثقة السلطان ، أو حتى يكون السلطان مطمئناً إلى سياستهم وتصرفاتهم ، أو من بين من تولوا نيابة « غزة » ، أو من بين أمراء مصر ، وذلك حتى يكونوا على دراية بأحوال اليمن . وعلى علم بأخباره . وعند مراجعة تراجم ولاة اليمن ، نجد أن أغلب هؤلاء كانوا ممن تولوا نيابة « غزة » أو بعض المناصب الكبيرة فى مصر ، أما الباقى فكانوا يعينون من بين الأمراء أو أصحاب الوظائف الكبيرة فى استانبول نفسها . غير أن تفشى الفساد فى أجهزة الدولة أتاح الفرصة أمام بعض الولاة الضعفاء أو الفاسدين لتولى أمور اليمن ، فقد اعتمد بعض الولاة فى اليمن للوصول إلى مناصبهم على الهدايا والرشوة لرجالات الدولة فى استانبول ، وعلى رأسهم محمود باشا . واعتمد البعض الآخر على قرابته إلى بعض الولاة الأوائل لليمن ؛ إذ كان عثمان باشا ابناً لأزدمر باشا ، كما كان بهرام باشا ورضوان باشا من أبناء مصطفى باشا قرة شاهين . كذلك اعتمد أمير صعدة على قرابته لأحد رجالات الدولة فى استانبول فى عزل والى اليمن جعفر باشا رغم صلاحيته ، وذلك بعد أن عزله جعفر باشا عن إمارته وحاربه لتمرده ولميوله الاستقلالية كما أوضحنا فى الفصل السابع . وبالإضافة إلى هذا كله فقد اعتمد مصطفى باشا النشار عند توليه لأمور اليمن للمرة الثانية على الدس والمكيدة ضد أزدمر باشا حتى عزل الأخير رغم ما اشتهر به الفاتح الأول لليمن .

---

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، جـ١ ، م١ ، ص٣٠٨ ب.

ومن ناحية أخرى ، كان العثمانيون يشتهرون بدقـــة التسجيل ، وباهتمامهم بالسجلات والدفاتر الحكومية ،وذلك منذ قيام دولتهم[١] .واتضح هذا بصورة كبيرة فى اليمن وكان الولاة والعمال به يهتمون بتسجيل التقسيمات الإدارية المختلفة فى البلاد وأسماء موظفى كل قسم منها ، وملاك الأراضى أو العقارات بها ، وكذلك عنوا بتسجيل أسماء ممولى الخزينة العامة من ملاك أو فلاحين أو تجار أو غيرهم ، وفى نفس الوقت إهتموا بتسجيل أوجه الصرف المختلفة مثل المرتبات وغيرها وحرص هؤلاء كذلك على تسجيل اتفاقيات الصلح التى يتم إبرامها بينهم وبين أمراء اليمن ، أو حتى تبرم بين أميرين أو أكثر من الأمراء اليمنيين أنفسهم ، كما كان يتم تسجيل هذا الصلح فى اجتماع كبير يحضره العلماء والأعيان وكبار الضباط وغيرهم ، ثم يدون محضر بذلك الاجتماع يوقع عليه الشهود لتوثيقه[٢] . وقد أصاب هذه الناحية الهامة من نواحى النظم العثمانية — وهى الاهتمام بالسجلات والدفاتر ما أصاب باقى نواحى هذه النظم

(١) على همت : أبو الفتح السلطان محمد الثانى وحياته المدنية (ترجمة من التركية محمد احسان ص٩٦) ، جاء فى هامش رقم ١ من هذه الصفحة بيان طويل عن اهتمام العثمانيين بالتسجيل والسجلات وأهم هذه السجلات هى « قيود خاقانى » . « وهى إحصائيات رسمية عن القرى والمزارع والمراعى والمصايف والمشاتى وسائر الأراضى الكائنة فى البلاد العثمانية ، والجهات التى تكون مربوطة بها وتابعة لها . وقد أجريت هذه الإحصائيات بصفة خاصة فى عهد السلطان سليمان القانونى وعهد السلطان مراد الثالث ، وقامت لجان أعضاؤها من ذوى الكفاءة والاستقامة ، ودونت فى سجلات خاصة ، ويبلغ عدد هـذه السجلات ٩٧٠ سجلا كانت تحفظ فى دار المحفوظات السلطانى « دفتر خانة خاقانى » بداخل مخزن محكم مختوم يصل إليه الإنسان من أربعة أبواب حديدية ومتداخلة ، وأخيراً نقلت هذه السجلات الى « أنقرة » وتحفظ فى داخـل دواليب زجاج فى مبنى محكمة النقض . وكان إذا لزم تغيير مربوطيـة قطعة أرض من الأراضى المسجلة فى تلك السجلات وذلك بنـاء على الاذن الشرعى يستصدر مرسوم سلطانى من قلم الديوان الهمايونى ويدون رئيس قلم التوقيع خلاصة المرسوم فى صـدر البيان الخاص بتلك القطعة ، ويضع إمضاءه تحت الخلاصة ويجرى كل هـذه الاجراءات بحضرة ناظر « دفتر خاقانى » ثم يعاد السجل إلى المخزن ، كما يحفظ المرسوم لدى الموظف المختص » .

(٢) الموزعى : الإحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان (مخطوطة) ، ص ٦٣ ب ،

من جمود وفساد . وقد تأكد هذا على يد محمد باشا عند توليه أمور اليمن ، إذ كان بحكم خبرته قبل ذلك فى دفتر دارية مصر ، قد أظهر إهتماماً كبيراً بمراجعة سجلات اليمن وتنظيمها ، وذلك بعد أن ظهر له مدى التلاعب فى محتوياتها واضطراب أمورها ، إذ كان قد دون بها « أناساً كان يجرى عليهم من السلطنة أرزاق ولا لهم وجود »[١] .

وعند الحديث عن السياسة المالية للعثمانيين فى اليمن فيمكن الإشارة مقدماً إلى أن ضآلة مرتبات الأمراء والجنود بالنسبة إلى حياة الترف والبذخ التى تعلقوا بها وخاصة منذ أواخر عهد السلطان سليمان القانونى ، كانت من العوامل الهامة التى دفعت هـــؤلاء إلى ظلم الأهالى وإلى ابتزاز أموالهم . ومن ناحية أخرى كانت نظم العثمانيين المالية تترك بعض الثغرات التى تتيح لبعض كبار موظفيها فرصة استغلال وظائفهم للحصول على الثروات الضخمة . ويتأكد هذا إذا عرفنا أن الخزانة العامة للدولة كانت تصرف لبعض كبار موظفيها جزءاً من مرتباتهم ، أما الجزء الباقى فكانوا يحصلون عليه من الأهالى أنفسهم ، وذلك فى صورة رسوم أو عوائد مقابل ما يقدمونه لهم من خدمات[٢] ، وذلك كما يتضح فى مجالات القضاء أو جمـــع خراج الأرض عن طريق الإلتزام أو غير ذلك .

وقد إتبع المسئولون العثمانيون فى اليمن شتى الوسائل الملتوية للحصول على المال ، فكان بعض الولاة يقضون على هذه البدع ، ويعاقبون أصحابها . ومن هذه الأمثلة ، تلك البدع التى قضى عليها مراد باشا الوزير أثناء ولايته اليمن ، فقد ألغى تلك الإتاوة التى كان يفرضها صوباشى « زبيد » على الأهالى

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح (مخطوطة) جـ٢ ، ص١٠٢ أ .

(٢) على همت : أبو الفتح السلطان محمد الثانى وحياته العدلية (ترجمة من التركية محمد احسان) ص١٩٥ .

بها تحت أسم « المجابرة »[١] ، أى المعاونة فى الصرف على أجهزة الدولة فى تلك المدينة ، كذلك ألغى مراد باشا احتكار العثمانيين فى « صنعاء » لبيع بعض المواد التموينية الهامة مثل « الخبز والسمن والسليط ، وأشياسوى ذلك مما يكثر عدها بالحصر المحيط »[٢] . وكانت خطوة مراد باشا التالية فى « صنعاء » هى تخفيضه للرسوم التى تفرض على الأسواق أو على البضائع الداخلة إلى « صنعاء » أو الخارجة منها ، وذلك بعد أن كانت هذه الرسوم تناهز أحياناً الثمن الأصلى للبضائع[٣] . وفى نفس الوقت منع مراد باشا « نزول العسكر فى بيوت أهـل المدينة ، فانه كان من قبله ينزلون فى أسافلها وليس لأهلها إلا العلو »[٤] ، (أى الطبقات العليا) . ويبدو أن نزول الجند فى بيوت الأهالى كان يرجع إلى التقليد العثمانى الذى يقضى بأن يقوم الأهالى بكفالة احتياجات الجنود فى الأقاليم ، فبالغ هؤلاء الجنود فى استغلال هذا التقليد وأقاموا فى بيوت الأهالى . وقد ألغى حسن باشا الوزير بدوره بعض العادات السيئة التى كانت تهدف إلى الحصول على الأمـوال بشتى الطرق ، ومنها ما عرف باسم « الرسامة » أو « مال رسامة » وهى الإتاوة التى كان يفرضها حراس السجون على المساجين والرهائن ، أو كما وصفها ابن داعر بقوله «وهى تقرير مال على أهل المحبوس ومن بها من رهائن البلاد »[٥] ، وكان حسن باشا قد اكتشف هذه العادة عن طريق الصدفة عند سماعه لصراخ أحد المساجين أثناء تعذيبه لإجباره على دفع هذه الإتاوة .

---

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، جـ١ ، م٢ ؛ ص ٢٩٥ أ .

(٢و٣) نفس المرجع : ص ٢٩٦ أ .

(٤) يحى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ١٤٩ ؛

(٥) ابن داعر : نفس المرجع ، ص ٣٠٨ أ .

وفى خارج نطاق المدن ، كان للعثمانيين بعض العادات التى كانت موضع تذمر اليمنيين ، ومن ذلك حصول الجيوش العثمانية على احتياجاتها بالقوة والمصادرة — أى بالسلب والنهب — من المناطق التى ينزلون إليها . وقد رأينا كيف أن سنان باشا كان يأمر بعض قواته بالإغارة على القرى للحصول على احتياجات جيشه أثناء محاصرته الطويلة لحصنى « كوكبان » و « ثلاء » ، وذلك رغم شهرة سنان باشا بتحقيق العدل ، ووقوفه فى وجه تفشى الفساد ، غير أنه كان هناك بعض الولاة والقادة الذين كانوا يمنعون وقوع مثل هذه الأحداث لجذب الأهالى إليهم ، فقد أجبر سنان باشا الكيخيا جنوده على أن يمتنعوا عن التعدى على الأهالى أو على أموالهم — لأهداف سياسية رغم ما اشتهر به من قسوة وغلظة فى معاملة الأهالى - وذلك أثناء وجوده فى جبل الأهنوم لمحاربة الإمام الحسن بن على ، كما أجبرهم على دفع ثمن ما يشترونه من الأهالى ، فأدى هذا إلى اطمئنان قبائل هذه الجهات إليه ، ودخولها فى طاعة العثمانيين[١] .

ومن ناحية أخرى ، اتبع العثمانيون نظام « الإلتزام » — أو نظام « الضمان » أو « التضمين » كما عرف فى اليمن — لجمع الأموال المقررة على الأراضى — أى الخراج — فكان هذا النظام موضع سخط الأهالى وتذمرهم فى كثير من الأحيان لما كان به من ثغرات تسمح للقائمين بتنفيذه باستغلال الأهالى وبجمع الثروات الخاصة . وقد سبق أن أشرنا فى بداية هذا الفصل إلى أن العثمانيين لم يقسموا أراضى اليمن إلى إقطاعيات عسكرية وهى « خاص وزعامت وتيمار » ، بل تركت الأرض لأصحابها على أن يدفعوا « الخراج » المقرر عليها لخزانة الدولة . والخراج هو الضريبة وهو

---

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) جـ ٢ ، م ١ ، ص ٥٤ ب .

قسمان : خراج مقاسمة وخراج وظيفة ، فخراج المقاسمة هو الضريبة التي تستوفى من الخارج إلى الأرض بواقع العشر إلى النصف حسب طاقة الأرض ،وخراج الوظيفة هو الضريبة المقررة على الأرض نفسها والمستوفاة سنويا[١] . وكانت قيمة النوع الثاني من الخراج هي العشر أيضاً ، وذلك طبقاً لما جاء في الشريعة الإسلامية بالنسبة لضرائب الأرض . وقد لجأ العثمانيون إلى نظام « الالتزام » منذ عهد السلطان محمد الثاني (الفاتح) (١٤٥١ — ١٤٨١ م) ، وذلك لضمان تحصيل الضرائب كاملة ، غير أن هذا النظام كان مليئاً بالثغرات التي تؤدي إلى ظلم الأهالي كما أشرنا،وبخاصة إذا عرفنا أن حكام الأقاليم هم الذين كانوا «يلتزمون» أحياناً كثيرة بجمع خراج أقاليمهم ،فكان هؤلاء يبيعون التزامهم لغيرهم ،وهؤلاء يبيعونه بالتالي لغيرهم وهكذا.وكان جميع هؤلاء يحرصون على جمع الثروات الكبيرة من وراء بيع التزاماتهم أو من وراء القيام به ، مما كان يزيد في النهاية من الأعباء التي تقع على عاتق الفلاح ، ويزيد من متاعبه . ولهذا كله فقد كان من محاسن أحد ولاة اليمن وهو بهرام باشا كما قيل « إبطال الضمان بوادي زبيد ، أرضها ونخلها، وجعله أمناً ، (أي عن طريق الأمناء أي المحصلين) يتخلصون المال بهما على وجه العدل والإنصاف إلى ذلك من غير نكد على الرعايا ولا تعنيف،ولا ترسيم ولا تعسيف »[٢] . وزيادة على ذلك ، استحدث بهرام باشاما يشبه حالياً «بنك التسليف » ، إذ أمر بإقراض الفلاحين في وادي « زبيد » بما يحتاجونه من

---

(١) على هـ ت : أبو الفتح السلطان محمد الثاني وحياته المدنية (ترجمه من التركية محمد إحسان) ص ١٢٤ « قام الأستاذ على همت بدراسة مطولة لأنواع الأراضي وطرق امتلاكها والضرائب المقررة على كل نوع منها ، إلى غير ذلك ، وهي دراسة قيمة يمكن الرجوع إليها، ص ١٢٣ — ١٢٩ » .

(٢) محمد بن يحيى الطيب : بلوغ المرام في تاريخ دولة مولانا بهرام (مخطوطة) ، ص ٥٤ ب .

الحبوب ، على أن يرد ذلك بعد حصد محاصيلهم إلى خزانة الدولة[1] . وفى نفس الوقت تقريباً كان بهرام باشا قد ألغى الضرائب على النخيل غير المثمر فى المنطقة الواقعة حول مدينة «موزع» التهامية[2] ، وذلك كله للتخفيف عن الأهالى من عبء الضرائب المقررة عليهم .

غير أن مثل أعمال بهرام باشا الإصلاحية كانت تعتبر بمثابة مواقف فردية من قبل هذا الوالى ، وليست بمثابة مبادىء عامة يتمسك بها العثمانيون عند تطبيقها ، كما لا تمثل أيضاً صفات عامة لأعمال العثمانيين الإدارية والمالية ، ويرجع السبب فى ذلك إلى ما كان يعترى الجهاز الإدارى العثمانى من فساد وجمود أحياناً ، كما يرجع إلى طمع بعض الموظفين فى الحصول على الأموال عن طريق ظلم الأهالى واضطهادهم . وكان تراكم هذه الأسباب وغيرها يدفع الأهالى إلى الثورة إذا واتتهم الفرصة ، أو تدفعهم إلى الالتجاء إلى الولاة الذين يسارعون بدورهم — وخاصة الأقوياء منهم — إلى القضاء على أسباب الثورة لتلافى اندلاعها . فقد حدث أن قام حسن باشا ثم جعفر باشا — اللذان توليا أمور اليمن فى فترات متباعدة بعد بهرام باشا — ببعض الأعمال الإصلاحية المماثلة لأعمال بهرام باشا. إذ استجاب حسن باشا لشكوى أهالى وادى زبيد وألغى الضرائب التى كانت تجبى على النخيل الغير مثمر أو على النخيل الذى تم قطعه لاستعماله فى أغراض البناء أو غير ذلك . وكان الجباة يحصلون الأمـــوال المقررة فى سجلات الدولة من أصحاب النخيل أو من ذريتهم كما هى ، بغض النظر عما إذا كان هذا النخيل ما زال قائماً أو لا ، أو أنه ما زال مثمراً أو غير مثمر ، فأمر حسن باشا بإحصاء النخيل المثمر سنوياً ، لتكون الضرائب مطابقة للواقع

---

(١) محمد بن يحيى الطيب : بلوغ المرام فى تاريخ دولة مولانا بهرام (مخطوطة) ، ص ٥٥ أ .

(٢) نفس المرجع : ص ٢٥ أ — ٢٥ ب .

وغير مجحفة بالأهالى[١] . كذلك كان الحال بالنسبة لأصحاب الماشية ، وذلك كما جاء فى عبارة ابن داعر الذى وصف فيها سوء أحوال المناطق التهامية قبل مجىء حسن باشا الوزير إلى اليمن ، فقال : « وكذلك الحكم فى من ملك شيئاً من البقر ، وقد تقرر عليها من المال بقدر عدتها ما تقرر ، ثبت ذلك عليه ، وإن هلكت تلك البقر ومضى عليها طول الزمان وعبر ، ويتوارث ما قرر عليها من المال وإن افتقر الوارث واقتر ، واستمر الحال على أهل النخل والبقر بزبيد ، ونال الناس بذلك من المشقة والضرر الشديد ، ما ساقهم بعض الإكراه إلى الخروج من الديار وشملهم بالجلاء المبيد ، وأقفرت لذلك بلاد تهامة وخلت كثير من ممالكها بالتفرق فى الأرض والتشتت والتبديد ، لقد كانت هذه القضية من أعظم رزايا اليمن قد عمى عن النظر فى أمرها كثير من الولاة وما اهتدى إلى كشفها أحد مع طول الزمن »[٢] . وقد جاء جعفر باشا بعد ذلك إلى اليمن ليجد أن ظاهرة تجميد الضرائب على النخيل والبقر فى وادى زبيد قد عادت إلى ما كانت عليه ، وأن بعض الأهالى أو ورثتهم قد اضطروا إلى احتراف المهن المختلفة لتسديد الأموال المقررة عليهم حسب ما هو مسجل فى دفاتر الدولة ، فأذهب عنهم الوزير جعفر رحمه الله هذه المظلمة المطلوبة على المفقود ، ولم يبق عليهم الطلب إلا فيما هو موجود »[٣] .

وقد اهتزت « العملة » فى اليمن فى بعض الفترات تبعاً لاهتزاز الأحوال السياسية وقتذاك وتطور أحداثها ، وذلك باعتبار « العملة » فى أى بلد من البلاد تكون المؤشر الصادق للأوضاع الاقتصادية فى هذا البلد . إذ أن

(١و٢) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، جـ ١ ، م ٢ ، ص ٣٠٣ب .

(٣) الموزعى : الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان (مخطوطة) ، ص ٤١ ب .

ارتفاع وثبات قيمة العملة يدلان على ازدهار اقتصاد البلاد واستقراره ، وعلى عكس ذلك فإن انخفاض قيمـــة العملة أو اهتزاز هـذه القيمة باستمرار يدلان على مدى انهيار الأوضاع الاقتصادية أوعدم ثباتها على الأقل. ويصعب فى الحقيقة دراسة العملة اليمنية فى تلك الفترة دراسة تفصيلية لقلة المعلومات والإحصائيات اللازمة ، ورغم ذلك فيمكن القول بأن فئات هذه العملة هى : درهم ، بقشة (بقجة) ، حرف ، حرف أحمر ، قفلة ، ذهب ، كبير ، وذلك كما جاء ذكرها فى المخطوطات اليمنية المعاصرة وقتذاك . وأغلب أسماء هذه العملات أسماء محلية عربية ؛ إذ أنها ركزت فى مخطوطات ابن الديبع الذى عاصر الطاهريين ، وكان المؤرخ الشخصى للسلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهرى ، غير أننا نجد فى بعض المخطوطات التى عاصرت الحكم العثمانى فى اليمن ، أنه كان يضاف إلى جانب أسماء العملات لفظ «عثمانى» ، وأحيانا يذكر هذا اللفظ بمفرده للتعبير — كما يبدو — عن عملة بذاتها ، ولكننا نرجح أن استعمال هذا اللفظ فى تلك المخطوطات إنمـــا كان للدلالة على أن هذه العملة قد ضربت فى عهد العثمانيين ، أو أنها أصبحت تضاهى العملات العثمانية فى وزنها أو فى نسبة الذهب أو الفضة بها . وهناك محاولة من جانب بعض المؤرخين والرحالة المعاصرين وقتذاك لتوضيح كل نوع من أنواع العملة اليمنية آنذاك ، وقيمة كل منها بالنسبة للأخرى ، كما تذكر هذه المحـــاولة أن « البقشة » كانت هى العملة السائدة الواسعة الانتشار[١] . ولكن هذه المحاولة لا تكفى لتوضيح أوضاع العملة حينئذ ، وذلك للتغير المستمر فى قيمة العملة الذى حدث فى العهد العثمانى ، ولقلة مادة هذه المحاولة واقتضابها .

وكيفما كان الأمر ، فيمكن القول بأن قيمة العملة فى اليمن كانت تتدهور أحيانا فى العهد العثمانى ، وذلك لعدة أسباب :

---

(١) Tritton, A. S. : The Rise of the Imams of Sanaa, p. 135.

أولا : الضعف الاقتصادى العام الذى أصاب البلاد فى العهد العثمانى نتيجة نشاط البرتغاليين البحرى ، ولكثرة الحروب ، ولانتشار الآفات الزراعية وبخاصة انتشار حملات الجراد فى بعض السنوات .

ثانياً : طمع بعض الولاة والعمال فى اقتناء الثروات الضخمة عن طريق التلاعب فى العملة ، وذلك كما ذكرنا فى الفصل الرابع الخاص بتدهور السيطرة العثمانية فى اليمن . .

ثالثاً : ميل بعض الولاة إلى سك عملات جديدة فى أثناء فترة ولايتهم لليمن ، مما كان يؤدى إلى إضطراب الأحوال المالية فى البلاد .

فمن ناحية ظاهرة انتشار الجراد أحياناً فى اليمن ، فقد كانت فى الحقيقة ظاهرة متكررة هناك ، وذلك لعدم قيام الحكومة بمحاربته لأنه لم يكن من مهام حكومات ذلك العصر كما ذكرنا الاهتمام بتطوير الزراعة أو بمحاربة الآفات الزراعية إلا بقدر محدود للغاية . ولقد اشتد القحط والجوع فى اليمن بسبب إحدى حملات الجراد عليه ، وذلك كما قيل «وسبب ذلك حدوث الجراد فى شهر رجب سنة ٩٦١هـ فإنها طال مكثها فى اليمن من رجب إلى رجب الآخر سنة ٩٦٢هـ، فأكلت الثمار والأشجار حتى يبست الأرض وعدم العشب ولم تجد البهائم ما تأكل، بل خاف الناس على أنفسهم منها لأنها دخلت على الناس بيوتهم ومساجدهم، ثم بعد ذلك صرف الله الجراد ، وأخصبت البلاد ، ورخصت الأسعار ، ولله تعالى فى خلقه تدبير »[١] .

ومن ناحية تلاعب بعض العمال والولاة فى قيمة العملة ، فقد سبق أن أشرنا إلى ذلك فى الفصل الرابع ، إذ كان هؤلاء يعمدون إلى إنقاص قيمة الذهب والفضة

---

(١) أحمد بن يوسف فيروز : مطالع النيران (مخطوطة) ، ص ١٢٢أ — ١٢٢ب .

عند سك العملات المختلفة . ثم الاستيلاء على هذه الفروق وذلك طمعاً فى الثروات الخاصة . وكان التلاعب فى قيمة العملة وغشها ، إلى جانب ضرب سكة جديدة بين حين وآخر فى فترات متقاربة ، يؤدى إلى الإضرار بأحوال الأهالى الاقتصادية ، وذلك كما عبر أحد المعاصرين وقتذاك فقال «ومما جرى من سنان (يقصد سنان باشا الكخيا) فى اليمن تغيير السكة حتى أضر بالناس ضرراً عظيماً ، فإن السكك لا ينبغى تغييرها عن حالة واحدة ، وكذلك الزيادات فى المكاييل والموازين يحصل بسببه الخلل»[1] . وكان رد الفعل الطبيعى عند الأهالى الإعراض عن التعامل بالسكة الجديدة لشكهم فى قيمتها ، أو لإلحاقها الأضرار بهم عند تعاملهم بها ، وذلك كما يتضح من موقف الأهالى من السكة التى ضربها محمد باشا أثناء ولايته لليمن ، وإصرارهم على التعامل بالسكة القديمة ، فقد قيل « وأمر بإبطال السكة الأولى ، ولكن تعامل الناس بها فيما بينهم ، حتى كان يشترط أهل البوادى السكة القديمة فيما باعوه لأنها أكثر فى العدد فيكون عليهم الخسران بالجديدة »[2] .

كذلك كان نظام القضاء من الأنظمة التى دب فيها الفساد فى اليمن فى عهد العثمانيين ، وذلك رغم اهتمام هؤلاء بالقضاء ، وباختيار القضاة من بين العلماء المتفقهين فى الدين . ولقد هاجم الجرموزى صاحب سيرة الإمام القاسم القضاة العثمانيين فى اليمن بشدة لأنهم أساءوا إلى «الشريعة الإسلامية» التى كانوا يحكمون باسمها . وقد تدهورت وظيفة القاضى عندما تولاها غير مستحقيها ممن كانوا يسعون إليها لما كانت تدره على صاحبها من دخل ، لأن القاضى كان يحصل على رسوم محددة من المتقاضين من ناحية ، ولحصوله من ناحية أخرى على الرشاوى

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن (مخطوطة) ، ص ٤٩ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٥٩ .

فى القضايا المختلفة . وقد وصف الجرموزى هذه الأوضاع فى عبارة طويلة جاء فيها « فيشترون ولاية القضاء ، وعليهم خراج مضروب ، ثم يتزايدون فى شراءه (شرائه) ويتحاسدون عليه ، ولقد يتولى أحدهم القطر أو المدينة أقل من سنة وقد اشترى ذلك غيره ، ويكون بين يدى قاضيهم (غير واضحة فى الأصل) الأعظم ونوابه صندوق له خرق أعلاه مقفول ، فالرشوة يقبضها غير صاحب الصندوق على ضرب من الاختفاء (أى سراً) وقد يظهرونها ، وإنما هـــذا الصندوق للقانون من كل مدع درهم ، ومن المدعى عليه كذلك توضع فى ذلك المحل ، ومن كل زوج يعقد على امرأة حرف (عملة) ، وكل ورقة يكتبها فى هذا المحل فكذا ، وكل دين ادعاه مدع على آخر فعليه العشر ، هذا فى حكم الحلال الذى لا يتحاشون من ظهوره فلا يقوم من مجلس الحكم إلا بكذا مالا ، وأما فى قضايا الكبرا والتجار والعظما فلا ينحصر ما يأخذونه فى قضاياهم ، ولهم على ذلك أعوان يجلبون المتخاصمين إليهم ويمنعون التحكم إلى غيرهم . . . وقد يوجد فيهم من ظاهرة العدالة ، ومن فقهايهم أهل علم ، لكن التصرف فيهم لأهل هذا الجمهور الكثير »[1] . ولقد ساءت فى الحقيقة سمعة القضاة العثمانيين فى اليمن حتى بعد انتهاء السيطرة العثمانية من هناك فى سنة ١٦٣٥م ، فقد قيل عنهم « أنهم كانوا عادة يفضلون المال على العدل »[2] .

وكيفما كان الأمر ، فيبقى هنا سؤال أخير وهو ، ما هى الآثار التى خلفها العثمانيون فى اليمن ؟ أو بصيغة أخـــرى : ما هى نتائج الحكم العثمانى فى اليمن ؟

وتعترض الإجابة الصحيحة الوافية على هذا السؤال صعوبتين هامتين :

أولا : تحتاج هـذه الإجابة دراسة أوضاع اليمن فى فترة ما بعد خروج

---

(١) الجرموزى : سيرة الامام القاسم بن محمد (مخطوطة) جـ١ ، ص٧٧ب .

(٢) Niebuhr, C. : Description de L'Arabie, p. 182.

العثمانيين من اليمن سنة ١٦٣٥م ، وهذا مما لا يتوفر لنا فى هذه الدراسة المحدودة لضيق المجال هنا .

ثانياً : عدم اهتمام مراجع ذلك الوقت بذكر الأعمال الاجتماعية والحضارية فى حد ذاتها ، وعند ذكرها فلا يكون ذلك إلا بشكل مقتضب ومن خلال ذكر الأحداث السياسية .

ورغم هذا فيمكن الإشارة إلى بعض آثار العثمانيين فى اليمن . ومن أهم هذه الآثار ، دخول الأسلحة النارية مثل البنادق والمدافع إلى اليمن على يد العثمانيين. حقيقة أن المماليك عند دخولهم اليمن كانوا يحملون هذه الأسلحة معهم، ولكن لم يكن لهم الأثر الذى تركه العثمانيون فى اليمن ، وذلك لقصر مدة حكمهم، ولأنهم كانوا أقلية ضئيلة بالنسبة لليمنيين والعثمانيين على السواء ، كما أن سيطرتهم لم تكن تتعدى منطقة « زبيد » فقط فى أغلب الأحيان . وقد حصل اليمنيون على كثير من أسلحة العثمانيين النارية أثناء الحروب الطويلة التى دارت بين الطرفين، فكانوا ينقلون هذه الأسلحة إلى حصونهم ومعاقلهم وخاصة تلك المدافع الكبيرة . وكان حصول اليمنيين على الأسلحة واستعمالهم إياها من الأمور التى شجعتهم على الوقوف فى وجه العثمانيين بعد أن كانوا يخشون مواجهتهم فى بداية الأمر . ولكن يلاحظ أن اليمنيين لم يظهروا ميلا ملحوظاً فى استخدام مدافع الميدان الكبيرة ، بل كانوا يستخدمون الأتراك — المتمردين أو الذين فروا إلى الأئمة بعد استقلالهم — فى استعمال المدافع التى احتفظوا بها فى قلاعهم . كذلك لم يشعر هؤلاء الأئمة بالحاجة إلى إنشاء السفن الحربية — بعد خروج العثمانيين من اليمن — لأنهم لم يكونوا يخشون شيئاً من جانب البحر[1] ، وذلك لزوال خطر البرتغاليين فى البحار العربية الجنوبية .

---

(١) Niebuhr, C. : Description de L'Arabie, p. 188.

ومن ناحية أخرى ترك العثمانيون آثاراً واضحة فى النواحى الإدارية ، إذ حافظ الأئمة الزيديون بعد استقلالهم على كثير من التقسيمات الإدارية التى وضعها العثمانيون من قبل ، كما حافظوا على كثير من الوظائف والألقاب والتقاليد الإدارية الخاصة بهؤلاء أيضاً(١). وبمعنى آخر فقد دعم العثمانيون معنى «الدولة» عند الأئمة الزيديين ، بعد أن ظلوا قرونا طويلة عبارة عن زعماء دينيين لأقلية تقطن قمم الجبال الشمالية .

غير أنه من الصعب أن نجد آثاراً ثقافية واضحة للعثمانيين ، وذلك لأن ثقافة العثمانيين لم تكن أكثر تقدما من الثقافة العربية فى ذلك الوقت ، إذ كانت ثقافة العثمانيين فى نهاية الأمر جزءاً من الثقافة الإسلامية العـــامة المعاصرة وقتذاك . ويتضح ذلك بشكل كبير إذا قارنا — على سبيل المثال — بين كتب التاريخ التركية والعربية التى رجعنا إليها فى هذا البحث ، فإننا لا نجد بينها أية فروق بل نجد أنها جميعا تنتمى إلى نمط حضارى واحد ، وذلك من حيث الأسلوب أو منهج البحث أو غير ذلك . ولكن كان لوجود العثمانيين فى اليمن أثر غير مباشر على انتعاش حركة التأليف نسبيا فى ذلك الوقت ، وذلك لاندماج اليمن من ناحية فى إطار الامبراطورية العثمانية مما أدى إلى سهولة اتصال اليمنيين بباقى أجزاء هذه الامبراطورية ، ولأن كثرة الحروب التى دارت بين العثمانيين والزيديين أدت من ناحية أخرى إلى قيام النزاع بين علماء وفقهاء السنة والشيعة ، مما أدى بالتالى إلى كثرة المؤلفات فى ذلك الوقت ، إذ كان كل من هؤلاء العلماء ينحاز إلى جانب أحد الفريقين المتنازعين فيعمل على الدفاع عن فريقه من ناحية ، ويرد على التهم التى يوجهها إليه الفريق الآخر من ناحية أخرى . وكان العثمانيون يمنحون العلماء الذين ينحازون إليهم الهبات والعطايا ، أو يولونهم المناصب الكبيرة وذلك لإغرائهم على الوقوف إلى جانبهم .

---

(١) Miebuhr ; Description de l'Arabie, pp. 182-183.

وتتصل بهذه الآثار الثقافية الآثار الاجتماعية ، ومن الصعب كذلك أن تتضح ملامح هذه الآثار بالتحديد لوحدة الإطار الحضارى الذى يجمع بين العثمانيين واليمنيين فى ذلك الوقت ، والذى كان يقوم بشكل جوهرى على الأساس الإسلامى . ولذلك كانت آثار العثمانيين الاجتماعية فى اليمن غير واضحة تماماً، وذلك رغم طول مدة وجود العثمانيين فى اليمن نسبياً إذ خضع لحكمهم مايقرب من المائة عام ، ورغم امتزاجهم باليمنيين طوال هذه المدة عن طريق المصاهرة أو المعاشرة أو غير ذلك . وكان اهتمام العثمانيين بإقامة الاحتفالات العامة كما كان يحدث عند خروج المحمل،أو عند وصول الوالى الجديد إلى اليمن أو غير ذلك، هو أبرز أعمال العثمانيين الاجتماعية التى تلفت إليها أنظار الأهالى[(١)]، غير أن مثل هذه الأعمال لم تكن ذات أثر يذكر بعد خروج العثمانيين من اليمن ، لاختلاف طبيعة نظام الحكم الزيدى الذى ورثهم ، ولطبيعة الحكام الجدد الجبلية التى يغلب عليها طابع المحافظة . ويلاحظ أن مخطوطات اليمنيين المعاصرة وقتذاك لم تعكس أية آثار اجتماعية للعثمانيين ، وذلك باستثناء استعمال بعض الألفاظ الخاصة بأسماء فرق الجيش العثمانى ، أو بعض الألقاب العثمانية أو أسماء الوظائف المختلفة .

أما أهم الآثار السياسية التى نتجت عن وجود العثمانيين فى اليمن فى ذلك الوقت فهى أنهم مهدوا الطريق أمام قيام دولة الإمامة فى اليمن بعد خروجهم منه . إذ أدى وجود العثمانيين فى اليمن إلى القضاء على القوى اليمنية المختلفة التى كانت تقف من قبل أمام توسع الأئمة الزيديين إلى خارج

---

(١) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية (مخطوطة) ، جـ١ ، م٢ ، ص ٣٠٦ أ :

أشار ابن داعر هنا الى ضخامة الاحتفال بدخول حسن باشا الوزير الى صنعاء لأول مرة بعد توليته لأمور اليمن ، والتفاف الناس حول موكبه لمشاهدته فى حشود كبيرة .

الأقاليم الشمالية ، فأدى هذا بدوره إلى إتاحة الفرصة أمام الأئمة الزيديين لإقامة دولة الإمامة الزيدية التى استمر وجودها حتى إعلان النظام الجمهورى فى اليمن سنة ١٩٦٢ . وقد تمت هذه الإمامة واشتد ساعدها أثناء النزاع الطويل بين الأئمة الزيديين والعثمانيين طوال مدة وجود الآخرين فى اليمن فى ذلك الوقت ، وساعدها على ذلك الظروف الطبيعية والتاريخية التى أحاطت بالزيديين منذ دخول العثمانيين إلى اليمن .

الملاحق

الملحق الأول

السلاطين العثمانيون الذين عاصروا فتح اليمن

السلطان سليم الأول	١٥١٢ — ١٥٢٠ م
السلطان سليمان الأول (القانونى)	١٥٢٠ — ١٥٦٦
السلطان سليم الثانى	١٥٦٦ — ١٥٧٤
السلطان مراد الثالث	١٥٧٤ — ١٥٩٥
السلطان محمد الثالث	١٥٩٥ — ١٦٠٣
السلطان أحمد الأول	١٦٠٣ — ١٦١٧
السلطان مصطفى الأول	١٦١٧ — ١٦١٨
السلطان عثمان الثانى	١٦١٨ — ١٦٢٢
السلطان مصطفى الأول (للمرة الثانية)	١٦٢٢ — ١٦٢٣
السلطان مراد الرابع	١٦٢٣ — ١٦٤٠

الملحق الثانى[1]

الولاة العثمانيون فى اليمن

٩٤٥ هـ — ١٠٤٥ هـ

١٥٣٨ م — ١٦٣٥ م

١ —	الأمير بهرام	(فى عدن)	١٥٣٨ — ١٥٤٠ م
	الأمير مصطفى	(فى زبيد)	

(١) اعتمدنا فى كتابة الملحق الثانى والثالث على ما أمكن استخراجه من المخطوطات التى اعتمدنا عليها .

٢ — مصطفى باشا النشار	١٥٤٠	١٥٤٥م
٣ - أويس باشا	١٥٤٦	١٥٤٧
٤ — فرهاد باشا	١٥٤٧	١٥٤٩
٥ أزدمر باشا	١٥٤٩	١٥٥٤
٦ مصطفى باشا النشار (للمرة الثانية)	١٥٥٥	١٥٥٦
٧ - مصطفى باشا قرة شاهين	١٥٥٦	١٥٦٠
٨ محمود باشا	١٥٦٠	١٥٦٥
٩ رضوان باشا	١٥٦٥ —	١٥٦٧
١٠ مراد باشا	١٥٦٦ —	١٥٦٧
١١ - حسن باشا	١٥٦٧ —	١٥٦٨
١٢ — عثمان باشا	١٥٦٨ -	١٥٦٩
١٣ سنان باشا الوزير	١٥٦٩	١٥٧٠
١٤ - بهرام باشا	١٥٧٠ —	١٥٧٥
١٥ مراد باشا الوزير	١٥٧٦	١٥٨٠
١٦ - حسن باشا الوزير	١٥٨٠	١٦٠٤
١٧ — سنان باشا الكيخيا	١٦٠٤	١٦٠٧
١٨ جعفر باشا	١٦٠٧ -	١٦١٦
١٩ محمد باشا	١٦١٦ —	١٦٢١
٢٠ أحمد فضلى (فضل الله) باشا	١٦٢١ —	١٦٢٤
٢١ حيدر باشا	١٦٢٤	١٦٢٩
٢٢ أحمد قانصوه باشا	١٦٢٩	١٦٣٥

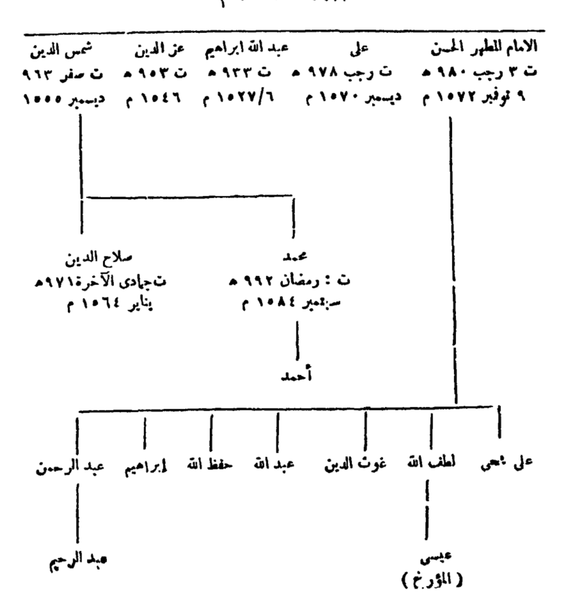
الملحق الثالث

الأئمة الزيديون الذين عاصروا الفتح العثمانى الأول لليمن

١ — الإمام شرف الدين يحيى

٨٧٧ — ٩٦٥ هـ

١٤٧٣ — ١٥٥٨ م



٢ — الإمام الحسن بن على المؤيدى

(توفى فى استانبول)

فى رجب ١٠٢٤ هـ

يوليه ١٦١٥ م

دعا إلى إمامته فى منتصف رمضان سنة ٩٨٥ هـ (نوفمبر ١٥٧٧م) وقبض عليه فى منتصف رمضان سنة ٩٩٣هـ (أغسطس / سبتمبر ١٥٨٥ م) ثم نفى إلى استانبول حيث مات هناك .

٣ — الإمام القاسم بن محمد

ربيع أول ٩٦٦ . ربيع أول ١٠٢٩ هـ

ديسمبر ١٥٥٨ — فبراير ١٦٢٠ م

الامام المؤيد محمد ت رجب ١٠٥٤هـ سبتمبر ١٦٤٤ م	الحسن ت شوال ١٠٤٨ فبراير ١٦٣٩ م	الحسين ت ربيع آخر ١٠٥٠ هـ أغسطس ١٦٤٠ م	أحمد	على	الامام المتوكل على الله إسماعيل

ملاحظات خاصة بالمراجع

يصعب فى الحقيقة الحديث عن مراجع هذا الموضوع حديثاً موجزاً ، وذلك لتنوع هذه المراجع واختلاف طبيعتها وأهميتها ، إذ يتميز كل مرجع منها — أو كل مجموعة منها على الأقل — بطابع أو مميزات خاصة . وفى نفس الوقت ، فإنه من الصعب من ناحية أخرى أن نسهب فى وصف أو فى تحقيق جميع هذه المراجع لأن هذا يحتاج إلى بحث خاص يضيق المجال هنا عن تناوله .

وأهم مراجع موضوع هذه الرسالة هى مجموعة المخطوطات ، فهى فى الحقيقة تعتبر العمود الفقرى لهذا الموضوع ، إذ لولاها ما أمكن كتابته ، أو دون مبالغة ما أمكن التفكير فى كتابته . وتقوم أهمية هذه المخطوطات على أساس أنها — باستثناء عدد قليل منها — قد كتبت بأقلام يمنية ، وأن كتابها قد عاصروا تلك الأحداث التى تناولها البحث ، أو على الأقل عاشوا فى فترات تلى تلك الأحداث بوقت قصير ، ولذلك ذخرت تلك المخطوطات بالتفصيلات المطولة التى ساعدتنا على كتابة هذا الموضوع ، وعلى فهم أبعاده والظروف التى أحاطت به .

وهناك سمات عامة تشمل مجموعة المخطوطات يمكن الإشارة إليها هنا بإيجاز .

أولا : اتصف أسلوب هذه المخطوطات بوجه عام بالضعف والركاكة ، وبالميل إلى السجع فى أغلب الأحيان ، كذلك تمتلىء المخطوطات بالكثير من الألفاظ العامية ، وذلك تبعاً لانحطاط اللغة فى ذلك العصر . ومن ناحية أخرى ، تشابهت هذه المخطوطات فى رداءة الخط الذى كتبت به ، كما كان

ناسخوها يغفلون وضع الكثير من النقط على الحروف ، مع عدم استخدام الهمزات ، وذلك باستثناء بعض هذه المخطوطات وخاصة تلك التي لم نعثر إلا على النسخ المنقولة منها التي نسخت فى أوقات حديثة نسبياً .

ثانياً : التزمت هذه المخطوطات بترتيب الأحداث على طريقة الحوليات وذلك تبعاً لطريقة كتابة التاريخ فى العالم الإسلامى حتى ذلك الوقت . ويعيب هذه الطريقة التقليدية أنها تؤدى عند ذكر الموضوعات التاريخية إلى تفتيتها بين عدد من السنين .

ثالثاً : اشتركت جميع هذه المخطوطات بدون استثناء تقريباً فى صفة عامة وهى أنها كتبت بأقلام منحازة ، إذ كان لكل مؤلف من مؤلفيها موقف خاص من الأحداث التى عاصرها ، أو بوجه عام من الأحداث التى ذكرها فى مؤلفه ، فقد انحاز البعض إلى جانب العثمانيين ، وانحاز البعض الآخر إلى جانب الزيديين أو الفئات اليمنية الأخرى .

وقد أدت هذه السمات العامة إلى صعوبة الاستفادة من هذه المخطوطات ، إذ أن رداءة الخط والأسلوب قد أديا إلى صعوبة قراءة المخطوطات ، كما أن انحيازها إلى طرف دون الآخر عند ذكر الأحداث قد أدى إلى ضرورة الحذر والتريث عند الرجوع إليها . وإلى جانب هذا فقد تغلب الجانب السياسى على ماجاء بهذه المخطوطات ، فغطى ذلك على النواحى الأخرى مثل النواحى الاقتصادية والاجتماعية السائدة فى فترة الحكم العثمانى فى اليمن وذلك كما اتضح فى قلة المادة الخاصة بالفصل التاسع .

غير أن هذه النقائص جميعها لا تقلل من أهمية هذه المخطوطات بالنسبة لموضوع الرسالة ، أو حتى من أهمية المدرسة التاريخية التى تنتمى إليها هذه المخطوطات ، إذ لاشك أنها تمثل العمود الفقرى الذى قامت عليه الرسالة ، فقد تميزت بوفرة مادتها ، وباتصال هذه المادة بموضوع البحث ، وبتنوع وجهات

نظرها . فرغم عيوب كتابة التاريخ على طريقة الحوليات على سبيل المثال ، فإن هذه الطريقة نفسها تعطى الفرصة لذكر الكثير من التفصيلات التى لا غنى عنها لتوضيح الصورة العامة لأحداث تلك الفترة وما أحاطها من ظروف وملابسات. وبالإضافة إلى ذلك ، فإن المواقف والتفسيرات الخاصة لهذه المخطوطات ساعدت باستمرار على توضيح وجهات النظر المختلفة مما كان يعمق فى النهاية فهمنا لتطور الأحداث .

ومن ناحية أخرى ، تميزت هذه المخطوطات بالتزامها بالمنهج العلمى السائد فى تلك القرون السابقة ، فقد كان مؤلفو هذه المخطوطات يعمدون إلى توثيق المعلومات التى يسوقونها فى مخطوطاتهم والتى لم يعاصروها ، فيذكرون فى مقدمتها المراجع التى نقلوا عنها ، مع الإشارة بنظرة فاحصة إلى أهمية كل منها ، أما الأحداث التى عاصروها فإنهم يعمدون إلى ذكر الأشخاص الذين رووا هذه الأحداث ، فيشير أى منهم إلى هؤلاء الأشخاص بقوله « حدثنى فلان » أو « قال لى فلان » إلى غير ذلك من العبارات الدالة على مصـــادره . أما الأحداث التى شاهدوها بأنفسهم فكانوا يعمدون إلى الإسهاب فى وصفها ، مع ذكر الشخصيات الكبيرة التى احتكوا بها مثل الولاة أو القواد العثمانيين ، أو مثل الأئمة الزيديين وغيرهم . كذلك حرص هؤلاء المؤلفون فى مقدماتهم على ذكر المنهج الذى التزموه فى كتاباتهم ، فيوضحون الغرض الذى دفعهم على الكتابة ، سواء كان غرضاً شخصياً مثل تكليف أحد الولاة لهم بكتابة تاريخ اليمن أو جزء منه ، أو حتى للتقرب إلى هذا الوالى أو ذاك ، أو مثل الدفاع أو الهجوم على إحدى القوى السياسية المعاصرة وقتذاك ، أوحتى مثل تقديم العظة والاعتبار للمسلمين الذى كان من أهم أغراض الكتابة التاريخية عند مؤرخى المسلمين . ثم يواصل هؤلاء توضيح منهجهم ، فيذكرون فى مقدماتهم أيضاً كيف قسموا مخطوطاتهم إلى أبواب وفصول ، ويوضحون أسباب هذا التقسيم ، وأسباب إبرازهم لبعض الأحداث دون البعض الآخر أو أسباب

تمسكهم بطريقة الحوليات ، وغير ذلك مما يؤكد فى النهاية إلتزامهم للمنهج العلمى .

ولا يقلل من أهمية هذه المخطوطات ما امتلأت به من المدح أو القدح للقوى المعاصرة وقتذاك إذ كان هذا من طبائع الأمور فى ذلك العصر ، فنجد أن الذين انحازوا إلى جانب العثمانيين يطنبون فى مدح السلاطين والولاة ، ويطلقون عليهم أعظم الألقاب والنعوت ، ويبالغون فى وصف أعمالهم وفى تمجيدها إلى حد يبعث على الملل ، وفى نفس الوقت يشتطون فى مهاجمة القوى الأخرى وبخاصة الأئمة الزيديين ، فيرمونهم بالكفر والإلحاد والخروج على الدين ، ويسفهون أعمالهم ويحقرونها ، وذلك فى مبالغة كبيرة أيضاً تدفع المرء إلى الشك فى صحة هذه الاتهامات ، ومن ناحية أخرى فلا يقلل من أهمية مؤلفى هذه المخطوطات أنهم كانوا من رجال الدين من العلماء والفقهاء والقضاة والوعاظ وغيرهم ، فقد كان رجال الدين بوجه عام يمثلون الطبقة المثقفة فى ذلك الحين ، وكانوا هم الذين يقومون بكتابة التاريخ ، وبالتأليف فى باقى نواحى المعرفة الأخرى ، أما التخصصات الفرعية الدقيقة فلم تعرف عند متعلمى الشرق العربى إلا بعد ذلك الوقت .

وكيفما كان الأمر ، فإنه يمكن تقسيم مجموعة المخطوطات إلى مجموعات فرعية حسب موقفها السياسى من الأحداث ومن القوى المختلفة التى عاصرت الفتح العثمانى الأول لليمن ، وذلك لأنه من الصعب التمييز بين هذه المخطوطات من حيث الأهمية لأن كلا منها كانت تتميز بمميزات خاصة مهما صغر حجمها أو قلت مادتها ، وأولى هذه المجموعات ، هى مجموعة المخطوطات التى انحازت إلى جانب العثمانيين ودافعت عن وجهة نظرهم حتى أصبحت تشبه التقارير الرسمية فى ذلك الوقت رغم موقفها المعارض لحكم وسياسة بعض الولاة أو القادة العثمانيين ، وعلى رأس هذه المجموعة مخطوطات قطب الدين وابن داعر

والموزعى ، فقد اتضح انحيازها بشكل كبير للعثمانيين فى أسلوبها وفى طريقة معالجتها للموضوعات أوفى طريقة عرضها لبعض الأحداث التى حاولت إبرازها. وكان هؤلاء الثلاثة من أتباع المذهب السنى الذى يعتنقه العثمانيون ، غير أن هذا لم يكن السبب الوحيد الذى دفع هؤلاء إلى الوقوف إلى جانب العثمانيين ، إذ كان هناك أسباب شخصية ومادية دفعتهم إلى هذا الموقف . فهؤلاء الثلاثة من علماء الدين الذين شغلوا وظائف دينية رسمية فى ظل العثمانيين ، ومن ناحية أخرى كتب هؤلاء الثلاثة مخطوطاتهم بتكليف من العثمانيين أو للتقرب منهم على الأقل، فقد قام قطب الدين الذى كان يقيم بمكة بكتابة مخطوطته بناء على طلب سنان باشا الوزير بعد عودته من حملته الكبيرة على اليمن ، كما قام ابن داعر بكتابة مخطوطته تقرباً من الوالى حسن باشا الوزير ، كذلك الموزعى الذى كان نائباً للشريعة فى تعز وإماماً لجامعها الكبير ، فقد اهتم بتأليف مخطوطته للتقرب من حاكم تعز الأمير محمد بن سنان باشا الكيخيا ، ولم تقف كتابات هؤلاء عند حد الترجمة لهؤلاء الولاة أو القادة ، بل اهتموا بدراسة تاريخ اليمن منذ دخول أهله فى الإسلام أو منذ بداية القرن العاشر الهجرى ، أو منذ دخوله بعد ذلك فى حوزة الدولة العثمانية ، ثم ساروا بهذه الكتابات — باعتبارها مقدمات تاريخية — حتى وصلوا إلى فترة الولاة الذين كتبوا من أجلهم هذه الكتابات فأسهبوا فى ذكر أحداثهم وسياستهم ، ولذلك اتصفت كتاباتهم فى نهاية الأمر بأنها كتباً تاريخية متكاملة ، وذات ملامح واضحة ، وذلك رغم ما كان يشوبها من التحيز ، أو من التطويل فى بعض المواضع .

ويتفرع من هذه المجموعة من المخطوطات نوع خاص من الكتابات وهى التى كانت تخصص لتاريخ أعمال أحد الولاة بمفرده على عكس ما فعله الثلاثة السابقون . وذلك مثل مخطوطة محمد بن يحيى المطيب التى تسمى « بلوغ المرام

فى تاريخ دولة مولانا بهرام » ؛ وبهرام باشا هذا هو الذى تولى أمور اليمن بعد عودة حملة سنان باشا الوزير من اليمن . وأهمية هذا النوع من المخطوطات أنه أعطانا نموذجاً واضحاً لطبيعة الحكم العثمانى فى اليمن ، ولسياسة الولاة هناك ، وأنواع أعمالهم واهتماماتهم ، وذلك كله مع توضيح علاقاتهم بالأهالى . وبمعنى آخر فقد أفاد هذا النوع من المخطوطات فى عرض النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية بشكل كبير فى قطاع معين من تاريخ اليمن ، وذلك على عكس المخطوطات التى تناولت تاريخ اليمن فى فترات طويلة نسبياً .

ومن ناحية المجموعة الثانية من هذه المخطوطات فهى التى كتبت بأقلام زيدية ، ودافعت عن وجهة نظر الأئمة الزيديين ، وعلى رأس هذه المجموعة مخطوطات عيسى بن لطف الله ، ويحى بن الحسين ، والجرموزى . وقد تحيز هؤلاء أيضاً للدفاع عن قضيتهم ، وعن أئمة الزيدية وهاجموا العثمانيين واتهموهم بالخروج على الدين ، وألصقوا بهم الكثير من التهم الشائنة ، غير أن درجة تحيز هؤلاء الكتاب والمؤلفين قد اختلف من شخص إلى آخر تبعاً لظروفه الشخصية أو حسب موقفه السياسى . واتضح ذلك بشكل كبير عند عيسى ابن لطف الله ، فقد اختلف موقفه من القوى السياسية المعاصرة وقتذاك لاختلاف العوامل التى سيطرت عليه عند كتابة مخطوطته . فمن ناحية ، قام عيسى بن لطف الله بكتابة مخطوطته بتكليف من الوالى محمد باشا الذى عاصر اشتداد ثورة الإمام القاسم . ولذلك كانت كتابته فى كثير من المواضع متعاطفة مع العثمانيين . ومن ناحية أخرى ، حافظ عيسى بن لطف الله على تعصبه للزيديين لانتمائه إليهم فهو حفيد المطهر ابن الإمام شرف الدين ورغم ذلك فقد عادى الإمام القاسم وثورته عند بداية قيامها ، وذلك تبعاً لعداوة أسرة الإمام شرف الدين لهذه الثورة حينذاك لتضارب المصالح السياسية التى أوضحناها فى خلال فصول الرسالة . وانعكس هذا الموقف على ما جاء

بمخطوطته ، فقد تحيز لتاريخ أسرته كثيراً ، وساعده على ذلك أن هذه الأسرة لم تكن هى العدو الحقيق للعثمانيين فى زمن عيسى بن لطف الله بل كان أغلب أفرادها قد دخلوا فى خدمة العثمانيين وأصبحوا من أدواتهم فى اليمن ، وفى نفس الوقت لم يعاد العثمانيين كثيراً فى كتاباته بل عادى ثورة القاسم عند بداية قيامها ، ثم اعتدل فى موقفه منها وبخاصة بعد أن توالت إنتصاراتها على حساب العثمانيين وسيطرتهم ، ولذلك قيل إنه كتب قصيدة مشهورة فى أواخر أيامه أرسلها إلى الإمام القاسم ينفى عن نفسه ما أشيع عنه من ناحية انحيازه للعثمانيين ، وقد اتضح هذا الموقف المعتدل بجلاء فى الجزء الثالث من مخطوطته. ولهذه كله ذكر المحبى (ج ٣ ، ص ٢٣٦) فى ترجمة حياته « وله التاريخ المشهور الذى سماه روح الروح ، صنفه فى الظاهر للأروام (للأتراك) وأفاد فيه أيام سلفه » . أما يحيى بن الحسين فقد كان أكثر اعتدالا من عيسى ابن لطف الله لا من حيث تعصبه للزيديين فحسب ، بل من حيث قلة اندفاعه وانفعاله إلى جانب دون الآخر ، أو بالأحرى من حيث قلة اهتزاز موقفه بين الأطراف المتنازعة . ونرجح أن اعتدال يحيى بن الحسين وموضوعيته نسبياً رغم تعصبه للزيديين لانتمائه إليهم أيضاً إذ كان حفيداً للإمام القاسم ، نرجح أن هذا يرجع إلى أنه لم يعاصر التهاب الأحـــداث فى اليمن أو اشتداد العداء بين الزيديين والعثمانيين لأنه عاش بعد خروج الأخيرين من اليمن ، كما قد يرجع هذا أيضاً إلى أن النسخة المتداولة من مخطوطة يحيى بن الحسين وهى « أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن » ليست النسخة الأصلية ، بـــل هى نسخة قام ناسخها ببعض الاختصارات بها ، وذلك كما يفهم من الفقرة المكتوبة فى نهايتها . ورغم ذلك فتعتبر مخطوطتا عيسى بن لطف الله ويحيى بن الحسن من أهم المراجع التى تناولت تاريخ اليمن فى تلك الفترة ، وذلك لكثرة تفاصيلهما ، ولقرب مؤلفيهما من الأحداث ، ولغزارة علمهما . وعلى عكس ذلك ، فهناك مخطوطتان زيديتان ، إحداهما للجرموزى والثانية مجهولة المؤلف وتسمى « تاريخ دولة الترك فى اليمن » ، تتصفان بعنف لهجتهما ، وشدة معارضتهما للعثمانيين ، حتى إنه يمكن

أن نعتبرهما التقارير الرسمية لثورة القاسم، أو إنهما بمثابة المنشورات السياسية التى كانت تدعو إلى هذه الثورة . وقد اغتنت هاتان المخطوطتان بالكثير من أقوال الإمام القاسم وخطاباته ، وبالكثير من التفصيلات التى تدل على قرب مؤلفيهما من الأحداث وذلك كما يتضح من بين سطورهما . ولا غرابة فى هذا إذ كان مؤلفا هذين المخطوطتين من كبار أتباع الإمام القاسم وممن شاركوه الثورة على العثمانيين كما يتضح من كتابتهما ، وبالإضافة إلى ذلك فقد حرصا على ذكر أسماء من أخذا عنهم الأحداث التى لم يشاهداها ، جميع هؤلاء كانوا من قادة جيوش الإمام القاسم أو من كبار علماء الزيدية . أو من رؤساء القبائل الذين انضموا إلى القاسم ، أى بالأحرى ممن كانوا يصنعون الأحداث ويشاركون فيها عن كثب .

ومن ناحية المجموعة الثالثة من المخطوطات فهى تضم أنواعاً متعددة منها ، فهناك صاحب الاتجاه المعتدل مثل مخطوطة « مطامع النيران » لأحمد ابن يوسف فيروز ، فهـــو يتحدث عن الأئمة باحترام واضح ، وفى نفس الوقت يتناول أعمال الولاة بالتفصيل وبالتقدير معاً حتى ليشعر المرء أحياناً بأنه أحد المنحازين إلى العثمانيين لولا خلو حديثه عن الطرف الآخر من لهجة العنف والهجوم . ورغم ذلك فقد تميز هذا المؤرخ بنظرته الثاقبة ، وبميله إلى كشف الحقائق وبتوجيه النقد إلى الولاة والأئمة على السواء . وهناك أيضاً مخطوطات بأقلام مصرية مثل مخطوطة ابن أبى السرور البكرى ، وقد رجعنا إليها رغم اهتمامها أساساً بتاريخ مصر لارتباط اليمن بمصر فى تلك الفترة . وقد أمدنا هذا النوع من المخطوطات بمعلومات هامة انفردت بها — مثل تجهيز بعض الحملات بمصر — لأنه كان من المستحيل أن تهتم بذكرها المخطوطات اليمنية . ومن بين مخطوطات هذه المجموعة أيضاً تلك التى اهتمت بالتراجم مثل مخطوطة « السنا الباهر » ، وكذلك تلك التى وضعت فى فترات متأخرة نسبياً ، فضمت لذلك

فترة الفتح العثمانى الأول لليمن جميعها وذلك مثل مخطوطة « اللطائف السنية » للكبسى . وقد أفاد هذا النوع الأخير فى أنه عرض تاريخ تلك الفترة فى إيجاز مفيد ساعدنا على فهم بعض الأحداث التى غمضت أو تاهت فى المخطوطات الأخرى المطولة . وهكذا فيمكن القول بأن مخطوطات المجموعة الثالثة قد أفادتنا كثيراً فى توضيح الصورة العامة لأحداث الفتح العثمانى لليمن ، وفى إكمال بعض تفاصيلها الهامة ، وإن كانت تعتبر أقل أهمية بالنسبة لمخطوطات المجموعة الأولى والثانية .

وأخيراً ، فلا شك أن مجموعة المخطوطات تمثل العمود الفقرى لهـــذا البحث كما ذكرنا فى بداية الحديث ، وذلك رغم تقصيرنا هنا فى عرض دراسة مستفيضة لها تتناسب مع أهميتها ؛ إذ أن هذا يحتاج إلى بحث خاص مطول .

والمجموعة الثانية من المراجع هى مجموعة الكتب التركية ، وقد انفردت هذه المجموعة بأهمية خاصة وهى إمدادنا بوجهة نظر الدولة العثمانية فى أحداث اليمن . وكان من المتوقع عند التفكير فى الرجوع إلى هذه المجموعة أن نجد بها الكثير من التفصيلات عن ولاة اليمن ، أو عن الحملات التى أرسلها السلاطين إلى هناك ، أو غير ذلك مما يتعلق بعلاقة الدولة بتلك الولاية ، غير أنها لم تقدم إلينا ما كنا نصبو إليه بالقدر اللازم . وقد يرجع ذلك — رغم شهرة العثمانيين بتدوين تاريخهم — إلى طبيعة هذه الكتب من ناحية ، وإلى بعد اليمن المتطرف عن مقر السلطنة العثمانية من ناحية أخرى ، وبالتالى عن اهتمام مؤرخى الدولة العثمانية نفسها ، فمن ناحية طبيعة كتب هذه المجموعة ، فهى تتصف بأنها من كتب التاريخ الإسلامى العام أو من كتب التاريخ العام للدولة العثمانية ، ولذلك نرى أن أغلب ما كتبه المؤرخون العثمانيون يتعلق بأحداث السلاطين أنفسهم وبأعمالهم وحروبهم ، كما يتعلق بتاريخ بعض الولايات الهامة وذلك من خلال ذكر أعمال السلاطين أيضاً . ويستثنى من هذا كتابى أحمد راشد باشا وعاطف باشا ، إذ

أنهما خصصا لتاريخ اليمن فقط ، وذلك لأن هذين الكاتبين كانا من رجال الجيش العثماني اللذين جاءا إلى اليمن أثناء الفتح العثماني الثاني له(١٨٧٢-١٩١٨م)، ولذلك إهتما بدراسة تاريخ اليمن و بعلاقة العثمانيين به منذ القرن السادس عشر الميلادى . وقد تمثلت أهمية الكتابين فيما جاء بهما من نقد لأعمال الترك فى اليمن أثناء الفتح العثمانى الأول له،فهما ليسا مراجع تاريخية فى الحقيقة وذلك كما اعترف مؤلفيهما فى مقدمتى الكتابين بأنهما ليسا مؤرخين ، ولكنهما حملا لنا تفسيرات عديدة للأحداث من وجهة نظر تركية .

ومن ناحية بعد اليمن عن مقر السلطنة العثمانية ، فقد أثر هذا أيضاً فى ندرة المادة التاريخية فى كتب التاريخ العثمانى التى رجعنا إليها ، إذ كان وصول أخبار اليمن إلى استانبول صعباً عسيراً ، ولذلك نرى أن أغلب ما كتبوه عن اليمن كان عن الأحداث المتعلقة به والتى لها صلة وثيقة باستانبول أو بمصر مثلا ، كإرسال الحملات والخلع وتعيين بعض الولاة . ومن ناحية أخرى يرجع عدم اهتمام المؤرخين العثمانيين كثيراً بذكر أخبار اليمن إلى أن اهتمام المسئولين العثمانيين فى استانبول بولاية اليمن كاد ينحصر فى موقعها الاستراتيجى عند مدخل البحر الأحمر ، ولذلك فلا غرابة أن يقتصر ما ذكره صولاق زاده - وهو من المؤرخين العثمانيين البارزين - من أخبار اليمن على ذكر فتح عدن وأحداث حملة سيدى على فقط ، وهناك سبب هام أخير يفسر موقف المؤرخين العثمانيين حينذاك من أحداث اليمن ، هو أن أغلب هذه الأحداث كان من النوع المحلى البحت ؛ إذ كان عبارة عن صراع داخلى بين العثمانيين وبين القوى اليمنية أو بين القوى اليمنية بعضها ببعض .

ورغم هذا كله ، فقد كنا دون شك فى حاجة إلى هذه القلة القليلة من المادة التاريخية التى جاءت بالمراجع التركية ، إذ كان يستحيل الاستغناء عنها .

ولا تقل أهمية المجموعة الثالثة — وهى الكتب العربية المطبوعة — كثيراً عن أهمية المجموعتين السابقتين بالنسبة لموضوع الرسالة ، وذلك لأن هذه المجموعة تضم كتباً تركية مثل أحمد جودت باشا وعلى همت ، كما تضم كتباً تم تأليفها فى فترات معاصرة للفترات التى كتبت فيها المخطوطات التى رجعنا إليها — وقدر لها أن تطبع — مثل كتب عمارة ، وابن إياس ، وبومخرمة ، وقطب الدين ، والمليارى ، والعيدروس ، والمحبى . وبالإضافه إلى ذلك فتضم هذه المجموعة العديد من كتب اليمنيين سواء من القدماء أو من المحدثين وذلك مثل كتب زبارة والواسعى والويسى وأحمد شرف الدين ، أو مثل كتب عمـــارة وبومخرمة والعيدروس والعرشى . ورغم هذا فلا شك أن المجموعة الثالثة فى جملتها تأتى فى المرتبة الثانية بالنسبة للمخطوطات والكتب التركية ، إذ تمثل المجموعتان الأخيرتان المراجع الأصلية ، أما كتب المجموعة الثالثة فمعظمها كتب مؤلفة نقلت عن غيرها ، أو كانت تعالج نقطة محدودة أو موضوعاً معيناً من مواضيع الرسالة . وقد أثر هذا فى موقفنا من كتب هذه المجموعة ، إذ لم نعتمد عليها كثيراً إلا فى مواضع قليلة متفرقة كما يتضح فى فصول الرسالة ، وذلك لأن بعضها كان محدود الفائدة ، ولحرصنا على الاعتماد على المراجع الأصلية — وهى المخطوطات والكتب التركية — عندما تتفق هذه المراجع مع كتب المجموعة الثالثة فى ذكر أمر معين ، وذلك لأن هذه الكتب فى العادة تكون قد أخذت مادتها من المراجع الأصلية التى رجعنا إليها نحن أيضاً .

وتتشابه المجموعة الرابعة من المراجع — وهى الكتب الإفرنجية — مع المجموعة الثالثة من حيث درجة الأهمية بالنسبة لموضوع البحث ، ومن حيث تنوعها واختلاف إهتماماتها . فهذه المجموعة أيضاً تضم كتباً أصلية عاصر مؤلفوها موضوع البحث مثل الكتب البرتغالية والتركية التى رجعنا إليها فى ترجمتها الإنجليزية ، وذلك مثل كتب : Duarto Barbosa, Castanheso, Alvarez وهم برتغاليون ، ومثل كتابى : Haji Khalifeh,

Sidi Ali Reis وهما من الأتراك . وقد عاصر هؤلاء أحداث الفتح العثمانى لليمن أو شاركوا فى صنعها ، فقد كان Alvarez رئيس الأساقفة الذى زار الحبشة فى ١٥٢٠ — ١٥٢٧ مع أول بعثة دبلوماسية برتغالية إليها ، وكان كتابه الذى وضعه عن هذه الرحلة أول كتاب أوربى ينشر عن الحبشة ، ويصف واقعها فى أوربا . وكذلك Castanhoso فقد صاحب الحملة البرتغالية إلى الحبشة فى ١٥٤١ — ١٥٤٣ وكان أحد رجال الدين أيضاً . أما Duarto Barbosa فكان أحد الرحالة الذين زاروا الشواطىء الإفريقية والآسيوية حتى وصل إلى الهند ، وقام بوصف هذه الشواطىء فى كتابه فى حديث يتميز بالدقة والطرافة فى نفس الوقت ، وإن كان لا يخلو من التعصب لبنى جلسه ، والهجوم بعنف على العرب والمسلمين كافة . وقد كتب سيدى على ريس رحلته المشهورة فى كتابه المذكور فى قائمة المراجع بعد عودته إلى استانبول ، ولذلك كان كتابه يتصف بالأصالة لأنه تعمد وصف هذه الرحلة بدقة وإسهاب تجعلان كتابه أشبه بكتب المذكرات أو الذكريات على الأقل . أما كاتب جابى الذى اشتهر باسم حاجى خليفة فهو صاحب المؤلفات العديدة والمعلومات الغزيرة الغنى عن التعريف . وإلى جانب هذا كله ، ضمت المجموعة الرابعة من المراجع دراسات هامة عن الدولة العثمانية نفسها ، مثل كتب : Lybyer, Creasy; Hammer, Knolles . ويعد كتاب Kammerer إلى جانب كتاب Wilson من أهم الدراسات التى عالجت موضوع النشاط البحرى فى البحر الأحمر والخليج العربى فى فترة الفتح العثمانى لليمن ، وذلك بالإضافة إلى كتاب Serjeant الذى قام لأول مرة بنشر ماجاء فى بعض المخطوطات الحضرمية التى تناولت النشاط البحرى من وجهة نظر عربية إسلامية بحتة . وفى هذا الصدد ، أمدتنا البحوث التى نشرت فى مجلة J.R.A.S بمعلومات هامة عن النشاط البحرى - البرتغالى والمملوكى والعثمانى — فى تلك الفترة ، وذلك لأنها كانت تعتمد على مصادر برتغالية وعربية أصلية . ورغم أهمية كتابى : Neibuhr. Tritton باعتبارهما من المراجع الأصلية ،

فإننا لم نعتمد عليهما كثيراً ، إذ كان كتاب الأول عبارة عن ترجمــة أمينة لمخطوطات عربية رجعنا إليها فى أصولها العربية ، ولذلك اقتصر اعتمادنا على ما جاء بالفصل الأخير به وهو خاص بالحياة الدينية والاجتماعية فى اليمن فى عهد الإمام القاسم وابنه الإمام المؤيد حتى خروج الترك منه . أما كتاب الثانى، فهو لا يعد من المراجع الأصلية بالنسبة لتاريخ اليمن والجزيرة العربية بوجه عام إلا فى الفترة التى تلت خروج الترك من اليمن ، وذلك لأنه لم يقم برحلتــه فى هذه الأنحاء إلا فى خلال هذه الفترة ، أما تاريخ ما قبل ذلك فقد اعتمد فى كتابته على المخطوطات اليمنيــة ، وعلى ما سمعه من روايات بعض من قابلهم . ولا تقل باقى الكتب الإفرنجية من حيث الأهمية والأصالة عن الكتب التى ذكرناها ، إذ أنها كتب مؤلفة اعتمدت على غيرها فيما أوردته من المعلومات التاريخية . غير أن هذا لا يقلل من أهميتها كثيراً إذ أنها عبارة عن دراسات علمية جادة لكتاب ومؤرخين التزموا الموضوعية وتحروا الحقيقة فى أبحاثهم ، كما أن بعض هؤلاء من ناحية أخرى اعتمد فى دراسته على مراجع أصليــة — وخاصة البرتغالية — لم نتمكن من الرجوع إليها لعدم توفرها فى مكتبات القاهرة، أو لصعوبة الرجوع إليها والأخذ منها .

وأخيراً ، فرغم تقصيرنا فى التعريف بمراجع الرسالة كل على حدة ، أو بشىء من الاستفاضة لضيق المجال هنا ، فإنه يمكن القول بأنها مراجع تتصف بالأصالة وبأنها دراسات جادة متعمقة . وهذا الطابع العام الذى اتصفت به مراجع الرسالة لا ينفى أن بعضها قليل الأهمية أو يعتبر من المراجع الثانوية ، غير أنها جميعاً تضافرت فى معالجة موضوع الرسالة ، وفى مساعدتنا وكتابة أبوابه ونقاطه .

المراجـــع

(أ) المخطوطات

١ – إبن أبي السرور، محمد بن محمد أبي السرور زين العابدين بن محمد البكرى الصديقى المعروف بابن أبي السرور : ١٠٠٥ – ١٠٨٧ هـ (١٥٩٦ – ١٦٧٦ م).

– المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية، مخطوطة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٥٤٢٤ تاريخ، وهى منقولة عن النسخة الخطية المحفوظة بالدار برقم ٢٩٢٦ تاريخ، وتختص بتاريخ السلاطين العثمانية وبعد دخول مصر فى حوزة الدولة العثمانية اهتم مؤلفها بذكر ولاة مصر وبعض أعمالهم وذلك حتى عهد السلطان مصطفى الأول (١٦٢٢-١٦٢٣).

٢ – ابن داعر، عبد الله بن صلاح الدين بن داود بن داعر المتوفى فى ١٠٠٧ هـ (١٥٩٩/٨ م).

– الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية، جزءان فى ثلاث مجلدات، مخطوطة مصورة محفوظة بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٢٦٤٢١، وهى منقولة من ميكروفيلم محفوظ بمعهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية، وهذا الميكروفيلم مصور من الأصل المحفوظ بمكتبة راغب باشا باستانبول، والمخطوطة عبارة عن تاريخ اليمن منذ القدم حتى عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥ م) وهى ذاخرة بالتفصيلات المطولة.

٣ – إبن الديبع، عبد الرحمن بن على بن محمد الشيبانى الزبيدى الشافعى وجيه الدين المعروف بابن الديبع، ٨٦٦ – ٩٤٤ هـ (١٤٦١-١٥٣٧م).

– بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد، مخطوطة مصورة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٩٠٨٧ح، وهى مصورة عن نسخة الدار رقم ١١م، والمخطوطة هى الكتاب الأول ضمن مجموعة، وهى تشمل تاريخ

مدينة زبيد منذ تأسيسها حتى نهاية القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) بما فى ذلك قيام الدولة الطاهرية .

٤ ــ ابن الديبع :
ــ الفضل المزيد على بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد ، مخطوطة مصورة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٩٠٨٧ ح ، وهى مصورة عن نسخة الدار رقم ١١ م ، والمخطوطة هى الكتاب الثانى ضمن مجموعة ، وهى تكملة لمخطوطته الأولى « بغية المستفيد » وتشمل تاريخ السنوات من ٩٠١ إلى ٩٢٣ (١٤٩٦/٥ - ١٥١٧ م) .

٥ ــ ابن الديبع .
ــ قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون ، مخطوطة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٢٢٤ تاريخ ، وهى عرض عام لتاريخ اليمن حتى نهاية الدولة الطاهرية آخر الدول السنية فى اليمن وذلك فى ٩٢٣هـ (١٥١٧م).

٦ ــ أحمد بن يوسف فيروز ، (ـ) .
ــ مطالع النيران فى تاريخ اليمن ، مخطوطة محفوظة بالخزانة التيمورية بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٢٢٨٧ تاريخ ، وهى مصورة عن نسخة باريس ، وتشمل تاريخ اليمن فى فترة محدودة بعد الفتح العثمانى الأول لليمن تمتد من ١٥٤٥ إلى ١٥٦٥ م . ولم يعرف شىء عن المؤلف غير أن كتاباته تتصف بالاعتدال بوجه عام .

٧ ــ بومخرمة : أبو الطيب عبد الله بن أحمد بن على بن أبى مخرمة ٨٧٠-٩٤٧هـ (١٤٦٥ - ١٥٤٠ م) .
ــ قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر ، مخطوطة مصورة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ١٦٧ تاريخ ، وهى مصورة عن نسخة بنى جامع بالآستانة ، وتشمل تراجم الأعيان والمشاهير من بداية الهجرة النبوية إلى ٩٢٧هـ (١٥٢١ م) وهى مرتبة على السنين مع بعض التوسع

فى أحداث السنوات الأخيرة ، وتقع فى ثلاثة أجزاء والموجود منها هو الجزء الثالث فقط .

٨ — الجرموزى ، هو المطهر بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن المنتصر أبو على الشريف الحسنى الجرموزى ١٠٠٣ -١٠٧٧ هـ (١٥٩٥-١٦٦٧م).

— سيرة الإمام القاسم بن محمد (وتسمى أيضاً : الدرة المضية فى السيرة القاسمية) ، مخطوطة مصورة محفوظة بدار الكتب تحت رقم ٢٥٦٤٩، وهى منقولة من ميكروفيلم محفوظ بالدار ، وهو مصور من الأصل المحفوظ بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء تحت رقم ١٩ تاريخ ، وتشمل دراسة قيمة لسيرة الإمام القاسم الذى توفى سنة ١٠٢٩ هـ (١٦٢٠ م) إذ كان المؤلف من معاصريه .

٩ — النحريرى ، محمد بن زين الدين بن محمد الحنفى ، ت سنة ١٠٨٧ هـ (١٦٧٦ م) .

— الدر المنضد فى مدح الوزير محمد ، مخطوطة محفوظة بالخزانة التيمورية بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ١٨٩٧ تاريخ ، والمقصود بمحمد باشا هنا هو الذى تولى أمر مصر فى سنة ١٠١٦هـ (١٦٠٨/٧م)، والمخطوطة عبارة عن قائمة بولاة مصر وأهم أعمالهم منذ الفتح العثمانى حتى الوزير المذكور ، ثم بآخرها ذيل بالولاة حتى سنة ١٠٥٠ هـ (١٦٤٠ م).

١٠ — الشبلى : جمال الدين أبى علوى محمد بن أبى بكر الشبلى اليمنى . المتوفى فى سنة ١٠٩٣ هـ (١٦٨٢ م) .

— السنا الباهر بتكميل النور السافر فى أخبار القرن العاشر مخطوطة محفوظة بالخزانة التيمورية بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٣٠٣٣ تاريخ . وتتضمن تراجم القرن العاشر الهجرى . وتكمل ما كان ينقص كتاب « النور السافر » للعيدروس . وهى تشمل تراجم لأعيان العالم الإسلامى وليس اليمن فحسب .

١١ - عيسى بن لطف الله بن المطهر الإمام شرف الدين يحيى . توفى فى ١٠٤٨ هـ (١٦٣٨ م) .

— روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح، مخطوطة مصورة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٩٠٨٧ ح ، وهى مصورة عن نسخة الدار رقم ١١ تاريخ م ، والمخطوطة هى الكتاب الثالث ضمن مجموعة ، وتقع فى ثلاثة أجزاء ، والجزء الثالث أكمله إبنه (غير معروف الإسم) عن لسانه ، وهو يشمل تاريخ اليمن من عام ١٠٢٩ إلى ١٠٦٧ هـ (١٦٢٠ - ١٦٥٦ م) وهى مخطوطة هامة وتعالج تاريخ اليمن منذ بداية القرن العاشر الهجرى (١٦ الميلادى).

١٢ - قطب الدين النهروالى ، محمد بن أحمد بن قاضى خان المكى الحنفى النهروالى القادرى مفتى مكة فى عصره ، توفى فى ٩٨٨ هـ (١٥٨٠ م).

— البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، مخطوطة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٢٤١٤ تاريخ . وتتضمن دراسة قيمة لتاريخ اليمن منذ بداية القرن العاشر الهجرى حتى نهاية حملة سنان باشا الوزير على اليمن أى حوالى سنة ٩٧١ هـ (١٥٦٤ م) .

١٣ - الكبسى ، محمد بن اسماعيل بن يحيى بدر الدين الكبسى الحسنى ١٢٢١ - ١٣٠٨ هـ (١٨٠٦ - ١٨٩١ م) .

— اللطائف السنية فى أخبار الممالك اليمنية ، مخطوطة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٩٥٣٦ ح وهى منقولة عن نسخة الخزانة التيمورية بالدار رقم ٧٣٤ تاريخ ، وتحتوى على دراسة موجزة لتاريخ اليمن منذ الهجرة النبوية إلى ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣م) وهى مرتبة على السنين.

١٤ - محمد بن يحيى المطيب ، (-) ويرجح أنه عاش فى زبيد فى ٩٩٠ هـ (١٥٨٢ م) .

— بلوغ المرام فى تاريخ دولة مولانا بهرام ، مخطوطة مصورة

محفوظة بالخزانة التيمورية بدار الكتب تحت رقم ٢٢٨٩ تاريخ ، وهى مصورة من نسخة باريس ، وتتناول فى تفصيل فترة حكم الوالى بهرام باشا لليمن ، ولذلك فهى تعتبر دراسة قيمة مستفيضة لتاريخ اليمن فى المدة من ٩٧٧ – ٩٨٣ هـ (١٥٦٩ ١٥٧٥ م) .

١٥ – الموزعى ، القاضى شمس الدين عبد الصمد بن اسماعيل بن عبد الصمد الشهير بالموزعى نائب الشريعة فى مدينة تعز (لم يعرف تاريخ وفاته) ، ويرجح أنه كتب مخطوطته فى عهد السلطان عثمان الثانى (١٦١٨ – ١٦٢٢ م) .

– الإحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ، مخطوطة مصورة محفوظة بدار الكتب تحت رقم ٢٣٧٩، وهى منقولة من نسخة الميكروفيلم المحفوظ بمعهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية ، والميكروفيلم مصور من نسخة مكتبة على أميرى باستانبول ، وتبتدىء المخطوطة بسيرة السلطان عثمان الأول وتنتهى بسيرة الأمير محمد بن سنان باشا الكيخيا أمير تعز فى عهد المؤلف .

١٦ – يحيى بن الحسين بن الإمام القاسم بن محمد، توفى فى ١١٠٠هـ(١٦٨٩/٨م).

– أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ، مخطوطة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ١٣٤٧ تاريخ ، وهى الكتاب الأول ضمن مجموعة ، وتبدأ من الهجرة النبوية إلى أحداث عام ١٠٥٦ هـ (١٦٣٧/٦ م) .

مخطوطات مجهولة المؤلف

١٧ – تاريخ دولة الترك فى اليمن ، مخطوطة مصورة محفوظة بدار الكتب تحت رقم ٢٥٦٥٠ح ، وهى منقولة عن ميكروفيلم محفوظ بالدار مصور عن الأصل المحفوظ بمكتبة جامع صنعاء الكبير تحت رقم ٢٧ . وتتناول دعوة الإمام الحسن بن على المؤيدى ثم ثورة الإمام القاسم وحكم إبنه الإمام

المؤيد ، أى من ٩٨٦ إلى ١٠٥١ هـ (١٥٧٩/٨ - ١٦٤٢/١م)،وهى تعبر عن وجهة نظر زيدية متعصبة .

١٨ ـ التيجان الوافرة الثمن فى تاريخ ولاية مولانا رضوان بقطر اليمن وذكر من وليه بعده بالوصف الحسن، مخطوطة مصورة محفوظة بالخزانة التيمورية بدار الكتب تحت رقم ٢٢٨٨ تاريخ ، وهى مصورة عن نسخة باريس ، والمخطوطة كلها عبارة عن أرجوزة تتضمن أهم تواريخ وأحداث فترة حكم رضوان باشا (١٥٦٥ ـ ١٥٦٧ م) ثم من جاء بعـــده من ولاة العثمانيين فى اليمن . ويتضح من هذه الأرجوزة أن مؤلفها يميل ناحية العثمانيين .

(ب) الكتب التركية

١٩ ـ أحمد راشد باشا ، ت ١٣٠٩ هـ (١٨٩٢/١ م) .

ـ تاريخ يمن وصنعا ، ٢ حـ ، استانبول ١٢٩١ هـ (١٨٧٥/٤ م) .

٢٠ ـ بجوى إبراهيم باشا ، ت ١٠٦١ هـ (١٦٥١/٥٠ م) .

ـ تاريخ بجوى ، جزءان فى مجلد ، استانبول ، المطبعة العامرة ١٢٨٣ هـ (١٨٦٧/٦ م) .

٢١ ـ صولاق زاده ، ت ١٠٦٨ هـ (١٦٥٨/٧ م) .

ـ تاريخ صولاق زاده ، استانبول ، ١٢٩٧ هـ (١٨٨٠/٧٩ م) .

٢٢ ـ عاطف باشا ، (ــ) .

ـ يمن تاريخى ، استانبول ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨) .

٢٣ ـ كاتب جلبى ، مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجى خليفة ، ت ١٠٦٨ هـ (١٦٥٨/٧ م) .

ـ فذلكة التواريخ ، جزءان فى مجلدين، استانبول ، ١٢٧٦ (١٨٦٠/٥٩م). (ويتناول أحداث وتراجم متفرقة من ١٠٠٠ هـ ١٠٦٥ ــ ١٥٩٢/١ - ١٦٥٥/٤ م) .

(وللمؤلف كتاب آخر هو «تحفة الكبار فى أسفار البحار» رجعنا إليه فى ترجمته الإنجليزية).

٢٤ — محمد بن محمد الأدرنوى، ت ١٠٥٠ هـ (٤٠/١٦٤١ م).
نخبة التواريخ والأخبار، استانبول، ١٢٧٦ هـ (٥٩/١٨٦٠ م)، ويتناول تاريخ الهجرة النبوية ثم قيام الدولة العثمانية حتى عهد السلطان أحمد (١٦٠٣ — ١٦١٧).

٢٥ — مصطفى نعيم، ت ١١٢٨ هـ (٥/١٧١٦ م).
— روضة الحين فى خلاصة أخبار الخافقين المشهور بتاريخ نعيما، ٦ أجزاء فى ٦ مجلدات، استانبول، ١٢٨٠ هـ (٣/١٨٦٤م)، ويتناول وقائع الدولة العثمانية من ١٠٠٠ — ١٠٧٠ هـ (١/١٥٩٢ — ٥٩/١٦٦٠).

٢٦ — Uzun Garsili, Ismail Hakki : Osmanli Tarihi. 11 Cilt, Turk Tarih Kurumu yayinlarindan' Ankara. 1949.

(جـ) الكتب العربية

٢٧ — ابن إياس، محمد بن أحمد بن إياس.
بدائع الزهور فى وقائع الدهور، الجزء الرابع والخامس، تحقيق ونشر الدكتور محمد مصطفى، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٠.

٢٨ — أحمد جودت باشا
تاريخ جودت، الجزء الأول، ترجمه من التركية إلى العربية عبد القادر الدنا، مطبعة جريدة بيروت، ١٣٠٨ هـ (٩٠/١٨٩١ م).

٢٩ — أحمد حسين شرف الدين.
اليمن عبر التاريخ، القاهرة، مطبعة السنة المحمدية، ١٩٦٣.

٣٠ — دكتور أحمد فخرى .

دراسات فى تاريخ الشرق القديم ، مصر والعراق - سوريا - اليمن - إيران ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٨ .

٣١ — بومخرمة - أبو محمد عبد الله الطيب بن أحمد بن أبو مخرمة .

تاريخ ثغر عدن ، جزءان ، ليدن ، ١٩٣٦ .

٣٢ — حسين بن على الويسى .

اليمن الكبرى ، القاهرة ، النهضة العربية ، ١٩٦٢ .

٣٣ — ديل ، شارل .

البندقية جمهورية أرستقراطية ، ترجمة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٤٨ .

٣٤ — زبارة ، محمد بن محمد بن يحيى زبارة .

إتحاف المهتدين بذكر الأئمة المجددين ومن قام باليمن الميمون من قرناء الكتاب المبين وأبناء سيد الأنبياء والمرسلين ، طبعة صنعاء ، ١٣٤٣ هـ (١٩٢٥ م) .

٣٥ — ساطع الحصرى .

البلاد العربية والدولة العثمانية ، القاهرة ، معهد الدراسات العربية ، ١٩٥٧ .

٣٦ — عباس العزاوى .

تاريخ العراق بين احتلالين ، الجزء الرابع ، بغداد ، شركة التجارة والطباعة المحدودة ، ١٣٦٩ هـ - ١٩٤٩ م .

٣٧ — العرشى ، حسين بن أحمد العرشى .

بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فى من تولى ملك اليمن من ملك وإمام مخطوطة نشرها وحققها الأب انستاس الكرملى ، القاهرة ، مطبعة البرتيرى ، ١٩٣٩ .

٣٨ – العقيلى، محمد بن أحمد عيسى العقيلى .

تاريخ المخلاف السليمانى أو الجنوب العربى فى التاريخ ، جزء أول فى مجلدين ، الرياض ، مطابع الرياض ، ١٩٥٨ .

٣٩ – على همت بركى .

العاهل العثمانى أبو الفتح السلطان محمد الثانى فاتح القسطنطينية وحياته العدلية ترجمه من التركية إلى العربيـــة محمد إحسان بن عبد العزيز ، الخانجى ، القاهرة ، ١٩٥٣ .

٤٠ – عمارة اليمنى ، نجم الدين عمارة الحكمى اليمنى .

تاريخ اليمن ، تحقيق الدكتور حسن سليمان محمود ، القاهر ، دار الثناء للطباعة ، ١٩٥٧ .

٤١ – العيدروس ، عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروس .

النور السافر عن أخبار القرن العاشر ، بغداد ، المكتبة العربية ، ١٩٣٤ .

٤٢ – قطب الدين النهروانى محمد بن أحمد المكى النهروانى القادرى .

الإعلام بأعلام بلد الله الحرام ، القاهرة المطبعة العامرة العثمانية ، ١٠٣٣ هـ (١٨٨١ م) .

٤٣ – المحبى ، محمد الأمين بن فضل الله بن محب الله بن محمد بن محب الدين ابن أبى بكر تقى الدين بن داود المحبى الحموى الدمشقى الحنفى ، ت ١١١١ هـ (١٦٩٩ م) .

خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ، ٤ مجلدات ، القاهرة المطبعة الوهبية ، ١٢٨٤ هـ (١٨٦٨/٧ م) .

٤٤ — محمد أبو زهرة .
الإمام زيد ، حياته وعصره ، آراؤه وفقهه ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٥٩ .
٤٥ — دكتور محمد أنيس .
الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤ — ، القاهرة ، دار الفكر الأنجلو المصرية ، (—) .
٤٦ — محمد مختار باشا .
التوفيقات الإلهامية في مقارنة التاريخ الهجرية بالسنين الأفرنكية والقبطية القاهرة المطبعة الأميرية ببولاق ، ١٣١١ هـ (١٨٩٤/٣ م) .
٤٧ — المليباري ، زين الدين المعبري المليباري (كان موجوداً في العقد الأخير من القرن العاشر الهجري ١٥٨٣ — ١٨٩٤ م) .
تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين ، نشرها وحققها دافيدلوبز (البرتغالي) تحت عنوان « تاريخ البرتغاليين في مليبار » مع ترجمة برتغالية للنص العربي ودراسة طويلة في مقدمة الكتاب ، الجمعية الجغرافية في لشبونة ، لشبونة ١٦٩٨ .
٤٨ — الواسعي ، عبد الواسع بن يحيي الواسعي .
تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن ، القاهرة ، المطبعة السلفية ومكتبتها ، ١٣٤٦ هـ (١٩٢٨ م) .

(د) الكتب الأفرنجية

٤٩ — Alderson, A. D. : The Structure of the Ottoman Dynasty, Oxford, Clarendon Press, 1956.

٥٠ — Alvarez. Father Francisco : (a Portuguese) Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia During the year 1520— 1527., Translated and Edited by Lord Stanley of Alderly, London, Hakluyt Society, 1891 ,

٥١ — Berreby, J.J. : La Péninsule Arabique, Paris, Payot, 1958.

Birdwood, George : Report on the Old Secords of the India Office, with supplementary note and appendices, London, Second Reprint, W.H. Allen & Co. Limited, 1891. — ٠٢

Castanhoso, M. : (a Portuguese) The Portuguese Expedition to Abyssinia in 1541—1543 : as narrated by Castanhoso with some contemporary letters, the short account of Bermudez ; and certain Extracts from Correa, Translated and Edited by R. S. Whiteway, London, Hekluyt Society, 1902 — ٠٣

Creasy, E. S. : History of the Ottoman Turks ; from the beginning of their Empire, to the present time, London, Richard Bentley and Son, 1877. — ٠٤

Crichton, Andrew : History of Arabia, Ancient and Modern, Vol' 11., Edinburgh, Oliver & Boyd, 1834. — ٠٥

Dames. M. Longworth ; The Portuguese and Turks in the Indian Ocean in the sixteenth Century ; Journal of the Royal Asiatic Society, Part 1., January 1921, London. — ٠٦

Duarto Barbosa : (a Portuguese) : A Description of the Coasts of East Africa and Malabar in the beginning of the Sixteen Century, translated by Henry E. J. Stanley, London, Hakluyt Society, 1866. — ٠٧

Guillain, M. : Documents sur l'Histoire, la Gèographie et le Commerce de l'Afrique Orientale, première partie, Paris, Arthus Bertrand, 1856. — ٠٨

Haji Khalifeh : The History of the Maritime Wars of the Turks, translated from the Turkish of Haji Khalifeh by James Mitchell London, A. J Valpy, 1831. — ٠٩

Hammer, J. : Histoire de l'Empire Ottoman, depuis son origine jusqu'à nos jours; Tomes 5, 6, 9, 17, Paris Bellizard Barthes, Dufour et Lowell, 1836. — ١٠

Kammerer, Albert : La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquité, tomes 1, 11. Le Caire, la Société Royale de Géographie d'Egypte, 1. Edit., 1929. — ١١

Knolles, Richard : The Turkish History, from the Original of that Nation to the Growth of the Ottoman Empire, Vol. I. London' Robert Glavell the Sixth Edition, 1667. — ١٢

Lane Poole, Stanley : Turkey, Fifth Impression, London T. Fisher Unwin, 1908. — ١٣

Lybyer, A.H. : The Government of the Ottoman Empire in — ٦٤
time of Suleiman the Magnificent, London, Henry Frowde, 1913

Mohamed Said El Attar : Le Sous-Développement Economi- — ٦٥
que et Social du Yémen, Perspectives de la Révolution Yémé-
nite, Alger. Edition du Tiers-Monde, 1964.

Niebuhr, Carsten : Deseription de l'Arabie, faite sur des — ٦٦
observations propres et des avis recueillis dans les lieux mêmes,
Amsierdam, S. J, Baalde 1774.

Panikkar, K. M. : Asia and Western Dominance ; A Survey — ٦٧
of Vasco de Gama Epock of Asian History, 1489-1945, London
George Allen and Unwid Ltd. 1955.

Prestage, Edgar : The Portuguese Pioneers, London, A. and — ٦٨
C. Black Ltd. 1933.

Ross, E. Denieon : The Portuguese in India and Arabia — ٦٩
between 150:-1517, Journal of the Royal Asiatic Society, Part
IV; October 1921; London.

Ross, E. Denison : The Portuguese in India and Arabia — ٧٠
between 1517-1538, J.R A.S. Part I, January 1922 London

Serjceant, R. B : The Portuguese of the South Arabian — ٧١
Coast ; Hadrami Chronicles with Yemeni and Europen Accounts.
of Dutch Pirates off Mocha in 17th Century, Oxford, Claren-
don Press, 1963.

Sidi Ali Reis : The Travels and Adventures of the Turkish — ٧٢
Admiral : Sidi Ali Reis : in India. Afghanistan. Central Asia
and Persia. during the years 1553-1556, translated from the
Turkish, with Notes, by A. Vambery, London, Luzac and Co.,
1899.

Stephens, H. Morse : Portugal, London, T. Fisher Unwin, — ٧٣
3 Edition, 1891.

Stripling; G. W. F. ; The Ottoman Turks and the Arabs — ٧٤
1511-1574, U.S.A., Urpana, University of Illinois Press, 1942.

Tritton, A.S. : The Rise of the Imams of Sanaa, Humphrey — ٧٥
Milford, Oxford University Press, 1925.

Wilson, Arnoid T. : The Persian Guif; an Historical sketch — ٧٦
from the earliest times to tke beginning ef the Twentieth
Century, London, George Allen and Unwin Ltd., Second Im-
pression. 1945

الكشـــاف العـــام

ـ ت ـ

ـ ح ـ

ـ ذ ـ

ـ س ـ

ـ ش ـ

ـ ص ـ

ـ ض ـ

ـ ط ـ

ـ ظ ـ

ـ ع ـ

ـ ك ـ

ـ ل ـ

- و -

- ى -

فهـــرس



توزيع

دار الأمين

للنشر والتوزيع

٨ شارع أبو المعالى (خلف المعهد البريطانى) العجوزة ت/فاكس ٣٤٧٣٦٩١

١ ش سوهاج من ش الزقازيق خلف قاعة سيد درويش - الهرم ت/فاكس ٥٦٣٤٦٩٩